

نقد نقد العقل العربي

جورج طرابيشي

وحدة العقل العربي الاسلامي



دار

وحدة العقل
العربي الاسلامي

كتب صادرة للمؤلف

- نظرية العقل: نقد نقد العقل العربي (١)، (طبعة ثانية)، دار الساقي، ١٩٩٩.
- إشكاليات العقل العربي: نقد نقد العقل العربي (٢)، دار الساقي، ١٩٩٨.
- من النهضة إلى الردة، دار الساقي، ٢٠٠٠.
- مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام، دار الساقي، ١٩٩٨.
- في ثقافة الديموقراطية، دار الطليعة، ١٩٩٨.
- الروائي ويطله: مقارنة للاشعور في الرواية العربية، دار الآداب، ١٩٩٥.
- ملبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي، ١٩٩٣.
- المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي، دار الريس، ١٩٩١.
- معجم الفلاسفة، (طبعة ثانية)، دار الطليعة، ١٩٩٧.
- أنثى ضد الأنوثة، دراسة في أدب نوال السعداوي على ضوء التحليل النفسي، (طبعة ثانية)، دار الطليعة، ١٩٩٥.
- الرجولة وأيديولوجيا الرجولة في الرواية العربية، دار الطليعة، ١٩٨٣.
- عقدة أوديب في الرواية العربية، (طبعة ثانية)، دار الطليعة، ١٩٨٧.
- الدولة القطرية والنظرية القومية، دار الطليعة، ١٩٨٢.
- رمزية المرأة في الرواية العربية، (طبعة ثانية)، دار الطليعة، ١٩٨٧.
- الأدب من الداخل، (طبعة ثانية)، دار الطليعة، ١٩٨١.
- شرق وغرب، رجولة وأنوثة، (طبعة رابعة)، دار الطليعة، ١٩٩٧.
- الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية، (طبعة رابعة)، دار الطليعة، ١٩٨٨.
- لعبة الحلم والواقع: دراسة في أدب توفيق الحكيم، (طبعة ثانية)، دار الطليعة، ١٩٧٩.

باللغة الانكليزية:

- *Woman Against Her Sex: A Critique of Nawal El-Saadawi*, Saqi Books, 1989.

نقد نقد العقل العربي

جورج طرابيشي

وحدة العقل العربي الاسلامي



الدار

© دار الساقى
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 553 8

دار الساقى
بنابة تاربت، شارع أمين منيمية (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 25 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

المحتويات

إهداء بمشابة مقدمة	٩
١ - ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية	١١
- الملف الاستشراقي للفلسفة المشرقية	١٤
- الفلسفة المشرقية والفلسفة المشائية	٢٧
- مشرقيون ومغربيون	٤٠
- قرضية س، بينس	٤٣
- المنافسة الموهومة بين العراق وخراسان	٥٠
- عصية ابن سينا المشرقية؟	٥٨
- إزاحة تاريخية	٦٢
- أشباح وأشباه	٦٤
- حقيقة المدرستين السجستانيّة والسينوية	٦٩
- العقل والنفس: نظرية المعرفة للعصر الرسيط	٧٣
- الارتهان للترجمة	٧٦
- الخلاف بين الشراح ومع الشراح	٧٨
- نظرية النفس	٨٢
- إشكالية العقل الفعّال	٩١

- ٩٨ - الاستمولوجيا والجغرافيا
- ١٠٠ - المحكمة الشرقية : لغز بلا لغز
- ١٠٦ - المشرقيون والمنطق
- ١١٢ - أسئلة حول كتاب «الإنصاف» الضائع
- ١١٥ - الهوية الحقيقية للاموتبي بغداد
- ١٢١ - استطراد حول «التعليقات»
- ١٢٤ - من نقد العقل العربي إلى نقد العقل المشرقي
- ١٢٧ ٢ - ابن طفيل : مؤرخ يؤس الفلسفة في الأندلس
- ١٢٧ - السمعة الأندلسية لابن سينا:
- ١٢٨ موقف ابن سبين
- ١٣١ موقف ابن رشد
- ١٤٠ أعصية مغربية أم عصية جابرية؟
- ١٤٤ شهادة ابن الإمام
- ١٥٣ - ابن طفيل وتاريخ قمع الفلسفة في الأندلس
- ١٦٤ من الانفتاح الرحماني إلى الانغلاق الناصري
- ١٦٧ من التسبب الطوائفي إلى الردة المرابطية
- ١٧١ من الانقلاب الثقافي الموحددي إلى الانقلاب المضاد
- ١٨٤ - العوامل الرئيسية والثانوية لبؤس الوضعية الفلسفية في الأندلس
- ١٩٥ ٣ - ابن طفيل : مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية
- ٢٠١ - ابن طفيل والفارابي
- ٢٠٥ - ابن طفيل وابن باجة
- ٢١٠ - ابن طفيل والغزالي
- ٢١٩ - ابن طفيل وابن سينا
- ٢٣٠ - طبيعيات ما دون القمر

- ٢٣٦ - ميثافيزيقا ما فوق القمر
- ٢٣٨ ابن طفيل متكلماً
- ٢٤٣ ابن طفيل متصوفاً
- ٢٤٧ الإيقاع السباعي
- ٢٤٩ هجاء العقل البرهاني
- ٢٥١ شبهة الاتحاد
- ٢٥٢ - التقنية التصوفية والعودة إلى أسطورة فلسفة ابن سينا المشرقية
- ٢٥٥ - وثنية ابن سينا؟
- ٢٥٧ - ابن رشد والفلسفة المشرقية
- ٢٦٤ - دليل ألوهية الكواكب؟
- ٢٧٣ - إنكار النبوة؟
- ٢٨٦ - العلم الصاعد والشرعية النازلة
- ٢٩٥ ٤ - ابن مضاء القرطبي: انتفاضة لاهوتية على المنطق النحوي
- ٣٠٢ - الغزالي بين المرابطين والموحدين
- ٣٠٥ - النحو كعلم خادم للدين
- ٣٠٦ - نظرية العامل
- ٣٠٧ - حول مقولة الفاعل
- ٣٠٩ - حول العوامل المقدرة
- ٣١٠ - إقالة المنطق النحوي
- ٣١٢ - الأدورات «المشرقية» لانتفاضة ابن مضاء
- ٣١٥ ٥ - الشاطبي: شافعي عصر الاندثار
- ٣١٦ - التضحيم الاستمولوجي للشاطبي
- ٣٢١ - نقد ابن حزم والمذهب الظاهري
- ٣٢٨ - نقد ابن رشد

- الشاطبي ومنطق المقدمتين ٣٣١
- سيبويه ضد أرسطو ٣٣٨
- الاستقراء بين ابن حزم والشاطبي ٣٤١
- الغزالي و «شرعنة» الاستقراء ٣٤٤
- الاستقراء البرهاني والاستقراء البياني ٣٤٧
- عدم استقلال العقل ٣٥٢
- المشروع الاعتصامي للشاطبي ٣٥٦
- شريعة أمية لأمة أمية ؟ ٣٥٩
- إحياء . . . وإماتة ٣٦٥
- التوفيق بين البيان والعرفان ٣٧٢
- جنالوجيا نظرية المقاصد ٣٧٤
- «مقصد الشرع» كمفهوم تراكمي ٣٨٢
- نظرية المقاصد ومشروع التحديث الفقهي ٣٨٨
- المعقولية المقاصدية ومقولة السببية ٣٩٥
- حول «القطيعة الاستمولوجية» الشاطبية ٤٠٣

إهداء بمثابة مقدمة

إلى الراحل قبل الأوان الباحث المغربي جمال الدين العلوي .
ما عرفته ، لكنني قرأته . وأعتقد أنه لو امتدّ به الأجل لكان سبق
إلى كتابة أطروحة في الدفاع عن وحدة العقل العربي الإسلامي
ضدّاً ، على فرضية «القطيعة المعرفية» ما بين المغرب والمشرق .

[١]

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

«ويعد، فقد نزعنا لهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً في ما
اختلف أهل البحث فيه، لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى
أو عادة أو ألف، ولا نبالي من مفارقة تظهر منا لما ألقه
متعلمو كتب اليونانيين إلخاً عن غفلة وقلة فهم، ولما سمع
منا في كتب ألقناها للعامة من المتفلسفة المشغوفين
بالمشائين، الظانين أن الله لم يهمل إلا إياهم، ولم يزل
رحمته مودهم، مع اعتراف منا بفضل أفضس سلفهم».

[ابن سينا: منطق المشرقيين]

ما تشبث ناقد العقل العربي قط بإزاحة فاعل من قعدة العقل العربي الإسلامي عن
موقعه في نسق معرفي للزج به، على سبيل التشهير، في نسق معرفي آخر، تشبه
بإزاحة ابن سينا من البرهان «العقلاني» إلى العرفان «اللاعقلاني».

وقد بلغ من ضروة هذه الحملة لتشهيرية على ابن سينا، ما حملنا على أن
نصفها، في موضع آخر، بأنها «ذات طابع هذائي»^(١)، وها نحن إذ نستعيد هنا الشاهد
التي تبرر توصيفنا ذلك:

- «لقد كان ابن سينا، قصد ذلك أم لم يقصد، أكبر مكرس للفكر النيبني الضلامي
الخرافي في الإسلام»^(٢).

(١) «مليحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة»، دار لساقي، بيروت ١٩٩٣، ص ١٠٩.

(٢) محمد عابد الجابري: «فنح والتراث»، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٢، ص ٢١١.

- «كان [= ابن سينا]، برغم كل ما أضفى على نفسه وما أضفى عليه من أبهة وجلال، المدّشّن القلبي لمرحلة الجمود والانحطاط»^(٣).
- «إن ابن سينا يبدو من هذه الناحية - وهي أهم من غيرها - لا ذلك الفيلسوف الذي بلغت معه العقلانية الإسلامية أوجها كما يُعتقد. بل ذلك الرجل الذي كرّس وعمل على تكريس لاعقلانية صميّة في الفكر العربي الإسلامي»^(٤).
- «لقد كرّس ابن سينا بفلسفته المشرقية اتجاهاً روحانياً غنوصياً كان له أبعد الأثر في ردة الفكر العربي الإسلامي وارتداده من عقلانيته المفتحة... إلى لاعقلانية ظلامية قاتلة»^(٥).
- «الفلسفة المشرقية السينية كانت إذًا... فلسفة قتلت العقل والمنطق في الوعي العربي لقرون طويلة»^(٦).
- «إن فلسفة ابن سينا هي فلسفة «التحطيم الذاتي» فعلاً... فلسفة عقل جعل منتهى طموحه تقديم استقالته»^(٧).
- «إن ابن سينا يتبنى الهرمسية بكاملها، بتصوفها وعلومها السرية السحرية... وفلسفته المشرقية تكرم اللاعقل بمتخلف ألوانه وأشكاله... وهو بكل تناقضاته يسجل لحظة انفجار تناقض العقل العربي مع نفسه»^(٨).
- وكما هو واضح من هذه النصوص - كما من عنوان الدراسة التي خصّ بها الجابري فكر ابن سينا^(٩) - فإن «جسم الجريمة» ووسيلة التجريم معاً «لإبراز الوجه الظلامي الغنوصي» لابن سينا، هما الفلسفة المشرقية المحلّة بشحنة هائلة من
-
- (٣) المصدر نفسه، ص ١٤١.
- (٤) المصدر نفسه.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٥٦. وهذا الحكم، الذي ورد في المدخل العام لكتاب «نحن والتراث»، يستعمله الجابري بحرفه في دراسته عن «ابن سينا وفلسفته المشرقية» («نحن والتراث»، ص ٢٢٧).
- (٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.
- (٧) «تكوين العقل العربي»، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٦٨.
- (٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٦ - ٢٦٨.
- (٩) ابن سينا وفلسفته المشرقية: حقريات في جذور الفلسفة العربية بالشرق، في: «نحن والتراث»، ص ١٢٥ - ٢٤٠.

ابن سينا: أسطورة الفسفة المشرقة

اللامعقول. فابن سينا قد «جئد نفسه»، من خلال فلسفته المشرقية، لإضفاء «المشروعية العقلية على مختلف جوانب اللامعقول التي ورثها الإسلام كحضارة وثقافة عن الحضارات والثقافات القديمة»^(١٠). ومن خلال «عملية التخريب الذاتي التي مارسها عقل ابن سينا»، كان هو الصانع الفكري لعصر الانحطاط وذلك بقدر ما «ترك فلسفته المشرقية تقدم نفسها كـ «علم» وكـ «معرفة» لايدولوجيا عصر الانحطاط»^(١١).

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إننا نجد أنفسنا هنا أمام ما يشبه «محكمة تفتيش» تستهدف أبلسة ابن سينا وإدانته بوصفه «أكبر مكرّم للفكر الغيبي الظلامي الخرافي في الإسلام». وتاماً كما في محاكم التفتيش القروسطية، فإن التهمة الرئيسية الموجهة إلى صاحب «الفلسفة المشرقية» هي السحر، وهذا بالمعنى الحقيقي للكلمة كما بمعناها الفلسفي المرادف للامعقول بكل مضامينه وتلاوينه. هكذا يقول الجابري في ختام مرافعة: «لقد جعل ابن سينا من التنجيم ولسحر والعزائم والطلسمات والرقى والتعلق بالموتى وغير ذلك من مظاهر اللامعقول، «علوماً» تجد مكانتها «الطبيعية» في منظومته «لعلمية» الفلسفة التي طلائها بطلاء أرسطوطاليسي كاذب وأخطر من ذلك وأكثر تأثيراً في توجيه الفكر العربي، هذا التوجيه الظلامي الدامس، خلال العصور الوسطى، توظيفه لـ «علوم» اللامعقول في تأويل الآيات لقرآنية التي تتحدث عم وراء الطبيعة تأويلاً جنح بها نحو روحانية دامسة أكثر تخلفاً من «الواقعية الساذجة» التي كان عليها لعرب حتى قيام الإسلام... من هنا نستطيع أن نقول إن الضربة الحقيقية التي أصابت لفلسفة وبالتالي العقلانية في الإسلام، لم تكن تلك التي تُعزى إلى لغزالي بسبب كتابه «تهافت الفلاسفة»، بل كانت تلك التي جاءت على يد «أكبر» فيلسوف في الإسلام: لشيخ الرئيس ابن سينا، وذلك من خلال مؤلفاته الصغيرة ورسائله لكثيرة العدد الواسعة الانتشار التي كانت تحمل وتنبع فلسفته المشرقية... فلسفة قتلت العقل والمنطق في لوعي العربي لقرون طويلة... وكروست الرؤية السحرية... مما جعل الظلامية تعم الفكر الشيوعي والفكر السني معاً... و [وما] كان له أبعد الأثر في ردة الفكر العربي الإسلامي، وارتداداه عن عقلانيته المتفتحة إلى لاعقلانية ظلامية قاتلة»^(١٢).

(١٠) «نحن والراث»، ص ٢٠٩.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢١١ و ٢٢٧.

الجريمة المشرقية لابن سينا قابلة إذًا، للتلخيص بعبارة واحدة: تدمير مدينة العقل في الإسلام. ومن هنا فإن العقوبة التي كان المحتّم أن يظلمها له ناقد العقل العربي، المتماهي مع دوره كمدّح عام، هي الطرد الأبدي من مدينة العقل التي يريد العرب المحدثون إعادة تشييدها: فما دمنّا «قضيّنا نحن العرب حياتنا خارج التاريخ (= في جمود وانحطاط) لأننا تمسكنا بلحظة ابن سينا»، فلنقطع إذًا مع من تسبّب لنا في هذه القطيعة مع التاريخ، أو بعبارة تقصّد ناقد العقل العربي أن تكون خطابية: «لنخضها معركة حاسمة ضدها (= السينوية)»، و «لنقطع قطيعة تامة ونهائية مع الروح السينوية المشرقية لغتوصية الظلامية»^(١٣).

الملف الاستشراقي للفلسفة المشرقية

لنتمسك بتشبيه المحاكمة: فهو يبيح لنا أن نوّكد على ضرورة حضور محامي دفاع في مواجهة المدعي العام. ولنقل حالاً إن مهمة محامي الدفاع غالباً ما تكون واحدة من اثنتين: إما تفنيد بيان الاتهام بنداً بنداً، ودليلاً دليلاً، للوصول إلى تبرئة المتهم، وإما نفي التهمة من أساسها وإثبات بطلانها دفعة واحدة، إما بدليل غياب يثبت عدم وجود المتهم في مسرح الجريمة ساعة وقوعها، وإما بدليل انتفاء يثبت عدم وقوع جريمة أصلاً (لا قتين ولا جثة، بل محض «اختفاء»). ولنصارح القارئ حالاً بأننا سنضطر ونحن نلبس دور محامي الدفاع - إلى أن نسلّك السيلين كليهما معاً. فمن جهة أولى، سنعمل على إعادة بناء الملف العقلاني «للفلسفة المشرقية» بما يبطل تورط ابن سينا في جريمة «قتل العقل والمنطق في الوعي العربي». وسنعمل من الجهة الثانية على إثبات عدم وقوع الجريمة أصلاً، اعتقاداً منا - وهذه قد تكون مفاجأة للقارئ النائب هنا مناب هيئة المحلفين - أن الفلسفة المشرقية أسطورة، خرافة، أو في أدنى الأحوال صرعة استشراقية. وبدون أن ننفي أن للفلسفة المشرقية الموهومة جذوراً تاريخية - ستكون لنا إليها عودة - فإننا نعتقد اعتقاداً راسخاً أن المستشرقين، أو غالبية منهم على الأقل، هم الذين استنبتوا من تلك الجذور شجرة، وهم الذين استزرعوا من الشجرة غابة.

لقد نشأ الإشكال، أول ما نشأ، كصعوبة ثغوية اعترضت سبيل أوائل المستشرقين. فمعلوم أن قصة ابن طفيّس الفلسفية المعنونة «حي بن يقظان» قصة ذاع صيتها وانتشرت في أوروبا انتشاراً واسعاً، فترجمت إلى اللاتينية والإنكليزية والألمانية والهولندية تحت

ابن سينا. أسطورة الفلسفة المشرقية

عناوين مختلفة قد لا تخلو من التعسف أحياناً، في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السابع عشر وطوال القرن الثامن عشر^(١٤). والحال، أن ابن طفيل كان افتتح قصته بالقول: «سألت أيها الأخ الكريم الصفي الحسيم - منحك الله البقاء الأبدي وأسعدك السعد السرمدي - أن أثبت إليك ما أمكنتني به من أسرار الحكمة المشرقية لتي ذكرها الشيخ الإمام لرئيس أبو علي بن سينا. فاعلم أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها»^(١٥). وقد اختار بوكوك الابن (١٦٤٨ - ١٧٢٧)، مترجم القصة إلى اللاتينية، أن يترجم لفظ «مشرقية» بمعنى «شرقية» (Orientali) تقديرأ منه بأنها تحيل إلى فلسفة الهند. وقد قال بصدد ذلك: «من الصعب علينا أن نحدد الغرض الذي قصده [ابن سينا] في هذا الكتاب. ولكن يظهر أنه بحث فيه فلسفة الشرقيين أي الهنود، وقارنهم بتعاليم المشائين. والذي يجعلنا نفترض هذا الغرض هو أن أبا الريحان البيروني، وكان معاصراً له، دخل بلاد الهند ودرس فلسفتها من جهة، ومن جهة أخرى علم الفلسفة اليونانية بشهادة أبي الفرج»^(١٦).

وقد درج سائر المترجمين الأوروبيين لقصة ابن طفيل، على مجازة بوكوك الابن في تأويله، إلى أن تصدى لتفنيد - بعد مرور قرن كامل من الزمن - مستشرق ألماني هو ل. توك. ففي أصدوحة له صادرة عام ١٨٢٦ تحت عنوان «مذهب التثليث النظري في العصور المتأخرة في الشرق»، نفى التفسير الشرقي الهندي لفلسفة ابن سينا الموسومة بالمشرقية، وأكد على أنها لا يمكن أن تعني شيئاً آخر سوى «حكمة الإشراق» التي قال فيها بعض المتصوفة المسلمين، بالتواصل مع الأفلاطونية المحدثة، وبالإحالة إلى ما كان الإغريق أنفسهم يسمونه «الحكمة الكلدانية». وفي عام ١٨٣٥ تدخل المستشرق أ. ب. بوزي - تخلصاً بدا في حينه حاسماً - ليؤيد التأويل «الإشراقي» للفلسفة المشرقية بالاستشهاد بالفقرة المتعلقة بـ «حكمة الإشراق» من كتاب حاجي خليفة «كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون» الذي لم يكن قد طبع بعد. و «سرعان

(١٤) كرلو آفونسو نكينو: «محاولة المسلمين لإيجاد فلسفة شرقية»، في: «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»، ترجمة عبد الرحمن بلوي، طبعة وكالة المطبوعات الكويتية ودار القلم اللبنانية (مصر)، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(١٥) «حي بن يقظان» لابن سينا وابن طفيل السهروردي، تحقيق أحمد أمين، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٥٢.

(١٦) «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»، مصدر أنف الذكر، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

ما أصبح القول بأن الفلسفة المشرقية هي حكمة الإشراق، بوعاً من لحقائق المسلم بها من الجميع عند الباحثين». وبعد نحو ربع قرن تدخل المستشرق الكبير ص. مونت في كتابه «أمشاج من الفلسفة اليهودية والعربية» ليؤيد المرادفة بين حكمة الإشراق والفلسفة المشرقية، وليلاحظ في الوقت نفسه علاقة اشتقاقية مباشرة بين الشرق والمشرق والإشراق، وليقيم تمييزاً ما بين الفلسفة اليونانية بطبعتها المشاقفة و«المذاهب الشرقية» التي خالطتها من خلال مدرسة الإسكندرية الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة. وكان تطوّر جديد عندما أقدم المستشرق الفرنسي دي سلان سنة ١٨٦٨ على ترجمة مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية. فابن خلدون، الذي يتحدث عن ابن سينا بدون أن يأتي بذكر الفلسفة المشرقية المعزوة إليه، يتحدث بالمقابل، في الفصل المخصص لعلم الإلهيات، عن عميد علماء الكلام المتأخرين فخر الدين الرازي وكتابه المسمى «المباحث المشرقية». وإسحال، أن دي سلان عندما ترجم عنوان هذا الكتاب قال (Mebaheth Mochrikiya)، أي إنه قرأ مَشْرِيقية على أنها مَشْرِقية. وفي وقت لاحق تصدى المستشرق الهولندي راينهاردت دوزي لهذا التأويل الاشتقاقي، ورفض في كتابه «ملحق المعاجم العربية» المطبوع سنة ١٨٨١ في لندن قراءة دي سلان، وإن وافقه على المرادفة بين «المشرقية» و«الإشراقية». ويبدو أن المستشرق الفرنسي دارنبور أراد التخلص من هذا الإشكال اللفظي، فعمد في فهرسه للمخطوطات العربية بالاسكوريال (باريس ١٨٨٤) إلى ترجمة لفظ «مشرقي» و«إشراقي» على حد سواء بـ «روحاني» (Spiritualiste). وهكذا سمي كتاب الفخر الرازي بـ «المباحث الروحانية»، وسمى قصته «حي بن يقظان»، بالإحالة إلى ما جاء في مقدمة ابن طفيل، «أسرار الحكمة الروحانية».

ولكن ما كان مقتصراً حتى ذلك الحين على خلاف بين المستشرقين حول ترجمة عنوان كتاب ابن سينا الضائع عن «الحكمة المشرقية»، وجد في شخص المستشرق البلجيكي أ. ف. مهران من يعممه ليطلقه على جملة المؤلفات الصغيرة والرسائل الصوفية المنسوبة إلى ابن سينا عندما نشرها، في أربعة كراسات صدرت بليدن في ١٨٨٩ - ١٨٩٩، بنصها العربي، مع تحليل لمضمونها بالفرنسية، تحت عنوان عام هو: «رسائل في أسرار الحكمة المشرقية». وقد ذهب إلى هذا المذهب المستشرق المجري الكبير غولديزهر عندما نشر في عام ١٩٠٩ دراسة عن «الفلسفة الإسلامية واليهودية» ميّز فيها بين كتب ابن سينا الأرسطوطاليسية، و«رسائله الصوفية التي يحتمل

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

أن تكون جزءاً من الحكمة المشرقية (أي الشرقية)، وهي التي يشير إليها باعتبارها تكملة لفلسفته^(١٧).

وفي الوقت نفسه، أعاد المستشرقون لفرنسيون في مطلع القرن إحياء قراءة دي سنان للفظ «مشرقية». وهذا ما فعله كارا دي فو في كتابه عن ابن سينا الصادر عام ١٩٠٠، حيث أصر على المرادفة بين «مشرق» و «إشراقي»، وبالتالي على شجب المرادفة بين «مشرقية» و «شرقية». وقد قال إن خطأ قراءة «مشرقية» بفتح الميم بمعنى «شرقية» يرجع إلى «بعض تلاميذ ابن سينا الذين أرادوا أن ينحرفوا بمذهبه في اتجاه الوثنية الكلدانية أو الصوفية الهندية». وفي مقال لاحق له ظهر عام ١٩٠٢ تحت عنوان: «حكمة الإشراق عند السهروردي المقتول»، لخص النتائج التي أوصله إليها بحته بقوله: «لقد قلنا إن فلسفة ابن سينا، وعلى وجه التخصيص ميتافيزيقاه وتصوفه، لا تختلف مطلقاً عن مذهب الإشراق، اللهم إلا في التسمية فحسب. وعلى هذا النحو يستطيع المرء أن يفسر ما نُسب إليه من أن هذا الرجل العظيم كان في جوهره من أنصار حكمة الإشراق، من دون أن يكون المرء في حاجة إلى اللجوء إلى الفرض المؤلم، فرض عدم الإخلاص [لمذهبه]»^(١٨).

ومع أن المستشرق الفرنسي ليون غوتيه قرأ «مشرقية» بفتح الميم، في كتابه عن «الفلسفة المسلمة» الصادر عام ١٩٠٠، إلا أنه تراجع عن موقفه وقرأها بدوره بضم الميم (Mochriqiyya) في كتابه عن «ابن طفيل، حياته ومؤلفاته» الصادر عام ١٩٠٩، مرادفاً بينها وبين «إشراقية» (Illuminative)، ومقترحاً في الوقت نفسه إطلاق صفة «المشرقية» بفتح الميم، ومعنى «الشرقية»، على الصوفية الفارسية والهندية حصراً من دون «حكمة الإشراق» التي تظل بطبيعتها الفلسفية أقرب إلى الأفلاطونية المحدثة «العربية»^(١٩).

وفي عام ١٩١٢، انتصر المستشرق الألماني ماكس هورتن بدوره في كتابه عن «علم الكلام النظري والوضعي في الإسلام» لقراءة «مشرقية» بضم الميم، معتمداً على الحجج التي قدمها المستشرق بريم لكي يثبت جواز مثل هذه القراءة من الناحية الفيلولوجية.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٦١.

(١٩) ليون غوتيه: *Ibn Thofail, Sa vie, Ses Œuvres* منشورات إرنست لورو، باريس ١٩٠٩، ص ٦٠ - ٦١.

وقد تأول الحكمة المشرقية على أنها محاولة من ابن سينا، الذي كان عميق العاطفة الدينية في رأيه، لكي «يطبع فلسفة أرسطو ذات الطابع لوثنى بطابع إسلامي». وفي تعليق له، على هامش ترجمته الموجزة عام ١٩١٣ لكتاب ابن رشد «تهافت التهافت»، يقول: «هذه الفلسفة المشرقية ترمي إذاً إلى معرفة الله عن طريق الوجدان والدوق، في مقابل الفلسفة الدقيقة التي تستخدم البرهان وتسير على منهج استدلالي. فهي تقول إن الحقيقة شيء «يشرق» للعقل، فهي «مشرقة». وعلى هذا النحو يشرق الله للصوفي، فهو مشرق. ومن يستخدم هذا اللفظ للدلالة على مذهبه «مشرقي»، أي صوفي، أو فيلسوف الإشراق في مقابل الفيلسوف الذي يستخدم طريق البرهان»^(٢٠).

ولم يلبث المستشرق الإسباني الكبير آسين بلاثيوس أن انتصر هو الآخر لقراءة «مشرقية» بضم الميم، وذلك في كتابه الصادر في مدريد عام ١٩١٤ عن «ابن مسرة وفلسفته: نشأة الفلسفة الإسبانية الإسلامية». ويعدّه بستين، وصف المستشرق الفرنسي كليمان هيوار في مادة «حكمة» في «دائرة المعارف الإسلامية» حكمة الإشراق بأنها نزعة أفلاطونية محدثة، وهي عينها «الفلسفة المشرقية» التي «كانت موجودة أيام ابن سينا الذي كتب مؤلفاً عنوانه «الحكمة المشرقية»، وكان لها حينذاك طابع سري فقدته منذ ذلك الحين». وفي «دائرة المعارف الإسلامية» أيضاً، ولكن في مادة «إشراقيون» هذه المرة، أكد المؤرخ المميز للفلسفة الإسلامية ت. دي بور، أن «الإشراقيين هم أتباع حكمة الإشراق أو الحكمة المشرقية (أما مشرقية فمعناها = شرقية). ويطلق هذا اللفظ على وجه التخصيص للدلالة على تلاميذ السهروردي. ولكن الاسم والمذهب أقدم عهداً».

وفي عام ١٩٢٥، تدخل الإيطالي ك. أ. نليو - «زعيم المستشرقين المعاصرين» كما يسميه ع. بدوي - ليحسم الجدل الدائر في اثنتين من نقاط تقاطعه. ففي مقال بعنوان «حكمة ابن سينا الشرقية أو الإشرقية» - وهو عينه الذي ترجمه بدوي بعنوان: «محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية» - تصدى نليو للإجابة عن سؤالين: هل فلسفة ابن سينا «الضائعة» مشرقية أم مشرقية؟ وهل هذه الفلسفة المشرقية شرقية أم إشراقية؟ وفي ما يتعلق بالسؤال الأول، كان سهلاً على نليو أن يثبت أن قراءة «مشرقية» بضم الميم، قراءة غالطة لأنها تتنافى مع الطبيعة الفيلولوجية للغة العربية التي تأبى زيادة ياء النسبة إلى آخر اسم الفاعل إلا إذا كان علماً، كما في قولنا «مستظهري» نسبة إلى

(٢٠) «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»، مصدر سابق، ص ٢٦٥.

ابن سينا . أسطورة الفلاسفة المشرقية

الخليفة المستظهر أو «قادري» نسبة إلى الخليفة القادر ، أو إلّا إذا كان دالاً على انتماء جمعي كما في قولك «معتزلي» أو «بطني». والحال، أنه لم توجد في التاريخ المعلوم فرقة أو طائفة عُرفت باسم المشرقة لينسب إليها «المُشرقي» بصيغة المفرد.

ولكن لئن أسقط نلينو بسهولة هذه القراءة الشاذة، فقد كان أصعب عليه بما لا يُقاس أن يخرق شبه الإجماع المنعقد في أوساط الاستشراق ليؤكد أن فلسفة ابن سينا «الصوفية» لا تمتّ بصلّة إلى حكمة الإشراق. فعنده أن حكمة الإشراق كما تمثلت في مذهب السهروردي المقتول، «تختلف اختلافاً جوهرياً عن فلسفة الفارابي وابن سينا». وصحيح أن الأفلاطونية المحدثة تُعتبر من قبل بعض الدارسين قاسماً مشتركاً بين تلك الحكمة وهذه الفلسفة، ولكن هذه الأفلاطونية المحدثة، الواضحة الأثر في هذه كما في تلك، ليست هي نفسها واحدة. فعلى العكس من فلسفة الفارابي وابن سينا، فإن «حكمة الإشراق لا تستقيها من ينابيعها الصافية لدى رؤساء المدرسة الأفلاطونية المحدثة الإسكندرانيين، وإنما تأخذها من ميتافيزيقا النور المتأخرة التي هي خليط من التقاليد الغنوصية القديمة والعلوم المستورة، والتي حفظ عليها ونماها صبئة حوران حتى بعد غزو المسلمين لبلاد فارس». أضف إلى ذلك أن هذه الميتافيزيقا الغنوصية النورية قد خلطت من قبل السهروردي بعناصر ذات طابع إيراني خالص مأخوذة من الديانة الزرادشتية. وعلى هذا النحو أصبح هرمس وأغاذيمون واسقليبيرس وفيثاغورس، وغيرهم من الشخصيات التي تُعتبر حجة في كتب العلوم المستورة، الرؤساء المزعومين لحكمة الإشراق، هم وجاماسب وبزرجمهر وغيرهما من الحكماء الخرافيين في فارس القديمة، والاختلاف بينها وبين أفكار ابن سينا المنشورة والمستورة واضح وضوحاً كبيراً إلى درجة أن عمى الباحثين الكبار في هذا الصدد لا بد من أن يكون راجعاً إلى تأثير الأفكار القديمة القائلة باتفاق حكمة بن سينا المشرقية المجهولة مع حكمة الإشراق».

ولم يكتفِ نلينو بنفسه الجسور بين حكمة الإشراق والفلسفة المشرقية، بل حاول أن يخطو خطوة إيجابية إلى الأمام عندما اقترح في نهاية مقاله، بعد الاستشهاد بنص طويل لابن سينا يُعرف باسم منطق المشرقيين، تأويل حكمة ابن سينا الضائعة أو المستورة على أنها لا تعدو أن تكون محاولة للتحلل من قيود المشائية اليونانية، ولتقديم مساهمة شخصية متمايضة عن الموروث الأرسطي، أو حتى لمعارضته بـ «طرق المشرقيين» من موقع منطقي وفلسفي صرف وبدون سقوط في أية «مذاهب صوفية

مستورة». ولكن نظراً إلى ضياع مخطوطة «الحكمة المشرقية»، فإن نلينو يمتنع عن تقديم تحليل مضموني لطبيعة القراءة الاختلافية التي يؤكد أن ابن سينا قد حاولها في كتابه الضائع، ولكنه يتكهن بأنه «من المحتمل كثيراً أن يكون اختلاف الحكمة المشرقية عن كتب ابن سينا الأخرى ذات الطابع المشائي، اختلافاً في طريقة العرض وتوزيع المواد أكثر من أن يكون اختلافاً في المضمون والجوهر»^(٢١). الشيء الذي يعني - إذا صح - أن ابن سينا بقي، حتى وهو يحاول تخطي المشائية، مشائياً.

لقد خُيل على هذا النحو لنلينو أنه حسم النقاش وأغلق ملف قضية الحكمة المشرقية. ولا شك في أن مقالة نلينو أسهمت إلى حدٍ غير قليل في عقلنة الجدل الذي كان لا يزال دائراً إلى حينه في أوساط المستشرقين حول تلك القضية. ولكنها لم تغنق، وما كان لها أن تغلق الملف ما دامت لم تجب عن سؤال جوهرى: لماذا سمى ابن سينا فلسفته المشرقية هذا الاسم؟ وإذا لم تكن هذه الفلسفة إشرافية، فما معنى أن تكون مشرقية، ولا سيما أن نلينو - بعد إسقاطه قراءة «مُشرقية» - قد أبقى هو نفسه الباب مفتوحاً أمام قراءتين: مشرقية بكسر الراء ومُشرقية بفتحها؟

فضلاً عن هذا ابواب الذي تركه نلينو منفرجاً، فإن الحل العقلاني الذي اقترحه لقضية الحكمة المشرقية قد تسبب هو نفسه على ما يبدو، من قبيل رد الفعل، في اندياح موجة جديدة من اللاعقلانية في الأوساط الاستشراقية في التعاطي مع «أسرار الحكمة المشرقية». إذ إن نصف الجسور ما بين الفلسفة المشرقية وحكمة الإشراف قد استثار تصميمياً على إعادة بنائها، ولو عن طريق ركوب مركب الغلو الذي لا يضبطه ضابط معرفي أو منهجي. وقد تجلّى ردّ الفعل هذا بأكثر أشكاله تطرفاً لدى الأوساط الكهنوتية والروحانية والتيوصوفية من الاستشراق الفرنسي. فلويس غارديه نُشر سلسلة مطولة من الدراسات عن ابن سينا ثم أصدرها مجموعة في كتاب نُشر عام ١٩٥١ تحت هذا العنوان الدال: «فكر ابن سينا الديني». وبرغم اعتراف ل. غارديه بأن مشكلة «الفلسفة المشرقية» عسيرة ومعقدة، فإنه يرى أنها غير قابلة للحل - هذا إذا حُلّت ذات يوم - إلاّ على ضوء «جميع المعاني المجازية والصوفية التي كان ينطوي عليها لفظ «الشرق» [أو المشرق] بالنسبة إلى الوسط الذي كان يعيش فيه ابن سينا. أفلا نقرأ في شرحه سورة النور، أن المشرق هو المكان الذي يكون منه مطلع النور؟ ألا تعلمنا رسالته عن «حي

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٧٠ - ٢٨٩.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

بن يقظان» بصريح العبارة، أن المغرب هو مكان الظلمات والجذب واليهول، وأنه إنما في المشرق يتواجد عالم المعقولات: فهو مقام لنفس البشرية أولاً، ثم مقام الملائكة الأرضية والجن، ثم المعقولات لمجردة، ثم العقل الأول، وأخيراً المبدأ الأول؟ إننا نلتقي هنا شتراك المعنى الذي يطوي عليه جذر «ش ر ق» حيث يرمز الشرق الجغرافي إلى إشراق الأذهان... وعليه لن نتردد في القول إن مشروع «حكمة مشرقية» لدى ابن سينا ما كان له إلا أن يحثه [في آخر حياته] على استلهاهم أفلاطون وأرسطو التيلوجيا المنحول (أي أفلوطين)، وهذا بغرض تطوير اجتهادات أكثر أصالة، ولكن ليس في اتجاه «العقلنة»، بل في اتجاه غوص عقلي لمنزع»^(٢٢).

وفي عام ١٩٥٢ رمى لويس ماسينيون - وكان سبق له أن ترجم «منطق المشرقيين» إلى الفرنسية - بكل ثقله في المعركة ليؤكد في مقال شديد الاقتضاب، ولكن أيضاً شديد القطع، أن ابن سينا إنما حاول من خلال فلسفته المشرقية التوفيق بين الفلسفة اليونانية والحكمة السامية التقليدية^(٢٣). وقد بنى ماسينيون حكمه هذا على تحليل «للأبجدية الفلسفية» التي ادعى أن ابن سينا اعتمدها في رسالته النيروزية، مؤكداً على غنوصية ابن سينا وضموعه في علم الجفر «الإسماعيلي». وقد ففز المستشرق الكبير، في مدعاه هذا، على واقعتين أساسيتين: أولاً أن الرسالة النيروزية (في عدم الجفر) متحولة على بن سينا (وما أكثر ما نحل عليه من رسائل مشابهة!)، وثانياً أن ابن سينا نفسه لم يكن «سامياً» لا بالمعنى الإثني ولا بالمعنى اللغوي لهذا الوصف.

وفي عام ١٩٥٢ أيضاً، أصدر هنري كوريان، من طهران، ترجمة فرنسية لنص «حي بن يقظان» و «رسالة الطير» ونصوص «مشرقية» أخرى لابن سينا، في إطار دراسة شاملة أطلق عليها هذا العنوان الدال: «ابن سينا والسرد الرويوي». ومن الممكن أن نعتبر هذه الدراسة، التي تعمدت ألا تلتزم بالمنهج التاريخي، أكبر محاولة في نوعها لفحوصة ابن سينا. وقد عقد كوريان في هذه الدراسة، التي أعيد طبعها مراراً وترجمت إلى الإنكليزية، فصلاً ختامياً استعرض فيه «الأبحاث الجديدة حول فلسفة ابن سينا المشرقية

(٢٢) لويس غاردييه: «فكر ابن سينا الديني» (*La Pensée Religieuse D'Avicenne*)، منشورات مكتبة فران الفلسفية، باريس ١٩٥١، ص ٢٥ - ٢٧.

(٢٣) ل. ماسينيون: «فلسفة ابن سينا المشرقية وأبعده الفلسفية»، في: «الأعمال الصغرى» (*Opera Minora*)، تصنيف الأب يواكيم مبارك، المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس ١٩٦٩، م ٢، ص ٥٩١.

وانتهى إلى رفض «المعنى الطبوغرافي» لمفهوم «المشرق»، أو على الأقل عدم الاكتفاء به، ليطمسك بالمقابل بمعنى مفارق، متعالٍ، تآلهي، وعلى حد تعبير عنوان دراسته: «رؤيوي». وفي ردٍّ مباشر على نلينو يقول: «إنه لا يكفي أن يكون المرء مشرقياً بالمعنى الجغرافي والسياسي للكلمة لكي يعمل بصورة تلقائية فلسفة مشرقية». فالحكمة المشرقية تلغي قانون المكان كما قانون الزمان لتربط مثلاً، و «بلا سلسلة تاريخية سببية»، بين ابن سينا «المشرقي» في القرن الحادي عشر للميلاد، وتوما الإنجيلي المنحول صاحب «الرسائل الغنوصية» الموضوعية في أرجح الظن في مصر في القرن لثاني أو الثالث للميلاد^(٢٤). فالحكمة المشرقية هي تلك التي تستمد معانيها (= إشراق، شروق، مشرق) من «جوهر الشرق» بوصفه الفجر المشرق. فهي إذاً، «المعرفة الشارقة (Cognito Matutina)، لأنها هي المشرق بالنسبة إلى كل معرفة»^(٢٥).

على هذا المجرى جرى تلميذ كوربان كرستيان جامبيه في كتابه الذي تعمّد أن يسميه - طلباً للمفارقة - «منطق المشرقيين». فعنده أن «الفلسفة المشرقية» لو لم توجد عند ابن سينا لكان ينبغي اختراعها. فهي تروي عطش جميع الظامتين إلى الروح، أو بتعبير أدق إلى «الغنوص الإشراقي». فابن سينا هو للنفس كما كانط أو هيغل للعقل. لا النفس الفيزيكية، بل النفس المتألهة. وأكثر ما يرفضه ك. جامبيه هو أن يكون ابن سينا مجرد متابع لأرسطو وللأفلاطونيين المحدثين، أو مجرد مفكر موسوعي، أو حتى مجرد معماري لميتافيزيقا العقل. فابن سينا - وكل سلافة حكماء الإشراق من بعده - «موكول إليه رسالة أسمى هي إعطاء المؤمنين، ولو عن طريق لنظر الفلسفي، المعنى الخفي والحقيقة المستورة للوحي الإلهي». ولهذا، فإن أسوأ تأويل للفلسفة المشرقية هو اعتبارها «فلسفة مشرقيين بالمعنى الجغرافي للكلمة». وسواء أكانت الفلسفة المشرقية بحكم الضائعة أم متضمنة فعلاً في رسائل ابن سينا الرمزية والصوفية، فإن ميزتها الكبرى أنها تبقى، بخلاف ما هو تاريخي ووقوعي، مفتوحة للتأويل وإعادة الاختراع. فهي على الدوام بمثابة «نص آخر». والمعرفة التي تحيل إليها ليست معرفة

(٢٤) يعتقد كوربان صلة نسب بين حي بن يقظان، بطل ابن سينا والسهورودي وابن طفيل، وبين بطل «الرسائل الغنوصية» الأمير الفتى «المشرقي» الذي «غزّيه» أهله إلى مصر ليفوز - «الثرة البتيمة»، والذي تجرد عند هودته إلى مسقط رأسه من ملابسه الدنيوية «المشرقية» ليعاود ارتداء ثوبه التوراني «المشرقي».

(٢٥) هنري كوربان: «ابن سينا والسرد الرؤيوي» (Avicenne et le Récit Visionnaire)، منشورات برغ الدولية، باريس ١٩٧٩، ص ٤٧. وانظر كذلك ص ١٧٢ وص ٢٩٢ - ٣٠١.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

علمية أو موضوعية، بل هي - على حد تعبير سبينوزا - «معرفة من النوع الثالث». فما هي علم بالوجود، شأنها شأن الفلسفة العادية، بل هي علم بالأشكال العليا للوجود. ويصفها فلسفة فوق الفلسفة، فإن معيار التاريخية لا يسري عليها. والفلسفة «يفسرها على كل حال حاضرها، لا ماضيها». وعن ثم، ليس المهم أن تكون الفلسفة المشرقية قد وجدت في التاريخ أو لم توجد، وإنما المهم أنها تلبي حاجة معاصرة. فالفلسفة المشرقية تصلح لأن تكون الفلسفة الروحية لعصر بلا روح. وحتى لو قيل إن مثل هذه القراءة للفلسفة المشرقية بعيدة وليست قبلية كما يفترض المنهج التاريخي، وبالتالي غير مطابقة للواقع الفعلي للفلسفة المشرقية عند ابن سينا نفسه، فإنها تظل هي الأخصب بما لا يقارن. فهي إذ تتنزم بمبدأ الرغبة لا بمبدأ الواقع - وهل للواقع من تعريف آخر سوى أنه مغامرة لرغبة؟ - فإنها تفتح الباب على مصراعيه «لاحتراع ابن سينا ومضاعفته»، وبالتالي لتوليد «معرفة جديدة» يذل الاكتفاء. صنيع القراءة التاريخية والعقلانية - بـ «التصديق على حقيقة قائمة من قبل»^(٢٦).

إزاء هذا «الشطح» المنفلت من كل ضابط، تصدت مستشرقة وحيدة هي أميلي ماري غواشون، لاختصاصية اللامعة في السينوية، للدفاع عن قراءة عقلانية لابن سينا ولتبيد كل ضباب الغنوص الإشراقي الذي أحيطت به فلسفته المشرقية على يد لمدرسة الكوربانية. ففضلاً على قراءة كوربان «الرؤيوية» لقصة «حي بن يقظان»، وضعت كتاباً بكامله عن «الحكاية» نغت فيه «وجود أي أثر للغنوص» فيها، وأكدت على أنها «متمحورة بتمامها على نظرية المعرفة»، وهذا بمعنى المعرفة العقلية في التقاليد الفلسفية البرهانية، ولا سيما منها التقليد الأرسطي، ورفضت أن ترى فيها «رمزاً أو كناية أو تأويلاً، أو سرداً باطنياً... أو روية وحية... أو رؤية رؤيوية». وإنما هي محض خلاصة مكثفة «لمذهب ابن سينا في المعرفة في نسيج من صور يجد معظمها أصله الواضح كل الوضوح في مؤلفاته الفلسفية والعلمية»^(٢٧). وبدون أن تنكر الوجود التاريخي لفلسفة مشرقية، فقد أصرت، في المقدمة المطولة التي كانت وضعها لترجمتها كتاب ابن سينا «الإشارات والتنبيهات»، على الطابع العلمي الصرف لهذه

(٢٦) كريستيان جاميه: «منطق المشرقيين» (*La Logique des Orientaux*)، منشورات سوي، باريس ١٩٨٣، ص ٩٦ - ٩٧. وانظر كذلك ص ٧٢ - ٧٣ وص ٢٠١ - ٢٠٣.
(٢٧) آ.م. غواشون: «حكاية حي بن يقظان» (*Le Récit de Hayy Ibn Yaqzan*)، منشورات دكلية دي بروير، باريس ١٩٥٩، ص ٩ - ١٥

الفلسفة من خلال ربطها بمدرسة جنديشابور العلمية^(٢٨). وقد غلبت في هذا التأويل - غير المسبوق إليه - إلى حد الافتراض أن تلك الفلسفة المشرقية إنما تعبر عن «التطور الذي أصابته السنيوية بفضل استثمارها لإنجازات مدرسة جنديشابور في حقل الطب والعلوم الطبيعية، مما دفع بها إلى أن تتقدم في اتجاه معرفي أقل اتصافاً بالطابع التأملي وأكثر اتصافاً بالطابع التجريبي مع تغليب ظاهر لتقنية الاستقراء ولمقولة السببية بالمعنى الحديث للكلمة»^(٢٩). وعلى هذا النحو لم تكتفِ الأنسة غواشون بتجريد الفلسفة المشرقية من رداؤها الغنوصي المزعوم، بل انتقلت من النقيض إلى النقيض لتلبسها ثوباً «علمياً»، هو بكل تأكيد أكثر ملاءمة لروح الأزمنة الحديثة، لكنه يبقى - في تقديرنا - كسابقه، زياً تنكرياً.

وختاماً، لن نستطيع، ونحن على وشك إغلاق هذا الملف لاستشراقي عن الفلسفة المشرقية، إلا أن نتوقف عند مفارقة. فقد كان ناقد العقل العربي، في مداخلة له عام ١٩٨٤، شن حملة قاسية على الظاهرة الاستشراقية رابطاً إياها بالظاهرة الاستعمارية والمركزية الأوروبية ورواسب الصراع لتاريخي بين المسيحية والإسلام في العصور لوسطى. وقد وجه في الوقت نفسه نقداً لا يقل لدعواً إلى مستبطنني الاستشراق من «الباحثين والكُتّاب العرب» ممن يسرون على نهج المستشرقين وتبنون أطروحاتهم بـ «صورة تابعة» مما «بمعكس مظهراً من مظاهر التبعية الثقافية»^(٣٠). والحال، أن الفلسفة المشرقية كما استعرضنا ملفها الاستشراقي بإيجاز شديد في الصفحات السابقة، تقدم لنا عينة ناجزة من سلعة ثقافية منتجة ومعلّبة في المصنع

(٢٨) اعتبرت أ.م. غواشون أن الفلسفة المشرقية سميت هذا الاسم لأنها تنتمي جغرافياً إلى الجناح الشرقي الأقصى للحضارة العربية الإسلامية الممتد ما بين بخارى وسمرقند وأصبهان وهمدان، ولكنها بربطها بمدرسة جنديشابور أوتعت نفسها في مغالطة. فجنديشابور، التي كان أنشأها الملك الساماني شابور الأول في القرن الثالث ب.م. في إقليم خورستان على الخليج الفارسي (وليس على البحر الأحمر كما تذكر سهواً)، تقع جغرافياً إلى الغرب من بخارى، مثلها في ذلك مثل بغداد الموصوفة من قبل الأنسة غواشون بأنها «غربية». وهي تبعد، مثل بغداد أيضاً، عن بخارى وسمرقند بحوالاً من ألفي كيلومتر.

(٢٩) انظر مقدمة أ.م. غواشون للترجمة الفرنسية لكتاب ابن سينا: «الإشارات والتنبيهات»، منشورات مكتبة فران الفلسفية (بالمشاركة مع اللجنة الدولية لترجمة الروائع البيروت)، باريس ١٩٥١، ص ١٠ - ١٢ و ٦٧ - ٦٨.

(٣٠) «التراث والحدائق»، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء ١٩٩١، ص ٢٩.

الاستشراقي. والحاد أيضاً، وبرغم كل لتدديد الصاحب بـ «التبعية الثقافية»، فإن من استورد هذه السلعة إلى السوق الثقافية العربية وروّجها على نحو غير مسبوق إليه، هو نقد العقل العربي نفسه، وتكاد نقول: ليس أحد سواه. ولو استعرضنا كل من كتب قبله في تاريخ الفكر الفلسفي في الحضارة العربية الإسلامية لوجدناه يهمل مسألة الفلسفة المشرقية إهمالاً تاماً، أو لا يعرض له - عندما يعرض - إلا بصورة فرعية مقتضبة. فمن الذين أهملوها مصطفى عبد الرازق في «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» (١٩٤٤)، وإبراهيم المذكور: «في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيق» (١٩٤٧)، وحسين مروة في: «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية» (١٩٧٨)، وإن يكن هذا الأخير قد أشار - مجرد إشارة - إلى الوجود الاستشراقي للمسألة^(٣١). ومن الذين أشاروا إليها إشارات عابرة جميل صليبا في: «تاريخ الفلسفة العربية» حيث أكد على وجود «اتجاه إشراقي» لدى ابن سينا ناجم عن جمعه ما بين «العلم اليوناني والحكمة الشرقية»، بدون أن يعرض لمسألة الفلسفة المشرقية عرضاً مباشراً خلا استشهاده بقوله لابن سينا - ستكون لنا عودة إليها - ينفي فيها أن يكون ابن سينا «أدرك الفلسفة المشرقية»^(٣٢). وهذا ما يفعله أيضاً حنا الفاخوري وخليل الجر في «تاريخ الفلسفة العربية» (١٩٥٧). فهما يستشهدان بقوله للسهروردي - ستكون لنا إليها عودة أيضاً - ينفي فيها أن يكون ابن سينا سبقه إلى اكتشاف الحكمة المشرقية. كما يستشهدان بالمقدمة التي كتبها هنري كوريان لـ «مجموعة في الحكمة الإلهية من مصنفات شهاب الدين السهروردي» نشرتها له جمعية المستشرقين الألمانية ليخلصا إلى أنقول: «يدو من هذه الدراسة أن المحاولات التي قامت قبل شهاب الدين لسهروردي على يد ابن سينا أو على يد فخر الدين الرازي وغيرهما، لم تكن موفقة لأن الذين قاموا بها لم يتوصلوا إلى منابع الحكمة المشرقية التي وُضعت في أيام الفرس من الخسروانيين»^(٣٣). وقد

(٣١) حسين مروة: «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية»، دار الفارابي، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨١، ج ٢، ص ٥٨٣.

(٣٢) جميل صليبا: «تاريخ الفلسفة العربية»، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٣، ص ٢١٨.

(٣٣) حنا الفاخوري وخليل الجر: «تاريخ الفلسفة لعربية»، دار الجبر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٢، ج ١، ص ٣٠٥. وهذا الشاهد الذي ينفي فيه كوريان وصوب ابن سينا إلى منابع الحكمة المشرقية ليس مثبثاً للعجب. ففي حينه كان كوريان لا يزال يعتقد أن السهروردي - وليس ابن سينا - هو محيي الحكمة المشرقية.

أفرد ماجد فخري في «تاريخ الفلسفة الإسلامية» (١٩٧٠) الذي وضعه بالإنكليزية، فقرتين مقتضبتين للفلسفة المشرقية المعزوة إلى ابن سينا. ففي إحداهما أشار إلى «كثرة المشاكل» التي يثيرها كتابه المعروف بـ «الحكمة المشرقية» و ربط في الوقت نفسه هذه الحكمة بما افترضه من وجود «نزعة صوفية في تفكير ابن سينا بقيت كامنة في مؤلفاته الباكورة وأبحاثه النظرية وتبلورت في ما بعد في كتاب «الإشارات» وفي عدد من كتاباته الموعلة في الرمزية كقصة «حي بن يقظان» و «رسالة الطير». وفي ثانيتهما نفى وجود ثنائية في تفكير ابن سينا ما بين مشائية ظاهرة وحكمة مشرقية مستورة، مؤكداً أن «المخطوطات التي وصلت إلينا من كتاب له بعنوان «الفلسفة المشرقية» لا تثبت وجود الثنائية المزعومة في تفكيره»، ومضيفاً «من دون أن نطيس الكلام في هذه القضية التي اختلفت حولها الآراء، نذكر أن أكثر البينات الداخلية والخارجية تتعارض، على ما يبدو، مع القول بثنائية تفكير ابن سينا، لأن المفارقة لمذهب المشائين كما تُستشف من كتاب «منطق المشركين» أو «الحكمة المشرقية» أو كتاب «الإشارات والتنبيهات» - وهو من أواخر مؤلفاته، والمفترض أنه من أنضجها - لا تعدر في أكثر الأحيان كونها مفارقة شكلية أو لفظية لا غير»^(٣٤). ولكن إلى عكس هذا الرأي ذهب محمد علي أبو ريان في الفقرة السريعة التي خصها من كتابه «تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام» (١٩٧٦) لفلسفة ابن سينا المشرقية. ففي معرض إشارته إلى «تخريج نلينو للمشكلة» وإلى إنكار السهروردي لـ «وجود حكمة مشرقية بمعنى إشراقية لدى ابن سينا»، يقول: إن ذلك «لا يقدم حلاً حاسماً للموضوع ولا يسمح بأن نسلم بأن كتاب «الحكمة المشرقية» ليس سوى صورة من كتب ابن سينا الأخرى المشائية»^(٣٥). ولكن لئن انتهى أبو ريان على هذا النحو إلى ضرب من التشكيك في التشكيك، فإن الصانع الحقيقي لمعضلة الفلسفة المشرقية في الثقافة العربية المعاصرة، عنيينا عبد الرحمن بدوي الذي تولى ترجمة دراسة نلينو ونشر النصوص السينوية ذات الصلة بتلك الفلسفة في كتابه «أرسطو عند العرب»، مال إلى القول بالنفي. ففي الفصل المطول الذي عقده من موسوعته الفلسفية لابن سينا لم يأت بذكر الفلسفة المشرقية إلا في ختام الفصل وبالأسطر القليلة التالية:

(٣٤) ماجد فخري: «تاريخ الفلسفة الإسلامية»، ترجمة كمال البازجي، منشورات الجامعة الأميركية، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٤، ص ١٨٤ و ٢٠٨.
(٣٥) محمد علي أبو ريان: «تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام»، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦، ص ٢٩١.

«الخلاصة أن مذهب ابن سينا يُعدُّ أوسع نتاج في الفكر الفلسفي في الإسلام. وقد حاول فيه المزج بين فلسفة أرسطو - وهو قد تمثلها خير تمثيل - وقسمات مشتقة من فلسفة أفلاطون، لكن الاتجاه السائد في مذهبه هو الفلسفة المشائية. ولئن كان أقل التزاماً بنصوص أرسطو من ابن رشد، فإن ذلك كان أيضاً ميزة من جهة أخرى، من حيث أنه أفسح له في المجال ليستقل أحياناً بفكره الخاص. صحيح أن تجديداته أو محاولات الأصالة لديه قد أخفقت بوجه عام، ولم تكن «فلسفته الشرقية» غير أمل لم يتمكن من تحقيقه بالفعل، لكنه استطاع على كل حال - في موسوعته الفلسفية الكبرى «الشفاء» - أن يقدم أوفى دائرة معارف فلسفية عرفتها العصور الوسطى»^(٣٦).

وحده ناقد العقل العربي - الذي دمع غيره من الباحثين الفلاسفة العرب بـ «التبعية الثقافية» للمستشرقين - أخذ بالإشكالية، لاستشراقية عن الفلسفة المشرقية بحذاقها، وتوسع فيها ليس كمأ فحسب، بل على الأخص كيفاً. فهو لم يفرد لها دراسة في مئة وخمس عشرة صفحة فحسب، بل اتخذها أيضاً مفتاحاً لكل المنظومة الفلسفية السينية، مؤكداً أنها تقوم لها مقام القاعدة الاستمولوجية، فضلاً عن أنها تمثل مضمونها الأيديولوجي الحقيقي. ونستطيع أن نقول إن ناقد العقل العربي نقذ هنا، على المستوى الإجرائي المنهجي، مناورة انقلابية: فعلى العكس من سائر المستشرقين و «التابعين» لهم من الباحثين لعرب الذين حاولوا أن يتكهنوا بطبيعة الفلسفة المشرقية المققودة انطلاقاً من كتابات ابن سينا الموجودة، فقد سعى إلى تفسير المنظومة الفلسفية السينية برمتها، وبكل بعدها الموسوعي، بالجزء الضائع منها: كتاب «الحكمة المشرقية». وهكذا فإنه بدلاً من أن يستدل بالشاهد على الغائب، فقد استدل بالغائب على الشاهد. وليس هذا فحسب، بل إن هذه المقارقة تأخذ بعدها الحقيقي متى أدركنا أن الشاهد المُستدل عليه هنا هو الكل، في حين أن لغائب المستدل به هو الجزء. وهذا ما يتنافى مع أبسط قواعد المنطق الاستدلالي.

الفلسفة المشرقية والفلسفة المشائية

لم تتخلق الأسطورة الاستشراقية عن انفسلة المشرقية من عدم. فالفلسفة المعقدة بهذا الاسم لها حضورها التاريخي الأكيد في المأثور العربي الإسلامي. ولكنه حضور

(٣٦) عبد الرحمن بدوي: «موسوعة الفلسفة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ١م، ص ٦٧. والتسويد منا

غياب أكثر منه حضور وجود. فالفلسفة المشرقية، كما سئري، لا تحضر إلا بوصفها فلسفة مفقودة أو مفتقدة. وأول شهادة تردنا بهذا الخصوص تعود إلى ابن سينا نفسه. ففي رسالتين له يشير إلى ضياع كتابات له حول ما يمكن أن يسمى «فلسفة شرقية». ففي واحدة من الرسالتين يشير إلى «تحزن» مراسله على «ضياع الإشارات والتنبيهات» ويطمئنه بالقول: «عندي أن هذا الكتاب وجد له نسخة محفوظة». ولكنه يفيد بالمقابل بأن ما ضاع هو كتاب آخر عنوانه «المسائل الشرقية». يقول: «أما «المسائل الشرقية» فقد كتبت أعيانها، بل كثيراً منها في أجزاءها لا يطبع عليها أحد، وأثبت أشياء منها «من الحكمة العرشية» في جزأين: فهذه هي التي ضاعت، إلا أنها لم تكن كبيرة الحجم، وإن كانت كثيرة المعنى، كلية جداً. وإعادتها أمر سهل: بلى، كتاب «الإنصاف» لا يمكن أن يكون إلا مبسوطاً وفي إعادته شغل. ثم من هذا المعيد ومن هذا المتفرغ عن الباطل للحق، وعن الدنيا للآخرة، وعن الفضول للفضل! لقد أنشبت القدر في مخالط البخر، فما أدري كيف أتملص وأتخلص. لقد دُفعت إلى أعمال لست من رجالها^(٣٧)، وقد انسليخت عن العلم فكانما ألحظه من وراء سحجف تخين، مع شكري لله تعالى، فإنه على الأحوال المختلفة والأهوال المتضاعفة والأسفار المتداخلة والأطوار المتناقضة، لا يخليني من وميض يحيي قلبي ويثبت قدمي^(٣٨).

وفي رسالة ثانية، لها شهرتها عند المؤرخين، يقيد مراسله - وهو الكيا أبو جعفر محمد بن المرزبان الذي ستكون له إليه عودة - بـ «أني كنت صنف كتاباً سميت «كتاب الإنصاف»، وقسمت العلماء قسمين: مغربيين ومشرقيين، وجعلت المشرقيين يعارضون المغربيين، حتى إذا حث اللدد تقدمت بالإنصاف. وكان يشتمل هذا الكتاب على قريب من ثمانية وعشرين ألف مسألة. وأوضحت شرح المواضع المشككة في الفصوص إلى آخر «أثولوجيا» على ما في «أثولوجيا» من المطعن. وتكلمت على سهر المفسرين،

(٣٧) لعل في ذلك إشارة إلى تكليفه مكرهاً بتقيد الرراة مرتين في عهد شمس الدولة وثورة العسكر عليه وسجنه.

(٣٨) عبد الرحمن بدوي: «أرمطو عند العرب»، منشورات وكالة المطبوعات الكويتية ودار القلم اللبنانية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨، ص ٢٤٥. هذا ويختلف النص كما حققه محسن بيدار فر بعض الاختلاف عن تحقيق ع. بدوي حيث جاء فيه: «أما المسائل الشرقية فقد كنت عبأها - بل كثيراً منها - في أجزائها بحيث لا يطلع عليها وأثبت أشياء أيضاً من «الحكمة العرشية» في جزأين».

وعملت في ذلك في مدة يسيرة ما لو حُرِّر لكان عشرين مجلّدة. فلذهب ذلك في بعض الهزائم، ولم يكن إلّا نسخة التصنيف، وكان النظر فيه وفي تلك الخصومات نزهة. وأنا، بعد فراغي من شيء أصمله، أشتغل بإعادته، وإن كان ظلّ الإعادة ثقيلاً. لكن ذلك قد كان يشتمل على تلخيص ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم. والآن فليس يمكنني ذلك، ولا لي مهلة، ولكن أشتغل بمثل الإسكندر وثامسطيوس ويحيى النحوي وأمثالهم. وأما أبو نصر الفارابي فيجب أن يعظم فيه لاعتقاده، ولا يجري مع القوم في ميدان. فيكاد أن يكون أفضل من سلف من السلف. ولعلّ الله يسهل معه الالتقاء، فتكون استفادة وإفادة. ولعذرني في تشوش الخط وتعوّج الحروف، فما توليت مخاطبة بيدي منذ سنة وستين لأمرض نهكتني وطالت عليّ وامتخرت هُتانتني^(٣٩) وكانت أقعدتني وكفت يدي عن الخط والكتابة. فهذا أول ما كتبت، وهو من بركات معرفته. والله يمتّني به، ورأيه في ذلك موقّ إن شاء الله^(٤٠).

وهذا النص هو الذي وضع أيديهم عليه كبار مصنفي تواريخ افسلفة في المأثور العربي الإسلامي من أمثال البيهقي في «نتمة صوان الحكمة» والقفطي في «أخبار الحكماء» وابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء». وقد أجمع ثلاثهم على أن كتاب «الإنصاف»، الذي أنصف فيه ابن سينا بين «المشرقيين والمغربيين»، قد فُقد كله أو أكثره في نهب السلطان مسعود ابن اسلطان محمود الغزنوي لمدينة أصبهان سنة ٤٢٥هـ، وذلك نقلاً عن رواية لأبي عبيد الجوزجاني، تلميذ ابن سينا المخلص.

لكن هل كتاب «الإنصاف» الضائع هذا هو عيبه كتاب «الحكمة المشرقية» المفقود كما افترض عدد من المستشرقين؟ فما سرّ التداخل في هذه الحال بين العنوانين؟ وهل يكفي أن يكون ابن سينا تحدّث فيه عن «مشرقيين»، بالمقابلة مع «مغربيين»، حتى نعدّه صنيح ناقد العقل العربي - واحداً من «المؤلفات التي عرض فيها ما سمّاه «الفلسفة المشرقية»^(٤١)؟ وإذا كان الكتابان الضائعان: «المسائل الشرقية» و«الإنصاف» يتضمنان فعلاً ما يقوم لكل منظومته الفلسفية مقام الأساس والمفتاح - طبقاً لفرضية ناقد العقل العربي دوماً، فهل كان ابن سينا سيتردد في إعادة كتابتهما، وهو الذي من عادته أن يشتغل بإعادة كل شيء يحمله «وإن كان ظلّ الإعادة ثقيلاً»؟ وإذا كانت لهما تلك

(٣٩) الهتانة: بقية المنع والشحمة في باطن العين. ويُقال ما به هتانة أي ما فيه خير.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٤١) «نحن والتراث»، ص ١٣٦.

الأهمية الأيديولوجية والاستمولوجية التي يعزوها ناقد العقل العربي إلى «الحكمة المشرقية»، فكيف نفسر في هذه الحال لا امتناع ابن سينا عن إعادة شغلها فحسب، بل كذلك استهانتها الظاهرة بمضمون كتاب «الإنصاف» الذي كان العمل فيه «نزهة»، والذي يؤثر ألا يبدد وقته في إعادة كتابته نظراً إلى اشتغاله «الآن» بمن هم أنف وزناً من «البيغدادية» - الموصومين من قبله بالضعف والتقصير والجهل - أي شراح أرمسطو مثل الإسكندر وثامسطيوس ويحيى النحوي وأمثالهم؟^(٤٢)

لكن لنرجع البحث مؤقتاً في هذه النقطة المهمة لنعود إلى الشهادة التي يدلي ابن سينا نفسه بها عن فلسفته لمشرقية اسماً ومحتوى. فهو من يصرح، في ثلاثة مواضع على الأقل، بأنه وضع كتاباً في «الحكمة المشرقية»: في تفسيره كتاب «أثولوجيا»، وفي مقدمة موسوعته «الشفاء»، وفي مقدمة نص «منطق المشرقيين». ففي تفسير كتاب «أثولوجيا»^(٤٣) يحيل قارئه ست مرّات إلى كتابه «الحكمة المشرقية». مرّة أولى في معرض النقاش لإمكان تجرد النفس من المادة وبقاء «الهيئات» مطبوعة فيها بلا «توسط مادة»، فيقول: «الجواب عن ذلك إحالة على الحكمة المشرقية». ومرّة ثانية في معرض الكلام أيضاً على تجرد النفس من المادة واشتياقها إلى الاتصال بملكوت الله الأعلى بدون أن تتبدد بيد بدنّها. ولئن يكن من عادة الناس «الترحم على الموتى فهو من جنس استمداد الفيض الإلهي بالأدعية». ولتطلب من الحكمة المشرقية». ومرّة ثالثة في معرض مناقشة الفقرة من كتاب أثولوجيا التي تتعلق بطبيعة ذكريات النفس بعد مفارقتها البدن وصيرورتها إلى عالم المعقولات حيث تتعق من الذكريات الجزئية والأشياء الدنيوية، ولا يعود لها من إدراك وشوق إلى إدراك «حقيقة ذات الأول» إلا أن يكون كلياً: «وأما الكلام الفصل فيها فليأتنا من في الكتب وفي «الحكمة المشرقية» وأنه كيف يجب أن يقال في إدراك العقل لما فوقه». ومرّة رابعة في معرض مناقشة الوحدة والكثرة في عالم المعقولات العلوية، حيث ينتصر ابن سينا على ما يبدو لمبدأ الكثرة في عالم المعقول «على ما فصل في الحكمة المشرقية خاصة». ومرّة خامسة في معرض الكلام عن «المُبتدع» الذي «وجوده من شيء آخر وله من نفسه ألا يكون له وجود»، الشيء الذي

(٤٢) يفترض ع. بدوي أن «تفسير كتاب «أثولوجيا» هو جزء من كتاب «الإنصاف» الصانع. لكن ليس لهذا الافتراض ما يبرره. فكتاب «الإنصاف» - كما تقدم البيان - هو كتاب في التحكيم بين المعريين والمشرقيين. والحال أن ع. بدوي يقر بأن ابن سينا «لم يشر إلى المشرقيين في هذا الشرح» وهذا لأن «تفسير كتاب «أثولوجيا» هو «شرح» وليس «إنصافاً».

يعني أن المبدع محكوم بشرط «الاثنية» لأن «به بحسب ذاته الإمكان، ومن جانب الحق الأول الوجود». و «أما أن الإمكان كيف يكون من لوازم الماهيات، وهل يدخل مع ذلك في الإبداع أم لا يدخل... فقد سُرح في الحكمة المشرقية». ومرة سادسة وأخيرة عندما يعود إلى مناقشة طبيعة تدكر النفس التي قد يجوز لها في عالم «لعقل المحض» أن «تذكر هناك شيئاً». وأما أنه كيف يجوز، ويتوسط ماذا يكون، فليطلب من «الحكمة المشرقية»^(٤٣).

أما النص الثاني الذي يرد فيه ذكر كتب «الفلسفة المشرقية» فقد ورد في كتاب المنطق من مرسوعة الشفاء التي وضعها ابن سينا، بحسب تصريحه، نزولاً عند طلب تلميذه الجوزجاني الذي كان سأل «شرح كتب أرسطو» فاعتذر لأنه «لا فراغ له إلى ذلك في ذلك الوقت». ولكنه أضاف قوله، بحسب رواية الجوزجاني: «ولكن إن رضيت مني بتصنيف أورد فيه ما صح عندي من هذه العلوم بلا مناقرة مع المخالفين، ولا اشتغال بالرد عليهم، فعلت ذلك. فرضيت به [= القول للجوزجاني]، فابتدأ بالطبيعات من كتاب سمّاه الشفاء». والحال أنه في مقدمة قسم المنطق من كتاب «الشفاء» هذا - ويبدو أنه تأخر بضع سنوات حتى أنجزه - يذكر ابن سينا: «ولي كتاب غير هذين الكتابين»^(٤٤) أوردت فيه الفلسفة على ما هي بالطبع، وعلى ما يوجهه الرأي الصريح الذي لا يراعى فيه جانب الشركاء في الصناعة، ولا يتقى فيه من شق عصاهم ما يتقى في غيره، وهو كتابي في «الفلسفة المشرقية». وأما هذا الكتاب [= الشفاء] فأكثر بسطاً، وأشد مع الشركاء من المشائين مساعدة. ومن أراد الحق الذي لا مجمعة فيه، فعليه بطلب ذلك الكتاب. ومن أراد الحق على طريق فيه ترضى ما إلى الشركاء ويوسط كثير وتلويح بما لو فطن له استغنى عن الكتب الأخر، فعليه بهذا الكتاب»^(٤٥).

أما النص الثالث فهو لا يسمى «الفلسفة المشرقية» بالاسم، بل يرسم النطاق العام لمضمونها ويحدد غايتها. وقد يكون هذا النص، الذي نشر لأول مرة في القاهرة سنة ١٩١٠ تحت عنوان «منطق المشرقيين»، أهم ما تبقى من كتاب «الفلسفة المشرقية»

(٤٣) «أرسطو عند العرب»، ص ٤٣، ٥٣، ٥٨، ٦١، ٧٢.

(٤٤) بشير ابن سينا هذا، فضلاً عن كتابه «الشفاء»، إلى كتاب ثانٍ كان بنوي تأليفه باسم «الواحق».

(٤٥) ابن سينا: «الشفاء»، كتاب «المنطق»، «الملخل»، تحتق الأب قنوتاني ومحمود الحفيري

رفؤاد الأهواني، وزارة المعارف العمومية، الإدارة لعامة للثقافة، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٠.

الضائع، لأنه تضمن، علاوة على شتات من فصول في تصنيف العلوم والمنطق، مقدمة تلخص تصوّر ابن سينا لما يمكن أن تكون مساهمته الاجتهادية الشخصية في الموروث الفلسفي للعصر الوسيط المعقودة إمرة قيادته لأرسطو. ونظراً إلى الأهمية القصوى لنص المقدمة بما يسلطه من إضاءة باهرة على قضية «الفلسفة المشرقية»، فسننبّه - على طوله - كاملاً.

يقول ابن سينا:

«نزعنا الهمّة بنا إلى أن نجتمع كلاماً في ما اختلف أهل البحث فيه، لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلف، ولا ألبالي من مفارقة تظهر بنا لما ألقه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم، ولما سمع منا في كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد إلّا إياهم، ولم ينل رحمته سراهم، مع اعتراف منا بفضل أفضل سلفهم [- أرسطو] في تنبيه لما نام عنه ذوره وأستاذوه، وفي تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض، وفي ترتيبه لعلوم خيراً مما رتبوه، وفي إدراكه الحق في كثير من الأشياء وفي تفتنه لأصول صحيحة سرية في أكثر العلوم، وفي إطلاعه الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مد يديه إلى تمييز مخلوط، وتهذيب مُقَسَّد، ويحق على من بعده أن يلحوا شعثه، ويرموا ثلماً يجدونه في ما بناه، ويفرّعوا أصولاً أعطاه، فما قدر من بعده على أن يفرغ نفسه عن عهدة ما ورثه منه، وذهب عمره في تفهم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره، فهو مشغول عمره بما سلف، ليس له مهلة يراجع فيها عقله، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتر إلى مزيد عليه أو إصلاح له أو تنقيح إياه.

«وأم نحن فسّهّل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به، ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم، وكان الزمان الذي اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحدائق، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفتن لما أودثوه. ثم قابلت جميع ذلك بالنمط من لعلم الذي يسعيه اليونانيون (المنطق) - ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره - حرفاً حرفاً، فوقفنا على ما تقابل وعلى ما عصى وطلبت لكل شيء وجهة، فحقّ ما حق وزاف ما زاف.

«ولما كان المشتغلون بالعلم شديدي الاعتزاء إلى (المشائين) من اليونانيين كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور، فأنحزنا إليهم وتعصبنا للمشائين إذ كانوا أولى فرقتهم

بالتعصب لهم، وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا أريهم منه، وأغضضنا عما تخبطوا فيه وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ونحن بدخنته شاعرون وعلى ظله واقفون. فإن جاهرن بمخالفتهم ففي الشيء الذي لم يمكن الصبر عليه، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل. فمر جملة ذلك ما كرهنا أن يقف الجهال على مخالفة ما هو عندهم من الشهرة بحيث لا يشكون فيه ويشكون في النهار الواضح. ويعصه قد كان من الدقة بحيث تعمش عنه عيون عقول هؤلاء الذين في العصر، فقد بلينا رقيقة منهم عاري الفهم كأنهم «خُشِبَ مسندة» يرون التعمق في النظر بدعة، ومخالفة المشهور ضلالة، كأنهم الحنابلة في كتب الحديث، لو وجدنا منهم رشيداً بُتِّه بما حققناه، فكنا نفعهم به، وربما تسنى لهم الإيغال في معناه فموضوعنا منفعة استبدوا بالتغفير عنها.

«ومن جملة ما ضننا بإعلانه - عابرين عليه - حق مغفول عنه يشار إليه فلا يتلقى إلا بالتعصب. فلدلك جرينا في كثير مما نحن خبراء بيجدته مجرى المساعدة دون المحاكمة. ولو كان ما انكشف لك أول ما انصبنا إلى هذا الشأن لم نبذ فيه مراجعات منا لأنفسنا، ومعاودات من نظرننا - لما تبينا فيه رأياً ولاخلط علينا الرأي وسرى في عقائدنا، الشك وقلنا لمن وعسى. لكنكم أصحابنا تعلمون حالنا في أول أمرنا وآخره وطول المدة التي بين حكمنا الأول والثاني. وإذا وجدنا صورتنا هذه قبالحري أن نثق بأكثر ما قضيناه وحكمنا به واستدركناه، ولا سيما في الأشياء التي هي الأغرض الكبرى والغايات القصوى التي اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات. ولما كانت الصورة هذه والقضية على هذه الجملة أحببنا أن نجمع كتاباً يحتوي على أمهات العلم الحق الذي استنبطه من نظر كثيراً وفكر ملياً ولم يكن من جودة الحدس بعيداً واجتهد في التعصب لكثير في ما يخالفه الحق، فوجد لتعصبه وما يقوله وفاقاً عند الجماعة غير نفسه، ولا أحق بالإصفاء إليه من التعصب لطائفة إذا أخذ يصدق عليهم فإنه لا ينجيهم من العيوب إلا الصدق.

«وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا - أعني الذين يقومون منا مقام أنفسنا - وأما العامة من مزاولي هذا الشأن فقد أعطيناهم في (كتاب «الشفاء») ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم، وسنعطيهم في (اللواحق) ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه، وعلى كل حال فاستعانة بالله وحده»^(٤٦).

(٤٦) ابن سينا: «منطق المشرقيين»، تقديم شكري النجار، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٢، ص ١٩ - ٢٢. ونحن نعتقد - لأسباب سنوضحها في ما بعد - أن في النص تصحيحاً، إذ سقطت كلمة =

ما الذي يمكننا أن نستخلصه من هذه الشهادات الثلاث الصادرة مباشرة عن «المتهّم» باقتراف جريمة «الفلسفة المشرقية الظلامية» التي «قتلت العقل والمنطق في الوعي العربي لقرون طويلة»؟

أولاً - تاريخ وفع «الجريمة»، أي تاريخ تأليف كتاب «الفلسفة المشرقية»: فقد وجدنا ابن سينا يقول في مقدمة قسم المنطق من كتاب «الشفاء»: «ولي كتاب غير هذين أوردت فيه الفلسفة على ما هي بالطبع... وهو كتابي في الفلسفة المشرقية». وفي الفقرة الختامية من «منطق المشرقيين» وجدناه يقول: «وما جمعت هذا الكتاب لنظيره إلا لأنفسنا - أعني الذين يقومون من مقام أنفسنا - وأما العامة من مزاولي هذا الشأن فقد أعطيناهم في كتاب «الشفاء» ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم». وعلى هذا النحو يبدو كتاب «الفلسفة المشرقية» وكأنه سابق على كتاب «الشفاء» ولاحق عليه في آن معاً. ولكن هذا الإشكال^(٤٧) يجد حله بسهولة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن ابن سينا تأخر بضع سنوات حتى يحرق قسم المنطق من كتاب «الشفاء». وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول إن ابن سينا عندما بدأ بتحرير قسم الطبيعيات من كتاب «الشفاء» - بحسب شهادة الجوزجاني نفسه - فإنه لم يكن قد كتب بعد مسودة «الفلسفة المشرقية». ولكنه عندما شرع بتحرير قسم المنطق من «الشفاء» كان أنجز كتابتها. والحال أن الجوزجاني نفسه يفيدنا بأن ابن سينا بدأ العمل بكتاب «الشفاء» وهو في همدان التي استوزره عليها للمرة الثانية صديقه الأمير شمس الدولة قبيل وفاته عام ٤١٢هـ، وأنه في أصفهان بعد فراره إليها عام ٤١٦هـ، فمعنى ذلك أن مسودة «الحكمة المشرقية» قد تم تحريرها في فترة متوسطة ما بين ٤١٢ و ٤١٦هـ^(٤٨). وفي أرجح التقدير في نحو العام ٤١٥هـ، أي قبل نحو ثلاث عشرة سنة من وفاته التي كانت عام ٤٢٨ للهجرة. وهذه نقطة لها أهميتها. فابن سينا، المولود سنة ٣٧٠هـ، يكون قد كتب «الفلسفة المشرقية» وهو في الخامسة

= «غير» في العبارة التي تتفق باسم المنطق؛ وفي تقديرنا أنه ينبغي أن تقرأ هكذا: «ولا يعد أن يكون له عند غير المشرقيين اسم غيره».

(٤٧) استدل ناقد العقل العربي هذا الإشكال لينفي أن يكون «منطق المشرقيين» جزءاً من كتاب «الفلسفة المشرقية» ويعزوه جزئاً إلى كتاب «الإنصاف».

(٤٨) انظر التفاصيل التاريخية لرواية الجوزجاني عن تأليف «الشفاء» في ابن أبي أصيبعة - «هيون الأنبياء في طبقات الأطباء»، تحقيق نزار رضى، دار مكتبة «حياء» بيروت بلا تاريخ، ص ١٤٤١ - ٤٤٢.

والأربعين من العمر، أي في ذروة نضجه الفكري. والحال أن قراءة ناقد العقل العربي لبنية الفلسفة السينية تقوم على تفسيرها بتكوينها. فالمسار المشرقي، وبالتالي الغنوصي، أو حتى الحراثي، لابن سينا قد تحدد، بموجب فرضية ناقد العقل العربي، منذ مراهقته. يقول هذا الأخير: «إن ما يلتفت لنظر في ما حكاه ابن سينا عن نفسه، نقصد عن تكوينه الفكري، إفادته بأن أباه وأحاه كانا «ممن أجاب داعي المصريين» أي الإسماعيلية. وإن جماعة من هؤلاء كانوا يترددون على منزل والده، وإنه كان يسمع منهم كلاماً في «النفس والعقل» وفي «الفلسفة والهندسة وحساب الهند»، وإنهم كانوا يدعونهم إلى اعتناق وجهة نظرهم، ولكن نفسه - بحسب تعبيره - لم تكن تقبل ذلك. فلنسجل إذاً أن ابن سينا تعرف في حياته إلى الفلسفة الإسماعيلية، وأنها كانت بشكل أو بآخر مصدراً من مصادر تكوينه. ولنضيف إلى ذلك أن البيهقي يذكر أن ابن سينا قرأ في حديثه رسائل إخوان الصفا، وهي نفسها موسوعة فلسفية ذات طابع إسماعيلي واضح»^(٤٩). فإذا كان ابن سينا قد «تقونص» وهو حدث، فبِمَ انتظر كل تلك السنوات الطوال حتى يُخرج إلى النور «فلسفته المشرقية»؟ وإذا كان كتاب «الفلسفة المشرقية» قد ضاع، فلمَ لم يظهر أثر الغنوصية والهرمسية في المؤلفات التي صنفها في الفترة نفسها التي صنف فيها «الفلسفة المشرقية»، ونعني «الشفاء»، و «النجاة» مختصره، و «دانش

(٤٩) «نحن والقراء»، ص ١٢٩. والتسويد من الجاري الذي أراد منه أن يلمح إلى احتمال «تسعمل» ابن سينا لكن بدون أن يجزم. والواقع أن الحابري يبدي هنا، وفي مواضع أخرى من كتاباته، ميلاً سهلاً إلى تضخيم دور «المؤامرة الإسماعيلية» في كل بنية الفكر المشرقي. ولكن إذا كانت عيه «الاستمولوجية» ترى إلى بعيد في ما يتعلق بالفاعلية الفكرية لدعاة الإسماعيلية، فإن عيه «التاريخية» تقف حسيرة عن رؤية الاصطهادات التي تعرضوا لها هم ومعتقو أفكارهم. وهكذا، فستن صوّر بخارى السامانية، التي تكوّن فيها ابن سينا فكراً، وكأنها «بؤرة إسماعيلية» (و «حرنية» أيضاً كما سنرى)، فقد عقل عن الإشارة إلى الحملات «الاستصالية» التي تعرّضت لها من قبل القوى السياسية والعسكرية القويّة في حينه على «العقيدة القويمة»، وفي مقدمتها قوى العزويين. وهكذا، وفي الوقت الذي سلّط الإغضاء على دور «داعي المصريين»، فإنه يبقى في الظل ما كتبه - مثلاً - واحد من كبار القُيُمين على العقيدة القويمة في القرن الخامس الهجري، وهو نظام الملك الذي قال في كتابه «سياسة نامه» في معرض كلامه عن بخارى السامانية ما ترجمته: «على أثر اتفاق بين قادة الجيش، نهب العساكر الترو» بخارى ومنطقتها و«فجّحوا السكان بحيث ما بقي في كل خراسان وما وراء النهر واحد من تلك الطائفة، وثن بقي منهم نفر فقد اختبأوا».

ثامه» (كتاب العلم) معاده الفارسي^(٥٠)

ثانياً - إن تحديد لتاريخ التقريبي لكتابة «الفلسفة المشرقية» لا يساعدنا فقط على نفي ما يريد ناقد العقل العربي تحميلها إياه من نزوع مبكر إلى «التغزنص» و «التمشوق»، بل يقدم لنا أيضاً قرينة ثمينة - ولا نقول دليلاً - على ما يمكن أن يكونه المضمون الفعلي لتلك الفلسفة المشرقية. فأن يكون ابن سينا كتب مسودة هذا الكتاب لا في حياته، بل في فترة نضجه، فهذا ينهض بحد ذاته دليلاً على أنه ما كان له أن يتصدى لتحرير «الفلسفة المشرقية» قبل أن ينضج. لماذا؟ لأن النضج شرط للسير في طريق المخالفة، أو على حد تعبير ابن سينا نفسه في طريق «المفارقة لما أُلِّفه متعلمو كتب اليونانيين... من المتفلسفة المشغوفين بلمشائين، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم». إية ذلك أن ابن سينا ما كان له أن يتطلع إلى مفارقة المشائية السائدة قبل أن يكون دار هو الآخر في مدار جاذبيتها. وبالفعل، ومن منظور المشائية السائدة تحديداً، فإننا نستطيع أن نرصد ثلاث مراحل في سيرته الفكرية: أولاً - مرحلة الهضم والتمثل للمشائية؛ ثانياً - مرحلة إعادة الإنتاج؛ ثالثاً - مرحلة محاولة المفارقة وتطوير مساهمة شخصية. فمرحلة الهضم والتمثل تجد تعبيرها في ما رواه هو نفسه في سيرة حياته عن صعوبات اعترضت سبيله إلى فهم كتاب أرسطو «ما بعد الطبيعة» برغم أنه كان أحكم «المنطق والطبيعي والرياضي» في طور انفتاح «أبواب العلم» عليه بفضل سهر الليالي: «كنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يديّ، وأشتغل بالقراءة والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قلع من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي... حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكل ما عينته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزد فيه إلى اليوم، حتى أحكمت المنطق والطبيعي والرياضي. ثم عدلت إلى الإلهي، وقرأت كتاب «ما بعد الطبيعة» فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً، وأنا مع ذلك لا أفهمه، ولا المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبهد دلال مجلد ينادي عليه... فاشتريته، فإذا هو كتاب لأبي نصر الغارابي «في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة». ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته.

(٥٠) معلوم أن ابن سينا وضع «كتاب العلم» هذا بالفارسية تلبية لطلب الأمير البويه علاء الدولة بن كاكويه، ولذلك اشتهر هذا الكتاب أيضاً باسم «العلائي في الحكمة».

فانفتحت عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب، بسبب أنه كان لي محفوظاً على طهر القلب. وفرحت بذلك، فتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكراً لله^(٥١).

بعد طور التحصيل والتمثل هذا، جاء دور الإنتاج، أو بتعبير أدق - وبحكم سيادة المشائية بوصفها إشكالية العقل في العصر الوسيط، الإسلامي كما المسيحي (كما اليهودي) - دور إعادة الإنتاج. وذا تابعنا هذه الاستعارة المأخوذة من علم لاقتصاد السياسي، فإننا نستطيع أن نتحدث، في هذه المرحلة الثانية، عن إعادة إنتاج مضيق كما في مثال «عيون الحكمة» و «النجاة»، وعن إعادة إنتاج موسعة كما في «الشفاء» و «كتاب العلم». فهنا يبقى أرسطو هو المرجع الأول ولأخير بوصفه «رئيس الحكماء ومعلم الفلاسفة» كما يصفه ابن سينا في قسم ما بعد الطبيعة من «كتاب العلم»^(٥٢). بل إن ابن سينا كان في هذه المرحلة، حتى عندما يطرق موضوعات ذات صلة بالعقيدة الدينية الإسلامية، يحرص على تقديم الأشياء من وجهة نظر أرسطية لا هم لها غير أن يلتزم بعقيدة المعلم القويمة. هكذا يعلن ابن سينا في مقدمة كتاب «المبدأ والمعاد» على سبيل المثال: «وبعد، فلاني أريد أن أدل في هذه المقالة على حقيقة ما عند المشائين المحصلين من حال المبدأ والمعاد... وأتحرى أن أوضح ما أغلقوا، وأعلن ما ستروا وكنتموا، وأجمع ما قرّوا، وأبسط ما أجملوا بمقدار الوسع القاصر الذي لثلي»^(٥٣).

وانم في المرحلة الثالثة وحسب، وبعد أن بات ابن سينا متحققاً من تمثله ما يعتقد أنه عصاره المشائية الصافية^(٥٤)، تصدى لتقديم قراءته الشخصية للفلسفة وإيرادها «على ما هي عليه بالطبع، وعلى ما يوجب الرأي الصريح الذي لا يراعى فيه جانب الشركاء في الصناعة»، غير متيّه من «شق العصا ومخالفة الجمهور» وغير ملتزم حتى بالحدود التي كان ألزم نفسه بها في الكتب التي ألفها «للعاميين من المتفلسفة». ولكن حتى في هذه المرحلة التي «استحلّ» فيها أن يعيد بعض النظر في «ما قاله الأولون»، وأن يجتهد اجتهد «من نظر كثيراً وفكر ملياً»، وأن يتعمق في النظر الشخصي حتى ولو

(٥١) «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء»، مصدر آف الذكر، ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٥٢) ابن سينا: «كتاب العلم» (*Le Livre de la Science*)، نقله إلى الفرنسية محمد أشنا وهنري ماسيه، منشورات الآداب الجميلة، الطبعة الثانية، باريس ١٩٨٦، ج ٢، ص ٢١٥.

(٥٣) ابن سينا: «المبدأ والمعاد»، تحقيق عبد الله نوراني، مؤسسة مطالعات إسلامي دانشكده، تهران ١٣٨٣هـ، ص ١.

(٥٤) نسود هذه الجملة لأنه ستكون لنا إلى هذا «الاعتقاد عودة».

بدَّعه «حنابلة» المشائية، فإنه يضع اجتهاده وتعمقه في خط متابعة أرسطو، لا في خط الخروج عليه، على اعتبار أن أجمل أشكال الوفاء لأمير الفلاسفة يتجلى لا في تكرير ميراثه، بل في تطويره. فالإقرار «بفضل أفضل السلف» لا يعني أن يبقى المُفَرِّز «مشغولاً» عمره بما سلف. فمن حق الرائد على «مَنْ بعده» ألا يذهبوا أعمارهم في «تفهيم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره»، بل «أن يلموا شعثه ويرموا ثلماً يجدونه في ما بناه، ويفرعوا أصولاً أعطاها».

ثالثاً - ما نستطيع أن نقوله، ذاءً، هو أن ابن سينا أراد أن يتقدم بالمشائية أكثر مما سعى إلى أن يتجاوزها. والواقع أنه لو شاء أن يتجاوز المشائية لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن المشائية كانت هي الأفق العقلي لعصره. وما كان له أن يتجاوزها ما لم يتجاوزها العصر نفسه. وبصرف النظر عن عبقرية الشخصية، فإنه ما كان أن يفك نفسه من الإساو الاستمولوجي لعصره. ولا شك في أن ابن سينا كان على قدر غير قليل من الاعتداد بنفسه. يشهد على ذلك ما رواه عن لسان نفسه في سيرته الذاتية من افتتاح «أبواب العلم» (المنطق والفلسفة والهندسة والطب والفقه) له وهو لا يزال دون ثامنة عشرة من العمر. ويشهد على ذلك أيضاً ما حكاه بضمير الخائب في «كتاب العلم» عن «فتى عرفه شخصياً» وكان له من قوة الحدس العقلي ما جعل منه مكتبة حية، بحيث إنه «ما بلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر حتى كان هضم العلوم الفلسفية - المنطق والطبيعات وما بعد الصبغة والهندسة والحساب والفلك والموسيقى ولطب وكثرة من العلوم العريضة الأخرى - وهذا حتى عزَّ عليه أن يلتقي شخصاً مثله، وعاش بعد ذلك سنوات عديدة بدون أن يضيف شيئاً إلى ما عنده من البداية، مع أن كل علم من تلك العلوم يقتضي سنوات حتى يتحصل للمرء»^(٥٥). ولا شك في أن هذه الثقة المفرطة بالنفس كانت ضرورية لكيما يتطلع ابن سينا يوماً، وفي المرحلة الختامية من مساره الفكري، إلى الخروج من الصف والتحول عن شرط التلمذة إلى شرط الأستاذة. ولكن ما كان له، مهما حلَّق، أن يطير في غير فضائه العقلي. ففضلاً عن أن المشائية كانت تحبس العقل الفلسفي للحضارة العربية الإسلامية في إشكالية غير قابلة للتجاوز، فقد كانت محتبسة هي نفسها في ملابس مستغلقة بقدر ما هي مستعبدة على الوعي التاريخي والنقدي. عينا هنا ملابس التزوج ما بين الأرسطية والأفلاطونية المحدثة من

(٥٥) «كتاب العلم»، مصدر آف الذكر، ج٢، ص ٨٩.

س سينا: أمطورة الفلسفة، مشرقية

جاء مثول كتب «أولوجيا» المنحول عن أفلوطين أو تلميذه فورفوريوس في المنظومة المرجعية للمشائية العربية (الإسلامية كما المسيحية كما اليهودية) بوصفه من كتب الفصوص لا من كتب الشروح. وكما وقع الفارابي أسير هذه الملائسة وهو يحاول «الجمع بين الحكيمين»، كذلك فإن ابن سينا، في كل مرة كان يخيل إليه فيها أنه أفلح في الانعتاق من إसार الجذبية المشائية، ما كان يخرج في الواقع من مدار أرسطو إلا ليدخل في مدار أفلوطين، أو بالعكس. وصحيح أن ابن سينا تنبه، كما جاء في رسالته إلى الكيا، إلى «ما في «أولوجيا» من المطن»، ولكن كما لاحظ تلميذه فقد أصر، عندما اشتغل كتبه المتأخر «الإنصاف»، «المشتمل على شرح جميع كتب أرسطوطاليس حتى أدخل فيها كتاب «أولوجيا» وأخرج في معانيه ما لم يحتسب منه»^(٥٦). وهذا ما يعيدنا إلى تفسير ابن سينا لكتاب «أولوجيا» المنشور في مجموعة «أرسطو عند العرب»، والذي أحال فيه قارئه ست مرات، كما تقدم البيان، إلى كتاب «الحكمة المشرقية». فحديث ابن سينا في تلك المواضع الستة عن تجرد النفس من المادة واشتياقها إلى الاتصال بملكوت الله الأعلى وطبيعة ذكرياتها بعد مفارقتها البدن واستمداد الفيض الإلهي، إلخ، لا يتدرج في عداد أية فلسفة غنوصية مستورة أو مشرقية مزعومة، بل يدخل في صلب ما كان ابن سينا - ومعه معظم فلاسفة الحضارة العربية الإسلامية - يعتقد أنه الزبدة الخالصة للأرسطية.

ونحن نملك على كل حال دليلاً حاسماً على عدم وجود «فلسفة مشرقية» بذلك المعنى الغنوصي المستور الذي يجهد ناقد العقل العربي لتلييسها إياه - يقدمه لنا مدخل قسم المنطق من كتاب «الشفاء». ولنستعد هنا النص: «ولي كتاب... أوردت فيه افلسفة على ما هي عليه بالطبع... وهو كتابي في «افلسفة المشرقية». وأما هذا اكتاب [= الشفاء] فأكثر بسطاً وأشد مع الشركاء من المشائين مساعدة. ومن أراد الحق الذي لا مجمجة فيه. فعليه بطلب ذلك الكتاب. ومن أراد الحق على طريق فيه ترض ما إلى الشركاء وبسط كثير وتلويع بما لو فطن له استغنى عن الكتاب الآخر، فعليه بهذا الكتاب». فالجملة التي سؤدناه تشير، على نحو لا يقبل التيسار، إلى أن كتاب «الفلسفة المشرقية» المقبوض متضمن بالتلويع في كتاب «الشفاء» المبسوط. ومن كان ذا فطنة من القراء وذو قدرة على قراءة السطور وما بين السطور معاً، استغنى

(٥٦) نص هذه الرسالة المهمة، التي ستكون لنا إليها عودة، منشور في كتاب «المباحثات»، تحقيق محسن بيدار فر، منشورات بيدار، رقم ١٤١٣هـ، ص ٨١.

بالكتاب الثاني عن الأول، وكفاه «الشفاء» مؤونة الرجوع إلى «الفلسفة المشرقية». إذًا، فليس في «الفلسفة المشرقية» شيء غير موجود، ولو بذرياً، في «الشفاء». والمسافة بين الكتابين ليست بأبعد من تلك التي تفصل التصريح عن التلميح، وما تترجم عنه من حركة أقرب إلى أن تكون حركة اعتماد منها حركة انتقال. وحتى إن يكن ثمة انتقال فهو في داخل الإشكالية لمشائية، وليس خروجاً عليها.

مشرقيون ومغربيون

لئن حسبنا على هذا النحو مسألة مضمون الفلسفة المشرقية، فإننا لا نكون حسبنا مسألة الاسم.

وما لم يُقشع الغموض الذي يثلف عنوان كتاب «الفلسفة المشرقية»، فيستل الباب مفتوحاً على مصراعيه لضرب أخماس بأسداس حول الطبيعة المشرقية لهذه الفلسفة.

ولقد رأينا بالفعل أن المستشرقين انقسمت صفوفهم على مدى قرنين ونيف انقساماً حاداً حول المعنى الذي ينبغي أن يعطى لصفة المشرقية: أهى تحين إلى المشرق بمعناه الجغرافي، أي الشرق، أم إلى المشرق بمعناه الفلكي، أي مكان طلوع الشمس، وبالتالي بمعناه الرمزي: مشرق الأنوار؟

وقد بدا، منذ أن نشر نلينو مقاله عن «حكمة ابن سينا الشرقية أو الإشراقية؟» عام ١٩٢٥، وكأن المسألة قد حُسمت لصالح الفريق الأول. ولكن تدخل مترجم المقال إلى العربية، عفيف عبد الرحمن بدوي، أحدث من جديد نوعاً من الانقلاب في التأويل. ففي «الدراسة الفيلولوجية» التي مهد بها للنصوص التي جمعها في كتاب «أرسطو عند العرب» - وفي عدادها نصوص لابن سينا ذات صلة بـ «الفلسفة المشرقية» - قترح تأويلاً مغايراً تماماً لذلك الذي استقر عليه خلاف المستشرقين. فلو أن يكن ابن سينا قد ذكر في رسالته إلى الكيا أنه صيِّف كتاباً - «ذهب في بعض الهزائم» - قسَّم فيه العلماء «قسمين: مغربيين ومشرقيين» وتضمن «تلخيص ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم»، فقد استغل ع. بدوي هذه الإشارة ليؤكد أن المقصود عند ابن سينا بـ «المشرقيين» هم «المشاؤون المعاصرون له من أهل بغداد»، على حين أن المغربيين هم «شراح أرسطو الغربيون مثل الإسكندر وثامسطيوس ويحيى النحوي»^(٥٧).

(٥٧) «أرسطو عند العرب»، ص ٢٨.

وقد انطلقت في صفوف المستشرقين على أثر صدور هذا التأويل، موجة جديدة من المناقشات بصدد «الفلسفة المشرقية»، ولكن بدون أن يترجع صداها في الثقافة العربية المعاصرة التي بقيت واقفة، من هذا المنظور، عند كتّاب ع. بدوي الذائعي الصيت: «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»، و«أرسطو عند العرب».

ومن هنا كانت المفاجأة التي طالع بها محمد عابد الجابري القارئ العربي عندما نشر عام ١٩٨٠ دراسته المستفيضة عن «ابن سينا وفلسفته المشرقية» التي بدا فيها - وسيدرك القارئ حالاً - تشدد على كلمة بدا هذه - وكأنه يقترح بدوره تأويلاً جديداً أشد إثارة حتى من تأويل ع. بدوي.

فبعد عرض مطول - تمّ فيه تصوير الفلسفة المشرقية وكأنها جريمة بحق العقلانية - وبعد إثارة شوق القارئ إلى معرفة «من هم المشرقيون والمغربيون في اصطلاح الشيخ الرئيس»، وبعد الاستشهاد بقول لأبي الحسن العامري ورد فيه أنه «أصبح م يتفق للإنسان أن تكون طبيئته مشرقية وصورته عراقية، فإنه يصير بهذا جامعاً بين مثانة خُراسان وظرف العراق»، ينتهي إلى القول: «وواضح من هذا النص أن أبا الحسن العامري، وهو فيلسوف معاصر لابن سينا، يستعمل مصطلح «المشرق» بمعنى «خُراسان». وبما أنه يعارض خُراسان بالعراق، فإن «المغرب» بهذا الاعتبار سيكون هو العراق وعاصمته بغداد». هذا من جهة. ومن جهة أخرى يفهم من النص ذاته أنه كانت هناك منافسة علمية - علاوة على المنافسة السياسية - بين العراق وخُراسان. يقول أبو حيان التوحيدي: «لقد ورد (العامري) بغداد سنة أربع وستين وثلاثمئة في صحبة ذي الكمايتين (أبي الفتح بن العميد)، فلقي من أصحابنا البغداديين عنّاً شديداً ومناكدة، وذلك لأن طباع أصحابنا (- العراقيين) معروفة بالحدة والتوقد على فاضل يرى من غير بلدهم». نحن إذاً، أمام شهادة تاريخية ثمينة تكشف لنا، ليس فقط عن مدلول مصطلح «مشرقي» و«مغربي» في عصر ابن سينا، بل تطلعنّا كذلك على واقع تاريخي يكتسي التعرف إليه أهمية بالغة بانسيبة إلى موضوعنا، واقع التنافس، بل الخصومة بين «المشرقيين» أهل خُراسان (مسقط رأس ابن سينا) و«المغربيين» أهل العراق. وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره المقدسي من أن أهل خُراسان حرّانية (أي من أتباع مدرسة حران)، وما سنذكره بعد عن المدرسة المنطقية ببغداد التي كان يتزعمها النصاري من الترجمة والمتفلسفة، لأدركنا حقيقة الإطار الذي يدخل فيه تأليف ابن سينا لكتابه «الإتصاف»، وهو الكتاب الذي خصصه، كما قال، لمعارضة آراء «المغربيين» بآراء

«المشركيين» منتصباً لهؤلاء، كاشفاً، كما يقول، «ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم»^(٥٨).

ويعود الجابري في «تكوين العقل العربي» إلى تكرار الفرضية نفسها عن «الصراع» بين مشرقي خراسان ومغربيي بغداد، ولكن مع تعضيدها بعناصر جديدة. فبعد أن يستشهد مجدداً برسالة ابن سينا إلى الكيا ويمقدمة «منطق المشركيين» ومقدمة قسم المنطق من «الشفاء»، يقول: «تضعنا هذه النصوص، التي سبق أن وظفناها في دراسة خاصة عن «ابن سينا وفلسفته المشرقية»، تضعنا في قلب الصراع الذي نشب في القرن الرابع الهجري بين من يسميهم ابن سينا «المشركيين» ويتحدث باسمهم، وبين من يسميهم «المغربيين» ويقصد بهم كما هو واضح من النص الأول [- الرسالة إلى الكيا] منطقة بغداد. فما هو موضوع هذا الصراع وما نوع الحلول التي يقدمها ابن سينا؟... أن يكون «المغربيون» هم منطقة بغداد الذين كانت ترعاهم الدولة العباسية كما أوضحنا ذلك في الفقرة السابقة^(٥٩)، وأن يكون «المشركيون» هم إخوان الصفا والفلاسفة الإسماعيليون ومن تأثر بفلسفتهم، فهذا م يحيلنا مباشرة إلى الصراع التاريخي بين الدولة العباسية وأيديولوجيتها السنية من جهة، والحركة الإسماعيلية وفلسفتها الباطنية من جهة ثانية. وإذا، فاختلاف الفلسفي بين «المغربيين» و «المشركيين» على عهد ابن سينا، إنما هو امتداد على صعيد الفكر «المجرد» لهذا الصراع نفسه. وكما رأينا في الفقرة السابقة فقد عبّر هذا الصراع السيامي عن نفسه فلسفياً من خلال الهجوم العنيف الذي شنّه «المغربيون»، الذين كان على رأسهم أبو سليمان المنطقي السجستاني، على أصحاب رسائل إخوان الصفا وغيرهم من الفلاسفة «المشركيين» كالبخني والنيسابوري والعامري^(٦٠).

(٥٨) «فنح والتراث»، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٥٩) كان الجابري في «الفقرة السابقة» المشار إليها قد نوّه بـ «ازدهار المدرسة المنطقية في بغداد على عهد متى وانفاري و يحيى بن عدي وأبي سليمان السجستاني المنطقي الذي كان «سلطة مرجعية» في المنطق والفلسفة ببغداد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري... والذي كانت دعوته [ضد إخوان الصفا] إلى فصل الدين عن الفلسفة والفلسفة عن الدين... جزءاً من الصراع الذي اشتهر في عصره... بين «المشركيين» و «المغربيين» بحسب تعبير ابن سينا. وكان هذا الأخير ينتمي لأولئك بينما كان أبو سليمان على رأس هؤلاء» - «تكوين العقل العربي»، ص ٢٦٠ - ٢٦٣.

(٦٠) «تكوين العقل العربي»، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

وبدورنا، نقول إن هذين النصين لناقدا العقل العربي يضعان في نقطة القلب مما لا نجد مناصاً من وصفه - برغم شديد حرصنا على تحاشي اللغة الهجائية - بأنه فضيحة معرفية جديدة.

آية ذلك أن ناقد العقل العربي «يقتبس» تفسيره الشخصي «المبتكر» للغز السينيوي بخصوص المواجهة بين «المشرقيين» و «المغربيين» من مستشرق تدخل متأخراً على خط «الفلسفة المشرقية» هو سالومون بينس. وعلى معهود ما بات مألوفاً لدينا، فإن ناقد العقل العربي يقتبس عنه تفسيره بحرفيته - وبحيثياته كما سنرى - بدون أن يسميه أو يسمي مصدره. فلنحضر إذاً، ما هو مغيب.

فرضية س. بينس

في عام ١٩٥٢ - وكانت قد مضت أربع سنوات على صدور كتاب ع. بدوي «أرسطو عند العرب» - نشر س. بينس - الذي يعرفه القراء العرب من خلال كتابه عن «مذهب الذرة عند المسلمين» - دراسة مطولة في أكثر من ثلاثين صفحة من القطع الكبير تحت عنوان «فلسفة ابن سينا المشرقية ومناظرته ضد البغداديين». وقد نُشرت الدراسة في حينه في مجلة «أرشيفات التاريخ المذهبي والأدبي للمعصر الوسيط» التي كانت تصدر سنوياً عن «المركز القومي للبحث العلمي» بفرنسا. فبعد أن قدم س. بينس ترجمة حرفية لرسالة ابن سينا إلى الكيا بما تضمنته من قسمة العلماء إلى «مشرقيين ومغربيين»، أعلن عن تصديده «لتقديم حن جديد للغز الذي تثيره فلسفة ابن سينا المشرقية»، وقال ما ترجمته بالحرف الواحد:

«في ما يتعلق بالمساجلة بين «المشرقيين» و «المغربيين»، لا بد لنا بادئ ذي بدء من أن نعرف ما هوية لطرفين المتواجهين. فهل قصد ابن سينا أن يضع - تحت اسم «المشرقيين» - معاصريه من مشائبي بغداد في مواجهة مع الشرح اليوناني (الإسكلو الأفروديسي وثامسطيوس ويحيى النحوي وآخرين) الذين يمثلون المذهب «المغربي»؟ ذلك هو رأي السيد بدوي كما أفصح عنه في تصدير «أرسطو عند العرب» بدون أن يعرض الحجاج التي تسنده.

«والحال أن الفرضية التي تود الدراسة الراهنة أن تقترحها مغايرة جداً. إذ يتراءى لي أن ثمة أسباباً مشروعة للتوكيد أن كتاب «الإنصاف»، بقدر ما أن المراد منه بيان المساجلات المذهبية، إنما كان يعالج في المقام الأول خصومة تمس ابن سينا عن

أقرب قرب، إذ تضعه في مواجهة، وهو المتحدر من بخارى والقطن في أفاسيم الشرق، مع فلاسفة بغداد، المدينة الواقعة إلى الغرب.

«الرجع إلى النصوص».

«ثمة معطى أول تمدنا به الفقرة من الرسالة إلى الكيا التي يذكر فيها ابن سينا أن كتاب «الإنصاف» كان يشتمل على «تلخيص ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم»... ولا شك في أن كتاب «الإنصاف»، بحسب ما جاء في الرسالة المذكورة، كان ينطوي أيضاً على نقد «للشراح» الذين لا يستبعد أنهم كانوا من الفلاسفة اليونانيين. ومع ذلك فإن النص يميز في ما يدر بين هذه الانتقادات والمساجلة بين المغربيين والمشرقيين.

«هل كان هؤلاء الآخرون هم الناطقون بلسان ابن سينا، أم كانوا، على نحو ما تذهب إليه أطروحة السيد بدوي، الممثلين لحصومه البغداديين؟ سؤال حاسم الأهمية. والجواب، الذي لا يحتمل سبأً، يمكن استخلاصه من مقابلة الرسالة إلى الكيا بالشدرات الواصلة إلينا من كتاب «الإنصاف».

«ولا بد أولاً من كلمة بصدد بعض سمات هذه الشدرات التي تختلف في الواقع اختلافاً بيناً عما كان يمكن أن نتصوره طبقاً للإشارات الواردة في الرسالة إلى الكيا.

«وبالفعل، إننا لا نقع في هذه التعليقات - التي تفتقر كل الانقثار إلى الترابط - على نصوص أرسطوطاليسية أو منحولة على أرسطو، على أي أثر لما هو متوقع منها من ترتيب منهجي يبدأ بعرض الدعويين المتناحرتين ويعقب عليهما بتحكيم. وليس هناك من ذكر أصلاً «للمغربيين» ولا لتحكيم.

«بالمقابل، فإن «المشرقيين»... يأتي ذكرهم تكراراً... على نحو يقطع دابر كل شك بصدد تطبيق آرائهم مع آراء ابن سينا

«ومن المحقق أن خطة ابن سينا - سواء أنفلتت أم لا - كانت تفتضي أن يشتمل كتاب «الإنصاف» على عرض للخلافات المذهبية الناشبة بين المغربيين والمشرقيين. ومن المحقق أيضاً أن هؤلاء الآخرين مسخرون في ذلك لكتاب للنطق بلسان مؤلفه. ومن المحقق أخيراً أن الكتاب يفسح مجالاً واسعاً لمحااجة ابن سينا ضد فلاسفة بغداد. ولكن نال شراح أرسطو اليونانيون هم أيضاً حظهم من الانتقاد، فذلك في أرجح الظن لأنهم كانوا المعلمين الذين أمدت كتاباتهم البغداديين بتأويلات مأذونة للنصوص الأرسطوطاليسية.

«إن هذه المعطيات تستدعي بمتهى الوضوح، في تقديري، استنتاجاً حتمياً. إن ما يجعل خصوم ابن سينا البغداديين مطابقين في الهوية «المغربيين»، هو كونهم مغربين بالنسبة إلى البخاري القطن في أقاليم المشرق. ويظهر، في خلاصة القول، أنهم كانوا - في نظر ابن سينا - ممثلي مأثور يعود في أصوله إلى مشائية الشراح اليونانيين الذين لا جدال في كونهم يقبلون الوصف هم أيضاً بأنهم «مغربيون»»^(٦١).

هنا نستطيع أن نتحدث هنا عن «توارد خواطر»؟ ذلك أنه قد يتفق بالفعل في التاريخ أن يكتشف عالمان حقيقة واحدة وفي زمن متواقت. ولكن «اكتشاف» الجابري جاء هنا بعد أكثر من خمس وعشرين سنة من «اكتشاف» بينس. هذا، من جهة. ومن جهة ثانية، فإننا لسنا هنا أمام حقيقة ليحتمل اكتشافها من قبل عالمن في آن معاً. وإنما نحن أمام قصة أو رواية. وكما في كل قصة أو رواية من صنع المخيلة، فإن المؤلف لا يمكن إلا أن يكون واحداً. وإذا كرر مؤلف ثانٍ حكاية مؤلف أول، فإنه لن يكون في هذه الحال إلا متحلاً، أو في أحسن الأحوال مترجماً إن يكن هناك تحويل من لغة إلى لغة. ولكن الإشكال مع ناقد العقل العربي أنه في الوقت الذي ينقل فيه إلى العربية القصة التي تخيلها بينس بالفرنسية، فإنه يهمل إهمالاً تاماً الإشارة إلى اسم المؤلف الأصلي.

أضف إلى ذلك أن الجابري لا يأخذ عن بينس نتيجة الحكم وحدها - بحرفها، بل كذلك حيثيات الحكم^(٦٢)، وهذا ما يلغي بصورة نهائية كل دور «للصنعة». وبالفعل،

(٦١) س. بينس: (La Philosophie Orientale D'Avicenne et sa Polémique Contre les Bagadiens)، نسي: (Archives D'Histoire Doctrinale et Littéraire du Moyen Age).

مشتورات مكتبة فران الفلسفية، باريس ١٩٥٣، ص ١٠ - ١٦.

(٦٢) مما يؤكد التبعية لحرفية هنا أن الجابري يحذو بينس أحياناً يحذو التعل بالتعل في التفاصيل. فبعد أن يورد خاتمة الرسالة إلى الكيا حيث يقول ابن سينا: «ولما أبو نصر الفارابي فيجب أن يعظم فيه الاعتقاد ولا يُجرى مع القوم في ميدان. فيكاد يكون أفضل من سلف من اسلف. ولعل الله يسهل اللقاء معه فيكون إما إفادة أو استفادة»، يفتح هامش ليلق: «واضح من النص أن لضبير في «معه» يعود إلى الكيا الموجهة إليه الرسالة، لا إلى الفارابي كما فهم ذلك بدوي في ص ٤٠ من المقدمة التي صدر بها الكتاب المذكور» («التراث والحداثة»، ص ٢٣٠ - ٢٣١). والحال أن هذه الملاحظة نفسها كان أبدعها بينس في هامش الصفحة ٩ من مقاله حيث يقول: «إن ابن سينا يشير في هذا المقطع من الرسالة إلى احتمال لقاء مع المرسل إليه وليس كما يفترض بدوي (في ص ٤٠ من «أوسلو عند العرب» المدخل) إلى تواتر وحي مع الفارابي =

ما هي الحثييات التي بنى عليها بينس التفسير الخاص الذي اقترحه للغز «المشرقيين والمغربيين» في «مناظرة ابن سينا ضد البغداديين»؟ على كون مدار الخلاف بين «المشرقي» ابن سينا و «المغربيين» البغداديين هو، كما يتراءى له، حول نظرية النفس. وفي ذلك يقول: «إن مذهب المشرقيين الذي ينزعون إلى بيانه في تلك التعليقات هو أن للنفس وجوداً مفارقاً للبدن. وهذا موقف مخالف للمأثور المشائي. وهم يتماسكون مع أنفسهم منطقياً عندما يؤكدون - هذا إن لم يكن ابن سينا هو من يتكلم باسمه الشخصي - أنه لا دليل على أن النفس صورة متقومة في بدن. إذًا، فهم أصحاب فكر مستقل، أو على الأقل منعق من الولاء لأرسطو الذي لا يوفرونه في انتقاداتهم. وعندهم أن كتابه «في النفس»، الذي يعالج موضوعاً هو في منتهى السمو، يدل على قدر أقل من البراعة في البرهان ومن الدقة في عرض المذهب مما في كتابات أرسطو الأخرى التي تتناول فروعاً شتى من العلوم الطبيعية. وهذا لا يمنهم مع ذلك من أن يسعوا أحياناً إلى شدة إلى جانبهم، برغم أنف هذا الشارح أو ذاك (المقصود في غالب الأحيان الإسكندر الأفروديسي) من الشراح الذين يتهممهم ابن سينا - بواسطة أولئك الناطقين بلسانه أو يتخلية عن ذلك الاسم المستعار - بتحريف فكر الفيلسوف اليوناني، وذلك هو واقع الحال في ما يخص المذهبين اللذين يشير إليهما ابن سينا في الرسالة إلى الكيا: المذهب المتعلق بطبيعة العقل الهولاني ومذهب بقاء النفس [= بعد مفارقة البدن]. وبالفعل، يرى «المشرقيون» أن العقل الهولاني هو استعداد للنفس، ويؤكدون أنهم في كلال عن أن يدركوا كيف أمكن للإسكندر الأفروديسي أن يسلم بإمكانية أن تعزى إلى أرسطو نظرية تعتبر أن العقل الهولاني والنفس التي هذا لعقل قوة لها مما طبيعة مادية. وهذا موقف يطابق موقف ابن سينا كما يتجلى في الرسالة إلى الكيا التي اشتملت، على كل حال، على نقد لفيلسوف يقول بأن العقل الهولاني استعداد للقلب، أي بالتالي مادي. فهو تستهدف هذه المساجلة الإسكندر الأفروديسي أم نصرانياً من بغداد في جملة من يندد ابن سينا في تلك الرسالة بضلالاتهم في ما يخص نظرية النفس والعقل؟ هذا ما تجهله، مثلما تجهل ما كان عليه مذهب البغداديين بخصوص خلود النفس. ولكن نظراً إلى ما تضمنته الرسالة إلى الكيا من تقييم لهم

= الذي مات من زمن بعيد». ولجدير بالذكر أن بدوي رقع في هذا الغلط في معرض تصحيحه رواية البيهقي لنص الرسالة حيث أورد اسم «أبي الخير» (الحسن باب بن سوار) بدل «أبي نصر» (الفارابي).

لا مجاملة فيه، لا يبقى ثمة مجال للشك في الخلاف القائم بهذا الصدد بينهم وبين ابن سينا الذي يؤكد مذهبه على بقاء النفس الفردية بالتعارض مع المذهبيين المعتابيين أصلاً - اللذين يقول بهما المفسران الأشهران: الإسكندر وثامسطيوس - والحال، أنه من شبه المؤكد، بالرجوع إلى «التعليقات على حواشي كتاب «النفس» لأرسطو»، أن ابن سينا يعزو أطروحته حول هذه المسألة إلى المشركيين. وهذا، بطبيعة الحال دليل إضافي على أن هؤلاء ليسوا هم افلاسفة البغداديين»^(٦٣)

هذه احثيات، التي ارتكز عليها ينس ليقم معاهاته بين ابن سينا والمشرقيين من جهة أولى، وبين فلاسفة بغداد والمغربيين من الجهة الثانية، هي التي يعيد الجابري إنتاجها لحسابه الخاص، ويتركيز مماثل على بندي مفارقة النفس ومادية العقل الهيرلاني. فبعد أن تحدث، في النص الذي سبق لنا الاستشهاد به، عن «الهجوم العنيف الذي شنه «المغربيون» الذين كان على رأسهم أبو سليمان المنطقي السجستاني على أصحاب رسائل إخوان الصفا وغيرهم من الفلاسفة «المشرقيين» كالبخعي والنيسابوري والعامري»، أضاف قوله: «أما ابن سينا فهو يريد أن يتجنب هذه المواجهة المباشرة التي كانت ستظهره بمظهر المدافع عن الإسماعيلية وفلسفتها، وبذلك نقل الصراع إلى ما يؤسسه إبستمولوجياً، إلى مسألة المعرفة وأدواتها، وبالضبط إلى أيهما يجب اعتماده كأداة للمعرفة الصحيحة: العقل أم النفس»^(٦٤)؟ ولذلك نجد ابن سينا يهاجم «المغربيين» بسبب ما دعاه بـ «تبلدهم وتردهم» في فهم أمر «النفس والعقل»، رابطاً ذلك بما عبّر عنه بـ «حيرة» الإسكندر وثامسطيوس وغيرهما من شراح أرسطو أمام «التباس مذهب صاحب المنطق عليهم» حول النفس وخلودها... وقد نشغل شراح أرسطو بهذه المسألة (= مسألة العقل الفعّال وخلوده ودره في إخراج العقل المتفعل من القوة إلى الفعل) ولكن من دون أن يمسا طبيعة العلاقة بين النفس ولبدن

(٦٣) أوشفات تاريخ المذهبي ولأدبي لعصر الوسيط، مصدر آف الذكر، ص ١٢ - ١٥.

(٦٤) التسويد من الجابري. ولكن لو لم يسود هذه الجملة لكنا سؤدناها بمنسنا. ولها ما منه للقارئ بأن ابن سينا «نفس» المنزع لا «عقلي» المنزع. يقم تقابلاً ما بين العقل والنفس وكأيهما صيدان متفارقان، متجاهلاً - أو جاهلاً - أن نظرية العقل عند أرسطو هي جزء من نظرية النفس، وأن تعريف العقل عنده هو أنه القوة الأولى للنفس، وأنه هو - وليس أحد سواه - هو من أرفع التلازمة والمفسرين «مشتانين من بعده أسرى إشكالية لا مخرج لها، إشكالية العقل الفعّال والعقل المتفعل التي ختم عليها كتبه في «النفس» والتي هيمنت بلا منازع على الفكر الفلسفي للعصر الهلنستي، كما للعصر الوسيط، الإسلامي والمسيحي على حد سواء.

كما حددها أرسطو. فالإسكندر الأفروديسي يرى أن «النفس صورة الجسم، وجميع وظائف النفس مرتبطة بتغيرات عضوية، فالنفس شيء من الجسم، وعلى ذلك فالعقل الهولاني فاسد بفساد الجسم. أما العقل الفعال فلما كان هو الذي يجمع صور الماديات معقولة، فيجب أن يكون مفارقاً وليس جزءاً من النفس، ولكنه يفعل في النفس من خارج، هو الله العلة الأولى». وأما ثامسطيوس «فقد ذهب إلى أن الحجيج التي تضطر إلى اعتبار العقل الفعال مفارقاً، تضطر إلى اعتبار العقل المنفعل (= العقل الهولاني) مفارقاً كذلك من حيث إنه يحقل المعقولات. فكل العقلين مفارق دائم واحد بالإضافة إلى بني الإنسان جميعاً»^(٦٥). أما ابن سينا فقد ذهب مذهباً آخر تماماً، فبنى النظرية الهرمية التي تقوم على اعتبار النفس جوهرأ مستقلاً عن البدن، وأنها في الأصل جزء من الإله. لمتعالي، غرسها الإله الصانع في الجسم البشري، وأنها تمكث مدة في هذا الجسم، فإذا هي خضعت لعملية «التطهير» عادت إلى أصلها الإلهي. تبنى ابن سينا هذه النظرية ودافع عنها في مختلف كتبه، وانشغل أيما نشغال بالبرهنة على وجود النفس وعلى أنها جوهر روحاني مستقل وأنها مفارقة وخلالة، وأنها هبطت إلى الإنسان من «المحل الأرفع»^(٦٦).

وإذا استثنينا هذا الاتهام - الجزافي كما سنرى - لابن سينا بالهرمية، وإذا استثنينا أيضاً التعريف المقتضب بمذهب الإسكندر وثامسطيوس بالاستعانة بيوسف كرم، فلن يحسر علينا أن نتعرف في نص الجابري إلى نص بينس. ولكننا إذ نقارب على هذا النحو بين النصين، فلا مناص لنا أيضاً من أن نباعد بينهما، أو بتعبير أدق بين كاتبيهما. فالجابري يستعير بلا أدنى شك العمود الفقري لفرضيته عن الحكمة المشرقية من بينس، ولكن حشوة هذا العمود الفقري وكسوته تعودان إليه حصراً. فبينس ما زاد، في تصديده لحل «لغز» الحكمة المشرقية، على اقتراح تحديد جديد لهوية المتساجلين المشرقيين والمغربيين ولموضوع امساجلة: خلود النفس ومادية أو لامادية العقل الهولاني. ولكن ناقد العقل العربي لم يتوقف عند الحدود العلمية المتواضعة التي رسمها بينس لمحاولته الاجتهادية - وهي الحدود المتعينة سلفاً بما أسميناه الملازمة الأفلاطونية المحدثة للإشكالية المشائية في لترات الفلسفي العربي الإسلامي - بل تعداها إلى

(٦٥) يقبس الجابري هذين التعريفين - الموضوعين بين مزدوجين - لمذهبي الإسكندر وثامسطيوس من كتاب يوسف كرم: «تاريخ الفلسفة اليونانية».

(٦٦) «تكوين العقل العربي»، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

ابن سينا: أسطورة فلسفة المشرقية

توظيف أيديولوجي شرس تحت ستار الحفر الاستعماري - ضد فلسفة ابن سينا «المشرقية» من حيث إنها مشرقية تحديداً. والحال إن هذا التوظيف الأيديولوجي قد حدا به ليس فقط إلى استعمال النصوص - باعترافه - «استعملاً وظينياً لا استعمالاً معرفياً»^(٦٧)، بل كذلك إلى المغالطة المتعمدة في تأويلها كما في تأويل الوقائع التاريخية التي تحيل إليها.

وبالفعل، إذا عدنا إلى النصين اللذين تقدم بنا الاستشهاد بهما من «نحن والراث» (ص ١٩٢ - ١٩٣) و «تكوين العقل العربي» (ص ٢٦٠ - ٢٦٥)، لا مكنن حصر الإضافات «الحشوية» للحباري على الهيكل العظمي لفرضية ينس بما يلي:

أولاً - ادعاء وجود «منافسة سياسية» لم يحدد النص طبيعتها - «بين العراق وخراسان».

ثانياً - ادعاء وجود «منافسة علمية» موازية بين «المشرقيين أهل خراسان، والمغربيين أهل العراق»، والتدليل على هذه المنافسة «بالعت لشديد والمناكدة» اللذين استقبل بهما العامري «المشرقي» في بغداد «لمغربية».

ثالثاً - المزوجة بين هذه المنافسة العلمية وبين صراع أيديولوجي طرفاء: «الدولة العباسية بأيديولوجيتها السنية» و «أهل خراسان الذين كانوا حرائية» بشهادة المقدسي.

رابعاً - قيادة المدرسة المنطقية البغدية المغربية (= متي والفارابي ويحيى بن عدي)، تعود إلى أبي سليمان السجستاني، مثلما تعود قيادة المدرسة المشرقية (= إخوان الصفا والفلاسفة الإسماعيليين والبلخي والنيسابوري والعامري) إلى ابن سينا.

خامساً - هذا الصراع الفلسفي الجغرافي هو في حقيقته استمرار للصراع على تراث أرسطو، بتأويله المغربي العقلاني وتأويله المشرقي اللاعقلاني. وهذا الصراع يتفرع في اتجاهين:

أ - الموقف من نظرية أرسطو في العقل وقسمته إياه إلى عقل فعال مفرد وعقل منفعل (أو «هيولاني»)، هو عند تلميذه الإسكندر «مادي» وبالتالي «فاسد»، وعند تلميذه ثامسطيوس «مفرق» وبالتالي «خالد».

(٦٧) «نحن والراث»، ص ١٢٨.

ب - الموقف من نظرية أرسطو في النفس والاختلاف على كونها متقومة بالبدن أو مستقلة عنه وهابطة عليه من «المحل الأرفع»، مما ينهض بحد ذاته معياراً لعقلانية المعسكر المغربي بقيادة أبي سليمان السجستاني، ولهرمسية المعسكر المشرقي بقيادة ابن سينا.

لقد كان ناقد العقل العربي أخطرنا بأنه يريد استعمال النصوص «استعمالاً وظيفياً، لا استعمالاً معرفياً». ولكن هل يمكن أن يصدق على الوقائع ما يصدق على النصوص؟ فالوقائع لا تصلح للتوظيف في تأويل النصوص إلا بقدر ما تكون «معرفية»، أي «واقعية». أما إذا كفت عن أن تكون كذلك، فإنها تكف عن أن تكون وقائع لتصير مغالطات. والحل أن جميع الوقائع الخمس التي يسوقها ناقد العقل العربي كمستندات مادية وتاريخية للتأويل، لا تعدو - كما منتهى - أن تكون مغالطات. والحال أيضاً أنه عندما تتكاثر المغالطات ويأخذ بعضها برقاب بعض في سلسلة من خمس حلقات، فإن تفكيكها يتطلب من الباحث تأنيلاً مثلما يتطلب من القارئ صبراً. فنحن هنا كما لو في حقل القمام: إزالة المزروع منها يقتضي من الجهد والوقت أضعاف ما بذل في زرعها.

المنافسة الموهومة بين العراق وخراسان

إن الواقعة الأولى التي ينطلق منها ناقد العقل العربي هي واقعة «المنافسة السياسية بين العراق وخراسان» في نحو العام ٣٦٤هـ، عام ورود العامري إلى بغداد بصحبة ابن العميد بمقتضى نص التوحيدى. فما هو المشهد السياسي الذي تقدمه العراق وخراسان في ذلك النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى؟ إنه المشهد البويهى. مشهد إطباق مؤيد على الدولة العباسية من جانب الأمراء البويهيين على كامل جناحها الشرقي الممتد من العراق إلى خراسان. فمنذ أن دخل أحمد بن بويه بغداد عام ٣٣٤هـ، وامتلكها وتلقب باسم «معز الدولة»، غدا كل ذلك الجناح الشرقي من الخلافة العباسية تحت إمرة حاملي لقب «الدولة» من ديلمه آل بويه: من عز الدولة (٣٥٦-٣٦٧هـ) إلى عضد الدولة (٣٦٧-٣٧٢) إلى شرف الدولة (٣٧٢-٣٧٩) إلى بهاء الدولة (٣٧٩-٤٠٣) إلى جلال الدولة (٤١٦-٤٣٥) في العراق وخوزستان وكرمان، ومن عماد لدولة (٣٢٠-٣٣٨) إلى صمصام الدولة (٣٧٩-٣٨٨) إلى عماد الدولة أبي كالحجار (٤١٥-٤٤٠) في فارس، ومن ركن الدولة (٣٢٠-٣٦٦) إلى مؤيد الدولة (٣٦٦-٣٧٣) إلى فخر الدولة (٣٧٣-٣٨٧) إلى مجيد الدولة (٣٨٧-٤٢٠) إلى شمس الدولة

(٣٨٧-٤١٢) إلى سماء الدولة (٤١٢-٤١٤) في الري وأصمهان وهمذان. وبرغم تعدد الإمارات البويهية ما بين العراق وفارس وخُراسان، فإن أكثر ما اتصف به بنو بويه، في الحقبة الأولى من تسلطهم على الأقل، هو انضباطهم و«التضافر الوثيق» في ما بينهم، كما كان لاحظ آدم متز. وما دام نص التوحيدي، الذي يستشهد به الجابري، يحيلنا إلى عام ٣٦٤هـ، فلنذكر أنه في تلك الحقبة تحديداً تجلّت الوحدة السياسية، لا «المنافسة السياسية»، بين الأمراء البويهيين بأقوى صورها. يقول آدم متز أيضاً: «كان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢هـ) من دون سائر أعضاء أسرته، هو الذي يمثل السيد الحاكم تمثيلاً حقيقياً، وقد خضعت لسلطانه، في آخر أمره، البلاد الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان، فلا بدع بأن يُلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام»^(٦٨).

والواقع أنه إن تكن من «منافسة سياسية» في ذلك العصر فليست - كما يروهم الجابري قارنه - بين «العراق وخُراسان»، بل بين الأسرة البويهية لهيمنة على كامل الرقعة الممتدة بين العراق وفارس وأقاليم ما دون لنهر من خُراسان، وبين الأسرة السامانية المسيطرة على أقاليم ما وراء النهر من خُراسان. والحال، أن هذه المنافسة السياسية تنقض - ولا تثبت - التأويل الجابري «للمنافسة العلمية» بين المغريبين والمشرقيين. فالبويهيون، الذين فرضوا «حمايتهم» على الخلافة العباسية ببغداد، كانوا كما هو معلوم من الشيعة الاثني عشرية. أما السامانيون، الذين بقوا مستقرين في بلاد ما وراء النهر وعاصمتها بخارى، إلى نهاية القرن الرابع الهجري، فكانوا سنيي العقيدة (وإن يكن واحد من أمرائهم وهو نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١) اعتنق الإسماعيلية، فثار عليه غلمان الترك وقتلوه وامتأصلوا شأفة الإسماعيليين). وبدون أن يدخلوا في صدام عسكري وسياسي مباشر مع البويهيين، فقد كانوا يزودون أيديولوجياً على الحماة الشعبيين للمخلافة حتى «يثبتوا على الملاء أن المذهب السني لن ينجو من محتته في نهاية الأمر إلا على يدهم»^(٦٩). ولكن حتى لو سلمنا بأن هذا الصراع الساماني - البويهي كان له تأثير على «المنافسة العلمية» بين المشرقيين والمغريبين، فإن تأثيراً مزعوماً من هذا

(٦٨) آدم متز: «الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريفة، الطبعة الخامسة، دار الكتاب العربي، بيروت بلا تاريخ، م ١، ص ٦١.

(٦٩) كلود كاهن: «تاريخ العرب والشعوب الإسلامية»، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٢، م ١، ص ٢٨٧.

القبيل كان لا بد من أن يأتي في عكس الاتجاه الذي يتأوله به ناقد العقل العربي - فـ «البخاري» الذي كانه ابن سينا، الزعيم المفترض للمشرقيين، كان سينتصب في هذه الحال، من موقع ساماني سني، لمواجهة المغربيين من «منطقة بغداد الذين كانت ترعاهم الدولة العباسية» من موقع بويه شيعة. والواقع أن كل هذه «الشوراء» لا معنى لها. فلا مدرسة بغداد المنطقية التي «كان يتزعمها النصارى من الترجمة والمتفلسفة» - بمقتضى نص الجابري ذاته - كانت معنية بالدفاع عن «الأيدولوجيا السنية» للدولة العباسية بقيادتها الشيعية، ولا ابن سينا نفسه قابل للتفسير فلسفياً بالصراع السني - الشيعي، لأنه قضى حياته متقللاً بين بلاطين ومكتبتين: بلاط السامانيين السنيين ومكتبتهم العظيمة ببخارى، وبلاط البويهيين الشيعيين ومكتبتهم التي لا تقل عظمتها في الري.

وإذا تركنا القرن الرابع إلى القرن الخامس الهجري وجدنا أنفسنا أمام منافسة سياسية ثانية، ولكن من مواقع جغرافية وطبيعة أيديولوجية مغايرة للأولى. ففي انصف الأول من القرن الخامس احتدت المنافسة السياسية بين البويهيين المسيطرين على العراق وقارص وبين الغزنويين الذي سيطروا على خراسان وما وراء النهر بعد أن أسقطوا دولة السامانيين. وفي هذه المرة أيضاً لم تكن الخريطة الأيديولوجية للمنافسة السياسية تطابق وهَم صورتها لدى ناقد العقل العربي. ففي الوقت الذي استمرت الهيمنة البويهية، الشيعية، على العراق العباسي، العربي والعجمي معاً، فإن الأيدولوجيا السنية كانت وجدت ملاذها في خراسان الغزنوية. وإزاء التسامح النسبي للبويهيين، وعلى الأخص للسامانيين، فإن الغزنويين كانوا شديدي التعصب للدين وعلى الفلسفة في آن معاً. ومدرسة بغداد الفلسفية لم يكتب لها بعض البقاء في مطلع القرن الخامس إلا بقدر ما بقيت عاصمة الخلافة تحت سيطرة البويهيين وبعيداً عن قبضة الغزنويين. ولقد لفظت المدرسة البغدادية أنفاسها تماماً عندما سيطر السلاجقة على دولة الخلافة العباسية: إذ ما كان السلاجقيون، من وجهة النظر الإثنية والأيدولوجية معاً، إلا نسخة من الغزنويين.

من هنا، خرافة «المنافسة العلمية» التي يتوهم الجابري ويوهم قارءه معاً، أنها كانت قائمة على قدم رسق بين العراق «المغربي» وخراسان «المشرقية» في عصر ابن سينا. والحال، إن الدليل اليتيم الذي يسوقه ناقد العقل العربي بهذا الخصوص هو ما رواه أبو سليمان السجستاني، ومن بعده أبو حيان التوحيدي، عن «المتاعب» التي تعرض لها العامري «المشرقي» في بغداد «المغربية». فقد ذكر صاحب «صوان الحكمة»

أن أبا الحسن العامري «قصد بغداد وتصدر بها، وإن لم يرَضَ أخلاق أهلها، وعاد وهو فيلسوف تام... وقيل له لما عاد من بغداد: كيف رأيت الناس فيها قال: رأيت عندهم طُرفاً ظاهرة وشارة معجبة ومراة معشوقة. لكنني رأيت من وراء ذلك سخفاً بالغاً ووداً فاسداً واستحقاراً لأهل خُراسان وجميع البلدان. وأصبح ما يتفق للإنسان أن تكون طينته مشرقية وصورته عراقية. فإنه يصير بهذا جامعاً بين مائة خُراسان وظرف العراق، مفارقةً لبلاده خُراسان ورعونة لعراق. وكان أبو الحسن قريب القلب من أخلاق العراقيين، فإنهم سلخوه وفسخوه وهجروا معه الإنصاف فضلاً عن الإمعاف»^(٧٠).

وقد وجدنا نقد العقل العربي يعزز هذا النص بآخر يتحدث عما لقيه العامري من «عنت ومناكدة» من «الأصحاب البخداديين» عند قدومه إلى عاصمتهم «سنة أربع وستين وثلاثمئة بصحبة ذي الكفایتين»، لينتهي إلى القول بأنه «واضح من هذا النص أن أبا الحسن العامري، وهو فيلسوف معاصر لابن سينا، يستعمل مصطلح «مشرق» بمعنى «خُراسان». وبما أنه يعارض خُراسان بالعراق، فإن «المغرب» بهذا الاعتبار هو العراق وعاصمته بغداد... هذا من جهة. ومن جهة أخرى يُفهم من ذات النص أنه كانت هناك منافسة علمية - علاوة على المنافسة السياسية - بين العراق وخُراسان»^(٧١).

والسؤال الذي يطرح نفسه حالياً: هل نحن فعلاً، كما يؤكد الجابري، «أمام شهادة تاريخية ثمينة تكشف لنا، ليس فقط عن مدلول مصطلح «مشرقي» و «مغربي» في عصر ابن سينا، بل تطلعنا كذلك على واقع تاريخي يكتسي التعرف إليه أهمية بالغة بالنسبة لموضوعنا، واقع التنافس بل الخصومة بين المشرقيين أهل خُراسان، والمغربيين أهل العراق؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، لا بد من أن نتوقف منبهة لتدقيق في مرجع الجابري في هذا الشاهد. فالجابري يحيلنا في الهامش إلى مقدمة أحمد عبد الحميد غراب في تحقيقه لكتاب العامري «الإعلام بمناقب الإسلام». ولتقرّ حالاً لناقد العقل العربي بأنه يلتزم هنا - على غير مألوف عاداته - الدقة. فالنصان - نص السجستاني في «صوان الحكمة» ونص التوحيدي في «المقابسات» - قد وردا كلاهما، بالفعل، في

(٧٠) أبو سليمان السجستاني: «صوان الحكمة وثلاث رسائل»، تحقيق عبد الرحمن بدوي، طهران ١٩٧٤، ص ٣٩٠.

(٧١) «نحن والقراء»، ص ١٩٢. والتسويد منا لسبب سيتضح تواتراً.

مقدمة محقق «الإعلام بمناقب الإسلام». ولكن قد يتساءل القارئ: لِمَ رجع الجابري هنا إلى مصدر من «يد ثانية»، ولم يرجع إلى النصين في مصدريهما الأصليين، والمفروض أنهما معلومان لديه؟ قد لا نجد من تفسير لذلك سوى الآلية اللاشعورية التي تتحكم بما أسماه فرويد علم نفس الهذات، ذلك أن المنطوق به ههنا يخفي مسكوتاً عنه: فالجابري يدين على ما يبدو لمحقق كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام» بأكثر مما يصرح بأنه يدين له به. فهو لا يقبس من أحمد عبد الحميد غراب نصي السجستان والتوحيدي فحسب، بل كذلك - ولكن بلا تصريح هذه المرة - فكرة المناقسة السياسية والعلمية المزعومة بين المراق وخُراسان. وبالفعل، كان محقق كتاب العامري، في مقدمته العائد تاريخها إلى عام ١٩٦٧، قد علق على النصين المشار إليهما بقوله: «يبدو أن المناقسة الشديدة - ولا سيما المناقسة العلمية والسياسية - بين العراق وخُراسان كان لها دخل كبير في هذه المعاملة غير الكريمة التي لقيها العامري ببغداد»^(٧٦). وعلى أي حال، فإن محقق كتاب العامري يقر بأنه هو نفسه ليس متباً إلى فكرة تلك المناقسة، إذ اقتبسها عن المستشرق إ. ج. براوي في كتابه «التاريخ الأدبي لفارس» (A literary history of persia). وعلى أي حال أيضاً، فليست الفكرة بحد ذاتها هي المهمة، ولا حتى «لظنها» المسكوت عنه؛ وإنما الخطورة في فصلها عن سياقها، وإزاحتها عن مدارها بما لا يقل عن نصف قرن من الزمن، والإصرار على اختلاق علاقة تعاصر بين العامري وابن سينا^(٧٧) لإجبار «فلسفته المشرقية»، العائدة زمانياً إلى الربع الأول من القرن الخامس، على الدخول في خانة المناقسة السياسية والعلمية التي كانت درت بين بلاط السامانيين في بخارى، وبلاط البويهيين في بغداد (وكذلك الري وهمذان وأصفهان) في لربعين الثاني والثالث من القرن الرابع.

وبصرف النظر عن هذه الإزاحة الزمانية التي تغدو ضرباً من اللامعقول التاريخي منذ أن أخلى السامانيون مكانهم للغزنويين وغادروا مسرح التاريخ نهائياً عقب انقراض ملكهم عام ٣٨٩هـ على يد السلطان محمود بن سبكتكين، فإننا نتساءل: هل كان

(٧٦) أبو الحسن العامري: كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام»، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧، ص ٨. (ولعل تلك الآلية اللاشعورية، لشاقة عن ضبط المكتوب، هي التي جعلت ناقد العقل العربي يهفو أيضاً بتحريف اسمه من أحمد عبد الحميد غراب إلى عبد المعيد غراب. انظر: «نحن والراث»، ص ٢٣٧).

(٧٧) لا ننسى أنه في عام قدوم العامري، الذي يؤكد الجابري أنه «فيلسوف معاصر لابن سينا»، إلى بغداد بصحبة ذي الكفائين ستة أربع وستين وثلاثمائة، لم يكن ابن سينا قد رأى النور بعد.

للمنافسة السياسية والعلمية بين اليلاطين الساماني والبويهى مدلول فلسفي كذلك الذي يعطيه ناقد العقل العربي للمنافسة الأيديولوجية المزعومة بين مدرسة لمعقول الأرسطي في العراق ومدرسة اللامعقول الهرمسي في خُراسان؟ ولو كان ثمة تضامن، كما يفترض ناقد العقل العربي، بين الأيديولوجيا السنية والفلسفة الأرسطية، فكيف نفسر أن يكون اللامعقول الهرمسي قد وجد ملاذه في البلاط الساماني السني بخُراسان، بينما آلت حضانة المعقول الأرسطي إلى البلاط البويهى الشيعي بالعراق؟

ثم ما هذه النزعة المادية والتاريخية الساذجة التي تقيم علاقة تبعية بين السياسة والفكر، وتنكر على الفلسفة كل مؤد ذاتي وكل استقلال - ولو نسبي - عن الأيديولوجيا، وتعتبر المدارس الفلسفية مجرد انعكاس للمصالح والصراعات اسياسية التي هي، في الحالة التي نحن بصدها، محض صراعات بين سلالات وإثنيات وعصبيات وعسكريات ارتزاقية^(٧٤)؟

وإذا عدنا إلى نصي السجستاني والتوحيدي عن العامري - وهما الشاهد البتيم الذي يسوقه ناقد العقل العربي نقلاً عن أ.ع. غراب للتدليل على وجود المنافسة المشرقية/المغربية وفعاليتها الأيديولوجية - فإننا نتساءل: هل «امتاعب» التي لقيها العامري في بغداد قابلة للرد إلى التنافس الفلسفي المزعوم بين المدرستين الخُراسانية والعراقية؟

إن النص يشير أولاً - ولنتحدث عنه وكأنه نص واحد - إلى «استحقاق البغداديين» ليس فقط «لأهل خراسان»، بل كذلك لأهل «جميع البلدان». فنحن لسنا إذًا، أمام واقع تنافس أيديولوجي بين مشرقيين خُراسانيين ومغربيين عراقيين، بل أمام ما يسميه فرويد «نرجسية الفروق الصغيرة»، أي ضرب من مركزية إثنية (Ethnocentrisme) كثيراً ما يلحظها علماء الأنثروبولوجيا في العلاقات بين الأمم والبلدان المتجاورة، ويميزها في الحالة التي نحن بصدها كون بغداد العاصمة الزاهرة - إلى ذلك الحين على الأقل - لدولة الخلافة الإسلامية.

(٧٤) من المفيد أن نذكر هنا بموقف نظري صحيح كان وقفه ناقد العقل العربي نفسه عندما دافع عن أطروحة تقول إن الإشكاليات الفكرية «لا تنكس بالضرورة وضماً طبقياً رلاً تعبر بالضرورة عن مصالح طبقية»، وأن «الفكر يتمتع باستقلال نسبي عن الواقع»، وأن بعض الإشكاليات انظرية والفلسفية «يحمل استقلالها النسبي عن الواقع نحو المئة بالمئة». انظر مداخلة في ندوة التراث وتحديات العصر» في الكتاب الصادر بهذا العنوان عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٩ - ٣١.

ويتحدث النص ثانياً عن أخلاق العراقيين، ويقابـل ليس بين علم العراقيين وعلم الخراسانيين، بل بين ظرف الأوائـل ومئاتـة الثانيـن. فالمسألة إذأ، ذات صلة بـ «أخلاق الشعوب»، لا بمنافسة فلسفية مزعومة. فنحن نقف هنا على أرضية أنتروبولوجية، لا على أرضية أيديولوجية. ومما يؤكد ذلك ما رواه مسكويه في «تجارب الأمم» من أنه عندما جاء القائد التركي بجكم إلى بغداد «حمل معه كثيراً من ضروب الغلظة التي اقترنت بحياته الجندية. وعندما دخل واسط طالب أهلها بالمال واشتد في تعذيبهم حتى كان يضع على بطن الرجل منهم طستاً فيه جمر، فنبهه البعض إلى أنه يفعل ما كان يفعل مرداريج بأهل الجبل، وذكره بأنه في بغداد ودار الخلافة، لا الري وأصبهان، ولا تحتل بغداد هذه الأخلاق»^(٧٥).

والنص مروى ثالثاً على لسان أبي سليمان السجستاني نفسه. وهذه نقطة بالغة الأهمية. فأبو سليمان يسمي البغداديين «أصحابنا»، مما يعني أنه يميز نفسه عنهم، وهو في الواقع ينتقدهم ويندد بأخلاقهم ويبدى تعاطفه مع العامري، لا معهم، متهماً إياهم بأنهم «هـجروا الإنصاف، فضلاً عن الإمعاف»^(٧٦). فلو صح أن السجستاني هو فعلاً زعيم العراقيين «المغربيين»، ولو صح أن المسألة هي فعلاً مسألة منافسة علمية وأيديولوجية بين «المغربيين» الممثلين بالسجستاني، وبين «المشرقيين» الممثلين بالعامري، لكان أخلق بالسجستاني أن يتعالى بدوره على العامري، لا أن يتعاطف معه. والواقع أن ما يشتم من النص هنا أن السجستاني نفسه «مشرقي» وليس «مغريباً» ولا قائداً فكرياً «للمغربيين». فعلاً كونه منسوباً إلى سـجستان، وهي من أمصار «المشرق» - وهذه نقطة ستكون لنا إليها عودة - فإن السجستاني لا يخفي تضامته مع العامري «المشرقي»، ولا يتحفظ في كيل المدح له، مثلما لا يتحفظ في توجيه انتقاداته إلى «المغربيين». ولنعـد إلى لنص كما ورد كاملاً في «المقايسات». فبعد أن يورد لتوجيهي للعامري مجموعة مطولة من الأقوال والحكم الجامعة، يضيف على لسان السجستاني: «هذا آخر التعليق نضـر الله وجهه. وقد كان قادراً على هذا الجنس من الكلام لطول اوتياضه، وكثرة فكره فيه، مع سيرة جميلة. ولقد ورد ببغداد سنة أربع وستين وثلاثمئة في صحبة

(٧٥) نقلًا عن آدم منز: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، مصدر آف الذكر، ج (١)، ص ٦٩.

(٧٦) الواقع أنه لا ينبغي أن نبالغ في معاملة المنبؤ التي يوحى كلام السجستاني وكان العامري عومل بها. فالنص نفسه يذكر أن أبا الحسن حينما قصد بغداد «تصلوا بها»

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

ذي الكفائيتين، فلفني من أصحابنا البغداديين عنناً شديداً ومناكدة، وذلك أن طباع أصحابنا معروفة بالحدة والتوقد على فاضل يرى من غير بلدتهم. وذلك كنه جالب للتنافس، مانع من التناصف، وهو خُلِقَ تابع لهوائهم وتراهم. وقد احتاجوا من أجل ذلك إلى علاج شديد ومفاوضة طويلة. وفلّ من يتخلص إلى غاية هذا الباب، لخلبة الطباع وسوء العدة وشراسة النفس. والحكمة على ألسنتهم أظهر منها على أفعالهم، ومطالبتهم بالواجب لهم أكثر من بللهم الواجب عليهم. وهذا باب وإن كان فاشياً في جميع الناس، فكأنه في أصحابنا أفسأ، وهو من جهتهم أهدأ. وعلى ذلك لا يغير واحد منهم، إذا برز في فن، عشرة من غيرهم. وإذا كان لكمال عزيزاً في النوع، فكيف لا يكون عزيزاً في الواحد. نسال الله خُلُقاً طاهراً وعملاً صالحاً وعلماً نافعا^(٧٧).

إن هذا النص لا يدع مجالاً للشك في ما بين العامري والسجستاني من «وحمة حال» وشعور بالتضامن في مواجهة عنت البغداديين ومناكدتهم وشراس طباعهم وعجرفتهم، وبكلمة واحدة ينفذهم^(٧٨). ولكن إذ فارقنا هذا النص إلى نص آخر من نصوص التوحيدي الكثيرة عن العامري جاز لنا أن نطرح سؤالاً إضافياً: هل «العنت والمناكدة» اللذان لقيهما العامري من الأصحاب لعراقيين يعدوان فقط إلى كونه خُراسانياً «مشرقياً»؟ الإجابة هنا نتركها لأبي حيان التوحيدي نفسه: فهو لا يتردد، في رواية أخرى له عن العلاقة المتوترة بين العامري والبغداديين، في أن يرّد جفوة الأخيرين إلى جفاء في خُلُق الأول نفسه. فعندما سأله الوزير ابن العارض في الليلة الثانية والعشرين من ليالي الإمتاع والمؤانسة: «رو لي شيئاً من كلام أبي الحسن العامري، فإني أرى أصحابنا يردّونه ويغلبونه، فلا يرون له في هذه المصيبة (= أهل الفلسفة والجدل) قدماً ولا يرفعون له في هذه الطائفة علماً»، قال: «فقلت: كان ابن رجل، لكزازته وغلط طباعه وجفاء خُلُق، ينقّر الناس من نفسه ويغري الناس بعرضه»^(٧٩).

(٧٧) الواقع أن السجستاني نفسه كان متبرداً من «البغداديين»، مستبعداً من مجالسهم، إذ كان في مجلسه رائحة، ولقي لسانه «كثرة ناشئة عن المعجمة» - ودالة بالتالي على أصله الخُراساني - فضلاً عما كان في وجهه من عور وحرص، انظر: «الإمتاع والمؤانسة»، ج ١، ص ٣١.

(٧٨) التبند في العامة الشامية هو التعجرف.

(٧٩) أبو حيان التوحيدي: «الإمتاع والمؤانسة»، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص ١٩٥٣، ج ٢، ص ٨٤.

عصبية ابن سينا الشرقية؟

لا نستطيع أن نطوي صفحة المناقمة الفلسفية المزعومة ما لم نثر التساؤل التالي: صيغة «المفاعلة» في «المناقمة» تقتضي وجود طرفين يتبادلان فعل التنفس، ولئن نفينا أن يكون أحد هذين الطرفين هم «البغاديون»، ولا سيما في حال تمثيلهم بالسجستاني - المنتقد لهم لا المتعاطف معهم - فإننا نتساءل: وماذا عن موقف الطرف الثاني والشريك المقابل في تلك المناقمة المغربية - المشرقية؟ فابن سينا لا يستطيع أن يظلم بدور قائد «الفريق الخراساني» في مواجهة «الفريق لعراقي» ما لم تثبت عليه عصبيتان: عصبية للمشرقيين من أهل خراسان وعصبية على المغربيين من أهل العراق. والحال أننا نحوز من النصوص ما يدحض صدوره عن أي من هاتين العصبيتين.

فبدلاً من أن يتعصب للخراسانيين نراه يتعصب ضدهم. ففي مباحثة له مع تلميذه بهمنيار بن المرزبان يقول إن طروء «الخراسانية» على الفلسفة قد «أحق الصواعق على الدنيا». وبدلاً من أن يكون «مجيء الخراسانية» عاملاً لنضاج لطبخة الفلسفة، فقد كان سبباً في بقائها فجوة. يقول: «إن هذه المسألة [مسألة] ليم يجب أن يكون مُخرج العقل من القوة إلى الفعل عقلاً» لم تنضج بعد، وهي في القدر وتحتها النار والوقود! ولم تكن الخراسانية بأوثك الطاهين الحاذقين حتى ينضج لأجلهم ما لم ينضج. بل لعلهم أولى بأن يكونوا أسباباً للفجاجة^(٨٠).

من هؤلاء «الخراسانية»؟ إن النص لا يسميهم. ولكن المباحثة نفسها تسمي الشيخ أبا القسم الكرمانى. وكذلك تفعل المباحثة الثالثة التي تسمي معه خراسانياً آخر هو مسكويه. ففي المباحثة السادسة يرفض ابن سينا أن يجيب عن أحد لأسئلة قائلاً: «هذا الجواب من بابة انكراماني». وفي المباحثة الثالثة يقذف انكراماني بشتيمة مقذعة ويضيف قائلاً: «إنه قبيح بي أن أجري مجرى مسكويه والكرمانى وهؤلاء»^(٨١).

ومن «الخراسانية» الآخرين الذين يطولهم ابن سينا بسلطة لسانه - وقد كان الشيخ

(٨٠) «المباحثات»، مصدر آف الذكر، المباحثة السادسة، ص ٢٥٥.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٧٤. هذا ويشير البيهقي إلى تالسن دار في مجلس لمسكويه بيه وبين ابن سينا. كما يروي المقطبي أن ابن سينا قال في بعض كتبه - وقد ذكرت مسألة - فقال: فهذه المسألة حاضرت بها أبا علي بن مسكويه، فاستعادها كرات، وكان عسر الفهم، فتركته ولم يفهمها.

من سينا. أسطورة الفلسفة المشرقية

الرئيس سليط اللسان - أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي يلحق ناقد العقل العربي في أكثر من موضع إلى أنه كان الأستاذ «المشرقي» الحقيقي لابن سينا في التأسيس «للعقل المستقل» في الإسلام. ففي جوابه عن المسألة الثانية من المسائل العشرين لتي طرحها عليه أبو الريحان البيروني يصم الرازي بأنه «المتكلف الفضولي في شروعه في لإلهيات وتجاوز قدره في بطل الجراح والنظر في الأبول والبرازات. لا جرم فضح نفسه وأبدى جهله في ما حاوله ورامه»^(٨٢).

هذا عن عصبية ابن سينا المزعومة للخراسانيين. أما عصبية على البغداديين فينقضها نقضاً عنيماً نص رسالة - حفظها لنا التاريخ لحسن الحظ - موجهة من ابن سينا، القائد المزعوم لفريق «المشرقيين» في «التنافس، بل الخصومة» مع أهل العرق «المغربيين»، إلى «علماء مدينة السلام». ولا بد من تثبيت نص الرسالة بتمامه لخطورته التاريخية أولاً، ولما يسلطه ثانياً من ضوء حاسم على خرافة «المنافسة العلمية» على حد تسمية ابن جابري، أو «مناظرة ابن سينا ضد البغداديين» على حد تعبير س. بينس.

يقول نص الرسالة التي حفظتها لنا مخطوطات خزائن الكتب الفارسية تحت عنوان رسالة بعض الأفاضل إلى علماء مدينة السلام:

«سَلامُ اللَّهِ على مَشايخِ العلمِ والحِكمةِ بمدينةِ السَّلامِ، مَدِّ النَّهْ في أَعْمَارِكُمْ، وَزَادَ في الْخَيْرَاتِ لَدَيْكُمْ، وَأَقْضَ مِنْ حِكْمِهِ عَلَيْكُمْ، وَزَرَقْنَا مُجَاوِزَتَكُمْ، وَغَصَصْنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْحَطَا وَالْخَطَلِ؛ إِنَّهُ وَاهِبُ الْعَقْلِ وَمُقِضُ الْعَدْلِ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِهِ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ -

«وبعد، إنَّ رجلاً مِنْ أَهْلِ مُخَارَا أَحَبَّ الْفَلَسَفَةَ وَجَهَدَ فِيهَا بِمَقْدَارِ مَا أُوتِيَ مِنَ الْمَقْدُورِ. وَلَمَّا عَرَضَتْ لَهُ السَّفَرَةُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ، لَقِيَ قَوْماً مِمَّنْ أَخَذُوا عَنْكُمْ، فَكَانُوا يُحَلِّوْنَهُ مُحَلِّ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكَانَ يَسْمَعُ مِنْهُمْ أَصُولاً مُشَاكِلَةً لِمَا أَخَذَهَا مِنْ مُعَلِّمِيهِ وَالْكَتَبِ الَّتِي اسْتَفْرَغَ فِي تَدْبِيرِهَا جُهِدَهُ، وَالتَّنَائِجِ الَّتِي نَتَجَتْ لِفِكْرِهِ، حَتَّى بَلَغَ مَدِينَةَ هَمْدَانَ»^(٨٣)، فصادَفَ بِهَا شَيْخاً كَبِيراً غَزِيرَ الْمَحَاسِنِ، وَافَرَ الْعُلُومِ، مُتَّقِناً فِي الْعِلْمِ

(٨٢) انظر النص الكامل للأسئلة والأجوبة في مجلة «الثراث العربي»، العددان ٤ - ٥، السنة الثانية، عدد خاص بمناسبة الذكرى الألفية لابن سينا.

(٨٣) إذا علمت أن قدوم ابن سينا إلى مدينة همدان كان في نحو العام ٤٠٧هـ، فهذا معناه أنه كان، يوم كتب رسالة، في نحو السابعة والثلاثين من العمر.

الحكومية والشرعية السمعية، فاستأنس وأستطاب مجاورته، إلا أنه لما أستكشف مذهبيه صادفها غريبة، عجيبة، مبنية لما فهم عن الأقدمين: أنا المنطق فمنطق آخر، وأما الطبيعيات فطبيعيات آخر، وأما الإلهيات فتمط مناسبت لكلام الصوفية عجيب. ورأى له أيضاً في الهندسة رقماً آخر. وتعجب من شيء لا يزال يصير عليه عند كل مخالفة يُعرض، ويقول إن هذا بديهيته، وإن هذا إجماع، وإن هذا مأخوذ من أفواهكم مغشّر الحكماء بمدينة السلام ومن أفواه سلف منكم قد انقضى، بآرك الله في أعماركم. وإذا تكلم تكلم بنوع آخر من لمقائيس يراها مُنتجة لمطلوباتها، وهي غير مُنتجة لها بالفعل ولا بالقوة القرية من الفعل. وإذا خللت له مقائيسه وأثبت عقمها وإنتاجها غير مطلوبه، لم يتنج فيه، بل رام إصلاحها بما هو أبعد من الأول.

وقد أنقذت إليكم، متعنا الله بكم، نسخة مقالة في نقض مذهب تقفون عليه، ومقالة لي في بانه بغيره عن الحق. ثم كتبت بعد ذلك مذهب في مسائل أخرى لما ورد فيها قياسات له أو لي، بل نفس المذهب.

«أسألكم أن تُصَرِّحوا عن الحق. فإن المذاهب كلها إما حقة وإما باطلة لها قوة، وإما من جنس الغفلة والقصور. فأسألكم أن تدلوا على مذهبي ومذهبه في تلك المسائل أنه من أي القسمة الثلاثة.

«وأعلموا أنكم، أطل الله بقاءكم وحرّس قصدكم، إذا تصفّحتم كلام الرجل لُفتم من محله محلّ النقض والمقابلة، واستحققت من يتعرّض لذلك ويضيق وقته به. لكن لكل إنسان عذر في ما يفعله، ولا يقف عليه غيره. والله أسأل أن يحرس جماعاتكم ويطين مدّتكم» (٨٤).

إن هذه الرسالة لا تدع مجالاً للشك في أن ابن سينا كان يعتبر - حتى ذلك التاريخ من حياته على الأقل - علماء بغداد بدشابة سلطة مرجعية له ولكل العاملين في حقل الفلسفة. فهو لا يقرّ لهم بأنهم «مشايخ العلم والحكمة» فحسب، بل يحتكم إليهم

(٨٤) نص الرسالة منشور في مجموعة: «رسائل الشيخ» الرئيس ابن سينا، منشورات بيدار، قم ١٤٠٠هـ، ص ٤٦٢ - ٤٦٥. ويؤكد ابن أبي أصيبعة وجود هذه الرسالة، إذ يدرج في عداد مؤلفات ابن سينا «رسالة له إلى علماء بغداد يسألهم لإنصاف بينه وبين رجل همداني يدعي الحكمة».

ابن سينا: أسطورة، لفلسفة المشرقية

ويحتكمهم في خلافاته في التأويل الفلسفي مع لحكيم الهمذاني، باعتبارهم ممثلين للسنة الفلسفية، وباعتبار مذاهبهم هي المطابقة للحق كما تفوه به الأقدمون. وهذا الانضواء تحت السنة المشائية يبيح لنا أن نخمن أنه وإن كتب تلك الرسالة في مرحلة النضوج من عمره فقد كتبها قبل أن يدخل في طور النضوج الفكري يوم سيعكف على تحرير كتاب «الشفاء» الذي ضمن ما بين سطوره تلويحات إلى خلافاته مع «الشركاء في الصناعة»، وبالتالي بذور حلمه في الاجتهاد الشخصي والاستقلال الفلسفي.

ثم إن الرسالة إلى علماء مدينة السلام تتضمن - بصدد ما نحن فيه من محاولة لتفكيك «لغز» الفلسفة المشرقية المرعومة - إشارة ثمينة إلى أن الفلسفة السائدة في هذه البلاد - ويقصد ابن سينا همدان وسائر المنطقة الواقعة تحت الهيمنة البويهية في اطراف الأدنى من نهر جيحون - ليست هي أية فلسفة أخرى سوى تلك التي كان يذيعها «قوم ممن أخذوا» عن علماء بغداد ومما يتطابق مع ما كان أخذه هو نفسه عن «معلميه والكتب التي استفرغ في تدبرها جهده» في بخارى وفي مكتبته السامانية التي يعزو إليها ناقد العقل العربي «أهمية فائقة في التكوين الفلسفي «الباطني» و «الحراشي» لابن سينا»^(٨٥). والواقع، أن أكثر ما يسترعي الانتباه في الرسالة إلى علماء بغداد، من منظور العقيدة القويمة الفلسفية، هو تعجب ابن سينا من أن يكون هناك «منطق آخر وطبيعيات أخرى» ونمط من الإلهيات مبين «لما فهم عن الأقدمين» و «مناسب لكلام الصوفية». فما أبعدنا إذاً، عن فلسفة سرية يُقال لنا إن ابن سينا استقاها في يفاعته من أفواه الدعاة الإسماعيليين ومن كتب مستورة في دار كتب السامانيين، وما فتح يتمثلها ويعيد إنتاجها إلى نهاية حياته!

إزاحة تاريخية

لا يكتفي الجابري بتوهم وجود «منافسة علمية» بين المغربيين والمشرقيين، بل يرفع هذه المنافسة المزعومة إلى مستوى التعبير الأيديولوجي عن صراع تاريخي طرفاه. من جهة أولى «الدولة العباسية بأيديولوجيتها السنية»، ومن الجهة الثانية «الحركة

(٨٥) انظر على سبيل المثال توكيده على «الأهمية التي كانت لهذه المكتبة في تكوين فكر الشيخ الرئيس ومعارفه» («نحن والتواتر»، ص ١٣٠)، وعودته إلى التوكيد بعد أكثر من ستين صفحة على «الأهمية لفائقة التي كانت لمكتبة بخارى، تلك المكتبة التي اطلع عليها ابن سينا وقال عنها إنه رأى فيها من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط» (ص ١٩٦)

الإسماعيلية وفلسفتها الباطنية» و «أهل خُرَاسان الذين كانوا حُرانية» بشهادة المقدسي. وفي ما يتعلق بالشق الأول من هذه الدعوى، فإن ناقد العقل العربي يخطئ على ما يبدو التشخيص الأيديولوجي والمرحلة التاريخية معاً. فقد رأينا أن مدرسة بغداد الفلسفية عرفت ازدهارها الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في ظل الهيمنة البويهية الشيعية على الدولة العباسية. أما المواجهة بين «الدولة العباسية بأيديولوجيتها السنية والحركة الإسماعيلية وفلسفتها الباطنية»، فتعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، لا النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وتحديدًا إلى عصر الهيمنة السلجوقية على الدولة العباسية، وهو العصر الذي شهد استتصار شأفة الفلاسفة «البغداديين» هملًا على يد السلطة لسياسية (ممثلة بالخليفة القائم بأمر الله ثم برئيس وزراء السلاجقة نظام الملك) المتحالفة مع فقهاء العصر، ونظرياً على يد الغزالي الذي تصدى للفلاسفة أجمعين - بغداديين وغير بغداديين - يبدعهم ويكفرهم.

ولولا هذه الإزاحة التاريخية للعصر البويهي في النصف الثاني من القرن الرابع إلى العصر السلجوقي في النصف الثاني من القرن الخامس - أي بمسافة زمنية لا تقل عن قرن - لما كان تأتّى للجابري أن يتصور، وأن يَصوّر المدرسة الفلسفية البغدادية ذات الغالبية النصرانية وكأنها موكلة من الدولة العباسية، الواقعة تحت الهيمنة البويهية الشيعية، بالدفاع عن أيديولوجيتها السنية، وبما كان تأتّى له أيضاً أن يزيج ابن سينا - المتوفى سنة ٤٢٨هـ - من موقعه الفعلي في الثلث الأول من القرن الخامس إلى موقع متوهم في الثلث الثالث من القرن نفسه ليُجعل ناطقاً أيديولوجياً بلسان «الباطنية» الذين كانت الدولة العباسية - بعد انتقالها من الهيمنة البويهية الشيعية إلى الهيمنة السلجوقية السنية - قد دخلت فعلاً في صراع حياة أو موت معهم.

هذا في ما يتعلق بالشق الأول من دعوى الجابري عن تعبيرية المنافسة العلمية المغربية - المشرقية المزعومة عن الصراع التاريخي للدولة لعباسية السنية مع خصومها الباطنيين؛ ويبقى بعد ذلك الشق الثاني من الدعوى الجابرية الذي يؤكد على «حرانية» أهل خُرَاسان بشهادة المقدسي. والواقع أن خطأ مطبعياً قد شاء هنا أيضاً أن يحرمانا من معرفة المرجع الذي يحيل الجابري قارئه إليه عند إشارته - في النص الذي أثبتناه آنفاً - إلى «ما ذكره المقدسي من أن أهل خُرَاسان كانوا حُرانية». ولكن ما دام الجابري يرجعنا في الأحوال جميعاً إلى المقدسي، فلنرجع بدورنا إلى المقدسي. فماذا يقول

مؤلف «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» عن خُراسان ومذاهب أهلها؟: «هو أجل الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء، ومعدن الخير، ومستقر العلم، وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم». ثم بعد أن يعيد التوكيد «وهو أكثر الأقاليم علماً وفقهاً»، ويعد أن يصف مذاهب أهله بالاستقامة، يشرع بتعدادها: «ومذاهبهم مستقيمة، غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة كثيرة، وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة، وللشيعية والكرامية به جلبة، والغلبة في الإقليم لأصحاب أبي حنيفة، إلا في كورة الشاش وابلان وطلوس ونسا وأبيورد وطراز وصنفاج وسواد بخارا... فلأنهم شفعوية كلهم، والعمل في هذه المواضع على مذاهبهم... ويرسابق هيطان أقوام يُقال لهم: «بيض الثياب» مذاهبهم تقارب الزندقة، وأقوام على مذهب عبد الله السرخسي لهم زهد وتقرب، وأكثر أهل ترمذ جهمية، وأهل الرقة شيعية، وأهل كُندُر قسرية»^(٨٦). وكما هو واضح من النص فإننا أمام تعددية مذهبية إسلامية حقيقية. وإذا أضفنا أيضاً ما يقوله المقدسي عن وجود في الإقليم لـ «يهود كثيرة ونصارى قليلة وأصناف المجوس»، فإننا نستطيع أن نتحدث كذلك عن تعددية دينية كتابية^(٨٧). ولكن ليس ثمة من كلام عن «حرايين». وصحيح أن هناك إشارة إلى وجود غامض في «رسائق هيطان»^(٨٨) لـ «أقوام يُقال لهم «بيض الثياب»، مذاهبهم تقارب الزندقة». لكن هل يمكن أن نستنتج من ذلك أنهم «حرانية»^(٨٩)؟ وحتى لو فعلنا، فهل لنا أن نعمم «الحرانية» على أهل خُراسان جميعاً بلا استثناء كما يفعل نص الجابري؟

(٨٦) محمد بن أحمد المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٩، الطبعة الثانية، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٨٧) خلافاً لما هو شائع في الاعتقاد اليوم فإن المجوس كانوا معدودين في أهل الكتاب بدلالة الآية ١٧ من سورة الحج: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة».

(٨٨) هيطان هو عند المقدسي اسم أحد الأخوين الأسطوريين اللذين عمرا الإقليم، وثانيهما هو «خراسان»، وكلاهما «ابنا عالم بن سام بن نوح». وهو عنده أيضاً اسم أحد حائبي نهر جيحون (اليرم أمو - دريا) الذي يفصل بلاد ما وراء النهر عما قبلها.

(٨٩) هنا ما تأوله بالفعل بعض المستشرقين، ولعل الجابري يقل عنهم في المصدر الذي غيبه الحطاب المطبعي. ولكن في مثل هذا التأويل تجوز كثير، ولا يبيحه قول للمقدسي نفسه كان حصر بموجبه وجود «معدن الصابئين» - إنهم حرايان - في جميع المملكة» («أحسن التقاسيم»، ص ١٣٢).

أشباح وأشباه

ولكن المسألة لا تقتصر على تلفيق هوية خرافية خراسانية، وعلى إزاحة تاريخية من العصر البويهي إلى العصر السلجوقي. ففرضية الجابري عن صراع تاريخي وأيديولوجي ما بين «المشرقيين» بقيادة ابن سينا و«المغربيين» بقيادة أبي سليمان المنطقي تقوم أيضاً وأساساً على استحالة كرونولوجية. فهذا الصراع إما أنه دار في عهد أبي سليمان، وإما في عهد بن سينا. أما أن يكون قد دار في عهد الاثنين، فهذا هو المستحيل بعينه. فالسجستاني كانت وفاته، على ما تذكر أكثر المصادر، في عام ٣٨٠هـ. ويومئذ لم يكن خصمه الموهوم ابن سينا - المولود سنة ٣٧٠هـ - قد تخطى لعشرة من العمر^(٩٠). والواقع أنه عندما تصدى ابن سينا للكتابة عن «المشرقيين» و«المغربيين» في مصنفه الضائع الإنصاف في منتصف العقد الثاني من القرن الخامس الهجري، كان جميع أبطال المدرستين المزعومتين «المشرقية» و«المغربية» خلا أب الخير الحسن بن خمار قد ماتوا: أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ)، ومثى بن يونس (ت ٣٢٨هـ)، ولفارابي (ت ٣٣٩هـ)، ويحيى بن عدي (ت ٣٦٤هـ)، والعمري (ت ٣٨١هـ) والتوحيدي نفسه (ت ٣٩٩هـ)^(٩١). وقد لا يكفي هنا أن نقول إن الصراع الذي يديره ناقد العقل العربي بين «المشرقيين» و«المغربيين» هو، كرونولوجياً، صراع بين أشباح (والشبح في المعاجم خيال الميت)، بل ينبغي أن نضيف أنه يديره أيديولوجياً بين أشباه (والشبه في المعاجم ما لا حقيقة له). ذلك أن الهويات الأيديولوجية لا تتطابق إطلاقاً والمواقع المعزوة إليهم في المعسكرين المتناحرين «المشرقي» و«المغربي». فنحن هنا، وبصريح العبارة، أمام هويات مزورة. ولنأخذ مثال أبي الحسن العامري. فهو منسوب، يمتص الأخيولة الجابرية، إلى المعسكر المشرقي بقيادة ابن سينا، مع أن انتماءه لتحقيقي إنما هو إلى مدرسة أبي

(٩٠) حتى لو أخذنا بعين الاعتبار ما يقوله أحد دارسيه وهو د. ناجي التكريتي - من أن العمر امتد بالسجستاني إلى عام ٣٩١هـ، فإن عمر «خصمه» لا يكون قد تمدى في هذه الحال الاحادية والعشرين. وهو ما كان بعد خط سطر واحد في الفلسفة. وعلى أي حال فإن النص/الشاهد الذي يشير إليه التكريتي قد وقع فيه، على ما نرجح، تصحيف فـ «أحد وتسعين» يجب أن تقرأ «أحد وسبعين»، وهو ما سنوضحه لاحقاً.

(٩١) إلى هؤلاء الأموات ينبغي أن نضيف أبا تمام النيسابوري. فعلى الرغم من أن تاريخ وفاته مجهول، فإن أبا حيان التوحيدي يربط بينه وبين القائل مرداويج ووزيره مطرف بن محمد «الإمتاع والمؤانسة»، ج ٢، ص ١٥. والحال أن مقتل مرداويج نفسه كان، كما هو معلوم، في عام ٣٢٣هـ، أي قبل نحو قرن بشماه من تصنيف ابن سينا كتاب «الإنصاف».

سليمان «المشرقية». وهذه الواقعة تؤكد لها أولاً وفاته التي كانت - كما رأينا - عام ٣٨١هـ، أي بعد نحو أحد عشر عاماً من مولد ابن سينا، بما يلغي أي احتمال لتتلمذه عليه أو حتى للاتصال بينهما^(٩٢). وتؤكد لها ثانياً حياته التي أمضى شطراً منها في بغداد حيث أتم تكوينه الفلسفي. وفي ذلك يقول أبو سليمان السجستاني نفسه: «قصد بغداد وتصدر به وإن لم يرَضْ أخلاق أهلها، وعدد وهو فيلسوف تام»^(٩٣). وتؤكد لها ثالثاً النصوص المتاحة. ففي المرتين اليتيمتين اللتين يأتي فيهما ذكر العامري بقلم ابن سينا، في «الشفاء» ثم في «النجاة»، نرى «الشيخ الرئيس» يستصغره ويستحقه ناعاً إياه - هو وغيره من خريجي مدرسة أبي سليمان - بـ «أحداث المتفلسفة الإسلامية». بل إنه في «النجاة» يدمغه بالقدامة^(٩٤). وبالمقابل، فإن أبا سليمان السجستاني لا يتحدث عنه إلا بحب الأستاذ لتتلمذه. ومن قبيل ذلك دعاؤه له وهو يستشهد بأقوال له من كتبه «الأمد على الأبد». وذكر أبو الحسن محمد بن يوسف العامري - قدس الله روحه العزيز! - في كتابه الذي يسميه «الأمد على الأبد»، أن أول من وصف بالحكمة كان لقمان الحكيم^(٩٥). والواقع أن الدارس المتخصص لفكر العامري - بوصفه أفلاطوني النزعة في المقام الأول - لا يتردد في أن يقطع: «يعتبر العامري من تلامذة مدرسة السجستاني البارزين»^(٩٦).

ولنأخذ أيضاً مثال أبي زيد البلخي. فقد رأينا ناقد العقل العربي يدرجه في لائحة

(٩٢) يؤكد أحمد أمين عدة من مؤرخي الفلسفة العربية الإسلامية ومن المستشرقين. ومنهم هنري كوربان - نقلاً عن رواية لابن أبي أصيبعة - أنه كانت للعامري مراسلات مع ابن سينا. وهذا ما أوقفنا نحن أنفسنا في التلطف فذكرنا في مادة «العامري» في «معجم الفلاسفة» أنه «تبادل رسائل فلسفية مع ابن سينا». وهذا مستحيل كرونولوجياً.

(٩٣) «صوان الحكمة»، مصدر آنف الذكر، ص ٣٠٧.

(٩٤) انظر قوله: «يمكن أن تُترجم المعشوقات المختلفة أجساماً، لا عقولاً مفارقة، حتى يكون مثلاً الجسم الذي هو أخس متشبهاً بالجسم الذي هو أقدم وأشرف، كما ظنه أبو الحسن العامري، القدم من أثبت المتفلسفة الإسلامية في تشويش الفلسفة إذ لم يفهم فرض الأقدمين» («النجاة»، طبعة دار الجيل المصورة، بيروت ١٩٩٢، ج ٢، ص ١٣٠. ونحن نرجح أن في كلمة «أحدث» تصحيحاً ويجب أن تقرأ «أحداث».

(٩٥) «صوان الحكمة»، ص ٨٢، والتسويد منا. وقد رأينا أيضاً في «مقالات» التوحيدي كيف دعا له بالقول: «نضر الله وجهه».

(٩٦) ناجي الشكري: «الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام»، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الثالثة، بغداد ١٩٨٨، ص ٢٨٦.

أعضاء مدرسة ابن سينا «المشرقية» برغم أنه سبقه إلى الوفاة بأكثر من مئة سنة. ومن المؤسف أن تراثه الذي ضاع كنه لا يتيح لنا أن نحدد هويته الأيديولوجية. ومع ذلك، فإنه إن لم يكن بد من الربط أيديولوجياً بينه وبين مدرسة أبي سليمان «المغربية» ومدرسة ابن سينا «المشرقية»، فالأولى بما أن نريته بالأولى. إذ على حين أنه لا يأتي له ذكر إطلاقاً في كتابات ابن سينا وتلامذته، فإن له حضوره الواضح في كتابات أبي حيان التوحيدى، التلميذ الأكثر إخلاصاً لأبي سليمان السجستاني. ففي كتابه «تقريب الجاحظ» يقول عنه: «ما رُئي في الناس من جمع الحكمة والشريعة سواه»^(٩٧). وفي «الإمتاع والمؤانسة» يصفه بأنه «سيد أهل المشرق في الحكمة»^(٩٨). وفي «المقابسات» يقبس بعض كلامه في كتاب «أقسام العلوم» وكتابه المسمى «اختيار السيرة»، بل إنه يضع اقتباسه الثاني هذا على لسان أبي سليمان نفسه. وحسبنا أن نسوق الشاهد بلا تعليق كيما يدرك القارئ كم كان رعيم المدرسة البغدادية «لمغربية» يكن الإعجاب لأبي زيد البلخي «المشرقي». يقول أبو حيان: «قال أبو سليمان، وأنا أقرأ عليه كتب «النفس» للفيلسوف [= أرسطو] سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة بمدينة السلام: إن النفس قابلة للفضائل والذائل، والخيرات والشرور... وقد شفى الكلام في هذا الباب أبو زيد البلخي في كتابه الذي يسميه «اختيار السيرة». ومن استوعب ذلك يفهمه، وتروده لعلمه، لحظ من هذا الباب أبعد مرام، وفاز منه بأفوز السهام»^(٩٩).

ولنأخذ ثانياً مثال يحيى بن عدي. فهو لا يحتل موقعه في عداد «المقربين» المكلفين بتنفيذ «الاستراتيجية الثقافية» لـ «الدولة العباسية بأيدولوجيتها السنية» إلا على حساب تغييب موقعه الفلسفي الحقيقي كلاهوتي. فابن عدي لم يكن فيلسوفاً مسيحياً الديانة فحسب، بل كان - وهذا أهم بما لا يُقاس - فيلسوفاً مسيحياً الفلسفة. ولعل ترصيمه بأنه فيلسوف هو، من هذا المظور، غير مطابق. فابن عدي كان لاهوتياً، أو بالإحالة إلى مفردات اللغة الفلسفية العربية الإسلامية، متكلماً يعقوبياً. وعلى ما له من

(٩٧) نقلاً عن باقوت في «معجم الأدباء»، نقلاً عن أطروحة دكتوراه غير منشورة لمحمد أحمد عزاد عن «أبي زيد البلخي وعالمه الفكري».

(٩٨) «الإمتاع والمؤانسة»، ج ٢، ص ٣٨. وسوف تكون لنا عودة إلى مدلول «المشرق» في هذا الشاهد.

(٩٩) «المقابسات»، مصدر آف الذكر، ص ١٣٨ - ١٣٩، وذلك هو بالمتسبة النص الذي وقع فيه تصحيح، فحلت «إحدى وتسعين» محل «إحدى وسبعين».

دور تاريخي لا يُنكر في ترجمة كتب اليونانيين وشرحها، فإن مساهمته الشخصية تتمثل بكتاباته التي وضعها دفاعاً عن العقيدة النصرانية في مواجهة انتقادات المتكلمين المسلمين. وفراة «منزلة في تاريخ الفكر الكلامي في الإسلام» تعود إلى كونه واحداً من «العلماء القليلين من نصارى العصر الذين دخلوا في مناظرات كلامية مع معاصريهم من متكلمي المسلمين»^(١٠٠). وفي هذا السياق تندرج مجموعة مؤلفاته الكلامية التي حفظتها لنا مخطوطات عديدة في الفاتيكان أو في باريس^(١٠١)، والتي تُشر بعضها في «مجلة الشرق المسيحي» (Revue de L'Orient Chrétien)، وبعضها الآخر في سلسلة «التراث العربي المسيحي» الصادرة عن المكتبة البولسية في لبنان والمعهد الببوي الشرقي في إيطاليا تحت إشراف المطران الحلبي نوفيطوس أدبي. وفي هذا السياق تندرج عدة من ردوده الدفاعية عن النصرانية، ومنها مقالته في «إثبات صدق الإنجيل على طريق القياس»، ورسائله «في صحة اعتقاد النصاري»، ومقالته «في لتوحيد» دفاعاً عن عقيدة التثليث وتفنيداً لرسالة الكندي - الضائعة - في «الرد على النصاري في التثليث»، وأخيراً رسالته إلى أبي الحسن القاسم بن حبيب في «الرد على النسطورية ونقض حججهم وإثبات ما تخالفهم فيه اليعقوبية». وهذا كله ما حدا بأحد كبار ممثلي الفكر القبطي العربي في القرن الثالث عشر الميلادي، وهو أبو إسحاق بن العسال، إلى أن يكيل له عاطر الشناء بصفته: «لشيخ الأجل، العالم الفاضل العلامة، حجة دين النصرانية، برهان النحلة اليعقوبية، يحيى بن عدي»^(١٠٢).

ويدهي أننا لا ننكر أن ابن عدي عمل أيضاً في المنطق والفلسفة نقلاً وشرحاً، ولكننا نشك كثيراً في أن يكون، كما يصوره ناقد العقل العربي، مشائياً خالصاً ورائداً للنزعة البرهانية الأرسطية. فالشاهد الذي تركه عنه المسعودي - وهو معاصر له - يشير على العكس إلى أنه «خريج» مدرسة محمد بن زكريا الرازي الذي يعدّه ناقد العقل لعربي واحداً من أبرز ممثلي «لعقل المستقل» في الإسلام ورائداً للروحانية لغنوصية والاعتقالية الهرمسية^(١٠٣). يقول المسعودي في شاهده، وهو يؤرخ لظهور الفلسفة في الإسلام ويسمي سلسلة الفلاسفة الذين تعاوروا على «شرح كتب أرسطاطاليس

(١٠٠) ماجد نخري: «تاريخ الفلسفة الإسلامية»، مصدر أنف الذكر، ص ٢٧١.

(١٠١) الشيخ يحيى بن عدي: «مقالة في التوحيد»، تحقيق الأب سمير لخليل ايسوعي، سلسلة انوثا العربي المسيحي، المكتبة البولسية، بيروت ١٩٨٠، ص ١٤٩.

(١٠٢) ت.ع.ج، ص ١٩٧ - ١٩٩.

المنطقية: «ولا أعلم في هذا الوقت (عام ٣٤٥هـ) أحداً يُرجع إليه في ذلك إلا رجلاً واحداً من النصاري بمدينة السلام يعرف بأبي زكرياء بن عدي، وكان مبدأ أمره ورأيه وطريقته درس طريقة محمد بن زكرياء الرازي، وهو رأي الفوثاغوريين في الفلسفة الأولى على ما قدمنا»^(١٠٣).

وإذا كنا نستطيع في حالة يحيى بن عدي أن نتكلم على هوية مكتومة، أو حتى مزورة، فإننا نستطيع في حالة الفارابي أن نتكلم على هوية مزدوجة. فقد كان كل علمنا حتى الآن أن المعلم الثاني «مغربي الانتماء» بحكم عضريته - بموجب نص الجابري في «المدرسة المنطقية» التي «ازدهرت في بغداد على عهد متى والفارابي ويحيى بن عدي وأبي سليمان السجستاني المنطقي الذي كان سلطة مرجعية ببغداد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري». ولكن ها هوذا الجابري ينقله في نص آخر، وبشخطة قلم، إلى خندق مضاد في معسكر «المشرقيين». فتعليقاً على استثناء ابن سينا للفارابي من ضعاف «البغدادية» وإقراره له بأنه «يكاد أن يكون أفضل من سلف من السلف»، يقول الجابري: «نستطيع أن نفهم، بناء على ما تقدم، لماذا استثنى ابن سينا الفارابي من «المغربيين». إن أبا نصر الفارابي هو «مغربي» بهذا الاصطلاح: فقد درس في بغداد وعاش المرحلة الأخيرة من عمره في دمشق، وهو بعد لا علاقة له لا بخراسان ولا بأهلها»^(١٠٤). ولكن الفارابي كان مع ذلك «مشرقي» النزعة في فلسفته. لقد تبني «التوظيف المشرقي» لفكرة الفيض وقال بالعقول العشرة. وبعبارة أخرى كان الفارابي يتتبع بكامل فلسفته إلى المدرسة المشرقية لا إلى المدرسة البغدادية (= المغربية)^(١٠٥).

ومثل هذا الانقلاب - وأخطر منه بعد - يطالعا في موقف الجابري من أبي سليمان السجستاني نفسه. فقد وجدناه يؤكد على «مغربية» هذا القائد المكروم للمدرسة البغدادية متجاهلاً نسبته - في اسمه بالذات - إلى سجستان المعدودة جغرافياً إقليمياً من خراسان، ومتجاهلاً أيضاً كونه أمضى الشطر الأول من حياته في بلاط أبي جعفر بن

(١٠٣) أبو الحسن المسعودي: «التنبيه والإشراف»، طبعة دار مكتبة الهلال المصورة، بيروت ١٩٨١، ص ١٢٢.

(١٠٤) يبدو أن الجسري لا يعلم أن «فاراب» التي يُنسب إليها الحكيم الأفضل أبو نصر بن طرخان الفارابي هي - كما يقول القزويني - «مدينة من بلاد ما وراء النهر» (انظر: «آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني، طبعة دار صادر البيروتية، ص ٥٤٨).

(١٠٥) «نحن والتراث»، ص ١٩٢، والتشويد مثا.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

بابويه، ملك سجستان «الفيلسوف». ولكن في نص أحدث عهداً يرفض الجابري - ضدّاً على اقتراح لمحاورة فهمي جدعان - إدراج السجستاني في سلالة «المغربيين» العقلانية التي انتهت إلى ابن رشد، ويصر على إدراجه في سلالة الفارابي - ابن سينا المشرقية اللاعقلانية مؤكداً بالحرف الواحد على أن «إشكالية السجستاني بقيت مشرقية»^(١٠٦).

حقيقة المدرستين السجستانيّة والسينويّة

هكذا يكون ناقد العقل العربي قد أهار بضربة معول واحدة كل عمدة المدرسة البغدادية المغربية المنطقية العقلانية التي استأدت منه صفحات طوالاً لرفعها لبنّة لبنّة على أساس من الوهم المطلق تنتصب في مواجهة عمارة أخرى لا تقل انبناءً على الوهم، ألا هي عمارة الفلسفة السينوية المشرقية الحراية الهرمسية القاتلة للعقل والمنطق.

ومع ذلك كله لا يعسر علينا أن ندرك سر ذلك الانقلاب المياغت على أبي سليمان السجستاني ونقله، بجرّة قلم، من خانة «المغربيين» إلى خانة «المشرقيين» مع التشكيك في أهليته العلمية ومقدرته القيادية. فالجغرافية الاستمولوجية التي تنتظم كل مشروع الجابري في نقد العقل العربي، والتي تؤسسها قسمة ثنائية عضد لهذا العقل إلى عقل مشرقي لاعقلاني وعقل مغربي كلي العقلانية، ما كن لها أن تقبل بوجود «مدرسة مغربية» للعقلانية خارج المغرب نفسه بالمعنى الجغرافي للكلمة. وعلى هذا النحو يكون انقلاب الجابري على زعيم مدرسة بغداد «المغربية» بمثابة انقلاب تصحيحي ذاتي يرة فكر المشرق إلى المشرق ويجزّده من وسام استحقاقه «المغربي» الذي لا يمكن أن يعود إليه لا جغرافياً ولا استمولوجياً. وحتى لا يبدو علينا وكأننابالغ في تأويلنا، فلنستمع إلى الجابري وهو يوضع بنفسه انقلابه على السجستاني في إطار قطعة استمولوجية مزعومة بين المغرب والمشرق. يقول:

«لقد تبين لي - وهناك نصوص وليست المسألة خيالاً - أنه نشأت في لاندلس مدرسة تختلف تماماً عن المدرسة الفلسفية في المشرق... من حيث المنهج والمفاهيم

(١٠٦) انظر حوار - اللاحواري في الواقع - مع فهمي جدعان على صفحات مجلة «العربي» الكويتية في أيلول ١٩٨٩، والمعاد نشره في: «التراث والحداثة»، ص ٣٢٥ - ٣٣٥. وفي هذا الحوار نفسه ينكر حتى أهلية السجستاني لقيادة «لمنافسة لعلمية» بقوله: «لقد كان السجستاني أحد البارزين في المدرسة المنطقية ببغداد، ولكنه لم يكن فيلسوفاً في مستوى ابن سينا» (ص ٣٣٠).

والرؤية والإشكالية. فالفلسفة في المشرق كانت محكومة بإشكالية التوفيق بين الدين والفلسفة، أي إشكالية علم الكلام. أما في المغرب والأندلس فلم يكن هناك علم كلام، ولا فِرَق، ولا تعدد. في المشرق أخذوا الميتافيزيقا... أما في المغرب والأندلس فقد أخذوا الرياضيات والطبيعات والفلك والطب والمنطق. وأصبح أرسطو هو الأصل، وأصبح الفكر الفلسفي أرسطياً محضاً، خالياً من الأفلاطونية المحدثة والتأثيرات المشرقية من فارسية وخنوصية وهرمسية وغيرها... ونحن نعتقد أنه كان هناك روحان ونظامان فكريان في تراثنا الثقافي: الروح السينوية وروح ابرشدية، وبكيفية عامة: الفكر النظري في المشرق والفكر النظري في المغرب. وهناك نوع من الانفصال بينهما داخل الاتصال الظاهري. هذا الانفصال نرفعه إلى درجة القطيعة المعرفية... وإشكالية السجستاني بقيت إشكالية مشرقية... السجستاني والكندي وكل هؤلاء الذين عاشوا في المشرق كانوا محكومين منهجياً بالإشكالية الكلامية. كان الفيلسوف لا ينتج المعرفة الفلسفية إلا مع مذهب كلامي معين أو ضده. هناك اختلاف بين بنية الفكر النظري في المشرق وبنية الفكر النظري في المغرب. هناك انقطاع... والحقيقة أننا إذا أردنا أن نجد تاريخاً حقيقياً للفلسفة العربية الإسلامية فيه شيء من التقدم، وشيء من الانتقال إلى ما هو أبعد، فهذا التاريخ لا يمكن أن نجده إلا إذا بيناه على أساس أن النظرة لأندلسية المغربية قد تجاوزت منهجياً لنظرة المشرقية»^(١٠٧).

إننا لن نتوقف هنا عند ما في هذا النص الطويل من مصائدات «وهيبة»، ومنها توصيف الفكر المشرقي بأنه «كلامي» والفكر المغربي بأنه «فلسفي»، ومنها محاولة الإيحاء بأن الفكر الأول «ميتافيزيقي» والثاني «علمي» (وحتى «علماني» كما سنجده يقول في توصيف لاحق). ولن نتوقف عند ما ينطق به النص من بروح إلى تنزيل «النظرة المغربية» و «النظرة المشرقية» في قوام ماهوي ثابت ثبات الجوهر المتأقنم على ذاته. فما يعنينا هنا هو الموقف الانقلابي من السجستاني وحجسه - بعد زحزحته من موقعه «المغربي» - في «الإشكالية المشرقية». فهذا الانقلاب يضع بكل تأكيد نهاية غير متوقعة لأخيولة الصراع الفلسفي والأيدولوجي، على خلفية وهمية أيضاً من الصراع السياسي، بين «مغربي» المشرق و «مشرقييه». ولكن انقشاع وهم الأخيولة الصراعية لا يجوز أن يحجب عن وعينا، مع ذلك، واقع الوجود التاريخي المتمايز للمدرستين السجستاني والسينوية. فالمدرستان وُجدتا بالفعل، ولكن من خلال تمايزت ثلاثة.

(١٠٧) «التراث والحداثة»، ص ٣٢٨ - ٣٣١.

فهما، أولاً، غير متقابلتين ولا متوازيتين تاريخياً. فمدرسة أبي سليمان ازدهرت في الربع الثالث من القرن الرابع، ومدرسة أبي علي ازدهرت في الربع الأول من القرن الخامس للهجرة. وفارق نصف القرن بينهما يجعل منهما مدرستين متعاقبتين، لا متزامنتين، ولا على الأخص متنافستين.

ثانياً، إن مدرسة أبي سليمان ممتدة أفقياً بينما مدرسة أبي علي متركزة عمودياً. فالمدرسة التي ترأسها السجستاني ضمت «كشكولاً» من المتفلسفة المتباينين بنزعاتهم ومشاربهم واجتهاداتهم وتوجهاتهم العقائدية. وكان أبو سليمان يقوم لهم مقام مدير الجلسة أكثر منه مقام المدرّس والموجه. أما مدرسة أبي علي فكانت مدرسة معلم وتلاميذ بكل معنى الكلمة. أو إذا شئت فلنقل إن مدرسة أبي سليمان كانت أقرب إلى الصالون الأدبي منها إلى المدرسة الفلسفية. أما مدرسة ابن سينا فكانت أشبه - أو طمعت في أن تكون أشبه - بأكاديمية أفلاطون أو لقيون أرسطو. وقد كان مجلس أبي سليمان يتسع - عدا المسلمين من أمثال التوحيدي والعامري وأبي العباس البخاري وأبي محمد العروصي - لغالبية من النصارى ولأقلية من اليهود والصائبة من أمثال ابن الخمار وابن زرعة وابن السمع ونظيف القس وابن يعيش وأبي الخير اليهوديين، وأبي إسحق الصابي. أما مجلس ابن سينا فكان عبارة عن ووشة عمل، ولا يضم غير التلاميذ من أمثال بهمنيار وابن زبله والجوزجاني والمعصومي^(١٠٨). وقد احتفظ لنا شمس الدين الشهرزوري بصورة عن كيفية العمل في تلك الورشة: «وكان كل ليلة يجتمع في داره طلبة العلم. وأبو عبيد يقرأ من «الشفاء» نوبة، والمعصومي من «القانون» نوبة، وابن زبله من «الإشارات» نوبة، وبهمن يار من «الحاصل والمحصول» نوبة. فإذا مرغوا حضر المطربون وشتغلوا بالشرب. وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار»^(١٠٩). ولأن أمدرسة السينية كانت على هذا النحو فرقة عمل ويبحث فقد جاء نتاجها على درجة عالية من الموسوعية («الشفاء» بالآلاف من صفحاته) ومن التقنية («الإشارات والتنبهات» بلغته الفلسفية الرفيعة الاختصاص). أما مجلس أبي سليمان، الأقرب إلى أن يكون محفلاً للمناظرات ولعرض «العضلات الثقافية»، فما كان له أن ينتج سوى

(١٠٨) ورد اسمه في بعض المصادر بالقاف بدل العين المقصومي.

(١٠٩) «نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء»، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٩٨٨، ص ٣٣٧ - ٣٣٩.

مقطعات ومنتخبات من الحكم والأقوال الجامعة المانعة. ومن هنا وجدت صيغتها الفنية المثلى في «المقابسات» وفي مسامرات «الإمتاع والمؤانسة» التي استحق عليها التوحيدى لقب أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء.

ثالثاً، لأن المدرسة السينوية كانت مدرسة فلسفية حصراً فقد ذهبت كل عنايتها إلى المفاهيم. أما مدرسة السجستاني، التي كانت مضماراً للتباري وللظهور الثقافي، فقد أولت اهتمامها الأول للألفاظ. وهذا ما كان تنبئ له مؤرخ مبكر للفلسفة العربية الإسلامية هو ت. دي بور في كتابه «تاريخ الفلسفة في الإسلام» الصادر بالألمانية في شتوتغارت عام ١٩٠١. فقد لاحظ أن مدرسة السجستاني، على أهمية دورها في التاريخ الثقافي العام، لم تمثل أكثر من انحطاط لفظي لفلسفة المنطقية والمفهومية كما أرسى تقاليدها الفارابي. وقد قرن بين دورها ودور إخوان الصفاء في رسائلهم وقل: «هنا... نجد نزعة الفارابي المنطقية تستحيل إلى فلسفة لفظية، ونرى الجدل يدور حول تحديد المعاني والتدقيق في التمييز بينها... وكانت جماعة السجستاني تتلاعب بالألفاظ والمعاني، بينما كان إخوان الصفاء يتلاعبون بالأعداد والحروف وكانت الصوفية نهاية لكلا الفريقين». وختم بالقول: «إن ظهور السجستاني والجماعة التي كانت تلتف حوله، أمر له خطره وشأنه في تاريخ الثقافة. أما في ما يتعلق بتقدم الفلسفة في الإسلام فلا شأن له، والأمر الذي كان عند الفارابي لباب لعقل أصبح في الغالب عند شيعة أبي سليمان موضوعاً للمهارة في الجدل»^(١١٠).

إذاً، - عدا الغلط الكبير بحق الواقع التاريخي - فإنه لغلط كبير أيضاً أن توضع مدرسة السجستاني ومدرسة ابن سينا في كفتين متقابلتين من ميزان واحد، عدا عن أن ترجح كفة الأول على كفة الثاني بوصفه ممثلاً للعقل البرهاني في مواجهة اللاعقل العرفاني. ولكن هنا وجدنا ناقد العقل العربي يتدخل - ولو متأخراً - ليعفينا من مؤرنة متابعة النقاش بصدد هذه النقطة باعتراؤه بأن السجستاني - فضلاً عن أن «شكاليته بقيت إشكالية مشرقية» - «لم يكن فيلسوفاً في مستوى ابن سينا أو ابن رشد»^(١١١).

(١١٠) ت.ج. دي بور: «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة بلا تاريخ، ص ١٥٥ - ١٥٧.

(١١١) الواقع أن التوحيدى نفسه، على شدة إعجابه بشيخه أبي سليمان، ما كان يتردد في أن يرفع صفاء فكره إلى «قلة نظر في الكتب» («الإمتاع والمؤانسة»، ج ١، ص ٢٣).

العقل والنفس: نظرية المعرفة للمعبر الوسيط

رأينا ناقد العقل العربي يقرر، في واحدة من شطحاته الاستيهامية الكبيرة التي لا يطابقها شيء لا في تاريخ الفكر ولا في الواقع الجغرافي، أن الخصوم «المغربيين» لابن سينا «المشرقي» يتألفون من فريقين متدامجين: منطقة بغداد من مدرسة السجستاني وشراح أرسطو اليونانيين، أو الكتابيين باليونانية كما نؤثر أن نقول. وهذه القفزة فوق التاريخ وفوق الجغرافيا من أجل تغريب المدرسة البغدادية السجستانية بالمقابلة مع تشويق المدرسة الخرامية السينوية، لا تستهدف في محصلة الحساب سوى اصطناع جغرافيا أيديولوجية تفصل المغرب عن المشرق فصل العقل عن اللاعقل، والتمنطق عن التهرمس. فصحيح أن بغداد تسمى جغرافياً إلى المشرق، ولكنها تنتمي أيديولوجياً إلى المغرب. وإنما من منظور هذه الجغرافيا الأيديولوجية يبيح ناقد العقل العربي لنفسه أن يقسم «المدرستين الفلسفتين اللتين عرفهما المشرق» إلى مدرستين متفادرتين ومتنافستين: «مدرسة مشرقية إشرافية ومدرسة مغربية برهانية»^(١١٢)

ولكن علام أقام الجابري تشخيصه الأيديولوجي هذا؟ على ستسخس مكوت عنه - كما رأينا - لفرضية سالمون بيتس القائلة إن مدار الخلاف بين ابن سينا «المشرقي» والبغداديين «المغربيين» هو حول مذهب أرسطو في «النفس وخلودها»، وبالتالي حول مقصود صاحب المتنطق - الذي كان أثار حيرة الإسكندر الأفروديسي وثامسطيوس وغيرهما من الشراح - من العقل الفعّال والعقل المنفعل والعقل الذي بالفعل والعقل الذي بالقوة (= العقل الهولاني بحسب تسمية الإسكندر).

ولا شك في أن الإيجاز الشديد، والغموض الأشد، اللذين صاغ بهما أرسطو فكرة العقل الفعّال من كتابه في «النفس»، مسؤولان إلى حد كبير عن البلبلة التي وقع فيها شراحه اليونانيون، والتي أورثوها من بعدهم لشراحه العرب واللاتين^(١١٣).

فانطلاقاً من المبدأ الذي يقوم للمنظومة الفلسفية الأرسطية مقام حجر الزاوية - ومقتضاه أن «ما هو بالقوة لا يخرج إلى فعل إلا بفعل شيء هو بالفعل» - افترض

(١١٢) «نصن والتراث»، ص ٢٤٣. والتسويد من الجابري.

(١١٣) حينما نقول «اليونانيون» أو «العرب» أو «اللاتين» لا نقصد المعنى الإثني للفظ، بل فقط «الأبجدي». وبالتالي قرن مؤدى الكلام هو: الكاتبون بليونانية، أو بالعربية، أو باللاتينية.

أرسطو وجود قوة تفعيلية تُخرج العقل نفسه من القوة إلى الفعل سماها العقل الفعّال، ودورها أشبه ما يكون - إذا جازت المماثلة مع ما هو مادي - بالضوء الذي يجعل الألوان مُبْصَرة للعين والعين مُبْصِرة بها. وموضع الإشكال ليس في التسمية بقدر ما هو في التوصيف. فقد حدّ أرسطو هذا العقل بأنه «مفارق، غير مخالط، لا متفعل، لأنه بماهيته فعل». إذن الفاعل أشرف دوماً من المتفعل، والمبدأ أشرف من الهيولي، والعلم بالفعل هو موضوعه. ولكن لئن يكن العلم بالقوة أسبق بالزمان لدى الفرد المفرد، فإنه بالمطلق ليس حتى أسبق بالزمان. ومع ذلك لا ينبغي أن نعتقد أن هذا العقل مرة يعقل ومرة لا يعقل. فإنما عندما يكون مفارقاً فقط يكون هو ما هو؛ وهذا وحده اللافتي والأزلي. بيد أننا لا نتذكر، لأن هذا العقل لا ينفعل، بينما العقل المتفعل يفسد، وبدونه لا تتعقل شيئاً^(١١٤).

وقد نشب خلاف أول بين شراح أرسطو القدامى حول عائدة الفاعل في جملة «مرة يعقل ومرة لا يعقل»: أي للعقل الفعّال أم للعقل المتفعل؟

ثم كان تطوّر كبير ثانٍ في الخلاف عندما قسّم الإسكندر الأفروديسي - من مشائى مدرسة الإسكندرية في مفصل القرن الثاني والثالث للميلاد - العقل المتفعل إلى اثنين: عقل خام قبل التحقق أسماه العقل الهولاني، وعقل خرج من القوة إلى الفعل هو العقل

(١١٤) توحياً للدقة ترجمنا هذا النص عن ثلاث ترجمات متباينة له: الأولى لجان تريكو في ترجمته لكتاب «النفس» (*De L'Âme*)، منشورات مكتبة فران، باريس ١٩٧٢؛ والثانية لأدمون باربون في ترجمته لكتاب «الشعس» أيضاً، منشورات الآداب الحميلة، باريس، ١٩٦٦؛ والثالثة لفرانسوا نوييز في كتابه «تطوّر نظرية أرسطو في انفس» (*L'Évolution de la Psychologie D'Aristote*)، منشورات المعهد العالي لملفلسفة، لوفان ١٩٧٣، وحصراً على المزيد من الفائدة نثّبت الترجمة العربية القديمة بقلم سحّ بن حنين. «وهذا العقل الفعّال مفارق لجوهر الهولي. وهو غير معروف ولا مفارق لشيء. والفاعل أبداً أشرف من المفعول به، والمبدأ أكرم من الهولي. وكذلك حال العقل «فعّال». فإما العقل الذي حاله حال قوة، فإنه في الواحد أقدم بالزمان، وأما في الجملة فلا زمان. ولست أقول إنه مرة يفعل، ومرة لا يفعل؛ بل هو معدم فارقه على حاله كان، وبذلك صار روحياً غير ميت والذي دهانا إلى أن قننا إن هذا العقل لا يستحيل ولا يألّم أن لتوهم هو العقل الألم، وإنه يفسد. وليس يدرك العقل ولا يفهم شيئاً بغير توهم» (نشره عبد الرحمن بدوي في مجموعة «أرسطوطاليس في النفس»، منشورات وكالة المطبوعات الكويتية، الطبعة الثانية ١٩٨٠، ص ٧٥. هذا وقد شكك دارسون معاصرون في صحة نسبة بدوي هذه الترجمة إلى إسحق بن حنين).

ابن ميا: أسطورة الفلسفة المشرقية

المستفاد. وقد ذهب الإسكندر إلى أن العقل الهيلولاني، بوصفه مادياً، هو وحده الفاسد، أما العقل المستفاد فمثله مثل العقل الفعال لا يقبل الفساد، أو بتعبير الناقل العربي القديم «لا مائت»^(١١٥).

وفي القرن الرابع الميلادي دخل ثامسطيوس، مدير جامعة القسطنطينية، في مناظرة مع الإسكندر الأفروديسي، ليؤكد أن العقل بجميع تسمياته، سواء أكان هيلولانياً أم مستفاداً أم فعالاً، هو عقل مفارق وحالد.

وهذا الخلاف المتعدد الحلقات هو الذي ورثه شراح أرسطو من العرب، وخاض فيه ابن سينا وابن رشد، قبل أن يورثوه بدورهم للشراح واللاهوتيين اللاتين، وفي مقدمتهم ألبرتوس الأكبر وتوما الأكويني وسيجر البرابتي.

وعدا التراكم في الخلاف، الذي صار يحد ذاته مؤلداً لمزيد من الخلاف، فإن المناظرة العربية الإسلامية، ثم اللاتينية المسيحية، حول دور العقل الفعال في عملية المعرفة، قد رزحت تحت ثقل عامل إضافي: الترجمة. فلا ابن سين وابن رشد كانا يعرفان اليونانية، ولا ألبرتوس وتوما كانا يعرفان العربية فضلاً عن اليونانية. وعلى هذا النحو ارتفعت تأويلات الشراح باجتهادات المترجمين. وفي الحالة اللاتينية كان هذا الارتهاق مضاعفاً: فكتب أرسطو لم تنقل إلى اللاتينية من اليونانية مباشرة، بل من الترجمة العربية (وقد عرفت الثقافة الفلسفية العربية تطوراً مماثلاً عندما اعتمدت حركة النقل إلى العربية في المرحلة الأولى على وساطة السريانية). ومما زاد في تعقيد هذا الإشكال أن بعض النصوص الأساسية المعتمدة في المناظرة ضاعت أصولها. فمقالة الإسكندر الأفروديسي «في العقل على رأي أرسطوطاليس» قد فقد أصلها اليوناني، ولم يبق سوى ترجمتها العربية المنسوبة إلى إسحق بن حنين. كذلك فإن «شرح كتاب النفس» لابن رشد - وهو حاسم الأهمية في المناظرة - مفقود بالعربية وغير متوافر إلا باللاتينية بترجمة سيخائيل اسكونس^(١١٦).

(١١٥) انظر: «مقالة الإسكندر الأفروديسي في العقل على رأي أرسطوطاليس»، ترجمة إسحق بن حنين، في: عبد الرحمن بدوي: «شروح على أرسطو مفقودة باليونانية»، دار الشرق، بيروت ١٩٨٦، ص ٣٥.

(١١٦) قام بترجمته حديثاً إلى الفرنسية - عن اللاتينية طبعاً - آلان دي ليبيرا الذي كان ترجم من قبل كتاب توما الأكويني عن ابن رشد المعروف باسم «وحدة العقل ضلأ على الرشدين».

الارتهان للترجمة

هذا الارتهان للترجمة هو ما حكم سلفاً بعسر المخاض على تولد مشروع فلسفي تام الأصالة في الحضارة العربية الإسلامية، وهو ما جعل الفلسفة العربية الإسلامية تبدو في نظر العديد من «دعسبها المستشرقين وكأنها نسخة من الفلسفة اليونانية»^(١١٧).

ذلك أن الفلسفة هي في المقام الأول تاريخها. فالحقول المعرفية الأخرى، ولا سيما منها العلمية، يقوم تقدمها على التجاوز الدائم لذاتها. أما الفلسفة فتقوم على الاستعادة الدائمة لذاتها. فالمفاهيم الفلسفية، خلافاً للوقائع والقوانين العلمية، لا تموت ولا تقع حتى صائلة النسخ. فهي تتراكم ويعاد بناؤها وإغناؤها باستمرار. والحال أن المفاهيم الفلسفية، خلافاً للمفاهيم العلمية أيضاً، لا تقبل انفصلاً عن لغتها. فمفهوم الجاذبية العلمي، كما صاغه نيوتن، قابل للترجمة إلى جميع لغات العالم - أو على الأقل ما ارتقى منها إلى مستوى ثقافي مكتوب - بدون أن يخسر شيئاً من معناه. ولكن مفهوم اللوغوس في الفلسفة اليونانية لا يقبل الترجمة بالمقابل إلا لقاء تضحيات دلالية كبيرة^(١١٨). وقل مثل ذلك عن «ميثوس» و«كسموس» و«نوس» إلخ. وبهذا المعنى يمكن أن يقال إن الفلسفة - كل فلسفة - هي في المقام الأول فلسفة في اللغة. وبصفتها كذلك فإنها لا تقبل الترجمة بدون خسارة دلالية. وحسبنا هنا أن نشير إلى ما طرحته «هو» الوجودية - التي لا تدخل ضمن المطلق النحوي بلغة العربية - من إشكالات على الثقل كما على الشراح والمفلسفين في الثقافة العربية الإسلامية^(١١٩).

والواقع أن الارتهان للترجمة كان واحداً من الأسباب التي حالت بين الفلسفة وبين

(١١٧) هذا الحكم يصدق على الفلسفة اللاتينية لمسيحية أيضاً. وليس من قبيل صدفة، من وجهة النظر هذه، أن تكون الحضارة الغربية الحديثة قد بدأت بتطوير فلسفة مستقلة وجديدة ابتداء من عصر النهضة. ففي ذلك العصر أعيد إحياء اللغة اليونانية بعد طول هجران لها في الحقبة اللاتينية وأعيدت ترجمة كتب أفلاطون وأرسطو وباقي الفلاسفة اليونانيين عن لغتها الأم، مما أوجد إمكانية فعلية لقراءة مطابقة لها، وبالتالي لتجاوزها.

(١١٨) انظر ما ذكرناه في «نظرية العقل» (ص ١٥٦) عن تعدد معاني لوغوس: قصة، حساب، نظر، كلام، بيان، لغة، عقل، إلخ.

(١١٩) من الذين تحدثوا عن هذا الإشكال الفارابي، وكذلك ابن سينا الذي أتاح له وضعه «كتاب المعلم» بالمعاصرة أن يعرض للمسألة باستيعاب نظراً إلى وجود «هو» الوجودية في اللغة الفارسية.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

التمتع بكامل حق المواطنة في المدينة العربية الإسلامية، ورسمت حول مشروعيتها علامات استفهام واتهامات سهلت في خاتمة المطاف نفيها من المدينة العربية الإسلامية واستئصال شأفتها منها.

ولا يصعب على الباحث أن يلحظ في اللغة الفلسفية العربية - من جراء ارتدائها للترجمة - ركازة تظهر بوضوح لدى النقلة، الذين كانوا سرياناً قبل أن يتعربوا، ولدى لمناطقة الأوائل مثل ابن المقفع وابن بهريز، ولدى الكندي أول فيلسوف «عربي»^(١٢٠)، وحتى لدى فيلسوف متأخر مثل ابن رشد الذي تثقل لغة الترجمة على شروحه الفلسفية والمنطقية بوطأة ينعدم أثرها، بالمقابل، في مؤلفاته الكلامية.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الحضارة العربية الإسلامية قامت في ركيزة أساسية من ركائزها على اللغة بحكم مركزية النص القرآني لها، فلا غرو في أن يتبدى «المفلسفون» في هذه الحضارة وكأنهم - في ارتدائهم للترجمة - يتكلمون لغة أخرى غير اللغة المرجعية لهذه الحضارة، أو يستحدثون - على حد تعبير السيرافي في مناظرته مع متى - «لغة في لغة مقررة بين أهلها»^(١٢١). ومن هنا السهولة التي أحرز بها السيرافي، بوصفه إمام انجويين «المتعربين» انتصاره في تلك المناظرة على متى بوصفه إمام المنطقيين «المتهلئين»^(١٢٢). ومن هنا أيضاً المهزأة التي تعرض لها الكندي في مجلس أبي العباس^(١٢٣) إن صححت رواية ابن الأنباري القائلة إن «فيلسوف العرب» لم يستطع أن

(١٢٠) يعمر أبو سليمان السجستاني إلى الملك الفيلسوف أبي جعفر بن بويه قوله إن الكندي «على غزارته وجوده استنباطه، رديه اللفظ قليل الحلاوة» («صون الحكمة»، ص ٢٩٩).

(١٢١) «الإمتاع والمؤنسة»، ج ١، ص ١٢٢.

(١٢٢) حاول يحيى بن عدي في مداخلة لاحقة له أن يستدرك بعض خسائر تلك المناظرة بوصفه مقالة في «تبيين الفصل بين صناعاتي المنطق الفلسفي والنحو العربي» (حققها ونشرها جرمارد أندرس في مجلة «تاريخ العلوم العربية»، جامعة حلب، المجلد الثاني، العدد الأول، أيار ١٩٧٨). وقد بناها على الفصل التقليدي بين النحو بوصفه صناعة تعنى بالألفاظ، واحتص بوصفه صناعة تعنى بالمعاني. ولكن وجه التصور في مداخلته، كما في مداخلته متى من قبله، أنه لم يتنه إلى أن المعاني، حتى في حال مقارنتها منطقياً، لا تقبل انفصلاً عن ألفاظها. وقد حسم البحث الحديث النقاش حول المسألة منذ أن أثبت أن مقولات أرسطو المنطقية لا تعلق هي نفسها أن تكون مقولات نحوية بلغة البرنانية (انظر: بنفيست: «المقولات الفكرية والمقولات اللغوية» في مشكلات اللسانيات العامة (*Problèmes de Linguistique Générale*)، غاليلير، باريس ١٩٦٦، ج ١، ص ٦٣ - ٧٤).

(١٢٣) لا حاجة للتساؤل، كما يفعل الحابري (ث.ع.ع، ص ٢٥٨)، حاذياً حدو مصطفى عبد =

يمتيز فروق المعنى في قول القائل: عبد الله قائم وإن عبد الله قائم وإن عبد الله قائم. وهذا كله في القرنين الثالث والرابع، قبل أن يتم في القرن الخامس تكفيرهم، ثم في القرون التالية إعلان خروجهم على الشريعة والأمة والدعوة إلى قتلهم حيثما ثقفوا^(١٢٤).

الخلاف بين الشراح ومع الشراح

إذا رجعنا الآن - بعد هذا الاستطرد الذي كان لا مناص منه لوضع المشكلة في إطارها التاريخي والمعرفي - إلى فقرة العقل الفعّال من كتاب «النفوس» لأرسطو، فسنلاحظ تعقيداً إضافياً في الإشكال، ودوماً من منظور الاتّهام للترجمة في الشرح والتأويل. فنحن هنا أولاً لا أمام نص، بل أمام فص كما كان يقول متعاطو الفلسفة في الحضارة العربية الإسلامية. وقد كان لهذا النص المركزي عدة ترجمات، وكانت تحيط به دوائر من شروح متصالبة أو متعارضة تزيد على استغلقه استغلقاً^(١٢٥). وما كان يتندر للمشارح العربي أن يقول، نظير ما يفعل ابن سينا: «هنا... وفي ترجمة أخرى». بل إن ابن رشد، في شرحه المفقود بالعربية على كتاب «النفوس»، يعتمد ترجمتين في آن معاً، من دون أن يمنعه ذلك من أن يتدخل على النص في بعض المواضع ليتمم من عنده نقصاً يفترض وجوده في الترجمة.

= الرازي: أمو المباس المبرد أو ثعلب؟ فراوية الخبر، ابن الأنباري، كان تلميذاً لثعلب لا للمبرد. وكان بين هذين الأخيرين منافرة وعداء صناع. (وينبغي ألا تخلط بين ابن الأنباري هذا، وكنيته أبو بكر (ت ٣٢٨هـ) وبين سميه ابن الأنباري أبي البركات (ت ٥٧٧هـ)، وهو المخط الذي وقع فيه فهرس أعلام كتب «تكوين العقل العربي»).
(١٢٤) انظر بعض تفاصيل ذلك في كتابنا: «مصادر الفلسفة بين المسيحية والإسلام»، دار الساقى، بيروت ١٩٩٨.

(١٢٥) نستطيع أن نكون فكرة عن «العقدة» التي بات يشكّلها كتاب «نفوس» باستعادة الفقرة التي خصه بها ابن النديم من كتابه. يقول صاحب الفهرست في موضع «الكلام على كتاب النفوس»: «هو ثلاث مقالات نقله حنين إلى السريدي تاماً، ونقله إسحق إلّا شيئاً يسيراً، ثم نقله إسحق نقلاً ثانياً تاماً جود فيه، وشرح ثامسطيوس هذا الكتاب بأسره... وللأماقيدورس تفسير سرياني، قرأت ذلك بخط يحيى بن عدي. وقد يوجد بتفسير جيد، ينسب إلى سيبتيوس، سرياني، وعمله إلى أثاواليس. وقد يوجد عربي. وللإسكندرانيين تلخيص هذا الكتاب نحو مئة ورقة. ولان الطريق جوامع هذا الكتاب. قال إسحق: نقلت هذا الكتاب إلى العربي من نسخة رديئة، فلما كان بعد ثلاثين سنة وجدت نسخة في نهاية لجمدة فقابلت بها النقل الأول، وهو شرح ثامسطيوس» (الفهرست، ص ٣٥٣ - ٣٥٤).

ومع أن الغاية التي يصدر عنها النص وجميع المتدخلين عليه، هي محاولة صياغة نظرية معقنة في المعرفة، فإن استغلاق النص أصلاً وشرحاً وترجمةً، أتاح الفرصة لناقد العقل العربي لإمداد روايته المنحولة عن «أسرار الحكمة المشرقية» بمادة هذائبة جديدة لا يردعها رادع من مساءلة أو محاسبة علمية. وهكذا فإنه لم يكتفِ بأن يرى في تدخل ابن سينا «المشرقي» ضد الإسكندر وثامسطيوس «المغربيين» تطوراً درامياً جديداً من تطورات تلك الرواية الشديدة الإلغاز، بل لم يُحجم أيضاً عن خلع صفة «الهرمسية الثامنة» على محاولة ابن سينا الاجتهادية الخاصة للخروج من المأهاة المسدودة التي حبس فيها المعلم الأول تلاميذه وشراحه بما أورثه إياهم من معادلة متعددة المجاهيل عن عقل فئال وعقل منفعل وعقل بالقوة وعقل بالفعل وعقل بالملكة وعقل هيولاني وعقل مستفاد.

والحال، أن السؤال الذي يثور حالياً: هل يثبت ابن سينا، بتدخله على تلك المعادلة، شيئاً آخر سوى انتشاره للإشكالية الأرسطية الأسيرة للعصر الوسيط - العربي الإسلامي واللاتيني المسيحي - برمته؟ وصحيح أن ابن سينا برأى له أنه مستطيع - وهذا هو كس سر فلسفته المشرقية - أن يشق لنفسه مخرجاً شخصياً من المأهاة، ولكن هل يحلم بالخروج من المأهاة إلا من كان في داخلها؟ وهل من وظيفة للمأهاة كتماته سوى أن ترد كل مسعى للخروج منها إلى خيط عشواء داخل جدرانها؟

وحتى نخرج بدورنا من المأهاة التي يريد ناقد العقل العربي أن يحبس فيها قارئه فإننا نتساءل: هل الخلاف، في إطار الإشكالية الأرسطية عن العقل الفاعل والعقل المنفعل، مع الإسكندر الأفروديسي أو ثامسطيوس (أو ثيوفراستس أو سمبليقيوس أو أي شارح آخر)، يمكن أن ينهض بحد ذاته دليلاً على «المشرق» أو معياراً لـ «التهمس»؟

إن ملاحظات ثلاثاً تفرض هنا نفسها:

أ - إن خلاف ابن سينا مع الإسكندر الأفروديسي يبقى خلافاً بين شراح، ولا يمكن بالتالي أن يرقى إلى مستوى مواجهة إبستمولوجية بين عقل «مشرقي» وعقل «مغربي». بل إن ذلك الخلاف، المحصور أصلاً ببعض الجزئيات، لا يرقى أصلاً إلى أن يكون خلافاً، وكم بالأحرى صراعاً ومواجهة. فابن سينا نفسه يتفق له في بعض المواضع أن يقب الإسكندر الأفروديسي بـ «فاضل المتقدمين»، أو حتى أن يسميه

«الإسكندر الإلهي». وصحيح أن ابن سينا يتفق له أن يقول: «غلط الإسكندر ومن كان على رأيه»، ولكن قد يتفق له أيضاً أن يقول في النص نفسه: «نعم ما قال الإسكندر وغيره»^(١٢٦). وحتى إذا رجعنا إلى الرسالة إلى الكيا - التي تؤلف في نظر ناقد العقل العربي جزءاً أساسياً من «جسم الجريمة» - فإننا نجد ابن سينا لا يجمع الإسكندر وثامسطيوس وغيرهما من الشراح القدامى في سلة «مغربية» واحدة مع البغداديين بحسب فرضية الجابري، بل يحرص، على العكس، على التمييز في الموقع وفي المقام وفي الأهلية العلمية بين البغداديين «المغربيين بالوهم» وبين «المغربيين بالفعل» الذين هم الشراح اليونانيون أو الكاثون باليونانية المتقدمون. وكلام ابن سينا في نص الرسالة لا يحتمل التباساً: «لكن ذاك قد كان يشتمل على تلخيص ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم. ولأن فليس يمكنني ذلك [- إعادة الشغل في كتاب «الإنصاف الضائع» ولا لي مهلتة، ولكن أشتغل بمثل الإسكندر وثامسطيوس ويحيى النحوي وأمثالهم»^(١٢٧).

ب - ما وجه الخلاف بين ابن سينا «المشرقي» والإسكندر الأفروديسي «المغربي»؟ إنه عين لخلاف بين ثامسطيوس «المغربي» والإسكندر «المغربي». فاعتراف الجابري نفسه في الشاهد الذي يقبسه عن يوسف كرم، فإن مادية العقل الهولاني كانت هي موضع اعتراض ثامسطيوس على الإسكندر، إذ «ذهب إلى أن الحجج التي تضطر إلى اعتبار العقل الفعال مفارقاً تضطر إلى اعتبار الفعل المنفعل (= العقل الهولاني) مفارقاً كذلك». والحال، أن ابن سينا، في اعتراضه على الإسكندر، لا يزيد على ما قاله ثامسطيوس: «ما أدري كيف جوّز لإسكندر إلى هذا الرجز [= أرسطو] أنه يقول إن

(١٢٦) «التعليقات على حواشي كتاب النفس لأرسطاطاليس» في: «أرسطو عند العرب»، ص ١١٦ و ١١٤.

(١٢٧) لمستحضر هذا نص الجابري: «ولما تبين كل ذلك، اتضح بالتالي من يقصد ابن سينا بـ «العالمين من المتفلسفة» الذين يشبههم بـ «الحنايبة في كتب لفته» شدة تمصيههم للتقليد المشائي. إهم بدون شك من وصفهم بـ «البله التصاري من مدينة السلام». أما «المشازون اليونانيون» الذين يواحدتهم بالاعتصار على تقليد أرسطو والتعصب له، فهم... الإسكندر الأفروديسي وثامسطيوس ويحيى النحوي وأمثالهم وإذا لمصطلح «المغربيين» في استعمال ابن سينا يشمل هؤلاء جميعاً مع أهل بغداد من معاصريه باعتبارهم مشائين» («نحن والتراث»، ص ١٩٣، والتويد من الجابري).

العقل الهولاني، وهو هذه القوة الاستعدادية، هولاني مادي، وإن النفس التي لها هذه القوة هولانية مادية^(١٢٨).

والواقع أن إيهام الجابري قارنه بأن ابن سينا وقف موقف المعارضة والمخالفة من الإسكندر وثامسطيوس معاً باعتبارهما «مغربيين»، إنما المقصود منه تثبيت صفة «المشرقية» على ابن سينا في وهم لقارئ إياه. والحال أن معارضة ابن سينا للإسكندر وهذا في المواضيع التي عارضه فيها - إنما جاءت من موقع التوافق مع معارضة ثامسطيوس للشارح الإسكندراني. والنصوص في ذلك قاطعة. يقول ابن سينا في رسالته «في السعادة»، وفي معرض «القول في أحوال النفس عند مفارقتها»، إنه «قد اختلف العلماء والحكماء في قوامها دون البدن. فأما الإسكندر الأفروديسي المفسر فإنه كان يرى أن هذه القوة تبطل عند فساد البدن، وعليه يؤول قول أرسطاطاليس. وأما ثامسطيوس فإنه يخالف هذا الظن ويرى أن القوة باقية بعد فساد البدن، وعليه يؤول قول الفيلسوف. وهذا القول هو الصحيح، وبه تأخذ»^(١٢٩)

ج - لو كان الاعتراض على تفسير الإسكندر وغيره من الشراح «المغربيين» دليلاً على انتفاء «مشرقي»، لكان ينبغي أن تُلصق هذه الصفة الأخيرة بابن رشد قبل ابن سينا. فابن سينا لم يفعل في نهاية المطاف غير أن يعترض على بعض أقوال الشارح الإسكندراني، وحصراً منها ما يتصل بمادية العقل الهولاني، على حين أن ابن رشد اعترض على كامل مذهب الإسكندر، وكاد أن يخصص للرد عليه كامل شرحه الكبير لكتاب «النفس». ولا يخلو أن نقع في هذا الشرح على عبارات شديدة القسوة بحق الإسكندر الأفروديسي، وحتى بحق ابن باجه نفسه بقدر ما تأثر بالشارح الإسكندراني. ومن ذلك قوله: «إن ما يقوله الإسكندر لا قيمة له»، أو قوله: «هذا ما قد الإسكندر إلى عرض متهافت لغلط سافر»^(١٣٠). بل إنه لا يتردد في أن يقيم محكمة حقيقية للإسكندر ليحمّله كل مسؤولية ضلال المحدثين من الفلاسفة. فعلى حين «أن أحداً من القدماء ما اعتدّ قط في زمنه برأي الإسكندر، بل تبذره جميعاً... فإن العكس هو ما

(١٢٨) «التعليقات على حواشي كتاب انفس لأرسطاطاليس»، مصدر آف الذكر، ص ٢٥.

(١٢٩) «رسائل الشيخ الرئيس ابن سينا»، مصدر آف الذكر، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(١٣٠) ابن رشد: «العقل والفكر أو شرح النفس الكبير» (*L'Intelligence et la Pensée, gran*), نقله إلى الفرنسية وقدم له آلان دي ليبيرا، منشورات فلانماريون، الطبعة الثانية، باريس ١٩٩٨، ص ٦٥ و٦٦.

يحصل، وأسفاه. عند المحدثين. فعندهم أن ليس علم تام إلا أن يكون تلميذاً للإسكندر. ومرد ذلك إلى شهرة هذا الرجل الكبير وإلى إجماع الناس على الاعتقاد بأنه حقاً واحد من مفسري أرسطو المجيدين^(١٣١).

هذا بصدد الموقف السلبى من الإسكندر. أما بخصوص التوافق بين ابن رشد واثامسطيوس فإنه يكاد يكون نسخة طبق الأصل من موقف ابن سينا الإيجابى من لشارح القسطنطيني. ففي أكثر من موضع من «شرح النفس الكبير» يعلن: «نحن على وفاق مع ثامسطيوس» أو «اثامسطيوس على وفاق معنا، ولكن الإسكندر على موقف مخالف». وهذا إلى حد حمل ناقل نصه من اللاتينية إلى الفرنسية على القول: «إن ابن رشد لا يشرح أرسطو بدءاً من الصفر، بل يقرأه ضد الإسكندر وبمساعدة ثامسطيوس، وإن بتجاهل ابن سينا»^(١٣٢).

نظرية النفس

قد يعترض ناقد العقل العربي هنا - وهو يفعل - بأن معيار «الهرمسية» السينوية لا يتمثل فقط بكون ابن سينا مختلف مع شراح أرسطو من المشائين «المغربيين»، بل بكونه أيضاً رفض مذهب أرسطو في النفس بوصفها «كمالاً أول لبدن»، متقومة به وليست مستقلة عنه، و «ذهب مذهباً آخر تماماً، فتبنى النظرية الهرمسية التي تقوم على اعتبار النفس جوهرًا مستقلاً عن البدن»^(١٣٣)، وأنها من «أصل إلهي» وأنها تهبط إلى الأبدان عقاباً لها على ذنوبها، وأنها «تمكث مدة في الجسم، فإذا هي خضعت لعملية التطهير عادت إلى أصلها الإلهي».

رهنا أيضاً تفرض ثلاث ملاحظات نفسها:

أ - فمن الافتئات الكبير على ابن سينا أن يقال إنه تبنى النظرية الهرمسية، المانوية - الثنوية، في النفس، وإنه «دافع عنها في مختلف كتبه، وانشغل أيما انشغال بالبرهنة على وجود النفس وعلى أنها جوهر روحاني مستقل، وأنها مفارقة وخالدة، وأنها

(١٣١) المصدر نفسه، ص ١٠١. وقد أنكر دي ليبيرا في تعليقه على هذا النص وجود أية إمكانية لقراءة تخفيفية له، مؤكداً أن كل نظرية ابن رشد في العقل هي نقد لنظرية الإسكندر فيه (ص ٢٦٦).

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(١٣٣) ت.ع.ج، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

هبطت إلى الإنسان من «المحس الأرفع»^(١٣٤). فابن سينا يعلن، على العكس، رفضه الصريح والقاطع لـ «النظرية الهرمسية» في النفس، متمثلة بـ «الفرقة» التي ينقض «آراءها الباطلة» نقضاً شديداً في رسالته «الأضحوية»، أي الفرقة التي تعتقد النفس «جوهراً نورانياً من عالم النور، مخالطاً للبدن الذي هو الجواهر المظلم من عالم الظلمة، وهؤلاء هم المجوس والثوية والمانوية ومن ذهب مذهبهم، وسعاده خلاص النور من الظلمة، وخرقه الأفلاك، وخروجه إلى عالم النور؛ وشقاؤه بقاؤه في العالم المظلم»^(١٣٥). ولا يكتف ابن سينا قارئه أن «موضع التدليس» في كلام هذه الفرقة - ومعها أيضاً الفرقة القائلة بالتناسخ - «فرضهم النفوس موجودة قبل الأبدان». وهو الفرض الذي يعزونه بالاستشهاد بما «قال حكيم اليونانيين» من «أن نفس هبطت لثرتاش»، وبما «قال الآخر» من أنها أذنبت ذنباً فعوقبت بسجنها في البدن أو هربت من سخط الله إلى البدن»^(١٣٦).

وواضح من هذا النص أن «هبوط النفس» ليس في الأصل «نظرية هرمسية»؛ وإنما القائل به «حكيم اليونانيين»، أي أرسطو، ولكنه أرسطو «الأكولوجيا»، أي في محصلة الحساب أفلوطين. وواضح من النص أيضاً أن من سبق إلى القول بسجن النفس في البدن عقاباً لها على ذنب اقترفته، ليسوا أصحاب هرمس، بل حكيم ليونانيين الآخر، أي أفلاطون.

ولا شك في أن الملائسة الأفلوطينية - المحدثة للمشائية العربية الإسلامية، كما من قبلها للمشائية الهلنستية، قد شلت سلفاً قبرة ابن سينا على السداد في لمحاكمة. ولكن ذلك لا يمنعه من أن يتبنى بقوة وثبات الأطروحة المركزية لأرسطو غير لمنحول، وهي الأطروحة التي تقول إنه «لا يمكن أن تكون النفوس موجودة قبل الأبدان، بل هي حادثة مع الأبدان»^(١٣٧). وهذه الأطروحة هي التي سيدافع عنها بمزيد من القوة في رسالته «المبدأ والمعاد»، حيث يعقد فصلاً بتمامه ليثبت أن «النفس الباطنة تحدث مع حدوث البدن»^(١٣٨). وهذه الأطروحة هي عنها التي سيفضل فيها المزيد

(١٣٤) الموضع نفسه.

(١٣٥) ابن سينا: «الأضحوية في المعاد»، تحقيق د. حسن عاصي، المؤسسة العامة للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧، ص ٩٣ - ٩٤.

(١٣٦) المصدر نفسه، ص ١١٧ - ١١٨.

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(١٣٨) «المبدأ والمعاد»، مصدر آف الذكر، ص ١٥٧.

من القول في رسالته «في النفس وبقائها ومعادها»، حيث يؤكد أن «البدن علة للنفس في الوجود»، وأنه «محال أن تكون قد وجدت قبل البدن»، لأنها لا تحدث إلا «كلما يحدث البدن الصالح لاستعمالها إياه، ويكون البدن الحادث مملكتها وآلتها»^(١٣٩).

قد يثور هنا سؤال: إذا كان ابن سينا يعتقد جازماً أن النفس حادثة بحدوث البدن، فكيف يقول إذاً، في قصيدته العينية، إنها «هبطت من المحل الأرفع»؟ والجواب عن ذلك أن هذه القصيدة متحولة على ابن سينا ضمن الكثير الكثير مما نحل عليه. وبدلاً من أن يجعل منها نافذ العقل العربي حجراً من أحجار الزاوية في فرضيته عن تهرمس ابن سينا، فقد كان أولى به أن يلزم حداً أدنى من الحذر النقدي، وأن يشير إلى أن باحثين مرموقين، ومنهم أحمد أمين، وكذلك أحمد فؤاد الأهواني، محقق كتب ابن سينا وابن رشد معاً في النفس، قد شككوا في أمر نسبة القصيدة العينية إلى الشيخ الرئيس، لأسباب عدة، ومنها على الأخص «مخالفة ما جاء فيها» لقناعة ابن سينا الثانية بأن «النفس حادثة مع حدوث البدن، ولم تكن موجودة وجوداً سابقاً، ثم هبطت إلى البدن وألقت جوارحه»^(١٤٠).

وربقي بعد ذلك إشكال. فابن سينا، الذي قال على هذا النحو بحدوث النفس بحدوث البدن، لم يقل مع ذلك بفتائها بفتائه. فمن مقدمة أرسطية ما استطاع أن ينتهي إلا إلى نتيجة أفلاطونية. فهل نتحدث ههنا عن مأزق في داخل المنظومة السينية، كما لاحظ إبراهيم مذكور^(١٤١)، أم نرد أيضاً هذا المأزق إلى ملابسة أفلاطونية للمنظومة الأرسطية نفسها، وهي ملابسة اشتغلت بفاعلية مضاعفة في سياق النظام الابستمي للعقل العربي الإسلامي، كما سنرى توأماً؟

ب - أن تكون النفس حادثة بحدوث الجسم، فهذا معناه أنها عرض له. ولكن أن تكون غير فانية بفتائه، فهذا معناه أنها جوهر، وبالضرورة جوهر روحاني، لأن كل ما هو جسماني فإن لا محالة.

اختيار ابن سينا في حل هذه المحارجة ذهب إلى المخرج الثاني. وما كان له أصلاً

(١٣٩) ابن سينا: «أحوال النفس»، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربي (عيسى البابي الحلبي)، القاهرة ١٩٥٢، ص ٩٦ - ٩٩.

(١٤٠) المصدر نفسه، من مقدمة المحقق، ص ٣٥.

(١٤١) إبراهيم مذكور: «في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيق»، طبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨، ج ١، ص ١٨٢.

أن يذهب إلى غير هذا المخرج، لأنه كفيلسوف ما كان يفكر في سماء المجرد، بل على أرضية الحضارة العربية الإسلامية التي بنت تصورهما الديني عن العالم ومنظومتها القيمة على فكرة المعاد وبقاء النفس ومحاسبتها في الآخرة على أعمالها في الدنيا ثواباً أو عقاباً^(١٤٢).

فهل كان لابن سينا، وهو فيلسوف من فلاسفة الإسلام، ألا يقول بمعاد النفس^(١٤٣)؟ ولئن يكن قد قال بجوهرية النفس وروحانيتها وحلودها، فهل يكون قد «تهرمس»؟

لو صح ذلك لكان ينبغي أن يُرمى جميع فلاسفة الإسلام بالتهرمس، لأن جميع فلاسفة الإسلام بلا استثناء قد ذهبوا هذا المذهب، بدءاً بالكندي ومروراً بالسجستاني و انتهاء بابن رشد (ونحن نقتصر على هؤلاء الثلاثة لأنهم، في نظر الجابري، براء من مشرقية ابن سينا المزعومة).

فالكندي حدّ النفس بأنها «بسيطة... منفردة عن هذا الجسم، مباينة له، وأن جواهرها جوهر إلهي روحاني... وهذه النفس، التي هي من نور الباري، إذا هي فارقت ابطن علمت كل ما في العالم، ولم يَخَفَ عنها خافية... وفي قوتها - إذا تجردت - أن تعلم سائر الأشياء كما يعلم الباري بها، أو دون ذلك برتبة يسيرة... لأنها... إذا تجردت وفارقت هذا البدن وصارت في عالم لعقل فوق الفلك، صارت في نور الباري ورأت الباري وطابقت نوره وحلّت في ملكوته، فانكشف لها علم كل شيء، وصارت الأشياء كلها بارزة بها، كمثل ما هي بارزة للباري»^(١٤٤).

أما أبو سليمان السجستاني، الذي كان يُفترض فيه أن يكون شيخ المدرسة

(١٤٢) «واتقوا يوماً تُرْجَمُونَ فيه إلى الله ثم تُوقَى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون» (البقرة: ٢٨١)؛ «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَرًا وما عملت من سوء» (آل عمران: ٣٠)؛ «ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب» (إبراهيم: ٥١)؛ «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوقى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون» (التحليل: ١١١)؛ «يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك واضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» (الفجر: ٣١).

(١٤٣) لا ننسى أن الغزالي أفتى بتكفير الفلاسفة لأنهم، على قولهم بمعاد النفس، لم يقولوا أيضاً بمعاد الأبدان.

(١٤٤) «رسائل الكندي الفلسفية»، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريذة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٠، ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٦.

البغدادية «المغربية» الملتزمة - زعماً - بمذهب أرسطو في النفس بوصفها كمالاً أول للبدن، فإن كلامه في النفس يدرجه لا محالة، كما كان لاحظ دارسه، في صفوف الأفلاطونيين والأفلوطينيين، لا في صفوف لأرسطيين والمثاليين^(١٤٥). فعنده أن «النفس قوة إلهية... وشيء بسيط عالي الرتبة، بعيد عن الفساد، منزّه عن الاستحالة... تبقى ولا تفنى، وليس يطرأ عليها ما يفتيها، بساطتها وبُعدها من التركيب العجيب المعرض للتحلل». ومعناها من «معدن الكرامة» لا من معدن الطبيعة. فهذه وإن تكن «هي أيضاً قوة نفسية»، لكنها «بالمواد أعلق، ولمواد لها أعشق» و«ليس لها ترقى النفس إلى عالم الروح»، حيث «لا كون هناك ولا فساد»، وحيث «لا حاجة بها إلى علم العالم السفلي» لأن «لها في عالمها البهجة والغبطة، والحبور والسرور، والدوام والمخلود والخلافة الإلهية»^(١٤٦).

وابن رشد نفسه، على شديد حرصه على التقيد بالسنة المشائية، وعلى شديد حرصه أيضاً على تمييز نفسه عن ابن سينا، لا يذهب في النفس مذهباً مغايراً للتقليد الذي رست عليه الفلسفة العربية الإسلامية بجمعها. وحسبنا شاهد واحد. فابن رشد يخصص العشر الأخير بثمائه من «تهافت التهافت» ليدافع عن مبدأ «تجرد النفس الإنسانية» وليطعن دعوى الغزالي في تعجيز الفلاسفة «عن إقامة الرهان العقلي على أن النفس الإنسانية جوهر ورواحاني قائم بنفسه لا يتحيز وليس بجسم». وبعبارة أخرى، إن ما يأخذ ابن رشد على عاتقه ليس الدفاع عن التصور الأرسطي للنفس بوصفها كمالاً أول للبدن، بل بالعكس الدفاع عن المذهب الأفلاطوني الذي يرى فيها «جوهرًا روحانيًا قائمًا بنفسه». وبعبارة أخرى أيضاً، إن ابن رشد ينهض، في رده على الغزالي، داعية إلى فك الارتباط بين النفس والجسم، ليؤكد أنها، مثلها مثل العقل الذي هو قوة لها، مبدأ مفارق، أي «غير مرتبط بالجسم»، حتى وإن يكن هو آلتها. والدليل أنها لا «تبطل في الموت»^(١٤٧) و«لا تعدم بعدم البدن»، لأن «الجسم إن كان لها بمنزلة الآلة، فليس

(١٤٥) «أما عن أفلاطونية السجستاني فالواقع أنه أطلع على الفلسفة اليونانية بصورة عامة، إلا أنه لم يكن أرسعوطاليسياً، بل كان أفلاطونياً واضحاً» (ناجي التكريتي: «الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام»، ص ٢٦٤).

(١٤٦) «الإمتاع والمؤانسة»، ج ٣، ص ١١٠ - ١١٤.

(١٤٧) يستعين ابن رشد هنا بالمعائلة «الجمهورية» بين حالة النوم وحالة الموت لينتقل على بقاء النفس. يقول: «وتشبه الموت بالنوم في هذا المعنى فيه استدلال ظاهر في بقاء النفس من قبل =

لها قوام به». ويكلمة واحدة، إن ابن رشد هو من يقول بلسان نفسه - في فاتحة المسألة الثالثة من الطبيعيات في «تهافت التهافت» - «بستحالة الفناء على النفوس البشرية» لأن «النفس يستحيل عليها العدم بعد الوجود»، فحتى «إذا فسدت الأبدان عادت إلى مادتها الروحانية وأجسامها اللطيفة التي لا تحس»^(١٤٨)

ج - إن ابن سينا نفسه لم يرفض في أي موضع من كتاباته صيغة أرسطو عن النفس بوصفها كملاً أول للبدن. بل تلك هي قاعدة انطلاقه في أهم وأوسع ما كتبه في النظرية النفسية، عين كتب «النفس» من موسوعته الكبرى: «الشفاء». يقول بمنتهى الوضوح والجزم منذ الفصل الأول: «النفس التي نحدّها هي كمال أول لجسم طبيعي آلي له أن يفعل أفعال الحياة»^(١٤٩). ولكنه إذ يأخذ بهذا التعريف الأرسطي للنفس، فإنه لا يكتفي به - وما كان له أن يكتفي به - فمثل هذا التعريف الفيزيقي للنفس كانت تصادمه وقائع ثلاث هي جميعها من طبيعة ذهنية واعتقادية. أولاً - التصور الديني الذي قدّم لكل الحضارة العربية الإسلامية نظامها الاستمعي والذي يقوم في ركيزة أساسية من ركائزه على الاعتقاد بخلود النفس وأيلولتها الأخروية إلى ثواب أو عقاب. ثانياً - الملابس الأفلاطونية المحدثة للإشكالية الأرسطية في الثقافة العربية الإسلامية، كما من قبلها في الثقافة المسيحية الشرقية، اليونانية والسرانية معاً، كما من بعدها في الثقافة المسيحية الغربية اللاتينية. والحال، إن جوهرية النفس ومفارقتها ولاماديتها هي الثروة الصلبة لتلك الملابس التي كانت محكومة بالنظام الاستمعي للثقافات الدينية الثلاث، وليس بصدفه الخطأ التي شاءت للأوثولوجيا الأفلاطونية أن «تندس» بصورة لاشعورية في المنظومة المشائية. ثالثاً - نظرية العقل الأرسطية، كما صيغت في فقرة لعقل الفعّال

= أن النفس يبطل فعلها في النوم بظلال آلتها، ولا تبطل هي. فيجب أن يكون حالها في الموت كحالها في النوم، لأن حكم الأجزاء واحد، وهو دليل مشترك للجميع ولانق للجمهور في اعتقاد الحق («تهافت التهافت»، ص ٨٣٣ - ٨٣٤).

(١٤٨) أبو الوليد محمد بن رشد. «تهافت التهافت»، تحقيق سليمان دنيا، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ج ٢، ص ٨٤٧ و ٨٥٩ و ٨٦٢. والطريف أن ابن رشد، في تعبيره تعبير الغزالي للفلاسفة، لا يحجم عن الاستماعة بأفلاطون كما في قوله. «من هـا يستدل أفلاطون على أن نفس مفارقة لبدن، لأنها هي المخلفة له والمصورة. ولو كان البدن شرطاً في وجودها لم تخلّفه ولا صورتها» (ص ٨٦١).

(١٤٩) ابن سينا: «الشفاء»، «الطبيعيات»، ٦ - «النفس»: تحقيق الأب جورج قنوتاني وسعيد زايد، وتقديم إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ١٠.

في المقالة الثالثة من كتاب «النفس». فما دام التعقل هو الوظيفة الأولى والأشرف للنفس، وما دامت واسطة التعقل التي هي لعقل، سواء أكان فاعلاً أم منفعلاً، هي - بموجب الصيغة الأرسطية نفسها - من طبيعة مفارقة وخالدة (أو «روحانية غير ميتة» بمقتضى الترجمة العربية القديمة)، فكيف لا يثب التصور الديني للعصر الوسيط على الفرصة لمناخ لتثقل نظرية النفس من المستوى الفيزيقي إلى المستوى الميتافيزيقي؟ وبهذا المعنى، يمكن القول إن ابن سينا كان منفذ الوصية الإيستمية لعصره. فعلى حين أن من تقدمه من فلاسفة الحضارة العربية الإسلامية اكتفى، في ما يتعلق بنظرية النفس، بـ «الجمع بين رأيي الحكيمين»، فإن المهمة التي أخذها على عاتقه هي الفصل الإجرائي بين المستويين لرفع التناقض الظاهر لا بين أرسطو وأفلاطون فحسب، بل أيضاً - وربما في المقام الأول - بين أرسطو «الطبيعي» وأرسطو «الإلهي».

فابن سينا لم يرفض أن يقول مع أرسطو، إن النفس كمال أول لجسم طبيعي كمي وذو حياة. كما لم يرفض أن يقول - بمعجم أرسطو دوماً - إن النفس صورة الجسم. ولكنه لم يرتض هذا التعريف إلا بقدر ما «يوضح الصلة بين النفس والجسم»، لا من حيث إنه «يفسر النفس من حيث هي»^(١٥٠). أو فلنقل إنه لا يقبل بالتعريف الأرسطي إلا من حيث إنه تعريف وظيفي، لا تعريف ماهوي (عدماً بأن الدرس الأرسطي نفسه - ومعه بالتالي كل المنطق الصوري للعصر الوسيط - يقوم على أنه لا حد إلا بالماهية). يقول ابن سينا: «إننا إذا عرفنا أن النفس كمال... لم يكن يعد عرفنا النفس وماهيتها... بل عرفناها من حيث هي مدبرة للأبدان ومقيسة عليها». ويضيف - وهي إضافة بالغة الأهمية - إنه بقدر ما «يؤخذ البدن في حدها... صار النظر في النفس من العلم الطبيعي»^(١٥١). ولكن «النظر في النفس من حيث هي نفس» يقتضي التحول عن الوظيفة إلى الماهية، والترقي من العلم الطبيعي إلى العلم ما يعد الطبيعي، أو «الصناعة الحكيمة» على حد توصيف ابن سينا في موضع لاحق من كتاب «النفس»^(١٥٢). وإنما

(١٥٠) كما لاحظ إبراهيم مذكور في تقديمه المقتضب والممتاز لكتاب النفس من الشفاء.

(١٥١) النفس من كتاب الشفاء، مصدر آف الذكر، ص ٩.

(١٥٢) «إن كلامنا في هذا الموضوع، إنما هو في أمر النفس من حيث... هي مقارنة للمادة. فليس ينبغي لنا أن نتكلم في أمر مواد النفس - ونحن متكلمون في الطبيعة - إلى أن تنتقل إلى الصناعة الحكيمة وننظر فيها في الأمور المفارقة. وأما النظر في الصناعة الطبيعية، فيختص بما يكون لاحقاً بالأمور الطبيعية، وهي الأمور التي لها نسبة إلى المادة والحركة» (ص ٢١١).

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرفة

مع هذه النقطة الصاعدة في مراتب علم النفس تخرج النفس من مقولة الصورة لتدخل في مقولة الجوهر، ويتوقف الحديث في النفس الطبيعية، الحاسة والغاذية والشهوية والغضبية، ليبدأ الكلام في النفس الناطقة والعاقلة والمفارقة اللافانية.

هنا يطرح سؤال نفسه: هل هذه الطبوغرافيا السيتوية في علم النفس مفارقة للطبوغرافيا الأرسطية؟ وهل يشكل تجاوز ابن سينا، التعريف الفيزيقي للنفس، بوصفها صورة الجسم، إلى تعريف ميتافيزيقي يحدها بأنها جوهر مفارق، هل يشكل هذا التجاوز خروجاً على الإشكالية الأرسطية؟

الواقع، أن ابن سينا لا يفعل شيئاً آخر هنا سوى أنه يشرح أرسطو أو يفند وصيته. فأرسطو هو من كان أثار، في موضعين على الأقل من كتاباته، إشكالية التصاعد الإجرائي من المآخذ الفيزيقي للنفس إلى المآخذ الميتافيزيقي. فعل ذلك مرة أولى في كتابه «في النفس» الذي أرسى الأساس الدائم وغير القابل للتجاوز لعلم لنفس الكلاسيكي قبل أن ترى النور السيكلوجيا بمعناها العلمي الحديث، ومرة ثانية في كتابه «أجزاء الحيوان»، وهو من كتابات المرحلة العلمية البيولوجية الأخيرة من حياته. وفي الحالين، يقصر أرسطو مهمة «الطبيعي» على النظر في انفعالات النفس من غضب وشهوة وحب وكره، وذلك من حيث إنها تتظاهر في الجسم وبواسطة الجسم. ولكن علم «الطبيعي» هذا لا يمكن أن يكون هو كل العلم. فإلى جانب «الطبيعي» الذي يدرس «الفاعليات والمفعوليات العائدة إلى جسم بعينه»، هناك «الرياضي» الذي يدرس هذه الكيفيات نفسها ولكن بقدر ما «هي مجردة بدون أن تكون مفارقة». وهناك أخيراً «الميتافيزيقي» الذي ينظر فيها من حيث «هي ذات وجود مفارق تمام المفارقة»^(١٥٣).

وعلى أي حال فإن العلم الطبيعي لا يمكن أن يكون هو كل العلم، وإلا لانتفت الحاجة إلى الفلسفة نفسها من حيث هي علم أول، في الوقت الذي لا يعدو العلم الطبيعي أن يكون فلسفة ثانية. فالعلم لطبيعي يمكن أن يدرس مبدأ النمو ومبدأ الحس ومبدأ الحركة في الكائن، سواء أكان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً على التوالي، ولكنه لا يستطيع أن يدرس مبدأ العقل. لأن هذا المبدأ يعود حصراً إلى الإنسان، ويعود في الإنسان إلى النفس. وصحيح أن جزءاً - أو أكثر - من هذه النفس الإنسانية يعود إلى

(١٥٣) أرسطو: «في النفس» (De L'Âme) (٤٠٣ أ ب)، ترجمة ج. تريكو، منشورات مكتبة فران الفلسفية، باريس ١٩٧٢، ص ١٢٨.

الطبيعية، ولكن «ليست كل نفسه تعود بتمامها إلى الطبيعة»^(١٥٤). ولهذا فإن العلم (= علم النفس) لا يمكن أن يقف حيث يشاء أن يوقفه «الفيزيولوجيون».

والواقع أن تصور أرسطو للنفس باعتبار أنها «لا تعود بتمامها إلى الطبيعة» وباعتبار أن الجزء الذي لا يعود منها إلى الطبيعة إنما تقع مهمة دراسته لا على الفيزيولوجي المختص بشؤون ما دون فلك القمر، بل على الميتافيزيقي، أو حتى على الثيولوجي المختص بشؤون ما فوق فلك القمر، نقول: إن تصور أرسطو للنفس هذا لا يخلو من بقية تأثير للمذهب المثالي للمعلم الذي انتفض عليه: أفلاطون. وفي موضع واحد على الأقل من كتاب «النفس» يقر أرسطو بالصحة الجزئية لمذهب أفلاطون في النفس بقوله: «إن ذلك الجزء من النفس الذي يسمى العقل (وأعني بالعقل ما تعقل به النفس وتتصور) لا يكون متقوماً بالفعل في أي موجود قل أن يعقل. لهذا لا يساغ لنا أن نسلم بأن العقل مخالط للجسم... بل لا بدّ من أن نوافق في الرأي قول من قال إن النفس هي موضع المُثُل، لكن شريطة أن يكون المقصود، لا النفس بتمامها، بل النفس الناطقة»^(١٥٥). وقد يصح، من وجهة النظر هذه، أن تطبق على أرسطو ما قاله ابن العربي عن الغزالي: لقد ابتلع أرسطو معلمه أفلاطون، ثم لما أراد أن يتقيأ ما استطاع. ولهذا أيضاً لم يخطئ كل الخطأ من أراد، بدءاً بالأفلاطونيين المحدثين واتباعهم بالفارابي، «الجمع بين الحكيمين». فأرسطو، المترقي من المستوى الفيزيولوجي إلى المستوى الميتافيزيقي، كان لا بدّ من أن يلاقي في نقطة انتصف ما من الطريق أفلاطون المتنزل على العكس مما فوق فلك القمر إلى ما دونه. ولهذا تبدو لنا مصيبة تمام الصواب ملاحظة ذكية لأي عليّ مسكويه، في معرض تعليق له على ما ينسب من خلاف إلى الحكيمين في نظرية العقل، جاء فيها: «ليس الأمر على ما يظنه كثير من الناس من أن هاهنا خلافاً من هذين الحكيمين. ولكن إنما اختلف نظرهما، كما يختلف نظر الإنسان إلى فوق وإلى أسفل. فإن المترقي والمنحدر بينهما مسافة بعينها ليست فوق ولا أسفل، ولما كان أرسطو إنما يعلمنا الحكمة بالترقي فيها من الأشياء الطبيعية، وأفلاطون كان من عادته أن ينحدر فيها من الأمور الإلهية،

(١٥٤) أرسطو: «في أجزاء الحيوان» (*Les Parties des Animaux*) (٦٤١ أ)، طبعة يونانية - فرنسية

مشتركة، تحقيق وترجمة بيير لويس، منشورات الآداب الجميلة، باريس ١٩٥٦، ص ٧ - ٨.

(١٥٥) «في النفس» (٤٢٩ أ)، مصدر ألف الذكر، ص ١٧٥. والتسويد منا.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

اختلف نظراهما كما اختلف تعليمهما، والمعاني متفقة^(١٥٦).

إشكالية العقل الفعّال

بالعودة إلى فقرة العقل الفعّال من كتاب «النفس» نشاءل: هل نستطيع أن نعتبر هذه المقولة سقطة عرفانية في مسيرة أرسطو البرهانية؟ هنا ما يبدو أن ناقد العقل العربي يريد توكيده - ودوماً في معرض تسفيه «مشرقية» ابن سينا: «قد تردد أرسطو في تحديد هوية القوة العقلية لتي تُخرج لعقل من القوة إلى الفعل، فتارة يعتبرها عقلاً مفارقاً: خالداً وتارة ينفي عنها هذه الصفة. وعلى كل، فإن القول بمفارقة هذه القوة العقلية وخلودها (= العقل الفعّال) إنما ورد عرضاً في سياق تحليله لعملية الإدراك»^(١٥٧). فهل نحن فعلاً أمام عرض عارض لا يحل محل موقعه إلا في هامش التحليل الأرسطي لما يسميه ناقد العقل العربي «عملية الإدراك» - بقصد التخفيف دوماً -، أم نحن على العكس في قلب المتن وفي نقطة لمركز من النظرية الأرسطية في المعرفة؟

إن للجواب هنا أهميته ليس فقط من منظور أرسطوي، بل أيضاً من منظور سينيوي. فتبويض الصفحة الميتافيزيقية لأرسطو لا يستهدف في خاتمة المطاف سوى تسويد الصفحة الميتافيزيقية لابن سينا ولكل «العقل المشرقي» بصورة عامة والحال، أن التصعيد الميتافيزيقي باتجاه مقولة العقل الفعّال ليس «مما لا يتسق مع الاتجاه العام للمنظومة الأرسطية»^(١٥٨)، كما يحاول ناقد العقل العربي الإيحاء، بل هو مطلب

(١٥٦) ابن مسكويه: في مجموعة عيد الرحمن بدوي: «دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١، ص ٥.

(١٥٧) «تكوين العقل العربي»، ص ٢٦٥. والتسويد هنا. ذلك أن ناقد لعقل العربي، المصنوع على أن يقدم قراءة نيزولرجية خالصة للمنظومة الأرسطية، يعمد، كلب ارتطم يبعد ميتافيزيقي في فكر المسلم الأول، إلى تشذيبه وتقليله والتخفيف من حمولته. هكذا يقول، في معرض توكيد أولوية الطبيعة على الله في فكر أرسطو (وفي الفكر اليوناني إجمالاً): «إن إله أرسطو يبدو وكأنه مجرد فرضية «علمية» لتفسير مبدأ الحركة، فهو من هذه الناحية مجرد «مطلب» منطقي أكثر منه شيئاً آخر. وحتى الصورة الميتافيزيقية التي ترسمها عنه بعض كتابات أرسطو تجعل منه عقلاً مشغولاً بنفسه، معرضاً عن كل ما عداه، جاهلاً لكل شيء آخر غير ذاته هو» (ت.ع.ع، ص ٢٨).

(١٥٨) «بنية العقل العربي»، ص ٤١٠.

أونطولوجي وباستمي معاً لهذه المنظومة كما كان لاحظ دارس مميز لنظرية النفس الأرسطية^(١٥٩). فليس هناك، بعد أفلاطون، من أصّر على تفسير العالم الحسي بالعالم ما فوق الحسي، والواقع المنظور بالواقع اللامنظور، مثل أرسطو. ومن هنا إصراره على تأليه العقل إصرار أفلاطون على تأليه النفس. ولا شك في أن أرسطو مرّ، منذ انقلابه لمعرفي على أفلاطون والأفلاطونية، بمراحل متعددة ومتدرجة من التطور الفكري، ولكن «ما بقي ثابتاً في نظرية المعرفة الأرسطية عبر جميع مراحل تطورها، هو القول - وهذه نظرية أفلاطونية الأصل - بأنواع الإلهي للعقل»^(١٦٠). فمتذ وقت مبكر أعلن أرسطو على لسان أنكساعوراس في كتابه «التمهيد»: «إن العقل هو الله فينا»^(١٦١). وفي «النفس»: «إن العقل يطراً في كشيء له وجود جوهري وليس عرضة للفساد... فهو على قدر أكبر من الألوهية والانعالية»^(١٦٢). وفي «ما بعد الطبيعة»: «إن لفي الحق شيئاً إلهياً. ولهذا، فإن التأمل بالفعل هو المتعة الأسمى والخير الأمثل»^(١٦٣). وفي «تولد الحيوان»: «ثمة موجودات يباطنها عنصر إلهي، وذلك هو ما يسمى العقل»^(١٦٤). وفيه أيضاً: «العقل وحده يأتي من الخارج وهو وحده الإلهي، وليس من شيء مشترك بين أية فعلية جسمية وبين فاعليته هو»^(١٦٥). وفي «أجزاء الحيوان»: «الإنسان وحده بين الحيوانات من ينتصب مستقيماً لأن طبيعته وماهيته إلهيتان. والحال، إن العقل والفكر هما من عمل الجزء الأكثر ألوهية منه»^(١٦٦). ولكن النص الأطول والأبلغ دلالة هو ذاك الذي ورد في «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، وهو

(١٥٩) فرانسوا نوييز: «تطور نظرية أرسطو في النفس»، مصدر آف الذكر، ص ٢١١.

(١٦٠) آدمون باويوتان: «النظرية الأرسطوطاليسية في العقل طبقاً لنيوفراسطس» (*La Théorie* Aristotélicienne de L'Intelleet D'après Théophraste)، منشورات كلية آداب بجامعة

باريس ١٩٥٤، ص ٢١٩.

(١٦١) استعد أرسطو هذه القول في «ما بعد الطبيعة»، (٩٨٤ ب).

(١٦٢) «في النفس» (٤٠٨ ب)، مصدر آف الذكر، ص ٤٦.

(١٦٣) أرسطو: «ما بعد الطبيعة» (١٠٧٢ ب) (*Métaphysique*)، ترجمة جان تريكو، منشورات مكتبة فران الفلسفة، باريس ١٩٧٠، ج ٢، ص ٦٨٢.

(١٦٤) أرسطو: «في تولد الحيوان» (٧٣٦ أ) (*De la Génération des Animaux*)، طبعة يونانية - فرنسية مزدوجة، ترجمة بيير لويس، منشورات الآداب الجميلة، باريس ١٩٦١، ص ٦١.

(١٦٥) المصدر نفسه (٧٣٦ ب)، ص ٦١.

(١٦٦) «في أجزاء الحيوان» (٦٨٦ أ)، مصدر آف الذكر، ص ١٣٤.

ابن سينا، أسطورة الفلسفة المشرقية

من آخر كتب أرسطو: «إذا كانت السعادة فاعلية مطابقة للمملكة، فمن المعقول أن تكون فاعلية للمملكة الأسمى، وهذه ستكون ملكة الجزء الأنبل من نفوسنا. وسواء أكان العقل - أو أية ملكة أخرى - هو ما يحوز بطبيعته الإمرة والقيادة، وهو ما يمتلك معرفة الماهيات الجميلة والإلهية، وسواء أكان هذا العنصر هو نفسه إلهياً أم فقط الجزء الأكثر ألوهية من أنفسنا، فإن فعل الجزء بمقتضى المملكة العائدة إليه سيكون هو السعادة التامة... بيد أن مثل هذا النمط من الحياة أكثر رفعة من أن يكون في طاقة الإنسان؛ فالإنسان لن يحيا على هذا النحو بصفته إنساناً، ولكن من حيث إن عنصراً إلهياً ما ماثل فيه... وإذا كان العقل شيئاً إلهياً نسبة إلى الإنسان، فإن الحياة بمقتضى العقل هي إلهية أيضاً بالمقارنة مع الحياة الإنسانية. إذاً لا ينبغي أن نعتبر أذن صاغية لمن ينصحون الإنسان بأن يحدّ عقله بالأشياء الإنسانية لأنه إنسان، وبالأشياء الغائية لأنه فاني. بل على الإنسان، بقدر طاقته، أن يحدّد نفسه وأن يفعل كل ما في مستطاعه ليحيا وفق الجزء الأكثر نبلاً من نفسه»^(١٦٧).

إن هذه النصوص قاطعة الدلالة: فإن يكن هناك من قراءة «لا تتسق مع الاتجاه العام للمنظومة الأرسطية» فهي تحديداً تلك التي تأولها على أنها محض فلسفة طبيعية، وتجردها من طابعها الميتافيزيقي أو حتى الشيولوجي لتجعل منها محض منظومة فيزيولوجية، ولتزيحها بالتالي عن موقع الصدارة الذي لها في الفلسفة الأولى لتحط نصبها إلى فلسفة ثانية.

وبما أننا لسنا هنا بصدد تقييم عام للمنظومة الأرسطية، بل فقط بصدد مراجعة للشق المتعلق منها بنظرية العقل - المتهم ابن سينا بالخروج «المتشرق» و «المتهمس» عليها - فلنقل، على سبيل الختام، إن نظرية العقل الأرسطية قد لعبت بالفعل دوراً خطيراً ومزدوجاً في تاريخ العقل البشري.

فنظرية العقل الفعّال قدمت أولاً الإطار المرجعي لكل العقل الديني للعصر الوسيط.

ليس فقط العقل الديني الإسلامي والمسيحي، بل كذلك العقل الديني «الوثني».

ذلك أن القلاع المحاصرة للفلسفة اليونانية «الوثنية» اضطرت، في مواجهة مد

(١٦٧) أرسطو: «الأخلاق إلى نيقوماخوس» (١١٧٧ أ - ١١٧٨ أ) (*Éthique à Nicomaque*)، ترجمة ج. تريكو، الطبعة الثانية، منشورات مكتبة فران الفلسفية، باريس ١٩٦٧، ص ٥٠٨ - ٥١٤.

المسيحية الصاعد، لأن تدين هي الأخرى، ولأن تكتشف في «العقل الفعّال» الإله الذي كانت تفتقده. ومن هنا، ما بدا من الإسكندر الأفروديسي من مغالة في التأويل جاره فيها من بعده عدة من الفلاسفة الإسكندرانيين والأفلاطونيين المحدثين^(١٦٨) بمماهاته بين العقل الفعّال والّله.

ولئن يكن الخوف من تهمة الشرك قد منع «فلاسفة الإسلام» من متابعة الإسكندر في مغالاته، فإنهم لم يمسكوا بدورهم عن تدين العقل الفعّال. فابن سينا اعتدّه تعبيراً عن «الفيض الإلهي»^(١٦٩)، وابن رشد رادف بينه وبين «ملك الشريعة»، مثلما قرن آخرون بينه وبين «ملك الوحي» أو «لوح المحفوظ».

أما الدور الثاني الذي لعبته نظرية العقل الأرسطية في تاريخ العقل البشري فكان من طبيعة سلبية تماماً: ففرضية العقل الفعّال انتصبت على مدى التاريخ الوسيط عقبة إبستمولوجية كأداء أمام أي تقدم فعلي في نظرية المعرفة. فالغموض، بله الإلغاز الذي صيغت به فقرة العقل الفعّال من كتاب «النفس»، ترك الباب مفتوحاً ليدخل في وهم الشراح «الوثنيين» ولمسلمين والمسيحيين أنهم يمارسون، من خلال اجتهاداتهم، حرية حقيقية في الإبداع الفلسفي، مع أن هذه الحرية ما تعدّت قط في الواقع حرية تحريك البيادق ضمن إطار - أو فلتقل إसार - رقعة الشطرنج كما رسمها لهم أرسطو. والحال، أن وهم الحرية هذا هو الذي جعل - في سياق المتطلبات الاستيمية للعقل الديني - إشكالية العقل الفعّال الأرسطية غير قابلة للتجاوز. فالإشكالية الفكرية السائدة في عصر بعينه لا تُتجاوز إلا عندما يتكشف للأجيال الجديدة جانب العبودية فيها. أما ما دامت الإشكالية السائدة قابلة لتأويلات جديدة، وفي سياق من صراع أيديولوجي فعلي كذلك الذي نشب بين الشراح القدامى (الإسكندر، ثامسطيوس، يحيى النحوي)، أو بين

(١٦٨) إن ظاهرة الأفلاطونية المحدثة يمكن أن تُعدّ بحد ذاتها تعبيراً تاريخياً عن حاجة الفلسفة تلك إلى التدين في مواجهة المذ الصاعد للمسيحية، وهي المواجهة التي أملت توحيد معسكر لفلاسفة بعد طول انقسامهم إلى أفلاطونيين وأرسطيين، وانتي أورث بالتالي لفلاسفة الحضارة لعربية الإسلامية مشكلة (أوثولوجيا) المنحونة وإشكالية «المجمع بين الحكيمين».

(١٦٩) يغبط ع. بدوي عندما يقول إن ابن سينا سمى العقل الفعّال «العقل القدسي» (انظر تصديره لكتاب: «في النفس» لأرسطوطاليس، ص ٨). فابن سينا لم يطلق ذلك الاسم - وهذا على كل حال ضرب من تدين أيضاً - إلا على العقل الهيولاني عندما يكون في أعلى درجاته لاستقبل العقل الفعّال بقوله: «يجب أن تسمى هذه الحالة من العقل الهيولاني عقلاً قدسياً» («النفس من الشفاء»، ص ٢١٩).

«بن سينا: أسطورة الفلسفة، مشرقية

الشرح المحدثين (ابن رشد، توما الأكويني)، فإنها تبقى سائلة. وقد لا يكفي أن نلاحظ أن فرضية العقل الفعال اعتقلت النظرية المعرفية للعصر الوسيط في شبكة واسعة الحلقات بما فيه الكفاية لتجدد الماء والأكسجين، ولكن ضيقة الحلقات بما فيه الكفاية أيضاً لمنع سمك الفكر الحي من الإفلات منها. بل ينبغي أن نضيف أيضاً أنه كان لا بد من انتظار مرور الوقت الكافي لتتهدأ الشبكة نفسها، وتتفعل بالتالي إمكانية الانعتاق منها، وهو ما استغرق العصر الوسيط بأكمله، أي ألفية بتمامها من السنين. والأنكى من ذلك، أن نظرية المعرفة اضطرت، خلال حقبة الألف سنة تلك، لأن تدور على نفسها حول محور من الفراغ. والمسؤولية هنا تقع، لا على غموض المعجم الأول، بل على وضوحه. فأرسطو قد سد سلفاً كل المنافذ الممكنة إلى الخروج منذ أن بنى كل فرضيته الغامضة عن العقل الفعال على أساس مصادرة صريحة تقول إن هذا العقل مفارق، أي غير مخالط للمادة وللمجسم. فأرسطو، بعد أن يدرس كتابه في «النفس» الإحساس والتخيل مؤكداً ارتباطهما بالحواس الخمس، ينتقل إلى المحصل عن ذلك «الجزء من النفس الذي به تترك النفس وتُعقل»، ليؤكد، على العكس، أن التعقل لا يرتبط لا بالحواس ولا بأي جسم أو جزء من الجسم. ف«العقل ينبغي بالضرورة أن يكون غير مخالط - كما كان قال انكساغوراس - كيما تعود إليه الإمرة، وبالتالي القدرة على المعرفة». إذ «لو كان العقل مخالطاً للجسم لعدا كيفية متعينة، باردة أو حارة، وبصار له عضو مثل الحاسة. والحد، أنه ليس له من ذلك شيء». وعلى العكس من «ملكة الحس التي لا توجد إلا بوجود الجسم، فإن العقل مفارق لأي جسم»^(١٧٠). وأرسطو لا يكتفي على هذا النحو بأن يصادر على أن التعقل لا عضو له ولا آلة، بل يصير إصراراً عجيباً على أن هذا العضو لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال هو الدماغ. فالدماغ عند أرسطو هو محض آلة للتبريد، ووظيفته معاكسة لوظيفة القلب الذي هو في الجسم مصدر الحرارة التي هي مبدأ النفس. يقول أرسطو في «أجزاء الحيوان» - وهو من كتب مرحلته البيولوجية: «إن الدماغ هو أبرد أجزاء الجسم... وبرودته ظاهرة من ميمسه. ثم إن هذا العضو، بين سائر أجزاء الجسم الرطبة، هو أقلها مؤونة بالدم وأكثرها ييبوسة... وانعدام الارتباط بين الدماغ وأعضاء الحس يتقرر بمحض المعايينة البصرية... وبما أن المبدأ الحار هو الأنسب بين سائر المبادئ لوظائف النفس...»

(١٧٠) «في النفس» (٤٢٩ أ - ٤٢٩ ب)، ص ١٧٤ - ١٧٥.

وبما أن كل شيء بحاجة إلى مكافئ مضاد له لبلوغ التوازن والوسط العدل... لهذا سبب، وكما في منطقة القلب والحرارة المثبتة منها، اخترعت الطبيعة الدماغ»^(١٧١).

ولا يعسر علينا أن ندرك أين يكمن مأزق نظرية أرسطو في العقل المفارق واللامخالط: في مصادمتها العنيفة للواقعة التشريحية. والعجيب أن تكون هذه المصادمة قد جاءت من أرسطو البيولوجي. والأعجب أيضاً أن تكون هذه المصادمة للواقعة التشريحية قد لقيت المساندة - أكثر ما لقيتها - في الجناح العربي الإسلامي من الفلسفة من جانب الفلاسفة الأطباء، وعيننا حصراً ابن سينا وابن رشد. فالأول هو من دافع بأشد الحرارة عن دعوى التعقل بلا آلة بوصفه «أخص فعل» لـ «جوهر النفس الناطقة». يقول: «إن القوة العقلية لو كانت تعقل بالآلة الجسدانية... لكن يجب ألا تعقل ذاتها وأن لا تعقل الآلة وأن لا تعقل أنها عقلت. فإنه ليس لها بينها وبين ذاتها آلة، وليس لها بينها وبين أنها آلة، وليس لها بينها وبين أنها عقلت آلة. لكنها تعقل ذاتها وأنها التي تدعى لها، وتعقل أنها عقلت، فإذا تعقل بذاتها لا بالآلة»^(١٧٢). ومع أن ابن سينا ما كان له، كطبيب، أن يجهل ما كان أرسطو يجهله عن دور الدماغ في العملية التفكيرية، فإن الفيلسوف اندي فيه - وهو فيلسوف أرسطي التوجه - قد غلب بسهولة الطبيب. ففي الفصل الذي يخصه من كتابه «القانون في الطب» لـ «القوى النفسانية المدركة»، يرسم طبوغرافيا دماغية متتامة لهذه القوى. فالقوة المدركة قوتان: «قوة مدركة في الظاهر» ومرجعها إلى الحواس الخمس، و«قوة مدركة في الباطن» ومرجعها إلى الدماغ. وهذه الأخيرة تنقسم بدورها إلى ثلاث قوى: القوة المتخيلة وموطنها «البطن المقدم من الدماغ»، والقوة المفكرة ومسكنها «البطن الأوسط من الدماغ»، والقوة الحافظة أو المتذكّرة و«موضعها البطن المؤخر من بطون الدماغ». ولكن هذه الخريطة التشريحية الدماغية لا تلزم في نظر ابن سينا سوى راسمها من الأطباء. وهؤلاء لا سلطة لهم على «المحصلين من الحكماء». بل العكس هو الصحيح. فبمقتضى لتربية الهرمية التي أقامها أرسطو نفسه ما بين «طبيعي» و«رياضي» و«ميتافيزيقي»، فإنه يتعين على الطبيب أن يتسلم علمه من الفيلسوف، نظراً إلى أن «مبادئ العلوم الجزئية تتبرهن وتبين في علوم أقدم منها، وهكذا حتى ترتقي مبادئ العلوم كلها إلى الحكمة الأولى

(١٧١) «في أجزاء الحيوان» (٦٥٢ أ - ٦٥٢ ب)، ص ٣٧ - ٣٨.

(١٧٢) «النفس من الشفاء»، ص ١٩٣. وهذا القول سيكرره بعرفه في «المبدأ والمعاد» وفي «الرسالة في النفس وبقائها ومعادها».

التي يُقال لها علم ما بعد الطبيعة». وحتى إذا وجد من يجمع - مثل جالينوس - بين الطب والفلسفة، فلا مناص عندما ينتقل في الكلام من جزئيات الأمراض إلى كليات العناصر والأمزجة، من أن يكف عن الكلام «من جهة أنه طبيب» ليشرع بالكلام «من جهة أنه يحب أن يكون فيلسوفاً»، مثله في ذلك مثل الفقيه الذي إذا حاول أن يثبت صحة وجوب متابعة الإجماع فليس له ذلك من جهة ما هو ققيه، ولكن من جهة ما هو متكلم». والحال أنه في ما يتصل به «القوة الباقية من قوى النفس المدركة، وهي الإنسانية الناطقة»، فإن «تحقيق الحق في هذا هو على الفيلسوف». ربما أن لفيلسوف قد أسقط هذه القوة من علم الأطباء وقضى بأن يكون «نظرهم مقصوراً على أفعال اقوى الثلاث لا غير»، خرجت قوة النفس الإنسانية الباطنة من خريطتهم التشرحية الدماغية، وآكل المطلب فيها من الطب التجريبي إلى علم البرهان لنظري^(١٧٣).

الموقف نفسه يطالعت، بصورة شبه حرفية، من جانب ابن رشد الذي كان هو الآخر - لا ننسى ذلك - طبيباً كبيراً. ففي معرض دفعه عن أطروحة المعلم الأول القائلة إن العقل لا عضو له، وإن التعقل يتم بلا آلة، يقطع قطعاً شديداً في أطروحة الأطباء التي تموضع الملكات الفكرية في بطون الدماغ المتجاوزة. يقول: «لقد شكك بعضهم في ما تقدم القول به، وهو أن العقل لا عضو له، محتجين على ذلك بأن موضع القوة المتخيلة في مقدم الدماغ، والقوة المتفكرة في وسط الدماغ، والقوة المتذكرة في مؤخر الدماغ، وبأن ذلك ليس هو قول الأطباء وحدهم، بل هو مبين أيضاً في «الحس والمحسوس»^(١٧٤). والحال، أن استدلال جالينوس على تموضع تلك الملكات على هذا النحو مبني على ما هو مشهور في الاعتقاد من مواضع التلازم، بدون أن يرقى هذا الاعتقاد من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين بالمعنى البرهاني»^(١٧٥).

إزاء نص كهذا لا يقر بصفة البرهان إلا للقياس الأرسطي وينكرها على الاستدلال التجريبي للأطباء - ولو على حساب المصادمة الجبهية للواقعة التشرحية، ألا يمكن أن نقول إن أكبر هزيمة منيت بها نظرية لمعرفة في العصر الرسيط تمثلت تحديداً في أن الفكر الذي انتصر في ذلك العصر هو فكر أرسطو بصيغته السكولائية الممذبة، والقائم

(١٧٣) أبو علي الحسين بن سينا: «القانون في الطب»، طبعة دار صادر لمصورة بالأوفست عن طبعة

بولاق، بيروت بلا تاريخ، ج ١، ص ٥ و ٧١ - ٧٢.

(١٧٤) «في الحس والمحسوس». كذب لأرسطو لخصه ابن رشد

(١٧٥) ابن رشد: «العقل والفكر: شرح النفس الكبير»، ص ٨٣.

برهانه على الاتصال بالعقل الفعال بدلاً من فكر أبقراط وجالينوس بصيغته العلمية «البدائية» ولكن الطالب لبرهانه من التجربة؟

على أنه ينبغي أن نضيف حالاً، هنا أيضاً، أن هذا الانتصار لم يكن من قبيل صدف التاريخ: فقد كانت استدعيه وتستلزمه - كما قلنا ونكرر القول - المتطلبات الابدستمية للعقل الديني للعصر الوسيط^(١٧٦).

الابدستمولوجيا والجغرافيا

ولسنا نستطيع، ونحن في ختام تفكيكنا لهذا البند الخامس والأخير من محاكمة الجابري، إلا أن نشير إلى مفاجأة انقلابية يخبئها ناقد العقل العربي - على معهود عادته - لقارته. فقد رأينا بيني الدليل الخامس ولأخير من أدلته على مشرقية ابن سينا الإشراقية والهرمسية على كونه اتخذ موقف المعارضة من شراح أرسطو المغربيين في موضوع العقل والنفس. ولقد تجشمتنا - والفارئ معنا - جهداً طويلاً ومتشعباً في تفكيك هذا الدليل وفي بيان وحدة الانتشار الأيديولوجي والابدستمي لجميع الشراح ضمن الإشكالية الأرسطية على ما بينهم من خلافات وخصومات في التفسير، وعلى تباين مواقعهم الجغرافية وانتماءاتهم الحضارية. لكن ها هوذا الجابري - وهذه هي مفاجأته - ينسف

(١٧٦) من مفارقت الأشياء أن متلفساً متأدباً - وليس فيسوفاً متطباً - هو ابن مسكويه كان وحده، بين سائر فلاسفة الحضارة العربية الإسلامية، من أورثنا نصاً يؤكد على حاجة العملية التعقلية إلى آلة جسمية. ففي جواب عن سؤال لسائله يقول: «ولعمري إن الفكر الصحيح محتاج إلى آلة صحيحة ومزاج ما في جزء من الدماغ خاص به واعتدال من الدم الذي يجري في الشرايين التي بين آخر الدماغ، فإن هذه آلات الفكر. وكما إن طبقت العين واعتدالها آلات لقوة الباصرة، فإذا لحقتها آفة ساء البصر، حتى إذا عولجت رجعت إلى الصحة وأبصر بها المبصر، فكل ذلك حال الدم الرقيق الذي يجري من القلب في الشرايين الدقاق التي تتخلل الدماغ: له اعتدال في الرقة، وله بخار لطيف في تجويف الشريان، فمتى انحرف عن اعتداله وتكثر ذلك البخار، حدث في الفعل «صادر عن قوة النفس بهذه الآلة نقصان واضطراب حتى يعالج ويرد إلى اعتداله. فيُضَيَّر حينئذ الفاعل بهذه الآلة فيُفْلَ على التمام» (عبد الرحمن بدوي: «دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب»، مصنف آف بذكر، ص ٧٣). وبديهي أن صدقة هذا النص ما كان لها أن تخرق الأسوار المنيعة للقلمة الأرسطية الوسيطية، ولا سيما أن مسكويه نفسه كان يفكر داخلها لا خارجها، وهذا بدلالة فترة تالية من انص نفسه يعاضد بها ما صرح به «الحكيم» من أن «العقل أبدي معارق للجسم، وأنه هو وحده من جميع ما يوجد للإنسان يمكن أن يبقى لأنه أزلي، ولم يوجد بوجوه فيفسد بفساده. بل هو جوهر قائم بذاته» (ص ٩٣).

بجرة قلم واحدة دليله عينه الذي سعيينا إلى تفكيكه بمتتهى التزودة المطبوبة في النقاش العلمي. ففي دراسة تالية لدراسته عن «ابن سينا وفلسفته المشرقية» حملت عنوان «ظهور الفلسفة في المغرب والأندلس»، قال بالحرف الواحد في معرض الإشادة بابن باجة بوصفه أول فيلسوف أندلسي - مغربي يشق «الطريق إلى فلسفة علمية برهانية»، إنه يادر «سجّاماً مع الروح الواقعية العلمية التي... تميّز بها... يطرح جانباً كل التأويلات الإشرافية اللاهوتية الطابع لدى شراح أرسطو من الإسكندر وثامسطيوس إلى ابن سينا، ويحاول في المقابل تقديم شروح أكثر اتساقاً مع النظرة العلمية لأرسطية. وهذا بالضبط ما نوه به ابن رشد تنويرها خاصاً، معتبراً الطريق التي سلكها ابن باجة في هذه المسائل هي «الحق» لأنها كما يقول هي الطريقة البرهانية»^(١٧٧).

وهكذا، وبعد أن كان ناقد العقل العربي بنى مرافقته التجريبية ضد ابن سينا على اصطناع قطيعة بينه وبين شراح أرسطو «المغربيين» ليثبت مشرقية فلسفته باسمعى الإشرافي الهرمسي، نراه في هذا النص الجديد يجمع بين «لمشريقي» ابن سينا و«المغربيين» الإسكندر وثامسطيوس في سلة واحدة، ويقيم بينهم اتصالية تتمثل بالطابع الإشرافي اللاهوتي لشروحهم وتأويلاتهم على أرسطو.

وبصرف النظر عن الادعاء بأن «المغربي» ابن باجة هو وحده من أفلح، من دون سائر من تقدمه من الشراح، في «تقديم شروح أكثر اتساقاً مع النظرة العلمية لأرسطية»، فإنه لا يصعب علينا أن ندرك ما سر انقلاب ناقد العقل العربي هذا على نفسه. فالمسألة هي بمنتهى البساطة مسألة تحول في الجهة الجغرافية للمخطاط الجابري. فما دام بيت القصيد تبخيس ابن سينا من حيث إنه مشريقي، فليكن السبيل إلى هذا التبخيس الإيهام بوجود قطيعة بينه وبين الشراح المغربيين. ولكن ما دام النص الجديد يستهدف إبراز السياق «العلمي»، أو حتى «العلماني» (كذا) لـ «ظهور الفلسفة في المغرب والأندلس»، فليكن السبيل إلى ذلك هو العكس تماماً من السبيل الأول: فابن سينا عرفاني لأنه قطع مع برهانية الشراح، وابن باجة برهاني لأنه قطع مع عرفانية هؤلاء الشراح أنفسهم. فالشراح في مواجهة ابن سينا، لمشريقي برهانيون، وفي مواجهة ابن باجة المغربي عرفانيون. أيقال إن في هذا خلافاً بمبدأ عدم التناقض الأرسطي؟

(١٧٧) «نحن والتراث»، ص ٢٥٧. هذا وستكون لنا عودة إلى «تنويه» ابن رشد لمزعم هذا بابن باجة.

ولكن ناقد العقل العربي يستطيع أن يجيب بأن أرسطو لا يمنع أن يكون الشيء هو الشيء ونقيضه في آن معاً إلا إذا كانت جهة الحكم واحدة. والحال، أن الجغرافيا، التي تقوم للاستمولوجيا الجابرية مقدم حجر الزاوية، هي بطبيعتها ثنائية، ومن ثم فإن هذه الاستمولوجيا لا تخشى الإخلال بمبدأ التناقض: فما دامت محكومة، في بنيتها التحتية كما الفوقية، بثنائية المشرق/المغرب، فإنها تستطيع بمنتهى الطمأنينة المنطقية أن تقول الشيء وعكسه، لأنها لا تقوله، جغرافياً، من جهة واحدة.

الحكمة المشرقية: لغز بلا لغز

لقد استأدى منا تفنيد المقدمات التي بنى عليه ناقد العقل العربي مرافعته التجريبية ضد ابن سينا، صفحات طوالاً. ومع ذلك، فإنه لا نستطيع الاكتفاء بإثبات براءة المتهم من اقتراف جريمة الفلسفة المشرقية. بل نحن نطمح أيضاً في أن نقيم الدليل على عدم وقوع الجريمة أصلاً. فهذه نقطة لها أهميتها الحاسمة بالنسبة إلى تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية بما هو كذلك.

وبالفعل، كنا رأينا أن «الفلسفة المشرقية» تحولت بأقلام المستشرقين المعنيين بتاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، إلى ضرب من «رواية بوليسية» أُنِحت لكل واحد منهم أن يتلصص دور التحريي ليتفنن في اقتراح حل مبتكر للغزها المستعصي. وقد رأينا أن أكثر الحلول طرافة كان ذاك الذي اقترحه آخر التحريين سالومون بينس - ومتابعه الجابري - بإحداثه نقلة نوعية في اتجاه التحقيق والجغرافيا معاً بتثبيته «مغربية» موقع منطقة بغداد بالمقابلة مع «مشرقية» موقع ابن سينا.

وما دامت استعارة الرواية البوليسية تفرض هنا نفسها، فلننتهز الفرصة لتسلح بدورنا في فكّ لغز «الفلسفة المشرقية» بالمنطق الذي فكّ به لغز قصة بوليسية مشهورة، هي «الرسالة المسروقة» للكاتب والشاعر الأميركي إدغار ألن بو.

فبرغم ضخامة الوسائل التي جندتها الشرطة الباريسية للاهتمام إلى المكان الذي أخفى فيه السارق الرسالة المسروقة، منيت جهود التحريين بالفشل الذريع، لأنهم نقّبوا عنها في أخفى المواضع لا في أظهرها للعيان، وطلبوا التعقيد حيث البساطة، وتوهموا السر حيث لا سر، كما يقول رابرة القصة الناطق بلسان الحساسية الشاعرية لإدغار ألن بو. إن بساطة الأشياء هي التي قد تجعل أحياناً العقل الاستدلالي، الذي اعتاد على الربط بين الذكاء ولتعقيد، عاجزاً عن استكناه سره.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

وعندنا - كما سنحاول أن نثبت حالاً - أن سر فلسفة ابن سينا المشرقية يكمن تحديداً في أنها بلا سر.

فصفة «المشرقية» في هذه الفلسفة لا تحيل - خلافاً لكل الاجتهادات والتكهنات الاستشراقية - لا إلى مشرق حقيقي بالمقابلة الجغرافية مع مغرب مفترض، ولا إلى مشرق مجازي يقابل نقيضه المغربي مقابلة النور الطالع للنور الأفق.

فالمشرق هنا محض اسم علم مفرد، ومكانه الحقيقي، بلا أي مقابل أو نقيض، في معاجم البلدان.

لنستعد - تدليلاً على ما نقول - النص المشهور كما ورد في «صوان الحكمة» للسجستاني، والذي جاء فيه أنه «أصبح ما يتفق للإنسان أن تكون طبيته مشرقية وصورته عراقية، فإنه يصير بهذا جامعاً بين مائة خُراسان وظرف العراق، مفارقاً لبلادة خُراسان ورعونة العراق».

فالنص يستخدم اللغة الأرسطية ليقابل بين لطينة المشرقية^(١٧٨) والصورة العراقية في أخلاق أهل العصر. وكما هو واضح من النص، فإن المقابلة هي بين اسمي علم من أعلام البلدان. والمشرق هنا مرادف لخُراسان، ولا يقابل العراق مقابلة لمشرق للمغرب بالمعنى الجغرافي. وبالأصل لا وجود في النص للفظ المغرب حتى تصح المقابلة الجغرافية. والإيحاء بأن العراق مغرب بالنسبة إلى خُراسان لا يعكس حقيقة جغرافية مسلّم بها عصرئذ بقدر ما يعكس وهماً إسقاطياً من أوهام الذهن البشري لذي اعتاد على تعقل الأشياء بثنائيات استقطابية.

وأما أن المشرق هنا هو اسم علم، فهذا مما يمكن الاستدلال عليه من نصوص معاصرة لـ «صوان الحكمة». ففي «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، وهو معاصر وتلميذ للسجستاني، يرد مثلاً وصف أبي زيد لبلخي بأنه «سيد أهل المشرق في أنواع الحكمة»^(١٧٩). وفي موضع آخر يفاخر التوحيدي بنفسه بصفته «مشرقياً» ورسائل على سبيل «المكايده» «الأصحاح ببغداد» - وهي عاصمة الخلافة والثقافة والظرف في حينه -: «هل كان في حسابكم من المشرق من يزيد ظرفه على

(١٧٨) في النقول المبكرة للمصوص اقلسنية اليونانية كان يسود مصطلح «الطبية» بدل المادة أو الهيولى.

(١٧٩) «الإمتاع والمؤانسة»، ج ٢، ص ٣٨.

ظرفكم، ويبعد بعلمه عن علمكم، ويبرز هذا التبريز في كل شيء تفخرون به على غيركم»^(١٨٠).

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن الأمير الساماني نوح بن منصور، الذي فتح مكتبته العظيمة لابن سينا بعد أن شفاه من مرض أعجز الأطباء، لقّب نفسه بـ «ملك المشرق». وبالفعل، تجمع المصنفات المعنية بالتاريخ للحكماء والمتوافقة كلها في رواية سيرة الجوزجاني عن حياة ابن سينا على وصف نوح بن منصور تارة بأنه «ملك المشرق»، وطوراً بأنه «ملك المشرق وخراسان»^(١٨١).

وإذا تركنا كتب الأدب والحكمة وجئنا إلى كتب المؤرخين والرحالة، فنجد جغرافياً لامعاً من المدرسة الجغرافية الكلامية للقرن الرابع الهجري، هو أبو القاسم محمد بن حوقل يستخدم مصطلح المشرق للإشارة إلى مملكة السامانيين الذين يثني عليهم لحسن إدارتهم المالية بقوله: «وليس بأرض المشرق مُلك أمتع جانباً، ولا أوفر عدة، ولا أكمل عدة، ولا أنظم أسباباً، ولا أكثر أعطية، ولا أدز أطعاماً، ولا أدرم عشريات منهم، مع قلّة جبايتهم، ونزور أخرجتهم، ورفق الأموال في خزانهم»^(١٨٢).

ولكن النص الأهم دلالة يبقى بلا جدال نص المقدسي (٣٣٥ - ٣٩٠ هـ) صاحب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». فهذا الجغرافي الرحالة - الذي وجد بين الباحثين المختصين من يصفه بأنه «أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة»^(١٨٣) - جعل «إقليم المشرق» في رأس أقاليم الأعاجم الثمانية من مملكة الإسلام، وقال فيه: «إقليم المشرق هو أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء. ترى به رساتيق جلييلة، وفرى نفيسة، وأشجاراً لافنة، وأنهاراً جارية، ونعماً ظاهرة، ونواحي واسعة، ودينأ مستقيماً، وعدلاً مقيماً، في دولة أبدأ منصوره مؤيدة، ومملكة جعلها الله عليهم مؤيدة»^(١٨٤)، فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك، ويمتلك في غيره من كان فيه مملوك. وهو سد الترك، وترس الغز، وهول الروم، ومفخر المسلمين... وجزيرة العرب أوسع منه رقعة، غير أنه أعمر

(١٨٠) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(١٨١) الشهرزوري: «نزه الأرواح وروضة الأبراج»، مصدر آتف الذكر، ص ٣٦٧ - ٣٦٩.

(١٨٢) أبو القاسم ابن حوقل: «كتاب صورة الأرض»، طبعة در صادر المصورة عن طبعة بويل، ليدن ١٩٣٩، ج ٢، ص ٤٦٩.

(١٨٣) هو البحث الألماني أ. إشرنفر.

(١٨٤) الإشارة هنا إلى ملك السامانيين الذين يمتدح، في أكثر من موضع، سيرتهم في الحكم.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

منها، وأكثر كُوراً وأعمالاً. وقد جعله أبو زيد^(١٨٥) ثلاثة أقاليم: خراسان وسجستان وما وراء النهر. وأما نحن فجعلناه واحداً ذا جانبيين، يفصل بينهما جيحون^(١٨٦).

والواقع أن المقدسي هو نفسه من يلاحظ بذلك أن وضع المشرق هنا مثل وضع المغرب. فكما إن المغرب اسم لمصر بعينه واسم لإقليم، كذلك فإن المشرق اسم لمُلك بعينه هو ملك السامانيين واسم لإقليم. بل إن هذه المماثلة تمضي إلى أبعد من ذلك. فكما إن للمغرب جانبيين: جانب الأندلس وجانب المغرب بحصر المعنى، كذلك فإن لمشرق جانبيين: جانب هبطل وجانب خراسان. وكما يفصل بين جانبي المغرب مضيق جبل طارق، كذلك يفصل بين جانبي المشرق نهر جيحون. وفي ذلك يقول المقدسي بالحرف الواحد: «إن مَثَل المغرب كَمَثَل المشرق، كل واحد منهما جانبان. فكما إن المشرق خراسان وهبطل يفصل بينهما جيحون، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم»^(١٨٧). وأخيراً، فإن المقدسي هو من يلاحظ أيضاً ما في مصطلحي المشرق والمغرب من اشتراك في الاسم ما بين المدلول الجغرافي والمدلول الإقليمي. فلتن يكن لفظا المشرق والمغرب يشيران، كاسمَي علم، إلى مُلك السامانيين ومُلك الإدريسيين حصراً، فإنهما، كاسمَي جنس جغرافيين، يرادفان الشرق كله: من العراق إلى فارس إلى خراسان إلى ما وراء النهر، والغرب كله: من الشام إلى مصر إلى أفريقيا إلى المغرب إلى الأندلس. وفي ذلك يقول المقدسي وهو يعرض خطة كتابه: «في كتاب هذا اختصار لفظ يدل على معانٍ... فكلمنا قلنا المشرق فهي دولة آل سامان، فإن قلنا الشرق أردنا أيضاً فارس وكرمان والسند. فإن قلنا المغرب فهو الإقليم، فإن قلنا الغرب تبع ذلك مصر والشام»^(١٨٨).

ونظراً إلى أن ابن سينا عاش الشطر الأول والأغنى من حياته في بخارى، عاصمة

(١٨٥) هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (٢٣٥ - ٣٢٢هـ) الذي دوس على الكندي الفيلسوف واشتهر كما تقدم ترواً بالحكمة، والذي وضع في شيخوخته مصنفًا مشهوراً في الجغرافيا باسم «صور الأقاليم» وإلى يشير المقدسي.

(١٨٦) «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، مصدر ألف الذكر، ص ٢٦٠. (ما دامت سجستان على هذا النحو جزء من إقليم لمشرق، ففي ذلك دليل إضافي على أن أبا سليمان لمنطقي المنسوب إليها كان «مشرقياً» وليس «مغربيّاً» كما في الأخيلة الجابرية).

(١٨٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ٧.

مشرق آل سامان، الذين يقول فيهم المقدسي إنهم «من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالاً للعمل وأمله»^(١٨٩)، فقد كان طبيعياً أن ينسب إلى الإقليم الذي وُلِدَ وعاش وتثقف ومات فيه، بدون أن تطأ قدماه أرضاً سواه قط، بعض مؤلفاته، ولا سيما منها ما اعتدّه يعمر عن اجتهاد شخصي له ضمن إطار الإشكالية الفلسفية الأرسطية السائدة، فكان على هذا النحو كتابه في «الحكمة المشرقية»، وكتاب آخر ضائع له أسماه «الأصول المشرقية» (أو «المسائل المشرقية»). وما كان ابن سينا في ذلك مبتدعاً، بل كان يتابع تقليداً سائداً من قبله كما من بعده في الثقافة العربية. وحسبنا هنا الإشارة إلى أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، المتقدم على ابن سينا بجيل واحد. فقد كان هذا النحوي المبرز، الذي تتلمذ عليه ابن جني، يتبع «عادةً هي أن ينسب إملأته في كل بلدة إليها، وهي نسبة تعيين رحلاته وأماكن دراسته، فمن ذلك المسائل العسكرية نسبة إلى عسكر مكرم، والمسائل القصيرية نسبة إلى قصر ابن هيرة بنواحي الكوفة، والمسائل الحلبية والمسائل الدمشقية والمسائل البصرية والمسائل البغدادية والمسائل الكرمانية نسبة إلى كرمان في إيران والمسائل الشيرازية»^(١٩٠). وليس هذا، فحسب، بل إن مصنفاً جغرافياً ووزيراً سامانياً، هو أبو عبد الله الجيهاني (نسبة إلى جيهان، وهي بلدة مشرقية على شاطئ نهر جيحون)، كان سبق منذ مطلع القرن الرابع الهجري ابن سينا إلى اعتماد صفة «المشرقية» في عنوان كتابه الذي يعدّ، مع كتاب ابن خرداذبه، من العلامات البارزة في مسيرة المدرسة الجغرافية لكلاسيكية في الإسلام، ألا هو «المسائل المشرقية»^(١٩١). أما أبرز من استخدم، بعد ابن سينا، صفة «المشرقية» في عنوان مصنفاته فهو بلا جدال لإمام الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في موسوعته الكلامية الكبرى «المباحث المشرقية». وقد احتار الدارسون هنا أيضاً في تعليل هذه التسمية^(١٩٢).

(١٨٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٨. بل إن المقدسي يبلغ من حماسه هنا للسامانيين إلى حد القول: «لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليست».

(١٩٠) شوقي ضيف: «المدارس النحوية»، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٥٦. (١٩١) انظر: «آثار البلاد وأخبار العباد» للقرطبي، طبعة دار صادر، بيروت بلا تاريخ، ص ٢٨٥. وللمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» لكراتشوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٣٦ وما بعدها.

(١٩٢) انظر: مقدمة محقق «المباحث المشرقية» محمد البغدادي، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٠، م ١، ص ٧١-٨٢.

ابن سينا: أسطورة، فلسفة مشرقية

ومالوا بصورة آلية إلى الربط في لمضمون بينها وبين «الحكمة المشرقية» لابن سينا، نظير ما فعل ماجد فخري في «تاريخ الفلسفة الإسلامية» حيث قال: إن كتاب «المباحث المشرقية» للرازي «ولعله أهم مؤلفاته... هو كما يوحى عنوانه، بمثابة حلقة في سلسلة أبحاث الفلسفة المشرقية التي نبّه إليها ابن سينا في أحد مؤلفاته المتأخرة، وهو كتاب «الإشادات والتنبهات»^(١٩٣). وقد غاب عن هؤلاء الدارسين أن القاسم المشترك بين الإمام الرازي وابن سينا ليس متابعته له في فلسفة إشراقية ما، بل في كونه مشرقياً المولد والمعيش والممات، وأنه مثله مثل ابن سينا ما وطئت قدماء قط أرضاً غير مشرقية. ومع أن الجابري نفسه يقرّ بأنه «يجب ألا تُعطى كلمة «مشرقية» انواردة في عنوان الكتاب أية دلالة تحيل إلى معنى الإشراق»، فإنه يصمّر مع ذلك على ربط المباحث المشرقية بعنوان كتاب ابن سينا «الفلسفة المشرقية» لأنه مثله «لا يتقيد بالمشائية وإنما يقتضي آثار ابن سينا في الانتقاء والتلفيق وعدم الالتزام بما قرره الأولون (المشاورون)»^(١٩٤).

والحق، أننا لا ندري كم عدد المصنفات التي نسبها ابن سينا إلى مسقط رأسه: أواحد أم اثنان أم حتى ثلاثة؟ فعدا الحكمة المشرقية التي تتكرر الإشارة إليها في عدة مواضع من كتابات ابن سينا، ترد في رسائله إشراقان إلى كتابين آخرين يحملان في عنوانهما صفة «المشرقية». أولهما هو «المسائل المشرقية» الذي وجدنا ابن سينا يؤكد، في رسالته الجوابية إلى «الشيخ الفاضل» الذي كان أبدى «تحرّنه على ضياع التنبهات والإشارات»، أنها «هي التي ضاعت» وأن «إعادتها أمر سهل» لأنها «لم تكن كبيرة الحجم»، وإن كانت كثيرة المعنى كلية جداً. أما ثانيهما فهو «الأصول المشرقية»، وقد وردت الإشارة إليه في ما يعرف بكتاب «المباحثات»، وهي التعليقات - الخمسمئة عدداً - الملحقة برسالة ابن سينا إلى الكيا. فقد جاء في التعليق رقم ٤٥٨: «أما الشيء الثابت في الحيوانات فبعله أقرب إلى درك البيان. ولي في الأصول المشرقية خوض

(١٩٣) ماجد فخري: «تاريخ الفلسفة الإسلامية»، مصدر آف الذكر، ص ٤٢٨.

(١٩٤) «بنية العقل العربي»، ص ٤٩٨. وشاهد الجابري هنا ثمين من منظور آخر فهو بمثابة إقرار ضمني - ومتأخر - بأن فلسفة ابن سينا المشرقية ليست هرمة باطية، بل هي محض فلسفة انتقالية لا تلتزم بالسنة المشائية وهذا قريب مما نذهب إليه في اعتبارنا إياها محض محدلة للاجتهاد الشخصي ضمن إطار الإشكالية الأرسطية لسائدة

عظيم في التشكك ثم في الكشف. وأما في النبات فالبيان أصعب^(١٩٥). ولنا نستطيع أن نجزم أنحن أمام كتب ثلاثة أم أمام عناوين ثلاثة لكتاب واحد حال ضياع مسوداته دون استقرار على عنوان بعينه منها. ولكن إذا صح أن الحكمة والمسائل والأصول تحيل جميعها إلى نص «مشرقي» واحد، فإننا سنلاحظ أن عنوان من قبيل «المسائل المشرقية» ما كان ليوجي بوجود فلسفة صرية تحته على نحو ما يوجي به عنوان من قبيل «الحكمة المشرقية». وفي هذه الحال ما كان أحد ليتحدث عن «أسرار المسائل المشرقية» كما تحدث ابن طفيل عن «أسرار الحكمة المشرقية».

المشرقيون والمنطق

أيًا يكن من أمر، فنحن نحوز نصاً تاريخياً ثميناً وردت فيه إشارة مباشرة إلى كتاب «الحكمة المشرقية». فنصير الدين الطوسي (٥٨٧-٦٧٢هـ)، في شرحه لكتاب «الإشارات والتنبيهات»، يشير إلى أن الشاوح الذي سبقه إلى شرحه، وهو فخر الدين الرازي (٦٥٤٣-٦١٠هـ)، أورد نصاً من «الحكمة المشرقية» في معرض شرحه قول ابن سينا إن ذات واجب الوجود «ليس لها حد، إذ ليس لها جنس ولا فصل». وقد قال الشارح الثاني (الطوسي) في رده على الشارح لأول (لرازي): «إنك نقلت في المنطق عن الشيخ أنه قال في «الحكمة المشرقية» إن الأشياء لمركبة قد يوجد لها حدود غير مركبة من الأجناس والفصول. وبعض البسائط يوجد لها لوازم يوصل الذهن تصورها إلى حاق الملزومات، وتعريفها بها لا يقصر عن التعريف بالحدود». ويستغل الطوسي هذا القول المنقول عن ابن سينا في «الحكمة المشرقية» ليرد بدوره على الرازي قائلاً: «فهذا ما ذكرته في المنطق، ولم تزد عليه. وواجب الوجود، إذ ليس بمركب، فلا حد له. وإذ هو منفصل الحقيقة عما عداه، فليس له لازم يوصل تصوره العقلي إلى حقيقته، بل لا وصول للعقول إلى حقيقته. فإذا لا تعريف له يقوم مقام الحد»^(١٩٦).

إن هذا النص - على أهميته الوثائقية - يبين أحسن بيان أننا أبعد ما نكون هنا عن نص «مشرقي» بالمعنى «المتفونن» و «المتهمس» الذي يعطيه ناقد العقل العربي لهذه

(١٩٥) كتاب «المباحثات»، في «أرسطو عند العرب»، ص ٢٢٨. هذا وقد نشر محسن بيدار، في الطبعة الإيرانية لكتاب «المباحثات»، الشبهة المتعلقة بـ «الأصول المشرقية» لا في ملحق الرسالة إلى الكيا، بل في ملحق الرسالة الآتفة للذكر إلى «الشيخ الفاضل».

(١٩٦) «الإشارات والتنبيهات»، هامش شرح الطوسي، ص ٤٧٩.

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقة

الكلمة. فالمقطع المشار إليه من «الحكمة المشرقية» يمكن أن يحتل مكانه في قسم الحدود وتركيبها من أي كتب في المنطق الصوري بأرومته الأرسطية. وفي الوقت الذي لا يحين هذا المنطوق المنطقي للنص إلى أية حكمة إشرقية باطنية مستورة، فإنه يؤكد ما أكدناه تكراراً وهو أن الفلسفة المشرقية السنيوية لا تعدو أن تكون محاولة اجتهدية من داخل المنظومة الأرسطية للتمييز عنها بدون خروج عليها. فأرسطو - وليس أحد سواه - هو صاحب التعريف المشهور للحد بأنه تركيب الجنس والفصل. وابن سينا، كما هو واضح من النص، لا يخرج عن هذا لتعريف للحد، ولكنه ينكر أن يكون قابلاً للتطبيق على واجب الوجود: «فذااته ليس لها حد، إذ ليس لها جنس ولا فصل».

وما دام هذا النص المقتضب قد قادنا إلى حديث المنطق، فقد يكون هنا محل معاودة الكلام على ذلك النص المنطقي المطول الذي طالما اتخذ ذريعة للتكهن بالطبيعة «الإشراقية» و«الباطنية» المزعومة لفلسفة ابن سينا الشرقية: «عينا هنا «منطق المشرقيين»، وتحديداً منه الفقرة المتعلقة باسم «المنطق». فقد وجدنا الجابري - ومن قبله بطبيعة الحال س. بينس - يستغل إشارة ابن سينا إلى أن «ذلك النمط من العلم الذي يسميه اليونانيون (المنطق) لا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره»، ليوهم القارئ بأن ثمة مصدراً آخر سرياً - «مشرقياً» - استمد منه فلسفته «من غير جهة اليونانيين». وهذه الإشارة إلى احتمال وجود اسم آخر للمنطق لدى «المشرقيين» حملت نليئو نفسه على محاولة تليس ذلك بما اعتبره «حقيقة» كانت قائمة في زمان ابن سينا، وهي أنه كان كثير من المتكلمين وأرباب العلوم الشرعية يفخرون بمعارضتهم للدراسة المنطق، معتبرين هذا العلم خطراً على العقائد الدينية... ولهذا فإنه خوفاً من هذا الذم للمنطق بعينه كان كثير من المسلمين، ومن بينهم المتكلمون الذين أدخلوا المنطق في كتبهم... يغيرون النظام الموجود في كتب اليونانيين في المنطق، نظير ما فعل الغزالي عندما سمي «كتبه المختلفة في المنطق أسماء لا تجرّ على صاحبها وبالاً»^(١٩٧). والواقع أن ابن سينا ما كان بحاجة إلى أن يركب مركب هذه «التقية» لأنه ما عاش في عصر الغزالي ولا في بلاط السلجوقيين. فلا السامانيون ولا البويهيون كانوا من أعداء الفلسفة والفلاسفة؛ بل بناء على طلب أمراءهم وضع ابن سينا بعضاً من أهم كتبه في الفلسفة والمنطق، ومنها على سبيل المثال «كتاب العلم» أو «العلائي في الحكمة» الذي حرره

(١٩٧) «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»، ص ٢٨٠.

بالبفارسية بناءً على طلب علاء الدولة صاحب أصفهان. والحق أنه متى ما تجرد مصطلح «المشرق» من دلالاته الإشراقية أو الباطنية ليحيل، في حالة ابن سينا، إلى مجرد الإقليم الذي وُلِدَ وعاش وكتب ومات فيه، نجد لنص يضيء عندئذ بدلالة مغايرة. وبالفعل، لا نفتح الصفحة الأولى من الفصل الأول - بعد المقدمة - من الشذرة الواصلة إلينا من منطق المشركيين حتى نقع على مقطع ينطق بعكس التأويل الذي يذهب إليه بينس/ الجابري بصورة رئيسية، وولينو بصورة فرعية. يقول النص: «والعلم الذي يُطلب ليكون آلة قد جرت العادة في هذا الزمان وفي هذه البلدان أن يسمى علم المنطق، ولعل له عند قوم آخرين اسماً آخر. لكننا نؤثر أن نسميه الآن هذا الاسم المشهور»^(١٩٨). فالنص هنا واضح منتهى الوضوح. و«في هذا الزمان وفي هذه البلدان» اشتهر علم المنطق بهذا الاسم، ولكن لا يبعد أن يكون له اسم آخر عند «قوم آخرين»، أي من غير «المشركيين». ولنا ندري من هؤلاء القوم الآخرون الذين يلهم ابن سينا. بيد أننا نعلم تاريخياً أن المنطق كعلم قائم بذاته لم يزُ النور إلا في ثقافتين فلسفتين: السنسكريتية واليونانية. فهل يشير ابن سينا ههنا إلى الأصل الهندي للمنطق^(١٩٩)، أم يشير إلى الاسم الآخر الذي كان للمنطق عند اليونانيين أنفسهم نظراً إلى أن هذه التسمية تعود إلى تلاميذ أرسطو، وليس إلى أرسطو نفسه الذي كان يسميه علم التحليل؟ أياً يكن من أمر، فإن إحالة ابن سينا إلى احتمال وجود اسم آخر للمنطق عند «قوم آخرين» في بلدان أخرى وزمان آخر إنما تقطع، مرة أخرى، بأننا لسنا أمام «علم سري» موقوف على «المشركيين» من دون سواهم. قد «منطق المشركيين»^(٢٠٠) هو منطق اليونانيين،

(١٩٨) «منطق المشركيين»، مصدر آنف لذكر، ص ٢٤، وقد يكون من المفيد أن نورد هنا تمة النص لما فيه من تركيد على الوظيفة المعرفية للمنطق: «وإنما يكون هذا العلم آلة في سائر العلوم لأنه يكون علماً منهاً على الأصول التي يحتاج إليها كل من يقتنص المجهول من المعلوم باستعمال للمعلوم على نحو وجهة يكون ذلك النحو وتلك الجهة مؤدياً بالباحث إلى الإحاطة بالمجهول، فيكون هذا العلم مشيراً إلى جميع الانحاء والجهات التي تغفل الذهن من المعلوم إلى المجهول. وكذلك يكون مشيراً إلى جميع الانحاء والجهات التي تغفل الذهن وتورمه استقامة مأخذ نحو المطلوب من المجهول، ولا يكون كذلك».

(١٩٩) انظر ما كتبه ابن سينا في «نظرية العقل»، ص ١٠١ - ١١٥.

(٢٠٠) لا ننسى أن هذه التسمية لا تعود إلى ابن سينا نفسه، بل هي من صنع الناشر المصري الأول لشذرة الواصلة إلينا من «منطق المشركيين»، عنيما محيي الدين الخطيب (وعبد الفتاح اقتلان) مؤسس المكتبة السلفية القاهرية التي تولت نشر النص لأول مرة عام ١٩١٠.

ولكن بعد تطويره ليتسع للاجتهادات والإضافات الشخصية لابن مينا الذي لا يمكن لباحث أن يماري في دوره التاريخي الكبير بما أدخله على النظرية المنطقية الموروثة عن اليونانيين «من تجديد لم يسبقه إليه الدارسون من قيل يرغم شروحهم المطولة على المنطق الأرسطوطالي»^(٢٠١)، عندما يأن هذا التجديد في النظرية كما في الممارسة المنطقية ما كان له أن يخرج ههنا أيضاً عن الإشكالية الأرسطية السائدة ولا أن يتحرك خارج رقعة شطرنجها. ويرغم ما عُرف عن ابن سينا من اعتداد كبير بنفسه، فقد كان واعياً بمحدودية دوره كشراح وناقد ومطور للمأثور المنطقي، بما لا يسمح له - ولا لغيره في إطار النظام الإبتاعي للعصر الوسيط - أن يرقى إلى مصاف مؤسس جديد. فإنما من منطلق التنويه بأن ما ذكره صاحب المنطق هو «الثام الكامل والميزان الصحيح والحق الصريح»، يبيح لنفسه أن يشيد بالجديد الذي أضافه إلى صرح المنطق لقايم ليقول في المدخل إلى قسم المنطق من كتاب «الشفاء» «وقد أضفتُ إلى ذلك مما أدركته بفكري وحصلته بنظري، وخصوصاً في علم الطبيعة وما بعده، وفي علم المنطق، حيث أوردتُ في ذلك من الأسرار واللطائف ما تخلو منه الكتب الموجودة»^(٢٠٢).

من هذا كله، نستطيع أن نخلص مرة أخرى - وأخيرة - إلى لقول إن صفة «المشرقية» لا تسمي عند ابن مينا فلسفة مغيرة للفلسفة المشائية السائدة - ودوماً ملاستها الأفلوطينية - بل تعين فقط مستوى بعينه من حرية التحرك والاجتهاد الشخصي في إطار المنظومة الفلسفية ذاتها. فالمستوى المشرقي يحدد عند ابن مينا مستوى مقابل لما يسميه هو نفسه في بعض وسائله المستوى الرسمي. وهكذا يفرّغ ابن مينا في المباحثة الخامسة من مباحثاته الصديقية المطالبات الفلسفية إلى مطالبات رسمية ومطالبات مشرقية، وذلك في معرض تمييزه بين الجوهر في جوهرته الخاصة والجوهر في جوهرته المطلقة، فيقول: «المطالبات على هذا: منها رسمية... ومنها مشرقية»^(٢٠٣). ويرغم العواصة التقنية للمعجم السيني في هذه المباحثات الصديقية، فإنه لا يصعب علينا أن ندرك ما المقصود ههنا بالمطالبات الرسمية بالمقابل مع

(٢٠١) جعفر آل ياسين: «المنطق السيني»، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣، ص ١١.

(٢٠٢) «الشفاء»، كتاب «المنطق»، المدخل، مصلر آلف الذكر، ص ١٠.

(٢٠٣) «المباحثات»، ص ١٣٧.

المطالبات المشرقية: فهي تلك التي تتقيد برسم المذهب وتتزم بحرف العقيدة القويمية المشائية بدون أن تتجرأ على الارتقاء من المستوى التلميذي إلى المستوى الأستاذي، مع أن المعلم الناجح - وأرسطو سيد المعلمين - ليس هو ذاك من يفلح في تخريج تلاميذ، بل ذاك الذي يفلح في تخريج معلمين يتابعون من بعده ما بدأه ويكون من حقهم على حد تعبير ابن سينا في مقدمة «منطق المشرقيين» - أن «يدموا شعثه ويرموا ثلماً وجدوه في ما بناه، ويفرعوا أصولاً أعطاه».

هذا الاستخدام الدلالي عينه لكلمة «الرسميين» يطالعنا في رسالة ابن سينا إلى الكيا. ففي معرض تعليقه على «كتاب يحيى النحوي في مناقضة الرجل»^(٢٠٤) وعلى ما أثاره من شكوك حول قَدَم العالم، يقول: «كتاب ظاهره شديد وباطنه ضعيف. وفي الوقوف على تلك الشكوك والوصول إلى حلها قوة للنفس وغزارة للعلم. وقد قضيت الحاجة إلى ذلك في ما صنفته من كتاب «الشفاء» العظيم، المشتمل على جميع علوم الأوائل، حتى الموسيقى، بالشرح والتفصيل والتفرع على الأصول. وتلك الشكوك ليست مما يقطن لتقدها الرسميون ممن تعلمه، فإن انحلالها مبني على فروع أصول من كتاب «السماع الطبيعي». فإن بين «السماع الطبيعي» وبين «السماء والعالم» أصولاً هي فروع للأصول الموردة في «السماع الطبيعي». وتلك الفروع غير مصرّح بها في «السماع الطبيعي» تصريحاً بالفعل، بل بالقوة. فمن لم يتقدم أولاً ويمخض معاني «السماع الطبيعي» عن رُبَد تلك الفروع، كان مفترطاً في ما يحاول من فهمه، وعرض له ما عرض لفلان وفلان ويحيى النحوي»^(٢٠٥). فالرسميون ههنا إنما هم المشاؤون العاجزون عن فهم المشائية، أو من هم في الفلسفة كالحنبلة في الحديث؛ فهم يقفون في النصوص عند النصوص، ويرون فيها معطى جاهزاً ونهائياً، ويمارسون إضراباً حقيقياً عن التفكير، يرسم أنفسهم كما يرسم غيرهم، إذ «يرون التعمق في النظر بدعة، ومخالفة المشهور ضلالة».

ولكن حتى نتقدم خطوة أخرى في تعيين هوية هؤلاء «الرسميين»، فسنلاحظ ابن سينا، في رسالته إلى الكيا، يحرص على تمييز موقفه من موقفهم - عدا تنديده بتعصبهم أجهل لنص المشائية - في نقطتين عينيتين: فهم أولاً ممن صدقوا تمويه

(٢٠٤) الإشارة هنا إلى كتاب يحيى النحوي في «الرد على أبروكلس في قدم العالم».

(٢٠٥) «أرسطو عند العرب»، ص ١٢١.

«بن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

يحيى النحوي عليهم وأخذوا بشكوكه وظاهر نفيه لقدم العالم، وهم ثانياً ممن تلبيلوا «في أمر النفس والعقل» والتبس عليهم «مذهب صاحب المنطق» في القوة العقلية المفارقة واللافانية، وظنوا «أنه إنما يخوض في بيان بقاء النفس أو عدمها عند الموت»^(٢٠٦). ونحن نعلم من هو الفريق الذي كان بأمسّ حاجة أيديولوجياً إلى تخريج الإشكاليتين الأرسطيتين في النفس والعالم هذا التخريج اللاهوتي: إنهم النصاري الذين ورثوا منوثة الإسكندرية بعد أيلولة قيادتها إلى يحيى النحوي (٤٩٠-٥٦٦م) «المتنصر»^(٢٠٧)، وأدخلوا المنظومة الأرسطية إلى الثقافة العربية الإسلامية، لا بملاستها الأفلاطونية المحدثة فحسب، بل أيضاً بثوبها التنكري اللاهوتي، مما كان يلي بدوره حاجة أيديولوجية وإستمية لدى البناء الفكري للحضارة العربية الإسلامية التي مثلت النموذج الأتم والأمثل لحضارة متمركزة حول نص مقدس.

فهل هؤلاء المتفلسفة من نصارى بغداد، الذين يرميهم ابن سينا تارة «بالضعف ولتقصير والجهل»، ويتعتهم تارة أخرى بـ «البه» النصارى من أهل مدينة السلام»، هم خصوم ابن سينا «المغريون» كما تفترض أطروحة بينس/ الجابري، أو خصومه «المشركيون» كما تفترض أطروحة ع. بدوي^(٢٠٨)؟

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٢٠٧) إن لاين سينا أكثر من نص يشير فيه إلى أن «تنصر» يحيى النحوي كان كاذباً وضرباً من «الظية» بعد الانتصار، انتم للمسيحية على العالم الوثني القديم، وهو الانتصار الذي أذن بقيام العصر الوسيط بالمعنى الإيجابي للكلمة. وهكذا نراه يتحدث عن «يحيى النحوي المموء على النصارى بإظهار الخلاف لأرسطوطاليس في هذا القول، ومن نظر إلى تفسيره لأخر الكون والفساد وغيره من الكتب فما عسى يخفى عليه موافقته لأرسطوطاليس في هذه المسألة» («مسائل الشيخ الرئيس ابن سينا»، منشورات بيسار، ص ٤١٦).

(٢٠٨) لا بد هنا من تبديد التباس. فابن سينا لم يعرف عنه التعصب السني. وقد كان في عداد أصدقائه ومعاشره نصارى مثل ابن سهل عيسى لمسيحي، كما كان في عداد تلاميذه زرادشتيون، ومنهم يهناير بن المربان وأبو منصور بن ريلة. والواقع أن تعبير «البه» لنصارى من أهل مدينة «السلام» لا يعود إليه، بل هو يرده عن مراسله الكيا. وللدليل سياق النص نفسه: «والذي ذكره» (الكيا) من «خلاف الناس في أمر النفس والعقل، وتبديدهم وتردهم فيه، لا سيما البه النصارى من أهل مدينة السلام، فهو كما قال». ولواقع أيضاً أنه لا المراسل ولا المجاب يرميان النصارى بـ «البه»، من حيث إنهم نصارى، بل من حيث إنهم متمسكة بالنس عليه مذهب صاحب المنطق وظنوه يخوض في بقاء نفس أو عدمها عند الموت.

أسئلة حول كتاب «الإنصاف» الضائع

إن العودة إلى نص رسالة ابن سينا تفرض هنا نفسها.

يقول ابن سينا في رده الجوابي إلى الكيا^(٢٠٩): «والذي استخبره من حالي . . فأخبره أنني كنت صُنِّفَ كتاباً سمّيته كتاب «الإنصاف» وقسمت العلماء قسمين: مغربيين ومشرقيين. وجعلت المشرقيين يعارضون المغربيين، حتى إذا حق اللدد تقدمت بالإنصاف. وكان يشتمل هذا الكتاب على قريب من ثمانية وعشرين ألف مسألة. وأوضحت شرح المواضع المشككة في الفصوص إلى آخر «أثولوجيا» على ما في «أثولوجيا» من المطعن. وتكلمت على سهو المفسرين، وعملت ذلك في مدة يسيرة ما لو حرر لكان عشرين مجلدة. فذهب ذلك في بعض الهزائم، ولم يكن إلا نسخة التصنيف، وكان النظر فيه وفي تلك الحصومات نزهة. وأثناء بعد فراغي من شيء أعمله، أشتغل بإعادته، وإن كان ظل الإعادة ثقيلاً. لكن ذاك قد كان يشتمل على تلخيص ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم. والآن فليس يمكنني ذلك، ولا لي مهلة. ولكن أمتنن بمثل الإسكندر وثامسطيوس ويحيى النحوي وأمثالهم. وأما أبو نصر الفارابي فيجب أن يعظم فيه الاعتقاد، ولا يُجرى مع القوم في ميدان. فيكاد أن يكون أفضل من سلف من السلف»^(٢١٠).

(٢٠٩) إن إرادة التشنيع على ابن سينا توقع الجابري في خطأ شنيع. فهو يعلو في الهامش على هذه الرسالة بقوله، «يخاطب ابن سينا لشخص الموجهة إليه الرسالة بالكيا، وهو لقب بالفارسية للتعظيم، كما يستعمل ضمير الغائب في مخاطبته له كذلك. والغالب أن المقصود هو تلميذه أبو الحسن بهمنيار بن المرزبان المتوفى سنة ٤٣٠هـ. وكان ابن سينا يلقيه بالكيا» (تكوين العقل العربي، ص ٢٩١). والواقع أن الجابري يخلط بين الكيا والتلميذ لأنهما كنيهما يحملان اسم ابن المرزبان. ولكن الكيا هو أبو جعفر محمد بن المرزبان، وقد كان بالفعل «كياً»، وهو من ألقاب الأشراف والرؤساء. أما التلميذ فهو بهمنيار بن المرزبان. ومن كتبه المنشورة: التحصيل (مشورات دانشگاه تهران ١٣٧٥هـ). وقد كانت وفاته لا في سنة ٤٣١هـ كما يذكر الجابري، بل في سنة ٤٥٨هـ، إذا صدقت رواية البيهقي والشهرزوري من أنه «مات بعد موت أبي علي بثلاثين سنة». والطريف أنه في الوقت الذي يتهم فيه الجابري ابن سينا بتعلق تلميذه وتلقيه إياه بالكيا، فإننا نملك نص رسالة موجهة بالفعل من ابن سينا إلى تلميذه بهمنيار يلقيه فيها بـ «الخادم» (انظر نص الرسالة في كتاب المباحثات، طبعة بيدار بقم، حيث يبدأها بالقول: «الخادم بهمنير بن المرزبان خادم مولانا الرئيس»، ص ١٤٥).

(٢١٠) «أرسطو عند العرب»، ص ١٢١ - ١٢٢.

إن ملاحظات تسعاً يمكن استخلاصها من هذا النص الذي لا ممارسة في أهميته:

أولاً - يقول ابن سينا إنه قسّم العلماء في كتاب «الإنصاف» الضائع قسمين. فلو كان المغريون يتألفون حصراً، بحسب فرضية بينس/ الجابري، من «البله النصارى من أهل مدينة السلام» ومن «البغدادية» المتهمين بالضعف والتقصير والجهل، فكيف يرفعهم ابن سينا في تسميته الثنائية إلى مصاف العلماء؟

ثانياً - إن ابن سينا يشير إلى أن الكتاب الضائع كان «يشتمل على تلخيص ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم». وهذه الإشارة تؤكد بلا مراء على حضور «البغدادية» في كتاب «الإنصاف»، ولكن على سبيل التلخيص، أي على سبيل الحضور الجانبي وليس على سبيل الحضور المركزي كما تفترض فرضية بينس/ الجابري.

ثالثاً - إن كتاب «الإنصاف»، كما هو واضح من عنوانه كما من نص رسالة ابن سينا، هو كتاب تحكيمي. والتحكيم لا يكون إلا بين خصوم متكافئين. فإذا كان «البغدادية»، ولا سيما النصارى منهم، هم على ما هم عليه من بلاهة وضعف وجهل وخفة الوزن، فكيف يضعهم ابن سينا - وهو يتصدى لأداء دور الحكم - في كفة مقابلة لكفة أصحاب الوزن الثقيل من أمثال «الإسكندر وثامسطيوس ويحيى النحوي»؟

رابعاً - إن لم يكن للاهوتيي بغداد - وهذه هي تسميتهم الحقيقية وليس منطقة بغداد - سوى بعض الحضور، لا كل الحضور، في كتاب «الإنصاف»، فمن يمكن أن يكون له الحضور الأكبر إلى جانبهم وبالتمايز عنهم في آن معاً؟ إن الرسالة تسميه: فهو ذلك الذي «يجب أن يعظم فيه الاعتقاد ولا يجري مع القوم في ميدان». فالفارابي كان إلى عهد ابن سينا - وهذا بدوره إلى عهد ابن رشد - هو الشارح الأكبر لأرسطو، وهو الوحيد من يتمتع بثقل الوزن الضروري ليوضع في موضع المواجهة مع «مثل الإسكندر وثامسطيوس ويحيى النحوي».

خامساً - إن مدار الخصام واللداد والتحكيم هو أرسطو وشرح أرسطو، وليس أي شيء آخر سوى تفسير نصوص أرسطو، وإيصاح «الجوانب المشكلة في الفصوص»، بدءاً - كما تشير الرسالة - بـ «السماع الطبيعي» و «السماء والعالم» وانتهاء بـ «أثولوجيا» المنحول على أرسطو.

سادساً - أن تكون المنظومة الأرسطية، بملاستها الأفلاطينية دوماً، هي المدار - الذي لا مدار سواه - لكتاب «الإنصاف» المفقود، فهذا ما يسدّد ضربة معول قاصمة

إلى عمارة «الفلسفة المشرقية» المزعومة ويبقيها معلقة - كالوهم - في الهواء بدون أساس، وذلك ما دام الأساس الذي بنيت عليه هذه الأسطورة - وهو كتاب «الإنصاف» - هو محضر كتاب تحكيمي في خصومات المشائين حول المشائية، ولا يمت من قريب أو بعيد بصلة إلى أي مشروع «للمشرق» بمعنى التغوص والتهرمس.

سابعاً - إن الخصومة التي استوجبت تدخّل ابن سينا التحكيمي ليست إذاً، بين فلسفة مشرقية وفلسفة مغربية، بل بين مشرقين ومغربين. والقسمة هنا محضر قسمة جغرافية ولا تحمل أي مدلول أيديولوجي. وقد كان بومع ابن سينا أن يقسم العلماء قسمة مرادفة إلى مفسرين باللغة العربية ومفسرين باللغة اليونانية، أو إلى شراح محدثين وشراح قدامى، نظير ما سيفعل ابن رشد عندما وضع في سلة هؤلاء ثيوفراستس والإسكندر وثامسطيوس. وفي سنة أولئك فلاسفة الإسلام من أشال الفارابي وابن باجة وابن سينا نفسه.

ثامناً - خلافاً لما قد توحي به هذه القطبية الجغرافية الثنائية، فإننا لا نستطيع حتى أن نتحدث عن مواجهة بين معسكر المشرقيين ككس ومعسكر المغربيين ككل. فداخل معسكر المغربيين كانت هناك - كما رأينا - خصومات بين الإسكندر وثامسطيوس حول طبيعة العقل الهولاني، أو بين يحيى النحوي «المتنصر» وبين من تقدمه من شراح أرسطو المقيمين على «لوثنية» حول قلم العالم. كذلك فإن الفارابي المتقدم بالزمان لا يقف في معسكر المشرقين في خندق واحد مع لاهوتي بغداد المتأخرين عنه بالزمان كما بالفكر.

تاسعاً - في أي معسكر كان يقف ابن سينا نفسه؟ الواقع أن دوره كتحكم كان لا يبيع له أن يقف إلى جانب أي معسكر. فقد كان عليه، من حيث المبدأ، أن يضع نفسه خارج الخصومة وفوق المتخاصمين، وألا يتدخل إلا متى «حق اللد» فيتقدم «بالإنصاف». ولكن هنا يثور سؤال: كيف كان يمكن لابن سينا وهو «المشركي» ألا يقف إلى جانب «المشرقين»؟ إن هذا الإشكال لا حلّ له إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الكلام هنا على «المشرق» و«المشرقيين» إنما هو - كما كان يطيب القول لابن سينا ومن بعده لابن رشد - باشتراك الاسم. فالمقصود بالمشرقيين في كتاب «الإنصاف» المفقود، المشرقيون بالمعارضة الجغرافية مع المغربيين. أما في كتاب «الحكمة المشرقية» - المفقود هو الآخر - فإن صفة «المشرقية» تحيل إلى الاسم العلم لإقليم

ابن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

بعينه، كما رأينا، وليس إلى المشرق بالمعنى الجغرافي المعارض للمغرب. ويديهي أنه ما دام الكتابان، كلاهما مفقود، فإن استنتاجاتنا التسعة - ولا سيما منها الأخير - تبقى أدخل في باب التكهّن منها في باب اليقين. ولكننا نملك - لحسن الحظ - دليلاً مادياً ثميناً على أننا، في ما نذهب إليه، أقرب إلى الباب الثاني منا إلى الأول. فقد حفظ لنا التاريخ نص رسالة كتبها تلميذ مباشر لابن سينا - نرجح أنه ابن زيله - وفيها تفاصيل ثرة عن تاريخ تأليف «الإنصاف» ومنهجه ومضمونه وظروف ضياعه، كما عن خصومة ابن سينا مع لاهوتي بغداد وبعض أسماء هؤلاء الخصوم.

الهوية الحقيقية للاهوتي بغداد

إن الفقرة الأولى من الرسالة، عدا أنها تحدد تاريخ التأليف، تقطع الشك باليقين وتؤكد بصريح العبارة أن كتاب «الإنصاف»، الذي كان المكتأ الأول لكل القائلين من المستشرقين - ومتابعهم ناقد العقل العربي - بأسطورة الفلسفة المشرقية، هو كتاب في شرح كتب أرسطو ليس إلا. فكاتبها يستهل بالقول إنه «كان اتفق من الدواعي عام طروق ركاب السلطان الماضي هذه البلاد»^(٢١١) ما بعثه [ابن سينا] على الاشتغال بكتاب سقاء الإنصاف، المشتمل على شرح جميع كتب أرسطو طاليس، حتى أدخل فيها كتاب «أفولوجيا»^(٢١٢)، وأخرج في معانيه ما لم يحسب منه»^(٢١٣).

وتؤكد الفقرة الثانية من الرسالة أن «الإنصاف»، كما يدل عنوانه، هو محض كتاب في التحكيم بين شراح أرسطو: «ونظر في اختلاف التفسير كله، فأنصف في كل مسألة وفي كل قائل مدحاً وثناء وذمّاً وستقصاراً، وأخرج من لشكوك والحلول والفروع المبنية على الأصول عدد، الله به أعلم».

وتشير الفقرة الثالثة إلى ضخامة مشروع «الإنصاف»، ولكنها تؤكد هي أيضاً على أنه لم يتعدّ طور التصنيف إلى طور التحرير، وأنه عندما ضاع فقد ضاع وهو في

(٢١١) الإشارة هنا إلى علاء الدولة بن كاكويه الذي قدم إلى همدان سنة ٤٦٤ هـ وحرر ابن سينا من معتقه في قلعة فردحان. وقد كان زجه فيها تاج الملك وزير الأمير البويهبي سماء الدولة بن شمس الدولة. ووصف الرسالة لعلاء الدولة بـ «السلطان الماضي» يشير إلى أنها كتبت بعد خلع علي إثر امتيلاء مسعود بن محمود الغزنوي على الري وأصفهان سنة ٤٢٠ هـ.

(٢١٢) هذه ثاني إشارة إلى أن كتاب «أفولوجيا» كان، في أجواء المدرسة السينوية، موضع شبهة.

(٢١٣) انظر: النص الكامل للرسالة في «المباحثة الرابعة من كتاب «المباحثات»، ص ٨٥ - ٨٥.

مسوداته قبل تبييضها: «والعلة من منتصف ما دي إلى آخر ما خرداذ من السنة» (٢١٤)؛ والمبلغ أكثر من ستة آلاف ورقة بالخط النزل وعشرة آلاف ورقة بالخط العدل (٢١٥). إنما كان خفف عن نفسه ما يحتاج أن يُنقل، فترك له فرجاً وعلامات. وكان عدد ما تكلم فيه وجعله موضعاً ونسب الكلام المتقدم فيه إلى ظلم وخطأ أو تقصير أو تحريف فوق سبعة وعشرين ألف موضع. وقبل أن نقل ذلك إلى المبيضة وقع عليه قطع في هزيمة ألمات بأسبابه وكتبه كلها على باب أصفهان» (٢١٦).

أما الفقرة الرابعة فهي أطول فقرات الرسالة، وعليها معقدها. ونشبتا بتممها لما تسلمته من ضوء باهر على طبيعة العلاقة بين ابن سينا ولاهوتي بغداد: «فلما عاد إلى الري هز لمعاودة ذلك التصنيف فاستفر [= انزعج]، فإن معاودة المفروغ منه مستقلة، فلم يزل يُحَرِّضُ وَيُغَيِّثُ، وقيل: لعلك إن استدعيت ما أحدثه المحدثون بمدينة السلام كانت الخواطر الجديدة تحرك نشاطاً للحكم عليها بالتصويب أو التخطئة. واتبرى بعض أولاد الأمراء من أهل الفضل قائلاً إنه يستفتح من ماله إلى مدينة السلام لاستدعاء ما يوجد للشيخين فيها، وكانا يعيشان - أطال الله عمر باقيهما - ما يحتاج إليه. فامتعض من ذلك وكره أن يقف موقف البخلاء، ورسم لبعض أصدقائه أن يستدع ما تجدد من كتب الشيخين، فلم يظفر إلا بكتب الشيخ الجليل الباقي منهما - متع الله به - فعمل غير معاملة من يتصف في المساومة، واشتط عليه، ولم يجد من ذلك الشيخ ارتياحاً لاستدعاء مثله لكتبه. وكان [ابن سينا] أوعز لصاحبه أن لا تقبضه لمغالة عن الاستياع. فحصل من كتبه عدة كتب، فلما تأملناها رأينا شيئاً لا عهد لأهل التحصيل بمثله تشويشاً واختلاطاً، فطال لسانه على محرضيه وقال: ألم أقل لكم إن الطبقة هذه

(٢١٤) أي نحو من خمسة أشهر ونصف شهر ممتدة من العشر الأول من كانون الثاني/يناير إلى مطلع عشر الثالث من حزيران/يونيو.

(٢١٥) في المعاجم أن الخط النزل: إذا وقع في قرطاس يسير كلام كثير.

(٢١٦) كان فرار ابن سينا من همدان إلى أصفهان - عصمة ملك علاء الدولة - في نحو العام ٤١٦ هـ أو ٤١٧ هـ، بعد أن ضاق ذرعاً بمعاملة تاج الملك له وتعديله إياه بكاذب الرعود. وقد توجه إلى أصفهان - ومعه أخوه وتلميذه الجوزجاني - «متكرراً في زي الصوفية» كما يروي هذا الأخير الذي يضيف قائلاً إنه قبل الوصول «إلى طبران على باب أصفهان قاسينا شدائد في الطريق» («قصيون الأنبياء في طبقات الأطباء»، ص ٤٤٢). والإشارة هنا إلى النهب الذي تعرض له رحل ابن سينا على أيدي بعض قطاع الطرق الذين صادروا في جملة ما صادروا من متاعه، مسودة كتاب «الإصناف».

الطبيقة؟ والتصرف هذا التصرف؟ وإن أبا الخير بن الخمار وابن السمح - على ضيق مجالهما - كان تعلقهما برواية بعض الكتب أحسن حالاً من غيرهما، والشأن في إعظام القوم للطبينة، ومغالاتهم في القيمة كأنهم يهدون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. ثم قال: إن سبيل هذه الكتب أن ترد على بايعها ويترك عليه أثماتها. ويختتم التلميد هنا بالقول: هذا وقد بلغني أن الشيخ - يعني أبا الفرج بن الطيب - قد خولط وقتاً في عقله للأمراض التي لا تزل تصيب أهل الفكرة. فلعل هذا من تصنيفه ذلك الوقت».

إن هذه الفقرة من الرسالة تسمي ثلاثة من لاهوتيي بغداد، وثلاثتهم من تلاميذ يحيى بن عدي، وثلاثتهم ممن شارك في نقل كتب اليونانيين إلى العربية، وثلاثتهم ممن شرحوا أرسطو، وثلاثتهم أخيراً ممن تصدروا للتوفيق بين الفلسفة والمسيحية، نظير ما فعل ابن الخمار في كتابه «الوفاق بين رأيي الفلاسفة والنصارى»، وأبو العرج بن الطيب الذي كان طبيباً وكاهناً نسطورياً وترك ثلاثة مؤلفات لاهوتية بعنوان «فردوس النصرانية» و«فقه النصرانية» وفي «التلثيث والتوحيد».

وواضح من الرسالة أن ثلاثتهما كان لهما حضورهم في كتاب «الإنصاف» برصفهم من شراح أرسطو البغداديين. ولكن حين كتابة الرسالة، أو بعبارة أدق حينما نجح المحرضون من تلاميذ ابن سينا في إقناعه بالتحرك من جديد «سحكم بالتصويب أو التخطئة». نظير ما كان فعل في «الإنصاف» - على «ما أحدثه اسمحدثون بمدينة السلام»، لم يكن قد بقي منهم في بغداد سوى اثنين: واحدهما هو بكل تأكيد أبو الفرج بن الطيب، نظراً إلى أن الرسالة تسميه ونظراً إلى أن وفاته كانت عام ٤٣٣هـ، أي بعد خمس سنوات من وفاة ابن سينا نفسه. أما ثانيهما فهو - بحسب ما ذكر البيهقي والفطحي وابن أبي أصيبعة الذين غالباً ما يروون نقلاً عن بعضهم بعضاً^(٢١٧) - أبو الخير الحسن بن خمار. ولكننا نرجح، بل نقطع بأنه ابن السمح. ذلك أن ابن الخمار، على ما تذكر المصادر إياها، كان انتقل في أثناء ذلك من بغداد إلى خوارزم. والروايات المتطابقة تؤكد أنه «وهو بغدادى المولد»، قد حمله إلى خوارزم شاه مأمون بن محمد بن خوارزم شاه. فلما استولى محمود بن سبكتكين على خوارزم حمله إلى غزنة وعرض عليه الإسلام فأبى^(٢١٨). وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الإمارة الخوارزمية، التي تعاقب

(٢١٧) وإليهم يضاف لاحقاً شمس الدين الشهرزوري.

(٢١٨) الشهرزوري: «نزهة الأرواح»، ص ٢٩٧.

عليها المأمون بن محمد والمأمون بن المأمون اللذان تلقب كن منهما بخوارزم شاه، قامت في عام ٣٨٥هـ وانتهت في عام ٤٠٧هـ يوم تم فتح خوارزم على يد السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين، فمعنى ذلك إن إقامة ابن الخمار فيها قد دامت نحواً من اثنين وعشرين عاماً. وليس هذا فحسب، بل نحن نملك شهادة تاريخية ثمينة تشير إلى أنه كان ثمة لقاء وتعاون طبي دام نحواً من عشر سنوات بين ابن الخمار وابن سينا نفسه. فأبو عبيد الجور جاني، في السيرة المفصلة التي وضعها عن حياة أستاذه أبي علي بن سينا، يؤكد أن «الشيخ الرئيس» إذ دعت الضرورة إلى مغادرة عاصمة السامانيين بخارى قبيل سقوطها عام ٣٨٩هـ في أيدي الغزنويين، يمم شطر كركانج، عاصمة الإمارة الخوارزمية، حيث أجرى له المأمون لثاني «مشاهدة تقوم بكفاءة مثله». وفي بلاط الخوارزم شاه المأمون بن المأمون التقى ابن سينا بابن الخمار وانعقدت بينهما أواصر صداقة لم تصل بكل تأكيد إلى مثل متانة الصداقة التي جمعت بين ابن سينا وأستاذه ابن سهل المسيحي، ولكنها لم تكن أقل إثماراً من وجهة النظر الطبية^(٢١٩). وقد عادت مصائر الرجلين إلى الافتراق عندما جاءت إلى كركانج أوامر السلطان مسعود بشرحيل جميع العلماء فيها إلى بلاطه في غزنة، فأثر ابن سينا الفرار من العاصمة الخوارزمية بعد نحو عشر سنوات من الإقامة فيها^(٢٢٠). وما نريد أن نستخلصه من كل هذه الوقائع أن ابن الخمار، الذي كان بكل تأكيد من أبرز الوجوه في «مدرسة» أبي سليمان السجستاني البغدادي «المغربية»، انتهى في الثلث الأخير من حياته إلى أن «يشمشرق» حيث أقام في كركانج ما بين ٣٨٥ و ٤٠٧هـ وفي غزنة من عام ٤٠٧هـ إلى نهاية حياته^(٢٢١). وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن ابن سينا كتب «الإنصاف» كما تقدم في

(٢١٩) من الممكن الرجوع بصدف تفاصيل اللقاء والتعاون الطبي بين ابن سينا وابن الخمار إلى كتاب جليير سنيوه: «ابن سينا أو طريق أفغان» (Avicenne ou la Route D'Ispahan)، منشورات دنيول، الطبعة الثالثة، باريس ١٩٩٧، ولا سيما الصفحات ١٠٦ - ١٦٥. وصحيح أن هذا الكتاب هو صاوة عن رواية تاريخية، ولكن مؤلفه استند، من الناحية الواقعية، إلى مخطوط غير منشور للمجوز جاني (أو بالأحرى غير منشور تماماً لأن القفطي وابن أبي أصيبعة أوردا مقتطفات واسعة منه).

(٢٢٠) اختار ابن سهل المسيحي أيضاً الهرب مع ابن سينا، ولكنه هلك في العاصمة الرمية التي اعترضتها رهبا في طريفيها إلى مرو.

(٢٢١) لا يعرف بالضبط تاريخ وفاة ابن الخمار. ولكن إذا صحت روايات مؤرخي الحكماء والأطباء من أنه «عمر حتى جاوز لمتة»، وإذا صبح أيضاً ما ذكره ابن النديم من أن مولده كان في «شهر =

بن سينا: أسطورة الفلسفة المشرقية

نحو لعام ٤١٤-٤١٥هـ، فإنه ما كان له أن يعتدّ ابن الخمر من «البغدادية» ولا أن يدمغه بمثل ما دمع به من «البله» معصريه من نصارى مدينة السلام.

وإذا استبعدنا على هذا النحو ابن الخمر من أهل العصر من «البغدادية»، فلا يبقى لدينا من الأسماء الثلاثة التي أشارت إليها رسالة تلميذ ابن سينا سوى اثنين. وبالفص، إن الرسالة تتحدث عن «الشيخين» و«كتب الشيخين في مدينة السلام». ولنستعد هنا ما أشارت إليه الرسالة من أن ابن سينا، إذ «كره أن يقف موقف لبخلاء»، أرسل بيتاع من ماله - لا من مال الأمراء - «ما تجدد من كتب الشيخين». ولكن في أثناء ذلك كانت وفاة أحدهما، «فلم يظفر إلا بكتب الشيخ الجليل لباقي منهما» - وهو أبو الفرج بن الطيب كما تصرّح الرسالة. ولئن نجا ابن لسمح بفضل وفاته^(٢٢٢) من سلاطة لسان ابن سينا، فإن غصبة الشيخ لرئيس «المضرية» قد انصبت بالمقابل على ابن الطيب لكونه جاوز الحدود إلى ما «لا عهد لأهل التحصيل بمثله تشويشاً واختلاطاً»، ولم يبلغ بالمقارنة مع سائر شراح المشافية من النصارى حتى من هم في طبقة ابن الخمر وابن لسمح اللذين «كان تعلقهما برواية بعض الكتب - على ضيق مجالهما - أحسن حالاً من غيرهما».

والواقع أن أبا الفرج بن الطيب، الذي كان كاتباً لجذليق نساطرة بغداد، كان، كمسائر نصارى المدرسة البغدادية، لاهوتياً أكثر منه فيلسوفاً. فصحيح أن ابن العبري يقول عنه إنه «فيلسوف فاضل مطلع على كتب الأوائل وأقاويلهم، وعني بشرح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسطو... وبسط القول في الشروح بسطاً شافياً قصد به التعليم والتفهيم»^(٢٢٣)، وصحيح أيضاً أنه «أنجز شرحاً ضخماً للإلهيات أرسطو» كما كتب شرحاً «للسماع الطبيعي» وتفسيراً لكتاب «أيساغوجي» لفرفوريوس، ولكن قائمة كتبه اللاهوتية تبدو بالمقابل لامتناهية بطول. فقد وضع تفسيراً كاملاً للكتاب

= ربيع الأول سنة ثلاثين وثلاثمئة، فهد معناه أنه قد عاش إلى ما بعد ٤٣٠هـ، مما يعني أنه قضى في «المشرق» نيفاً وخمسة وأربعين عاماً

(٢٢٢) كانت وفاة ابن لسمح، على ما تذكر المراجع، عام ٤١٨هـ. وهذه قرينة ثعينة على أن تأليف كتاب «الإنصاف» الصانع - الذي هم ابن سينا بعباودته - كان قبل ذلك التاريخ. وتجدر الإشارة هنا إلى أن محسن بيدارفر، محقق كتاب المباحثات، قد التبس عليه على ما يظهر، فخلط بين ابن لسمح هذا المتوفى سنة ٤١٨هـ وبين أبي القاسم أصبغ بن محمد، المنجم والرياضي الأندلسي المعروف أيضاً باسم ابن لسمح، والذي كانت وفاته سنة ٤٢٦هـ.

(٢٢٣) أبو الفرج جمال الدين ابن العبري: «تاريخ مختصر الدول»، نشره أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، طبعة الثانية، بيروت ١٩٥٨، ص ١٩٠.

المقدس سماه «فردوس النصرانية»، وأتبعه بكتاب في «فقه النصرانية». وله أيضاً «تفسير المشرقي للأربعة أناجيل»^(٢٢٤)، و «مقالة في التوحيد والتثليث»، و «مقالة في الثوبة» و «مقالة في الأتانيم والجوهر». وقد كان ابن سينا يحترمه كطبيب، ولكن يزدريه كفيلسوف. وكان، قبل «الإنصاف»، قد كتب مقالة في الرد عليه جاء فيها: «إنه كان يقع إلينا كتب يحملها الشيخ أبو الفرج بن الطيب في الطب، ونجدها صحيحة مُرضية، خلاف تصانيفه التي في المنطق والطبيعات وما يجري معها»^(٢٢٥).

إن هذا السجال مع ابن الطيب، ومن قبله مع ابن السمع وأبن الخمار، و «جميع من أشبههم من مشايخهم»^(٢٢٦)، لا يدع مجالاً للشك في أن كتاب «الإنصاف» المفقود هو كتاب خلافي وتحكمي حول أرسطو ومذهب أرسطو، ولا يمت بصلة إلى أي «فلسفة مشرقية» مزعومة. فابن سينا لا يصب جام مسخطة على ما «أحدثه المحدثون بمدينة السلام» إلا لأنهم انحرفوا في نظره عن جادة مذهب أرسطو، وأسأروا فهمه وتفهمه، وأخرجوه عن منطقته الفلسفي الكوني إلى متطرق لاهوتي خاص بالعقيدة النصرانية. ومن هنا قسوته، في الرسالة إلى الكيا، في التشنيع على «البله النصارى من أهل مدينة السلام». ولكن مشروع ابن سينا عن أرسطو انقلب عليه في محصلة الحساب. فابن سينا ما ظلم قط كما ظلم بصدد كتاب «الإنصاف»؛ أولاً، لأن هذا الكتاب قد ضاع - إلى الأبد على ما يبدو - مع أنه كان يمكن أن يكون فريد نوعه في أدب السجال والتحكيم الفلسفيين. وثانياً، لأن هذا الكتاب الضائع قدم الدريعة لكثرة كثيرة من المستشرقين للتلبيس على ابن سينا بخرافة الفلسفة المشرقية. وثالثاً، لأن ناقد العقل العربي اغتنم فرصة ضياع «جسم الجريمة المادي» هذا لكي يفترى على ابن سينا

(٢٢٤) نشره يوسف مقريوس في جزئين في القاهرة ١٩٠٨ . ١٩١٠.

(٢٢٥) «حيون الأئمة في طبقات الأطباء»، ص ٤٢٤. والواقع أن هذا القيد الذي كان وجهه ابن سينا إلى ابن الطيب «الفيلسوف» هو ما يفسر شماتة ابن الطيب بدوده بين سينا في تعليق له على المناظرة التي دارت بينه وبين أبي الريحان البيروني والتي ساق ظهير الدين البيهقي خبرها في «تتممة حيوان الحكمة» على النحو التالي: «وقد بحث أبو الريحان البيروني مسائل إلى أبي علي (= ابن سينا)، فأجاب عنها أبو علي، واعترض أبو الريحان على أجوبة أبي علي وهجنه وهجن كلامه وأذاقه مرارة التهمين، وخاطب أبا علي بما لا يخاطب به العوام فضلاً عن لحكامه. فلما تأمل أبو الفرج الأمثلة والأجوبة قال: من نجل الناس نجلوه. ذب عني أبو الريحان».

(٢٢٦) «المباحثات»، ص ١٨٤. وقد يكون التلميح هنا إلى يحيى بن عدي نفسه لأنه هو، لا أبو سليمان السجستاني، الزعيم الحقيقي للمدرسة اللاهوتية البغدادية في القرن الرابع.

ابن سينا: أسطورة لفلسفة لشرقية

فريته الكبرى ليؤكد «أنه لم يكن أرسطوطاليسياً بالمرّة»^(٢٢٧)، ولكي يلفق من عندياته تأريلاً هذائياً للفلسفة الشرقية المزعومة، بوصفها ردة فعل انتقامية من جانب القوى المظلمة للمعقول الهرمسي بقيادة ابن سينا «المشرقي» ضد التقدم الذي أحرزته العقلانية الأرسطية على أيدي «المغربيين» من لاهوتيي مدينة السلام المعتمدين - ويا للصدفة! - باسم «مناطقة بغداد».

استطراد حول «التعليقات»

ومع ذلك، لا نستطيع أن نختم هذه الفقرة عن كتاب «الإنصاف» وحقيقة هوية خصوم ابن سينا من لاهوتيي بغداد، بدون أن نشير إلى أن شطراً من المسؤولية في كل هذه «الجمعية بلا طح» حول الفلسفة الشرقية الموهومة، يتحمله عبد الرحمن بدوي نفسه. فهذا الباحث المميز، الذي أسدى خدمات جليلة للمكتبة الفلسفية في الثقافة العربية المعاصرة، نشر في مجموعة «أرسطو عند العرب» نص التعليقات على حواشي كتاب النفس لأرسطوطاليس بوصفه جزءاً من كتاب «الإنصاف» الضائع^(٢٢٨). وقد أدخل من جراء ذلك الباحثين - مستشرقين وعرباً - في متاهة لا مخرج منها. فكل ما بنوه من تكهنات وكل ما ضربوه من أحماش بأسداس حول فلسفة ابن سينا الشرقية، إنما قام، في أحد مرتكزاته الأساسية، على الاعتقاد الواهم بأن التعليقات على حواشي كتاب النفس يمكن أن تقدم المفتاح لسر الحكمة الشرقية. والحال، أننا نحوز أدلة أربعة حاسمة على أن نص التعليقات لا يؤلف جزءاً من كتاب «الإنصاف» الضائع.

أولاً - إن النص تام التحرير وليس فيه «فُرَج» برسم الملء كما جاء في توصيف الرسالة أعلاه. «نسخة التصنيف» لضائعة من كتاب «الإنصاف»، وليس فيه إشارة إلى مواضع «ظلم وخطأ أو تقصير أو تحريف». والنقص الوحيد الذي فيه أن فصوص كتاب

(٢٢٧) «نحن والقراء»، ص ٢٠٧. وهذه الفرية تأخذ دلالتها كامنة متى علمنا أن الأرسطية هي، عند ناقد العقل العربي، معيار مطلق للعقلانية.

(٢٢٨) انظر تصديره العام حيث يقول: إنه على الرغم من أن مخطوطة كتاب «التعليقات» لا يأتي فيها «ذكر لكونه من «الإنصاف»»، فإن «هذا الصمت لا يمكن أن يؤخذ حجة على كونه من غير كتاب «الإنصاف»». وبعد الاحتجاج بما أورده ابن سينا في رسالته إلى الكيا عن قسمته لعلماء إلى مغربيين ومشرقيين، ينتهي إلى القول: «لهذا نستطيع أن نؤكد مطمئنين أن النص [= التعليقات] هو أيضاً من كتاب «الإنصاف»» (التصدير، ص ٢٨ - ٢٩).

«النفس» قد استعير عنها بأحرف مصطلح عليها من الأبجدية تحيل إلى مواضعها في نص أرسطو. وهذه طريقة في الاستشهاد تذكرنا إلى حدّ بالطريقة التي يعتمد بها الباحثون المحدثون عندما يكتفون بالأحالة، فيما يتعلق بالنصوص الأرسطية، إلى ترقيم صفحاتها في الطبعة الكاملة الأولى لمؤلفات أرسطو بإشراف بيكر من أكاديمية برلين عام ١٨٣١.

ثانياً - إن النص لا يتضمن أي إشارة ولا يرد فيه أي ذكر للاهوتي بغداد الذين يفترض بهم أنهم يمثلون طرفاً ما من أطراف الخصومة في كتاب «الإنصاف».

ثالثاً - إن النص لا ينطوي في صياغته على أي مورفولوجيا تحكيمية. فابن سينا لا يتدخل بين معسكرين متخاصمين لينصف بينهما. فحضوره في النص حضور الخصم المساجل، لا حضور الحكم المحايد. وبدلاً من أن يتعلّى، كما الشأن في كل تحكيم عادل، على المعسكرين المتواجهين، فإنه يتماهى مع واحد بعينه تماهياً تاماً.

رابعاً - إن النص يسمي المشرقين إحدى وأربعين مرة، ولكنه لا يسمي المغربيين ولا مرة واحدة. وباستثناء الإسكندر وثامسطيوس المسميين في النص بالاسم، فإنه لا حضور لعلماء آخرين لتمكين قسمتهم إلى مشرقين ومغربيين، وليمكن للحكم بينهم أن ينصف «في كل قائل مدحاً وثناء أو ذمّاً واستقصاراً».

بيد أن جميع هذه العقدة والإشكالات تنحلّ من تلقاء نفسها إذا عدنا إلى الأخذ بفرضيتنا البسيطة لقائلة إن سرّ اللغز يكمن في أنه لا سرّ له، وإن «المشرقية» ليست إلا صفة النسبة إلى المشرق كاسم علم لموطن ابن سينا. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نلوك حالاً لم يتماهى ابن سينا تمام التماهي مع المشرقيين الذين تردد تسميتهم في النص إحدى وأربعين مرة. فهم هو، وهو هم. وفي كل مرة يقول: قال المشرقيون فإنما قصده أن يقول: قال ابن سينا. وعندما يطالب القارئ بالرجوع إلى كتب المشرقيين، فإنما يطالبه بالرجوع إلى كتبه هو. وعندما يقول في نص آخر «برهان مشرقى»^(٢٢٩)، فإنما يعني «برهاناً سينوياً». وكل ما هنالك أن كناية «المشرقيين» هذه تغني عن استعمال ضمير «الأننا» الذي لا يخفى ما يمكن أن يكون في الإكثار من استعماله من ترجس وتيجع. ولأنه يتماهى على هذا النحو تماهياً تاماً مع الناطقين بلسانه الذين هم المشرقيون، فإنه لا يوجه إلى أطروحاتهم أي نقد^(٢٣٠)، بل يعطيها

(٢٢٩) «المباحثات» في «أرسطو عند العرب»، ص ١٤٥.

(٢٣٠) من هنا ففاحشة الغلط الذي يقع فيه ع. بنوي عندما يؤكد أن المقصود هنا بالمشرقيين «هم =

ابن سينا: أسطورة الفلاسفة المشرقية

الأولوية في التقديم ويعرضها على أنها هي الحق، وانطلاقاً منها يناقش أطروحات المفسرين الآخرين لأرسطو، ولا سيما منهم الإسكندر وثامسطيوس. ولا يحسب أحياناً عن توجيه النقد إلى أرسطو نفسه كما في مفتتح التعليقات على كتاب «النفس»، حيث يقول بلسان المشرقيين: «قد تحققنا من أمر النفس شرف الموضوع؛ فأما دقة البراهين ولطف المذهب، فالذي يشتمل عليه هذا الكتاب من ذلك فهو دون ما في كتبه من أجزاء العلم الطبيعي»^(٢٣١). أو كما يضع على لسان المشرقيين، في معرض الكلام على مدى الحاجة إلى الغذاء في حال توقف النمو، قولهم: «قول الأطباء في هذا الباب أسد من قول فيلسوف مثله»^(٢٣٢).

وفي الوقت الذي لا يختلف أبداً مع المشرقيين، لأنه لا يستطيع أن يختلف مع نفسه، فإنه قد يتفق له أن يقر بأنهم ما استتموا الكلام في نقطة بعينها، ويعد بالقول بلسان حاه: «هذا شيء يتكفل المشرقيون بتعميم القول فيه»^(٢٣٣).

وقد يتفق له أن يستحسن قولاً للإسكندر أو رأياً لثامسطيوس، ولكن هذا نادر، والأغلب انتقاده إياهما بالاسم، أو مع سائر المفسرين بواو الجمع، لتقصير من جانبهم في فهم مذهب المعلم الأول أو ذهبهم في الشرح والتفسير إلى غير غرضه. والواقع أن نص التعليقات يكاد أن يكون بتمامه حواراً متتابعاً مع الإسكندر وثامسطيوس. وإذا استذكرنا الآن ما كان قاله ابن سينا في رسالته إلى الكيا من أنه لا يريد أن يعود إلى الخوض في موضوع «ضعف البغدادية وتقصيرهم» لأنه يشتغل «بمثل الإسكندر وثامسطيوس ويحيى لنحوي وأمثالهم»، فإنه لا يعود لدينا شك في أن التعليقات على حواشي كتاب النفس هو حصيلة ذلك الاشتغال. ولئن ورد فيه تعبير المشرقيين بمثل تلك الغزارة غير المألوفة في كتابات ابن سينا الأخرى، فلأنه يمثل أنضج محاولة من جانب ابن سينا لتمييز تفسيره لشخصي لأرسطو عن تفاسير من تقدمه من الشرح الكاتبين باليونانية.

المشاؤون والبغداديون، خصوصاً من معاصري ابن سينا (التصدير، ص ١٣٤). فلو كان ذلك هو واقع الحال لكن يفترض بأبن سينا أن يسمي المشرقيين تسقيهاً، كما وجدناه يفعل في الرسالة أعلاه، لا أن يتصر لهم انتصاره لنفسه.

(٢٣١) «أرسطو ضد العرب»، ص ٧٥.

(٢٣٢) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٢٣٣) المصدر نفسه، ٨٦.

من نقد العقل العربي إلى نقد العقل المشرقي

هنا يطرح سؤال أخير نفسه: إذا كان أظهر وجود للمشرقيين إنما هو في التعليقات، فهل نستطيع أن تقع في هذا النص على أثر ظاهر، أو حتى خفي، للفلسفة المشرقية بالمعنى المتأول على ابن سينا؟

الواقع أن نص التعليقات هو، أكثر من أي نص سينيوي سواه، حوار حول المنظومة الأرسطية، ومن داخل المنظومة الأرسطية، ومع «بابوات» المنظومة الأرسطية، إن جاز التعبير. وكما هو متوقع فإن شرطاً مهماً من ذلك الحوار كان لا بد من أن يدور حول وظيفة العقل الفعّل وطبيعة العقل الهولاني وآلية فعل التعقل: أبداة جسمانية أم لا؟ وفي جميع هذه القضايا، المتعلقة بنظرية العقل الأرسطية، لا يسعى ابن سينا إلى الابتعاد عن تفاسير الشراح إلا ليزداد قريباً - أو هكذا يخيل إليه - من مذهب المعلم. بل إن الأمر يتلبس هنا شكل مفارقة: فمضى ابن سينا إلى الاجتهاد الشخصي - وتلك هي نقطة كبريائه كما قلنا - يبدو في التعليقات وكأنه لا يتمخض في محصلة الحساب إلا عن مزيد من الانتشار دخل الإشكالية الأرسطية.

وقد نستطيع هنا أن نشير إلى مفارقة ثانية. فبدلاً من تلك الفلسفة المشرقية الموهومة التي لا تقع على أي انعكاس لها في مواقف «المشرقيين» الناطقين في التعليقات بلسان ابن سينا، فإن هذا الأخير يصوغ، في معرض سجله مع المفسرين، فكرة تمثل نوعاً من قطيعة في مساره الفكري وفي انتشاره اللاشعوري للملابسة الأفلاطونية المحدثة. فمعلوم أن مذهب أفلوطين قد قام، في إحدى ركائزه الأساسية، على القول بوحدة العقل والعافل والمعقول. وهذه الأطروحة هي التي قدمت بدورها الركيزة الأساسية لكل مذاهب وحدة الوجود عند المتصوفة كما عند حكماء الإشراق كما عند التيارات المتغونصة فعلاً. والحال، أنه في التعليقات تحديداً يضع ابن سينا - ربما للمرة الأولى - مسافة ما بينه وبين تلك الأطروحة الأفلاطونية المركزية. فهو يقول: «الذي يقولونه من أن العقل والعافل والمعقول شيء واحد، يصح في العقل وحده. وفي غيره: العقل شيء، والعافل شيء، والمعقول شيء، وتصور العقل للمعقول شيء»^(٢٣٤).

وقد نستطيع هنا أن نسوق مفارقة ثالثة وختامية: فابن سينا، بتورقه عن القول بوحدة

(٢٣٤) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

العقل والعاقل والمعقون، قد نسف الجسر النظري الوحيد الذي كان يمكن أن يصل بين منظومته الفلسفية الفعلية بنواتها الأرسطية وغلافها الأفلاطوني، وبين الطبعة الإشراقية من الفلسفة المشرقية الموهومة المنسوبة إليه. وبالفعل، إن معظم الذين شاركوا على قدم وساق في بناء أسطورة لفلسفة المشرقية، جنحوا إلى تأويلها على أنها فلسفة إشراقية، ومن ثم بادروا إلى الربط بينها وبين حكمة الإشراق كما قال بها السهروردي المقتول. بل إن نصيراً كبيراً لحكمة الإشراق في أوساط المستشرقين، وهو هنري كوربان، أصرّ على أن يعتبر أن أنجب تلاميذ ابن سينا ليس الجوزجاني ولا ابن زيله ولا حتى بهمنيار بن المرزبان، بل شهاب الدين يحيى السهروردي (٥٤٨ - ٥٨٧ هـ) الذي «أخذ على عاتقه تنفيذ مشروع الفلسفة المشرقية»^(٢٣٥). والحال، إن أول من أنكر هذه الوراثة هو لسهروردي نفسه. فقد أصرّ على أنه هو - وليس أي أحد سواه - من أحيا «الحكمة العتيقة التي ما زالت أئمة هند وفارس وبلبل ومصر وقدماء يونان إلى أفلاطون يدورون عليها ويستخرجون منها حكمتهم»، وذلك «في الكتاب المسمى حكمة الإشراق»، الذي وإن «لم يعرف المبتدئ قدره، يعرف الباحث المستبصر أنني ما سبقت إلى مثله». وقد أصر أيضاً، وربما بقدر أكبر، على إنكار أبوة ابن سينا للفلسفة المشرقية بقوله إن «لكرايس المتفرقة» التي تركها «الشيخ أبو علي» منسوبة «إلى المشركين»، «هي بعينها من قواعد المشائين والحكمة العامة، إلا أنه ربما غيّر العبارة أو تصرف في بعض الفروع تصرفاً لا يباين كتبه الأخرى بوناً يعتدّ به، ولا يتقرّر به الأصل المشركي المقرر في عهد العلماء الخسروانية»^(٢٣٦). والحال، إن ناقد العقل العربي، الذي يعرف تصريح السهروردي هذا، لا يستشهد به إلا ليشيخ ما ينفيه، وليلوظفه بعكس مدلوله، توكيداً لا لمشائية ابن سينا، بل لـ «إشراقية»، وليجمع - لا ليفصل - بين «الشيخ الرئيس» و «شيخ الإشراق» في سلسلة واحدة متصلة الحلقات، وليؤكد أخيراً أن «حكمة الإشراق» لا تختلف «جوهرياً بمنهجها ومصدرها عن الفلسفة المشرقية السينية»، وأنها «ليست سوى نسخة منها مكتوبة بمصطلحات نورانية»^(٢٣٧).

(٢٣٥) هنري كوربان: «تاريخ الفلسفة الإسلامية» (Histoires de la Philosophie Islamique)، منشورات عالمبار، باريس ١٩٨٦، ص ٢٤٦.

(٢٣٦) انظر: «الكتاب التذكاري» عن شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي، بشراف إبراهيم مذكور، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٥٥.

(٢٣٧) «نحن والتراث»، ص ٢١٥ - ٢١٦.

وإذ تُلَوَّى عنق الحقيقة على هذا النحو وتوقف الأشياء على رأسها وتُحوَّل شهود النفي إلى شهود إثبات - وهذا بعد طول خلط لحابل التاريخ بنباله كما رأينا في فقرة «مشرقيون ومغربيون» - فإن المرء لا يملك إلا أن يتساءل: لِمَ كل هذا الاستشراس في تلبيس ابن سينا جريمة الفلسفة المشرقية حتى بعد ظهور الفاعل الحقيقي وإقراره، بلسان السهروردي، بأنه غير مسبوق له من قبل أحد، وعلى الأخص من قبل المشائين ابن سينا، إلى إحياء حكمة الإشراق العتيقة؟

ليس لهذا التساؤل من جواب معرفي. فالدافع ههنا، على ما يبدو، نفسي محض. فلم يسبق قط في تاريخ الفكر أن صبَّ باحث علمي كراهته على شخصية كان لها عطاؤها المميز نظير ما يفعل ناقد العقل العربي مع الممثل اللامع لهذا العقل الذي كانه ابن سينا. فضرأوته كمدع عام ضد المجرم الظنير بالفلسفة المشرقية تبطن، خلف واجهة من البرود الأبستمولوجي، شحنة هائلة من الانفعالية التي تغلي غلياناً في مرجل اللاشعور. ورغبته الجامعة في إثبات لاعقلانية ابن سينا، ولو عن طريق تليفق الأدلة، تتم هي نفسها عن درجة عالية من التوتر النفسي اللاعقلاني. ومهما بحثنا عن أسباب لهذه الرغبة العصابية في إدانة ابن سينا، فلسنا بمستطيعين أن نهتدي إلا إلى سبب واحد يتيم: فابن سينا مجرم بمشوقيته ليس إلا. فهو آتٍ ليس من المشرق فحسب، بل من مشرق المشرق. وعدا مشوقيته المضاعفة هذه فقد شاء له سوء طالع أن يسمى أحد كتبه «الحكمة المشرقية» نسبة إلى مسقط رأسه في الإقليم الذي كان يسمى في تلك القرون «المشرق». وقد كان ذلك كافياً ليكفَّ الكاره الكبير لابن سينا عن أداء دوره كناقد للعقل العربي ليصير محض ناقد للعقل المشرقي. ولعل كلمة «يصير» ليست هنا في محبها. فالعنوان المعلن لمشروع «نقد العقل العربي» لم يكن من البداية إلا باقطة يحتفي وراءها مشروع غير قابل للتسمية - «نقد العقل المشرقي». وسرف نرى، بدءاً من الفصل التالي، أن ما كان موضوعاً للنقد وللتبخيس سيغدو محلاً للتممين اللامشروط مع الانتقال في التشریح المعرفي للعقل العربي الإسلامي من نصف كرتة المشرقي إلى نصف كرتة المغربي. فلنختم إذًا، رحلتنا المشرقية ولنبدأ رحلتنا المغربية، ولنر كيف سنقلب الأبستمولوجيا الجابرية، مع هذا التحول في الاتجاه، من أبستمولوجيا هجائية إلى أبستمولوجيا مدحية.

[٢]

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

«وهذا [= طريقة أهل النظر] أعدم من الكبريت الأحمر،
ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه... فإن الملة الحنيفية
والشريعة المحمدية قد منعتا من الخوض فيه».

[ابن طفيل: حي بن يقظان]

السمعة الأندلسية لابن سينا

إذا صدقنا ناقد القمل العربي، فإن ابن سينا كان موضع قطيعة أو عصبية سلبية في
المغرب.

يقول: «لم تكن سمعة ابن سينا في الأوساط الفلسفية بالمغرب والأندلس على
ما يرام: لقد تجاهله ابن باجة بينما تحدث عن الفارابي وأخذ عنه. أما ابن رشد فلقد
كان نقده لابن سينا أشد من نقده لافلاطون. وأما في أوساط المتصوفة الإشرافيين فلم
يكن حظّه أحسن حالاً. فابن سبّين (٦١٤-٦٩٩هـ). الذي يقول عن الفارابي: «أنهم
فلاسفة الإسلام وأذكروهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير، مات وهو مدرك
محقق»، يصف ابن سينا بأنه «مموه مسفسط، كثير الطنطنة، قليل الفائدة، وما له من
التواليف لا يصلح لشيء»، ويزعم أنه أدرك الفلسفة المشرقية، ولو أدركها لتصوّع ربحها
عليه وهو في العين الحمية، وأكثر كتبه مؤلفة ومستبطة من كتب أفلاطون، والذي فيها
من عنده فشيء لا يصلح، وكلامه لا يعزّل عليه، و«الشفاء» أجل كتبه، وهو كثير
التخبط ومخالف للحكيم»^(١).

(١) «تحت التراث»، ص ١٦١ - ١٦٢.

موقف ابن سبئين - إن أول ما يسترعي الانتباه في هذا النص هو موقف ابن سبئين الذي ينطوي بالفعل على درجة عالية من لعداء لابن سينا بالمقابلة مع قدر كبير من التفهم والتقدير للفارابي. ولكن السؤال، كل السؤال: هل ترجع عدوانية ابن سبئين هذه ضد ابن سينا «المشرقي» إلى كونه هو نفسه مغريباً أندلسياً (= حيث «لم تكن سمعة ابن سينا على ما يرام»؟) إن الشاهد، بصيغته المبتسرة، يوحي بذلك بكل تأكيد. ولكن تحريره من ابتساره يقلب الإشكالية جنوياً ويعيد إيقافها على قدميها بدل رأسها.

لنعد إذًا، إلى الشاهد في مصدره الأصلي وفي سياقه الحقيقي وينصه التام. فبيت القصيد في الشاهد هو إنكاره أن يكون ابن سينا «أدرك الحكمة المشرقية»، إذ «لو أدركها لضُرَّع ربحها عليه». فالشاهد ينطق إذًا، في صالح ابن سينا بقدر ما يبرئه من تهمة اقتراف الجريمة الكبرى بحق العقل والعقلانية التي هي في نظر ناقد العقل العربي «الفلسفة المشرقية». ونفي ابن سبئين هذا، مضافاً إلى نفي السهروردي من قبله، يعزز ما ذهبنا إليه من أسطورة الفلسفة المشرقية. فتماماً كما نفى السهروردي أن يكون ابن سينا سبقة إلى حكمة الإشراق، كذلك فإن واحداً من الأغراض الرئيسية لابن سبئين هو أن ينفي سبق ابن سينا له إلى إدراك الحكمة المشرقية. فما يتصدى ابن سبئين لإثباته في كتابه «إبد العارف»، أنه هو - وليس أحد سواه - أول من يفشي «أسرار الحكمة المشرقية». هكذا يعلن منذ مطلع كتابه: «أما بعد، فقد استخرت الله العظيم على إفشاء الحكمة التي رمزها هرامسة الدهور الأولية، والحقائق التي رامت إفادتها الهداية النبوية»، ليضيف لاحقاً: «هذا النظر الذي نحضك عليه هو من الحكمة المعروفة بالمشرقية، وهو كان المستعمل قبل الأصول والمنطق. وإذا أردت أن تظفر به فلا تلتفت إلى العدد ولا إلى الألفاظ ولتسميات ولا إلى الجدل والغلبة والعناد. . . لأن القوم الواصلين إلى هذه المرتبة يرون أن العلم والعالم والمعلوم واحد، والإدراك والمدرك والمدرك واحد. . . ولكن لما سألتني عن تحقيق الشيء رأيت أن نلوح لك في الحد ما تنتفع به إذا تدبرته، وهذا الذي تكلمت معك فيه هو على مذهب الحكمة المشرقية»^(٢).

هذا المنزع إلى احتكار ريادة «الحكمة المشرقية» هو ما حمل ابن سبئين على

(٢) ابن سبئين: «إبد العارف»، تحقيق جورج كثورة، دار الأناضول ودار «كندي»، بيروت ١٩٧٨، ص ٢٩ - ٣٨.

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس لفلسفة في الأندلس

الظعن الشديد ليس في ابن سينا وحده، بل في جميع فلاسفة الإسلام بلا استثناء. يقول في رسالة له: «وأما الفلاسفة بأجمعهم، ورؤساؤهم من المشائين، ورئيس الفلاسفة أرسطو، وأتباعه... من ملة الإسلام مثل الفارابي وابن سين رابن باجة المذكور في آخر القلائد [- قلائد العقيان] والقاضي ابن رشد في بعض أمره، واسهروردي مؤلف «حكمة الإشراق»... والغزالي برجه ما، وابن خطيب الري [= الفخر الرزي] في بعض صنائعه، وجميع الفقهاء، فمنهم لم يصلوا إليه [= علم التحقيق بالوحدة المطلقة للوجود] لقصورهم عنه، ولأن علومهم وصنائعهم دون ذلك كله»^(٣).

هنا يثور سؤال: إذا كان ابن سيعين هجا جميع فلاسفة الإسلام بلا استثناء، فكيف نفسر مديحه للفارابي في شاهد الجابري؟ ليس لذلك من تفسير سوى ابتسار الشاهد وإخراجه عن سياقه. فلو أن ناقد العقل العربي رجع إلى الشاهد في مصدره الأصلي ولم يقبسه عن «يد ثانية»^(٤)، لكان أدرك أن حظ الفارابي من نقد ابن سيعين اللودعي لا يقل عن حظ ابن سينا منه. وبالفعل، إن النص في تمامه، لا في ابتساره، يقول (في معرض مناقشة رأي الإسكندر الأفروديسي في العقل الهولاني وقوله بفنائه خلافاً لرأي أرسطو): «وأما الفارابي فقد اضطرب وخلط وتناقض وتشكك في العقل الهولاني، وزعم أن ذلك تمويه ومخرقة. ثم شك في النفس الناطقة هل غمرتها الرطوبة أو حدثت بعد، وتنوع اعتقاده في بقاء النفوس بحسب ما ذكر في كتاب «الأخلاق» وكتاب «الملة الفاضلة والسياسة المدنية». وأكثر تأليفه في لمتطق، وعدة كتبه نحو خمسة وسبعين كتاباً، وفيها من الإلهيات تسعة. وهذا الرجل أفهم فلاسفة الإسلام، وأدراهم بالعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير، ومات وهو مدرك ومحقق، وزال عن جميع ما

(٣) ابن سيعين: «الرسالة الفقيرية»، نسخة خطية بالخزانة التيمورية، نقل عن: أبي الوفا الغيمي: «ابن سيعين وحكم الإشراق». في «الكتاب للتذكاري» عن السهروردي، مصدر آف الذكر، ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٤) يحيل الجابري قارله كمرجع لنصر ابن سيعين إلى «ماسينيون: مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف في البلاد الإسلامية، باريس ١٩٢٩» («نحن والتراث»، ص ٢٢٤ - ٢٣٥). ولواقع أننا نشبه كثيراً في أن يكون الجابري قد رجع إلى هذا المصدر فعلاً، لأنه لا يذكر عنوانه بالضبط ولا دار النشر ولا رقم الصفحة، كما تقضي أصول الاستشهاد. ونحن نرجح أنه قبسه من جميل صليبا لأن هذا المؤرخ الرائد للفلسفة العربية كان هو من لفت «لاشياء إلى المقابلة المرجحة والساذبة بين الفارابي وابن سينا في ميزان ابن سيعين. انظر: جميل صليبا: «تاريخ الفلسفة العربية»، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٣، ص ٢١٨.

ذكرته، وظهر عليه الحق بالقول والعمل»^(٥).

فالنص يهجو الفارابي الفيلسوف ويمدح الفارابي المتصوف. وذلك هو مؤدى قوله: «مات وهو مدرك محقق». فالعلم عند ابن سبعين ليس علم الفلسفة، بل علم التحقيق. فلا علم إلا العلم بالله. والله لا يعلم إلا بالله، ولا يعرف إلا بالعارف بالله الذي هو الصوفي المحقق. فهذا هو وحده الذي عنده علم الحقيقة. أم الفيلسوف (وكذلك المتكلم والفقيه) فليس له من علم إلا بظل الحقيقة. وقد تكون البداية، كما في حال الفارابي، فلسفية، ولكن النهاية لا يمكن إلا أن تكون صوفية. والفلاسفة «جهلهم بالأمور الإلهية أبين من براهينهم المنطقية والهندسية». ويبقى «سادة أهل ملة الإسلام هم الصوفية. فإنهم فهموا الشريعة، والتصوف نتيجتها. ولا حقيقة إلا عند الصوفية، ولا تقبل لغيرهم»^(٦).

وكما إن ابتسار الجابري للشاهد قد أوحى بأن الفارابي «مدرك محقق» في الفلسفة، على عكس ابن سينا «المموه المسفسط»، كذلك فإن الابتسار عينه يوحى بأن ابن سينا ليس «كثير لتخبط» إلا لأنه «مخائف للحكيم». فالجابري يقطع الشاهد عند هذا القول كيلا يستبين للقارئ أن ابن سبعين كان خصماً لرئيس المشائين، وأنه يمدح، ولا يهجو، ابن سينا على هذه المخالفة. وبالفعل، إن النص غير المبتسر يقول: «... والشفاء» أجل كتبه، وهو كثير التخبط مخالف لحكيم، وإن كان خلافه له مما يشكر له، فإنه يبين ما كتبه الحكيم»^(٧).

ويبقى بعد ذلك سؤال: هل ينهض موقف ابن سبعين النقدي من «المشركي» ابن سينا، دليلاً على «سوء سمعة» هذا الأخير في «الأوساط الفلسفية بالمغرب والأندلس»؟ ولكن ماذا عن موقف ابن سبعين في هذه الحال من الفلاسفة «المغربيين» أنفسهم؟ ثم لو كان موقفه معياراً لطيب السمعة الفلسفية أو سوئها، أفلا يمكننا أن نقول، بطريق المماثلة، إن سمعة فلاسفة المغرب والأندلس لم تكن «على ما يرام» في المغرب

(٥) ابن سبعين: «بد العارف»، مصدر آتف الذكر، ص ١٤٣ - ١٤٤. وانظر كذلك قوله لاحقاً في معرض مناقشته اضطراب الفلاسفة في مبحث بقاء النفس بعد فراقها الجسم: «ومن فلاسفة الإسلام الفارابي، اضطرب فيه وتنوع كلامه واعتقاده فيها في ثلاثة مواطن ورجع بعد ذلك عن ذلك، ورهد، وقال بالحق، ومال بلجملة إلى طريق التصوف» (ص ٣٠٧).

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٣ و ١٥١.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

ابن حنبل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

والأندلس؟ لنصغ إليه يشنع على فيلسوفَي المغرب؛ ابن باجة وابن رشد، بمثل ما شنع به على فيلسوف المشرق: «هذا الرجل [= ابن باجة] مفتون بنفسه وله مفسطة كثيرة، مثل الذي ذكر في المادة ولصورة وأنه خلّص الخلاف فيها، وكذلك الذي ذكر في صناعة المنطق من أنها تكذب في شيء وتصدق في آخر. وسمع أفلاطون يذكر ذلك في بعض كتبه وظنه أنه على ما تأوله عليه بكلام، فلا هو فهمه ولا هو ستر نفسه وعالج جنونه، وكذلك في المسائل العويصة... التي يزعم أنه خلصها على ما يجب وغلط وغالط. حتى إن ابن رشد قال إنه بقي على مذهبه مدة من الزمان ولطف الله به واهتدى بكلام الحكيم وزال عن ذلك. وهذا الرجل، ابن رشد، مفتون بأرسطو، ومعظم له، ويكاد أن يقلده في الحسن والمعقولات الأولى، ولو سمع الحكيم يقول إن القائم قاعد في زمان واحد لقال به واعتقده وأكثر تأليفه من كلام أرسطو، إما يلخصها وإما يمشي معها. وهو في نفسه قصير الباع، قليل المعرفة، بليد التصور، غير مدرك. غير أنه إنسان جيد، وقليل الفضول، ومنصف، وعالم بعجزه، ولا يعزل عليه في اجتهاده، فإنه مقلد لأرسطو»^(٨).

وما دام ابن سبعين يشير هو نفسه إلى «تغليط» ابن باجة لابن رشد ثم «زوال» هذا الأخير عن المذهب الباجي، فلنعد إلى نصوص ابن رشد في نقد فلاسفة الإسلام الذين تقدموه لتبيين حقيقة موقفه من ابن سينا الذي يؤكد ناقد العقل العربي أن «نقده لابن سينا أشد من نقده للغزالي»، مما يقدم دليلاً إضافياً على أن سمعته الفلسفية في المغرب والأندلس «لم تكن على ما يرام».

موقف ابن رشد - أما أن ابن رشد نقد ابن سينا، فهذا ما لا يماري فيه أحد. وأما أن نقده له كان أشد حتى من نقده للغزالي في «تهافت التهافت» - الذي كتبه خصيصاً في الرد على كتابه «تهافت الفلاسفة» - فتلك بلا ريب مبالغة اقتضتها ضراوة التعبئة الأيديولوجية من جانب ناقد العقل العربي ضد الممثل «المزدوج المشرقي» لهذا العقل الذي هو في نظره ابن سينا. ولنص التالي لا يدع مجالاً للشك في أن المستهدف بتلك التعبئة الضدية ليس ابن سينا بما هو كذلك، بشخصه وفكره الخاص، بل ابن سينا الممثل الأبرز للعقل «المشرقي». ففي معرض إعادة التأكيد على أن هجوم ابن رشد على ابن سينا كان، في رده على الغزالي، هو «الأشد والأقوى» يقول: «قد كان

(٨) المصدر نفسه، ص ١٤٢ - ١٤٣.

هدفه [- ابن رشد] من الكتاب أن يبين أن الأدلة التي عارض بها الغزالي الفلاسفة، مثلها مثل الأدلة التي حكاها عن ابن سينا، «ليست لاحقة بمراتب البرهان». واضح إذاً، أن ابن رشد يجمع ابن سينا والغزالي وسائر المتكلمين في المشرق في كفة واحدة ويتهمهم جميعاً بأنهم لا يستعملون الطرق البرهانية، وإنما يعتمدون طريقة في الاستدلال لا تبلغ مرتبة اليقين في القضايا الفلسفية. فلنستجمل إذاً، أن ابن رشد ينظر إلى الفكر النظري في المشرق كفكر واحد تجمعه وحدة المنهج، وأنه يرفض هذا المنهج بقوة لكونه منهجاً غير برهاني، الشيء الذي يعني أن المنهج الذي يصدر عن فيلسوف قرطبة أو يدعو إليه، منهج برهاني يختلف اختلافاً كلياً عن منهج المشرقيين^(٩).

وإزاء نص كهذا، يوحد كل فكر المشرق النظري في خندق و يضع في الخندق الذي يقابله فكر فيلسوف قرطبة «المغربي». فإن السؤال الذي يطرح نفسه حالاً: هل الإشكالية الابستمولوجية التي يصدر عنها ابن رشد هي محض إشكالية جهوية حتى لا نقول: إقليمية - وليس لها من مدار معرفي سوى المواجهة بين مشرق ومغرب، أم هي إشكالية أصولية - بمعنى العودة إلى أصل أول - لإحياء السُنَّة الأرسطية ولتطهير العقيدة القويمة المشائية من «هرطقات» الشراح اليونانيين والإسلاميين على حد سواء؟

بديهي أنه لا يتسع المجال هنا للمخوض في مسألة ما إذا كانت الأرسطية قابلة للتأسيس أصلاً في عقيدة قويمة، وذلك ما دام أرسطو «متعددأ» وليس «واحدأ» كما بات يقول الدرس الفلسفي الحديث. كما إنه لا يتسع المجال للمخوض في مسألة ما إذا كان بن رشد نفسه يصدر عن عقيدة قويمة أرسطية، وما إذا كانت تتوافر له الأدوات

(٩) «نحن والقراء»، ص ٣٠٨. وحتى لا يختلط علينا ابن رشد الناطق بلسان نفسه بابن رشد الناطق بلسان الجابري، فسنثبت بتمامه نص الشاهد «رشدي الذي يبني عليه ناقد العقل المشرقي» محاكمته كلها. يقول ابن رشد: «قد تبين لك أنه ليس في الأدلة التي حكاها [= الغزالي] عن المتكلمين في حدوث العالم كفاية في أن تبلغ مرتبة اليقين، وأنها ليست في مراتب البرهان، ولا الأدلة التي أدخلها وحكاها عن الفلاسفة في هذا الكتاب لاحقة بمراتب البرهان» («تهافت التهافت»، ص ٨٦). واضح إذن أن ابن رشد لا يحاكم أدلة المتكلمين والفلاسفة بما هي كذلك، ولا يرمي بها جميعاً في سلة «مشرقية» واحدة، بل يحاكمها ويحكم عليها بعدم بلوغ «مراتب البرهان» بالصورة التي «حكاها» عنهم، بل «أدخلها» عليهم الغزالي. وهذا واضح أيضاً في الجملة البرنامجية الأولى من «تهافت التهافت» حيث يقول: «إن الغرض في هذا القول أن نبين مراتب الأقويل المثبتة في كتاب «التهافت» لأبي حامد في التصديق والإقناع، وقصور أكثرها عن رتبة اليقين والبرهان» (ص ٥٩).

ابن طفيل: مؤرخ الفلسفة في الأندلس

المعرفية والمنهجية وانقضية الضرورية لفصل «الأرثوذكسية» الأرسطية عن ملابتها الأفلوطينية وعن الهرطقات المشائية المتراكبة عليها على مدى ألف وخمسمئة من السنين، الشيء الذي كان يقتضي - في جملة ما يقتضي - التوافق على نصوص أرسطو بلغتها الأصلية وتمريدها من عنق زجاجة النقد التاريخي لتمييز المصحول منها من غير المصحول، والتاسخ منها من المنسوخ، والافتكاك من أسر تأويلات الشراح واجتهادات المترجمين، فضلاً عن القدرة على الانسلاخ النسي عن العصر وعن المنظومة المرجعية للعقل العربي الإسلامي لقراءة أرسطو بالإحالة إلى عصره وضمن المنظومة المرجعية للحضارة اليونانية في لحظة انقلابها الهلنستي.

وعلى هذا النحو، فإن ابن رشد، بدلاً من أن يعيد بناء الأرثوذكسية الأرسطية، لم يفتح إلا في أن يؤسس عبادة حقيقية لأرسطو. فهو عنده ليس أرسطو الإلهي كما كان يسميه القدماء فحسب، بل هو أيضاً الكائن الذي اصطفته العناية الإلهية مندون سائر البشر ليكون رمزاً مشخّصاً للكمال الأقصى. يقول ابن رشد: «ما أعجب شأن هذا الرجل وما أشد مباينة فطرته للفطر الإنسانية، حتى كأنه الذي أبرزته العناية الإلهية لتوقفنا، معشر الناس، على وجود الكمال الأقصى في النوع الإنساني»^(١٠). ويضيف القول: «فسبحان الذي خصه بالكمال الإنساني، وكان المدرك عنده بسهولة المدرك عند الناس بعد فحص طويل وصعوبة كثيرة، والمدرك عند غيره بسهولة خلاف المدرك عنده، ولذلك كثيراً ما ينشأ للمفسرين شكوك على أقاويل هذا الرجل، ثم يتبين بعد زمان طويل صواب قوله، وتقصير نظر الغير بالإضافة إلى نظره. وبهذه القوة الإلهية التي وجدت فيه كان هو الموجد للحكمة والتمم لها، وذلك شيء يقل وجوده في الصنائع، أي صناعة كانت؛ فكيف في هذه الصناعة العظمى»^(١١).

ولا شك في أن إنجار ابن رشد الكبير يتمثل في تبنيه مفهوم البرهان. وذلك هو المؤدى الظاهر لقولته المشهورة: «إنما الحكمة النظر في الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان»^(١٢). ولكن ينبغي هنا أن نحاذر حالاً من أن نفهم أن البرهان عند ابن

(١٠) ابن رشد: «تلخيص كتاب القياس»، تحقيق محمود قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(١١) ابن رشد: «تلخيص الآثار العلوية»، تحقيق وتقديم جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٤، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(١٢) ابن رشد: «تهافت التهافت»، ج ٢، ص ٦٢٥.

رشد هو إما الصديق الذاتي لنسق منطقي بعينه أو ما توجبه ضرورة العقل المستقل بنفسه. وإنما البرهان عنده ما كان يطابق أقاويل أرسطو. فليس يرقى عنده إلى «مراتب البرهان» إلا «قول أرسطاطاليس ومن تبعه من المشائين»^(١٣). ذلك أن أرسطو أوتي عقلاً الحقيقة التي يؤتاها الأنبياء وحياً. وبما أن الحق لا يضاد الحق، بل هو بالتحريف والضرورة معاً واحد، فكل من خالف أرسطو فقد كف، بصورة آلية، عن أن يكون في جانب الحق. وهذه القاعدة لا تصدق في الفلسفة وحدها، بل حتى في العلم الطبيعي، مع أن مرتبته من البرهان يفترض به أن تكون أعلى مما «للأقوايل الفلسفية». وهكذا، فإن ابن رشد لا ينتصر لأرسطو انتصاراً لا مشروطاً ضداً على من تقدم عليه وتأخر عنه من الفلاسفة فحسب، بل ينتصر له أيضاً، بالصورة اللامشروطة نفسها، ضداً على من يخالفه في الأقاويل في شتى مجالات العلم الطبيعي كالطب والفلك والتعاليم والمناظر. وعلى هذا النحو، فقد انتصر لمركزية القلب للجسم كما قال بها أرسطو ضداً على مركزية الدماغ كما قال بها جالينوس، مؤكداً أن الدماغ محض آلة للتبريد، بينما «مبدأ فعل كل عضو هو من القلب. وانقلب هو الصانع الأول، وسائر الأعضاء كالألات له». وانتقد ابن رشد التعديلات التي اقترحها بطليموس على النظريات الفلكية السائدة، لا لأن المشاهدات الفلكية لا تؤيدها، ولا لأنها لا تطابق الواقع الكسمولوجي، ولا لأنها أقل جدوى في «إنقاذ الظواهر»، في حركة الأجرام السماوية، بل فقط لأنها تخالف «الصورة الكوزمولوجية الأرسطية» وتشذ عن النظرية الأرسطية التي لا يمكن أن تكون هناك نظرية غيرها «تعكس طبيعة الأجرام السماوية كما هي»^(١٤). بل إنه تصدى بالنقد لابن الهيثم - على علو منزلته بين تعاليم الأندلس وطول باعه في علم المناظر بإقرار ابن رشد نفسه - لأنه لم يتقيد بحرف الميتافيزيقا الأرسطية، وتجراً على أن ينتصر لنظرية بطليموس في أفلاك التدوير ضداً على نظرية أرسطو في الحركة الدائرية البسيطة

(١٣) ابن رشد - «تلمخيصات إلى جالينوس»، تحقيق كونثيبيون بانكيت دي بيتيو، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ١٩٨٤، ص ٢٢٥.

(١٤) نبيل الشهابي: «النظام الفلكي الرشدي والبيئة الفكرية في دولة الموحدين»، في «أعمال ندوة ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، الرباط ١٩٧٩، ص ٢٥٥ - ٢٧٩. وانظر كذلك: سالم يفوت: «إسهام مقكري المعرب والأندلس في تكوين علم الفلك الحديث»، في مجلة الثقافة المغربية، العدد ٥٧، تموز/يوليو ١٩٩٢، ص ٢٦ - ٣٣.

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في لأندلس

للأجرام السماوية، وقال ما قاله «بغير برهان، ولمحض إرضاء الخيال»^(١٥). وقد وجه إليه أيضاً النقد لأنه أبى أن يتسلم علمه من علم من فوقه، كما تقتضي القاعدة الأرسطية، «ومن جمع بين النظريين فقد أخطأ، كما فعل ابن الهيثم»^(١٦).

ومن منظور هذا التعبد لأرسطو والتقيّد بحرف مذهبه، كان التصادم مع ابن سينا أمراً طبيعياً، بل محتوماً. فابن سينا فهم الإبداع العنسي على أنه الاعتناق، ولو بصورة جزئية، من ريقة أرسطو. أما ابن رشد، الذي رفض مفهوم الإبداع واستغنى عنه بمفهوم الاجتهاد الفلسفي، فقد حصر دور المجتهد بإعادة بناء المنظومة الأرسطية وتحديد الدخول في ربقتها بعد تطهيرها من تحريفات المحدثين والمبتدعين. ولئن جعل ابن سينا هدفاً رئيسياً لنقده فما ذلك إلا لأن ابن سينا أباح لنفسه، أو صور له غروره الشخصي، أن يشق عصا طاعة أرسطو، والا يكون مجرد شارح للمعلم الأول والأخير. وإن يكن من شيء يرفضه ابن رشد في الفلسفة فهو الاعتراف بـ «شرعية الاختلاف»^(١٧). فالفلسفة قد أدركت ذروتها مع أرسطو، وكل ما بعد أرسطو وكل ما غير أرسطو لا يمكن إلا أن يكونا انحطاطاً وتحريفاً وإبتعاداً عن «البرهان». ومن هنا حملته على ما حاوله ابن سينا من تجديد، هو عنده عين التجديف. يقول ابن رشد في نص يشرح فيه مقطعاً غامضاً من «التحليلات الأولى» ولم تصلنا سوى ترجمته اللاتينية «بذلك أوضحنا ما كان يقصده أرسطو، وأوجدنا حلاً للشكوك التي ما زالت تُستعمل للاعتراض عليه إلى زماننا هذا. فعلى مثل هذا المنوال ما فتئت تجري الأمور بين ذلك الرجل العظيم وبين من تخامرهم شكوك بصدده؛ أعني أن الزمان كفيف وحده بحل الشكوك التي تثار عليه. إذًا، فليس في الناس من هو أسخف رأياً ولا أبخس علماً ممن يشك في أرسطو، وممن إذا صنف كتاباً صنفه حسب رأيه الشخصي، ولا سيما إذا لم

(١٥) ورد هذا النقد في مقدمة ابن رشد لكتابه «مختصر المجسطي»، وهو نص مفقود في أصله العربي، ولم تصنعه منه سوى ترجمته العبرية التي قام بها يعقوب أنطولي في نابولي في نحو العام ١٢٣١ - ١٢٣٥ م. راجع في ذلك كتاب بيير دوهيم الموسوعي: «نظام العالم» (*Le Système du Monde*). الذي خصص فقرة مطولة من ثاني أجزاء كتابه ليبن مدعزة ابن رشد، من موقع أورثوذكسي أرسطي، للتقدم العلمي الذي كانت تمثله في حيه فرضية بطليموس وتدخلات ابن الهيثم عليها (م ٢، ص ١١٧ - ١٣٩).

(١٦) ابن رشد: «تلخيص الآثار العلوية»، مصدر آف الذكر، ص ١٤٤.

(١٧) بالإحالة إلى عنوان كتاب علي أرميليل: في شوهية الاختلاف، مشروبات المجلس القروي للثقافة العربية، الرباط ١٩٩١.

يشاطره هذا الرأي متقدم تقدمه . وذلك ما نرى ابن سينا يفعله في مصنفاته كلها . فأشنع ما فعله هذا المُحدث نأيه عن نهج أرسطو وسيره في غير طريق الفيلسوف . وذلك ما حدث للفارابي في كتابه في المنطق ، ولابن سينا في تصانيفه في الإلهيات والطبيعات^(١٨) .

والواقع أنه عندما يغدو «نهج أرسطو» بما هو كذلك، هو «فيصل التفرقة» بين ما هو برهاني وما هو غير برهاني، فإن ابن رشد، في التزامه المطلق بهذا المعيار في محاكمة فلاسفة الإسلام، لا يثبت بذلك لبرهانية الفارابي أو ابن سينا، بقدر ما يثبت أنه هو نفسه يقرأ البرهان الأرسطي بعين بياقية . وبالفعل، إن الآلية الذهنية الأساسية في النظام المعرفي البياني ليست شيئاً آخر في نهاية المطاف سوى التسليم المسبق بالصفة البرهانية لمذهب بعينه أو لقول بعينه دونما حاجة إلى برهان . وعلى حد تعبير الشاطبي، كما سنرى، فإن البيان هو بالتعريف ما برهانه قائم فيه . وبهذا المعنى نقول إن احتكام ابن رشد للامشروط إلى الأقاويل الأرسطية لتفريق ما هو برهاني عما هو غير برهاني في أقاويل الفلاسفة السابقين أو اللاحقين، يغدو هو نفسه موقفاً بيانياً . والحال، أن أكثر ما يتجلى موقف ابن رشد البياني هذا في نقده لابن سينا (وجزئياً للفارابي) . فهو لا يقند أقاويله من داخلها، بل في الأغلب - إن لم نقل دوماً - يردّها إلى أقاويل «إمام القوم» كما يلقّب أرسطو في «تهافت التهافت»^(١٩) . وبالفعل، قد أمكن

(١٨) ابن رشد: «مسائل مختلفة في المنطق» (*Varia Quaesita Circa Logicalia*)، نقلًا عن بيير دورهيم: «نظام العالم» (*Le Système du Monde*)، مكتبة هرمان العلمية، باريس ١٩٥٤، المجلد ٤، ص ٣١٢. والجدير بالذكر أن هذا الباحث، الذي درس في مؤلفه الضخم في عشرة مجلدات «تاريخ المذاهب الكسمولوجية من أفلاطون إلى كوبرنيكوس»، ينتهي في دراسته عن «الأفلاطونية المحدثة العربية» التي سترقت نصف المجلد الرابع من «نظام العالم» (والتي ترجمت إلى العربية تحت عنوان «مصادر الفلسفة العربية» في كتاب مستقل صادر عن بيت الحكمة بترنس عام ١٩٨٩) إلى النتيجة المفارقة التالية، وهي أن ابن رشد، على غلوه في تقديس أرسطو، انتهى، في نظريته في النفس، أفلاطونياً محدثاً، وبذلك يكون ابن رشد قد خان أعز مبادئه دون أن يريد ذلك» (ص ٥٧٥، وص ٣٣٠ من ترجمة العربية).

(١٩) لكننا يحكي ابن رشد، شعورياً أو لاشعورياً، هنا آلية الود التي أوصى بها القرآن جماعة المؤمنين: «فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً» (النساء: ٥٨). والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم موقف ابن رشد التسليمي، وبالتالي اللابرهاني، من أرسطو ما لم نأخذ بعين الاعتبار أنه كان يعتد «كلام الحكماء» وحياً قبل لرحي، أو حتى قرآناً قبل القرآن..

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

لنا أن نحصى في هذا الكتاب عشرين مرة ونيفاً يحكم فيها ابن رشد على أقوال خصمه الكبير، بأنها «جدلية» و «لابرهانية» لمجرد مخالفتها «كلام الحكيم» - أو ما يعتقد بالأحرى أنه كلام الحكيم - ولمجرد مفارقتها «مذاهب الأقدمين» الذين يقوم لهم أرسطو مقام «الإمام». وهذه بعض أمثلة:

- «من رام من هذه الجهة إثبات الفاعل، فهو قول مقنع جدلي، لابرهاني، وإن كان يُظن بأبي نصر وابن سينا أنهما سلكا في إثبات أن كل فعل له فاعل هذا المسلك، وهو مسلك لم يسلكه المتقدمون».

- «انظر هذا الغلط، ما أكثره على الحكماء! فعليك أن تبين قولهم هذا: هل هو برهان أم لا؟ أعني في كتب القدماء، لا في كتب ابن سينا وغيره الذين غيروا مذهب القوم في العلم الإلهي حتى صار ظنياً»^(٢٠).

- «هذا كنه تخرّص على الفلاسفة من ابن سينا وأبي نصر وغيرهما. ومذهب القوم القديم هو...».

- «والعجب كل العجب كيف خفي هذا على أبي نصر وابن سينا لأنهما أول من قال هذه الخرافات، فقلدهما الناس ونسبوا هذا القول إلى الفلاسفة».

- «وهذه كلها خرافات وأقاويل أضعف من أقاويل المتكلمين، وهي كلها أمور دخيلة في الفلاسفة، ليست جارية على أصولهم، وكلها أقاويل ليست تبلغ مرتبة الإقناع الخطيبي، فضلاً عن الجدلي».

- «أما هذه لأقاويل كلها، التي هي أقاويل ابن سينا، ومن قال بمثل قوله، فهي أقاويل غير صادقة، ليست جارية على أصول الفلاسفة».

- «هذا المسلك في اثباته هو مسلك انفرد به ابن سينا، وليس هو مسلكاً لأحد من قدماء الفلاسفة».

(٢٠) إن من ثوابت الفكر الرشدي الاعتقاد - وهذا موقف يصادق عليه الجابري كما سرى - بأن انقطع، بخلاف الظن، هو علامة البرهان. وهذه النزعة القطعية الدوغمالية لا يمكن فهمها بدورها ما لم نأخذ بالحسبان أن الحقيقة، بله «العلوم»، عند ابن رشد «أزلة» وغير كائنة ولا فاسدة، «تتهافت التهاافت»، ص ٨٥٥، ومن ثم فإنها عندما تؤخذ عقلاً أو رجباً فإسماً تؤخذ مرة واحدة ونهائية، بدون تطوّر وتراكم في التاريخ، بل في تردّد وتحريف طردياً مع لابتعاد عن زمن تحليلها الأول عند الفيلسوف عقلاً كما عند الأنبياء رجباً.

- «هذه الطريقة لم يسلكها القدماء، وإنما أول من سلكها فيما وصلنا ابن سينا»^(٢١).

وضح إذاً، أن ابن رشد يطبق هنا على ابن سينا - بعد الإزاحة من المجال الديني إلى المجال الفلسفي - مفهوم البدعة: الإحداث على غير مثال سبق. فابن رشد، إذ يقيد الممارسة الفلسفية بمثال سبق، يرفع لها سقفاً - هو الأعلى بحكم تجسده في المنظومة الأرسطية - ويضع لها في الوقت نفسه حداً لا تستطيع مجاوزته. وبحكم التكوين الفقهي لابن رشد، فقد نستطيع هنا أن نقول إنه يحول ممارسة الفلسفة إلى ممارسة فقهية: فللفيلسوف، كالفقيه، أن يفرع لا أن يُصّل؛ وللعقل الفلسفي أن يتدخل، ولكن على منوال العقل الفقهي، أي لا كعقل مشرع، بل كعقل مشرع له. وإذا شئنا أن نستعير مصطلحاً هذه المرة من خارج نطاق الحضارة العربية الإسلامية، فإننا نستطيع، بالإحالة إلى الحضارة اللاتينية المسيحية، أن نحدّ العقل الرشدي بأنه عقل سكولائي. فهو عقل يرجع دائماً إلى مقدماته، ولكنه لا يرجع أبداً عن مقدماته. وقد يتفق له أن يراجع مقدماته، ولكن لا لينعتق منها، بل ليزداد تقيداً بها، وليبدع اجتهادات الناشزين عنها. فالعقل السكولائي عقل دائر على نفسه، يضع مستقبله في ماضيه، ويتكر مبدئي التراكم الكمي والانقطاع الكيفي على حد سواء. وحتى عندما يتنفض هذا العقل على نفسه، فإن سقف انتقاضته لوثري، لا فولثيري. فانتقاضه ابن رشد الأرسطية تقبل الوصف بأنها إحيائية، أو تطهيرية، أو تصحيحية. ولكنها لا تمثل بحال من الأحوال، خلافاً لمُدعى ناقد العقل العربي، قطيعة معرفية. فابن رشد قد عاد بالفلسفة العربية الإسلامية إلى درجة الصفر المشائية، ولكنه لم يضع المشائية نفسها في درجة الصفر. ولئن «قطع» مع ابن سينا، فلنكي يعود إلى أرسطو، لا ليعود عنه. فالرشدية نشيد ختام - رائع بكل تأكيد - لفلسفة العصر الوسيط، الإسلامي والمسيحي على حد سواء، ولكنها ليست نشيد افتتاح لفلسفة الحدثة.

ومع ذلك، فإن ناقد العقل العربي يصّر على تصعيد «قطع» ابن رشد مع ابن سينا لا إلى مستوى «قطيعة معرفية» فحسب، بل كذلك إلى مستوى قطيعة مشرقية/مغربية معمرة. وفي ذلك يقول: «إن الاتصال الظاهري بين المدرستين [= المدرسة الفلسفية في المشرق والمدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس]^(٢٢)، بوصفهما تنتمي إلى ما

(٢١) «نهايت النهايت»، ص ١٢٦، ٣٠٥، ٣١٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤١١، ٤٦٣، ٦٣٧.

(٢٢) لن ندخل هنا في نقاش حول التسمية. ولكن حسب أن نشير إلى أنه، إن يكن ثمة وجود

ابن طفيل: مؤرخ يوسع الفلسفة في الأندلس

صطلح على تسميته «الفلسفة الإسلامية» أو «الفلسفة في الإسلام»، لا ينبغي أن يخفي عنا تفصلاً أعمق بينهما... فنحن نعتقد أنه كان هناك «روحان» و «نظامان فكريان» في تراثنا الثقافي: الروح السينوية والروح الرشدية، وبكيفية أهم: الفكر النظري في المشرق والفكر النظري في المغرب، وإنه داخل الاتصال الظاهري بينهما كان هناك انفصال نرفعه إلى درجة القطيعة الاستمولوجية بين الاثنين^(٢٣).

إن لهذا لنص خطورته الخاصة لأنه يكشف عن الغائية المركزية التي توجه كل مشروع الجابري في نقد العقل العربي: التوظيف الأيدولوجي للاستمولوجيا لتحطيم وحدة النظام المعرفي لهذا العقل. ربما أن العاية تبرر اوسطة كما يقال، فإن الجابري يستسهل رفع خصومة ابن رشد مع ابن سينا حول تأويل المنظومة الأرسطية إلى مستوى القطيعة المعرفية، ويستسهل بعد ذلك رفع المستوى التمثيلي لطرفي هذه الخصومة لتصعيد اقطيعة المعرفة الشخصية المزعومة بينهما إلى قطيعة معممة، على مستوى بنية الفكر النظري، بين المشرق ككل والمغرب ككل، «روحاً» و «نظاماً» و «عقلاً».

ولكن بصرف النظر عن تضخيم الصفة التمثيلية لكل من ابن سينا وابن رشد، ويغض لنظر عن المرادفة اللامشروعة بأي وجه من الوجوه بين الروح السينوية والروح «المشرقية»، كما بين الروح الرشدية والروح «المغربية» عموماً، فإن السؤال الرئيسي الذي يطرح نفسه هو: هل تدخّل ابن رشد نفسه في الخصومة مع ابن سينا بوصفه مغرباً وممثلاً للمدرسة المغربية، أم فقط بوصفه أرسطياً ومحامياً عن العقيدة القويمة المشائية كما رأينا؟ ثم هل اقتصر تدخله على مواجهة «المشرقيين» من أمثال ابن سينا والفارابي أم اضطره أيضاً إلى مواجهة «مغربيين»، وفي عدادهم ابن الهيثم كما رأينا، وآخرون كما سنرى ثواً؟

= لملوسة فلسفية زاهرة في الأندلس. فلم يكن ثمة وجود تاريخي لأي مدرسة فلسفية في المغرب يحصر المعنى.

(٢٣) «نحن والقرآن»، ص ٣٠٥. والتسويد من الجابري الذي لا يكتفي بالتماسية برفع ذلك الانفصال المزعوم إلى «درجة القطيعة الاستمولوجية»، بل يردعه في نص تالي إلى درجة القطيعة الثقافية بإطلاق، فيؤكد بالحرف الواحد: «نحن من إنأ أمام حركة فكرية جذرية تتناول مختلف فروع المعرفة، حركة كان هدفها تأسيس ثقافة أصيلة، مستقلة عن كل ثقافة أهل المشرق» (نفسه، ص ٣٣٧. والتسويد منا هذه المرة).

أعصبية مغربية أم عصبية جابرية؟

إن كل فرضية الجابري عن المواجهة المعممة بين «المدرسة المشرقية الإشراقية والمدرسة المغربية البرهانية» لا تقوم لها استقامة منطقية إلاّ بناء على مقدمتين، كلتاها غير مسمّة:

أولاهما، أن «المدرسة افلسفية في المغرب والأندلس مدرسة واحدة بدأت مع ابن باجة وبلغت أوجها مع ابن رشد»^(٢٤).

وثانيتهما، أن هذه المدرسة واحدة فعلاً، أي متضامنة في ما بينها، غير متناقضة، ولا حتى متخالفة.

وبالفعل، إن فرضية العمل غير المجهور بها لناقذ العقل العربي، هي وجود نوع من «تضامن» أو «تفاهم ضمني» - يرفعه الجابري إلى مستوى «العصبية» - بين أعضاء المدرسة المغربية المقترضة: فعنده، ليس «المغربي» أن يخالف «مغربياً»، وليس «لمغربي» أن ينقد «مغربياً»، ما داموا جميعهم، بالضرورة، من «أهل البرهان».

ونحن نعلم أن ما نقوله خطير، ولكنّ لنا عليه دليلاً ثميناً ونادراً.

ودفعاً لكل انتباس، ينبغي أن نوضح حالاً أن هذه العصبية المغربية هي محض عصبية جابرية، وأنها لم تكن ركيزة شعورية، أو حتى لاشعورية، للتفكير ولمحكمة الأشياء والأشخاص لدى أي من أعضاء المدرسة المغربية المقترضة، بدءاً بابن باجة وانتهاء بابن رشد. فهي مسقطه عليهم إسقاطاً من خارج عصرهم، وانعكاساً لهموم وتحيّزات أيديولوجية ما كان يعرفها عصرهم. وهي ما كانت تدخل في إحداثيات إطارهم المرجعي، ولا تمثل مطلباً أيديولوجياً، أو ابستمولوجياً، للعقل العربي الإسلامي الذي كانوا يصدرون عنه جميعاً مهما اختلفت حساسياتهم وتمايزت أقاليمهم.

ولنأت الآن إلى دليلنا:

ففي «ندوة ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي»، التي انعقدت عام ١٩٧٨ في كلية الآداب بالرباط بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته، أشار البحث المغربي علي أومليل في مداخلته إلى الانتقادات التي وجهها ابن رشد إلى فلاسفة مشاركة ومغاربة لما

(٢٤) «نحن والتراث»، ص ٢٦٢.

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

ارتآه من انحرافهم عن الدستور الأرسطي. فانبرى الجابري يحتج عليه قائلاً بالحرف الواحد. «يقول الأستاذ أومليل إن ابن رشد انتقد الفلاسفة كلهم مغاربة ومشاركة، ومعنى ذلك أنه انتقد ابن باجة وابن طفيل إلى جانب الفارابي وابن سينا. وهذه دعوى خطيرة. أرجو من الأستاذ أومليل أن يأتي بكلمة واحدة ينتقد فيها ابن رشد ابن باجة، أو ابن طفيل، لأنني لم أعر على شيء من هذا في جميع كتبه»^(٢٥).

وليس يصعب علينا أن ندرك ما وجه الخطورة عند الجابري في احتمال أن يكون ابن رشد انتقد المغاربة كما انتقد المشارقة. فما ذلك لأنه ليس للمغربي أن ينتقد مغرباً فحسب، بل كذلك لأنه لو صح أن ابن رشد انتقد ابن باجة وابن طفيل كما انتقد الفارابي وابن سينا، فهذا معناه أن ابن باجة وابن طفيل ليسا «أرسطيين»، ولا بالتالي «برهانيين»، مع أنهما، بحكم كونهما «معريين»، ليس لهما إلا أن يكونا «أرسطيين» و «برهانيين» بالفطرة أو بالقدر الجغرافي. أضف إلى ذلك، أنه لو ثبت انتقاد ابن رشد لابن باجة أو لابن طفيل، أو كليهما معاً، لانهارت من أساسها فرضيته عن أن «المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس مدرسة واحدة» متصافرة وغير متخالفة. ومن هنا تحديه المتدخل المغربي أن «يأتي بكلمة واحدة ينتقد فيها ابن رشد ابن باجة أو ابن طفيل».

نقد ابن رشد لابن باجة - تبقى هناك شهادة الجابري الجزئة بأنه لم يعثر «على شيء من هذا في جميع كتبه». وهذه شهادة إن دلت على شيء فعلى أنه لم يقرأ ابن رشد، أو على الأقل لم يقرأ جميع كتبه، ولا على وجه التحديد منها كتبه «البرهانية»^(٢٦).

فلو قرأها جميعها لوقع على ما لا يقل عن عشرين شاهداً يوجه فيها ابن رشد نقداً مباشراً إلى ابن باجة ويغلطه. ولكن قبل أن نسوق هذه الشواهد، فلا بد من وقفة عن طبيعة علاقة ابن رشد بابن باجة.

(٢٥) انظر مداخلة علي أومليل تحت عنوان «التأويل والتوازن» وتعليق محمد عابد الجابري في «أعمال ندوة ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي»، مصدر آف الذكر، ص ٢٢٥ - ٢٣٥ بالنسبة إلى أومليل، وص ٢٤٨ - ٢٥١ بالنسبة إلى الجابري.

(٢٦) نميز هنا كتب ابن رشد البرهانية عن كتبه «الكلامية»، وهذه هي حصراً «فصل المقال» و «مناهج الأدلة» و «تهافت التهافت».

فالشارح الأول يدين بكل تأكيد لابن باجة بقدر غير قليل من تكوينه الفلسفي. ولكن كما أوضح المختص المغربي المميز بالدراسات الرشدية - والراحل قبل الأوان - جمال الدين العلوي، فإن مسار ابن رشد الفكري قد مرّ بصورين. ففي طور تكويني أول «كان ابن رشد ما يزال يقرأ أرسطو بعيون الآخرين، أو يتأول كلام أرسطو على ضوء تأويلات الآخرين؛ ويأتي في مقدمتهم الإسكندر وثامسطيوس من الشراح القدماء، والفارابي وابن باجة من فلاسفة الإسلام»^(٢٧). وفي طور ثانٍ، هو طور التضج انقلب ابن رشد - من خلال ما وصفناه بأنه حركة تصحيحية - على ابن باجة «يقطع» معه «يقطع» مع نفسه «بقدر ما كان في طوره الأول «باجياً أو يكاد أن يكون كذلك»^(٢٨).

ولأنّ لعرض عيّنات من انتقادات ابن رشد المباشرة لابن باجة مع تسميته باسمه:

- «وهو أمر يبتاه في غير ما موضع وبيّنا أن لسعادة القصوى، وهو النظر إلى العقل المفارق، هو بقوة تحدث في العقل النظري عند كماله شبيهة بالقوة التي تحدث عند النظر إلى الألوان، لا بقوة من نوع القوى الفكرية التي تنال بروية وفكرة، لأنه بيّن أنه ليس في العقل منا في أول الأمل، لأنّ هو بالقوة، فإنه ليس الأمر كما ظنّ أبو بكر بن الصائغ أن ذلك شيء ينال بفكرة»^(٢٩).

- «وهذا شيء قد بيّنه أرسطو في الخامسة من هذا الكتاب، حين بيّن أنه ليس يجب أن يكون حدوث الحركة بحركة ولا حدوث الكون بكون، لأنه لو كان ذلك كذلك، لم يوجد الكائن الأخير. وأفلاطون ومن تبعه من المتكلمين من أهل ملتنا وملة النصراني وكل من قال بحدوث العالم، إنما توهموا فيها بالعرض أنه بالذات، فمتعوا أن توجد لهمنا حركة قبل حركة إلى غير نهاية، فقالوا بوجود حركة أولى في الزمان. فلزمهم أن يكون قبلها حركة، فراموا أن يجدوا انفصلاً عن هذا الشك فلم يجدوه. وأكثر من أوجب الشك على أرسطو من قال إن قصده في هذا الموضع إنما هو أن يبيّن أن قبل كل حركة حركة، وإنما أتى بحد الحركة لمكان هذا، كما توهم أبو نصر في

(٢٧) جمال الدين العلوي: «المعنى الرشدي»، دار توفيق، الدار البيضاء ١٩٨٦، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢٨) جمال الدين العلوي: «لغزالي وتشكيل الخطاب الفلسفي لابن رشد»، في «مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس»، العدد الثامن ١٩٨٦، ص ٣٤.

(٢٩) ابن رشد: «تفسير ما بعد الطبيعة»، تحقيق مورييس بويج، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧، ٢٩، ص ١٢٣٠.

ابن طفيل: مؤرخ يؤمس الفلسفة لي الأئلس

كتابه في الوجودات المشفرة وغبه ممن أئى بعده كابن سينا وأبي بكر بن الصائغ^(٣٠).

- «إن هذا التماثل بين الاستعدادين [= الاستعداد الذي هو في القوة الخيالية والاستعداد الذي في العقل الهولاني] جعل ابن باجة يعتقد أن الاستعداد الموجود في المعاني الخيالية هو وحده الذي يجعل شيئاً ما معقولاً، في حين أنهما يختلفان بينهما كاختلاف الأرض عن السماء»^(٣١).

- «فهكذا ينبغي أن يفهم الأمر عن أرسطو في هذه الأشياء، لا أنه قصر في ذلك وترك شيئاً يجب ذكره في هذا العلم [= التعاليم] ولا في غيره... فهذه القوة الإلهية التي وجدت فيه كان هو الموجد للحكمة والمتمم لها... وإنما قلنا إنه الموجد والمتمم لأن ما سلف لغيره في هذه الأشياء ليست تستأهل أن تجعل شكوكاً على هذه لأشياء فضلاً عن أن تكون مبادئ. وإذ قد تبين هذا فليس في أقاويل أرسطو شيء يحتاج إلى تميم كما زعم أبو بكر بن الصائغ»^(٣٢).

- «وإذا قد تبين من أمر هذا الفلك أنه واحد، فكيف يقول ابن سينا إنه ليس في العلم الطبيعي مقدمات يتوقف منها على أن الكواكب الثابتة في فلك واحد. غير أنه قال إن الأذهب في الأمر الطبيعي أن يكون في فلك واحد. فما معنى هذا «الأذهب» - ليت

(٣٠) كتاب «السماع الطبيعي»، تحقيق جويرف بريج، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ١٩٨٣، ص ١٣٤. ولتلاحظ بالمناسبة أنه لو كان لنا أن نكلم كما نكلم الجابري نفسه لقلنا أن من يصعبهم ابن رشد «في كفة واحدة» ليسوا فلاسفة المشرق ومتكلمي وحدهم، بل وكذلك عميد «المدرسة المغربية البرهانية» ورائد الأول أبو بكر بن الصائغ [= ابن باجة] الذي يقول عنه ناقد العقل العربي في مقاله عن «ظهور الفلسفة في المغرب والأندلس» إنه [= ابن باجة] كان الإطار العرجي - ربما الوحيد - الذي «عتمده ابن رشد في قراءته لأرسطو قراءة مطابقة» (اتحن والثرث)، ص ٢٦٢، واتسويد من جابري).

(٣١) ابن رشد: كتاب النفس، ص ٤٠٦. نقلاً عن محمد المصباحي: «إشكالية العقل لدى ابن رشد»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص ٥٣. وبالمقارنة، إن هنا نباحث المغربي المختص بالدراسات الرشدية يؤكد هو الآخر على وجود قطيعة رشدية مع لباجية، وأن حصيلة هذه القطيعة كانت «شرحه الكبير لكتاب النفس الذي يمثل تنويهاً لتطور نظريته السيكلوجية» بالتراجع عن «أطروحة ابن باجة» ونقلها (المصدر نفسه، ص ٥١ - ٥٢).

(٣٢) ابن رشد: «تلمخيص الآثار العلوية»، مصدر آف الذكر، ص ١٤٥ - ١٤٦. ولتلاحظ أن ما يأخذه ابن رشد على ابن باجة في هذا النص أنه ليس مثله أرسطياً لامشروطاً، وأنه لم يسلم مثله بالتمامية الإلهية للمعلم الأول والأخير.

شعري! وقد نجد أياً بكر الصائغ قد ساعده على ذلك في بعض التعاليق إليه، ومكانه من العلم مكانه»^(٣٣).

«قلت هذا الذي ذكرته في العقل الهولاني هو شيء كان ظهر لي قبل. ولما تعقبت الفحص من أقاويل أرسطو ظهر لي أن العقل الهولاني ليس يمكن أن يكون الجوهر القابل للقوة التي هي شيء بالفعل أصلاً. . . وإنما هو أول من قاله أبو بكر بن الصائغ فغلطنا. وهذا كله قد بينته في شرحي لكتاب أرسطو «في النفس». فمن أحب أن يفهم على حقيقة رأيي في هذه المسألة، فعليه بذلك الكتاب»^(٣٤).

«لكن ما غلط هذا الرجل [ابن باجة] وغلطت نحن أيضاً في أول أمرنا هو أن المحدثين يدعون جانباً كتب أرسطو ويفحصون كتب الشراح، ولا سيما ما يتعلق منها بشرح كتاب «النفس»، لأنهم يعتقدون أن هذا الكتاب يتعذر فهمه»^(٣٥).

شهادة ابن الإمام - بدون أن نكون استوفينا جميع التصوص الرشدية في نقد ابن باجة - وهو النقد الذي يؤكد الجابري أنه لم يقع له على أثر في جميع كتب بن رشد - فإننا سنلاحظ أن ابن رشد ليس وحده من انفراد بانتقاد «المشروع الباجي». فثمة عضو بارز آخر في «المدرسة الفلسفية المغربية»، وهو ابن طفيل، قد أجرى لهذا المشروع محاكمة نقدية لا تخلو من قسوة. ولكن بما أن ذلك سيكون موضوعاً للبحث في الفقرة التالية، فمن نعرض له ههنا، مكتفين بالتنويه بأن موقف ابن طفيل النقدي من ابن باجة ينهض قرينة إضافية - بعد موقف ابن رشد نفسه - على أن المدرسة الفلسفية في المغرب - مثلها تماماً مثل المدرسة الفلسفية في المشرق - ليست مدرسة وحدة في التفكير، بل مدرسة اختلاف في التفكير، فضلاً عن أن روابطها «الخارجية» بالمدرسة

(٣٣) ابن رشد: «شرح السماء والعالم»، ص ٥٤. نقلاً عن حسن حنفي: دراسات إسلامية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٠٢. وإشارة ابن رشد هنا إلى وجود نوع من «تجاهم ضمني» بين ابن سينا وابن باجة ينهض قرينة على أن ابن سينا لم يكن غالباً تمام الغيب عن الحقل المعرفي لابن باجة كما يدعي ناقد العقل العربي.

(٣٤) ابن رشد: «تلخيص كتاب النفس»، تحقيق سالبادور غومش نوغاليس، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ١٩٨٥، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٣٥) ابن رشد: «العقل والفكر»، ترجمة ألان دي ليبيرا، مصلو آف الذكر، ص ١٣٩. ويختم ابن رشد هذا النص بالقول: «والخطأ في ذلك كله خطأ ابن سينا الذي لم يحاك أرسطو إلا في جلده، ولكنه غفل في الباقي كله، ولا سيما في ما بعد الطبيعة، إذ شاء أن يأتي بكر شيء من عنده».

المشرقية قد تكون أقوى وأوثق من الروابط «الداخلية» في ما بين أعضائها. وبما أن الأمر يتعلق أولاً وأخيراً بحضور السينوية في المغرب، فإننا نزعّم أن قوة هذا الحضور - وليس ساليته المطلقة كما يؤكد ناقد العقل العربي - هي وحدها ما يمكن أن تفسر «قطيعة» ابن رشد لا مع سينوية «الخارج» فحسب، بل مع سينوية «الداخل» أيضاً. فسينوية ابن باجة المكتومة أو المتنكرة تحت قناع فارابي، وسينوية ابن طفيل المعجور بها - كما سنرى - هما وحدهما اللتان يمكن أن تفسرا ضراوة ابن رشد في نقد ابن سينا (ومعه الفارابي) وفي بيان انحرافه عن دستور أرسطو. وبعبارة أخرى، ليس «سوء سمعة» ابن سينا في المغرب والأندلس، بل حسن هذه السمعة هو ما يقدم المفتاح للغز، الثورة الرشدية المضادة للسينوية. وقبل أن نأتي في الفقرة التالية إلى شاهد الإثبات الذي يمثل من وجهة النظر هذه ابن طفيل، فلتكن لنا وقفة أخيرة مع شاهد النفي الذي يفترض - بحسب دعوى الجابري - أنه يتمثل بابن باجة. وبالفعل، لقد وجدنا ناقد العقل العربي يدلل على سوء السمعة المغربية لابن سينا بكون ابن باجة «قد تجاهله بينما نحدث عن الفارابي وأخذ عنه». وعدا التوكيد على أن «ابن سينا مسكوت عنه تماماً» في الخطاب الفلسفي الباجي، فإن الجابري يستشهد بقوله لابن الإمام، صاحب ابن باجة وتلميذه، يبرز فيها «تفوق ابن باجة في الرياضيات والفلك والطبيعات» وينوه بـ «إدراكه في العلم الإلهي وفي ما قبله من العلوم الموطئة له»، ويعقد له عن طريق القدرة لواء التفوق على ابن سينا وغيره من فلاسفة المشرق بقوله «وشبه أنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم؛ فإنه إذا قرنت آقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالي، وهما اللذان فُتح عليهما بعد أبي نصر في المشرق في فهم تلك العلوم، ودوّنا فيها، بأن لك الرجحان في آقاويله وفي حسن فهمه لأقاويل أرسطو»^(٣٦).

وبما أن استدلال الجابري يستمد قوته هنا من قوة الشاهد بحد ذاته، فلندقق إذاً بهذا الشاهد.

فهو بحرفه شاهد صحيح، إذا عطينا بالصحة هنا مطابقة كل عبارة فيه لتظيرتها في النص الأصلي. ولكن هذه المطابقة إن كانت تصدق على كل عبارة عبارة، لا تصدق على الشاهد في جملة. فالشاهد، كما يورده الجابري مجتزأ ومقطّع لأوصاف ومعاد

(٣٦) «نحن والتراث»، ص ٢٥٢

تأصيله بحيث ينطق بغير منطوقه. فلنعد إذاً تثبيت الشاهد بتمامه، ولا سيما أن فائدته تتجاوز فحص استدلال الجابري بما تسلطه من ضوء على الشروط التاريخية لتشكيل الخطاب الفلسفي في الأندلس:

«قال الشيخ الوزير أبو الحسن العالم الكامل الفاضل علي بن عبد العزيز بن الإمام في صدر المجموع المحتوي على الأقاويل الموجودة من أقاويل الشيخ الوزير الكامل الفاضل أبي بكر محمد بن باجة الأندلسي رحمه الله:

«هذا مجموع ما قيّد من أقاويل أبي بكر في العلوم الفلسفية. وكان في ثقافة الذهن ولطف الخوص على تلك المعاني الجليلة الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره ونادرة الفلك في زمانه. فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة ببلاد الأندلس في زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالمشرق ونقل من كتب الأوائل وغيرها، نضر الله وجهه، وتردّد النظر فيها، فما انتهج لناظر قبله سبيل وما يتقيّد عنهم منها إلا ضلالات وتبديل، كما تقيّد عن ابن حزم الأشبيلي، وكان من أجل نظار زمنه. وأكثرهم لم يقدم على إثبات شيء من خواطره، وكان أحسن منه نظراً وأثقب لنفسه تمييزاً. وإنما انتهجت سبل النظر في هذه العلوم بهذا الحبر وبملك بن وهيب الإشبيلي، فإنهما كانا متعاصرين، غير أن ملكاً لم يتقيّد عنه إلا قليل في أوائل الصناعة الذهنية، ثم أضرب الرجز عن النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها، لما لحقه من لمطالبات في دمه يسبها، ولقصده الغلبة في جميع محاوراته في فنون المعارف. وأقبل على العلوم الشرعية فرأس فيها أو زاحم ذلك. لكنه لم يكن يلوح على أقواله ضياء هذه المعارف ولا قيّد منها شيئاً بقي بعد موته.

«وأما أبو بكر، رحمه الله، فنهضت به فطرته الفائقة ولم يدع النظر والتتبع والتقيد لكل ما ارتسمت حقيقته في نفسه على أطوار أحواله وكيفما تصرّف به زمنه، وأثبت في الصناعة الذهنية وفي أجزاء العلم الطبيعي ما يدلّ على حصول هاتين الصناعتين في نفسه صورة ينطق عنها ويفصل ويركب منها فحس المستولي على أمرها. وله تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة تدلّ على بروعه في ذلك الفن. وأما العلم الإلهي فلم يوجد في تعاليقه شيء مخصص به اختصاصاً تاماً، إلا نزعات تستقرّ من قوله في «رسالة الوداع» و«اتصال الإنسان بالعقل الفعّال» و«إشارات مبذّدة في أثناء أقواله»، لكنها في غاية القوة والدلالة على براعته في ذلك العلم الشريف الذي هو غاية العلوم ومستهاها، وكل ما قبله من المعارف فهو من أجله وتوطئة له. ومن المستحيل أن يبرع في التوطئات وتفصيل له

أين طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

أنواع الوجود على كمالها، ويكون مقصراً في العلم الذي هو الغاية وإليه كان انتشوق السابق بالطبع لكل ذي فطرة بارعة وذو موهبة إلهية ترقيه عن أهل عصره وتخرجه من الظلمات إلى النور، كما كان رحمه الله. وقد صللنا هذا المجموع بقول له في الغاية الإنسانية على نهاية من الوجازة تعرب عما أشرنا إليه من إدراكه في العلم الإلهي وفي ما قبله من العلوم الموطئة له. وعسى أنه قد علق فيه ما لن نعثر عليه. ويشبه أنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم، فإنه إذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سين والغزالي، وهما اللذان فُتح عليهما بعد أبي نصر في المشرق في فهم تلك العلوم ودوننا فيها، بأن لث الرجحان في أقاويله وفي حسن فهمه لأقاويل أرسطو. والثلاثة أئمة من دون ريب وآتون ما جاء به من قبلهم من برع الحكمة عن تفنن تمتاز به أقاويلهم ويتواردون فيها مع السلف الكريم^(٣٧).

ولا يعسر علينا أن ندرك لِمَ امتنع ناقد العقل العربي عن إيراد نص ابن الإمام يتمامه ويترتيبه: فلو فعل لكان النص، بمحاوره الأربعة، نطقاً بعكس ما أنطقه به.

١- في المحور الأول يُرجع النص بديهية التفكير الفلسفي في الأندلس إلى عهد الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) بما استجلبه مما «صُنِفَ بالمشرق» من «الكتب الفلسفية» ومما نُقل فيه من «كتب الأوائل وغيرها». فبدلاً إذاً من قطيعة مزعومة، فإن النص يؤكد على الاستمرارية الفلسفية، والمعرفية بصورة أعم، مع المشرق؛ فالعلوم الفلسفية لم تنبت إذاً في المغرب كما الفطر، ولا تخلصت من عدم. بين كانت ولادتها فيه بالتلاقح مع ما استجلب منها من المشرق^(٣٨).

(٣٧) أورد نص ابن الإمام ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر آلف الذكر، ص ٥١٥ - ٥١٦. وأورده أيضاً، مع تعديل طفيف، ماجد فخري كملحق لما حققه من «رسائل ابن باجة الإلهية»، در النهار، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩١، ص ١٧٥ - ١٧٧. والجابري يحيل إلى ماجد فخري ولا يحيل إلى ابن أبي أصيبعة.

(٣٨) والواقع أن ما استجلب منها هائل فقد ذكر بالثيا في «تاريخ الفكر الأندلسي»، نقلاً عن دوزي وعن مؤرخين أندلسيين قدامى، أن أحداً من أمراء الأندلس وخلفائها لم يطلب الكتب بمثل اهمة التي طلبها بها الحكم الثاني. «فقد كان له في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عمال مكلفون باستنساخ كل الكتب القيمة، قديمة كانت أو حديثة، وكان قصره حافلاً بالكتب وأهلها، حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه إلا نساخون ومجلدون ومخرفون...». وقد قلر بعض المؤرخين عدد مجلدات مكتبة بما يربو على أربعمئة ألف كتاب» (أنخل بالثيا: «تاريخ الفكر الأندلسي»، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥، ص ١١١).

٢ - وفي المحور الثاني يصدر النص حكم قيمة سالب على «شغل» ابن حزم الأندلسي، لأنه، على كونه «من أجل نظار زمنه»، لم يبرأ في ما تقيّد عنه من «الضلالات» التي وقع فيها من سبقه إلى الخوض في الصناعة الذهنية الفتية في الأندلس. وقد كان خيراً له لو امتنع عن «إثبات خواطره» على القرواس على نحو ما امتنع من «كان أحسن منه نظراً وأثقب لنفسه تمييزاً». والحال، أن هذا النقد الموجه من قبل ابن الإمام «المغربي» إلى ابن حزم «المغربي» كان يتعين بالنسبة إلى ناقد العقل «المشرقي» أن يبقى مسكوتاً عنه، ولا سيما أنه سيعمد في نص لاحق، كما سبى، إلى تطويب ابن حزم راتداً للمدرسة الفلسفية المغربية، وإلى الجمع بينه وبين ابن رشد في مقولة تصنيفية واحدة سيعمدها باسم «الحزمية - الرشدية»^(٣٩).

٣ - وفي المحور الثالث يشير النص إلى أن، لوضعية التي رأت الفلسفة النور فيها في المغرب، وفي الأندلس حصراً، بتأخير قرنين عن لدها في المشرق، كانت وضعية قسمة. فالمتعاطي الأول للفلسفة في الأندلس، فضلاً عن ابن باجة، وهو ملك بن وهيب الإشبيلي، اضطر إلى الإضراب عن النظر وعن التقييد في الصناعة الذهنية وعن التكلم في العلوم الفلسفية «لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها». وإذا كان النص لا يشير إلى المتاعب التي واجهها ابن باجة نفسه، فلأن ابن أصيبعة كان أشار من فاتحة كلامه عن «ابن باجة»، وقبل أن يورد نص ابن الإمام مباشرة، إلى أن أبا بكر بن الصائغ، على كونه «في العلوم الحكمية علامة وقته وأوحد زمانه»، قد «بلى بمحن كثيرة وشناعات من العوام، وقصدوا هلاكه موات وسلمه الله منهم»^(٤٠). والواقع أن المشهد الذي كانت تقدمه الأندلس في قرن تمخض الفلسفة (= القرن الخامس الهجري) لم يكن مشهداً ربيعياً للتفتح والازدهار، بل مشهد شتوي اضطرت فيه براعم الفلسفة إلى أن تتفتح لا في الهواء الطلق، بل في الهواء المحبوس لبعض قصور الأمراء بعيداً عن الأنظار: أنظار العامة وأنظار الفقهاء على حد سواء. وعلى حد التوصيف الماركسي الشهير، فإننا نستطيع أن نتحدث في الأندلس عن «بؤس الفلسفة»، ولكن ليس بؤسها بالإضافة إلى نفسها، بل بؤسها بالإحالة إلى موقعها في المجتمع. فاجتماعياً كانت وضعية الفلاسفة الأندلسيين أشبه ما تكون بوضعية المنبوذين الهنود. فقد كانت لعنة

(٣٩) ب.ع.ج، ص ٥٣٦.

(٤٠) «حيون الأنباء»، ص ٥١٥.

الفلسفة تطاردتهم لا مدى حياتهم فحسب، بل في مماتهم أيضاً. والشاهد يقدمه ابن باجة نفسه. فعدا عما ابتلي به من محن في حياته، فإن السيرة التي وضعها عنه ابن جلدته الفتح بن حاقان هي أشنع سيرة في نوعها في تاريخ سير الأعلام. فعدا أنه لم يترجم له إلا في نهاية كتابه زراية به، فقد قال في التعريف به: «هو رمد جفن الدين، وكمد نفوس المهتدين، شتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً... ناهيك من رجل لم يتطهر من جنابة، ولا أظهر مخيلة إندية... ولا أقر بباريه ومصوره، ولا قرّ عين تباريه في ميدان تهوره. الإساءة إليه أجدي من الإحسان، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان. نظر في تلك التعاليم، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله لحكيم العليم، ونبذ وراء ظهره ثاني عطفه، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واقتصر على الهيئة، وأنكر أن تكون له إلى الله تعالى فيته، وحكم للكواكب بالتدبير، واجترم على الله اللطيف الخبير... قد مُحي الإيمن من قلبه فما له فيه رسم، ونسي الرحمن لسانه فما يمر له عليه اسم»^(٤١).

وبما أن نشأة التفكير الفلسفي في الأندلس قد ارتبطت، بموجب شهادة ابن الإمام، بما استجلبه الحكم من «غرائب ما صنف بالمشرق»، فإن صورة «يؤس الفلسفة» في الأندلس لا تكتمل ما لم نأخذ بعين الاعتبار المصير الذي آلت «الكتب الفلسفية» وسائر «كتب الأوائل» بعد وفاة الحكم الثاني وتسلبت الحاجب المصور بن أبي عامر على الحكم في زمن خلافة ابن الحكم، هشام المؤيد بالله، الذي كان في حينه غلاماً في التاسعة من العمر. ولنترك هنا الكلام لشاهد عيان أندلسي هو الآخر، غنيّا القاضي صاعد صاحب «طبقات الأمم» الذي كتبه، بتصريحه، سنة ٤٦٠هـ. فبعد إشادته بالحكم الثاني وبما استجلبه «من ديار المشرق» من «عيون التواليف الجلييلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة» حتى «جمع فيها ما كان يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في الأزمان لطويلة» - مما حرك «الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذهبهم» - «توفي في شهر صفر من سنة ست وستين وثلاثمئة، وولي بعده هشام المؤيد بالله وهو يومئذ غلام لم يحتلم بعد، فتغلب على تدبير ملكه بالأندلس حاجبه أبو عامر... وعمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها، وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصه من أهل

(٤١) الفتح بن حاقان: «قلائد العقيان»، مطبعة التقدم لجمعية، القاهرة ١٣٢٠ هـ، ص ٣١٣.

الدين، وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل، حاشى كتب الطب والحساب، فلما تميّزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة بمذاهب الأندلس - إلا ما أفلت منها في أثناء الكتب، وذلك أقلها - فأمر بإحراقها وإفسادها، فأحرق بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة، وعيّرت بضروب من التغاير. وفعل ذلك تحجباً إلى عوام الأندلس وتقيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بالسنة رؤسائهم، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة، مظنوناً به الإلحاد في الشريعة، فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخمدت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم»^(٤٢).

وقد اقترنت محارق الكتب، التي غدت تقليداً متكرراً في الأندلس، بالإرهاب. في ذلك يقول مصنف «نفع الطيب»: «كل العلوم لها عندهم [= أهل الأندلس] حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهر بها خوف العامة، فإنه كلما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشغل بالتنجيم» أطلقَتْ عليه اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زلَّ في شبهة وجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة. وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت. وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن»^(٤٣).

ولا شك في أن تقديرنا لعطاء فلاسفة الأندلس سيزداد من جراء ذلك ولن ينقص. ولكن هذا التثمين لشجاعتهم الفكرية والأخلاقية لا ينبغي أن يمنعنا من أن نرى الوضعية الفلسفية في الأندلس على حقيقتها. ففلسفة قد عاشت في الأندلس برغم عتو الإرهاب، ولكنها دفعت لذلك ثمناً غالياً: فمن جهة أولى تَشَرَّتْ يأس على الذات، ومن الجهة الثانية ازدواجية عضال ما بين فكر الباطن وخطاب الخارج. وينهض شاهداً

(٤٢) صاعد الأندلسي: «طبقات الأمم»، تحقيق حياة العيد بو علوان، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٤٣) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: «نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٤٩، ج ١، ص ٢٠٥.

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

على التشرنق على الذات الخطاب الفلسفي لابن باجة الذي ترجع بالإشكالية الفارابية من «تدبير المدينة العاضلة» إلى «تدبير المتوحد». أما لازدواجية فشاهدنا ثنائية الخطاب الرشدي ما بين مصنفات كلامية «عامية» ومصنفات برهانية «خاصية»^(٤٤). والواقع أنه حتى تعبير «خاصية» يبدو هنا غير مطابق. فالوضعية القمعية الدائمة التي عاشت في ظلها الفلسفة الأندلسية ما حالت فقط بينها وبين أن تكون «عامية» أو «جمهورية» - فهذا لم يكن شأن الفلسفة حتى في المشرق - ولكن كذلك بينها وبين أن تكون «خاصية». فالفلسفة المقموعة في الأندلس بقيت إفرادية يتناقلها - على تقطع ووفق هوى سلطان اللحظة الحاكمة - فيلسوف عن آخر في السر والخفاء، بدون أن تتاح لها الشروط الموضوعية لتركم تاريخي ولتطور عضوي نظامي. وبعبارة أخرى، إن الفلسفة المصنوعة في الأندلس - فضلاً عن تلك المعدومة الوجود في المغرب - لم تفلح، بصرف النظر عن العبقورية الشخصية للفلاسفة الأندلسيين، في أن تتحول إلى مشروع ثقافي. ولهذا، فإننا نستبق الأشياء لنقول سلفاً إن الصحيح النظري الذي يشيره ناقد العقل العربي حول ما سيسميه «المشروع الثقافي الأندلسي المغربي» - الذي ستكون لنا إليه عودة مفصلة - يبقى في أحسن الفروض ضرباً من الإسقاط الرضخي من الحاضر على الماضي^(٤٥).

٤ - في المحاور الرابع، وأخير يتضمن النص تقييماً لابن باجة ولشغله في «الصناعة الذهنية» يختلف اختلافاً بيناً عن ذلك الذي يوحى به الجابري لقارئه. فمن خلال التدخل في ترتيب النص وفصل عباراته عن بعضها بعضاً ووضع بعضها بين مزدوجين، يخرج قارئ الجابري بانطباع يقيني بأن ابن باجة كان «متفوقاً» في إدراكه في لعلم الإلهي وفي ما قبله من العلوم الموطنة له إلى درجة أنه «إذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالي...» بأن لك الرجحان في أقاويله وفي حسن فهمه لأقاويل أرسطو.

ولقد قلنا إن النص، على كونه صادقاً بحرفه، متلاعب به. فابن الإمام، على حماسه له «صديقه وأستاذه»، لا يؤكد على «تفوقه» بقدر ما يؤكد على تقصيره في

(٤٤) انظر تحليلاً جيداً لهذه الازدواجية أو لهذه «التكتكة» لرشدية مي: مصطفى حجة: «انكسار والصيرورة في العالم العربي الإسلامي»: Pensée et Devenir du monde Arabe - Islamique، منشورات لارماتان، باريس ١٩٩٧، ولا سيما ص ٢٣ - ٢٧.

(٤٥) لا ننس أن الرغبة يحكمها، بحسب الرسم المرويدي، مبدأ اللذة، لا مبدأ الواقع.

العلم الإلهي . وذلك ما تفصح عنه العبارة التي أسقطها الجابري من الشاهد : «وأما العلم الإلهي فلم يوجد في تعاليقه شيء مخصوص به اختصاصاً تاماً ، إلا نزعات تستقر من قوله في «رسالة الوداع» و «انصال الإنسان بالعقل الفعّال» وإشارات مبددة في أثناء أقاويله . والحال ، أن العلم الإلهي ، في نظر ابن الإمام ، هو «العلم الشريف الذي هو غاية العلوم ومستهاها ، وكل ما قبله من المعارف هو من أجله وتوطئة له» . فمن لم يتعاطى العلم الإلهي لم يرق إداً إلى مرتبة الفيلسوف التام ، بحسب توصيف أبي سليمان السجستاني كما كنا رأينا . ومن هنا ، يأخذ «الصدق» و «التلميذ» على عاتقه أن يدافع عن صديقه وأستاذه ، ليؤكد أنه وإن لم يتقيد عنه «شيء مخصوص» في العلم الإلهي فإن «الترعات» و «الإشارات المبددة» التي وردت «في أثناء أقاويله» تكفي للدلالة على «إدراكه في العلم الإلهي» . فابن باجة «مدرك» ، أي متفقه في العلم الإلهي حتى وإن لم ينتج فيه . فعلم ابن باجة الإلهي هو علم بالقوة ، لا علم بالفعل . وما دام ابن باجة قد دبل على بررعه في «العلوم الموطئة للعلم الإلهي» فما كان له ، لو تأتى له أن ينتق من القوة إلى الفعل ، أن يكون «مقصراً في العلم الذي هو الغاية» . أما لماذا لم يتم ذلك الانتقال ، وأما لماذا يفعل ابن باجة «إدراكه» و «براعته» في العلم الذي هو سيد العلوم ، فذلك ما يسكت عنه النص ، وقد يكون التفسير متضمناً هنا في سياق النص . فمعاصر ابن باجة ، ملك بن وهيب الإشبيلي ، «كان أضرب عن النظر في هذه العلوم لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها» . فهل يكون ابن باجة قد امتنع بدوره عن الخوض في العلم الإلهي ، لأعلى سبيل الإشارات المبددة - للسبب نفسه ، ولا سيما أنه كان عانى هو نفسه ما عاناه من «شغاعات العوام» ؟

تبقى هناك المقارنة مع ابن سينا والغزالي . وهنا أيضاً نستطيع أن نتكلم على تلبس الجابري على قارته . فهو يبتسر النص ليوحى لقارته بـ «رجوع أقاويل» ابن باجة في المطلق على «أقاويل ابن سينا والغزالي» وسائر «فلاسفة المشرق» . والحال ، أن النص لا يتحدث إلا عن تمكّن ابن باجة من «الصناعة الذهنية» (= لمنطق) و «أجزاء العلم الطبيعي» وتركيبه بينها «فعل المستولي على أمرها» . وبالإضافة إلى حصر هذا التمكن بـ «الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم» ، فإن ابن الإمام يوضع هذا التمكن في سياق من الاستمرارية - لا القطعية - مع فلاسفة المشرق ، وفي مقدمتهم ههنا أبو نصر الفارابي الذي «يشبه أنه لم يكن بعد [-] مثله» . وذلك يصدق أيضاً على ابن سينا والغزالي ، و «هما اللذان فتح عليهما بعد أبي نصر في لمشرق في تلك العلوم» .

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

فرجحان أقاويل ابن باجة في هذه العلوم هو بالنسبة إليهما لا هليهما. وتلبساً على القارئ بصدد هذه النقطة بالذات يحذف الجاهري من النص عبارته الختامية التي تقول «والثلاثة أئمة دون ريب، وآتون ما جاء من قبلهم من بارع الحكمة هن تفنن تمتاز به أقاويلهم ويتواردون فيها مع السلف الكريم». فما أبعدنا في هذا النص عن «سوء سمعة» مزعومة لابن سينا في الأندلس! فالنص الذي كتبه تلميذ أندلسي عن أستاذه الأندلسي، يقرّ بـ «الإمامية» لابن سينا جنباً إلى جنب مع الفارابي والغزالي^(٤٦). ويعترف لثلاثتهم بالمرجعية والمعبرة في كل ما جاء من «السلف الكريم» من «بارع الحكمة»، بالإضافة إلى الابتكار و «التفنن» الذي «تمتاز به أقوالهم». ولجدير بالذكر هنا أن ابن الإمام نفسه ختم حياته بالارتحال إلى المشرق - «المقطوع معه» تبعاً لفرضية ناقد العقل المشرقي - طلباً للعلم الفلسفي في موطنه الفعلية.

ابن طفيل وتاريخ قمع الفلسفة في الأندلس

لم يكن ابن رشد، الذي بلغت الفلسفة في الأندلس على يديه ذروتها ونهايتها معاً، هو «المغربي» الوحيد الذي سدد إلى ابن باجة، مؤسس الفلسفة في الغرب الأندلسي، ضربات نقدية متصاعدة في حديثها - كما رأينا - طرداً مع ميل «المتن الرشدي» إلى الاستقلال بنفسه أو إعادة تأسيسها بالأحرى في تبعية مطلقة للمعلم الأول. فابن طفيل، الذي لعب دور «الحد الأوسط» في الثلاث الفلسفي الأندلسي، ارتد هو الآخر نحو ابن باجة يحاسبه محاسبة نقدية أقرب إلى العسر منها إلى اليسر، ولكن من موقع معاكس تماماً لموقع ابن رشد. فهذا الأخير حمل ابن باجة مسؤولية زلاته «السينوية» في شروحه لأولى للعقيدة القويمة الأرسطية. أما ابن طفيل فقد انتقد على العكس ابن باجة لأنه لم يكن سينوياً بما فيه الكفاية، ولم يرق «بمستوحده» إلى مقام «العارف» السينوي بـ «أسرار احكمة المشرقية».

وحتى نستوعب دلالة هذا النقد لا بد من أن نعيد بناءه في سياقه. فابن طفيل يبدو وكأنه فهم منذ وقت مبكر طبيعة الفعل الفلسفي: الارتداد الدائم للفلسفة نحو تاريخها

(٤٦) لا غرو في أن يحضر الغزالي هنا إلى جانب الفارابي وابن سينا. فالغزالي هنا ليس «حافر قبر الفلسفة»، وليس صاحب «تهافت الفلاسفة»، بل هو غزالي «مقاصد الفلاسفة». وفي - كتب ابن الإمام رسالته في العام ٥٣٠هـ - كانت كتب الغزالي، مثلها مثل كتب الفلاسفة، موضوع مصادرة وتحريق في الأندلس العرابية، كما سنرى لاحقاً.

لتصل وتقطع، ولتستعيد ولتتجاوز. فكل فيلسوف هو بالضرورة مؤرخ للفلسفة، إن لم يؤرخ لأعلامها ومدارسها، فلا غنى له عن أن يؤرخ لمقولاتها ومفاهيمها، وإن لم يفعل علناً، فلا بد من أن يكون فعله ضمناً. فالمقولات والمفاهيم الفلسفية، على عكس العلمية الخالصة، لا تموت، بل هي على الدوام قيد «نشأة مستأنفة» بحسب التعبير الخلدوسي الشهير، وذلك هو السر أصلاً في الحيوية المدهشة لأسطورة الفلسفة أو الحكمة المشرقية. فضياعها هو إغراء دائم باكتشافها، وعدم وجودها هو دعوة مفتوحة باستمرار إلى إيجادها. وبهذا المعنى يمكن أن نقول عن ابن طفيل إنه مؤرخ مزدوج للفلسفة. ففي أثره الفلسفي اليتيم «رسالة حي بن يقظان» يمارس فعلاً تاريخياً حقيقياً برصده لمصائر الفلسفة في الغرب الأندلسي، ويمارس فعلاً تاريخياً ضمناً بإعادة بنائه «أسرار الحكمة المشرقية». وفي كلا الفعلين «يتفلسف»، وتفلسفه لا يخلو من أصالة وتجديد كما سنرى برغم عتق المادة التاريخية التي بين يديه. ومن منظور هذه العلاقة الصميمية بين الفلسفة وتاريخها، فإن مساهمة ابن طفيل المتميزة في رسالته عن حي بن يقظان، قابلة لأن تلخص بالمفارقة التالية: لا شيء جديد تحت شمس الفلسفة، وكل شيء جديد تحت شمس الفلسفة.

إن أول ما يفعله ابن طفيل في رسالته أنه «يقدم في المدخل الذي كتبه لها ما يشبه أن يكون موجزاً لتطور العلم والفلسفة في الأندلس إلى عهده، وذلك في عبارات مركزة يقول فيها: «... وذلك إن من نشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفذة، قيل شيوخ علم المنطق والفلسفة فيها، قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم (= الرياضيات) وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً، ولم يقدرُوا على أكثر من ذلك. ثم خلف من بعدهم خلفٌ زادوا عليهم بشيء من علم المنطق، فنظروا فيه ولم يقض بهم إلى حقيقة الكمال (...). ثم خلف من بعدهم خلفٌ آخر أحقق منهم نظراً وأقرب إلى الحقيقة. ولم يكن فيهم أثقب ذهنًا ولا أصبح نظراً ولا أصدق رؤية من أبي بكر بن الصائغ (= ابن باجة). غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزان علمه وبث خفايا حكمته. وأكثر ما يوجد له من التأليف إنما هي غير كاملة، ومخرومة من أواخرها، ككتابه «في النفس» و«تكميل المتوحد» وما كتبه في المنطق والطبيعات. وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلصة (...). وأما من كان معاصراً له ممن يوصف بأنه في مثل درجته، فلم نر له تأليفاً»^(١٧).

(٤٧) «نحن والتراث»، ص ٢٤٢.

لقد تعمّدنا هنا أن نسوق النص لا كما كتبه ابن طفيل، بل كما اختزله الجبري. فما دمن في محصلة الحساب يصدد مشروع لنقد النقد، فلا غنى لنا باستمرار عن وساطة قراءة الجابري في قراءتنا لتراث العربي الإسلامي. والحال، أن الكيفية التي اختزل بها الجابري النص أتاحت له أن يمرر على قارئه دعويين هما على طرفي نقيض مما أراد أن يقوله النص الأصلي لابن طفيل. وأولى هاتين الدعويين أن «المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس مدرسة واحدة» ومتضامنة «بدأت مع ابن باجة» الذي «كان له بعد ولم يكن له قبل»، وتكاملت مع ابن طفيل، و «بلغت أوجها مع ابن رشد»^(٤٨). وثانيتها أن هذه المدرسة المغربية الأندلسية «مدرسة مستقلة تماماً عن المدرسة - أو المدارس - الفلسفية في المشرق»، لأن لها «منهجها الخاص ومفاهيمها الخاصة وإشكالياتها الخاصة أيضاً»^(٤٩). فهي فلسفة قامت على أساس علمي، لا على أساس كلامي أو غنوصي كما الحال في فلسفة المشرق. ومن هذا المنظور تحديداً فإن «المدخل الذي كتبه ابن طفيل لرسائله «حي بن يقظان»، يمثل «شهادة بالغة الأهمية»، لأنه يحدد تطوّر الفكر العلمي والفلسفي في الأندلس في ثلاث مراحل: مرحلة الرياضيات، ثم مرحلة المنطق (والطبيعات)، وأخيراً مرحلة الفلسفة»^(٥٠).

نحن من جديد إذاً، مع دعوى «مدرسة مشرقية إشرافية، ومدرسة مغربية برهانية»^(٥١)، ولكن هذه المرة بشهادة ابن طفيل المفترضة.

تقول «المفترضة» حتى لا نقول «المزورة»، ذلك أنت لو أعدنا بناء نص ابن طفيل بتمامه وحررناه من علامات الحذف (. .) لوجدناه ينطق بعكس ما ينطق به اختزال الجابري له.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٢. هذا ويعرّد الجابري في نص نال إلى التوكيد على «أن ظهور الفلسفة في الأندلس قد جاء في سياق يختلف تماماً عن السياق الذي ظهرت فيه الفلسفة في المشرق». فعلى حين أن التفكير الفلسفي المشرقي لم يكن يمر بالضرورة عبر دراسة الرياضيات والطبيعات، بل كان يقفز مباشرة إلى الإلهيات، لم تظهر الفلسفة في الأندلس إلا بعد أن انتكس الناس، لمدة قرن كامل، على دراسة الرياضيات والفلك والمنطق، مما أتاح لعلم أن يعرّد، كما كان مع أرسطو، الأساس الذي تبني عليه الفلسفة صرحها» (التواتر والحدثة، ص ١٨٦ - ١٨٧).

(٥١) المصدر نفسه، ص ٢٤٣. والتسويد من الجابري.

فابن طفيل، في عرضه لموجز لتاريخ الفلسفة في الأندلس، يحصر كلامه بـ «هذا الصقع»، ولا يستثبث للمدرسة الأندلسية بعداً «مغريباً» - هو بحكم المصطلح التاريخي والجغرافي معاً - نظير ما يفعل الجابري في توهيمه على قارئه بما يسميه ويعيد تسميته «المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس».

وابن طفيل، في نصه الأصين، لا يؤرخ لـ «تطور الفكر العلمي والفلسفي في الأندلس»، بل يؤرخ لغياب هذا التطور، أو حتى انعدامه. وبكلمة واحدة، إنه يؤرخ لـ «بؤس الفلسفة» في الأندلس.

وابن طفيل لا يؤرخ للخطاب الباجي بوصفه «بداية لخطاب فلسفي جديد» كما يؤكد الجابري^(٥٢)، بل يؤرخ له على العكس كخطاب فسفي قلق العبارة، متلعثم، لا يعطي مقصوده من القول «عطاء بيتاً إلا بعد عسر واستكراه شديدين»، فضلاً عن أنه خطاب قاصر لا يرقى بالفعل الفلسفي من النظر النظري إلى لانتماء الوجداني الذي يستغرق الحياة والوجود كليهما.

وأخيراً، فإن ابن طفيل لا يؤرخ للفلسفة في الغرب الأندلسي بالقطيعة مع فلسفة المشرق، بل بالعكس بالاتصالية التامة بها، ويضع محاولته الاجتهادية الشخصية - كما تجسدها «رسالة حي بن يقظان» - تحت الدواء المباشر «للحكمة المشرقية» المنسوبة إلى «الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا» الذي يزيد فيصفه بـ «إمام».

ولنبداً باستعادة النص الذي اختزله الجابري.

يقول ابن طفيل رداً على الشق الثاني من سؤال ساقله عن «أسرار الحكمة المشرقية»:

«والغرض الثاني من الغرضين اللذين قلنا إن سؤالك لن يتعدى أحدهما، هو أن تبغني التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر. وهذا - أكرمك الله بولايته^(٥٣) - شيء يحتمل أن يوضع في الكتب وتتصرف به. لعبارات، ولكنه أعلم من الكريت الأحمر، ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه لأنه من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد. ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس إلا رمزاً، فإن الملة الحنيفية

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٥٣) سوف نرى أن ابن طفيل يقيم معارضة حاسمة للدلالة، من منظور الحكمة المشرقية، بين «الدراية» و «الولاية».

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

والشريعة المحمدية قد منعنا من الخوض فيه وحذرتنا منه^(٥٤). ولا نطنن أن الفلسفة التي وصلت إلينا في كتب أرسطوطاليس وأبي نصر وفي كتاب «الشفاء» تفي بهذا الغرض الذي أراده، ولا أن أحداً من أهل الأندلس كتب فيه شيئاً كفاية. وذلك أن من نشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفائقة، قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها، قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم ويلغوا فيها مبلغاً رفيعاً ولم يقدروا على أكثر من ذلك. ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشيء من علم المنطق، فنظروا فيه ولم يقض بهم إلى حقيقة الكمال، فكان فيهم من قال:

بَرَحَ بي أن علوم الوري اثنان ما إن فيهما من مزيد
«حقيقة» يعجز تحصيلها و «باطل» تحصيله ما يفيد

«ثم خلف من بعدهم خلف آخر أصدق منهم نظراً وأقرب إلى الحقيقة. ولم يكن فيهم أنقب ذهنًا ولا أصح نظراً ولا أصدق رؤية من أبي بكر بن لصفغ. خير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزان علمه ويث خفيا حكمته. وأكثر ما يوجد له من التأليف إنما هي غير كاملة ومخرومة من أواخرها ككتابه «في النفس» و «تبليغ المتوحد» وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة. وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلصة. وقد صرح هو نفسه بذلك، وذكر أن المعنى المقصود برهانه في «رسالة الاتصال» ليس يعطيه ذلك القول عطاءً بئناً إلا بعد عسر واستكراه شديدين، وإن ترتيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الأكمل، ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها. فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل، ونحن لم نلق شخصه»^(٥٥).

إن أول ما يلفت النظر في نص ابن طفيل هذا، حكم الندرة، بل شبه العدم الذي يصدره على واقع الممارسة الفلسفية في الأندلس في عصره (٥٠٦ - ٥٨١ هـ). فعلاوة على أن انظر العقلي «أعدم من الكبريت الأحمر»، فإنه لا يظفر باليسير منه «إلا الفرد بعد الفرد». ويعبارة أخرى، إن ما ينفيه ابن طفيل - ويؤكد على استحالة إمكانيته

(٥٤) نستطيع هنا أن نلاحظ من الآن تمايزاً جذرياً في الموقف بين ابن طفيل وابن رشد بصدد المشروع الدينية للنظر الفلسفي. فنقطة انطلاق الأول أن فعل التفلسف محظور أو مكروه شرعاً، بينما هذا الفعل عند الثاني - ودوماً بمصطلح الأحكام الفقهية - مندوب إليه، بل مأمور به.

(٥٥) «رسالة حي بن يقظان» في: «حي بن يقظان» لابن سينا وابن طفيل والسهوردي، تحقيق أحمد أمين، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٥٦ - ٥٧. والتسويد م.

أصلاً - هو وجود «مدرسة» للفلسفة في الصقع الأندلسي . فالممارسة الفلسفية في الغرب الأندلسي محكوم عليها بأن تبقى إفرادية وسرية ، والحديث فيها وعنهما لا يمكن أن يكون «لأمرأ» . وهذه الوضعية القمعية لم تترك من خيار آخر لـ «أهل الفطرة الفائقة» - الذين لا بد من أن يتوجدوا في أي مجتمع مهما بلغت درجة «قمع الأيديولوجي فيه» - غير أن يشغلوا أنفسهم بما هو مباح من علوم الأوائل من رياضيات وهندسة (ومنطق في طور لاحق) بدون أن «يقدر» على أكثر من ذلك» ، وبدون أن يصوبوا إلى «حقيقة الكمال» . وابن باجة - المتأخر زمانه إلى مطلع القرن السادس - هو وحده الذي استطاع أن يتجاوز السقف الذي وقفوا أو اضطروا إلى الوقوف عنده، ولكن بدون أن يتمكن من الارتقاء إلى السقف الأعلى الذي كان يفترض به أن يرقى إليه . وما ذلك فقط لأنه «شغلته الدنيا حتى اخترته أمنية قبل ظهور خزائن علمه» . بل كذلك، وكما يشير مقطع آخر من النص ، لأنه لم يستطع ، بسبب شاغله الدنيوي دوماً ، الانتقال من «طور الدرية» إلى «طور الولاية» .

وبما أنه ستكون لنا عودة إلى موقف ابن الطفيل القندي من ابن باجة ، فإننا ندع مؤقتاً هذه النقطة التفصيلية لنعود أدراجنا إلى الأطروحة المركزية لنجاري في قراءته التأويلية ، والمقطعة بعلامات الحذف (...) ، لنص ابن طفيل ، أي الأطروحة القائلة بالطابع العلمي للمدرسة الفلسفية «المغربية»^(٥٦) بالتضاد مع الطابع الكلامي ، الإشرقي ، الهرمسي للمدرسة المشرقية .

في ذلك يقول النجاري ، وهو يعاود التعليق في فقرة تالية على نص ابن طفيل تحت عنوان «الطريق إلى فلسفة علمية برهانية» : «يقدم لنا ابن طفيل ظهور الفلسفة في الأندلس ، وهو يعني الفلسفة العلمية البرهانية ، كتبويب لمرحلتين من تطوّر الفكر العلمي فيها : مرحلة الرياضيات ومرحلة المنطق (والرياضيات) . ومعنى ذلك أن ظهور هذه الفلسفة في الأندلس قد جاء في سياق يختلف تماماً عن السياق الذي ظهرت فيه في المشرق ، سواء منها فلسفة الإسماعيلية أو فلسفة الكندي ولغاري وابن سينا . . . الأمر يتعلق إذاً ببداية جديدة ، بل بانطلاقة جديدة تختلف نوعياً عن الانطلاقة التي عرفتها الفلسفة في المشرق . نقول «نوعياً» ونحن نعني ما نقول . ذلك لأنه إذا كانت الفلسفة

(٥٦) بات معلوماً لدى القارئ لماذا نضع المصطلح بين مزدوجين : تركيزاً منا على أنه غير مطابق لمواقع الجغرافيا للممارسة الفلسفية التي ما كانت في لغرب الإسلامي إلا أندلسية حصراً .

ابن طفيل : مروج يوسس الفلسفة في الأندلس

في المشرق قد تأسست على عدم الكلام، أو على الأقل ظهرت في كنفه وترعرعت بجانبه فشاركته مهمته وإشكاليته، فإن الفلسفة في الأندلس - فلسفة ابن باجة وابن طفيل وابن رشد - قد تأسست على لعلم، على الرياضيات والمنطق، مما سيجعل منها فلسفة علمية، «علمانية»^(٥٧)، كما سترى لاحقاً^(٥٨).

ثم إن الممارسة العلمية ما كانت تمثل بحد ذاتها، في الفضاء العقلي للمعصر وفي السياق الاستعماري «لعلم الأرائ»، أية حصانة ضد «اللامعقول» بمفهومه الحديث. بل على العكس: فقد كان «العلم» - مفهوماً وتطبيقاً معاً - يدمج به دمجاً عضواً قطاعاً عريضاً من «اللامعقول العلمي». وكانت علوم الكيمياء والعدد والتنجيم والفلاحة والطب والهيئة وحتى الهندسة، تفسح مجالاً واسعاً لتظاهر هذا اللامعقول وليس من قبيل الصدفة أن يكون ابن خلدون قد أدرج في عداد «العلوم الطبيعية» - بالتعارض مع «العلوم العقلية» - «علوم السحر والطلسمات» وأقر لها - مثلها مثل العلوم العقلية والعددية - بنصب علمي بقوله فيها: «هي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية»^(٥٩). وابن خلدون هو من يلاحظ أيضاً أن الاشتغال بـ «علوم النجامة والسحر والطلسمات» جاء رديفاً - وليس نقيضاً - للاشتغال بعلوم الرياضيات، وذلك بقوله إنه باستثناء ابن باجة وابن رشد اللذين سارا في المغرب، على خطى الفارابي وابن سينا في المشرق، في الجمع بين العلوم العقلية والعملية - «تقتصر كثيرون [من أهل الأندلس] على اتحال التعاليم وما يضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات»^(٦٠). وليس من قبيل الصدفة من هذا المنظور أن تكون أكبر مجموعة عمل علمية عرفها الغرب الإسلامي في العدة الأندلسية كانت هي المجموعة التي التفت حول مسلمة بن أحمد المجريطي الذي يصفه ابن خلدون أيضاً، لمرتين على التوالي، بأنه «إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات» و«شيخ الأندلس في علوم الكيمياء

(٥٧) نكرر القول إنه في حينه، يوم كتب الجابري دراسته هذه عن «ظهور الفلسفة في المغرب والأندلس»، لم تكن كلمة «علمانية» قد غدت في نظره «وجيمة» ليطلب بسحبها من قاموس الفكر العربي، كما سيفعل لاحقاً.

(٥٨) «نحن والتراث»، ص ٢٤٩ - ٢٥١.

(٥٩) «المقدمة»، ص ٥٤٩.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٥٣٢.

والسيميائية والسحر في القرن الثالث وما بعده»^(٦١)، وأوسع التفاصيل عن مدرسة المجريطي هذه نجدها لدى صاعد الأندلسي في طبقات أممه. يقول: «أبو القسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريط كان إمام الرياضيين بالأندلس في وقته وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بتفهم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي، وله كتاب حسن في ثمار علم العدد، وهو المعنى المعروف عندنا بالمعاملات، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني، وعني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي، وصرف تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي... توفي قبل مبعث الفتنة»^(٦٢) في سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة. وقد أنجب تلاميذ جلة لم ينجب عالم بالأندلس مثلهم. فمن أشهرهم ابن السمع وابن الصفار والزهرابي والكرماني^(٦٣) وابن خلدون. وقد امتدت هذه المدرسة المجريطية من التلاميذ إلى تلاميذ التلاميذ: فمن مشاهير تلاميذ ابن الصفار ابن برغوث والواسطي وابن شهر وابن العطار... ومن مشاهير تلاميذ ابن السمع أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى الناشئ... ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب وابن حي الحسين بن محمد التجيبي»^(٦٤).

وليس من قبيل الصدفة أن يكون ناقد العقل العربي، في عرضه للمعرض الذي

(٦١) المصدر نفسه، ص ٥٥٥ و ٥٦٧.

(٦٢) فتنة قرطبة التي قضت على حكم الأمويين المرانيين.

(٦٣) يورد القاضي صاعد عن الكرماني هذا معلومة ثمينة لها دلالة خاصة في السياق الذي نحن فيه: «الكرماني أبو الحكم... من أهل قرطبة، أحد الراسخين في علم العدد والهندسة، أخبرني به تلميذه الحسين بن محمد... التجيبي المهنتمس بالمنجم أنه ما ألقى أحد يجاريه في علم الهندسة ولا يشق غباره في فك غامضها وتبين شكلها وإتقان أجزائها، ورحل إلى ديار المشرق وانتهى منها إلى حران من بلاد الجزيرة، وعني هناك بطلب الهندسة والطب ثم رجع إلى الأندلس واستوطن مدينة سرقسطة من ثغرها وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا. ولا نعلم أحداً أدخلها الأندلس قبله» (طبقات الأمم، ص ١٧١ - ١٧٢).

(٦٤) «طبقات الأمم»، ص ١٦٨ - ١٧٦. هذا ويضيف بن خلدون إلى هذه القائمة أبا بكر بن شكون الذي يصفه بأنه «من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي». ويورد نصاً مطولاً من رسالة له في «الصناعة» و «التدبير» موجهة إلى زميله في المدرسة المجريطية ابن السمع المهندس. وهي من أتمن ما وصلنا من كتابات «الصنعيين» حول «الحجر الفلسفي»، إذ يستبان منها أن هذا الحجر ليس بالضرورية حجراً جماً، بل قد «يكون في الحيران... وفي البساتين». وفي «الأرواح» قبل «الأبدان» (المقدمة، ص ٥٥٨ - ٥٦٣).

ابن طفيل : مؤرخ يوسس الفلسفة في الأندلس

يقدمه صاحب «طبقات الأمم» عن تاريخ الحركة الفلسفية والعلمية في الأندلس. قد أغفل إغفالاً تاماً الإشارة إلى هذه المدرسة المجريطية الكبيرة التي يستغرق استعراض أعضائها معظم الفصل الذي يعقده صاعد من كتابه لبيان التسلسل الزمني لأجيال المتعاطين لعلوم الأوائل في الأندلس. إذ لو فعلَ لانهارت من الأساس أطروحته التعظيمية القائلة إن «العقل في الأندلس هو العقل المنطقي الرياضي»^(٦٥). فهذا لعقل هو عينه، أو بمظهر من مظاهره على الأقل، وشهادة صاعد الأندلسي مقرونة بشهادة ابن خلدون، العن «السحري الطلسمي» الذي تولت التشريع له المدرسة المجريطية، كبرى مدارس العلم في حينه في الأندلس. والواقع أن تأخر ظهور الممارسة الفلسفية عن الممارسة العلمية في الأندلس - لأسباب ستكون لنا إليها عودة حالاً - لم يقدم أية ضمانات لتطور فلسفة مغربية «علمية - علمانية» بريئة كل البرء من اللامعقول «المشرقي». وكل ما هنالك أن «اللامعقول»، بدلاً من أن يتظاهر في الممارسة الفلسفية لتي تأخر مخاضها، تظاهر من البداية في الممارسة العلمية ذاتها. وعلاوة على أنه لم يكن يرمز، في الفضاء العقلي للعصر، ثمة سور صيني ما بين العلم واللامعقول العلمي، فإن هذا اللامعقول، مثله مثل للاشعور المكبوت في النظرية الفرويدية، يبحث دوماً عن متفكر. فلذا سُدَّ دونه متفكر الفلسفة، تنفس لا محالة من مسام العلم نفسه، حتى ولو كان منطقياً ورياضياً بحثاً. ومن هنا دقة عبارة ابن خلدون التي نستعيد بها الآن تامة: «واقترن كثير من على انتحال التعاليم وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات، ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد المجريطي من أهل الأندلس وتلميذه [= ابن السمع أو ابن شكرون؟] ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخل، واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها، والذنب في ذلك لمن ارتكبه، ولو شاء الله ما فعلوا»^(٦٦).

(٦٥) «نحن والثرث»، ص ٣٣٩.

(٦٦) «المقلمة»، ص ٥٣٢. ولا يتردد هنا ابن خلدون «المغربي» - وما أبعد عن لعبة المفارقة الاستعمارية الجارية ما بين المغرب والمشرق - في أن يضيف قوله: «ثم إن المغرب والأندلس لما ركبت ربح العرآن بهما وتناقصت العدم بتناقضه، اضمحل ذلك منهما إلا قليلاً من رسومه تجلعا في تعاريف من اناس رحت رُقبة من علماء السنة. ويبلغنا من أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة، وحصرها في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر [= مشرق المشرق] رأهم على بح من العلوم العقلية لتوفر صمراتهم واستحكام الحضارة فيهم».

ولا يتسع المجال هنا للدخول في شروط الظهور التاريخي للفلسفة في المشرق. ولكن حسبنا أن نلاحظ أنه في المشرق أيضاً كان «العلم» متباً في الظهور على «الفلسفة». فنجبر بن حيان والفضل بن نوبخت والخوارزمي وثابت بن قرة أسبق في الظهور من الكندي والرازي والفارابي وابن سينا. ثم إن هؤلاء أنفسهم كانوا «علماء» قبل أن يكون «فلاسفة». فكتب الكندي في الهندسيات والحسابيات والفلكيات والنجوميات والموسيقى والطب، أكثر عدداً بكثير من كتبه في الفلسفيات. والرازي كان «طبيب الإسلام بلا منازع» فضلاً عن كونه كيميائياً. والفارابي كان عالم اجتماع سياسي (المدن الفاضلة) وموسيقياً بقدر ما كان منطقياً وفيلسوفاً. و«قانون» ابن سينا في الطب لا يقل شهرة عن «الشفاء» في الفلسفة^(٦٧). أضف إلى ذلك أنه في المشرق أيضاً بدأت الفلسفة بمنطق أرسطو قبل أن تبدأ بالهيات. و«منطق ابن بهريز» و«منطق ابن الحفص» هما اللذان أرسيا حجر الأساس للتقليد الفلسفي في المشرق منذ مطلع القرن الثالث للهجرة، على حين أن الإقلاعة الجديدة لهذا التقليد قد تأخرت إلى مطلع القرن الرابع. والواقع أن «علوم الأوائل» كانت تمثل في حينه منظومة عضوية متكاملة، ولم يكن ثمة مجال لتمييز المعيار فيها، من وجهة النظر الاستمولوجية، ما بين «العلم» و«الفلسفة»، وكم بالأحرى لتقديم الأول على الثانية. والواقع أيضاً أن الوحدة العضوية بينهما لم تتصدع إلا ابتداء من قطعة الحداثة التي انعتق فيها العلم من إطاره الاعتقادي السابق، واندفع يشق طريقه في استقلالية متعظمة ويؤسس نفسه في عقلانية جديدة مبنية على المنهج التجريبي، وخارقة للمسلمات العقلية السكولائية الموروثة عن «الأقوال البرهانية» الأرسطية^(٦٨).

(٦٧) من مفارقات الأشياء أن الجاهلي يصف ابن رشد «المشوي» بـ «الفيلسوف الرياضي» (نحن والنشأت، ص ٣٧٢) على حين أن نقطة ضعفه الكبرى كانت «رياضيات التي لم يخط فيها سطرًا واحدًا» بينما لا يحظى منه ابن سينا «المشقي» إلا بوصف «الإشراقي» و«انغوصي» و«الهرمسي» و«الظلامي» وهو الذي أفرد في موسوعته «الشفاء»، وفي خلاصتها لفارسية «كتاب العلم»، محلاً تاماً للرياضيات.

(٦٨) ولهذا لا معنى إطلاقاً لقول الجاهلي التوهمي بأن الإنجاز المتميز «للمدرسة المغربية البرهانية» هو أن «العلم سيعود معها، كما كان مع أرسطو، هو الأساس الذي تبني عليه الفلسفة صرحها» فهذا محض إسقاط من معيارية الحداثة على «علوم الأوائل»، وفيه قلب للتراتبية المعرفية الأرسطية التي تقدم «فلسفة الأولى»، أي الميتافيزيقية، على «فلسفة الثانية»، أي الطبيعية. وهو يخالف أخيراً الحقيقة التاريخية: فتحقيب الكارولنجي لمؤلفات أرسطو يشير =

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

ومع ذلك كله، فإننا نسلم تسليماً تاماً للجابري قوله: «إن ظهور الفلسفة في الأندلس قد جاء في سياق يختلف تماماً عن السياق الذي ظهرت فيه الفلسفة في المشرق». ولكن ما ذلك لأسبقية المرحلتين العلمية والمنطقية على المرحلة الفلسفية بحصر المعنى: فهذه قسمة مشتركة لانشوء التاريخي للفلسفة في المشرق كما في الغرب الأندلسي لاحقاً، بل لأن الوضعية التي ولدت فيها الفلسفة في المشرق كانت إلى حد كبير انفتاحية (عصر المأمون والواثق ولمعتمد، ثم عصر البويهيين والسامانيين في العراق وفارس وخراسان)، على حين أن الوضعية الأندلسية كانت وضعية انغلاقية، بله قمعية (علماً بأن محور جدلية الانفتاح والانغلاق هذه كان الموقف من «علوم الأوائل»). ومن هذا المنظور، يمكن أن نقول إن الفلسفة في الغرب الأندلسي قد ولدت مؤودة، أو لم تتمخض. عندما تمخضت بعد طول تأخير وتكرر إجهاض - إلا بعملية قيصرية تمت في خفاء القصور أصلاً. أضف إلى ذلك أن الفلسفة في الغرب الأندلسي لم تقيض لها الاستمرارية التاريخية التي قُيِّضت لها في المشرق على امتداد أكثر من قرنين من الزمن ما بين مطلع القرن الثالث ومطلع القرن الخامس، ولا كذلك الاستمرارية الجغرافية. فاتساع رقعة المشرق أتاح للفلسفة أن تنتقل، في حالات الاضطهاد، بين بلاطات السامانيين والبويهيين والخوارزميين والفاطميين والإسماعيليين. أما في الأندلس الضيق الرقعة والمتملص كقطعة اسجلد المكرومش تحت ضغط الاسترداديين النصاري، فلم يقيض للفلسفة مخرج كهذا للنجاة، خلا أيام دول الطوائف التي أمكن فيها للمشهد الفلسفي أن يتفتح بين مدينة وأخرى وبلاط وآخر بعد أن ارتفعت عنه - كما سنرى مع صاعد الأندلسي - القبضة الخائفة للحكم المركزي القمعي.

تاريخ الفلسفة في الأندلس كان إذً، تاريخ انقطاع أكثر منه تاريخ اتصال، تاريخ نشوء متكرر أكثر منه تاريخ تطور، يعاود - أو يكاد - دوماً من نقطة الصفر بدون نمو عضوي. فلم يكن في الأندلس مدارس للفلسفة ولا مجالس تعديم. وباستعادة عبارة ابن طيلى، فإن إرث الفلسفة ما كان يتناقله «إلا الفرد بعد الفرد» بدون أن يفلح في

== إلى أن دراساته «العلمية»، ولا سيما في التاريخ الطبيعي وعلم الأحياء، تالية - وليست سابقة - لكتابات «الفلسفية». وفي الأحوال جميعاً، وبدلاً من أن نقول إن الفلسفة كانت مع أرسطو علمية، فالأصح أن نقول إن العلم كان مع أرسطو فلسفياً، وبدلاً من أن يؤسس الفلسفة على العلم، فقد أسس العلم على الفلسفة.

تأسيس نفسه في موروث فلسفي حقيقي^(٦٩).

ولو كان لنا أن نمثل برسم بياني على المجرى التاريخي للفلسفة في الأندلس لكان لنا أن نعطي شكل خط منكسر، لا شكل خط مستقيم ومطرّد. وبالفعل، نستطيع أن نرصد في تاريخ المخاض العسير للفلسفة في الأندلس ثلاث انطلاقات متبوعة بثلاثة اختناقات، أو بالأحرى بثلاث حملات قمعية ضارية وصاحبة معاً.

أولاً - من الانفتاح «الرحماني» إلى الانغلاق «الناصري»: بعد قرن وتيف من فتح الأندلس، ومع تحول الهاجس الجهادي إلى هاجس «عمراني» بالمعنى الخلدوني للكلمة، عرفت الأندلس انفتاحها الأول على التقليد الفلسفي المجلوب من لمشرق. ففي عهد عبد الرحمن الثاني، أو الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ)، «انصلت إسبانيا الأموية - على ما يذهب بروفسال - بالشرق العباسي لأول مرة اتصالاً مباشراً، وذلك أن الأمير عبد الرحمن الثاني لم يكد يلي الأمر حتى بعث إلى المشرق جماعة من علماء عاصمته ليجلبوا له كتباً تتصل بما اشتهر إليه ميله من العلم، كالطب والفلسفة والعلوم الروحانية والتنجيم وتفسير الأحلام»^(٧٠). فرأى أول «فيلسوف أندلسي» النور، وهو عباس بن فرناس الذي ارتبط اسمه بأسطورة محاولة الطيران الأولى للإنسان في الحضارة العربية الإسلامية، وإن تكن مخترعاته العلمية (صناعة الزجاج من الحجارة وآلة فلكية لقياس الوقت عُرفت باسم «الميفاتة») تحيط بهالة أكثر واقعية. ومع أن ابن فرناس عانى من اضطهاد العامة والفقهاء الذي طعنوا مراراً في عقيدته ورموه بالزندقة - ولكن بدون أدلة كافية لإدانته أمام لقضاء - فقد أرسى بداية تقليد في التعاطي مع علوم الأوائل واصله من بعده من يصفهم صاعد الأندلسي بـ «ذوي الفهم والهمم» ممن تحركوا «وسط» المئة الثالثة من تاريخ الهجرة»، «بطلب العلوم وتنبهوا لإثارة الحقائق»، وفي مقدمتهم أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي المعروف بصاحب القبلة. «ولما عرف بذلك لأنه كان يشرق كثيراً في صلاته، وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها»^(٧١)...

(٦٩) قد تستثنى ههنا مدرسة ابن مسرة. ولكنها كانت مدرسة «كهفية»، وهذا بالمعنى الحقيقي - لا المجزي - للكلمة. فقد اضطرب ابن مسرة إلى أن يقيم مدرسته في كهف في جبل، ولهذا أصلاً لُقّب بـ «الجبلي».

(٧٠) «تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس»، ص ٥٤.

(٧١) تقدم لنا الفقرة التي يفردها ناقد العقل العربي لأبي عبيدة بن أبي عبيدة هذا نموذجاً مصغراً، ولكن مكثفاً، لطريقته في تلنيق الأدلة لإثبات أطروحاته. فتوكيداً منه على أن الفلسفة العيضية =

ابن طفيل: مؤرخ يؤمس الفلسفة في الأندلس

ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة، كان بصيراً بالحساب

= والإسماعيلية الباطنية، التي كانت في زعمه بمثابة حجر بزاوية الذي قام عليه بدء «المدرسة المشرقية الإشرافية»، كان لها امتداد «مغربي» في الأندلس، يستشهد بنص صاعد هذا عن أبي عبيدة. ولكنه لا يورد منه سوى ما يوحي بأنه كان «على رأس من اشتهروا بالعلوم القديمة من أهل قرطبة»، ليختم بالقول: «إذا كانت المصادر التاريخية لا تسعفنا بأي شيء عن فكر هذا الرجل غير كونه كان ضالماً في الحساب والتنجيم، وأنه كان مولماً بالشرقية في قبلته، أي كان ذا ميول شيعية، فإن صاعداً ينقل لنا قصيدة لأحد الأدياء المعاصرين لصاحب القبلة هذا ينتقد فيها آراءه الفلسفية. ومن هله القصيدة يتجلى بوضوح أن الأمر يتعلق بنفسه تقول بنظرة العقول والأفلاك على غرار ما تقول به الفلسفة الفيضية، وبالذات الفلسفة الإسماعيلية الباطنية» («نحن والعراث»، ص ٢٤٥). والحال أن ناقد العقل العربي لا يقرأ هنا نص القاضي صاعد قراءة موجهة فحسب، بل محرّفة أيضاً تحريفاً «ثلاثي القيم». فليس صحيحاً أولاً أن المصادر التاريخية لا تسعفنا بأي شيء عن فكر هذا الرجل غير كونه كان ضالماً في الحساب والتنجيم. فالمصادر التاريخية التي تحدثت عن أبي عبيدة (بالإضافة إلى صاعد الأندلسي ابن الفرضي في كتاب «تاريخ علماء الأندلس» والمقري في «نفع الطبيب») تشير جميعها إلى أن «صاحب القبلة» كان، بالإضافة إلى علمه بحركات الكواكب وأحكامها، صاحب فقه وحديث. وفي ذلك يقول صاعد نفسه «وكان مع ذلك صاحب فقه وحديث ورحل إلى المشرق فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز، وبمصر من المرني والربيع بن سليمان المؤذن ريونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وحماة سواهم». ولا يخفى لماذا أسقط الجابري واقعة تتلمذ أبي عبيدة على هؤلاء الشيوخ الخمسة. فهي تنسف من الأساس دعواه عن «باطنية» صاحب القبلة. فأول هؤلاء الخمسة كان من أئمة المالكية في مكة، مثلما كان آخرهم هو «من انتهت إليه الرئاسة بمصر على مذهب مالك». أما الثلاثة الباقون، فكانوا جميعاً من علماء الشافعية، ولا سيما منهم المرني الذي كان صاحب الشافعي والقيم على مذهبه بعد وفاته. وأما الاستنتاج ثانياً بأنه كان «ذا ميول شيعية» لأنه كان مولماً بالشرقية في قبلته، فهو «اللامعقول» بعينه بصيغته الجابرية. فأحد الأسباب الرئيسية لتطور علم الفلك وحسب المثلثات في الحضارة العربية الإسلامية يعود إلى هاجس تحديد سمات القبلة (شرقاً بالنسبة إلى جزيرة الأندلس). ومن ثم فإن «الشرقية» كان يعبر عن وربع ديني وتلفيق علمي في آن معاً، وما كان له أن يكون فيصلاً بين أهل السنة وأهل الشيعة كما لو أن الكعبة ليست ثلة مشتركة لهم جميعاً، وكما لو أن دأب أهل السنة من الأندلسيين «التغريب» بدل «الشرقية» في صلاتهم. وتبقى ثلثاً وأحياناً إشارة الجابري إلى القصيدة التي ينتقد فيها «أحد الأدياء المعاصرين لصاحب القبلة آراءه الفلسفية» والتي منها يتجلى «بوضوح» أن الأمر يتعلق بنظرية «العقول الفلكية» كما تقول بها الفلسفة المعيشية و«لفلسفة الإسماعيلية الباطنية». وهنا أيضاً سنلاحظ أن الجابري ما امتنع عن إيراد أبيات القصيدة إلا لأنها تنفي - ولا تثبت - دهواه. ففائل القصيدة هو أحمد بن محمد بن عبد ربه. وهو يخاطب أبا عبيدة بالقول:

والنجوم والطب، متصرفاً في العلوم... وكان معتزلي المذهب ورحل إلى المشرق ثم نصرف [= ارتد عن الاعتزال] وتوفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة.

حركة الانفتاح هذه في أواسط المئة الثالثة للمهجرة على علوم الأوائل، بلغت ذروتها مع محمد بن عبد الله بن مسرة المولود في قرطبة سنة ٢٦٩ والمتوفى فيها سنة ٣١٩هـ، والذي قال فيه ابن حارث: «الناس في ابن مسرة فرقان: فرقة تبلغ به مبلغ الإمامة في العلم والزهد، وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه في الوعد والوعيد وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس، الجارية على مذهب التقليد والتسليم»^(٧٢).

وبما أنه ستكون لنا عودة إلى ابن مسرة، فلن نتوقف هنا عند حكم الإدانة القاطع الذي يصدره بحقه ناقد العقل العربي الذي يدمغه بأنه «مؤسس المدرسة الفلسفية الباطنية الأندلسية» التي واصلت تقاليد «المدرسة المشرقية الإشرافية»^(٧٣)، وإنما يهمنا ههنا لتوقف عند مصائر المدرسة المسرية بوصفها النموذج التاريخي الأول للفلسفة الأندلسية المقموعة. وبالفعل، لم يضطر ابن مسرة إلى أن يقيم مدرسته في كهف في جبل فحسب، ولا إلى أن يفر إلى المشرق عندما تزايد عليه ضغط الفقهاء الذين رموه بالزندقة فحسب، ولا إلى أن يلتزم التكتّم في تعليم مذهبه حتى غدت المسرية مرادفة للمسرية فحسب، بل كان القمع الأشد هو ذاك الذي مني به بعد وفاته عندما أحرقت كتبه وأبيد تراثه وطورد تلاميذه وتُكلّ بأتباعه بأمر من عبد الرحمن الثالث الذي كان، قبل ذلك، قد نصب نفسه خليفة وتسمى باسم «الناصر لدين الله». فبعد أكثر من عشرين سنة من وفاة ابن مسرة، وتحّت ضغط الفقهاء الذين جددوا تدخلهم، «قرئ على الناس» - كما يقول ابن حيان القرطبي في كتابه «المقتبس» - «في يوم الجمعة لتسع

= أبيات إلا شدوذاً عن جماعتها ولم يصب رأي من أرجا ومن اعتزلا
زعمت بهرام أو بيلدخت يروقت لا بل عطارد أو برجيس أو رُحلا
وواضح أن التهمة التي يوجهها ابن عد ربه الشاعر إلى أبي عبيدة هي - فضلاً عن اعتقاده بأحكام النجوم - انتماءه إلى مذهب الإرجاء والاعتزال، وهو انتماء، إذا ثبت، لا يمت بصلة لا إلى «الفلسفة الفيزية» ولا «بالذات» إلى «فلسفة الإسماعيلية الباطنية».
(صاعد الأندلسي: «طبقات لأمم»، ص ١٥٩ - ١٦٢).
(٧٢) ابن الفرضي: «تاريخ علماء الأندلس»، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، ج ٢، ص ٤٠.
(٧٣) «نحن والتراث»، ص ٢٤٥.

ابن طعيص: مؤرخ يؤسس لفلسفة في الأندلس

خلون من ذي الحجة سنة أربعين وثلاثمئة، بالمسجدين الجامعين بالحضرتين. قرطبة والزهراء، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله^(٧٤) بتعقب الجماعة المتممين إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة وخافتها والبسط عليها والقبض على من عُثر عليه منها، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين^(٧٥)، «لينكلوا بحضرته فيذهب غيظ نفسه ويشفي حنين صدره». وأهم ما جاء في كتاب الناصر، الذي كان من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن الزجالى، أنه «لا استحقق البلاء على قوم، ولا أهلك الله أمة من الأمم إلا بمثل ما تكشف هذه الطغمة الخبيثة من التبديل للسنة، والاعتداء في القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين^(٧٤)». وبرغم العمومية - المعهودة في مثل هذه الكتب/ المراسيم - في اتهام الفرقة التي «أضلها الشيطان» بـ «القدح في الديانة والخروج عن الجادة» و «الحقد على الأمة الحنيفة»، فإنه لا يحسر على القارئ أن يدرك السبب الحقيقي للحملة على المسيريين: فذنبهم الأول والأخير أنهم «قالوا يخلق القرآن... وقالوا بالاعتزال عن العامة»^(٧٥).

ثانياً - من التسيب الطوائفي إلى الردة المرابطية: فقد كان من الممكن أن تعرف الفلسفة في الأندلس، بعد وأد المدرسة المسيرية، انطلاقة ثانية في عهد الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) - الذي يقول عنه بالنشأ إنه كان «أكثر الخلفاء الأندلسيين تسامحاً وحرية فكر» - لولا الانقلاب الثقافي الذي نفذته غداة وفاته حاجبه المنصور بن أبي عامر. ولسنا بحاجة هنا إلى أن نستعيد وصف صعد الأندلسي للمحرقة التي أقامها المنصور لخزائن كتب الحكم «تحبباً منه إلى عوام الأندلس» وإلى فقائها الذين كانت علوم الأوائل مذمومة على ألسنتهم و «كان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة، مظلوناً به الإلحاد في الشريعة». ولقد كان لا بد من انتظار انقراض دولة بني أمية وقيام دولة الطوائف ابتداء من مطلع المئة الخامسة حتى يرتفع عن التفكير الفلسفي في الأندلس ضغط السلطة المركزية الممائلة للفقهاء وللعوام. وصاعد الأندلسي هو من

(٧٤) نقلاً عن: «تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس»، ص ١٦٠ - ١٦٢.

(٧٥) في الوقت الذي يركز الجابري تركيزاً شديداً على ناطية المدرسة المسيرية وإسماعيليتها المزعومة وميتافيزيقيتها الفيزية وإشراقيتها «المشرقية» - إلى آخر ذلك من تعابير اللامعقول في نظره - فإنه يضرب صفحاً تاماً عن تهمة «خلق القرآن» التي تشف على العكس عن انتماء المسيريين إلى لشكل الأعلى للمعقول في الإطار الديني للتراث العربي الإسلامي: الكلام المعتزلي. وهذه نقطة ستكون لنا إليها عودة.

يقدم، مرة أخرى، أبلغ توصيف للانطلاقة الجديدة للفلسفة في الأندلس في ظل التعددية السلطوية والتسيب «الليبرالي» النسبي في عهد ملوك الطوائف. يقول «ولم يزل أولو النباهة يكتمون ما يعرفون منها [= العلوم المهجورة] ويظهرون ما يجوز لهم منها من الحساب والقراض والطب وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس وافترق المملك على جماعة من المخربين [وفي نص آخر: المتنزين] عليهم في صدر المئة الخامسة من الهجرة، وصاروا طوائف واقتعد كل واحد منهم قاعدة من أمهات لبلاد بالأندلس، فانشغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة عن امتحان الناس والتعقب عليهم، واضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقي بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب ومائر المتاع، فبيع بأوكس ثمن وأتفه قيمة. وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ووجدوا في خلالها أعلاماً من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدي الممتحنين لخزنة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر. وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرغبة بشيء منها ما كان لديه، فلم تزل الرغبة ترتفع من حينه في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً، وقواعد الطوائف تتبصر قليلاً قليلاً إلى وقتنا هذا^(٧٦). فالحال، نحمد الله تعالى، أفضل مما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن التحجير في طلبها^(٧٧).

وبرغم تفاؤل صاعد النسبي هذا بالمصائر الأندلسية للفلسفة وسائر علوم الأوائل في عهد ملوك الطوائف، فإنه يلاحظ هو الآخر صنيع ابن طفيل من بعده - الطابع الفرادي، لا الجمعي، لظاهرة التفلسف المستأنفة في الأندلس بإضافته القول: «إلا أن رهد الملوك في هذه العلوم وغيرها، واشتغال الخواطر بما دهم الشغور من تغلب المشركين عاماً فعاماً على أطرافها، وضعف أهلها عن مدافعتهم عنها، قلّت طلاب العلم وصيرتهم أفراداً بالأندلس^(٧٨).

(٧٦) معلوم أن صاعداً كتب «طبقات الأمم» سنة ٤٦٠ هـ.

(٧٧) «طبقات الأمم»، ص ١٦٤ - ١٦٥. والتسويد منا للإشارة إلى أن تداعي هيمنة «قرطبة الأم» - وليس استمرارها كما يؤكد الجابري في مقالته عن «قرطبة ومدرستها الفكرية» - هو الذي أطلق صغريت الفلسفة في الأندلس من قمقمه.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ١٦٥. ولنسجل لصاعداً الأندلس أنه يصح إصبعه هنا على واحد من الأسباب العميقة لضعف الاشتغال بالفلسفة وعلوم الأوائل في الأندلس: الأيديولوجيا الجهادية، الهجومية في مرحلة حروب المتح والذفعية في مرحلة حروب الاسترداد.

ابن طليل: مؤرخ يوسر الفلسفة في الأندلس

ولئن أورد القاضي صاعد هنا أسماء عدد من متعاطي الفلسفة والمنطق وسائر العلوم القديمة في زمانه، فإنه ليس من قبيل الصدفة ألا يكون شيء من تراثهم المكتوب قد وصل إلينا، ولو محض العناوين منه. فعصر ملوك الطوائف لم يدم في محصنة الحساب سوى سبعين عاماً، وهي مدة غير كافية لحدوث تراكم فلسفي. وقد أعقبه مباشرة عهد المرابطين الذين حكموا إسبانيا الإسلامية ما بين ٤٨٣ و٥٤١هـ، وأناخوا على الجوّ الثقافي بوطاة خائفة، وسدوا جميع مسام الجسم النظري للشخبة المثقفة، وفرضوا أحادية فقهية فقيرة ومفقرة، ولم يدعوا من متنفس إلا للمذهب المالكي حصراً. وهذا في الفروع وليس في الأصول، وأقاموا للفكر المختلف، حتى في مجال الفقه، ما يشبه أن يكون محاكم تفتيش، ودشنوا عهدهم بإحراق كتب ابن حزم^(٧٩) وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي. ثم توجوا ذلك كله بالمرسوم الشهير الذي أصدره ثالث أرائهم تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين في جمادى الأولى من سنة ٥٣٨هـ، والذي قضى بتعقب كل مذهب غير مذهب مالك ويتبع أصحاب البدع وإحراق كتبهم، ولا سيما كتب أبي حامد الغزالي. وقد جاء في الفقرة الزهية لتالية من المرسوم المرابطي: «واعلموا، رحمكم الله، أن مدار لفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدو على ما اتفق عليه السلف الصالح، رحمهم الله، من الاقتصار على مذهب إمام الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه، فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه، ولا يأخذ في تحليل أو تحريم إلا به، ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه. ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة فإياكم وإياه، وخاصة - وفقكم الله - كتب أبي حامد الغزالي، فليتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها»^(٨٠).

والواقع أن المطاردة لم تقتصر على كتب أبي حامد، بل طالت أيضاً كتب أشاعرة الأندلس ومتصرفيها. فجنباً إلى جنب مع «إحياء علوم الدين» أقيمت المحارق في قوطبة وإشبيلية والمريّة وغرناطة لكتب ابن العريف وابن قسي والميورقي، وعلى الأخص ابن برحان الذي لقب، كما يذكر ابن الأبار، بـ «غزالي الأندلس». وقد دفع هذا الأخير حياته ثمناً لهذا الاضطهاد. فقد استدعاه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين

(٧٩) كانت أحرقت مرة أولى في إشبيلية بأمر من المعتضد بن عباد.

(٨٠) نفاً عن: «تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس»، ص ١٦٩.

إلى مراکش حيث أجرت له هيئة من الفقهاء محاكمة تبديعية، فألقي به في السجن وعذب إلى أن فارق الحياة سنة ٥٣٦هـ. وقد أمر علي بن يوسف بإلقاء جثمانه في مزيلة المدينة بدون الصلاة عليه. ولكن تدخل المتصوف الفاسي علي بن حوزهم أنقذه من هذا المصير المخزي، فدفن في «رحبة الحنطة»^(٨١).

ولزاء هذا «الحلف الأوليغارشي»^(٨٢) المفقود بين السلطة السياسية والسلطة الفقهية في الأندلس، ليس من عجب ألا يكون العهد المرابطي قد أنجب سوى فيلسوف واحد: أبي بكر بن الصائغ، بل العجب أن يكون قد أنجب. فعندما تسد مسام التنفس على كل مذهب فقهي غير مذهب مالك، وعندما يتعرض الشافعيون والحنفيون والظاهرية وعلماء الأصول وحتى أهل الحديث للاضطهاد، والأشاعرة ويقايا المعتزلة والمتصوفة للقمع، فإن الفيلسوف لن يكون له من نصاب آخر إلا أن يكون «رجيماً». فأولئك، حتى ولو جرى تبديعهم، يبقون من داخل «المدينة الإسلامية». أما هو فكافر سلفاً وخارج على الملة^(٨٣). وليس له، بما هو فيلسوف، أي نصاب من الشرعية. فهو في السر يقرأ، وفي السر يكتب، ولا يكلم الناس. على حد تعبير ابن طفيل - إلا رمزاً. وهو، كحكم كل كافر، لا يرث ولا يورث، أي لا يستطيع كفيلسوف لا أن يتأمن في مدرسة، ولا أن يؤسس مدرسة. فليس له «قبل» ولا «بعد». ولا غرو بالتالي في أن يختار ابن باجة لكتابه الأكثر تعبيراً عن فلسفته الشخصية، عنوان «تليبير المتوحد». فليس كمثلته من يصدق عليه الوصف بـ «المتوحد»، أو على بطله الفلسفي بالأحرى. ذلك أن عصره المتزمت، المسدود الأفق بالتحالف الكتيمة بين السلطينتين

(٨١) انظر بعض تفاصيل هذه المحارق والمحاكمات في: (Vincent Lagardière; *Les Almoravides, Le Djihad Andalou*, (1106 - 1143), (L'Harmattan, Paris 1998, P. 226).

(٨٢) نستعمل هذا التعبير من روجية عارودي الذي يقدم عرضاً جيداً لـ «محكمة التفتيش» المرابطية ولدور «الأوليغارشية الفقهية» في «قتل الإسلام في الغرب» في كتابه: «الإسلام في الغرب، قرطبة عاصمة الفكر» (L'Islam en Occident, Cordoue Capitale de L'Esprit)، منشورات لارماتان، باريس ١٩٨٧، وعلى الأخص من ص ٤١ - ٤٤.

(٨٣) اتهم الفتح بن خاتان ابن باجة بالارتداد عن الإسلام وباعتناق النصرانية عندما سقطت سرقسطة بأيدي المستردين الإسبان. ويصوره سيفي ابن رشد إلى بلنة اليهود «أليانة» إلصاعاً إلى أنه «ينسب في بني إسرائيل ولا يعرف له نسب في قبائل الأندلس»، كما يذكر الأنصاري المراكشي في «الدليل والتكملة».

من طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

السياسية والفقهية، حكم عليه، كما لاحظ ابن طفيل، بازدواجية جذرية. فقد كان له أن يكون وزيراً في العلقن، وما كان له أن يكون فيلسوفاً إلا في الحفاء^(٨٤). ولذ اضطر إلى أن يعيش بفكره في عالم غير الذي عاش فيه بجسمه. ومن هنا، قامت فلسفته على التمييز الصارم بين «الإنسان الجسماني» و«الإنسان الروحاني». فالأول يتقيد بقيود عصره ولا يتحرج أو يتألم من أن يعيش في المدن الفاسدة. أما الثاني، المتحلل من قيود عصره، فليس أمامه إلا واحد من خيارين: إما أن يهاجر إلى مدن فاضلة، أو يتوهمها كذلك ليكتشف أنها معدومة الوجود في الواقع؛ وإما أن يبقى مقيماً حيث هو، ولكن بعد أن ينضم إلى طائفة الذين «يعنيهم امتصرفة بقولهم الغرباء، لأنهم، وإن كانوا في أوطانهم وبين أترابهم وجيرانهم، غرباء في آرائهم، قد سافروا بأفكارهم إلى مراتب آخر هي لهم كالأوطان»^(٨٥).

ثالثاً - من الانقلاب الثقافي الموحد إلى الانقلاب المضاد: فقد بدا لموحدرن، الذين فرضوا سيطرتهم الشاملة على الأندلس ابتداء من العام ٥٤١هـ، وكأنهم يريدون أن يرفعوا عن قُدر الضغط غطاءها. وبادروا، أول أمرهم، إلى رد الاعتبار إلى الغزالي وإلى إحياء كتابه «الإحياء»، واحتفلوا بنسخه وشجعوا على شرحه وتدريسه. بل إنهم غالوا، فعمدوا إلى قبر حارقه الأول القاضي ابن حمدين، فنبشوا حثمانه من لحده وصلبوه. وبدون أن ينظروا إلى حد إعلان الأشعرية عقيدة رسمية لدولتهم، فقد أدرجوا مستصفي الغزالي - بالإضافة إلى إحيائه - ومؤلفات إمام الحرمين الجويني («البرهان»، «الإرشاد»، «التلخيص») في عداد الكتب المطلوب تدريسها رسمياً في

(٨٤) عمل ابن باجة على مدى عشرين عاماً وزيراً لدى أبي بكر بن إبراهيم، عامل المرابطين على غرناطة فسرقة.

(٨٥) «تعبير المتوحد»، في: «رسائل ابن باجة الإلهية»: تحقيق ماجد فخري، دار النهار، الطبعة لثانية، بيروت ١٩٩١، ص ٤٣. ويذهب أن هذا «الحسن الاغترابي»، عن طريق التصوف انظري والإشراق بداخلي، لمازق «المتوحد» في المدن الفاسدة لا يروق لناقد العقل العربي الذي يصز في قراءته لرسالة «تعبير المتوحد» على أن يرى في ابن باجة فيلسوفاً أرسطياً لويم العقيدة «قطع» مع الفلسفة المشرقية الإشرافية ليرسي حجر الأساس «علمي» للفلسفة المعاصرة البرهانية. ولكنه يضطر، توفيراً للمصداقية الداخلية لمثل هذه الأطروحة، إلى احتراع بن باجة لا وجود له وإلى «تعميشه» في عصر غير عصره المرابطي يصفه بأنه عصر «انحلال في السلطة الرسمية، السياسية واندفاعية»، مما أتاح لابن باجة أن يمارس «التأليف الفلسفي متحرراً ليس فقط من انقيود السياسة... بل كذلك من القيود الثقافية» («نحن والتراث»، ص ٢٥٤).

الجوامع والمعاهد والمدارس. وفي الوقت الذي رفعوا أيدي المالكيين الفروعيين عن الفتوى والقضاء والتدريس، فقد أطلقوا حرية نسبية لممثلي المذاهب الأخرى، وأعلوا من شأن علماء الأصول وأهل الحديث، وردوا الاعتبار بوجه خاص إلى المذهب الظاهري الذي كادوا يتخذونه - مع عقيدة ابن تومرت - مذهباً رسمياً للدولة. ولكن هذا الانفتاح الثقافي لم يكن متعيناً بدوافع ذاتية بقدر ما كان تعبيراً عن ردة فعل على الأحادية المالكية لخصومهم المرابطين. ولهذا فإن الانقلاب الثقافي الموحدى سرعان ما مال إلى أن يتلبس طابعاً استبدادياً. وقد تجلّى ذلك بوضوح عندما قرر ثالث خلفاء الموحدين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمنصور، أن يحصن الناس بالقوة على «الظاهر من القرآن والحديث» تطبيقاً لمذهب ابن حزم الذي كان يكنّ له تقديراً كبيراً إلى حد القول: «إن كل العلماء عيال عليه». ولم تكن نزعة الظاهرية التي جهر بها تعبيراً عن موقف انفتاحي فكري بقدر ما كانت تعكس برّماً بالتعدد والتشعب واختلاف الآراء والاجتهادات. ويبدو أن يعقوب المنصور ورث هذا البرم عن أبيه يوسف بن عبد المؤمن المكنى بـ «أبي يعقوب». فقد روى الحافظ أبو بكر بن الجدر الفهرى (٤٩٦ - ٥٨٦هـ)، الذي ظل في الشورى بإشبيلية مدة خمسين سنة متوالية، قال: «لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرايت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا. فأني هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبيت له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر ليس هذا إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف»^(٨٦). والحال، إن يعقوب المنصور لم يكتفِ بأن يُظهر «ما خفي في أيام أبيه وجده» من مقصد إلى «محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة»، بل عمد أيضاً إلى السيف ولغة السيف. وفي ذلك يقول المراكشي: «في أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله (ص) والقرآن، ففعل ذلك فأحرق منها جملة سائر البلاد، كمدونة سحنون

(٨٦) عبد الواحد المراكشي: «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، تحقيق محمد سعيد العريان، الطبعة المصوّرة عن طبعة القاهرة ١٩٤٩، للجنة إحياء التراث الإسلامي التابعة للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص ٣٥٦.

ابن طفيل: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحوها. ويضيف المراكشي بلسان حاله هذه المرة: «لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتى منها بالأحمال، فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة»^(٨٧).

وإنما بين هذين: الانقلاب لأيديولوجي على الأحادية المرابطية المالكية الفروعية والتشوف إلى بناء أحادية جديدة من طبيعة ظاهرية وحديثة^(٨٨)، عرفت الفلسفة في الأندلس مصيراً جديداً - قديماً. فمناخ الانقلاب الثقافي على المرابطين وفر لها هامشاً من الحرية طالما افتقدته في لأندلس المرابطية والعامرية والأموية (خلا حقبة الحكم الثاني الذهبية وحقبة انحلال السلطة المركزية في عهد ملوك الطوائف). ومناخ التعتبة لفرض أحادية ظاهرية - حديثة بديلة أعاد حبسها في عتق زجاجة القمع. وبما أن الرمز الأكبر للفلسفة في الأندلس في العهد الموحد هو أبو الوليد بن رشد، فلنقل إنه عرف بشخصه المصيرين معاً: ففي طور أول قام له أبو يعقوب الموحد مقام المعتصم للكندي، وفي طور ثانٍ عانى من ابنه المنصور ما عاناه المعتزلة من انقلاب المتوكل، ابن المعتصم.

وبالفعل، إن كبير مؤرخي العصر الموحد عبد الواحد المراكشي لا يتردد في أن يجعل من أبي يعقوب مأموناً ثانياً أو حكماً ثالثاً. وفي ذلك يقول: «كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية، وكان شديد الملوكية، بعيد الأهمية، سخياً جواداً... مع إثارة للعلم شديد وتعطش إليه مفرط... يحفظ أحد الصحيحين... حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن... ثم

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٨٨) إن الظاهرية، برفضها القياس والإجماع والرأي، اعتمدت مرجعية قرآنية - حديثة خالصة. فالظاهري هو بالضرورة صاحب حديث، وإن لم يكن أصحاب الحديث بالضرورة ظاهريين. ومن هنا اقترنت ميون المنصور الظاهرية بميول حديثة (لا نَسْ أن أهل الحديث وعلمه كانوا محل اضطهاد واستبعاد في عهد المرابطين). والمراكشي يشير في موضعين على الأقل إلى انتصار المنصور لأهل الحديث بالتوازي مع انتصاره لأهل الظاهر. يقول: «وانتشر في أيامه للصالحين واحتلت لأهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس»، ثم يضيف: «وكان عنده طلبة العلم أعني علم الحديث - ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده... فعظم أمرهم، وبالغ المرحدون في برهم وإكرامهم» (المعجب، ص ٣٥٤ و٣٥٦).

طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، فجمع كثيراً من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطب... ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي... وفي الجملة لم يكن في بني عبد المؤمن في من تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا»^(٨٩).

وأبو يعقوب هذا هو الذي كلف ابن رشد بوساطة ابن طفيل. بحسب الرواية المشهورة، بتلخيص كتب أرسطو وتفسيرها لتقريب مأخذها على الناس وتخليصها مما سماه الخليفة الموحدي «قلن عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه»^(٩٠).

ولا شك في أن قرار التكليف هذا ترجم عن نفسه في ورشة عمل منقطعة النظير في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية لإعادة بناء المنظومة الأرسطية من خلال أقاويلها الذاتية مجردة - بالقدر المتاحة إمكانيته في الشروط المعرفية للعصر - عن أقاويل الشراح وإضافات المعلقين و«تجاوزاتهم». ولكن ورشة العمل الفلسفية هذه بقيت - بحكم شروط العصر أيضاً - فردية ومستورة. فابن رشد وحده، وليس أحد سواه، من تصدى لهذا العمل على مدى ثلث قرن الذي دامته خلاله خلافة أبي يعقوب وابنه المنصور. ولقد أداره في شبه سرية، وتحت الحماية المباشرة للمخليفين الموحديين. وعندما ارتفعت عنه هذه الحماية كانت نكبته ومحرقه كتبه. وليس أدل على شروط الخوف - أو التخوف على أقل تقدير - التي تصدى فيها ابن رشد لأداء المهمة المطلوبة منه، من الرواية التي يوردها صاحب «المعجب» على لسانه عن الجو النفسي الذي دارت فيه دخلته الأولى على الخليفة الموحدي: «لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما. فأخذ أبو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بقضه إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري. فكان أول ما فاتحني به أمير

(٨٩) «المعجب»، ص ٣٠٥ و٣١٥.

(٩٠) إن ناقد العقل العربي، المسكون بهاجس «القطعة المعرفية المغربية مع المشرق»، لا يجد من تحليل آخر لقرار التكليف ذاك سوى «الثورة في الأندلس على تقليد المشرق»، إذ «في إطار هذه الثورة يجب أن ننظر إلى عمل ابن رشد. وإذا كانت الكتب التي تَرْجَمَتْ لابن رشد تشير إلى أن الخليفة الموحدي قد طلب منه القيام بشرح كتب أرسطو، فليس ذلك فقط لكون «عبارات أرسطو» مستقلة قلقة، كما يحكي المؤرخون، بل لأن هذا الخليفة كان يريد - في ما نعتقد - شرحاً جديداً أصيلاً لا يتقيد بتأويلات فلاسفة المشرق» («نحن والتراث»، ص ٣٧١ و٣٧٢).

بن طفيل - مؤرخ الفلسفة في الأندلس

المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي: ما رأيهم في السماء - يعني الفلاسفة - أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعل وأتكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل. ففهم أمير المؤمنين مني الروح والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له. ولم يزل يسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك. فلما انصرفت أمر لي بمال وخضة سنية ومركب^(٩١).

وإذ أخذنا بعين الاعتبار أن اللقاء بين ابن رشد وأبي يعقوب جرى في نحو لعام ٥٦٠هـ على ما يجمع أكثر الباحثين^(٩٢)، فلنا أن نستنتج أن ابن رشد أتم المرحلة

(٩١) «المعجب»، ص ٣١٣ - ٣١٤. والتسويد منا. والواقع أنه لم يكن الاشتغال بالفلسفة هو رحله لمحظور، بل حتى اقتناء كتبها. والمراكشي هو من يروي أيضاً قصة اخوف العظيم الذي نتاب الطبيب الإشبيلي أبا الحجاج العراقي عندما دهم عبيد الخيفة أبي يعقوب بيته وصادروا خزائنه التي كانت تتضمن - فيما تتضمنه - كتباً في صناعة أحكام النجوم. ولكن «زال من نفسه لروح» عندما علم أن أمير المؤمنين طلب تلك الكتب، لا ليصادرها وبالتالي ليحاقيه، بل ليضمها إلى مكتبته التي اجتمع له فيها من الكتب «ما لم يجتمع لمك قبله ممن ملك المغرب».

(٩٢) خلا الجابري الذي يؤكد في كتابه «ابن رشد سيرة وفكر» (مركز دراسات «الوحدة العربية»، بيروت ١٩٩٨، ص ٨٢) أن اللقاء تم عام ٥٤٨هـ يوم كان أبو يعقوب لا يزال والياً على إشبيلية. ورفض الجابري من هذا التأكيد أن يقول إن اللقاء «جرى قبل أن يبدأ ابن رشد في التأليف في الفلسفة»، الشيء الذي يعني أن المشروع الرشدي هو من البداية مشروع موحد، وهذا ما يؤكد بدوره أفضال العهد الموحد - الذي يؤمله الجابري - على الفلسفة. والحال أن الجابري يضرب عرض الحائط - بتوكيده ذلك - ثلاث حقائق تاريخية. أولاً، أن الحليفة الموحدية الأول عبد المؤمن عيّن ابنه أبا يعقوب والياً على إشبيلية عام ٥٥١هـ، وليس عام ٥٤٨هـ، إذ انتظر على ما يبدو أن يبلغ الثامنة عشرة. وثانياً، أن أبا يعقوب - المولود عام ٥٢٣هـ - ما كان له من العمر عام ٥٤٨هـ. فيما إذا صح أن اللقاء جرى في ذلك العام - سوى ١٥ سنة. فهل يحفل أن يكون غلام في الخامسة عشرة قد هضم أقوال «أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة» في مسألة قدم العالم وحدوثه، وهضم في الوقت نفسه «احتجاج أهل الإسلام عليهم؟» وثالثاً، أن نص المراكشي يشير إلى أن «لمكلف الأول بمهمة تلخيص كتب أرسطو هو ابن طفيل، ولكن هذا أحالها على ابن رشد تاللاً له: «سمعت اليوم أمير المؤمنين يشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض =

الأولى من اشتغاله بالفلسفة (ما بين ٥٥٠ و ٥٦٠هـ) في سرية تامة، وفي حال من الخوف الدائم من أن يُكتشف أمره، وهي المرحلة التي أنجز فيها: «المختصر في المنطق»، «المختصر في النفس»، «مختصر المجسطي»، «جوامع السماع الطبيعي»، «جوامع السماع والعالم»، «جوامع الكون والفساد»، «جوامع الآثار العلوية»، «جوامع ما بعد الطبيعة»^(٩٣). وهذا لا يعني أن ابن رشد، بعد لقائه بأبي يعقوب الموحد، قد كسر حاجز السرية. فلا شك في أن تنفيذه للمهمة التي كلفه بها ثاني الخلفاء الموحدين في تلخيص كتب أرسطو، قد تمّ هو الآخر في خفاء ابلاط، وما كان له أن يخرج إلى العلن. ولو كان ذاع عنه اشتغاله بالفلسفة وعلوم الأوائل لما كان جرى تعيينه قاضياً على إشبيلية عام ٥٦٥هـ، ثم قاضياً على قرطبة بين عامي ٥٦٨ و ٥٧٨هـ، وأخيراً قاضياً لقضائتها عام ٥٨٠هـ. فالنصاب العلني للفلسفة طيلة تلك الفترة كان لا يزال رجيماً، وهذا بدليل كلام ابن طفيل في مدخل «رسالة حي بن يقظان»، التي كتبها قبيل وفاته عام ٥٨١هـ، عن كونها محصورة في «الملة الحنفية ولشريعة المحمدية» وأعدم وجوداً في الصقع الأندلسي من الكبريت الأحمر. ومن هذا المنظور نستطيع أن نقول إن ابن رشد كان يعاني من ازدواجية شبه مماثلة لتلك التي عانى منها ابن باجة. نقول «شبه مماثلة» - لا مماثلة - لأن الانقلاب الموحد، السياسي والثقافي معاً، سدد ضربات موجعة إلى «الأوليفارشية الفقهية» الأندلسية. ومن المؤكد أنه لم تعد لها في عهد بني عبد المؤمن السطوة التي كانت لها في عهد بني تاشفين. ومع ذلك، فإن ابن رشد، الذي كان أقوى تماسك منطق من ابن باجة وأكثر التزاماً بالمطابقة بين فكره وحياته، لم يتحمل على ما يبدو حتى تلك الازدواجية المخففة. ومن ثم فقد عنّ له، وهو دوماً تحت مظلة الحماية الموحدية، أنه مستطيع أن يحقق ما امتنع ابن طفيل وابن باجة من قبله عن تحقيقه، أي التوفيق بين الفلسفة والشريعة، وذلك هو المشروع الذي

- أغراضه ويقول: «لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب ما أخذها على الناس». فمن كان يثب فضل قوة لذلك فافعل، وإنني لأرجو أن تني به لما أصعبه من جودة ذهنك وصفاء فريحتك وقوة نزوعك إلى الصنعة. وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سنني واشتغالي بالحنعة» («المعجب»، ص ١٣٠). ولحال أن ابن طفيل المتوفى عام ٥٨١هـ ما كان له أن يتحدث منذ عام ٥٤٨هـ عن «كبره سنه» فيومئذ ما كان عمره يزيد على أربعين سنة إذا صح أن ولادته كانت عام ٥٠٤هـ.

(٩٣) انظر: «كرونولوجيا مؤلفات ابن رشد في أصولها العربية» في: جمال الدين العلوي: «العتن الرشدي»، مصدر آف الذكر، ص ٤٧ - ١٢٦.

تصدي له في كتبه «الكلامية» الثلاثة: «فصل المقال» و«مناهج الأدلة» و«تهافت التهافت»، التي يعود تاريخ كتابتها - بحسب الكرونولوجيا التي وضعها جمال الدين العلوي - إلى الأعوام ٥٧٤ - ٥٧٦ هـ. والواقع أنه في هذه المؤلفات الثلاثة خرج الاشتغال الرشدي بالفلسفة إلى العلن. وبرغم كل التحولات التي اتخذها ابن رشد، وفي مقدمتها الحرص على توجيه خطابه الفلسفي والكلامي إلى من سمّاهم «أهل البرهان» و«أهل التأويل» - الذين كاد أن يجعل منهم طبقة مغلقة - فلما أن نفترض أن عين الأوليغارشية لفقهاء الأندلسية قد احمزت عليه منذ ذلك الحين ويدون الدخول في تفاصيل تاريخية ليس هنا مكانها، فقد راحت تتحين القرص لتخترق حاجز الحماية الموحدية التي وفرها له أبو يعقوب وابنه يعقوب المنصور من بعده. وتشير المصادر التاريخية إلى أن فقهاء الأندلس، وتحديدًا قرطبة - أمنع مواقعهم - شكلوا وقاداً أول وسيروه إلى مراكش، العاصمة المغربية للدولة الموحدية، مزوداً بـ «ملف» لعرضه على يعقوب المنصور. وكان ذلك سنة ٥٩٠ هـ على ما يروي الأنصاري المراكشي الذي يورد - نقلاً عن أبي الحجاج بن عمر - التفاصيل التالية عن محتويات «الملف» «وأما أبو الوليد بن رشد فكان قد نشأ بينه وبين أهل قرطبة قديماً وحشة جرتها أسباب المحاسدة ومنافسة طول المجاورة، فانتدب الطالبون لنفي أشياء عليه في مصنفاته تأولوا الخروج فيها عن سنن الشريعة، وإثارة لحكم الطبيعة، وحشروا منها ألفاظاً عديدة وفصولاً ربما كانت غير سديدة، وجمعت في أوراق، وقيل إن بعضها ألقي بخطه، ومشى راقعوه إلى حضرة مراكش، فشغل عن الالتفات إليها والوقوف عليها ما كنت الحال بسبيله من الاستعداد، والنظر في مهمات الجهاد^(٩٤). فنكص الطالبون على أعقابهم، وفتنوا من الظفر بسرعة ليأبهم»^(٩٥).

وما اكتفى المنصور بأن أصم أذنيه عن دس السعاة، بل إنه عندما عبر البحر وقدم إلى قرطبة لمواجهة الأذفنش (= ألفونس الثامن) بعث يستدعي أبا الوليد بن رشد ويكرمه ويتقصد أن يوفيه مكاناً رفيعاً في مجلسه، على مسمع ومرارى من أعيان قرطبة،

(٩٤) كان المنصور يتهاى يومئذ لخوض معركة الأرك الشهيرة التي هزم فيها «الأذفنش»، ملك البرتغاليين، هزيمة منكرة يقول عنها صاحب «المعجب» أنها كانت «أخيراً لهزيمة الرلاقة في مدة يوسف بن ناشقين أمير المرابطين».

(٩٥) الأنصاري المراكشي: «الليل والكلمة بكتاي الموصول والصلة»، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، السفر السادس، ص ٢٥.

توكيداً منه على ثقته^(٩٦) به. ولكن كما يضيف صاحب «الذليل والتكملة» «الأعداء - لا كانوا ١١ - لا يسأمون من الانتظار، ويرقبون أوقات الضرار». فقد استغلوا طول إقامة المنصور في إشبيلية وقرطبة - بعد انتصاره الكبير في وقعة الأرك^(٩٧) - ليجددوا سعايتهم وليعدوا ملفاً ثانياً رصدوا فيه ما رصدوا «من شنيع الهفوات، الماحية لأبي الوليد الكثير من الحسنات، فقرئت بالمجلس وتؤولت أغراضها ومعانيها. . . فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج». ويبدو أنه قد أسقط يومئذ في يد المنصور، إذ لم يكن «يمكن عند اجتماع لملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام». فلم يجد بداً من أن يأمر «طلبة مجلسه وفقهاء دولته بلحضور بجامع المسلمين، وتعريف الملأ بأنه مرق من الدين، وأنه استوجب لعنة الضالين». وهكذا بدأت «نكبة ابن رشد» التي انتهت به منفياً إلى أليسانة «لقول من قال إنه ينسب في بني إسرائيل، وإنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس».

وما طال قرار النفي ابن رشد وحده، بل جملة أيضاً من «المشتغلين بالحكمة وعلوم الأوائل»، يسميهم ابن أبي أصيبعة: أبا عبد الله بن إبراهيم الفقيه وقاضي بجية، وأبا الربيع الكفيف، وأبا العباس الحافظ الشاعر، وأبا جعفر الذهبي الطبيب ومزوار الأطباء الذي كان المنصور يثني على خدمته له ويقول عنه «إن أبا جعفر الذهبي كالذهب الإبريز الذي لم يزد في السبك إلا جودة».

ولنسج للمنصور أنه، بقراره نفي ابن رشد، قد أنقذ حياته. فثبتت تهمة المروق من الدين عليه في المحاكمة العلنية التي أقيمت له في الجامع الأعظم بقرطبة، كان يستوجب له لقتل - عقوبة كل من ثبت كفره. زد على ذلك أن المنصور لم يلبث أن

(٩٦) يروي ابن أبي أصيبعة قصة هذا اللقاء على النحو الآتي: «حدثني القاضي أبو مروان الباجي قال: . . . لم كان المنصور بقرطبة وهو متوجه إلى غزو الفنس، وذلك في عام أحد وتسعين وخمسة، استدعى أبا الوليد بن رشد، فلما حضر عنده ستره كثيراً، وقربه إليه حتى لمدى به الموضوع الذي كان يجلس فيه أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ حفص الهنتاتي، صاحب عبد المؤمن، وهو الثالث أو الرابع من العشرة (- العشرة الأوائل من مريدي ابن تومرت) . . . فلما قُرب المنصور ابن رشد وأجسه إلى جانب حادته، ثم خرج من عنده، وجماعة الطلبة وكثير من أصحابه ينتظرونه، فهنؤوه بمنزلته عند المنصور وإقباله عليه. . . وكان جماعة من أعدائه قد شيعوا بأن أمير المؤمنين قد أمر بقتله» («عيون الأئباء في طبقات الأطباء»، ص ٥٣١).

(٩٧) أقام المنصور في الأندلس بقية عام ٥٩١ وكامل عام ٥٩٢، ولم يعد إلى مراكش إلا في نهاية ٥٩٣ على ما يذكر صاحب «المعجب».

ابن طفيل * مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

تراجع عن قراره. فحال إيايه إلى مراکش في آخر عام ٥٩٣ أو مطلع عام ٥٩٤ بادر - وقد انعتق من ضغط فقهاء قرطبة في عقر درهم - يعفو عن ابن رشد ويستقدمه إلى بلاطه في مراکش ويكرمه ويغدق عليه إلى حين وفاتها، كليهما معاً - بفارق أشهر - سنة ٥٩٥ هـ.

ولكن، لئن يكن المنصور قد انقذ حياة ابن رشد، فقد قضى بالمقابل بالإعدام النهائي على الفلسفة في الأندلس. ذلك أن قرار النفي ما كان وحده ليرضي فقهاء قرطبة. فعدوهم لم يكن ابن رشد بشخصه، بل بفكره. وهم ما استهدفوه بقدر ما استهدفوا الفلسفة التي أباح لنفسه الاشتغال بها. ولئن سكتوا على عدم قتله فلأن المنصور أمسكتهم بقتله الفلسفة من خلال المرسوم لشهير لذي أصدره، غداة المحاكمة، بخط كاتبه أبي عبد الله بن عياش، بإدانة الفلسفة في مبدئها بالذات وإدانة التعاطي بها كما لو أنه عناية للشيطان وذئب في باطن الإسلام وإقذاء في جفن الدين. وقد جاء في هذا المرسوم الذي هو الأرهب بإطلاق في تاريخ قمع الفلسفة في الأندلس «قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام... فخلدوا في العالم ضحفاً ما لها من خلّاق، مسوّد المعاني والأوراق، يُعدها من الشريعة بُعد المشرقين، وتباينها تباين الثقلين، يوهمون أن العقل ميزانها والحق برهانها، وهم يتشعبون في القضية لواحدة فرقاء، ويسيرون بها شواكل وطرقاً. ذلكم بأن الله خلقهم للنار، ويعمل أهل النار يعلمون، ليحملوا أوزارهم كامة يوم القيامة ومن أوزار الدين يضلّونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرّون، ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين إنس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون... فكانوا عليها أضرب من أهل الكتاب... لأن الكتابي يجتهد في ضلال ويجد في كلال، وهؤلاء جهدهم التعطيل، وقصاراهم التمويه والتخييل... فلما أراد الله فضيحة عمّائهم وكشف خوايتهم، وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال، وظهرها موشح بكتاب الله، وياطنها مصرّح بالإعراض عن الله^(٩٨)، كُيس الإيمان منها بالظلم، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم، مزلة للأقدام، ووهم يدب في باطن الإسلام، أسياف أهل الصليب دونها مقبولة، وأيديهم

(٩٨) الإشارة هنا واضحة إلى أن المقصود الأزل كتب ابن رشد «الكلامية» - قبل «البرهانية» - إذ فيها حصراً حاول أبو الوليد التوفيق بين الفلسفة والشريعة.

عما يدلّه هؤلاء مغلوله^(٩٩)، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهريهم وزيّهم ولسانهم، ويخالفونها بباطنهم وغيّهم وريثانهم. فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين، نبذناهم في الله نبذ النواة، وأقصيناهم حيث يُقصى السفهاء من القوة... فاحذروا، وفقكم الله، هذه الشرذمة على الإيمان حذرهم من السموم السارية في الأبدان. ومن عُثر له على كتاب من كتبهم، فجزأوه النار التي بها يُعذب أربابها، وليّهم يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآله^(١٠٠).

وقد قرن المنصور النظر بالعمل، وأصدر أمره - والرواية هنا لابن أبي أصيبعة - بتعقب كتب الفلسفة وإحراقها وملاحقة المشتغلين بها والحائزين إليها والبائعين لها من «المكتبيين»، وكلف بهذه المهمة أبا بكر بن زهر لما له من خبرة - وهو سليل أسرة الأطباء الأندلسيين المشهورة - «كتب المنطق والحكمة». والرواية موضوعة هنا مرة ثانية على لسان القاضي أبي مروان الباجي: «وكان المنصور قد قصد ألا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في البلاد. وأبد كثيراً منها بإحراقها بالنار، وشدد على ألا يبقى أحد يشتغل بشيء منها، وأنه متى وجد أحد ينظر في هذا العلم أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه، فإنه يلحقه ضرر عظيم^(١٠١)». وتطالعنا النعمة عينها لدى كبير مؤرخي العصر الموحدى، عبد الواحد المراكشي، ولكن باختصار أشد: فبعد المحاكمة التي أجراها المنصور لأبي الوليد في مجمع من «الرؤساء والأعيان من كل طبقة»، وبعد أن «أمر الحاضرين بلعنه، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده»، أمر «إبعاده من يتكلم في شيء من هذه العلوم، وكتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناصر في ترك هذه العلوم جملة واحدة، وإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة، فانتشرت هذه الكتب [= الرسائل الموجهة باسم المنصور] في سائر البلاد وعمل بمقتضاها^(١٠٢)».

وهكذا، وكعقبي مباشرة لمرسوم المنصور وإجراءاته التنفيذية فقدت الفلسفة في

(٩٩) لا ننسى أن اتهام المتفلسفين المسلمين بالتبعية للكتابين له مفعول مضاعف في ظروف الحرب الاستردادية والأندلولوجيا الجهادية.

(١٠٠) «الليل والتكملة»، مصدر ألف الذكر، السفر ٦، ص ٢٦ - ٢٨.

(١٠١) «عيون الأنباء»، ص ٥٢٣.

(١٠٢) «المعجب»، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

ابن طفيل . مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

الأندلس - على ما هي عليه أصلاً من رقة حال وهشاشة وضع - مشروعيته النظرية وإمكانيتها العملية معاً^(١٠٣) . ولم تقم لها، حتى بعد موت المنصور، قيمة^(١٠٤) .

ويدون أن ندخل هنا في نقاش حول التفاسير العديدة التي قدمها المؤرخون القدامى والباحثون المحدثون لنكبة ابن رشد، فإننا سنلاحظ أن هذه النكبة لا يمكن أن تُقرأ كما لو أنها عرض عارض وحالة فردية تختص بابن رشد حصراً. فهي لا تقبل التفسير إلا في سياقها الموضوعي العام بوصفها الفصل الختامي - والأكثر مأساوية - من

(١٠٣) فضلاً عن اعتبارها الاجتماعي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن أهمي شعراء العصر وأندهم على السخرية نكريكانية - وهو الحاج أبو الحسين بن جبير (ت ٦١٤هـ) - سلط على ابن رشد، وعلى الفلسفة والمتكلمين عموماً - بمناسبة صدور المرسوم الخلفي - وإبلاً متدفقاً من طلفات لسانه الشديد السم. ومن ذلك قوله:

قد ظهرت في عصر فرقة	ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدي في الدين إلا بما	سن ابن سينا وأبو نصر
وقوله:	

يا وحشة الإسلام من فرقة	شاعة نفسها بالسفنة
تدبذت دين الهدى خلفها	رادعت الحكمة والفلسفة
وقوله:	

لم تلزم الرشيد يا ابن رشد	لما علا في الزمان جدك
وكنيت في الدين ذا وياه	م هكذا كان فيه جدك
وقوله:	

نقد القضاء بأخذ كل مرمه	متفلسف في ادين متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقبل حقيقة	إن البلاء موكل بالمنطق
وقوله:	

خليفة الله أنت، حث	فازق من المسعد خير مرفا
حميتم الدين من عداه	وكل من رام فيه نكف
أطلعكم الله سر قوم	شقوا العصا بالنفاق شفا
تفلسفوا وادعوا علوماً	صاحبها في المعاد رشفها
وحثقروا الشرع وادروه	سفاهة منهم وحمق
أوسعتهم لعنة وغزياً	وقلت بعداً لهم وسحقا
فابق لدين الله كهشاً	فإبه م بقيت بقا

(١٠٤) يذكر المقرئ أن البامرن، ابن المنصور، قس ابن حبيب «على هذا العلم [الفلسفة] بإشيلية، وهو علم معقود بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره، فلذلك تخفى تصانيمه» («فتح الطيب»، ج ٤، ص ١٧٦).

رواية متتالية الفصول تحكي بؤس الوضعية الفلسفية في الأندلس.

[وقد يكون مباحاً لنا أن نفتتح هنا قوسين لنلاحظ أن ناقد العقل العربي، في محاولة منه لإنقاذ أطروحته عن مثالية الوضعية الفلسفية الأندلسية في عهد الموحدين، وحتى في عهد المنصور الذي يقول عنه إنه «كان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية»، يصبر على أن يتجربى لنكبة ابن رشد، لا عن أسباب أيديولوجية تشي ببؤس تلك الوضعية، بل عن أسباب سياسية من شأنها أن تعتم على هذا البؤس وتحجبه عن الوعي. فعنده أن المنصور نكب ابن رشد لتواطئه في مؤامرة انقلابية دبرها ضده أخوه أبو يحيى والي قرطبة. وهو يدهم هذه الأطروحة عن تورط ابن رشد في مؤامرة أبي يحيى بشواهد يسوقها من تفسيره لـ «جمهورية» أفلاطون ضممتها ـ على ما يؤكد الجابري ـ انتقادات مباشرة وضمنية لواقع الطغيان والاستبداد في الحكم في عهد المنصور. ويخلص من ذلك كله إلى القول: «إذا، لم يكن سبب نكبة ابن رشد هو ما ذكره المنشور الذي أصدره الخليفة المنصور، والذي يتهم ابن رشد وجماعة من أصحابه بالاشتغال بالفلسفة والعلوم القديمة. كلا، لقد وقعت الفلسفة هنا مرة أخرى ضحية للسياسة. وبدلاً من أن يأمر الخليفة بإحراق الكتاب الذي أثار غضبه، كتاب «جوامع سياسة أفلاطون» [الجمهورية]، أمر بإحراق كتب لفلسفة، ليس انتقاماً من الفلسفة ذاتها، بل تغطية للكتاب المقصود بالذات. وبدلاً من أن يحقق الخليفة المنصور مع ابن رشد في علاقاته بأخيه أبي يحيى، حقق معه في عبارة قيل إنه حكى فيها قول اليونان: «إن الزهرة أحد الآلهة»^(١٠٥). والحال أن أطروحة ناقد العقل العربي هذه تثير سؤالين تاريخيين، وثالثاً معرفياً. فلو صح اشتراك ابن رشد في المؤامرة، فلماذا لم يقتله المنصور مع أنه لم يتردد في قتل أخيه نفسه (وكان قتل من قبل أخاً أول له وعماً في مؤامرة عائلية سابقة) قاللاً له قولته الشهيرة قبل أن يأمر بضرب عنقه: «أنا أقتلك بقوله ﷺ: «إذا بومع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما»؟ ولو صح أيضاً اشتراكه في المؤامرة التي يعود تاريخها بحسب صاحب «المعجب» إلى نحو العام ٥٨٧هـ، فلماذا انتظر المنصور خمس سنوات أو ربما ستاً لينكب ابن رشد عام ٥٩٣هـ؟ وفي إطار هذا السؤال يشور سؤال آخر: لماذا لم يفتنم المنصور، والحال هذه، فرصة ملف الاتهام الأول الذي رفعه وقد فقهاء الأندلس إلى «حاضرة مراکش»

(١٠٥) د. محمد عابد الجابري: «المثقفون العرب في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٥، ص ١٥٣.

سنة ٥٩٠هـ ليصقي حسابه مع بن رشد؟ بل لماذا، بدلاً من أن ينكبه منذ ذلك الحين، عمد إلى إكرامه ذلك الإكرام الكبير وإنزاله في مجلسه منزلة «رابع لعشرة» على مسمع ومرأى من أعيان قرطبة وفقهائها، وذلك عندما عبر إلى الأندلس سنة ٥٩١هـ استعداداً لخوض معركة الأرك؟ على أن الأهم من جميع هذه الأسئلة السؤال المعرفي المتعلق بتلخيص ابن رشد لجمهورية أفلاطون. فإصراراً من الجابري على أن الانتقادات الجزئية لابن رشد للواقع القائم في جزيرة الأندلس إنما هي وجهة ضد استبداد المنصور وطغيانه، يضطر إلى أن يزيح تاريخ تأليف «جوامع سياسة أفلاطون» من مطلع ستينيات القرن السادس الهجري إلى مطلع التسعينيات منه. فخلافاً لإجماع الباحثين (إرفن روزنتال، مترجم الكتاب من العبرية إلى الإنكليزية، وحسن مجيد العبيدي مترجمه من الإنكليزية إلى العربية^(١٠٦))، وعلى الأخص جمال الدين العلوي في الكرونولوجيا الممتازة التي وضعها لمؤلفات ابن رشد، يذهب الجابري إلى أن «جوامع سياسة أفلاطون» ليس من مؤلفات ابن رشد المبكرة، بل من مؤلفاته المتأخرة، وربما آخر مؤلف له، بدون أن يسوق على هذه المصادرة أي دليل مادي أو قرينة معنوية سوى كونها تخدم أطروحته عن السبب السياسي المزعوم - لا الأيديولوجي - لنكبة ابن رشد. ويدون أن ندخل هنا في تفاصيل الأدلة التي قدمها الباحثون المعنيون على كون تأليف الكتاب يعود تاريخه إلى العقد السابع، أو مطلع العقد الثامن على أبعد تقدير، من القرن السادس للهجرة، فإننا نقترح هنا دليلاً - نعتقد قاطعاً - على التبرير في تلخيص ابن رشد لـ «جمهورية» أفلاطون. فالجابري يورد - بالترجمة عن روزنتال - الإهداء الختامي الذي ينهي به ابن رشد تلخيصه لسياسة أفلاطون: «هذه، أدام الله عزكم وأطال بقاءكم، جملة الأقاويل النظرية الضرورية في هذا الجزء من العلم الذي تشتمل عليه هذه الكتب المنسوبة لأفلاطون. لقد شرحناها بأوجز ما يمكن نظراً لاضطراب الوقت. وما كنا لننوفق بهذا لولا مساعدتكم لنا في فهمها»^(١٠٧). وبغض النظر عن هوية الشخص الموجه إليه الإهداء (وهو الأمير أبو يحيى بتقدير الجابري، والخليفة أبو يعقوب الموحد بتقدير مترجمي الكتاب إلى الإنكليزية والعربية)، فإننا نلاحظ أن ابن رشد البالغ من العمر سبعين عاماً سنة ٥٩١هـ، ما كان سيحتاج إلى المساعدة من

(١٠٦) انظر: «تلخيص السياسة» لابن رشد، نقله إلى العربية حسن مجيد العبيدي وفاطمة كاظم الذهبي، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨.

(١٠٧) «المثقفون في الحضارة العربية»، مصدر آف الذكر، ص ١٤٩، والتسديد منا.

أحد - لو صح أنه وضع تلخيص «الجمهورية» في تلك السنة - ليفهم أفلاطون، وهو الذي كان أنهى تلخيص مؤلفات أرسطو الأكثر تعقيداً بما لا يقاس من كتابات أفلاطون، وشرحها. فلإشارة ابن رشد إلى أنه كان بحاجة إلى مساعدة راعي مشروعه لفهم أفلاطون تقطع بتبكير تلخيصه لكتاب «الجمهورية». وبما أن راعي مشروعه قد أمده لا بالدعم المادي والمعنوي فحسب، بل كذلك وكما يضيف نص الإهداء. بـ «جميع المشاركة في جميع ما أحببناه في هذه العلوم» وبـ «العون على التمكن فيها من جميع الوجوه»، فليُسمح لنا بأن نفترض أن الراعي الفكري لابن رشد في باكورة اشتغاله بعلوم الفلسفة ليس أحداً آخر سوى ابن طفيل نفسه، الذي رأى النور قبله بنحو ستة عشر عاماً ومات قبله أيضاً بنحو أربعة عشر عاماً، والذي سيتابع رعايته نه يوم سيقدمه لأمير المؤمنين أبي يعقوب ويحيل إليه مهمة تلخيص كتب أرسطو بعد أن تحقق من «قوة نزوجه إلى الصناعة».

العوامل الرئيسية والثانوية لبؤس الوضعية الفلسفية في الأندلس

لننقل الآن القوميين، ولنستعد لوحة بؤس الفلسفة في الأندلس بقسماتها الرئيسية الأربع التالية:

أولاً - هيمنة الأحادية المالكية الفروعية، التي سدت المنافذ لا أمام «العلوم الدنيوية» من منطق وفلسفة فحسب، بل حتى أمام «العلوم الأصيلة» من علم أصول الدين وعلم أصول الفقه ومذاهب المغايرة، وحتى علم الحديث. والحال أن الفلسفة، بطبيعتها، لا تعيش لها إلا في ظل التعددية.

ثانياً - هيمنة الوضعية الجهادية في الأندلس وما تستتبعه من تعبئة أيديولوجية ووجدانية دائمة. والحال أن لفلسفة لا تعيش لها إلا في أجواء الانفراج - النسبي على الأقل - للعصبيات والتوترات.

ثالثاً - التحالف العضوي بين السلطتين السياسية والفقهية الذي بلغ أوجه في العهد المرابطي، ولم تتراخ قبضته في مطلع العهد الموحيدي إلا لتضرب بمزيد من القوة مع رضوخ المنصور في آخر حياته لضغط الأليغارشية الفقهية بعد وقعة الأرك، التي يبدو أنها أوجت من جديد نار الأيديولوجيا الجهادية وردت الاعتبار والحيوية معاً إلى الطبقة القيّمة عليها: الفقهاء. والحال أنه خلا حقبة انحلال السلطة المركزية في زمن ملوك الطوائف وحقبة البلبنة الأيديولوجية التي مثلها التبري المضمهر والمعلن للمقصد الظاهري

ابن طفيل: مؤرخ يؤمن بالفلسفة في الأندلس

من قبل ثاني خلفاء الموحدين وثالثهم، فإنه ما أمكن للفلسفة في الأندلس أن تحقق تراكمًا تاريخيًا هو لها شرط الخصوبة والبقاء. ولهذا بقيت الظاهرة الرشدية - على ألقها الخاطف للأنظار - بلا غد، وما مثلت في طوق الحصار الأيديولوجي المفروض على الفلسفة في الأندلس سوى ثغرة أمكن سدها بسهولة وسرعة معاً.

رابعاً - النصاب اللاشعري للفلسفة في الأندلس الذي أجبرها على أن تكون لاجتماعية (Asociale)، لا من حيث نفرة الجمهور منها فحسب، بل كذلك من حيث نفرتها هي نفسها من الجمهور. فعلاوة على أنها بقيت فلسفة أفراد، ولم تفلح حتى في أن تكون فلسفة نخبة - شأن شقيقتها في المشرق - فقد جذرت نفسها، سواء من المنظور الاستمولوجي أو من منظور استراتيجية الخطاب، في إشكاليات لاجتماعية: كهف ابن مسرة، متوحد ابن باجة، جزيرة ابن طفيل العزلاء، الطبقة المغلقة لأهل البرهان عند ابن رشد.

والى هذه المعالم الرئيسية الأربعة لموجة الوضعية الفلسفية الأندلسية، نستطيع أن نضيف، على سبيل الاستكمال، اللمسات الأربع التالية:

أولاً - لم تعانِ الفلسفة من اضطهاد فقهاء الأندلس فقط، بل كذلك من اضطهاد عامتها. فالعامة مقولة ثابتة من مقولات تفسير التاريخ الأندلسي، ولا سيما فتنه. ويظهر أن أشرس عوام الأندلس عوام قرطبة. ففيهم يقول المقرئ - نقلاً عن ابن سعيد صاحب كتاب «المغرب في حلال المغرب» -: «هي [= قرطبة] من أحسن بلاد الأندلس مبانى، وأوسعها مسالك، وأبرعها ظاهراً وباطناً... ولأهلها رياسة ووقار، ولا تزال سمة العلم متوارثة فيهم. إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً، وأشدهم تشجيعاً وتشغيلاً، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاة وقلة الرضى بأمورهم. حتى أن السيد أبو يحيى بن يعقوب بن أبي عبد المؤمن^(١٠٨) لما انفصل عن ولايتها قيل له: كيف وجدت أهل قرطبة؟ قال: مثل الجمل إن خفت عنه الحمى صاح، وإن أثقلت به صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنتجنبه، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كن عامتها شراً من عامة العراق»^(١٠٩). ويندوره، يؤكد كلوديو سانشيز ألبورنوث - وهو اختصاصي كبير معاصر

(١٠٨) هو آخر المتصور الذي أمر بضرب عنقه عقاباً له على ما زعمه فيه من طمعه بعرشه.

(١٠٩) «فتح الطيب»، ج ٢، ص ١٠.

بتاريخ إسبانيا الإسلامية وفلسفتها - على الدور القمعي لعامة الأندلس، وتحديداً قرطبة، في مواجهة أهل الفكر: «ما كان أسهل على الوعاظ الدينيين من تأليب هؤلاء العوام على المفكرين ورجال الفكر المشكوك في أنهم من أهل البدعة. ولطالما اضطر التعاليميون والفلاسفة والشعراء إلى اتقاء شر ورعهم المتشكك»^(١١٠). وهذا ما كان لاحظته أيضاً أرنست ريتان في وقت مبكر: «إن أول ما ينبغي أن نلاحظه، وما قد يبدو مدهشاً للوهلة الأولى، هو أن تلك الاضطهادات كانت تروق جداً للشعب، وأن الأمراء الأكثر تثقفاً كانوا يرضخون فيأمرؤن بها، رغماً عن مشاربهم الشخصية، وذلك كوسيلة لكسب الشعبية. ولقد كان نفور العامة هذا من الفلسفة الطبيعية واحدة من السمات الأكثر تميزاً لإسبانيا الإسلامية، ومن الصعب ألا نرى فيه مظهراً من مظاهر تأثير العرق المغلوب على أمره»^(١١١). وبالفعل، أما كان القاضي صاعد أفادنا أن الحاجب المنصور بن أبي عامر أحرق الكتب التي جمعها الحكم الثاني «تجنباً إلى عوام الأندلس»؟ وقد كان ابن رشد من جملة الذين ذاقوا مرارة سفه العامة. فقد «أخبر عنه أبو الحسن بن قطرأل أنه قال: أعظم ما طرأ عليّ في الشكبة أنني دخلت أنا وولدي عبد الله مسجداً بقرطبة، وقد حانت صلاة العصر. فثار لنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه»^(١١٢). ويضيف ابن سعيد المغربي تفصيلاً آخر فيقول إنه حينما تحقق المنصور بن عبد المؤمن مما نسب إليه «أمر به، فأقيم، وجعل كل من يمر به يلعنه ويبصق في وجهه، ثم أمر بنقيه إلى ليسانة مدينة اليهود»^(١١٣).

ثانياً - تعود هشاشة الوضعية الفلسفية في الأندلس، في جملة الأسباب الفرعية، إلى الانعدام التام لظاهرة الترجمة في الغرب الإسلامي الذي لم يعرف، من قريب أو

(١١٠) انظر مقالته لمشهورة «إسبانيا ما قبل الإسلامية وإسبانيا الإسلامية» المنشورة ترجمتها الفرنسية في المجلة لتاريخية: أمشاج (Mélanges)، إصدار ١٩٦٧، ص ٣٢٩. والطريف في لأمر أن ألبورنوت يرة غلو عامة قرطبة في الورع والتعصب الانفعالي للدين إلى انتمائهم الأصبي إلى العرق الإسباني «الحار الدم» وإلى كونهم حديثي اعتناق للإسلام بعد ارتدادهم عن النصرانية. ومن هنا تسميته لهم بـ «المسلمين الجدد»

(١١١) ررنست ريسان: بن رشد و«لوشدية»، في المؤلفات الكاملة، م٣، تحقيق هنرييت بيسيشاري، منشورات كالمس ليفي، باريس ١٩٤٩، ص ٤٦.

(١١٢) «الذليل والتكملة»، ص ٦، ص ٢٧.

(١١٣) ابن سعيد: «المغرب في حلى المغرب»، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص ١٠٥.

ابن طين: مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

بعيد، حركة موازية لتلك التي شهدتها المشرق في القرون الأربعة الأولى في مجال النقل إلى العربية من اللغات الحضارية الأخرى. فجميع ما ورد إلى الأندلس من كتب الفلسفة وعلوم الأوائل إنما تمّ «تصنيعه» في ورشات لترجمة المشرقية في بغداد والموصل والبصرة وحران والرها ونصيبين ودمشق والإسكندرية. ولقد ظل ابن رشد في مشروعه لإعادة بناء المنظومة الأرسطية وتخليصها من «قلق عبارة المترجمين» أسير هذه الترجمات المشرقية عنها^(١١٤). ولم يكن بين مسلمي الأندلس، ولا على الأخص بين نصاراها، من يتقن اليونانية، للغة الأم للفلسفة. وحسبنا هنا شاهد وحيد يورده ابن جليجل صاحب «طبقات الأطباء والحكماء» في مقدمة تفسيره لـ «أسماء الأدوية المعروفة من كتاب ديسقوريدس». فقد ذكر أن «أرمانئوس الملك، ملك القسطنطينية» كاتب صاحب الأندلس عبد الرحمن الناصر «وهاداه بهدايا لها قدر عظيم، فكان في جملة هديته كتاب ديسقوريدس مصوّر الحشائش بالتصوير الرومي العجيب. وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقي الذي هو اليوناني. . . . ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي الذي هو اليوناني القديم، فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الإغريقي، ولم يُترجم إلى اللسان العربي»^(١١٥).

ثالثاً - مما أسهم أيضاً في هشاشة الوضعية لفلسفية في الأندلس كون الفلسفة، بل علوم الأوائل إجمالاً، قد ارتبطت اسماً وذكرأً بنوع من حركة «شعبوية» عرفتها الأندلس، وكان مدارها، تماماً كما في المشرق، المفاضلة بين العجم والعرب. وقد تزعم هذه الحركة «المستعربون» من السكان الإسبان الأصليين الذين أسلموا. ولم يكن مدار هذه المفاضلة دينياً، بل إثنيّاً. ففي مواجهة العصبيتين الكبيرتين في الأندلس:

(١١٤) من الأخطاء الطريفة التي رتكها ابن رشد في شروحه من جراء انتساره للغة الترجمة عن غير معرفة باللغة الأصلية قوله، على لسان أرسطو، إن الإغريق سموها بهذا الاسم لأن «الفرق كان في قديم الدهر في بلاد اليونانيين. . . . وهم الذين كانوا يسمون قبل ذلك إغريقية. . . . والظاهر من كلامه [= أرسطو] أنهم إنما سموها إغريقية من الفرق الذي أصاب بلادهم. وإن هذه اللفظة توافق فيها اللسانان، أعني لسان العرب ولسانهم» («تلخيص لأثار العلوية»، ص ٧٥). وما كان ليبدو في خلد لابن رشد أن الإغريق ما كانوا يسمون كذلك - فهم ما عرفوا أنفسهم إلا باسم الهلنيين - وإن الرومان هم الذين أطلقوا عليهم في زمن لاحق اسم «الإغريق»، وهذا ليس نسبة إلى موضع «مغروق»، بل نسبة إلى قبيلة كانت تعرف بهذا الاسم (١١٥) نعلان عن: «تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس»، ص ٢٣٥.

العربية والبربرية، برزت عصبية ثالثة هي عصبية المستعربين الذين طاب لهم أن يعبروا العرب والبربر؛ «بداوتهم»، وأن يُدُلُّوا عليهم بـ «حضارتهم»؛ وكان واحداً من أبرز الناطقين بلسان هذه العصبية الإسبانية [- الإسبانية بلغة أهل العصر] أبو عامر ابن غرسية، وهو من أبناء نصارى البشكنس [- الباسك اليوم] سبي صغيراً وربى على العربية والإسلام في كنف مولاة الأمير مجاهد العامري. وقد كتب ابن غرسية في نحو الثلث الأول من القرن الخامس للهجرة رسالة - كان لها دوي في حينه - في «تفصيل المعجم على العرب». وقد فخر بأبناء جلدته «ذوي الآراء الفلسفية الأرضية والعلوم المنطقية الرياضية»، وأزرى بـ «بنى الإمام» من «العرين» الأميين الذين لا حظ لهم، في كثير أو قليل، من علوم الأوائل من «يونان وساسان وكلدان». وقد تكاثرت الردود على الرسالة، وامتدت في الزمن إلى القرنين السادس والسابع، وكان مدارها، إجمالاً، أن «العرب بأصبتها أدركت بحلومها ما أدركته الأوائل بتعاليمها»، وأن البيان العربي قد سد مسد العلم الأعجمي، وأن المتشدين بعلوم «الاسترلوميقي والأرتماطيقي، والتعاليم المنطقية والموسيقى، والقنون الفلسفية والجومطريقي»، قد غلب عنهم أن العرب «أهل البيان وأربابه»، بسانتهم نزل الفرقان فرقع لهم على الأهم البنيان، وأنه «لما جاءت الديانة بطلت الكهانة، ولما نزل القرآن رُجر الشيطان»^(١١٦). وبصرف النظر عن الإنشاء الهجائي في الرسالة وفي الردود عليها، فقد ثبتت المساجلة في محصلة الختام اللامشروعية الدينية والمعجمة البيانية للفلسفة. وجعلت لعلوم الأوائل بحملتها فصاً شعبياً وجيماً ذا دلالية سالبة مضاعفة في سياق حقل تناولي متوتر بهواجس المواجهة العصبية مع الاسترداديين الإسبان^(١١٧).

(١١٦) نشر عبد السلام هرون رسالة ابن غرسية والردود عليها في «قادر المخطوطات». وانظر حرصاً ملخصاً لهذه المساجلة في: «تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس»، ص ١١٤ - ١٢٢.

(١١٧) بدون أن يدخل ابن رشد طرفاً في المساجلة الشعبية، فقد بدا عليه وكأنه يتبنى أطروحتها المركزية. فقد وضع نفسه على مستوى نوع من ميثاقين، الهويّة ومن لحمية الإثنية والجغرافية ليلاحظ أن طول نزول أبناء الأمم الغربية في إقليم بعينه يكسبهم طابع أهل هذا الإقليم، وهو «ما يعرض الأمة العرب وأبناء البربر بجزيرة الأندلس، فإنهم عادوا إلى طبيعة لأمة المنسوب إليها، وهم الأشبان، ولذلك كثرت فيهم العلوم» («الخصائص الآثار الملوية»، ص ١٠٤) وكان ابن رشد يعتقد في باطن نفسه أن «أمة العرب وأبناء البربر» عريقون من العلوم بالفطرة، مثلما «الأشبان» حائزون لها بالفطرة، أو على أية حال يحكم انتمائهم إلى الإقليم الخامس الذي هو =

«من طفيل» مؤرخ يؤسس الفلسفة في الأندلس

وابعاً علاوة على هذه الشبهة الشعبية، أحاطت بالفلسفة وعلوم الأوائل شبهة «كتابية»، أو بتعبير أوضح: «ذمية». وقد رأينا كيف اتهم مرسوم المتنصور المتفلسفين بأنهم أشتر على الدين الحنيف من «الكتابين»، وكيف قرن الاتهام بالإحياء بأصل ذمي دخيل لابن رشد بنفيه إلى «منزل اليهود» باليسانة. والواقع أن الفلسفة في الأندلس لم تعان من حضور أهل الكتاب بقدر ما عانت على العكس من غيابهم، أو تغييبهم بالأحرى، كما سنرى. فالفلسفة تكاد أن تكون والتعددية الدينية توأمين. فعندما يختلف الناس في الدين لا يعود من ضابط للاتفاق سوى العقل^(١١٨). وبدون أن تكون الفلسفة معادية للنقل بالضرورة، فإنها لا تعمل ولا تزدهر في مناخ نوع من حرب صليبية دائمة^(١١٩). وفي سياق الخطر الداهم الذي صار يمثله الاسترداديون النصاري عند الثغور الخارجية، بدت مشروعة، أو مبررة على الأقل، تصفية «الجيب الداخلي» الذي كان يمثله أهل الذمة، من نصاري ويهود على حد سواء. ولا شك في أن تقاليد التعددية الدينية المشرقية قد وجدت لها قدراً لا يُستهان به من الاستمرارية في عهد الحكم المركزي للأمراء والخلفاء الأمويين والمرانيين، الذين تقيّدوا بأحكام أهل الكتاب في النص القرآني وبأحكام أهل الذمة في الشرع الإسلامي. ولكن في الوقت الذي

= الإقليم المعتدل - «لا اربع على ما يعتقد كثير من الناس» الذي يجعل من بلادنا [جزيرة الأندلس] أقرب طبيعة إلى بلاد اليونانيين من بلاد العراق [والشام]». وسوف نرى أن ناقد العقل العربي يتبنى هذه الحتمية «الأقاليمية» ليعلل التفرق العقلائي لما يسميه «بالمشروع الثقافي الأندلسي.. المغربي» على الإرث الثقافي المشرقي.

(١١٨) يروي الذهبي في «تاريخ الإسلام»، وإن على سبيل الاستنكار، الواقعة التالية: «ذكر الحميري في ترجمة أبي عمر بن محمد سعدى الأندلسي طامة كبرى. قال. سمعت أبا محمد عبد الله بن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر أحمد بن معدي المالكي عند وصوله إلى القيروان من بلاد المشرق، فقال: هل حضرت مجالس أهل الكلام؟ قال: نعم مرتين، ولم أجد إليها. قال: لم؟ فقال: أما أول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع القوم من السنة والبدعة والكفار واليهود والنصارى والذهرية والمجوس، ولكل فرقة ويس يتكلم ويجادل عن مذهبه. فإذا جاء رئيس قاموا كلهم له على أقدامهم حتى يجلس، فإذا تكلموا قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة، فلا يحتج أحد بكتابه ولا بنبي، فإننا لا نصدق ذلك ولا نعتد به، وإنما نتناظر بالعقل والنقياس. فيقولون نعم. ولم سمعت ذلك لم أجد. ثم قيل لي: هذا مجلس آخر للكلام. فذهبت إليه، فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم. فقاطعت مجالس أهل الكلام». (١١٩) لا ننسى أنه في المشرق أيضاً توافقت أقول الفلسفة مع بدع الحروب الصليبية، وأن بطل رقعة حطين - صلاح الدين الأيوبي - اضطلع، بما يخص مصائر الفلسفة في المشرق، بمثل الدور انقاع الذي اضطلع به بطل رقعة الأرك في المغرب.

شرعت لفلسفة تعرف تفتحها النسبي في الأندلس من خلال الاجتهادات الفلسفية المتميزة للثالث الباجي - الطفلي - الرشدي، دخلت العدة الشمالية من الغرب الإسلامي في طور من الأحادية الدينية لم تعرف نظيراً له الحاضرة الإسلامية الكلاسيكية في المشرق. فأمرء المرابطين وخلفاء الموحدين سعوا إلى سد العجز في ميزان مشروعيتهم السياسية بالمغالاة - إلى حد التعصب - بالتجليب بالمشروعية الدينية. وقد دقعت بهم ديماغوجيتهم الدينية - المتصوفة مع رغبتهم في استمالة أفئدة عوام الأندلس - إلى خرق مدونة أحكام المكاتبين والمعاهدين في الإسلام وإلى التعاطي مع ذممي الأندلس من نصري ويهود كما لو أنهم كبش محرقة. والعجيب أن فقيهاً من منزلة ابن رشد الجد، قاضي قضاة قرطبة في حينه، هو الذي قدم الذريعة الشرعية لأمر المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين لإخلاء مدن إشبيلية وقرطبة وغرناطة من نصاراها ولترحيلهم في شهر رمضان من سنة ٥١٩هـ إلى مكناسة وسالة في المغرب. وفي ذلك يروي ابن عذاري المراكشي: «في هذه السنة احتسب الفقيه القاضي أبو الوليد ابن رشد - آجره الله - وتجشم النهوض إلى حضرة مراكش، فتلقيه أمير المسلمين بالمكرمة والمبرة، وبين له القاضي أمر الأندلس وما بيت به من معاهدتها وما حروها إليها وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير [= ألفونس الأول]، وما في ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة. وأصغى إليه الأمير علي وتلقى قوله بالقبول، فوقع نظره على تخريبهم وإجلائهم من أوطانهم، وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم. ونفذ عهده إلى جميع بلاد الأندلس بإجلاء المعهدين إلى العدة، فأنقذ منهم في رمضان عدد جم أنكرتهم الأهواء وأكلتهم الطرق ونسفتهم الأسفار ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شذر مذر وأحل بهم عاقبة مكرهم وأذاقهم وبال أمرهم، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله»^(١٢٠). وطبيعي أن هذا التهجير الجماعي لنصاري الأندلس يقبل التفسير سياسياً وشرعياً معاً في محصلة الحساب بتعقيدات حرب الاسترداد وما استتبعته من تفعيل للازدواجية في الولاء لدى نصاري الأندلس (وبخاصة نصاري غرناطة الذين تجمع المصادر التاريخية على تورطهم في استدعاء ابن ردمير وفي إمداد جيشه بـ «الأقوات

(١٢٠) ابن عذاري المراكشي: «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»، تحقيق إحسان عباس، دار الشافعية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠، ج ٤، ص ٦٨ - ٦٩. وفي رواية أخرى لابن الوزان، تلميذ ابن رشد الجد، أن ذلك كله جرى في سنة ٥٢٠، لا في سنة ٥١٩ كما يذكر ابن عذاري.

ابن طفيل: مؤرخ يوسس الفلسفة في الأندلس

والعلوفات». ولكن ما لا يقبل أي تفسير بالمقابل، لا سياسياً ولا شرعياً، القرار الذي أصدره بعد زهاء ربع قرن الخليفة الموحدي لأول عبد المؤمن بن علي الكومي. فما كادت قواته تتغلب على قوات المرابطين وتستولي على مدن الأندلس تبعاً حتى أصدر مرسوماً يخير بموحيه نصارى الأندلس ويهودها معاً بين أمرين: إما اعتناق الإسلام وإما الرحيل. وأما من يبقى منهم على دينه بدون أن يهاجر في الأجل المحدد فلن يكون جزاؤه غير القتل ومصادرة أملاكه^(١٢١). ولم يقتصر الأمر على الأندلس، بل طال أيضاً يهود المغرب النصاري الذين كان علي بن يوسف بن تاشفين قد رحلهم إليه من مدن الأندلس، وبديهي أن نكبة اليهود بالمرسوم الموحدي كانت أشد من نكبة النصاري: فهؤلاء كان يسهل عليهم أن ينتقدوا من معسكر إلى آخر بدون أن يخسروا شيئاً آخر سوى أملاكهم. أما اليهود فقد وجدوا أنفسهم بين نارين، وما كان أمامهم من خيار آخر سوى التظاهر باعتناق الإسلام. ولكن حتى هذا الباب شد عليهم. ففي آخر أيام أبي يوسف المنصور، وبالتواقت مع نكبة ابن رشد - هل كان ذلك من قبيل الصدفة؟ - أمر الخليفة الموحدي الثالث بـ «أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصرون به من دون غيرهم، وذلك ثياب كحلية وأكدم مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلونات^(١٢٢) على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم، فشايع هذا الزي عند جميع يهود المغرب، وبم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرًا من أيام ابنه أبي عبد الله إلى أن غيّرهُ أبو عبد الله المذكور، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم، فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر، فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١هـ. وإن ما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به، شكّه في إسلامهم. وكان يقول: لو صبح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صبح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرياتهم وجعلت أموالهم فينا للمسلمين، ولكنني متردد في أمرهم^(١٢٣). ولسنا معنيين هنا بواقعة تصفية الوجود

(١٢١) انظر تفصيل الخبر في: الغفطي: «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» في ترجمته لموسى بن ميمون.

(١٢٢) مفردتها كلوة (بالفرنسية اليوم Calotte) وهي قلنسوة اختص باعتمارها رجال الدين المسيحيون.

(١٢٣) «المعجب»، ص ٣٨٣.

الذمي في الغرب الإسلامي بما هي كذلك تاريخياً، وإنما فقط بأثر انعكاسها على وضعية الفلسفة في الأندلس. فبقدر ما أن التعددية الدينية مثلت على الدوام، ولا سيما في إطار الحضارة العربية الإسلامية، ينبوعاً مغذياً لفلسفة، فلنا أن نلاحظ أن هذا ينبوع قد جرى تجفيفه في الأندلس وفي الغرب الإسلامي عموماً، وتحديدًا في العهد المرابطي الموحدي، الذي شهد التمهض العسير وشبه السري للثلاثي الباجي - الطفلي - الرشدي. وتجفيف هذا ينبوع يكتسي بدلالة خاصة في ما يتعلق بالدور الفلسفي لليهود الأندلس. فقد مثلت الفلسفة اليهودية، المكتوبة بالعربية (وإن بالحرف العبري أحياناً)، الصفحة الأكثر إضاءة في تاريخ الفكر اليهودي في كل العصور. والحال، إن هذه الفلسفة عاشت وأزهرت بالتلاقح والتناضح المبشرين مع الفلسفة العربية الإسلامية^(١٢٤). فلولو الفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة لما وُجد ابن جبرول وابن فاقوذا، وعلى الأخص ابن ميمون الذي يصرح هو نفسه في كتابه الشهير «دلالة الحائرين» بمدنيونته الكبيرة للفارابي وابن باجة معاً. وقبل أن يُنكب ابن رشد بنحو نصف قرن كان الرافد اليهودي الكبير للفلسفة العربية في الغرب الإسلامي قد نصب. فعندما احتل الموحدون قرطبة سنة ٥٤٢هـ، اضطّر موسى بن ميمون، الذي يحتل في الفلسفة العربية اليهودية مكانة لا تقل أهمية عن مكانة ابن رشد نفسه في الفلسفة العربية الإسلامية في الأندلس، إلى النزوح عن قرطبة إلى المرية ففاس في المغرب فعكا في فلسطين^(١٢٥)، إلى أن حط به الرحال في الفسطاط في مصر، حيث كتب «دلالة الحائرين». ولعن يكن ابن ميمون قد اختار أن يهاجر شرقاً، فإن ممثلين

(١٢٤) التعبير لحاييم زعفراني في مداخلته في ندرة «ابن ميمون» التي نظمتها هيئة اليونسكو عام ١٩٨٥ بمناسبة مرور ٨٥٠ سنة على وفاة كبير فلاسفة اليهود. وقد تحدثت زعفراني عن «التناضح (Symbiose) اليهودي - العربي ما بين الثقافتين «مستقلتين بذاتهما» (انظر مداخلته في: Maimonide، منشورات اليونسكو، باريس ١٩٨٦، ص ٢٧)، وإن كن نحن نؤثر - توخياً للدقة في المصطلح وللأمانة في التعبير عن الواقع التاريخي - أن نتحدث عن التناضح ما بين الحضارة العربية الإسلامية والثقافة العربية اليهودية.

(١٢٥) يبدو أن تعقيدات الحرب الصليبية، التي كانت تمثل هي الأخرى نوعاً من حرب استرداد (Reconquista)، جعلت أسرة ابن ميمون تصرف النظر عن الإقامة في فلسطين حيث كنت تدور المواجهات الطاحنة بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي وبين الصليبيين الذين كان كرمهم لليهود لا يقل عن كرمهم للمسلمين.

ابن طفيل : مؤرخ يؤسس لفلسفة في الأنلس

آخوين للفلسفة العربية اليهودية لن يكون امامهم من خيار آخر سوى أن يهاجروا غرباً. ومن ثم فإن الرافد الكبير الذي كانت تمثله الفلسفة العربية اليهودية كفّ عن أن يصب في نهر الفلسفة العربية الإسلامية الأقلّة، ليصب في نهر الفلسفة اللاتينية المسيحية البازغة. وهذا التحول في اتجاه التاريخ كما الجغرافيا، كان نقطة الانطلاق نحو اندفاع الغرب باتجاه ما سُمّي، بضرب من النرجسية، «عصر النهضة»، وانزلافة الشرق الإسلامي باتجاه ما سُمّي، بضرب من المازوخية، «عصر الانحطاط». ولسنا بحاجة هنا إلى التذكير بالدور الذي لعبته الفلسفة العربية - الإسلامية واليهودية - المطرودة من الغرب الإسلامي واللجوء إلى الغرب المسيحي، في ذلك الانزياح الحضاري في القارات.

[٣]

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

«نحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه، فإن العقل الذي يعنيه هو وأمثاله إنما هو القوة الناطقة التي تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتتقص منها المعنى الكلي . . . والنمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله».

[ابن طفيل «حي بن يقظان»]

لنعد أدراجنا الآن إلى ابن طفيل و «أسرار الحكمة المشرقية».

فلقد وجدنا ناقد العقل العربي في قراءته لقصته «حي بن يقظان» يؤكد - في مقرة خاصة جعل لها هذا العنوان الدال: «قراءة أهل المغرب بفلسفة أهل المشرق» - على أنه «لم تكن سمعة ابن سينا في الأوساط الفلسفية بالمغرب والأندلس على ما يرام».

وتؤكد أنه على «سوء السمعة» هذه، وجدنا:

أولاً - يفتخر تضامناً - لا وجود له في الواقع التاريخي والجغرافي - بين فلاسفة «المغرب» في مواجهة كبير فلاسفة «المشرق»: ابن سينا

ثانياً - يؤسس ازدواجية عضالاً بين الوضعية الفلسفية «المغربية» التي «يؤملها» وبين الوضعية الفلسفية «المشرقية» التي «يؤلسها».

ثالثاً - يوظف صمت ابن باجة ونقد ابن رشد ويحرف في الوقت نفسه شهادة ابن سبعين وشهادة ابن الإمام، لينطقهم جميعاً بالازدراء المغربي المزعوم لكبير الناطقين بلسان «مذهب أهل المشرق».

ومع ذلك كله، فإن ناقد العقل العربي [المشرقي حصراً] لا يملك إلا أن يسجل استثناء فيقول «... فيلسوف واحد، مغربي - أندلسي، اهتم بابن سينا، وعلى الخصوص بـ «أسرار» حكمته المشرقية: إنه ابن طفيل، صاحب القصة المشهورة، قصة حي بن يقظان»^(١).

لماذا هذا الاستثناء؟

لأن ابن سينا حاضر في قصة ابن طفيل حضوراً طاعياً لا يمكن أن يبقى مسكوتاً عنه.

حاضر في عنوان القصة واسم بطلها: حي بن يقظان شخصية مبنوية خالصة. وحتى إن لم يكن ابن سينا هو من اخترعها تاريخياً، فهو أول من وظفها فلسفياً في رسالته المشهورة «رسالة حي بن يقظان».

وحاضر في شخصيتها الثانويتين: فأبسال وسلامان هما من الرموز التي تدورها ابن سينا في رسالته «في القدر» وفي كتابه «الإشارات والتنبيهات».

وحاضر في موضوعها: الحكمة المشرقية، أو «أسرارها» كما يطيب لابن طفيل أن يقول.

وحاضر في الشوهد التي يقبسها ابن طفيل من ابن سينا مباشرة، إما في كتابه «الشفاء» أو كتابه «الإشارات والتنبيهات».

وحاضر أخيراً، وبالاسم دوماً، في مدخلها النظري الذي صرح فيه ابن طفيل بتبعية تكاد تكون لامشروطة لفلسفة «الشيخ الرئيس»، أو على الأقل لما يعتقد أنها كذلك.

ولكن لئن اضطر ناقد العقل العربي إلى الاعتراف، على هذا النحو، بالاستثناء الذي يمثله ابن طفيل في موقف «أهل المغرب» من ابن سينا، فإنه يستنفر كل ما أوتيته من طاقة تأويلية إنكارية لينفي مديونية ابن طفيل لابن سينا وتبعيته المصرح بها «للحكمة المشرقية».

ففي نص أول يقول: «إن ابن طفيل يعرض في قصته تلك لا الحكمة المشرقية كما ذكرها ابن سينا، بل أسرارها. إن الأمر يتعلق إذاً، لا بآراء ابن طفيل الخاصة، كما ساد ويسود الاعتقاد في ذلك، بل بفهم هذا الرجل وتأويله لفلسفة أخرى هي بالفيض

(١) «نحن والتراث»، ص ١٦٢

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة العشرية

«الحكمة المشرقية» التي ذكرها ابن سينا وأحال إليها من دون أن يعرضها واضحة كاملة في كتاب من كتبه... ونحن عندما نؤكد هذا، لا نرمي من ذلك إلى نفي تأثير ابن طفيل بابن سينا أو غيره، بل نريد أن نؤكد أنه بالرغم مما قد يكون هناك من تأثير للشيخ لرئيس على ابن طفيل، وعلى الرغم من أن هذا الأخير قد عرض فلسفة ابن سينا عرضاً أميناً محايداً، من دون نقد ولا اعتراض، فإن هذا «الفيلسوف الأندلسي» لم يكن ينطلق في تفكيره ولا في إشكاليته من منطلق ابن سينا^(٢). ويقول في نص ثانٍ: «إن من الباحثين من يربط ابن باجة بالفارابي، وابن طفيل بابن سينا، ربطاً عضوياً. إننا نخالف هذا الاتجاه في البحث ونعتبره أبعد ما يكون عن حقيقة الأمور... ولتصحيح هذه الرؤية الخاطئة، لا بد من دراسة معمقة للفكر الفلسفي في المغرب، لا بد من قراءة جديدة له... ولنسجل... إن ابن طفيل صرح فعلاً في مقدمة رسالته «حي بن يقظان» بأنه يريد أن يذكر أسرار الحكمة المشرقية للشيخ الرئيس ابن سينا، ولكن ذكر هذه «الأسرار» والكشف عنها لا يعينان تبنيها والدفاع عنها، بل بالعكس... فمضمون رسالة «حي بن يقظان» لابن طفيل وطابعها العام... يؤكدان حقيقة أساسية، حقيقة استقلال المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس استقلالاً تاماً عن زميلتها في المشرق»^(٣).

وفي نص ثالث: «ابن طفيل مغربي، مغربي بكل ما في معنى الكلمة، يرتبط بابن رشد، وهو الذي قدمه وأبرزه. لكن اللبس الذي وقع هو أن ابن طفيل يقول في مقدمة «حي بن يقظان» إنه سيعرض الحكمة المشرقية كما رواها الشيخ الرئيس ابن سينا. فرسالة «حي بن يقظان» مكتوبة بقلم ابن طفيل، لكن مضمونها - بتصريح ابن طفيل - هو مضمون الفلسفة المشرقية السنيوية. والذين يحكمون على ابن طفيل من خلال «حي بن يقظان» مخطئون. إن رأيه هو رأي النظرة المغربية الرشدية»^(٤).

وأول ما سلاحظه هنـ، أن رغبة ناقد العقل المشرقي في قطع حبل السرة الذي يصل ابن طفيل المغربي بهذا العقل تجعله يوصف الأشياء - من حيث لا يدري - إلى

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٢ - ٣٦٦. والتسويد من الجابري (ولن نعود هنا إلى التوقف عند مرادفه المتعمدة ما بين المغرب والأندلس مع أن هذا الفكر يعود حصراً، في الغرب الإسلامي، إلى الأندلس).

(٤) «التراث والحدائق»، ص ٣٣٠، والتسويد هذه المرة منا.

مفارقة كبرى: فواحد من أكثر الأعمال الفلسفية أصالة وخصوبة في المدرسة الأندلسية يتجرد على هذا النحو - في القراءة التأويلية الجابرية - من كل مظهر من مظاهر الأصالة والخصوبة ليتحول إلى مجرد «عرض أمين ومحيّد» -، وعوي بالتالي من كل إبداع شخصي - لـ «فلسفة أخرى» هي الفلسفة المشرقية المعزوة إلى ابن سينا.

وعلاوة على هذا الحكم بالإعدام على الإبداع الشخصي لشئى الثلاثة من فلاسفة الأندلس الكبار، فإن القراءة الجابرية لقصة ابن طفيل تقدم نموذجاً تاماً لقراءة غير قارئة. قراءة يحضر فيها القارئ ويغيب المقروء. قراءة تنقيد، لا بمبدأ واقع النص، بل بمبدأ رغبة قارئ لنص. قراءة نرجسية لا تقوم للنص مقام المرأة المطابقة أو الذكية (علماً بأن القراءة تكون أكثر ذكاء كلما كنت أكثر مطابقة)، بل تتخذ من انص نفسه مرآة تتعلّى فيها صورة ذاتها وانعكاس رغبتها واستيهاماتها. وبكلمة واحدة قراءة إرادوية تُغدم النص قواميته الذاتية، فلا تلتزم بإملائه بل تفرض عليه إملاءها، ولا تتخرج من أن تقول ما لا يقوله، أو حتى عكس ما يقوله، ما دام المبدأ «الابستمولوجي» الذي تنطلق منه اعتبارها أن الفعل الأساسي في عملية القراءة هو فعل التحويل، لا فعل قول النص بما هو كذلك.

وليس من قبيل الصدفة أن يقول الجابري إن «الذين يحكمون على ابن طفيل من خلال «حي بن يقظان» مخطئون». فعنده أن ابن طفيل لا يُحكم عليه بالإحالة إليه وإلى نصه اليتيم الذي هو «حي بن يقظان»، بل فقط بالإحالة إلى «النظرة المغربية الرشدية» التي لا مناص من أن يكون، بحكم كونه «معرباً بكل ما في معنى الكلمة»، منتصباً برأيه إلى «رأيها». وبالفعل، أن الجابري لا يتردد في الاعتراف بأنه يقرأ قصة ابن طفيل، لا على ضوء مشع من داخلها، بل على ضوء مسلط عليها من خارجها، بقوله: «تلك هي الخطوط العامة التي نقترحها لرسالة ابن طفيل هذه، وهي القراءة التي استوحيناها من فقرة لابن رشد ينسب فيها بصراحة فلسفة ابن سينا المشرقية إلى عقيدة الحواريين تلك»^(٥). ويدون أن ندخل هنا في نقاش - لم يثن أوانه بعد - لقولة ابن رشد تلك، فلنا أن نلاحظ أن الجابري، الذي لا يرى من منارة أخرى في أفق العقل العربي الإسلامي سوى المنارة الرشدية، يصّر على أن يقرأ ابن طفيل لا بالإحالة إلى نفسه وأنه، بل تماماً كما كان فعل في موضع آخر مع ابن باجة، بالإحالة إلى ابن رشد وبواسطته، وهذا

(٥) «نحن والتراث»، ص ٣٦٥.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة الشرقية

انطلاقاً من فرضية عمل - ينزلها الجابري منزلة القاعدة الاستمولوجية - تقول: إنه ما دامت «المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس» قد وصلت مع ابن رشد «إلى قمته»، فإن «القراءة المطابقة» لأي خطاب فلسفي ينتمي إلى هذه المدرسة لا بدّ من أن تكون بعديّة، لا قبلية، «قراءة بما بعده وليس بما قبله»، لأن «الإطار المرجعي» لهذا الخطاب لا يمكن أن يكون سوى القمة التي وصل إليها الكل الذي ينتمي إليه هذا الخطاب، نقصد بذلك ابن رشد بالذات^(٦).

وبديهي أننا لا ننكر من حيث المبدأ، إمكانية قراءة بعديّة لابن طفيل بواسطة ابن رشد. ولكن مثل هذه القراءة لا بدّ من أن تكون في هذه الحال محض قراءة مساعدة، وليس القراءة الأساسية، وكم بالأولى القراءة لمطابقة الوحيدة. والحال، أن ما يحول دون إمكانية قراءة بعديّة - ولو ثانوية - في الحالة التي نحن بصددّها، أن ابن طفيل نفسه يصمّ على أن يقرأ نفسه، وعلى أن يقرأه قارئه، قراءة قبلية. فابن طفيل يضع نفسه بنفسه على مقاعد المدرسة السينوية، أو ما يفترض أنه المدرسة السينوية، مرفودة - وهنا المفارقة - برافد غزاليّ.

إن ابن طفيل هو من يحدد لنفسه، في المدخل إلى قصة «حي بن يقظان»، إطاراً مرجعياً مزدوجاً. فمن جهة أولى إطار مرجعي سالب يتمثل بالثنائي الفارابي - ابن باجة اللذين لا يلتقيهما ابن طفيل إلا ليفترق عنهما، وإطار مرجعي موجب يتمثل بالثنائي ابن سينا - الغزالي اللذين يريد ابن طفيل نفسه، على ما بينهما من افتراق، صلة وصل بينهما.

ولنبادر إلى القول إن هاتين المرجعيتين إن كانتا تقطعان سلفاً بشيء، فإما تقطعان بعدم انتماء ابن طفيل إلى مدرسة مغربية برهانية مزعومة. والأمر لا يحتاج إلى بيان في ما يتعلق بالمرجعية الموجبة: فابن سينا والغزالي هما، كلاهما، الخصم لألد للزعيم المفترض للمدرسة المغربية البرهانية: ابن رشد. ولكن مرجعية ابن طفيل السالبة إلى الفارابي وابن باجة، ليست أقل دلالة - وإن تكن أقل بداهة - على عدم انتماء ابن طفيل إلى هذه المدرسة. فلئن وجدنا ابن طفيل لا يلتقي الفارابي وابن باجة إلا عند مفترق طرق، فذلك لماخذهن له عليهما متكاملين. فمأخذه على الفارابي أنه عرفاني أقل مما ينبغي، ومأخذه على ابن باجة أنه برهاني أكثر مما ينبغي.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٢. والتسويد من الجابري.

ابن طفيل والفارابي

يفرد ابن طفيل الفقرة التالية من مدخله للفارابي: «وأما ما وصل إلينا من كتب أبي نصر فأكثره في المنطق، وما ورد منها في الفلسفة فهو كثير الشكوك. فقد أثبت في كتابه «الملة الفاضلة» بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها وبقاء لا نهاية له، ثم صرح في «السياسة المدنية» بأنها منحلة وسائرة إلى العدم، وأنه لا بقاء إلا للنفوس القاضلة الكاملة. ثم وصف في شرح «كتاب الأخلاق» شيئاً من أمر السعادة الإنسانية، وأنها إنما تكون في هذه الحياة التي في هذه الدار، ثم قال عقب ذلك كلاماً هذا معناه: «وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز». فهذا قد أياست الخلق جميعاً من رحمة الله، وصير القاضل والشريد في رتبة واحدة، إذ جعل مصير الكل إلى العدم، وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعده جبر، وهذا مع ما صرح به من سوء معتقده في النبوة، وأنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة، وتفضيله الفلسفة عليها، إلى أشياء ليس لنا حاجة إلى إيرادها»^(٧).

إن نقاطاً ثلاثاً يثيرها هذا النص الحاسم الدلالة:

أولاً - إن ابن طفيل إذ يلاحظ أن أكثر الواصل من كتب الفارابي إلى الأندلس إنما في المنطق، يضرب عن التعليق. فلكانه بذلك يقول إن الأمر لا يعنيه. وبالفعل، لم يؤثر قط عن ابن طفيل اشتغال بالمنطق، ولن نجاهد يولييه، في رسالته «حي بن يقظان»، أي اهتمام. ومن دون أن نرفع هذا الصمت عن المنطق إلى مستوى الحجة، فإننا نرى فيه قرينة: فالهاجس المركزي الذي يسكن ابن طفيل هو من طبيعة «عرفانية» أكثر منها «برهانية».

ثانياً - إن «الشكوك» - أي التناقضات - التي يرصدها ابن طفيل في كتابات الفارابي الفلسفية، تتدرج على ثلاثة مستويات، وإن كان مدارها كلها حول مسألة البقاء بعد الموت، وهي بطبيعتها أيضاً مسألة عرفانية أكثر منها برهانية. فالفارابي، كما يقوله ابن طفيل^(٨)، قد أثبت أولاً، في «الملة الفاضلة»، «بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها». ثم صرح ثانياً، في «السياسة المدنية»، بأنها «منحلة وسائرة إلى

(٧) «حي بن يقظان» لابن سينا وابن طفيل والسهروزي، مصدر آف الذكر، ص ٥٧.

(٨) تقول: «كما يقوله ابن طفيل»، لا كما يقول، لسبب سيوضح حالاً.

العدم، وأنه لا بقاء إلا للنفوس الفاضلة». ثم عقب ثانياً في «كتاب الأخلاق» أنه لا مساعدة إلا في هذه الحياة وفي هذه الدار، و«كل ما يذكر غير ذلك هو هذيان وخرافات عجائز». والحال أن ابن طفيل، المأخوذ أخذاً كلياً بالمسألة الأم في الميتافيزيقا العرفانية: مسألة البقاء بعد الموت، ما كان له أن يحتفل هذا التناقض، ولا أن يحتمل بوجه خاص عدمية الفارابي الذي «أياس الخلق جميعاً من رحمة الله و... جعل مصير الكل إلى العدم». ولكن هنا يثور للحال سؤال: هل تناقض الفارابي إلى هذا الحد مع نفسه بخصوص مسألة بقاء النفس، أم أن التناقض يكمن في طرح ابن طفيل بقدر ما لا تنطبق الإشكالية التي يصدر عنها الإشكالية لفارابي؟ وبالفعل، كما يتضح من إحالة ابن طفيل إلى «رحمة الله تعالى» ومن نفرتة القوية من «الزلة» العلمية للفارابي، فإن مقارنته لمسألة البقاء بعد الموت تبدو أقرب إلى لتصور لديني التقليدي، على حين أن مقاربة الفارابي لهذه المسألة الميتافيزيقية الكبرى أميل إلى أن تكون فلسفية ومدنية، أو إذا أبحنا لأنفسنا التعبير: علمانية^(٩). وصحيح أن الفارابي يطرق في كتابيه «الملة الفاضلة» [= آراء أهل المدينة الفاضلة] و«السياسة المدنية»، مسألة بقاء النفس من بابها العريض، ولكنه يفعل ذلك في اتجاه يطابق منحى الفلسفة اليونانية التي كانت تجهل بالإجمال مسألة الثواب والعقاب في الآخرة كما طرحتها الأديان السماوية^(١٠). ولئن يكن قد ميّز بين النفوس الفاضلة والنفوس الشريرة، فهذا ليس بالإحالة إلى أهل النعيم وأهل الجحيم، كما قد يتبادر إلى الذهن اليوم، بل بالإحالة فقط إلى المدن من حيث هي مدن فاضلة أو مدن شريرة بالمعنى المتعارف عليه في جمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو. وخلافاً لما تؤكد فقره ابن طفيل، فإنه ليس ثمة تناقض، أو حتى تباين، في موقف الفارابي من مسألة بقاء النفوس الفاضلة والشريرة في كتابيه «الملة الفاضلة» و«السياسة المدنية». ففي كليهما بلا استثناء، قال بفناء النفوس الشريرة وبقاء النفوس الفاضلة، ولكن بالإحالة دوماً إلى المجتمع المدني لا إلى المجتمع السماوي.

(٩) رأينا ناقد العقل العربي يصوّر على إلصاق هذه الصفة بفلسفة ابن رشد. ونحن نعتقد بعكسه أنه ليس من يستأهل هذه الصفة في الفلسفة العربية - علنا الرزقي - سوى الفارابي، ولكن مع وضعها دوماً بين مزدوجين.

(١٠) لا نستطيع الاحتكام هنا إلى «كتاب الأخلاق»: فشرح الفارابي هذا لأخلاق أرسطو لم يصلنا مع الأسف، وإن يكن تعبير «هذيان وخرافات عجائز» من التعابير المتداولة لدى شراح أرسطو غير المختصرين.

فالبقاء عند الفارابي ليس الخلود بالمعنى الديني للكلمة، بل البقاء في ذاكرة الأجيال من أهل المدن الفاضلة، كما إن الفناء هو عدم البقاء في هذه الذاكرة: لا في الذاكرة الجمعية لأهل المدن الفاضلة، ولا لدى أبناء المدن الشريرة الذين ليس لهم من ذاكرة جمعية أو جيلية أصلاً. وخلافاً لما يؤكد ابن طفيل، فإن الفارابي لم يثبت في «الملة الفاضلة» بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها وبقاء لا نهاية له. بل في هذا الكتاب، كما في «السياسة المدنية» - الذي هو الأرجح آخر كتبه - قال بقاء النفوس الشريرة و «هلاكها» و «انحلالها» و «صيرورتها إلى العدم» - وهذه التعابير كلها له - «على مثال ما تكون عليه البهائم والسبع والأفاعي»^(١١). والواقع أن الفارابي يتفادى أن يستخدم تعبير «النفوس الشريرة» ويؤثر عليه تعبير «الهيئات النفسية». ذلك أن أهل المدن الشريرة ليس لهم من نفوس، بمعنى الكلمة، بقدر ما لهم هيئات نفسية لا تفلح في أن ترقى إلى مصاف نفوس بسبب انتشارها للمادة والهيولى. فهم ليسوا ذوي نفوس بقدر ما هم مرضى نفوس. فمنهم الشريرة لا تُكسبهم سوى «هيئات ردية من هيئات النفس... فتصير نفوسهم مرضى... وتبقى أنفسهم هيولانية غير مستكملة استكمالاً لتفارق به المادة، حتى إذا بطلت المادة بطلت هي أيضاً»^(١٢). وعلى العكس من الهيئات لنفسية الرديئة لأهل المدن الشريرة أو - «نوابت المدن الفاضلة» التي تنفي بفناء أبدانهم، فإن نفوس أهل المدن الفاضلة، إذ تتحرر بالموت من أسر الهيولى وترتفع عنها «الأعراض التي تعرض للأجسام من جهة ما هي أجسام»، تتضايق إلى بعضها بعضاً، وتؤلف نوعاً من نفس أو ذاكرة جمعية واحدة تغتني وتتعاظم بتعاقب الأجيال، ويتعزز اتصالها بـ «العقل الفعال»، وفي ذلك يقول الفارابي في عبارة يكررها بصورة شبه حرفية في «السياسة المدنية» كما في «آراء أهل المدينة الفاضلة» «إذا مضت طائفة وبطلت أبدانها وخلصت أنفسها وسعدت، فخلفهم ناس آخرون بعدهم قاموا في المدينة مقامهم وفعلوا أفعالهم، خلصت أيضاً نفوس هؤلاء. وإذا بطلت أبدانهم صاروا إلى مراتب أولئك الماضين من تلك الطائفة وجاوروهم على الجهة التي بها يكون تجاور ما ليس بأجسام، واتصلت النفوس المتشابهة من أهل الطائفة الواحدة بعضها

(١١) أبو نصر الفارابي: «كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة»، قدم له وعلق عليه د. البير نصري نادر، الطبعة الرابعة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨، ص ١٤٣.

(١٢) أبو نصر الفارابي: «كتاب سياسة المدينة» [المعروف بمبادئ الرخودات]، حققه وقدم له د. فوزي مري النجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٤، ص ٨٣.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

ببعض. وكلما كثرت الأنفس المتشابهة المفارقة واتصل بعضها ببعض كان التذاذ كـ واحد منها أزيد. وكلما لحق بهم من بعدهم زاد التذاذ كـ من لحق الآن لمصادفته الماضين، وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم، لأن كل واحدة تعقل ذاتها وتعقل مثل ذاتها مراراً كثيرة، ويزيد ما يعقل منها بلحاق الغابرين بهم في مستقبل الزمان. فيكون تزيّد لذات كل واحد في غابر الزمان بلا نهاية. فهذه هي السعادة القصوى الحقيقية التي هي غرض العقل الفعّال»^(١٣).

ثالثاً - لئن عجز ابن طفيل عن فهم إشكالية الفارابي «العدمانية» في خلود النفس، فرمى بالتناقض وأنكر عليه زلته العدمية، فما كان له أيضاً أن يقبل، بحال من الأحوال، بنظريته في النبوة ولا غرو في أن يكون قد دمج هذه النظرية، التي تردّ النبوة إلى القوة الخيالية، بأنها ضرب من سوء المعتقد. فبن طفيل، على «عرفانيته» ذات الطابع الشخصي لعقاية، ما كان له أن يخرج على المسلمات السائدة للعقيدة الدينية القويمة، ولا سيما عندما يتكلم - كما في المدخل - بلغة مباشرة، وليس - كما في متن القصة - بلغة رمزية. وما كان له، ضمن المسلمات المعلنة على الأقل لتلك العقيدة لقويمة، ولا سيما في ظروف الأندلس التي تقدم بيانها، أن يقل نظرية في «الوحي» تجرده من هالته الدينية القدسية، وتنفي دور القرار الإلهي في اختيار النبي الموحى إليه، وتقدم لواقعة الوحي تفسيراً عقدياً - حتى لا نقول «علمانياً» - يربطه بآليات العلاقة ما بين العقل الفعّال والعقل المنفعل والعقل المستفاد. وما كان له على الأخص أن يقبل بنظرية تعلي من شأن الفلسفة على النبوة، إذ تربط الأولى بالقوة الناطقة والثانية بالقوة المتخيلة، وهي دونها في المرتبة، لأن القوة المتخيلة ليس من شأنها أن تعقل سوى الجزئيات والمحسوسات (أو - في أرقى أحوالها - محاكيات المعقولات، وليس المعقولات نفسها)، بينما القوة الناطقة هي التي يعود إليها تعقل الكلّيات والمعقولات المفارقة - المتجردة عن المادة، الأمر الذي يعني في محصلة الختام أن الفيلسوف أعلى مقاماً من النبي، وإليه - وليس إلى أحد سواء - ينبغي أن تعود إمامة المدن الفاضلة. ولستعبد هنا نصوص الفارابي الحاسمة الدلالة من هذا المنظور:

- «لا يمتنع أن يكون الإنسان، إذ بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال، فيقبل عن العقل الفعّال الجزئيات لحاضرة والمستقبل... ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة

(١٣) المصدر نفسه، ص ٨٢.

وسائر الموجودات الشريفة، ويراه، فيكون له، بما قبله من لمعقولات، نبوة بالأشياء الإلهية. فهذا هو أكمل المراتب التي تنتهي إليها القوة المتخيلة، وأكمل المراتب التي يبلغها الإنسان بقوته المتخيلة»^(١٤).

- «أي إنسان استكمل عقله المنفعل بالمعقولات كلها، وصار عقلاً بالفعل ومعقولاً بالفعل... حصل له حيثل عقل ما بالفعل رتبته فوق العقل المنفعل، أتم وأشد مفارقة للمادة... ويسمى العقل المستفاد... ولا يكون بينه وبين العقل الفعّال شيء آخر... إذا حصل ذلك في كلا جزئي قوته الناطقة، وهما النظرية والعملية، ثم في قوته المتخيلة، كان هذا الإنسان هو الذي يوحى إليه... يتوسط العقل الفعّال... فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيماً وفيلسوفاً ومتعقلاً على التمام، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ومخبراً بما هو آتٍ وهكذا نقرأ بدلاً من «الآن» في النص [من الجزئيات. وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة... وهذا هو لرئيس الذي لا يرأسه إنسان آخر أصلاً، وهو الإمام، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة، ورئيس المعمورة من الأرض كلها»^(١٥).

- «وهذا الإنسان هو الملك في الحقيقة عند القدماء، وهو الذي ينبغي أن يقال فيه إنه يوحى إليه. فإن الإنسان إنما يوحى إليه إذا بلغ هذه الرتبة، وذلك إذا لم يبق بينه وبين العقل الفعّال واسطة. فإن العقل المنفعل يكون شبه المادة والموضوع للعقل المستفاد؛ ولعقل المستفاد شبه المادة والموضوع للعقل الفعّال. فحينئذ يفيض من العقل الفعّال على العقل المنفعل القوة التي بها يمكن أن يوقف على تحديد الأشياء والأفعال وتسديدها نحو السعادة. فهذه الإفاضة الكائنة من العقل الفعّال إلى العقل المنفعل بأن يتوسط بينهما العقل المستفاد هو الوحي. ولأن العقل الفعّال فائض عن وجود السبب الأول، فقد يمكن لأجل ذلك أن يقال إن السبب الأول هو الموحى إلى هذا الإنسان بتوسط العقل الفعّال. ورئاسة هذا الإنسان هي الرئاسة الأولى، وسائر الرئاسة الإنسانية متأخرة عن هذه وكائنة عنها»^(١٦).

(١٤) «أراه أهل المدينة الفاضلة»، ص ١١٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٢٥ - ١٢٧.

(١٦) «المياسة الملحقية»، ص ٧٩ - ٨٠. والتسويد منا لنشير به إلى جلد الفارابي الشديد في هذا التعبير. فكانه يريد من خلال قوله: «فقد يمكن لأجل ذلك أن يقال... أن يترك الباب مفتوحاً» =

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

يبقى أن نقول إن الرافض الاستثنائي، الذي يقابل به ابن طفيل نظرية نبوة الفارابية في مدخل قصته، لن يمنعه في ختامها من أن يعود إلى التنبؤ شبه الحرفي لها من خلال تطبيق مقولاتها على الارتقاء العرفاني شبه النبوي لبطله حي بن يقظان في تواصله مع «العقل الفعال». ولسنا ندري: أترد هذا «لتناقض» إلى ازدواجية في أسلوب الخطاب - وبالتالي في استراتيجيته - ما بين تقريرية لغة المدخل ورمزية لغة القصة؟ أم نرده إلى طبيعة الإشكالية الأيديولوجية التي تحكم كل مشروع ابن طفيل في «رسالة حي بن يقظان»، ونعني إشكالية وحلة الحقيقة وازدواجية الطريق الموصلة إليها كشفاً ووحياً، حكمة ونبوة.

ابن طفيل وابن باجة

إن القطب الثاني في الإطار العرجي السالب لابن طفيل، بعد الفارابي، هو ابن باجة، تلميذ انفارابي بالروح - وانتقاد ابن طفيل لابن باجة ليس أقل دلالة على نزعة العرفانية من دلالة انتقاده للفارابي على نزعة الإيمان. فـ «المعلم الثاني» قد تجرأ في محصلة الحساب، على اجتياز عتبة المقدس، فمسّ معتقدات إيمانية لها حرمتها عند ابن طفيل. أما التلميذ الأندلسي للمعلم الثاني فقد وقف عند عتبة المقدس، لا متأياً عن اجتيازها فحسب، بل جاهراً أيضاً بأنه ليس من شرط «الوصول» تخطيها. فذنب ابن باجة في نظر ذلك المتضلّع الكبير بـ «أسرار الحكمة المشرقية» الذي كانه - أو أراد أن يكونه - ابن طفيلج أنه اكتفى بأن يتخذ موقعاً حصيناً له في خندق «البرهان» بدون أن يتشوف إلى اقتحام آفاق «العرفان». فكان - والتعبير لابن طفيل - من أهل الدراية ولم يرقّ إلى مقام أهل الولاية. فصحيح أن ابن باجة كان من أهل الريادة والتجلية في الكلام عن اتصال الإنسان بالعقل الفعال، وصحيح أنه تحدث عن إمكانية وصول الإنسان «النظري» إلى أحوال «أجلّ من أن تنسب إلى الحياة الطبيعية... أحوال هي من أحوال السعداء، منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية، بل... خليفة أن يقال لها أحوال إلهية يهبها الله... لمن شاء من عباده»، ولكن كما يلاحظ ابن طفيل فإن «هذه

== للتوفيق بين النظرية الفلسفية في الوحي وبين النظرة الدينية إليه، علماً بأنه يدرك صعوبة هذا التوفيق نظراً إلى أن السبب الأول في التقليد «فلسفي هو محوّل لا يتحرك، ومعوّل لا يشق، وبالتالي إله متعال لا يتدخل في شؤون البشر، لأنه لو تدخل لتغير، والتغير نصاب موجودات القابلة للفساد.

لرتبة التي ينتهي إليها أبو بكر [= ابن الصائغ] ينتهي إليها بطريق العلم النظري والبحث الفكري. ولا شك في أنه بلغها ولم يتخطها»^(١٧).

ولا يكتفي ابن طفيل بأن يسجل على ابن باجة أنه كان من «البالغين» بدون أن يكون من «المتخطين»، بل يأخذ عليه أيضاً قبوعه في رتبة أهل النظر الواطئة السقف بدون أن يمارقها إلى رتبة أهل الذوق العالية السقف أو التي لا سقف لها على الإطلاق. فعنده أن الإدراك النظري المستخرج بالمقاييس وتقديم المقدمات وإنتاج النتائج، أي محض العقل البرهاني - يقف مقصراً عن بلوغ تلك الرتبة الذوقية العليا التي تعجز أصلاً «الألفاظ الجمهورية والاصطلاحات الخاصة» - كما يضيف ابن طفيل - عن تسميتها. ولا يتردد ابن طفيل في أن يحش على حالة ابن باجة بمثل الأعمى البصير، فيقول موجهاً كلامه إلى سائله عن «أسرار الحكمة المشرقية»: «وإن أردت مثلاً يظهر لك به الفرق بين إدراك هذه الطائفة [- أهل الذوق] وإدراك سواها [= أهل النظر]، فتخيل حال من خلق مكفوف البصر، إلا أنه جيد القطرة قوي الحدس... فنشأ مذ كان في بلدة من البلدان وما زال يتعرف إلى أشخاص الناس بها وكثير من أنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها بما له من ضروب الإدراكات الأخر... وكان يعرف الألوان وحدها بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها. ثم إنه بعد أن حصل على هذه الرتبة فُتح بصره وحدث له الرؤية البصرية. فمشى في تلك المدينة كلها وطاف بها، فلم يجد أمراً على اختلاف ما كان يعتقد... وصادف الألوان على نحو صلق الرسوم عنده... غير أنه في ذلك كله حدث له أمران عظيمان... وهما زيادة الوضوح والانبلاج، واللذة العظيمة. فحال الناظرين الذين لم يصلوا إلى طور الولاية هي حالة الأعمى الأولى، والألوان التي في هذه الحال معلومة بشروح أسمائها هي تلك الأمور التي قال أبو بكر إنها أجل من أن تنسب إلى الحياة الطبيعية يهبها الله لمن يشاء من عباده. وحال الناظر الذين وصلوا إلى طور الولاية ومنحهم الله تعالى ذلك الشيء الذي قلنا إنه لا يسمى... هي الحالة الثانية»^(١٨).

(١٧) «حي بن يقظان»، ص ٥٣. والتسويد منا. والشاهد الذي يسوقه ابن طفيل من كلام ابن باجة عن النظرين «السعداء» قد ورد في حاشية أضافها ابن باجة إلى ختام رسالته المعروفة برسالة «اتصال العقل بالإنسان».

(١٨) المصدر نفسه، ص ٥٤ - ٥٥. والتسويد ما.

ولا يكتفي ابن طفيل بأن يشتد ابن باجة على هذا النحو على كونه لم يرق إلى طور الولاية، فبقي كالأعمى الذي لم يقيض له على قوة بصيرته أن يبصر وأن يدرك للذة الإبصار والانبلاج، بل ينتقده أيضاً على كونه انتقد أهل لولاية. وفي ذلك يقول في فقرة تالية مطولة^(١٩): «وقد يوجد في النادر من كان أبداً ثابت البصيرة، مفتوح البصر، غير محتج إلى النظر. ولست أعني - أكرمك الله بولايته - بإدراك أهل النظر ههنا ما يدركونه من عالم الطبيعة، وإدراك أهل الولاية ما يدركونه مما بعد الطبيعة. فإن هذين المدركين متباينان جداً بأنفسهما، ولا يلتبس أحدهما بالآخر. بل الذي نعينه بإدراك أهل النظر، ما يدركونه مما بعد لطبيعة، مثل ما أدركه أبو بكر. ويشترط في إدراكهم هذا أن يكون حقاً صحيحاً. وحينئذ يقع النظر بينه وبين إدراك أهل الولاية الذين يعتنون بتلك الأشياء بعينها مع زيادة وضوح وعظيم لتناذ. وقد عاب أبو بكر هذا الالتناذ على القوم، وذكر أنه للقوة الخيالية، ووعد بأن يصف ما ينبغي أن يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين^(٢٠). وينبغي أن يقال له ههنا: «لا تستغل طعم شيء لم تذق، ولا تتخط رقاب الصديقين». ولم يفعل الرجل شيئاً من ذلك، ولا وفى بهذه لعدة، وقد يشبه أن منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول إلى وهران، ورأى أنه إن وصف تلك الحال اضطره القول إلى أشياء فيها قبح عليه في سيرته،

(١٩) ثبت هنا هذه الفقرة بتمامها - على طوبها - لأنها سقطت من طعة أحمد أمين المتداولة، وإن تكن قد وردت في طبعة ليون غوتيه لرئاسة «حي بن يقظان» المنشورة في الجزائر في مطلع القرن العشرين.

(٢٠) ورد نقد ابن باجة للمتصوفة في فقرة من «التبوير المتوحد» قال فيها: «رغم الصوفية أن إدراك السعادة القصوى قد يكون بلا تعلم، بل بالتفكر وأن لا يخلو طريقة عين من ذكر المطلق، ولأنه متى فعل ذلك أجمعت القوى الثلاث - قوة الحس المشترك وقوة التخيل وقوة الذكر - وأمكن ذلك. وذلك كنه طن. وهذه اغاية التي فنوها... لو أدركت لما كان منها مدينة ولقي أشرف أجراء الإنسان [= العقل] فضلاً لا عمل له، وكان وجوده باطلاً». وفي «رسالة الوفاء» يعود فيؤكد أن «الالتناذ العظيم» الذي بذعيه المتصوفة لأنفسهم عند مشاهدتهم الأمور «إلهية» هو محض ضرب من «اللذة العلية» ليس إلّا، وهي عينها اللذة التي يعرفها أهل التأمل اللذين يدرج نفسه في عدادهم بقوله: «وفي هذا الصنف كثر أنا وكنت أنت [= ابن الإمام] وسائر أصحابنا». وأما ما ادعاه الغربي من أنه «شاهد عند اعتزاله أموراً إلهية والتذ التناذ عظيماً... فهذه كلها ظنون وأشياء بقيمتها مثالات الحق. وهذا الرجل يبين من أمره أنه لم ينتقل عن هذا الصنف... وأنه غلط أو مغالط بخيالات الحق» («رسائل ابن باجة الإلهية»، ص ٥٥ و١٢١).

وتكذيب لما أثبتته من احق على الاستكثار من المال والجمع له، وتصريف وجوه الحيل في اكتسابه»^(٢١).

ولا يخفى أن ابن طفيل يستعيد هنا تهمة الازدواجية التي وجدناه يرمي بها ابن باجة الذي «شغلته الدنيا» أكثر مما ينبغي، فما استطاع - برغم ما أوتيته من ثقافة ذهن وصحة نظر - أن يتخطى رتبة أهل الدراية إلى رتبة أهل الولاية. والحال أن ازدواجية السلوك هذه قد قترنت لدى ابن باجة - على ما يقدر ابن طفيل - بازدواجية فكر. فقد امتنع، حرصاً منه على عدم التناقض مع نفسه في أقواله، عن التكلم في الشروط الحقيقية «للوصول» التي تقتضي، أول ما تقتضي، سيرة غير تلك التي سار عليها في حياته، واعتقادات غير تلك التي جهر بها من ضرورة الإقبال على الدنيا والتمتع بملذاتها، مع ما يستتبع ذلك من وجوب «الاستكثار من المال والجمع له».

ولا يكفي ابن طفيل بأن يحاسب ابن باجة هذا الحساب العسير على نزعة الدنيوية الكلية، بل ينتقده أيضاً على نزعة «العلمانية» التي جعلته، مثله مثل لفارابي من قبل في تفسيره لظاهرة النبوة، يرد «التذاذ القوم» [= أهل الولاية] إلى قوة دونية هي «القوة الخيالية». فلو كان لهذه القوة أن تسمى - وابن طفيل لا يسميها - لكان ينبغي أن تسمى «القوة القدسية»^(٢٢).

وفي الوقت الذي ينتصر فيه ابن طفيل انتصاره الكبير لمن يسميهم «الصديقين»، أي بتعبير أوضح العرفانيين، فإنه يحرص أيضاً على التنويه - أو حتى التنديد - بقصور «أهل النظر»، أي بتعبير أوضح أيضاً البرهانيين، عن الوصول إلى لحظة «الانبلاج الكبير» و«التذاذ العظيم». ذلك أن البرهانيين غير مؤهلين، بما هم برهانيون، إلا لإدراك عالم الطبيعة. أما عالم ما بعد الطبيعة فليس السبيل الموصل إليه لا النظر ولا الإدراك البرهاني «المستخرج بالمقاييس وتقديم المقدمات وإنتاج النتائج»، أو على الأقل ليس ذلك هو السبيل الأوثق والأضمن. فقد يتفق للبرهانيين أن يدركوا «مما بعد

(٢١) ابن طفيل: «حي بن يقظان»، تقديم زوي بغوره، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ١٩٨٩، ص ١١ - ١٢.

(٢٢) هذا التعبير هو لابن سينا الذي انطلق هو الآخر في تفسيره لظاهرة النبوة من مبدأ «القوة المتخيلة» كما قال به الفارابي. ولكن إذ ميّز بين قوة متخيلة تنظر إلى أسفل وقوة متخيلة تنظر إلى أعلى، فقد آثر أن يحدث انزياحاً في نظرية الفارابي وأن يخترع مفهوم «العقل القدسي» ليفسر به ظاهرة النبوة ويصون مقامها في الوقت نفسه.

الطبيعة مثل ما أدركه أبو بكر»، ولكن إدراكهم هذا لن يكون بحال من الأحوال في مثل وضوح إدراك أهل المشاهدة، ولا يفضي بهم إلى ذلك الانبهار العظيم والالتذاذ العظيم الذي يعرفه هؤلاء في لحظة انخراطهم الذي لا اسم له يسمى به. فعالم أهل البرهان يبقى هو عالم العقل البارد، أما أهل العرفان فعالمهم عالم التجربة المعيشة المكتوبة بنار والمضيئة بوميض. وهذا العالم ما قيض قط لابن باجة أن يطأ عتبة المقدسة. فقد كان عليه قبل ذلك أن يخلع نعلين: حب الدنيا وبرودة العقل. ولكنه لم يفعل، مع أنه كان، بين من خَلَف من الخلف، «الأحقق نظراً» و«الأقرب إلى الحقيقة».

ولعل هذا النقد الذي يوجهه ابن طفيل إلى ابن باجة، لا يتخذ دلالة تامة إلا بمقارنته بالنقد الذي وجهه إليه ابن رشد، والذي عرضنا نماذج منه في فقرة سابقة في معرض تنفيذ دعوى ناقد العقل العربي القائلة إنه ما كان - في إطار وحدة «المشروع الثقافي المغربي الأندلسي» - لمفكر «مغربي» أن ينتقد معكراً مغربياً آخر. ولحال، أن نقد ابن طفيل لابن باجة يبدو أكثر جذرية بما لا يقاس من نقد ابن رشد. فهذا الأخير اكتفى ببيان «أغاليط» ابن باجة في تفسير أقوال أرسطو، ولم يتخط بالتالي في نقده مستوى الاختلاف في الاجتهاد. أما ابن طفيل فلم يخالف ابن باجة في الرأي فحسب، بل أنكر عليه رؤيته ومهجه بالذات، وقصّل بينه وبين نفسه بخندق عميق بعمق ذلك الذي يفصل في نظره بين أهل النراية وأهل الولاية. ومع ذلك كله فإن ناقد العقل العربي يصّر على أن يجمع بين الفيلسوفين الأندلسيين بأشد من صرار الفارابي على «الجمع بين الحكيمين» بضمهما - مع ابن رشد - إلى مدرسة مغربية واحدة يخلع عليها امتياز احتكار «النزعة البرهانية» في الفلسفة العربية الإسلامية برمتها، ويخترع لها نصاً ابستمولوجياً مشتركاً قوامه وحدة المنهج والرؤية التي ستكون وراء نفس النتائج^(٢٣).

وما دعنا بصدد هذه الفرضية «الفانتازية» التي تصر على الجمع بين ابن طفيل وابن باجة في مدرسة واحدة هي «المدرسة الرشدية البرهانية»، فقد يجوز لنا أن نطرح سؤالاً ثانياً: لم هذا التصعيد في درجة العنف النقلي تجاه ابن باجة من جانب ابن طفيل؟ ولعل هذا السؤال لا يجد له من إمكان جواب إلا بالإحالة إلى ما يفيدنا به الدرس الحديث لعلم نفس الصراع الأيديولوجي: فنقد الأموات لا يضرى إلا بقدر ما يستهدف الأحياء المعاصرين. ومن هذا المنطلق لا نتردد في أن نصوغ فرضية قد تبدو مدهشة

(٢٣) «نحن والفرات»، ص ٢٤١. والتسويد من الجاهري.

في بادئ الرأي: إن ابن طفيل في نقده العنيف لابن باجة لا يستهدف أحداً آخر سوى «رؤيته» الذي اشرق طريقه عن طريقه: ابن رشد. فابن طفيل لا ينتقد ابن باجة على نقده للصوفية وللغزالي فحسب، بل ينتقده أيضاً بوصفه ممثلاً لفريق «أهل النظر». والحد أن ابن رشد، لمعاصر لابن طفيل، يصح أن يُقال فيه إنه قد تغمص دور ابن باجة في أبعاده الثلاثة: فهو زعيم أهل النظر في زمانه بلا منازع، وهو في زمانه أيضاً الخصم الألد للغزالي، وأخيراً فإن نقده للصوفية يكاد يكون نسخة طبق الأصل عن نقد ابن باجة لهم^(٢٤). وعلى هذا الأساس، وإذا صح ما يذهب إليه المختص المتميز بالدراسات الرشدية الذي كانه جمال الدين لعلوي من وجود «صرع خفي بين ابن طفيل وابن رشد»^(٢٥)، فلنا أن نقول إن ابن طفيل يصريح في موقفه السلبي من ابن باجة بما يبطنه في موقفه الذي لا يقل سلبية من ابن رشد. وسوف نرى أنه في المرة الوحيدة التي سيقطع فيها ابن طفيل سياق سرده لقصة حي بن يقظان ليتدخل في مجراها من الخارج، فإنما ليفجر ثورته المكبوتة تلك ضد من يعتبر أنه نصب نفسه - ودوماً بدون أن يسميه - قِيماً على «العقل والعقلاء».

ابن طفيل والغزالي

على رغم الانتقادات التي يوجهها ابن طفيل إلى أبي حامد، فإن مرجعيته إليه تبقى في محصلة الحساب موجبة، ذلك أن ابن طفيل يميز بين غزاليين: الغزالي المتكلم والغزالي المتصوف، الغزالي النظري والغزالي الذوقي، وعلى الأخص الغزالي «الجمهوري» والغزالي «الصميمي». ويقدر ما ينتقد ابن طفيل الغزالي الأول إلى حد

(٢٤) قد يكون د. عاطف العراقي أول من لفت النظر من الباحثين إلى المديرية الباجية لابن رشد في نقله للصوفية بقوله: «إن المقارن بين موقف ابن رشد وموقف ابن باجة، الفيلسوف المغربي الذي سبقه، يجد تشابهاً بينهما في كثير من الجوانب، وإن كان ابن رشد أكثر صراحة وأكثر حسماً بالنسبة لرفضه للاتجاه الصوفي... فابن باجة... ترك بصمات واضحة على ابن رشد حين يقوم ينتقد الاتجاه الصوفي... وأثر في بلورة فكر فيلسوفنا... نقول هذا وتؤكد على القول به، حتى يتبين أن ابن رشد، في موقفه النقدي تجاه الصوفية، كان مستفيداً بكثير من الأفكار التي قال بها ابن باجة» (د. عاطف العراقي. «المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد»، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٨٤).

(٢٥) انظر مقالته عن: «الغزالي والمطاب الفلسفي في الغرب الإسلامي»، في «مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، العدد الثامن ١٩٨٦، ص ١٥.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

الإنكار، فإنه يتعاطف مع الثاني إلى حد الانتماء، إن لم يكن من الدرجة الأولى، فمن الدرجة الثانية. ذلك أن الانتماء الأول لابن طفيل يبقى، كما سنرى، هو الانتماء السينوي، أو على الأقل - لنكرر القول - ما يعتقد أنه كذلك. فالمفارقة الكبيرة في سينوية ابن طفيل هي أن «قراءته» للشيخ أبي علي تتم بوساطة الشيخ أبي حامد. فلولا الغزالي لما استطاع ابن طفيل أن يكون سينوياً بالكيفية التي كانها عندما أخذ على عاتقه أن يثبت إلى مسائله ما أمكنه بثه من «أسرار الحكمة المشرقية».

وابن طفيل لا يجهل بطبيعة الحال الحملة الشعواء التي شنّها الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» على ابن سين ولقارابي وفلاسفة الإسلام عموماً وحكمه عليهم بالتبديع والتكفير، ولكنه يغتفر له هذه «الزلة»، أو يرجعها بالأحرى إلى جملة التناقضات التي وقع فيها الغزالي «الجدلي» قبل أن ينتهي إلى تبني «اعتقاد الصوفية»، ويتراجع عن بند أساسي من بنود تكفيره للفلاسفة، وهو «إنكارهم لحشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفس خاصة»، وذلك بعد أن ثبت له، كما يقول في مطلع كتابه «ميزان العمل»، أن هذا الاعتقاد ليس وفقاً على أهل الفلسفة، بل «هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع»^(٢٦). ويلاحظ ابن طفيل أن تناقضات الغزالي إنما مردّها، في الأرجح، إلى ما سيسميه النقد لحديث استراتيجي الخطاب: ف«كتب الشيخ أبي حامد... هي بحسب مخاطبته للجمهور تربط في موضع وتحل في آخر، وتكفر بأشياء ثم تحللها... وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها». ويستشهد ابن طفيل ههنا بما اعتذر به الغزالي نفسه عن التقلب في آرائه عندما قال «في كتاب «ميزان العمل»... الآراء ثلاثة أقسام: أولاً - رأي يشارك الجمهور في ما هم عليه؛ ثانياً - رأي يكون بحسب ما يخاطب به كل مسائل ومسترشد؛ ثالثاً - رأي أن

(٢٦) الواقع أننا لم نجد للغزالي نصاً يتراجع فيه من هذا البند من البنود الثلاثة التي كفر بها الفلاسفة. ففي «المنقذ من الضلال» - وهو من آخر كتبه - عاد يرميهم بـ «الكفر الصريح» لقولهم «يقدم العالم ويعلم الله للكلية دون الجزئيات ولقولهم «إن الأجساد لا تحشر، وإنما المشاب والمغالب هي الأرواح المجردة، والعتبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، ولقد صدقوا في إثبات الروحانية، فإنها كائنة أيضاً، ولكن كلبوا في إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيم طبقوا به» (المنقذ من الضلال)، حققه وعلّق عليه عبد الكريم العراقي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤، ص ٥٤ - ٥٨. أما ما ذكره الغزالي في مطلع كتابه «ميزان العمل» من اعتقاد الصوفية لمشارك مع الفلاسفة فهو إيمانهم، لا بروحانية المعاد، بل بروحانية الذات.

يكون بين الإنسان وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده^(٢٧). والحال أن ابن طفيل يستبعد الغزالي الجمهوري [- العامي] والغزالي الخاصي، ولا يستبقي برسم انتمائه الشخصي سوى الغزالي الصميمي، المتوحد مع نفسه أو مع من هم في مقام نفسه من الشركاء في الاعتقاد.

ولا يكتفئ ابن طفيل سائله عن «أسرار الحكمة المشرقية»، أنه سعى عبثاً إلى الحصول من كتب الغزالي على تلك التي لا يخاطب فيها سوى نفسه وشركاء نفسه، وذلك بالإحالة إلى ما ذكره في «كتاب الجواهر» [من] أن له كتباً مضموناً بها على [غير]^(٢٨) أهلها وأنه ضمنها صريح الحق^(٢٩)، ولكن - يضيف ابن طفيل - لم يصل إلى الأندلس في علمنا شيء منها - بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هي تلك لمضنون بها، وليس الأمر كذلك. وتلك الكتب هي كتاب «المعارف العقلية» وكتاب «النفخ والتسوية» و«مسائل مجموعة» وسواها. وهذه الكتب، وإن كانت فيها إشارات، فإنها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف على ما هو مبثوث في كتبه المشهورة. وقد يوجد في كتاب «المقصد الأسنى» ما هو أغمض مما في تلك. وقد صرح هو بأن كتاب «المقصد الأسنى» ليس مضموناً به، فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الواصلة ليست هي المضنون بها^(٣٠).

ونحن هنا، في الحقيقة، أمام شهادة ثمينة من طرف ابن طفيل في ما يتعلق بقضيتين:

أولاً - فما يذكره من كتب الغزالي الواصلة إلى الأندلس «المنقذ من الضلال»، «ميزان العمل»، «تهافت الفلاسفة»، «مشكاة الأنوار»، «جواهر القرآن»، «المقصد

(٢٧) «حي بن يقظان»، ص ٥٨.

(٢٨) ساقطة في طبعة أحمد أمين.

(٢٩) الإشارة هنا إلى كتاب «جواهر القرآن» الذي يذكر فيه الغزالي بالفعل أنه كان وضع في «العلم الأعلى الأشرف، علم معرفة الله... بعض انتصايف، لكننا لم نظهره، فإنه يكمل عنه أكثر الألفهام ويستقر به الضعفاء، وهم أكثر. لمرسمين بالعلم، بل لا يصلح إظهاره إلا على من اتقن علم الظاهر وسلك في قمع الصفات الملمومة من النفس وطرق المجاهدة حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل، فلم يبق له حظ في الدنيا ولم يبق له طلب إلا الحق، وورق مع ذلك لطفة وقدة وقريحة منقاد وذكاء بليغاً وفهماً صافياً. وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات» («جواهر القرآن»، طبعة مصورة، دار لآفاق لجديدة، بيروت ١٩٧٣، ص ٢٥).

(٣٠) «حي بن يقظان»، ص ٥٩.

ابن طفيل : مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

الأسنى»، «المعارف العقلية»، «النفخ والتسوية»، «مسائل مجموعة» و «سراها» يدل على قوة حضور الغزالي في الأندلس في مطبع العهد الموحيدي. وهذا الحضور الأندلسي للغزالي يتعزز أكثر بعد إذا ما أضفنا إلى قائمة ابن طفيل «إحياء علوم الدين»، الذي ردّ إليه الموحدون اعتباره بضجة متعملة، و«المستصفى» الذي تصدى ابن رشد، معاصر ابن طفيل، لتلخيصه، فضلاً عن «تهافت الفلاسفة» الذي تصدى لنقده في أوسع مشروع لنقد النقد عرفه الفكر الفلسفي لعربي الإسلامي، عدا عن الكتب التي استشهد بها أو أشار إليها بالنقد العارض (مقاصد الفلاسفة)، «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، «فضائح الباطنية»، «الجمام العوام عن علم الكلام». وإزاء قوة حضور الغزالي هذه في الأندلس الموحدية يطرح السؤال نفسه: ألا تنهار بذلك آخر ركيزة لفرضية ناقد العقول العربي [= المشرقي] التي تتأول «الثورة الثقافية» الموحدية على أنها في المقام الأول «ثورة على المشرق» و «تقليد المشرق»؟

ثانياً - وما يذكره عن عدم وصول كتب الغزالي المضمنون بها على غير أهلها، له هو أيضاً دلالة الخاصة. فهذه الكتب التي تعددت الإشارات إليها في التراث الفلسفي والصوفي اللاحق على الغزالي بما في ذلك إشارة ابن رشد في «مناهج الأدلة» - تكاد تحتل في هذا التراث الموقع نفسه الذي تحتله «الفلسفة المشرقية» المنسوبة إلى ابن سينا: حضور كبير يخفي وراءه غياباً كبيراً. فهذه الكتب المضمنون بها لا تنطوي، خلافاً لما هو مشاع عنها ولما يوحى كلام ابن طفيل نفسه، على أسرار أو ألغاز أو رموز أو إشارات «باطنية» محجوبة عن عامة الخلق. ولقد أصاب ابن طفيل كبند الحقيقة، من حيث لا يدري، عندما قال إن تلك الكتب التي «يزعم بعض الناس أنها تلك هي المضمنون بها... لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف على ما هو مبثوث في كتبه [= الغزالي] المشهورة» وبرغم الهالة الأسطورية التي أحيطت بها، فإن شأن تلك الكتب هو في الواقع أقرب ما يكون إلى شأن «الفلسفة المشرقية» المبثوثة هي الأخرى، بحسب تصريح ابن سينا نفسه، في ثانياً موسوعة «الشفاء»^(٣١). والواقع أن تلك الكتب «المضمنون بها» لا تعدو أن تكون اثنين: المضمنون الصغير والمضمنون الكبير. أما

(٣١) ليس من قبيل الصدفة أن يكون ناقد العقل العربي الذي روج بحماس لا مستزاد عليه لأسطورة الفلسفة المشرقية تشيخاً على ابن سينا وعلى الفكر العرفاني «المشرقي» قد تبني أيضاً، بدون أي تدقيق تاريخي نقدي، أسطورة كتب الغزالي «المضمنون بها على غير أهلها» (انظر: «تكوين العقل العربي»، ص ٢٨٨ و ٢٩٤).

المضنون الصغير فهو عينه كتاب «النفخ والتسوية» الذي أشار إليه ابن طفيل وذكر أنه لا يتضمن «عظيم زيادة» على ما هو متداول من أفكار الغزالي وإشاراته المبثوثة في كتبه الأخرى. ولئن عرف المضنون الصغير باسم كتاب «النفخ والتسوية»، فلأن الغزالي يفرد الفصل الأول منه للإجابة عن سؤال سائله «عن معنى قوله تعالى: ﴿فَلِذَا سَوِيته وَنَفَخْتُ فيه من روعي﴾؟ ولئن سمي باسم المضنون الصغير، فلأنه يعالج في تنمة فصوله مسألة الروح رداً أيضاً على سؤال سائله: لِمَ منع الرسول (ص) عن رشاء هذا السر وكشف حقيقة الروح بقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾؟ وليس تخفى الطبيعة الميتافيزيقية لمثل هذه الأسئلة. والحال أن الغزالي، كما ابن سينا من قبل وابن رشد من بعده، أقام كل استراتيجية خطابه على التمييز في الناس بين العوام والخواص. وعنده أن «من غلب على طبعه العمامة» فليس يطبق فهماً للمسائل الميتافيزيقية. ولهذا ليس «يجوز كشف السر» لا مع «من كانت العمامة أغلب عليه» ولا حتى «من ترقى عن العمامة قليلاً» من «الأشعرية والمعتزلة»^(٣٢). وإنما في سياق هذه القسمة للناس في أفهامهم إلى عوام وخواص كتب إلى أخيه أحمد رسالته التي اشتهرت باسم المضنون الكبير والتي استهلها بالقول: «إعلم أن لكل صناعة أهلاً يعرف قدرها، ومن أهدي نفائس صناعة إلى غير أربابها فقد ظلمها. وهذا علق نفيس مضنون به على غير أهله. فمن صانه عمن لا يعرف قدره فقد قضى حقه»^(٣٣). والحال أن الغزالي نفسه يقرر أن «هذا العلق المضنون

(٣٢) الغزالي: «الأجوبة الغزالية في المسائل الأخرى» (المضنون الصغير) في: «وسائل الإمام الغزالي»، طبعة دار الكتب العلمية المصوّرة، بيروت ١٩٨٦، م ٤، ص ١٧١ - ١٧٢. وهذا الشاهد الأخير ثمين من منظور آخر: فهو يشير إلى مسافة ما جعلها الغزالي بينه وبين الأشاعرة الذين كان كل انتمائه إليهم قبل مرحلته التصوفية الختامية.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٧١. وبما أنه قد وجد في عداد الباحثين المعاصرين من رعم أن الكتب «المضنون بها على غير أهلها» مدسوسة على الغزالي، فنورد أيضاً المقطع «اختامي من رسالة الغزالي إلى أخيه حيث يعده بالقول: «قد قررت يا أخي طيب الله عيشك بعض ما يمكن التلويح إليه على وفق ما انتهت فطانتني إليه» وأوصيك ومن معك بالإيمان بهذه الأشياء التي ورد الشرع بتصحيحها دون التوقف فيها، ونمود بالله من التوقف، وسأهدي إليك من بعد أن رفعتني الله تعالى علماً مضنوناً آخر، اسمه المضنون به على غير أهله، أحق وأرلى من هذا المصنف، فإن في هذا مسائل قررتها في عدة مواضع ومسائل لم أقررها إلا في ذلك المصنف. أما المضنون الموجود فقد كانت عزيمتي على تقرير أشياء فيه لم أقررها في شيء من كتبي، اللهم إلا في «إنحياض العلوم»، فإن عليّ تقرير أشياء فيه تلويحات وإشارات إلى رموز لا يعرفها إلا أهلها» (المصدر نفسه، ص ١٦٤).

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

به على غير أهله يشتمل على أربعة أركان: الركن الأول؛ في معرفة الربوبية، الركن الثاني؛ في معرفة الملائكة، الركن الثالث؛ في حقائق المعجزات، الركن الرابع؛ في معرفة ما بعد الموت والانتقال من الدنيا إلى العقبى». وواضح للعيان أن هذه المسائل الأربع جميعاً تتعلق بالميتافيزيقيا الماورائية، أي بذلك الشطر من الدين الذي يشغل موقعاً مركزياً في الآيات المكية - من دون المدنية - من القرآن، والذي هو أدخل في علم الكلام الملجوم عنه العوام، لأن الجدل فيه يشوش إيمانهم ويجعلهم يتوقفون حيث لا يجوز التوقف حتى للدواصر. والواقع، أن إشكالية العامة والخاصة تتخطى نطاق الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية لتضرب جذورها في عمق التقليد الفلسفي كما أرساه فيثاغورس وانبلاقلس، وحتى سقراط وأفلاطون^(٣٤). وتقريباً للصبر فلننقل إن لمسافة الفاصلة بين كتب الغزالي المضمون بها عن غير المضمون بها لم تكن أبعد ولا أعمق غوراً من تلك الفاصلة بين كتب أرسطو التي يُقال لها الباطنة (Acroamatiques) عن كتبه الظاهرة أو الجهرية (Exotériques). وأياً يكن من أمر فإن الهالة شبه الأسطورية التي أحاطت منذ وقت مبكر بكتب الغزالي «المضمون بها على غير أهلها» كانت ضرورية لكيما يبدع ابن طفيل قصته لشخصية عن «حي بن يقظان». فضياع تلك الكتب، أو عدم وصولها إلى الأندلس في حينه على الأقر، مثل - تمداً كضياع كتاب «الحكمة المشرقية» لابن سينا - شرطاً إبستمولوجياً لتصميم ابن طفيل لمشروعه الخاص في اقتحام مجاهل «أسرار الحكمة المشرقية». فوحده ما هو ضائع أو مفقود يمكن أن يكون موضوعاً لسر. ووحده ما هو غير موجود يمكن أن يقدم ركييزة لإبداع موجود يحل محله. وليس من قبيل الصدفة أن يكون ابن طفيل قد أعطى مشروعه شكل قصة، مسجلاً بذلك لنفسه ابتكاراً غير مسبوق إليه في تاريخ التقليد الفلسفي: ذالقصة هي النوع الأدبي الأكثر مواءمة لخلق واقع بلا واقع، واقع متخيّل تربطه بالواقع الفعلي علاقة مشاكلة لا علاقة مطابقة. وبلغة الفلسفة العربية الإسلامية واقع بالقوة، لا واقع بالفعل. أو إذا شئت، وكما يتنا نقول بلغة عصرنا: واقع افتراضي (Virtuel) بخايل بما

(٣٤) قد يكون المرد التاريخي لهذه الإشكالية إلى الطابع النخبوي، بله الاحتكاري، لحرقة الكتابة في الأزمنة القديمة. وكذلك، وبعد اختراع الكتابة الأجدية التي خلقت إمكانية تعميم أكثر ديموقراطية للامتياز الثقافي، إلى الطابع الطبقي الشديد الحدة الذي كان يفصل العلم الاجتماعي للمتعلمين عن عالم غير المتعلمين في العصر الوسيط. وقد رجعت هذه الإشكالية تنويرها في الثقافة العربية الإسلامية من خلال المسئلة القائلة: إن الفلسفة للخاصة مثلما الدين للعامة.

هو ممكن في الأذهان بدون ارتكاز على وجود مادي في الأعيان^(٣٥).

هنا قد يثور سؤال: لماذا نزع الغزالي وكتبه المضمون بها كعنصر بنائي في قصة ابن طفيل التخيلية عن «أسرار الحكمة المشرقية» لشي يفترض بها - بحكم عنوانها الفرعي هذا - أن تكون قصة مبنوية خالصة؟

نفعل ذلك لسببين: أولاً، لأن مضمون قصة حي بن يقظان ينم - كما سنرى عندما سنتصدى له بالتحليل - عن حضور طائغ لـ «فلسفة - الغزالي». وثانياً، لأن ابن طفيل نفسه يصرح بهذا الحضور، ويجعل بالتصريح أيضاً من الغزالي المصدر الثاني - بعد ابن سينا - لاستلهامه، وذلك بقوله: «لا شك عندنا في أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة. لكن كتبه المضمون بها المشتعلة على علم^(٣٦) المكاشفة لم تصل إلينا. ولم يتخلص لنا نحن الحق الذي انتهت إليه وكان مبلغنا من العلم تتبع كلامه وكلام الشيخ أبي علي وصرف بعضهما إلى بعض وإضافة ذلك إلى الآراء التي نبعت في زماننا ولهج بها قوم من منتحلي الفلسفة حتى استقام لنا الحق أولاً بطريق البحث والنظر، ثم وجدنا منه هذا اللوق اليسير بالمشاهدة، وحيث رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا^(٣٧)».

وهذا النص حاسم الدلالة في ما نحن بصدده.

فهو يؤكد، أولاً، على الطبيعة التوفيقية لمشروع ابن طفيل في الجمع بين كلام الشيخين: أبي علي وأبي حامد و«صرف بعضهما إلى بعض»^(٣٨).

(٣٥) من هنا، وعندما يقول الجابري إن ابن طفيل لا يقدم في قصة «حي بن يقظان» - تماماً كأمراة العاكسة - سوى «عرض أمين ومحايده» للفلسفة المشرقية، فإنه لا يكون قد أنكر عليه ابتداعه فحسب، بل أحل أيضاً مبدأ البدعة. فأمراة لا تؤدي وظيفتها في الإراءة بدون أن يقابلها جسم مادي مرئي. والحال أن هذا الجسم المادي المقابل لا وجود له في حالة ابن طفيل: فحكمة ابن سينا المشرقية مفقودة، وكتب الغزالي المضمون بها غير واصله إلى الأندلس.

(٣٦) هكذا نقرأ، وليس «عدم المكاشفة» كما في طبعة أحمد أمين.

(٣٧) «حي بن يقظان»، ص ٥٨. ومن غرائب التأويل العكسي أن ناقد العقل العربي يستشهد بهذا النص نفسه ليقول إن ما يؤكد ابن طفيل فيه هو «أن طريقه لم يكن هو طريق ابن سينا ولا طريق الغزالي» («تفنن والتراث»، ص ١٦٧).

(٣٨) لا يخلو من أهمية هنا قول ابن طفيل: و«إضافة ذلك إلى الآراء التي نبعت في زماننا هذا ولهج بها قوم من منتحلي الفلسفة». وفي انتظار أن يحسم التحقيق لتاريخي في هوية هؤلاء «القوم» فإننا نلاحظ أنه لم ينبغ في زمان ابن طفيل سوى متعاط واحد للفلسفة هو ابن رشد =

ابن طفيل: مبدع «عربي» لفلسفة المشرقية

وهو يؤكد، ثانياً، على الطبيعة الاجتهادية لتدخل ابن طفيل، الذي ما تصدى لإعادة بناء إبداعية - لا استنساخية كما تفترض قراءة ناقد لعقل العربي - للحكمة المشرقية إلا بعد أن بلغ طور «الاستقلال الفلسفي»، ورأى نفسه أهلاً لوضع كلام يؤثر عنه.

وهو يؤكد، ثالثاً، أن تطوره الفلسفي اشخصي - اندي أوصله إلى عتبة القدرة على الاجتهاد وإضافة جديد يؤثر عنه - قد مرّ بمرحلتين: مرحلة أولى برهانية استقام له الحق فيها «بطريقة البحث والنظر»، ومرحلة تالية عرفانية تأتي له فيها قدر من «الدوق اليسير بالمشاهدة».

وهذا التوكيد الثالث، له أهميته ليس فقط لكي نفهم التطور الروحي لحي بن يقظان، الناطق بلسان ابن طفيل، من مرحلة نظرية دنيا إلى مرحلة ذوقية عليا، بل كذلك لنفهم تصميم ابن طفيل، في نقطة الانطلاق لمشروعه، على الجمع بين اثنين ما كان لهما من حيث المبدأ أن يجتمعا: نصير الفلسفة الكبير الذي كانه ابن سينا، وخصيم الفلسفة الكبير الذي كانه الغزالي. ومن منظور هذا الجمع بين التقيضين، فإننا نعتقد أن أية قراءة مطابقة لقصة «حي بن يقظان» ينبغي أن تنطق، لا من مفهوم لقطعية الاستمولوجية - كما تفعل القراءة الجابرية - بل على العكس من مفهوم الوصلة الاستمولوجية إن جار التعبير. فكم إنه لا يكون قطع إلا حيث يكون اتصال، كذلك لا يكون وصل إلا حيث يكون انقطاع. ونحن نزع من ابن طفيل كان مضطراً في هذا الوصل بين منقطعتين إلى أن يكون غزالياً أكثر منه سينيواً. وبالفعل، وكما سنرى في التو، فإن ابن طفيل لم يأخذ من ابن سينا سوى بعض العناصر البشائية (عنوان كتابه الضائع واسم بطل رسالته الرمزية وفقرات وصفية - لا تعكس تجربة ذاتية - من كتابه «الإشارات والتنبيهات»). أما الغزالي فحاضر في قصة ابن طفيل بفكره وتجربته الشخصية معاً. ولكن - وكما تقدم بنا القول - ليس أي غزالي كان، بل تحديداً وحسراً غزالي «المنفرد من الضلال». أي ليس الغزالي الجدلي الأشعري، ولا الغزالي الموظف الأيديولوجي في الدولة السلجوقية، بل فقط غزالي الطور التصوفي الأخير، وعلى حدّ تعبير ابن طفيل نفسه - كما رأينا - الغزالي الذي «سعد السعادة القصورى ووصل تلك

— نفسه. ولئن كانت عبارة ابن طفيل لا تخلو من نزعة إلى الهجاء بلجره إلى تعبير «قوم من متحبي الفلسفة»، فما ذلك من قبيل الصدفة. فسوف يرى لاحقاً أن لابن رشد حضوراً سالباً إلى حد صارخ في موضعين آخرين من قصة «حي بن يقظان»، وإن بدون تسميته بالاسم.

الموصل الشريفة المقدسة». والحق، أننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن الغزالي «المتقلد من الضلال» قدم لابن طفيل - إذا جاز لنا هنا الاستعانة بالمصطلح الفرويدي - مثال الأنا الذي يستطيع أن يتماهى وإياه. فتصمماً كالغزالي، قضى ابن طفيل الشطر الأكبر من حياته موظفاً أيديولوجياً لدى الدولة الموحدية. ومع أنه لم يترك لنا نصاً مباشراً في السيرة الذاتية، نظير الغزالي في «المتقلد من الضلال»، فإننا لا نستبعد أن يكون مرّ بأزمة وجدانية كمثل تلك التي مرّ بها الغزالي. ونحن نملك على ذلك قريبتين - وليس دليلاً والحق يقال -: أولاً، الأزمة المشابهة التي سيمر بها بطله حي بن يقظان حينما سيلوذ، في لحظة تعجيله الكبرى كما سنرى، «في قعر مغارته معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية... لا يتغذى ولا يتحرك... يطلب الفناء عن ذاته والإخلاص في مشاهدة الحق» - وثانياً، النقد الذي وجدناه يوجهه إلى ابن باجة الذي «شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل بث خفايا حكمته». فهنا أيضاً نستطيع أن نقرأ هذا النقد، من خلال التماهي السالب مع ابن باجة، على أنه نقد ذاتي؛ إذ لا ننسى أن ابن باجة كان وزيراً لدى الدولة المرابطية مثلما كان ابن طفيل وزيراً أو شبه وزير لدى الدولة الموحدية^(٣٩).

وأياً يكن من أمر، فإن انتماء ابن طفيل إلى الغزالي المتصرف انتماء مجبور به منذ مطلع رسالة «حي بن يقظان»، وما ذلك لأن المسار التحولي للغزالي يطابق مسار ابن طفيل فحسب، بل كذلك لأن تصرف الغزالي الذي بقي ضمن إطار العقيدة القويمة لأهل السنة يقدم لابن طفيل، الحريص على البقاء ضمن الأطار عينه كما رأيت وسنرى، الضمانة ضد شطح المتصوفة الآخرين، من أمثال الحلاج والبسطامي، الذين أوصلتهم عقيدة وحدة الوجود إلى حدود الهرطقة، فزلت أقدامهم - على حد تعبير ابن طفيل نفسه - «من الصراط المستقيم». وفي ذلك يقول وهو يحدث سائله عن النقلة الوجدانية التي أحدثها فيه سؤاله الاستعلامي عن «أسرار الحكمة المشرقية»: «لقد حرك مني سؤالك خاطراً شريفاً أفضى بي - والحمد لله - إلى مشاهدة حال لم أشهدها قبل،

(٣٩) في ما يتعلق بالدور الوظيفي لابن طفيل في بلاط الموحدين انظر «المعجب» للمراكشي، وكذلك «المن بالإمامة» لعبد الملك بن صاحب الصلاة الذي يورد لابن طفيل قصيدة بائية مطبوعة يبحث فيها عرب قيس عيلان على الانصواء للجهاد تحت لواء الموحدين - بني قرايتهم - الذين بعث الله «المهدي» فيهم مثلما كان بعث في أسلافهم النبي.

ابن طفيل: مبدع «عربي» للفلسفة المشرقية

وانتهى بي إلى مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان، لأنه من طور غير طورهما وعالم غير عالمهما^(٤٠). غير أن تلك الحال لما لها من البهجة والسرور واللذة والحبور لا يستطيع من وصل إليها وانتهى إلى حد من حدودها أن يكتم أمرها أو يخفي سرها، بل يعتز به من الطرب ولشاش والمرح ولا تبسط ما يحمله على البوح بها مجملة من دون تفصيل. وإن كان ممن لم تحدّثه العلوم قال فيها بغير تحصيل. حتى إن بعضهم قال في هذه الحال: «سبحاني ما أعظم شأنني»، وقال غيره: «أنا الحق»، وقال غيره: «ليس في الثوب إلا الله». وأما الشيخ أبو حامد الغزالي فقال متمثلاً عند وصوله إلى هذه الحال بهذا البيت:

فكان ما كان ممن لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر
إنما أذّبت «المعارف» وحلّقت «العلوم»^(٤١).

ابن طفيل وابن سينا

إن الحضور الاسمي لابن سينا في رسالة «حي بن يقظان» كبير، ولكن حضوره الفعلي صغير.

ويتعبّر آخرون وبالأستعانة بمعجم علم الاقتصاد النقدي، نستطيع أن نتحدث في رسالة «حي بن يقظان» عن ظاهرة تضخمية سنوية، علماً بأن هذا التضخم ليس

(٤٠) لا شك أن السائل شخص موهوم، إذ لا عقل أن يكون محصن سواه قد نقل ابن طفيل تلك، بنقله المباشرة إلى تلك الحال شبه الإلهية من «أحوال السعداء». قلنا أن نفترض إذن أن ابن طفيل، الذي ينوء تحت ضغط الحاجة إلى البرح بحالته، قد اخترع السائل وسواه على سبيل التريفة.

(٤١) «حي بن يقظان»، ص ٥٣. وبيت لابن المعتز. والواقع أن ابن طفيل يستعيد هنا بصورة شبه حرفية كلاماً أوردّه ابنزلي في «مشكاة الأنوار» في إشارة له إلى أصحاب عقيدة وحدة الوجود من العارفين الذين صار لهم «المرح إلى سماء الحقيقة... ذوقاً وحالاً، فأنفت عنهم الكثرة بالكلية، واستغرقوا بالفردانية المحصنة... فلم يبقَ عندهم إلا الله، فسكروا سكراً وقع درنه سلطان حقولهم، فقال بعضهم: «أنا الحق»، وقال الآخر: «سبحاني ما أعظم شأنني». وقال الآخر: «ما في الحبة إلا الله». وكلام العشاق في حاش السكر بطوى ولا يحكى. فلما خفت عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان عقل الذي هو ميران الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد» (مشكاة الأنوار في: «مجموعة رسائل الإمام الغزالي»، سبعة دار الكتب العلمية المصورة. في بيروت ١٩٨٦، م ٤، ص ١٨).

متعمداً، بقدر ما هو نتيجة محتومة لطبيعة مشروع ابن طفيل في بث أمرار لحكمة المشرقية.

فاين طفيل كتب قصته، أو صمّم فكرتها بالأولى، في سياق مزدوج من الغياب والحضور تحكّم - ولا يزال إلى يومنا هذا - بكل المصائر التاريخية لأسطورة الفلسفة المشرقية السيئوبة.

سياق من الغياب أولاً نظراً، ليس فقط إلى الضياع التاريخي لكتاب «الحكمة المشرقية»، بل كذلك إلى ضياع المدلول الجغرافي لصفة «المشرقية».

وسياق من الحضور ثانياً. فذلك الضياع المزدوج قد أوجد الشروط الموضوعية لتحول «الحكمة المشرقية» إلى أسطورة، ولا سيما في إطار الضجة التي أثارها من حولها السهروردي المقتول في مسعاه إلى توظيفها باتجاه «حكمة الإشراق»، أي على حد تعبيره «الحكمة العتيقة التي ما زال أئمة الهند وفارس وبابل ومصر وقدماء اليونان يدورون عليها ويستخرجون منها حكمتهم، وهي الخميرة الأزلية».

وبمعنى من المعاني، نستطيع أن نصف ابن طفيل، من هذا المنظور، بأنه سهروردي المغرب. فبدون أن يكون مهموماً همّ السهروردي بإحياء الحكمة العتيقة المزعومة، فقد استطاع، مثله مثل شيخ الإشراق، أن ينجز تحويلها إلى حكمة عرفانية، ولكن ليس بالاستناد إلى التراث الجمعي لـ «أئمة الهند وفارس وبابل ومصر»، بل بالاستناد إلى التجربة الشخصية لبطله المترشح المنقطع في جزيرته عن كل تراث، بل حتى عن كل لغة.

وتماماً كما إن هذا الإخراج العرفاني لقصة حي بن يقظان قد اضطره إلى استبعاد الفقيه والجدلي الأشعري والداعية الأيديولوجي ليستبقي من الغزالي العارف الذي وصل، بدون أن تزل به قدمه، إلى «تلك المواضع الشريفة المقدسة»، كذلك فإن التصميم على ذلك الإخراج العرفاني عينه سيضطره إلى استبعاد النظري والمشائي الكبير الذي كانه ابن سينا لكيلا يستبقي منه، ولو بالتوهم، سوى العارف الذي عرف وإن لم يكن قد وصل.

نقول: «ولو بالتوهم» لأن ابن سينا أشد استعصاء على «العرفنة» و «الصفوينة» بما لا يُقاس من الغزالي. فهذا قد اختار بنفسه، بعد أزمته العاصفة، أن يُسَلِّك نفسه في عداد «الطالبيين»، وأن ينضم، بعد طول خبط مع أهل الكلام وعلمهم الوافي بمقصودهم وغير الوافي بمقصودهم، إلى «أهل المشاهدة والمكاشفة». أما ابن سينا فما

ابن طفيل ' مبدع ' مغربي ' لفلسفة ' مشرقية

أثر عنه قط ميل إلى التصوف. فقد بقي، حتى الأيام الأخيرة من حياته، مولعاً - فضلاً عن هواه الفلسفي - بمجامعة النساء ومعاقرة الخمرة وممارسة السياسة. ولم يقتض له - وهو الذي قضى عن نحو ثمان وخمسين سنة - أن يعمر بما فيه الكفاية ليعرف قلق سؤل الآخرة. والسيرة الذاتية التي أملاها على تلميذه أبي عبيدة الجوزجاني لا تشبه بوجه من الوجوه السيرة الذاتية للغزالي كما خطها بنفسه في المنقذ من الضلال. فهذا أنهى حياته مصرفاً عن الدنيا، وذلك انتهت حياته - وما أنهاها - وهو منشغل كل الانشغال بالدنيا. وفي مقابل غزارة المادة المعرفية التي تركها الغزالي العارف والواصل لمتابعه ابن طفيل، لم يترك ابن سينا مادة قابلة للتوظيف العرفاني إلا في منتهى الضآلة: عنوان كتاب ضائع، وإشارات - قابلة قابلية مسرفة للتأويل - إلى مضمونه، وأسماء ورموز أشخاص خياليين، ونصاً يتيماً ومقتضباً هو «النمط التسع» من الأنماط العشرة لكتاب «الإشارات والتنبيهات».

ضآلة هذه المادة المعرفية السينوية يشف عنها، بل يكاد يصرح بها نص ابن طفيل من اللحظة التي يستهل بها رسالة «حي بن يقظان» بالقول: «سألت أبيها الأخ الكريم الصفي الحميم... أن أبث إليك ما أمكنتي به من أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا. فاعلم أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها»^(٤٢). فواضح للعيان أن هذه الحكمة المشرقية المطلوب بث الممكن من أسرارها ليس لها من نصاب وجودي آخر سوى كون الشيخ الرئيس قد «ذكرها». وهذا الغياب للجسم المادي للحكمة المشرقية يتأكد أكثر بعد من خلال إضافة ابن طفيل: «إن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد باقتنائها». فالإحالة ههنا أيضاً إلى الحكمة المشرقية بوصفها فلسفة مفقودة. ولكن إذا كان ابن طفيل يستخدم في توصيفها عبارة ابن سينا نفسه، فلسنا ندري مع ذلك إلى أي حد تتطابق الحكمة المشرقية التي يزعم ابن طفيل أن يبت سائله بعض أسرارها مع الفلسفة المشرقية التي كان ذكرها الشيخ أبو علي في مدخل قسم المنطق من كتاب «الشفاء». وبالفعل، إن ابن طفيل هو نفسه من يعود، بعد بضع فقرات من مدخل رسالته عن «حي بن يقظان»، إلى إيراد كلام ابن سينا عن كتابه في «الفلسفة المشرقية». ففي معرض استعراضه لمصائر الفلسفة في الأندلس وما وصل من كتبها إلى «هذا الصقع

(٤٢) «حي بن يقظان»، ص ٥٢. والتسويد منا.

الذي نحن فيه» يقول: «وأما كتب أرسطوطاليس فقد تكفل الشيخ أبو علي بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته في كتاب الشفاء، وصرّح في أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك، وأنه إنما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين، وإن من أراد لحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتابه في «الفلسفة المشرقية». ومن غني بقراءة كتاب «الشفاء» وبقراءة كتب أرسطوطاليس ظهر له في أكثر الأمور أنها تتفق، وإن كان في كتاب «الشفاء» أشياء لم يبلغ إلينا عن أرسطو. وإذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب «الشفاء» على ظاهره من دون أن يتفطن لسره ويأطنه لم يوصل به إلى الكمال حسبما نبّه إليه الشيخ أبو علي في كتاب لشفاء»^(٤٣).

فمن نص ابن طفيل هذا يتضح من جديد ما كنا أوضحناه في الفصل الأول من أن الفلسفة المشرقية الضائع كتابها لا تمتّ بصلة إلى الحكمة المشرقية المضفور حولها لاحقاً هالة الأسطورة السرية، ومن أنها لا تعدو أن تكون خلافاً اجتهادياً من داخل المشائية مع المشائية، ومن أن المسافة التي تفصل ما بين ابن سينا «المشريقي» وأرسطو المشائي ليست أبعد ولا أعمق غوراً ولا ألغز سراً من تلك التي تفصل باطن كتاب «الشفاء» عن ظاهره. فما يُقَله ابن سينا يتفق «في أكثر الأمور» مع قول أرسطو، وليس لغير قراءة ذكية تنفذ من ظاهر كتاب «الشفاء» إلى باطنه لتكتشف وجود تباين في الرأي ومخالفة لمذهب المشائين غير قابلة بحال من الأحوال للتصعيد إلى مستوى القطيعة المذهبية، ركم بالأولى المعرفية.

ولكن، إن يكن كتاب «الفلسفة المشرقية» قد ضاع ولم يصل على كل حال إلى الأندلس، وإذا كان ما هو مبثوث من هذه الفلسفة في كتاب «الشفاء» لا ينم عن طلاق مع الأرسطية، فماذا يتبقى بيد ابن طفيل، المتصدي لمشروع إعادة بناء الحكمة المشرقية بمعناها «السري»، من «الأوراق الثبوتية»؟ محض إشارات - خمس في العدد - يقبسها، كما تقدم القول من النمط التاسع من كتاب «الإشارات والتنبيهات» الذي يحمل عنوان: «في مقامات العارفين». وليس اختيار ابن طفيل لهذا النمط، ولهذه الإشارات من هذا النمط، من قبيل الصدفة. فهو لا يستوقفه من هذا الكتاب - الذي قد يكون آخر ما صنفه ابن سينا - لا أنهاجه العشرة في المنطق، ولا أنماطه الثلاثة الأولى التي مدارها على الطبيعيات، ولا أنماطه الأربعة التالية التي مدارها على الإلهيات، بل يقفز مباشرة

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٥٩. والتشويد منا.

ابن طفيل: مبدع «معري» للفلسفة لمشرقية

إلى الأنماط الثلاثة الأخيرة التي مدارها على التصوف، مذهب أهل العرفان. ذلك أن كل مشروع ابن طفيل في رسالته عن «حي بن يقظان» قابل للتعريف بأنه مشروع كتابية عرفانية للفلسفة المشرقية المعزوة إلى ابن سينا. وما كان لمشروع هذه الكتابة العرفانية أن يتفعل ويخرج إلى حيّز التنفيذ ما لم تسبقه قراءة عرفانية أيضاً للنص الوحيد من نصوص ابن سينا الذي يقبل مثل هذا التأويل: عنيما النمط التاسع من «الإشارات والتنبيهات». ولهذا نجد ابن طفيل يعرف من معيته ليقدّم بالألفاظ توصيفاً لما لا يقبل من حيث المبدأ توصيفاً بالألفاظ، أي حال الانخراط التي يصير إليها العرف لحظة الوصول. فابن طفيل يصدر عن يقين راسخ بأن مثل هذه اللحظة تقع في ما وراء حدود اللغة. يقول: «أن تسأل عما يراه أصحاب المشاهدة والأذوق والحضور في طور الولاية، فهذا مما لا يمكن إثباته على حقيقة أمره في كتاب. ومتى حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتب استحالت حقيقته وصبر من قبيل القسم الآخر انظري، لأنه إذا كسي الحروف والأصوات وقرب من علم الشهادة لم يبقَ على ما كان عليه بوجه ولا حال»^(٤٤).

والحال، أن ما يحاوله ابن سينا في النمط التاسع هو بالضبط أن يقول ما لا يُقال عن حال المعارف الواصل هذه. ومن هنا استشهد ابن طفيل المطول به: «وهذه الحال التي ذكرناها وحركنا سؤالك إلى ذوق منها هي من جملة الأحوال التي نبّه إليها الشيخ أبو علي حيث يقول: «ثم إذا بلغت الإرادة والرياضة حداً ما، عنت له خلسات من اطلاع نور الحق لذيلة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه. ثم إنه تكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض. ثم إنه ليوغل في ذلك حتى يغشاها في غير الارتياض. فكلما لمح شيئاً عاج منه إلى جناب القدس، فيذكر من أمره أمرٌ فيغشاها غاشي، فيكاد يرى الحق في كل شيء. ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينته، فيصير المخطوف مألوفاً، والوميض شهاباً بيناً، وتحصل له معرفة»^(٤٥) مستقرة كأنها صريحة مستمرة... إلى ما وصفه من تدرج لمراتب وانتهائها إلى النيل بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذي بها شطر الحق، وحينئذ تدر عليه اللذات العلى، ويفرح بنفسه لما بها من أثر الحق، ويكون له في هذه الرتبة نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه وهو بعد متردد. «ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط، وإن لحظ نفسه فمن حيث

(٤٤) المصنوع نفسه، ص ٥٥.

(٤٥) هكذا نقراً، رليس «مصارفة» كما في تحقيق أحمد أمين.

هي لاحظة... وهناك يحق له الوصول»^(٤٦).

إن نص ابن سينا هذا، الذي طالما كان مثاراً لتأويل إشراقي للفلسفة السينية، يشير للحال إشكالياً: هل نحن أمام «بيان اعتقادي» أم نحن أمام نص تقريرى؟ هل نحن أمام إعلان بالانتماء إلى المذهب التصوفي العرفاني أم نحن فقط أمام توصيف موضوعي «لمقامات العارفين» ولتدرج أحوالهم وصولاً إلى لحظة الوصول؟ الواقع أن ابن طفيل نفسه يستخدم الفعل «وَصَفَ» في توصيف ما «أنبّه إليه» الشيخ أبو علي من أحوال العارفين، وذلك في قوله: «إلى ما وصفه من تدرج المراتب وانتهائها إلى النيل». وما كان ابن طفيل ليجهل أن ابن سينا لم يكن لا من العارفين ولا من الواصلين: فهذه رتبة وجدناه لا يقرّ بها إلا للغزلي عندما قال: «ولا شك عندنا في أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدمة». وصحيح أن ابن سينا أسعفه بالكلام في ما لا كلام فيه، ولكنه لم يسعفه بمثل التجربة الشخصية التي أمده بها صاحب «المنقذ من الضلال». فتوصيف ابن سينا لأحوال العارفين هو من طبيعة نظرية أكثر منها ذوقية. وابن سينا غير مندمج اندماجاً وجدانياً بنصه، بل يفصل نفسه عنه بمسافة من الحياد الموضوعي والبرود العقلاني. فالتجربة العرفانية تدخل مع ابن سينا كما لو في معمل للصياغة بالمفاهيم. والمفاهيم، مهما يكن من درجة مطابقتها لمواضيعها، تبقى مخارجة لها. ولا شك في أن ابن سينا، بما أوتي من قوة حدس خارقة، استطاع أن يحقق بالواقعة الصوفية وأن يدلف إلى عمق غير قليل من طبقات قشرتها، لكن من دون الوصول إلى نواتها الصلبة. فقد كان ينقصه، للتنفذ إلى صميم التجربة الصوفية، الاكتواء الذاتي بناها. ولعله لو اكتوى لأمسك عن الكلام مصطدماً حاجز اللاتعة ذاته الذي أشار إليه ابن طفيل عندما قال: «نحن لا نجد في الألفاظ الجمهورية ولا في الاصطلاحات لخاصة أسماء تدلّ على الشيء الذي يشاهد هو به ذلك النوع من المشاهدة»، والذي «إذا كسي الحروف والأصوات لم يبقّ على ما كان عليه»^(٤٧).

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٥٤. وانظر النص بتمامه، مع بعض تعليقات طيفيفة في: «الإشارات والتنبهات» (مع شرح نصير الدين الطوسي)، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨، ٢٢، ص ٨٢٨ - ٨٣٥.

(٤٧) قد يثور هنا سؤال: إذا لم يكن لابن سينا معاناة شخصية بالتجربة الصوفية، فمن أين جاءه ذلك «القدر من المعرفة المطابقة بها؟ قد يتعين هنا أن تستعين بقصة علاقته مع كبير المتصوفة في =

ونحن نملك دليلاً شبه قاطع على بقاء ابن سينا، في كلامه على «مقدمات العارفين»، خارج موضوعه. فلئن يكن خصص النمط لثامن للتوصيف، فقد خصص النمط التاسع للتفسير. والحال أن البرودة المفهومية في التوصيف ترادفها برودة عقلانية في التفسير. فلم يحدث قط، في الغضاء العقلي للعصر الوسيط بجناحيه العربي الإسلامي واللاتيني المسيحي، أن رُدَّ ما فوق الطبيعي - أو ما كان يبدو وكأنه كذلك - إلى الطبيعي نظير ما فعل ابن سينا في مسعاه إلى تفسير كرامات الأولياء. ولئن جعل ابن سينا عنوان النمط التاسع «في أسرار الآيات»، فما ذلك ليتوقف عند عتبة هذه «الأسرار» متحرزاً، بل ليتخطاها ويحاول خترافها مكتئباً. وليس تكتيكه ههنا أن ينفي إمكانية هذه «الآيات» ليقول - كما لو أنه «علمي» من القرن التاسع عشر الميلادي - باستحالة قبولها عقلاً، بل أن يثبت وجودها ليقول - وهو ابن القرن الخامس الهجري - بإمكانية تفسيرها عقلاً. ومن هذا المنظور فقد مثل السقف الأعلى للعقلانية في عصره. فالمهمة التي أخذ على عاتقه التصدي لها في النمط العاشر والختامي من «الإشارات والتنبيهات» ليست إنكار اللامعقول، بل إعطاء تفسير معقول لهذا اللامعقول. وهذا بالإحالة إلى ما يسميه ويكرر تسميته «مذاهب الطبيعة». وهكذا يفتح النمط العاشر بالقول: «إذا بلغك أن عارفاً أمسك عن القوت المرزوء له مدة غير معتادة، فاسجع بالتصديق، واعتبر ذلك من مذاهب الطبيعة». ويقول: «إذا بلغك أن عارفاً أطلق بقوته فعلاً أو تحريكاً أو حركة يخرج عن وسع مثله، فلا تتلقه بكن ذلك الإنكار، فلقد تجد إلى سببه سبيلاً في اعتبارك مذاهب الطبيعة»^(٤٨). ويضيف القول:

== زمانه الشيخ أبي سعيد بن أبي الحير. فقد اختص وياه، كما جاء في الأخبار، نحو ثلاثة أيام؛ فلما افترقا سأل تلاميذ ابن سينا شيخهم عن رأيه في أبي سعيد فقال: «ما أعرفه يراه»، وسأل تلاميذ أبي سعيد شيخهم عن ابن سينا فقال: «ما أراه يعرفه». والرؤية تقابل هنا المعرفة مقابلة الدوق للنظر. وقد وُجد بين الباحثين من لاحظ أن توصيف ابن سينا للعارف بأنه «مش، بش، بسم»، بل «أهش خلق الله ببهجته» إنما ينطبق على الشيخ أبي سعيد حصراً، إذ عرفت عنه الهشاشة طبعاً.

(٤٨) في مسعاه الدائم إلى التشنيع على ابن سينا يحيل ناقد العقل العربي قارئه إلى هذا النص، بذرو أن يرده بحرفه، ليقول إن ابن سينا جعل «من آيات العارفين أيضاً ما يحكى عنهم من أفعال تخرج عن طاقة الإنسان في المعناد مثل «تحريك الحبال» (بنية العقل العربي»، ص ٤٧٤). والحال أن في هذا الانتزاعاً بئناً على ابن سينا الذي قال بقدرة العارف على «تحريك» أشياء قد لا يسع من كان مثله في القوة أن يحركها، ولم يقل البتة «تحريك الحبال».

«وإذا بلغك أن عارفاً حدث عن غيب، فأصاب متقدماً ببشرى أو نذير، فصدق، ولا يتسمرن عليك الإيمان به؛ فإن لذلك في مذاهب الطبيعة أسباباً معلومة»^(٤٩). ولا يكتفي ابن سينا بأن يؤكد على هذا النحو بأن للظواهر ما فوق الطبيعية أسباباً طبيعية، وبأنها مهما بدت وكأنها تخرق قانون الطبيعة فإنها تبقى خاضعة لمبدأ السببية الطبيعية، بل يجاوز أيضاً التوكيد إلى محاولة التفسير بالاستعانة بالقوى الطبيعية، المادية والنفسية على حد سواء. فقدره العارفين غير الطبيعية على الإمساك عن الطعام^(٥٠) تقبل التفسير، مثلاً، بكون «القوى الطبيعية التي فيها، إذا شغلت عن تحريك لمواد المحمودة، بهضم المواد الرديئة، انحفظت المواد لمحمودة قليلة التحلل، غنية عن البدل. فربما انقطع عن صاحبها الغذاء مدة طويلة، لو انقطع مثله في غير حالته، بل عشر مدته، هلك». وقدرة العارفين على تيان أفعال أو تحريك أشياء تخرج عن طاقة البشر المعتادة تقبل التفسير أيضاً بقوة النفس التي هي عند ابن سينا - كما عند سائر المشائين - قوة طبيعية^(٥١). ذلك أنه «قد يكون للإنسان، وهو على اعتدال من أحواله، حد من المنة [- القوة] محصور المنتهى في ما يتصرف فيه ويحركه... ثم تعرض لنفسه هيئة ما، فيتضاعف منتهى منته... كما يعرض له في الغضب أو المنافسة... فلا عجب لو عنت للعارف هزة، كما يعن عند الفرح، فأولت القوة التي له سلاطة؛ أو غشيت هزة، كما يغشى عند المنافسة، فاشتعلت قواه حمية. وكان ذلك أعظم وأجسم مما يكون عند غضب أو طرب». وحتى القدرة على استباق الغيب إشارة أو نذيراً ليست مما يخرج عن مذاهب الطبيعة، لأنه من المسلم به أن «للنفس الإنسانية أن تنال من الغيب نيلاً ما في حالة المنام. فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل في حالة اليقظة»^(٥٢).

(٤٩) «الإشارات والتنبيهات»، مصدر آتف الذكر، م٢، ص ٨٥٣ - ٨٦١.

(٥٠) وهي قدرة واقعية تماماً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ظاهرة الصيام الذي قد يدوم شهوراً عند قراء الهنود.

(٥١) لا ننسى أنه في التقليد الأرسطي كما في «شفاء» ابن سينا يندرج مبحث النفس في قسم الطبيعيات.

(٥٢) هنا أيضاً لا يبدو ابن سينا مخالفاً للتقليد المشائي. فصحیح أن نزعة أرسطو الوضعية جعلته يرفض في رسالته «عن العرافة في النوم» اعتبار الأحلام التي يراها الناس في منامه ضرباً من عرافات «وحى بها». ولكنه بالمقابل سم ينكر أن «الحكماء» قد يتلقون، وهم في حالة اليقظة، وحياً من السماء (انظر: أرسطو: «رسائل صغيرة في التاريخ الطبيعي» *Petits Traités*) (D'Histoire Naturelle، ٤٦٤، أ، طبعة يونانية - فرنسية، ترجمة رينيه مونيه، منشورات الآداب الجميلة، الطبعة الثانية، باريس ١٩٦٥، ص ٩٧). وإنما على هذا «التقليد» الأرسطي -

ويديهي أننا إذ نقول إن ابن سينا، في مسعاه إلى عقلنة اللامعقول في آخر أنماط «الإشارات والتنبيهات»، قد مثل السقف الأعلى للعقلانية في عصره، فليس ينبغي أن يغيب عنا أن سقف العقلانية في ذلك العصر لم يكن بذاته لامنتهي العلو. ففي زمن كانت تحكمه «معجزات الأنبياء» و«كرامات الأولياء»، فضلاً عن لرؤية الاتصالية الموروثة عن العلم الأرسطي القديم ما بين عالم دون ذلك القمر وعالم فوق فلك القمر - وهي الرؤية التي كانت تضيء لمشروعية النظرية على علم التنجيم، في زمن كذاك ما كان من الممكن السيطرة العقلانية التامة على جميع أشكال اللامعقول، وكان لا بد بالتالي من إفساح مجال في السببية الطبيعية لظواهرات السحر والثيرنجات والطلسمات، وحتى «الإصابة بالعين». وهو ما يفعله ابن سينا في واحد من التنبيهات التي يضيفها إلى ختام النمط العاشر حينما يقول: «إن الأمور الغريبة [= الآيات] تنبعث في عالم الطبيعة من مبادئ ثلاثة: أحدها الهيئة النفسانية المذكورة؛ وثانيها، خواص الأجسام العنصرية، مثل جذب المغناطيس الحديد بقوة تخصه؛ وثالثها، قوى سماوية، بينها وبين أمزجة أجسام أرضية مخصصة بهيئات وضعية، أو بينها وبين قوى نفوس أرضية مخصصة بأحوال فلكية فعلية أو انفعالية مناسبة تستتبع حدوث آثار غريبة»^(٥٣). والسحر من قبيل القسم الأول؛ بل المعجزات والكرامات والثيرنجات من قبيل القسم الثاني، والطلسمات من قبيل القسم الثالث^(٥٤). ولكنه إذ يفعل ذلك فلا يكون - كما يرميه ناقد العقل العربي - قد «تبنى الهرمسية بكاملها: بتصوفها وعلومها السرية والسحرية»، ولا يكون قد «كّرس اللامعقول بمختلف ألوانه وأشكاله»^(٥٥). فابن سينا يبقى في موقفه من اللامعقول «برهانياً». وهو يتحرى له، حيثما أمكن، عن أسباب طبيعية كما رأينا.

= سار ابن رشد الذي طوّز، في شرحه كتاب الحس والمحسوس، نظرية متماسكة في الروا أكد فيها - صدى على الطاعنين في «وجود الرؤيا الصادقة» - «إله ما من، نسان إلا وقد رأى رؤيا أنذرته بما يحدث له في المستقبل»، وميّز فيه بين «ما يسمى رؤيا» و«ما يسمى كهنة» و«ما يسمى وحياً»، وذلك تبعاً لما يمتلئه الجمهور «في الرؤيا أنها من الملائكة، وفي الكهانة أنها من الجن، وفي لوحى أنه من الله تعالى» (نظر: «شرح الحاس والمحسوس» لابن رشد في: «أرسطوطاليس في النفس»، مصدر آف الذكر، ص ٢٢١ - ٢٢٢).

(٥٣) لنلاحظ أن الاتصالية الفلكية ليست عند ابن سينا مطلقة. فلا فع للآجرام اسماوية ما لم يؤثرها قابل أرضي.

(٥٤) «الإشارات والتنبيهات»، ٢م، ص ٩٠٠ - ٩٠١.

(٥٥) «تكوين العقل لعربي»، ص ٢٦٦ و٢٦٨.

أما حيثما لم يمكن، فإنه لا يدعو إلى التسليم والإيمان، ولا إلى الإنكار والتكذيب، بل فقط إلى التوقف وتعليق الحكم بانتظار أن يقدّر اللاممكن التفسير بالقوى الطبيعية ممكناً. وعلى هذا النحو يختتم النمط العاشر الختامي بالقول: «إياك أن يكون تكيسك وتبرؤك من العامة هو أن تنبري منكرًا لكل شيء». فذلك طيش وعجز. وليس الخرق في تكذيبك ما لم يستبين لك، بعد جلّيته، من دون الخرق في تصديقك ما لم تقم بين يديك بينته. بل عليك الاعتصام بحبل التوقف - وإن أزعجك استنكار ما يوعاه سمعك - ما لم تبرهن استحالة لك. فلصواب أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان، ما لم يلدك عنه قائم البرهان^(٥٦). ولهذا عندما نجد ناقد العقل العربي، في سياق مسماه إلى همسة «الإشارات والتنبيهات»، يجزم بأن مؤلفه كان «أكبر مكرّس للفكر الغيبي الظلامي الخرافي في الإسلام»^(٥٧)، فإننا لا نستطيع أن ندفع عن أنفسنا شعوراً بأننا أمام ضرب من هذاء تأويلي لا يسنده سند من واقع النص، بل تحكمه - كما في العصاب الوسواسي فكرة متسلطة واحدة: تجريم ابن سينا وتحميله، من خلال فلسفته «المشرقية»، مسؤولية «اغتيال العقل» في الإسلام^(٥٨). وإنما في سياق هذه المحاكمة التفشيشية لمصنّف «الإشارات والتنبيهات»، يستعير ناقد العقل العربي فرضية المستشوق ص. مونك عن «الضربة القاضية» التي أطاحت بصرح الفلسفة في الإسلام، ولكن ليحمل ابن سينا، لا الغزالي، مسؤوليتها. فانطلاقاً مما يسميه «عملية التخريب الذاتي التي مارسها عقل ابن سينا» بتسخيره «العلم والفلسفة لهدم العلم والفلسفة» ويتوجّجه «الفكر العربي هذا التوجيه الظلامي الدامس»، ينتهي إلى القول: «من هنا نستطيع أن نقرر أن الضربة الحقيقية التي أصابت الفلسفة، وبالتالي العقلانية في الإسلام، لم تكن تلك التي تعرّض إلى الغزالي بسبب كتابه «تهافت الفلاسفة»، بل كانت تلك التي جاءت على يد «أكبر» فيلسوف في الإسلام: الشيخ الرئيس ابن سينا، وذلك من خلال مؤلفاته

(٥٦) «الإشارات والتنبيهات»، ص ٢٠، ص ٩٠١ - ٩٠٢. والتسويد منا.

(٥٧) «نحن والراث»، ص ٢١. والتسويد منا.

(٥٨) على سبيل المقارنة فحسب نشير إلى أن ابن خلدون، الذي يكرّس باباً بتمامه من مقدمته لـ «علوم السحر والطلسمات» وفصلاً إضافياً عن «الإصابة بالعين»، يظل مع ذلك يحتل، في التصنيف التقني لتناقد العقل العربي، موقعاً ثابتاً لا يحيد عنه في المدرسة البرهانية «المعزوية». أما لماذا هذا الكيل بكيلين والوزن بوزنين، فإن ابن خلدون نفسه يغنيها عن الجواب بصياغة لمفهومه المركزي عن «العصية».

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

الصغيرة ورسائله الكثيرة العدد الواسعة الانتشار التي كانت تحمل وتذيع فلسفته «الشرقية»^(٥٩).

وما دام ناقد لعقل العربي يعتبر أن كتاب ابن سينا «الإشارات والتنبيهات» هو «أسمى تعبير عن فلسفته المشرقية»^(٦٠)، فلنختم هذه الفقرة بالإشارة إلى أن ابن سينا سدد في «الإشارات والتنبيهات» تحديد «ضربة قاضية» إلى الأساس المعرفي الذي لا تقوم قائمة بدونه لأية فلسفة مشرقية مزعومة. فطبقاً لشهادة جميع الذين تاملوا مع «أسرار الحكمة المشرقية» بدءاً بالسهروردي وانتهاء بابن سبعين، ومروراً بطبيعة الحال بابن طفيل، فليس لهذه الحكمة من مدار آخر سوى التجربة الإشراقية التصوفية العرفانية. وذلك هو أيضاً التأويل الذي يعطيها ناقد العقل العربي، وإن أصر على نسبتها - بعكس صنيع السهروردي وابن سبعين - إلى ابن سينا نفسه. والحال، أن هذا الأخير ينسف من الأساس في «الإشارات والتنبيهات» الأساس الفلسفي للتجربة الإشراقية التصوفية عرفانية بنفيه - بقطع العبارة - إمكانية الاتحاد بين العاقل والمعقول، وهو الاتحاد الذي غدا لمقوم النظري الأساسي لهذه التجربة منذ أضفى عليه الشرعية الفلسفية أفلاطون ومتابعوه من الأفلاطونيين المحدثين. ونظراً إلى المغالطة التاريخية التي نشأت عن نسبة كتاب «أوثولوجيا» الأفلوطيني الاستلهام إلى أرسطو، فقد غدت فرضية اتحاد العقل والعاقل والمعقول جزءاً مكوناً من التقليد المشائي في التراث الفلسفي العربي الإسلامي. وقد كنا رأينا في الفصل السابق كيف ميّز ابن سينا، في تعليقاته على حواشي كتاب «النفس» لأرسطو، موقفه عن موقف «الرسميين» من مشائي عصره الذين وقعوا ضحية تلك المغالطة لتاريخية، بقوله: «الذي يقولونه بأن العقل والعاقل والمعقول شيء واحد، يصح في العقل وحده؛ ولكن في غيره: العقل شيء، والعاقل شيء، والمعقول شيء». والحال، أن ابن سينا يعود في «الإشارات والتنبيهات» إلى نفي إمكانية اتحاد العاقل بالمعقول بإطلاق، أي في العقل نفسه وليس فقط «في غيره». فتحت عنوان «وهم وتنبيه» يقول في النمط السابع: «إن قوماً من المتصدرين [= الرسميين] يقع عندهم أن الجوهر العاقل إذا عقس صورة عقلية صار هو هي... واعلم أن قول القائل: إن شيئاً يصير شيئاً آخر، لا على سبيل الاستحالة من

(٥٩) «نحن والتراث»، ص ٢١٢.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

حال إلى حال، ولا على سبيل التركيب مع شيء آخر ليحدث منهما ثالث، بل على أنه كان شيئاً واحداً فصار واحداً آخر، قول شعري غير معقول»^(٦١). وقد تنبّه الشارح القديم لـ «الإشارات والتنبيهات»، عنيّد نصير الدين الطوسي، إلى أن نفي ابن سينا إمكانية اتحاد العاقل والمعقول ليس فيه فقط إبطال لـ «مذهب فاسد في ذلك كان مشهوراً بعد المعلم الأول عند المشائين من أصحابه»، بل فيه قطع للطريق أيضاً على «الاتحاديين» من المتألهة والمتصوفة. ذلك أن الشيخ الرئيس، إذ «حكى أولاً مذهبهم ذلك... ثم تبّه إلى فساد هذا المذهب... ثم... لما فرغ من إبطال المذهب المذكور أشار إلى وجه الإبطال بقول كلي: وهو امتناع اتحاد الشيء بغيره... وذكر أن ذلك قول شعري غير معقول؛ وإنما نسبه إلى الشعر لأنه مخيل، وبسبب تخيله يظنه عوام المتألهة والمتصوفة، حقاً»^(٦٢).

طبيعيات ما دون القمر

ترى ليس من المشروع، من حلال كل ما تقدم، أن نحلص إلى الاستنتاج بأن مشروع ابن طفيل لإخراج عرفاني لقصة الفلسفة المشرقية لا يندرج في سياق من الاستمرارية مع السنيوية، حتى وإن نسبته تصريحاً إليها؟

والواقع أنه إن يكن من حضور كبير لابن سينا في قصة «حي بن يقظان» فليس في قسمها الثاني الذوقي العرفاني، بل في قسمها الأول البحثي النظري.

ذلك أنه لا ينبغي أن ننسى إن قصة «حي بن يقظان» هي، أولاً وأخيراً، قصة

(٦١) «الإشارات والتنبيهات»، م ٢، ص ٦٩٨ - ٧٠٣. والجدير بالذكر أن ابن سينا ينبّه وينبّه في النص نفسه إلى أن إشكالية اتحاد العاقل والمعقول إشكالية دخيلة على المشائية الأرسطية، وأن من أدخلها عليها هم أفلاطون وتلاميذه، وحضراً منهم فرفوريوس وباميليخوس اللذان كانت بينهما حول ذلك مساجلة. يقرن ابن سينا: «وكان بهم رجل يعرف بـ «فرفوريوس» عمل في العقل والمعقولات كتاباً يشي عليه المشاؤون، وهو حشف [أردا الشعر] كله. وهم يعلمون من أنفسهم أنهم لا يفهمونه، ولا فرفوريوس نفسه. وقد ناقضه من أهل زمانه رجل. وناقض هو ذلك المناقض بما هو أسقط من الأول». وهذا النص يكتسي في الواقع خطورة تاريخية خاصة. فهو يشف عن أن ابن سينا كاد في ختام حياته أن ينفك من أسر الملابس الأفلوطينية للحسم النظري للمشائية، وأن يفكك في الوقت نفسه مغالطة كتاب «أفولوجيا» المنحور على أرسطو (لستحضر هنا قوله الذي كن توقعنا عنده من قبل: «عنى ما في أفولوجيا من مطعن» [١].

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٧٠٣ - ٧٠٤. والتسديد منا.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

تحوله من كائن طبيعي إلى كائن متأله. ومن هنا كان الحضور لكبير على امتداد القسم الأول من القصة لطبيعيات ابن سينا التي هي في التحليل الأخير، وبصرف النظر عن بعض التعديلات الطفيفة، طبيعيات أرسطية^(٦٣).

فحي بن يقظان نموذج تام لكائن طبيعي. وصحيح أن ابن طفيل لا ينكر، في إحدى الروايتين اللتين يضعهما لولادة حي بن يقظان، احتمال أن يكون تحدر من أبوين بشريين - ولعله لا يشير إلى هذا الاحتمال إلا لكيلا يدخل في صدام مباشر مع العقيدة لدينية القومية. ولكن رهانه. الأكبر - والأكثر اتصافاً بالأصالة والابتكار - أن يبرهن على إمكان أن يكون حي بن يقظان قد جاء إلى الوجود بنوع من تولّد ذاتي طبيعي «في جزيرة يتولّد بها الإنسان من غير أم ولا أب» نظراً إلى وقوعها عند خط الاستواء في بقعة من بقاع الأرض هي «أعدل ما في المعمورة» هواء ونوراً وإقليماً، مما يتيح فيها شرطاً، غير متاح في بقية أنحاء المعمورة، لـ «تولد الإنسان من غير أم ولا أب» بفضل التخمر في «طينة الأرض على مرّ السنين والأعوام» وامتزاج «الحار بالبارد والرطب باليابس» امتزاج تكافؤ وتعاكس في القوى، و «التهيؤ لتكوّن الأمشاج»، ولا سيما في نقطة «الوسط منها» الذي هو «أعدل ما فيها وأتمه لمزاج الإنسان».

وعلى أي حال، وحتى عندما يترك ابن طفيل أحد مصراعي المصادقية مفتوحاً أمام الفريق الآخر المنكر لجواز تولّد الإنسان من الطبيعة، فإنه يبيّن قصته على نحو لا يدع مجالاً للشك في أن حي بن يقظان - حتى وإن كانت ولادته بشرية - قد تربى تربية طبيعية خالصة. فعلى فرض أن حي بن يقظان تولّد، كسائر البشر، من أم وأب، فإنه بخلاف البشر أيضاً لم يُربّ من قبل أم وأب. بل تعهده بالتربية، مثله مثل الحيوان الطبيعي، طيبة «حنّت عليه ورعّت به وألقمته حلمتها وأروته لبناً سائغاً»، فصار لها ولداً بديلاً عن ولدها الذي فقدته عندما «خرج من كنانته فحمله لعقاب»، مثلما صارت له أم بديلة عن أمه التي فقدتها حينما اضطرت - وقد أنجبته من زواج سري - إلى أن

(٦٣) هناك شبه إجماع لدى الباحثين الاختصاصيين على أن طبيعيات ابن سينا، بعكس إلهياته، لا تمتاز بقدر كبير من الأصالة. انظر مثلاً ماجد فخري وهو يعلق على موضوع العلم الطبيعي لدى ابن سينا: «إن معالجه لهذه الأمور لا تنطوي على الكثير من الابتكار، وإنما هي مجرد عرض لهذه المفاهيم (الحركة والسكون، والزمان والمكان وإسلاء، والتناهي واللاتناهي، والتماس والاتحام، والاتصال والتتالي) يجري فيه على المنهج الأرسطي» (تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ١٨٨).

تضعه عقب ولادته في سقط وتسلم مقاديره لأمواج البحر (تماماً كما فعلت والدته موسى في الرواية التوراتية).

ولئن اختلف الفريقان على ولادة حيٍّ: أهي بشرية أم طبيعية، فقد اتفقا على أن تربيته هي محض تربية طبيعية: «ثم استوى ما وصفه هؤلاء... وما وصفته الطائفة الأولى في معنى التربية، فقالوا جميعاً إن الظبية التي تكفلت به وافقت خصباً ومرعى أثيثاً، فكثرت لحمها ودر لبنها حتى قامت بغذاء ذلك الطفس أحسن قيام... فترى الطفل ونما... إلى أن تم له حولان وتدرج في المشي وأثغر [= ظهرت أسنانه]، فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر، فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة... ومتى عاد إلى اللبن أروته ومتى ظمئ إلى الماء أوردته... فما زال الطفل مع الظبي على تلك الحال يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما، وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان... فألفته الوحش وألفها، ولم تنكره ولا أنكرها»^(٦٤).

وليس لنا أن نتنبع كافة تفاصيل سيرورة تكيف حي بن يقظان هذه مع الشرط الحيواني. وليس لنا أن ننسى أصلاً أن النصاب الأول للإنسان في اللغة - العربية السامية الأصل كما في الفرنسية أو الإنكليزية اللاتينية الأصل - هو أنه حيوان (Animal)، أي ذو حياة، وإن جرى تمييزه بعد ذلك بأنه «ناطق» أو «عاقل». وإنما ما يهمنا أن نتنبع كيفية تحول حي بن يقظان من كائن طبيعي محكوم بالطبيعة إلى كائن إنساني متحكم بها ومؤسس لتحكمه بها في علم هو بالتحديد العلم الطبيعي. وإنما على هذا المستوى تتدخل طبيعيات ابن سينا على أوسع نطاق. فبعد أن يكتشف حي بن يقظان واقعة الموت، من خلال موت أمه الظبية، يُجري على جثتها عملياته التشريحية الأولى ليكتشف أن المصدر الذي كان يمدّها بالحياة هو - بحسب التسمية السنيوية - «الروح الحيواني»، وأن مستقر هذا الروح - تماماً كما في الفرضية السنيوية - هو في تجويف القلب، ثم تتوالى بعد ذلك كشوف حي بن يقظان «العلمية» حتى «بلغ في ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين»: وحدة الروح وتكثر الحواس والأعضاء، قسمة الطبيعة إلى ممالك ثلاث: حيوان ونبات وجماد، عناصر الطبيعة الأربعة: الماء والهواء والتراب والنار ومقابلاتها من بارد وحار وبأس وسائل، وثقيل وخفيف، وحركة وسكون، ومادة

(٦٤) «حي بن يقظان»، ص ٦٦ - ٦٧.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

وصورة، وجسم ونفس، وجوهر وعرض، وقوى النفس الثلاث من تذكر وتخيل وتعقل، والعلل الأربع: مادية وصورية وفاعلية وغائية، والوجود والعدم، والمكان والزمان، والملاء والخلاء، والتناهي واللاتناهي، والقِدَم والحدث، والتقدم والتأخر بالذات أو بالزمان، ولكون والفساد، والتغير والضرورة، وعالم ما فوق فلك القمر وما دون فلك القمر، والوجود بالقوة والوجود بالفعل، والواجب الوجود والممكن الوجود، وما إلى ذلك من مفردات لمعجم السينوي الطبيعي الذي هو - لتكرر القول - معجم أرسطي أصيل (خلا اجتهدات فرعية عقدها ابن سينا - جنباً إلى جنب مع تجديداته في الإلهيات - باسم الفلسفة المشرقية بالإحالة، كما أوضحنا، إلى مسقط رأسه، وليس إلى أية فلسفة «سرية» مزعومة). وفي هذا كله يقول باحث له دراسة متخصصة عن ابن طفيل: «إن النتائج التي توصل إليها سبق أن قال بأكثرها وتوصل إليها أرسطو في بلاد اليونان، وابن سينا على وجه الخصوص في المشرق العربي»^(٦٥).

والواقع أنه لا بدّ من أن نتقل مع حي بن يقظان من التأمل في عالم ما دون فلك القمر إلى التأمل في عالم ما فوق فلك القمر حتى نكتسب فيزياء ابن طفيل الطبيعية، طرداً مع تحولها إلى ميتافيزياء، طابعاً شخصياً.

ولكن قيل أن نتقل مع حي بن يقظان هذه النقلة من عالمه الطبيعي إلى عالمه العرفاني، لا بدّ من أن نسجل ملاحظات أربعاً تشي جميعها بالطابع «اللاطبيعي» لبطل قصتنا الذي أراد له خالقه أن يكون محض موجود طبيعي، بانولادة كما بالتربية، كيما تبرز بمزيد من الألق تجليته في تجاوز شرطه البدني وفي العروج إلى «جناب القدس».

فحي بن يقظان هو أولاً، وخلافاً لأي موجود طبيعي، كائن لاجنسي. فقد عرف حي بن يقظان جميع وظائف الموجودات الحية من إحساس وتنفس وتغذ ونمو وحركة، ولكنه لم يعرف قط، لا حساً ولا فعلاً ولا حتى شوقاً، الوظيفة الجنسية. وهذا التغييب للوظيفة الأكثر طبيعية للكائن الطبيعي ليس، في أرجح الظن، من قبيل الصدفة. فالجنس، بما يقارنه من ملازمة للجسد وتسجيل إلى عالم الحس، لا يوافق التجربة العرفانية التي هي تجربة مفارقة للجسد وتصيد إلى عالم الروح.

(٦٥) د. عاطف العراقي: «الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل»، دار المعرف، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٩٧، ص ٨٤.

وحي بن يقظان ثانياً كائن غير لغوي. فقد بلغ من انتشار خالقه ابن طفيل لفرضية العمل التي انطلق منها: التولد الطبيعي الذاتي من طينة الأرض في جزيرة عزلاء أنه سها عن التعريف الأشهر للإنسان بصفته حيواناً ناطقاً. والحال أنه، كما يفيدنا الدرس الأنثروبولوجي الحديث، لا فكر بلا لغة. ومن هنا المفارقة الكبرى في التربية الطبيعية لحي بن يقظان: فقد استطاع أن يطور ثقافة كاملة ويبنى منظومة متكاملة من المفاهيم الفلسفية المويصة بدون معرفة اللغة. وصحيح أن حي بن يقظان سيتعلم في وقت متأخر اللغة بعد لقاءه - كما سنرى - بأبسال، ولكن هذه اللغة البعدية لا يمكن أن تعوضه عن اللغة القبلية التي يفتقدها. وفرضية تعلم لغة بديية بدون لغة قبلية فرضية مستحيلة. إذ كما تثبت الدراسات التشرحية والفيزيولوجية العصبية الحديثة، فإن اللغة شرط لنمو الدماغ بالذات^(٦٦). وإذا لم ينم الدماغ منذ الطفولة الأولى مع تعلم اللغة، ولم تتطور خلاياه وفصوصه المتحركة بملكة اللغة، فسيتمتع تعلم أي لغة في سن الرشد. بل إن تعبير «سن الرشد» نفسه سيكون بلا معنى في حال غياب اللغة منذ الطفولة. فلا رشد، أي لا عقل، بلا لغة، وبلا مواقع مركزية نامية للغة في الدماغ. وبدون لغة يستحيل حتى الفكر الوحشي. إذ حتى الوحشون الأكثر بدائية لهم لغتهم مهما تكن درجتها من البدائية. وبدون لغة ما كان لحي بن يقظان، على ما أوتي من «الفطرة الفارقة» كما يقول خالقه، أن يجري استدلالاته واستنتاجاته الذكية. إذ بدون لغة، وبدون دماغ منطوق أصلاً^(٦٧). وما كان له إلا أن يكون في حال من العتة، لا من «الفطرة الفارقة». والواقع

(٦٦) بيير كارلي: «الدماغ والحرية» (*Le Cerveau et la Liberté*)، منشورات أودين جاكوب، باريس ١٩٩٥، ص ١٦٧.

(٦٧) تحذر الإشارة هنا إلى أن العقل لاستدلالي الاستنتاجي - وهو العقل، الذي يصدر عنه حي بن يقظان - قد يتأدى بصاحبه، إذا لم تسنده المشاهدة والتجربة وأدوات القياس دقيق، إلى مزالق علمية خطيرة. وحسبنا هنا دليلاً الفرضية الاستدلالية التي انطلق منها ابن طفيل، والتي جاز بمقتضاها تولد حي بن يقظان من طينة أرضية تخضرت بما هيأها لتكوين الأمشاج الموافقة لمراج الإنسان بحكم تواجدها في «أعدل بقاع الأرض». فبن طفيل يصّر على أن البقعة الواقعة تحت خط الاستواء هي الإقليم المعتدل حصراً «على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء [من] أن أعدل ما في المعمورة الإقليم الرابع». أما لماذا يقتضيه ابن طفيل أن المسطرة الاستوائية هي أعدل مناطق المعمورة، ويرفض قول من يقول إن «خط الاستواء شديد الحرارة»، فلأنه ينطلق في استدلاله هنا من مقدمة منسوب «البرهان» عليها إلى ابن سينا مؤدعاً أن =

ابن طفيل: مدح «مغربي» للفلسفة المشرقية

أن فرضية الفطرة - عدا عن «الفطرة الفاتكة» - هي أبعد الفرضيات عن مطابقة الواقع التاريخي لتطور الإنسان. فالإنسان ليس ابن الفطرة، بل ابن ملايين السنين من التطور البيولوجي والثقافي معاً. واللغة هي أظهر مظاهر هذا التطور المزدوج للإنسان. ولهذا، فإن فرضية إنسان بلا لغة فرضية مستحيلة، إذ لا إنسان إلا باللغة. وحتى لو توافرت للإنسان البنية البيولوجية الإنسانية، فإنه بدون لغة، وبدون اجتماع بشري بوساطة اللغة، سيكون - كما يفيدنا الدرس اللغوي الحديث - «إنساناً عادم الإنسانية (Déshumanisé)»^(٦٨).

ويديهي أنه من السداجة الاستمولوجية أن نطالب ابن طفيل بأن يعلم ما كان لا يعلمه علم عصره. ولكن من السداجة الاستمولوجية أيضاً أن يغيب عنا أن الإنسان، في الفضاء العقلي بعصر الوسيط الديني، هو أولاً، وقبل كل شيء، إنسان بالروح. وهذه المعيارية الووحية لإنسانية الإنسان تتضمن أصلاً - ولا تتنافى - مع المعيارية اللغوية. وذلك هو المغزى لتاريخي لتلك النظرية اللغوية التي قال بها كثرة غالبية من متكلمي الإسلام ولاهوتيي المسيحية والتي تقول إن اللغة توقيف رباني، لا توفيق إنساني^(٦٩).

وحى بن يقظان ثالثاً كائن غير تعامي. فهو ينوء، على عكس ما يفترض بالكائن الطبيعي، تحت ثير ثنائية عضاء هي عين الثنائية التي تحكمت بالبنية الاستمية لكل العصر الوسيط، بل وحتى القديم منذ أن مهد أفلاطون الأرض فلسفياً لظهور المسيحية: ثنائية المادة والروح، أو الجسم والنفس. فما دام الإنسان إنساناً بالروح، فإنه ما كان له أن يكون كائناً طبيعياً إلا بجسمه وحده. ولهذا ما استطاع ابن طفيل أن يمضي بفرضيته عن الولادة الطبيعية والتربية الطبيعية لحي بن يقظان إلى نهايتها. فما

= «الشمس بلاتها غير حارة»، وأنها «لا تسخن لأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجساماً أخرى تماثلها»، وهذا فضلاً عن أنه «ثبت في علم الهيئة أن بقاع الأرض التي على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين في العام... فليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط» «حي بن يقظان»، ص ٦١ - ٦٢.

(٦٨) بول شوشار: «اللغة والفكر» (*Le Langage et la Pensée*). المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس ١٩٧٣، ص ٨٣.

(٦٩) كان أحد أكثر المنتهزمين لهذه النظرية حماسة ابن حزم الأندلسي. انظر في ذلك دراسة روجيه أربالديز المعيرة: «النحو واللاهوت لدى ابن حزم القرطبي» (*Grammaire et Théologie Chez Ibn Hazm de Cordoue*). منشورات مكتبة فران الفلسفية، باريس ١٩٨١.

تمخض من طينة الأرض المتخمرة ليس حي بن يقظان بتمامه، بل فقط مادته وجسمه. أما روحه فلم يكن ثمة مناص، بحكم طبيعة البنية الاستيمية التي يصدر عنها هو وعصره، من تنزيلها من فوق (Deus ex Machina). وهكذا يقول: «وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فإنهم قالوا إن بطناً من أرض الجزيرة تخمرت فيه طينة على مرّ السنين والأعوام... فتمخضت وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث في الوسط منها [= الوسط الأرسطي الأفضلي دوماً] نفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممثلة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به [= القلب وروحه الحيواني]^(٧٠)، فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل، إذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عزّ وجلّ، وأنه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم»^(٧١).

ويدهي أن ثنائية المادة والروح هذه التي تحكمت ببداية حي بن يقظان، مستحكم أيضاً بنهايته. فالتجربة العرفانية تقوم في أساسها على إماتة الجسد من أجل فكّ الروح من إसार المادة. وذلك ما يلخص - كما سنرى لاحقاً - كل مسار حي بن يقظان في صراعه مع ثنائيته التكوينية من أجل استعادة واحديته الروحانية من خلال جدلية الانفصال عن عالم ما دون القمر والاتصال بعالم ما فوق القمر.

ميتافيزيقا ما فوق القمر

يقول ناقد العقل العربي ويكرر القول: «إن الفلسفة العربية الإسلامية في المشرق كانت لاهوتية الاستيمية والاتجاه بسبب استغراقها في إشكالية التوفيق بين الدين والفلسفة، وإن الفلسفة العربية في المغرب والأندلس كانت علمية الاستيمية علمانية الاتجاه بفعل تحررها من تلك الإشكالية»^(٧٢).

ولسنا هنا في صدد مناقشة هذه الدعوى العريضة بعموميتها، ولا بيان غائيتها الاستراتيجية في حفر خندق من «التفرقة [= الأبارتيد] الاستمولوجية» ما بين فلسفة

(٧٠) إن مركزية القلب، بدل الدماغ، لدى ابن طفيل كما لدى ابن سينا من قله وابن رشد من بعده، تجد تفسيرها إلى حد كبير في الفرضية الأرسطية عن الوسط الأفضلي.

(٧١) «حي بن يقظان»، ص ٦٤.

(٧٢) «نحن والتراث»، ص ١٢.

ابن طفيل: مدح «مغربي» لفلسفة المشرق

المشرق «اللاهوتية» وفلسفة المغرب «العلمانية». وإنما ما يعيننا من هذه الدعوى هنا شمولها بحكمها لابن طفيل ولقصته عن «حي بن يقظان». فقد رأينا كيف أباح ناقد العقل العربي لنفسه أن يؤكد وهو يُنطق شهادة ابن طفيل عن بؤس وضعية الفلسفة في الأندلس بعكس منطوقها: «إذاً، فما تضمنه شهادة ابن طفيل هو أن الفلسفة في الأندلس قد نشأت - أو ظهرت - بعيداً من إشكالية التوفيق بين الدين والفلسفة، الإشكالية المركزية في الفكر النظري بالشرق كلاماً وفلسفة»^(٧٣). وهاهوذا يعاود الكرة في القراءة التي يقترحها - بحسب تعبيره بالذات - لمضمون قصة «حي بن يقظان» التي يؤكد أنه ليس لها من هدف أو مغزى سوى بيان «فشل المدرسة الفلسفية في المشرق التي بلغت أوجها مع ابن سينا في محاولتها الرامية إلى دمج الدين في الفلسفة. أما البدن الذي يطرحه ابن طفيل، بل المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس، بكامل أعضائها، فهو الفصل بين الدين والفلسفة. تلك هي الفكرة الموجهة في القراءة التي نقترحها لقصة «حي بن يقظان» لابن طفيل»^(٧٤).

ورزاء توكيدات كهذه تصفع الحقيقة التاريخية صفعاً لتقسرها على الدخول في إشكاليات ابستمولوجية كاذبة - أقل ما يُقال فيها إنها «تجوهر» المشرق والمغرب في ماهيات ثابتة ومتناحرة - أنكون مغالين إذا خرجنا بالانطباع التالي: إنه ما افتتحت قط في الفلسفة العربية الإسلامية على أحد كما يفتتحت ههنا على اثنين: ابن سينا سلباً، كما ابن طفيل إيجاباً^٢.

ذلك أنه لو صبحت دعوى ناقد العقل العربي في أن الإشكالية المركزية للمدرسة الفلسفية في المشرق هي إشكالية التوفيق بين الدين والفلسفة، لكان أول من ينبغي أن يحتل مقعداً له في صدارة هذه المدرسة ابن طفيل. إذ لم يسبق قط في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية أن حاول أحد التوفيق بين الدين والفلسفة بمثل الإصرار والإلحاح اللذين حاول بهما هذا الفيلسوف «المغربي». فمشروعه الفلسفي الخاص في رسالة «حي بن يقظان»، ولا سيما في قسمها الثاني «ما فوق القمري»، هو أتم نموذج متاح في التراث الفلسفي العربي الإسلامي لقراءة كلامية، دينية، صوفية للفلسفة. إذ ليس كابن طفيل من تعامل مع الأقاويل الفلسفية كما يتعامل معها المتكلمون، وليس كمثله

(٧٣) المصنوع نفسه، ص ٢٤٩.

(٧٤) المصنوع نفسه، ص ١٦٧ - ١٦٨.

من أعاد صياغة الإشكاليات الفلسفية في إشكاليات دينية، وليس كمثله أخيراً من أحال الفعل الفلسفي إلى فعل تصوفي.

ابن طفيل متكلماً - لا يكاد حي بن يقظان يختم طوافه بعالم لكون والفساد ليبدأ اتصاله بالعالم الذي فوقه حتى يتحول للحال من عالم طبيعي إلى متكلم لاهوتي. وكان أول ما وقع له ذلك عندما راح - وقد «فارق المحسوس بعض مفارقة وأشرف على تخوم العقلي» - يتأمل الصور المتعاقبة التي قد يرتديها الجسم المحسوس البسيط مثل الماء. فالماء «إذا حُلِّي وما تقتضيه صورته [= المائية] ظهر منه برد محسوس وطلب النزول إلى أسفل، فإذا سخن... زل عنه البود... وإذا فرط عليه بالتسخين زال عنه طلب النزول إلى أسفل وصار يطلب الصعود إلى فوق... فلما... زالت الصورة المائية عن ذلك الجسم... حدثت له صورة أخرى بعد أن لم تكن، وصدر عنه بها أفعال لم يكن من شأنها أن تصدر عنه وهو بصورته الأولى». ومن هذه الواقعة الفيزيائية البسيطة، واقعة تحول الماء «الطالب للنزول» إلى بخار «طالب للصعود»، يخلص حي بن يقظان إلى الاستنتاج حالاً، كما لو أنه يأكل من طبق علم الكلام جاهزاً: «فعلم بالضرورة أن كل حادث لا يبدل من محدث فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساماً على العموم من دون تفصيل»^(٧٥).

وليس يصعب هنا أن ندرك طبيعة الإزاحة التي يحدثها المتكلم ابن طفيل في النظرية الفلسفية الأرسطية عن العلل الأربع: فعنده أن العلة الفاعلية هي العلة الرئيسية وهي التي تتحكم بصور المحسوسات، على حين أن العلة السببية الأولى والأكثر حتمية في نظر أرسطو - كما هو معلوم - هي العلة الصورية^(٧٦). وهذه الإزاحة تتخذ دلالة خاصة متى علمنا أن العلة الصورية هي عند أرسطو علة مباطنة على حين أن العلة الفاعلية هي عند ابن طفيل علة مفارقة. وهذه الإزاحة الأولى تقود بالضرورة إلى إزاحة ثانية. فمن ملابسة كلامية عامة لمعنى العلة الفاعلية (لكل مفعول فاعل وبالتالي لكل حادث محدث)، ينتقل ابن طفيل إلى ملابسة أشعرية خاصة: لا فاعل على الحقيقة إلا الله. هكذا يتابع ابن طفيل تدعياته الاستدلالية في سحبة واحدة: «ثم إنه تتبع الصور

(٧٥) «حي بن يقظان»، ص ٨٤ - ٨٥.

(٧٦) انظر. ليون رويان: «حول التصور لأرسطو للسببية»، في: «الفكر الهليني من الأصول إلى أبيقور» (*La Pensée Hellénique des Origines à Épicure*)، المنشورات الجامعية الفرنسية، الطبعة الثانية، باريس ١٩٦٧، ص ٤٥٥.

التي كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة، فرأى أنها كلها حادثة، وأنها لا بد لها من فاعل. ثم إنه نظر إلى ذوات الصور فلم ير أنها أكثر من استعداد الجسم لأن يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء، فإنه إذا أفرط عليه بالتسخين استعد للحركة إلى فوق، فذلك الاستعداد هو صورته، إذ ليس ههنا إلا جسم وأشياء تحدث عنه بعد أن لم تكن، وفاعل يحدثها بعد أن لم تكن... ولاح له مثل ذلك في جميع الصور، فتيقن له أن الأفعال الصادرة عنها ليست لها في الحقيقة، وإنما هي لفعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها. وهذا المعنى الذي لاح هو قول رسول الله (ص): «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، وفي محكم التنزيل: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت، بل الله رمى﴾^(٧٧).

ومنذ أن لاح لحي «من أمر هذا الفاعل ما لاح على الإجمال من دون تفصيل، حدث له شوق حثيث إلى معرفته على التفصيل». وهكذا تحول حي عن طلب علم الوجود إلى طلب معرفة فاعل الوجود، فتحول بالتالي، أو تنزل بالأحرى عن نصاب الفيلسوف إلى نصاب المتكلم. إن ذلك هو الفرق الأكبر بين الاثنين، وذلك ما حدس به صاحب «المقدمة» حينما قال في الفصل الذي عقده عن «علم الكلام»: «واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته، وهو نوع استدلالهم غالباً، والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات، وهو بعض من هذه الكائنات، إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم. فهو ينظر في لجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لداته. ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجد»^(٧٨).

وإنما بصفته متكلماً راح حي يطلب «الفاعل المختار على جهة المحسوسات» أولاً، ثم «انتقلت فكرته إلى الأجسام السماوية» ومنها إلى «الفلك بجملته»، فتيقن له أن هذا الفلك وما يحثري عليه هما «شيء واحد متصل»، وأن «جميع الأجسام التي كان ينظر فيها أولاً كالأرض والماء والهواء والنبات وما شاكلها، هي كلها ضمنه وغير

(٧٧) «حي بن يقظان»، ص ٨٥. وليست هذه المرة اليتيمة التي يتدخل فيها ابن طفيل من خارج البنية انقصية ليؤيد استنتاجات بطله بالآيات والأحاديث، بل سيمعل ذلك كما سنرى نحرراً من خمس عشرة مرة.

(٧٨) «المقدمة»، ص ٥١٦.

خارجة عنه»، مثلها مثل الكواكب المنيرة التي هي بمثابة الحواس له. فلما «تبين له أنه كله كشخص واحد» وأنه في قيامه «محتاج إلى فاعل مختار»، انطرح عليه السؤال الكبير: «هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن وخرج إلى الوجود بعد العدم؟ أو هو أمر كان موجوداً في ما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه؟». ولنعترف لحيي بن يقظان حالاً، أو بالأحرى لخالفه ابن طفيل، بأن محاولته حلّ هذا الإشكال، الذي طالما بلبل فلاسفة الإسلام - وكذلك فلاسفة النصرانية واليهودية^(٧٩) - لا تخلو من ظاهري من ابتكار. ولكنها تبقى محاولة صادرة عن متكلم أكثر منها عن فيلسوف، لأن ما تستهدفه ليس حلّ الإشكال بذاته، بل إنقاذ فكرة الفاعل. فحيّ إذ تشكك أول الأمر في الإجابة «ولم يترجع عنده أحد الحكمين على الآخر» لبث «يفكر في ذلك عدة سنين»، ولكن بدون أن تتوقف عنده الحجج عن أن تتعارض، وبدون «أن يترجع عنده أحد الاعتقادين على الآخر». فلما أعياه ذلك جعل يتفكر في ما يلزم عن كل واحد من الاعتقادين، فلعل اللزوم عنهما يكون شيئاً واحداً. فرأى أنه إن اعتقد حدوث لعالم وخروجه إلى الوجود بعد العدم، فاللزام عن ذلك ضرورة أنه لا يمكن أن يخرج إلى الوجود بنفسه، وأنه لا بد له من فاعل يخرجه إلى الوجود... ورأى أيضاً أنه إن اعتقد قِدَم العالم وأن العدم لم يسبقه وإنه لم يزل كما هو، فإن اللزام عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء إذ لم يسبقها سكون يكون مبدأها منه. وكل حركة لا بدّ لها من محرك ضرورة، والمحرك إما أن يكون قوة سارية في جسم... المحرك نفسه وإما جسم آخر خارج عنه... ولكنه قد تبرهن أن كل جسم لا محالة متناه، فإذا، كل قوة في جسم هي لا محالة متناهية. فإن وجدنا قوة تفعل فعلاً لا نهاية له، فهي قوة ليست في جسم. وقد وجدنا الفلك يتحرك أبداً حركة لا نهاية لها... فالواجب إذاً، أن تكون القوة التي تحركه ليست في جسمه، ولا في جسم خارج عنه. فهي إذاً، لشيء بريء عن الأجسام، وغير موصوف بشيء من أوصاف الجسمية... ومتمزه عن أن يدركه حس أو يتطرق إليه خيال - سبحانه - فانتهى نظره بهذا الطريق إلى ما انتهى إليه بالطريق الأول، ولم يضره في ذلك تشككه في قِدَم العالم أو حدوثه، وضح له على

(٧٩) انظر على سبيل المثال الفصل المطول الذي يعمده موسى بن ميمون من كتابه «دلالة الحائرين» لمناقشة مسألة قدم العالم أو حدوثه التي يرى أنها - إلى حد كبير - مسألة مصطنعة أورثها للمتكلمين المسلمين النصارى من النقلة ومن المتألفين الأرائل، وأنها في التحليل الأخير «موقف عقلي» اعتقادي و«لا يوصل إليها برهان قطعي».

الوجهين جميعاً وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه . . . وتبين له افتقار جميع الموجودات في وجودها إلى هذا الفاعل، وأنه لا قيام لشيء منها إلا به، فهو إذاً، علة وجودها وهي معلولة له، سواء كانت محدثة الوجود بعد أن سبقها العدم أو كنت لا ابتداء لها من جهة الزمان ولم يسبقها العدم قط، فإنها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة إلى الفاعل، متعلقة الوجود به، ولولا دوامه لم تدم، ولولا وجوده لم توجد، ولولا قدمه لم تكن قديمة»^(٨٠).

لقد تحمدا أن نثبت النص على طوله ليتضح للقارئ كم يسلك ابن طفيل فيه مسلك المتكلمين في محاكاتهم الجدلية في رصف المقدمات، وإضافة المقدمات إلى المقدمات، وتدوير المقدمات من خلال إعادة بناء النتائج في مقدمات، بحيث يأخذ بعضها برقاب بعض في تسلسل دائر على نفسه إلى ما لا نهاية.

ولا يبارح ابن طفيل موقعه كمتكلم عندما يتصدى لحسم المسألة جديلاً باعتماد برهان التشبيه . فهو يستعير من ابن سينا فكرة «التأخر بالذات لا بالزمان» ليقول بإمكان القدم والخلق معاً مدارراً التشبيه التالي: «إذا فالعالم كله بما فيه من السموات والأرض والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها، فعله وخلقه، ومتأخرة عنه بالذات وإن كانت غير متأخرة بالزمان؛ كما إنك إذا أخذت في قبضتك جسماً من الأجسام ثم تحركت يدك، فإن ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعاً بحركة يدك حركة متأخرة عن حركة يدك بالذات وإن كانت لم تتأخر بالزمان عنها، بل كان ابتدؤهما معاً. فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»^(٨١).

(٨٠) «حي بن يقظان»، ص ٨٩ - ٩١. والواقع أن هذا الحل الذي ينتهي إليه ابن طفيل لمسألة القدم والحدوث عن طريق التسوية بين الاحتمالين لتأكيد ضرورة الفاعل ظهره من الابتكار أكثر من باطنه كما سبق الإشارة. إذ ذلك هو عينه الذي يقترحه ابن سينا في الهيات «الشفاء» حيث يؤكد أن العالم، سواء أكان قديماً أم لم يكن، وسواء أكان له ابتداء في الزمان أم لم يكن، فلا بد له في الحالين جميعاً من أن يستمد وجوده من فاعله.

(٨١) نفسه، ص ٩١. والواقع أن هذا لمثال التشبيهي، على ظاهره أيضاً من المنطق، لا يخدم الأطروحة التي يدافع عنها ابن طفيل. فصحيح أن الجسم الذي في قبضة اليد لا يتأخر في حركته عن حركة اليد. ولكن ليست اليد هي التي تحركه على الحقيقة: فهي لا تفعل سوى أن تنفذ الأمر الصادر إليها من الدماغ بتحريكه. ومن ثم فإن حركة اليد والجسم معاً متأخرة بالزمان - وليس فقط بالذات - عن أمر الدماغ. والواقع أيضاً أن الآية ٨٢ من سورة يس لا تشير بعد =

وليس من عجب أن يختم ابن طفيل محاكمته الاستدلالية بآية قرآنية. فذلك هو أيضاً صنيع المتكلمين الذين ما كانوا يترددون في أن يخلطوا الأقاويل البرهانية بالأقاويل الجدلية بالأقاويل الاعتقادية، الشيء الذي كان فلاسفة الإسلام يتحاشونه - ما أمكنهم - بمرجعهم إلى حجة العقل أولاً دونما استناد مباشر إلى حجة النقل. وهذا سبب إضافي لقولنا إن ابن طفيل غزالي أكثر منه سينيأ. فنحن لسنا نقع في «شقاء» ابن سينا - على ضخامة مجلداته الاثني والعشرين - على آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، اللهم إلا على سبيل التمثيل، لا على سبيل البرهان. وكذلك تغيب الآيات والأحاديث غياباً تاماً حتى عن مصنفه «الإشارات والتنبيهات» المنسوب - زعماً - إلى «الفلسفة المشرقية». وبالمقابل يتعادل تماماً عدد الآيات المستدل بها في كل من «المنقذ من الضلال» ورسالة «حي بن يقظان»: ١٤ آية في كل من هذين الكتابين الصغيرين المتعادلين حجماً، عدا عن بضعة من الأحاديث النبوية. بل إن حضور هذه الآيات والأحاديث يبدو أكثر لفتاً للنظر في كتاب ابن طفيل منه في كتاب الغزالي. فهي عند الغزالي ترد في سياق طبيعي معتاد. أما ابن طفيل فإنه يقحمها على نضج إقحاماً من خارج السياق السردى، وبالإسقاط الفوقى (Deus ex Machina)^(٨٢) على بطل قصته حي بن يقظان الذي لا ننسى أنه كان أعجم ولا معرفة له لا باللغة ولا بواقعة الوحي والتنزيل الإلهيين، إلى حين لقائه - وقد أناف على الخمسين سنة من العمر - ببطل القصة الثاني أيسل.

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة. فعندما يستدل حي بدليل العناية لينتهي إلى الاستنتاج - من خلال «تصفح جميع الموجودات» والتأملي في «آثار الحكمة وبدائع الصنعة» - بأن «ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار في غاية الكمال وفوق الكمال»، يتدخل ابن طفيل ليردف استنتاجه هذا بالآية الثالثة من سورة سبأ: «لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر». وعندما يتصفح حي طبقات لناس - بعد أن يكتشف وجدهم في الجزيرة المجاورة - فيجدهم في أكثرهم

= ذاتها مسألة القدم والحدث، وكم بالأولى مسألة التأخر بالذات لا بالزمان. فليس لهذه الآية من منطوق آخر سوى: الخلق من العدم وبقوة القول الإلهي. ولو جاز التشبيه [= قياس الغائب على الشاهد] لقلنا إن الأمر الإلهي هو للعالم هنا كالدماع الأمر لليد المأمورة.

(٨٢) تعبير تقني مسرحي يطلق على تدخل اللامتوقع في مجرى المسرحية من خارجها لحل عقلة مستعصية. وهو تعبير لاتيني الأصل، معناه الحرلي «إنزال الإله بالآلة»، وذلك ما كان يحدث فعلاً في المسرح القديم عند تدخل الآلة كطرف في الصراع بين الأبطال البشريين.

ابن طفيل : مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

الجمهوري «قد اتخذوا إلههم هواهم، ومعبودهم شهورهم»، يضع ابن طفيل على لسانه الآية ٣٢ من سورة الروم: «كل حزب بما لديهم فرحون»، ويرددها حداً بالآية ٧ من سورة البقرة: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم». بل إن ابن طفيل، في توصيفه لرؤية نهاية العالم كما عاينها حي في لحظة الانخفاف والوصول إلى «مقام الصدق بعد الاستغراق المحض والفناء التام»، لا يتردد في أن يدمج مضمون عدة آيات من أربع سور: القارعة والتكوير والانفطار وإبراهيم، ليقول في مشهد الختام: «بذلك نطق الكتاب العزيز حيثما وقع هذا المعنى في تغيير لجمال وتصويرها كالعن، والناس كل فراس، وتكوير الشمس والقمر وتفجير البحار يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات»^(٨٣).

ويدهي بعد ذلك كله أن موضع الاعتراض ههنا ليس على كون ابن طفيل اختار أن يكتب على نهج الغزالي، لا على نهج ابن سينا، حتى وهو يخرج على طريقته قصة «الفلسفة المشرقية» المنسوبة إلى هذا الأخير. فذلك حقه المطلق ككاتب، وعلى الأخص كمبدع لتقنية في التفسير لم يسبقه إليها أحد. ولكن هذا كله شيء، وشيء آخر أن يقال لنا بعد ذلك إن «الابستمي» التي صدر عنها «ابستمي علمية وعلمانية» بالتضاد مع «الابستمي اللاهوتية» التي صدر عنها، وكان لا مناص من أن يصدر عنها، ابن سينا من موقعه في «مشرق المشرق»، اللهم إلا إذا كانت «الابستمي» تتجهر بالإقليم، وإلا إذا كان الفضاء العقلي الذي يعينها يتعين هو نفسه بالجغرافيا لا بالتاريخ. ففي مثل هذه الحال، وفي مثل هذه الحال فقط، «يشمخرب» ابن طفيل، فيصير رغماً عنه برهاناً علمياً علمانياً، و«يشمشرق» ابن سينا ويصير رغماً عنه أيضاً عرفانياً غنوصياً لاهوتياً.

ابن طفيل متصوفاً لعلنا نحتاج، كما نفهم التجربة التصوفية لابن طفيل التي هي عنده - وليس أي شيء سواها - مفتاح «أسرار الحكمة المشرقية»، أن نعود إلى محور الخلاف الذي فرّق ما بين أفلاطون وتلميذه الذي سيصير «المعلم الأول» من بعده - أرسطو.

فقد كان أفلاطون أسس ثنائية جذرية ما بين الأشياء ومثلها المتعالية عنها، إذ اعتد محسوسات العالم السفلي محض ظلال شاحبة لمعقولات العالم العلوي.

(٨٣) «حي بن يقظان»، ص. ص. ٩١ و ١٢٠ و ١١٢ على التوالي.

أرسطو بالمقابل أنزل المُش الأفلاطونية من سماء التجريد إلى أرض الواقع ليقول بمادة ملازمة لصورتها، وبصورة ملازمة لمادتها على نحو لا يقبل فكاً.

ابن طفيل عاد من حيث يدري أو لا يدري - لا ندري - يضع المقارعة الأفلاطونية ويرفع المحايثة الأرسطية.

فانطلاقاً من الفضاء العقلي الديني لعصره، لذي قام في واحد من مرتكزاته الأساسية على ثنائية الجسد والنفس أو المادة والروح، اقترح تفسيراً لا يخلو من ابتكار لقول منسوب إلى الرسول - وهو في واقع الأمر قول توراتي - من أن «لله خلق آدم على صورته». فمعلوم أن هذا القول كان أحدث انقساماً عميقاً في صفوف المتكلمين والمتصوفين وحتى المتفقيين، وكان أبرز مظاهر هذا الخلاف الاختلاف على العائد في ضمير «اله»: أهو لله أم لآدم نفسه؟ فابن طفيل ذهب إلى الرأي الأول، وهو رأي الغالبية أصلاً، ولكنه أوجد مخرجاً ذكياً للمأزق اللاهوتي الذي كان يتخبط فيه الفريق الغالب. فالقول بأن الله خلق على صورته آدم [تؤخر هنا المفعول به وتقدم شبه الجملة للتوكيد على عائدة الضمير فيها إلى الفاعل لا إلى المفعول] كان يترتب عليه وجوب التسليم بأن «لله صورة»، وهو ما كان ينقض نقضاً عنيفاً مبدأ التنزيه المطلق الذي أقام عليه المتكلمون المسلمون الإسلام. والحال أن ابن طفيل جمع بين مفهوم «لصورة» الأرسطي ومعنى «الروح» القرآني ليقول إن الله خلق آدم على صورة روحه. ففي معرض تحليله الكيفية التي «تعلق به الروح الذي هو من أمر الله تعالى» بتلك النفاخة الطينية الصغيرة التي كانها قلب حي قبل أن تدب فيه الحياة، يقول إن من الموجودات ما ليس لها استعداد أصلاً لقبول ذلك الروح الإلهي «الفياض أبداً على جميع الموجودات»، ومن قبيل ذلك «الجمادات التي لا حياة فيها»، كما إن من الموجودات ما لها استعداد كبير لاستقبال ذلك الروح، «وهي أنواع الحيوان». والحال أنه «من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكي الروح ويتصور بصورته، وهو الإنسان خاصة. وإليه الإشارة بقوله (ص): «إن الله خلق آدم على صورته»^(٨٤). ولا شك في أن إحالة ابن طفيل الضمنية هنا هي إلى الآية التاسعة من سورة السجدة التي تقول إن الله، بعد أن «خلق الإنسان من طين»، «سواه ونفخ فيه من روحه». ولكن انطلاقاً أيضاً من هذه الآية - ومن آيات أخر تؤكد جميعها على خلق الإنسان «من صلصال من

(٨٤) لمصدر نفسه، ص ٦٤.

ابن طفيل ' مبدع ' مغربي' للفلسفة المشرقية

حماً مسنون^(٨٥) غدت صورة الإنسان تقابل مادته مقابلة الروح للطين. وعلى هذا النحو تأسست تراتبية عضال بين روح الإنسان التي هي من جوهر سماوي وبين جسده الذي هو من طين الأرض وحمئها المسنون. وتأسست مع هذه التراتبية علاقة صراعية بين الروح والجسد؛ فذاك يشد الإنسان إلى أعلى، وهذا يشده إلى أسفل. وأمسى الإنسان الروحي يصارع أبداً الإنسان الجسدي؛ فإن انغلب انحط إلى بهيمة وإن تغلب ارتقى إلى مصاف المثاليين والمتجهرين بالجواهر السماوي. وهذا «الفوز العظيم» مقتصر - عند ابن طفيل على الأقل - على فئتين من البشر: إما الأنبياء وإما الأولياء. ومن هنا إضافة ابن طفيل، وهو يشرح القول النبوي، أن الإنسان «إن قويت فيه هذه الصورة [= الروحية] حتى تتلاشى جميع الصور في حقها وتبقى هي وحدها وتحرق سباحات نورها كل ما أدركته، كانت حيثل بمنزلة المرأة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها، وهذا لا يكون إلاً للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين»^(٨٦). ومن هنا أيضاً المغامرة الجهادية الكبرى لبطله حي الذي لن يكون له من هاجس سوى الاعتناق من «كدورة البدن» للارتقاء إلى مصاف الكائنات الروحية الخالصة، والانفكاك عن «تركيب الحياة الطبيعية» لبلوغ «أحوال من أحوال السعداء خليفة أن يقال لها أحوال إلهية».

ومن هنا فإن كل المسار الارتقائي لحي بن يقظان، في رحلته نحو اكتناه «أمرار الحكمة المشرقية»، قابل لأن يتلخص بالمبدأ التفارقي التالي: إحياء النفس عن طريق إمالة الجسد. وهذا المبدأ هو طبيعة الحال مبدأ جميع المتصرف في جميع ثقافات البشرية المؤسسة على ثنائية الروح والمادة بدءاً بيوغيني الهند^(٨٧) وفيثاغوري اليونان ومانويي فارس، ومروراً بخنوصي المسيحية وعرفانيي الأفلاطونية المحدثة، وانتهاء بمتصوفة الإسلام العربي والفارسي والهندي على حد سواء.

ولسنا بحاجة هنا إلى أن نتتبع المغامرة الروحية لحي بن يقظان تفاصيلها كافة. حسبنا أن نقول إن أول مبدئها كان عندما اكتشف حي - وهو ما زال بعد يستكشف عالم ما دون فلك القمر - أن جميع الموجودات الطبيعية الحية «مركبة من معنى الجسمية ومن معنى آخر زائد على الجسمية»، وأن هذا المعنى الزائد على الجسمية هو الذي يحرك الأجسام التي لا طاقة لها من حيث هي أجسام على أن تحرك نفسها بنفسها.

(٨٥) «الحجر»، ص ٢٦، ٢٨ و٣٣.

(٨٦) «حي بن يقظان»، ص ٦٤.

(٨٧) بالمعنى، إن كلمة «يوغا» بالسانسكريت تعني حرفياً «الاتصال».

وعندئذ «هنا» عنده معنى الجسمية فاطرحه، وتعلق فكره بالمعنى الثاني، وهو الذي يعبّر عنه بانفس، فتشوق إلى التحقق به، فالتزم الفكرة وجعل مبدأه في ذلك تصفح الأجسام كلها لا من جهة ما هي أجسام، بل من جهة ما هي ذوات صور». والحال أنه إذا كانت المادة من كل جسم مفتقرة إلى الصورة لا تقوم إلا بها ولا تثبت لها حقيقة دونها، كذلك فإن الصورة بدورها «حادثة»، وككل ما هو حادث «لا بد لها من فعل»، ومن ثم فإنها بدورها «لا يصح وجودها إلا من فعل هذا الفاعل»، وهكذا، تضامنت نظرية الأصل المفارق للصورة مع نظرية الفاعل الواهب لها لتتحدد بالتالي جبهتان لجهاد حي بن يقظان: جبهة سفلية للانفصال، وجبهة علوية للاتصال. الانفصال عن الجسد لفق أسر الصورة من المادة، والاتصال بالفاعل لأنه «هو لوجود المحض الواجب الوجود بذاته، المعطي لكل ذي وجود وجوده، فلا وجود إلا هو؛ فهو الوجود، وهو الكمال وهو التمام، وهو الحسن وهو البهاء، وهو القدرة وهو العلم، وهو وهو، و «كل شيء هالك إلا وجهه»^(٨٨).

ولا يكتف ابن طفيل قارئه أنه ابتداء من تلك اللحظة تحول حي بن يقظان، المتماهي وإياه، من طريق الناظرين إلى طريق السالكين. فقد أنجز طور الدراية ودخل في طور الولاية. إذ قد رسخ في قلبه من أمر الفاعل ما شغله عن الفكرة في كل شيء إلا فيه، وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها، حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء من الأشياء إلا ويرى فيه أثر الصنعة من حينه فيثقل بفكره على الفور إلى الصانع ويترك المصنوع، حتى اشتد شوقه إليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس وتعلق بالعالم الأرفع المعقول^(٨٩).

وليس من قبيل الصدفة أن يظهر في هذا لطور - بعد أن ما كان له حتى الآن من إمام سوى ابن سينا في «الشفاء» وأرسطو عالم الكون والفساد - إمام جديد: الجليلي شيخ الصوفية. هكذا يقطع ابن طفيل السياق السردى لقصة حي بن يقظان ليتدخل مرة أخرى من الخارج فيقول: «فلما تبين له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفه عين لكي توافيه المنية وهو في حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته من دون أن

(٨٨) حي بن يقظان، ص ٩٠ - ٩٢.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٩٢.

ابن طفيل ' مدع ' مغربي ' للفلسفة المشرفية

يتخللها ألم . وإليه أشار الجنيّد شيخ الصوفية وإمامهم عند موته بقوله لأصحابه . « هذا وقت يؤخذ منه «اللّه أكبر» - وأحرم للصلاة»^(٩٠) .

والواقع أيضاً أنه في هذا الطور يعود ابن طفيل إلى تبني آراء الفارابي التي كان لأمه على بعض تناقصها في المدخل النظري للقصة ليقول إن الإنسان ليس أمامه في نهاية المطاف سوى طريقين لا ثالث لهما [= خلا أن يكون - وإن في صورة الإنسان - من «البهائم غير الناطقة»] . إما أن يلهمه تصريفه لشؤون حياته الجسمانية عن الموجود المحض فيحرم، متى وفته المنية، «المشاهدة» . . . فيبقى في عذاب طويّ وآلام لا نهاية لها، وإما أن يجمع بذنه في مدة تصريفه له ليصرف همه كله إلى تعرّف «الموجود الواجب الوجود»، فيقبل «بكليته عليه» ويلتزم «الفكرة في جلاله وحسنه وبهائه»، ولا يعرض عنه حتى توافيه منيته. فعندئذ، و «إذا فارق البدن بقي في لذة لا نهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب، ويؤول عنه ما تقتضيه القوة الجسمانية من الأمور الحسية التي هي - بالإضافة إلى تلك الحال - آلام وشورور وعوائق»^(٩١) .

وبما أننا سنفرد فقرة بتمامها هي التالية . لتقنية التجربة الصوفية عند ابن طفيل، فلن نتوقف هنا عند الكيفية التي أمارت بها حي بن يقظان جسده وشفّف روحه ليستغرق في المشاهدة وليصل إلى تلك الحال القصوى التي يندّ عنها اللفظ فيعابن «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(٩٢) .

وبالمقابل، ثمة ثلاث سمات لتجربة ابن طفيل التصوفية لا بدّ من التوقف عندها لتأخذ هذه التجربة كامل دلالتها ولتتميز عن تجارب المتصوفين الآخرين .

أولاً - الإيقاع السباعي: فابن طفيل يقسم مسار بطله حي إلى سابعات من السنين؛ فمع كل سابعة يدخل في طور جديد من أطوار تطوره، ويرقى من مقام إلى مقام أعلى. وهكذا، وعندما قارب حي «سبعة أعوام» اكتشف واقعة العري فاستتر

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٩٥ .

(٩١) الموضع نفسه .

(٩٢) هذا أيضاً حديث موضوع على لسان الرسول، وكثيراً ما امتشهد به الغزالي . ولكنه في الواقع قرون قاله بحرفه القديس بولس، المؤسس الثاني للمسيحية، في رسالته الأولى إلى أهالي كورنثوس التي يعود تاريخها إلى القرن الأول للميلاد .

بأوراق الشجر أولاً، ثم بجلد الحيوانات. و «على رأس ثلاثة أسابيع من منشئه، وذلك أحد وعشرون عاماً» كان قد اكتشف واقعة الموت ووجود الروح الذي لا محرك سواه للجسد: «فإن خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فني أو تحلل بوجه من الوجوه، تعطل الجسد كله وصار إلى حالة الموت». و «على رأس أربعة أسابيع من منشئه، وذلك ثمانية وعشرون عاماً»، كان حي - وقد بلغ «مبلغ كبار الطبيعيين» - قد أتم استكشاف مآثر موجودات العالم المحسوس، وانتهى إلى معرفة قوانين كونها وفسادها، وتوصل إلى تجريد مفاهيم العلة والحركة وللمادة والصورة والهيولى والجوهر والعرض والصفات الثانوية وجدل الكثرة والوحدة (الكثرة بالجمعية والوحدة بالانفصاف). وبدءاً من الأسبوع الخامس شرع حي يتأمل عالم ما فوق فلك القمر ويستكشف الأجرام السماوية، وي طرح أسئلة النهاية واللاتهاية، والقدم والحدوث، ويصرف اهتمامه عن المصنوع ليوقفه على تأمل بدائع صفة الصانع وآثار حكمته وفيضه اندائم على العالم. فلما انتهت به المعرفة إلى هذا الحد على رأس خمسة أسابيع من منشئه، وذلك خمسة وثلاثون عاماً» كان «قد رسخ في قلبه من أمر الفاعل ما شغله عن الفكرة في كل شيء إلا فيه»، فبدأ مغامرته الروحية الكبرى للاتصال بـ «الواجب الوجود» والاستغراق في مشاهدته بالقناء عن ذاته وعن العالم المحسوس. وفي الأسبوع السادس طوّر تقنيته التي ستكون لنا إليها عودة حالاً - في الاتصال ومراس المشاهدة بحيث بات سهلاً عليه أن يفارق «العالم المحسوس» إلى «العالم الإلهي» ف «يصل إليه متى شاء، ولا ينقص عنه إلا متى شاء». و «بقي على حاله تلك حتى أناف على مبعة أسابيع من منشئه...». وحينئذ اتفقت له صيغة أسال، وكان من قصته ما يأتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى» (وهذا بالفعل ما نحن بدورنا فاعلوه، إذ نرجع الكلام على علاقته بأسال إلى ختام هذا الفصل). ويتصاعد هذا الإيقاع السباعي ليلبلغ الذروة حينما يتسنى لحي وقد ترقى - بعد الاستغراق المحض والفناء التام - إلى «مقام الصدق» الأعلى، فتتفصم ذاته عن ذاته ويرى لذاته «ذاتاً بريئة عن المادة ليست شيئاً من الذات التي شاهدها قبلها ولا هي سواها. ولهذه الذات سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف فم، وفي كل فم سبعون ألف لسان يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدها ويمجدها لا يفتر»^(٩٣).

(٩٣) «حي بن يقظان»، ص ١١٠. والقول قول صوفي مأثور، ولعله يجد بعض سند له في قول منسوب إلى الرسول: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره».

لِمَ هذا الإيتقاع السباعي؟ لو كنا ننوء تحت وقر نفس الهجس الذي يجعل ناقد العقل العربي يرمي جميع فلاسفة الإسلام المشرقيين الكبار (الرازي، الفارابي، ابن سينا، عدا عن إخوان الصفاء) بـ «تهمة» الانتماء إلى الإسماعيلية، لما عسر علينا أن نردّ سباعيات ابن طفيل إلى تأثير مباشر أو غير مباشر بمذاهب هذه الفرقة الإسلامية المظلمة بالفرقة السبعية. ولكننا بطبيعة الحال نمسك عن ذلك، لأننا نعتقد أن الزعة السباعية لدى ابن طفيل ترتبط، لا بالتأثر بفرقة بعينها أو بمذهب بعينه، بل بالفضاء العقلي الديني الذي ينتمي إليه ويصدر عنه، وهو فضاء كان يحيط الرقم سبعة بهالة رمزية لا مُراء فيها، وربما تحت تأثير ارتباط العبادات القديمة بالظواهر الفلكية والموسمية (الكواكب السبعة، والأيام السبعة، والسنوات لسبع العجاف والسما في حلم فرعون التوراتي). والواقع أن الحساسية الدينية التي تغلف نص ابن طفيل، والتي تتظاهر من حملة م تتظاهر به في الإيقاع السباعي للمسار الارتقائي لبطله حي، تجد مرتكزات مباشرة لها في النص القرآني الذي تتعدد فيه الإشارات إلى «السَّموات السبع» وال «سبعة أبحر» و «سبعة أبواب» جهنم، فضلاً عن المساحة الواسعة التي يفسحها لتفسير يوسف الصديق لحلم الملك عن «سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف». ومع ذلك كله فقد أبى ناقد العقل العربي، في القراءة التي يقترحها لقصة حي بن يقظان، أن يشير محض إشارة إلى البنية السباعية لمجرى أحداثها، وإلى م يمكن أن يكون لذلك من دلالة رمزية. فعنده أن ابن طفيل ما كان يصدر عن «إبستمي لاهوتية»، وبالتالي ما كان به أن يدور أشباه تلك الرموز: فالرمزية ليست لغة مشروعة في مملكة «العقل البرهاني» الجابرية. ولكن هذا بالتحديد ما يقودنا إلى ثانية سمات التجربة التصوفية لابن طفيل:

ثانياً - هجاء العقل البرهاني: ذلك أن أعنف قطع يحدثه ابن طفيل في لسياق السردى لقصته ليتدخل من خارجه هو ذاك الذي يحدثه ليفجر ثورة غضبه على العقل البرهاني. ويدون أن تؤكد هُنا ما يرجحه جمال الدين العلوي من أن المستهدف بهلمة الثورة هو ابن رشد، أو على الأقل نمط العقلاء «البرهانيين» الذي يمثله^(٩٤)، فإنه يكفينا أن نورد النص بحرفه، بدون أي تعليق، ليوضح للقارئ مدى سحق ابن طفيل على تلك «المدرسة البرهانية المغربية» التي يصبر ناقد العقل العربي على اعتباره واحداً من أعمدتها الثلاثة إلى جانب ابن باجة وابن رشد. فعندما فني حي «عن ذاته وعن جميع

(٩٤) «الغزالي والخطاب الفلسفي في الغرب الإسلامي»، مصدر آتف الذكر، ص ٢٦.

الذوات» و «شاهد ما شاهد» في لحظة انخطافه التي تند عن البيان ولا تقع تحت وصف لسان، وجد نفسه كمن تفجرت عنده مقولات العقل والمنطق، ولم تعد كلمات «الكثير والقليل والواحد والوحدة» تعني عنده ما تعنيه. ولم يعد يدري، وهو يعاين عياناً مباشراً «تلك الذوات المقارفة العارفة بذات الحق عز وجل لبراءتها عن المادة» أهي كثيرة أم واحدة، بل لم يعد يدري أيجوز أصلاً أن يطلق عليها معنى الكثرة أو الوحدة، في تلك اللحظة بالضبط يتدخل ابن طفيل تدخله العنيف ليلقي المرافعة الدفاعية - الهجومية التالية:

«كأنني بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظم الشمس في أعينهم يتحرك في سلسلة جنونه ويقول: لقد أفرطت في تدقيقك حتى أنك قد انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول، فإن من أحكام العقل أن الشيء إما واحد وإما كثير. فليثبت في غلوائه وليكف من غرب لسانه، وليتهم نفسه، وليعتبر بالعالم المحسوس الخميس الذي هو بين أطبقه بنحو ما اعتبر به حي بن يقظان حيث كان ينظر فيه ينظر آخر فيراه كثيراً كثرة لا تنحصر ولا تدخل تحت حد، ثم ينظر فيه ينظر آخر فيراه واحداً. وبقي في ذلك متردداً ولم يمكنه أن يقطع عليه بأحد الوصفين من دون الآخر. هذا فالعالم المحسوس منشؤه الجمع والافراد، وفيه تهمة حقيقته، وفيه الانفصال والاتصال، والتحيز والمغايرة والاتفاق والاختلاف. فما ظنه بالعالم الإلهي الذي لا يقال فيه كل ولا بعض، ولا ينطق في أمره بلفظ من الألفاظ المسموعة إلا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة، فلا يعرفه إلا من شاهده ولا تثبت حقيقته إلا عند من حصل فيه. وأما قوله: «حتى انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول»، فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه. فإن العقل الذي يعنيه هو وأمثاله إنما هو القوة الناطقة التي تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتتفحص منها المعنى الكلّي. والعقلاء الذين يعنيه هم ينظرون بهذا النظر، والنمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله. فليسد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها، وليرجع إلى فريقه الذين «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»^(٩٥).

(٩٥) «حي بن يقظان»، ص ١٠٨. ١٠٩. والتسويد منا. ولعله نس من قبيل الصدفة أن يكون ابن طفيل استشهد بهذه الآية السابعة من سورة الروم دون سواها. فهي قابلة للتوظيف ضد «أهل الظاهر»، ولقد رأينا كم انتصر لهم شمع ابن رشد الخليفة الموحي يعقوب المنصور.

ثالثاً - شبهة الاتحاد: رأينا كيف استعذر ابن طفيل في المدخل مقطوعاً بتمامه من «مشكاة أنوار» الغزالي ليحذر من زلل من زلت بهم أقدامهم من «أصحاب المشاهدة والأذواق» لتوهمهم «الاتحاد»، أو على الأقل البوح به والقول فيه «بغير تحصيل» حيث القول، على من «لم تحذقه العلوم»، محذور. والحال أن ابن طفيل يطبق قاعدة المحظر هذه على نفسه، أو بالأحرى على بطله حي الذي يقول عنه: «إنه لما فني عن ذاته وعن جميع الذوات، ولم يرَ في الوجود إلا الواحد الحي القيوم وشاهد ما شاهد، ثم عاد إلى ملاحظة الأغير عندما أفاق من حاله تلك التي هي شبهة بالسكر، خطر بباله أنه لا ذات له يغير بها ذات الحق تعالى، وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق، وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس شيء إلا ذات الحق». ويضيف ابن طفيل وكأنما حفظ ليس فقط درس الغزالي في وجوب عدم السؤال «عن الخسر»، بل كذلك درس ابن سينا في استحالة اتحاد العاقل بمحولاته وصيرورته «هو هي»، فيقول: «وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدأته، فعلم أن هذه الشبهة إنما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام وكنورة المحسوسات، فإن الكثير والقليل والواحد والوحدة والاجتماع والافتراق هي كلها من صفات الأجسام»^(٩٦).

هنا يثور سؤال - نعتقد أنه مقيض له أن يبقى بلا جواب - هو التالي: إلى أي مدى وصلت تجربة ابن طفيل التصرفية؟ أوقفت عند عتبة العتبة؟ أم تجاوزتها؟ أم ارتدت عنها؟

والواقع أن حرص ابن طفيل على عدم الزلل عن «الصراط المستقيم» وعلى البقاء ضمن إطار العقيدة القويمة - ولا سيما في الظروف التاريخية للأندلس والمغرب في زمانه - جعله يميز في تجربته الصرفية بين طورين: طور التجربة بما هي كذلك، وطور التصريح البعدي بها. وبين حدي هذين الطورين - تماماً كما في حال من يستعيد وعيه بعد السكر - كان لا مناص من أن ترصد «حقيقة الاتحاد» على حدّ تعبير الغزالي إلى «شبه اتحاد». فذلك أقصى ما يمكن التصريح به من دون «مزيد بيان بالمشاقفة»: «فإن المجال - كما يقول ابن طفيل - ضيق، والتحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به، خطر»^(٩٧).

(٩٦) المصدر نفسه، ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

التقنية التصوفية والعودة إلى أسطورة فلسفة ابن سينا المشرقية

التقنية التي اتبعها حي في مساره الارتقائي خليفة بأن نتوقف عندها ملياً، لذاتها أولاً، ثم لعلاقتها الروحية بالرواية الجابرية عن فلسفة ابن سينا المشرقية.

فحي، الذي لم يقبض له أن يعرف شرط الاجتماع البشري بحكم مولده ونشأته والإطار الجزيري التوحدي لتدبيره، كان عليه - وهذا مظهر آخر لتصاب خالقه ابن طفيل من الإبداع الشخصي - أن يطوّر تقنية خاصة به «للموصول»، فيكون لنفسه شينغ نفسه بدون أن يتسلم «الخزقة» من أحد سواه.

ما هذه التقنية؟ إنها عملية تشبه ثلاثية الأطوار. فما دام عالم حي الجزيري تعممه ثلاثة أنماط من الموجودات: الحيوان على الأرض والأفلاك في السماء والواجب الوجود في التصور، فقد نزع الفكر بحي، عندما دخل في «أسبرعه» السادس وصار طالباً للمشاهدة، إلى أن «الأعمال لتي يجب عليه أن يفعلها» لا بدّ من أن تتجه «نحو ثلاثة أراض: إما عمل يشبهه به بالحيوان غير الناطق، وإما عمل يشبهه به بالأجسام السماوية، وإما عمل يشبهه به بالموجود الواجب الوجود».

ولواقع أن هذه الأنماط الثلاثة من التشبه لم تكن متعادلة، بل متدرجة في الفاعلية كما في القيمة. فالتشبه بالحيوان ما كان له من البداية إلا أن يأخذ شكلاً سلبياً. أما التشبه بالأفلاك السماوية فإنه وإن نزع إلى أن يكون إيجابياً تمام الإيجابية فقد بقي مقيداً غير مطلق. ووحده التشبه بالموجود الواجب الوجود أوصل حياً إلى «العتبة المقدسة» التي يبقى تخطيها أو عدمه سؤالاً لا جواب عنه.

التشبه الأول: فحي، الذي أدرك «أن فيه شبيهاً من سائر أنواع الحيوان بجزوه الخسيس الذي هو من عالم الكون والفساد، وهو البدن المظلم الكثيف الذي يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح»^(٩٨)، أدرك أيضاً أن هذا النمط من التشبه «لا يحصل له به شيء من المشاهدة، بل هو صارف عنها وعائق دونها». ومن ثم فقد «ألزم نفسه ألا يجعل لها حظاً من هذا التشبه الأول إلا بقدر الضرورة»، إذ ما «احتيج إلى هذا التشبه» إلا «لاستدامة الروح الحيواني الذي يحصل به التشبه الثاني بالأجسام السماوية». فالتشبه الأول ليس مطلوباً إذاً لذاته، بل «بالمعرض». فهو بذاته «لا

(٩٨) هذه هي الإشارة اليتيمة في كل نص رسالة «حي بن يقظان» إلى وجود اغريزة الجنسية.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

يخلو من المضرة»، ولكن «الضرورة تدعو إليه» من باب «بقاء الروح الحيواني» الذي يقوم له الجسم - المطلوب تغذيته - مقام الرعاء. غير أن التغذية نفسها - وهي أهم الوظائف الحيوانية - ينبغي أن تبقى ضمن الحد الأدنى. ومن ثم فقد رأى حي «أن يفرض فيها حدوداً لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها». و «أما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسدّ خلة الجوع ولا يزيد عليها». و أما الزمان الذي بين كل عودتين [- وجبتين] فرأى أنه إذا أخذ حاجته من الغذاء أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يقطع به عن بعض الأعمال التي تجب عليه في التشبه الثاني». وفي كل ذلك كان لسان حال حي يقول: «إن الصواب لو أمكن أن يمتنع عن الغذاء جملة واحدة». ولكن ذلك غير ممكن لأنه «إن امتنع عنه أكل ذلك إلى فساد جسمه». و يفساد الجسم لا بقاء للروح.

التشبه الثاني: إن لم يكن التشبه الأول بالحيوان غير الناطق مطلوباً لذاته، بل كواسطة إلى التشبه الثاني بالأجسام السماوية، فإن هذا التشبه الأخير ليس بدوره غاية، بل هو محض مرحلة وسيطة. وكيف يكون غاية والأجسام السماوية هي نفسها طالبة لنمط الثالث من التشبه الذي هو التشبه بـ «الموجود الواجب الوجود»؟ وعلى هذا النحو، لئن ألزم حي نفسه «التشبه بالأجسام السماوية والافتداء بها، والتقبل لأصغاتها وتبعية أوصافها»، فإنما فقط بمقدار ما تقدم له نموذجاً للمحاكاة في كونها تشاهد «الموجود الواجب الوجود مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه، وتتشوق إليه، وتتصرف بحكمه، وتتسخر في تميم إرادته، ولا تتحرك إلا بمشيئته وفي قبضته». وتقيداً منه بنموذج المحاكاة هذا التزم حي «ضروب الحركة على الاستدارة، فتارة كان يطوف بالجزيرة ويدور على سواحلها ويسبح بأكنافها، وتارة كان يطوف ببيتة أو ببعض الكوى أدواراً محدودة إما مشياً وإما هرولة، وتارة يدور على نفسه حتى يقش على»^(٩٩). ولم تكن هذه التقنية الدورية مطلوبة هي الأخرى لذاتها، وإنما فقط لنتائجها. فقط كان حي «إذا اشتد في الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التي تحتاج إلى الآلات الجسمانية، وقوي فعل ذاته التي هي بريئة من الجسم»، فيتأني

(٩٩) لا يشك هنا حي، ابنُ ابن طفيل، عن الدرس الأرسطي. فحركة «الدائرة عند المعجم الأول هي أكمل الحركات، لأن نقطة مبتدأها - كما يقول في كتابه «عن السماء» - تطابق نقطة منتهائها، ولا تحتاج بالتالي إلى دفع من خارجها. ولهذا كانت الحركة الدورية هي حصراً حركة الأجسام السماوية والعقول الفلكية شبه الإلهية.

له - وقد «تخلص من الثوب» وانقطع عن «علائق المحسوسات» - أن «يشاهد الموجود الواجب الوجود». ولكن ذلك ما كان يتأتى له إلا انخطفاً، وما دامت حركة الاستدارة المشتتة تحدث أفاعيلها أعلى مستوى «كيمياء الدماغ» كما بتنا نعلم اليوم بفضل فتوحات العلم الحديث]. أما متى ما توقفت حركة الاستدارة وكفّت عن أن تؤتي أفاعيلها فكانت القوى لجسمانية تعود فـ «تكرر عليه، فتفسد عليه حاله وترده إلى أسفل السافلين». ومن هنا فقد أدرك حي «وهو يجاهد قواه الجسمانية وينازعها وتنازعها» أن تقنية الاستدارة غير كافية بذاتها، وأنه لا بد له بالتالي من أن يتقل من «التشبه بالأجسام السماوية»، الذي لا يذيقه إلا لهماً «شئياً من أحوال أهل التشبه الثالث»، إلى صلب هذا تشبه الثالث نفسه والسعي «في تحصيله» عن طريق محاولة الاتصال المباشر بالموجود الواجب الوجود، وذلك بالاستغراق الكلي، لا بالانخطف اللحظي عن طريق حركة الاستدارة وحدها.

التشبه الثالث: فحركة «الاستدارة تبقى في محصلة الحساب حركة، و«لحركة من أخصى صفات الأجسام». وما دام حي يطلب المشاهدة بالحركة، فقد كان لا بد من أن يدرك في نهاية المطاف أنه إنما يطلبها على هذا النحو «بقوة» هي جسمانية» و«يكبح في أمرها بقوة جسمانية أيضاً». ولهذا «أخذ في طرح ذلك كله عن نفسه، إذ هي بجملتها لا تليق بهذه الحالة التي يطلبها الآن». ومن هنا كان قراره بالتحوّل عن حركة الدرويش إلى سكّون اليوغي، وعن الفضاء الطلق للطبيعة إلى الفضاء المغلق للمثارة. وعلى هذا النحو: «ما زال يقتصر على السكون في قعر مغارته مطرقاً، غاضباً بصره، معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية، مجتمع الهم والفكرة في الموجود الواجب الوجود وحده من دون شركة. فمتى منحه لخياله سائح طرده عن خياله جهده، ودافعه وراض نفسه على ذلك ودأب فيه مدة طويلة بحيث تمر عليه عدة أيام لا يتغلّى فيها ولا يتحرك... وما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى تآتى له ذلك وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما، وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية، وجميع القوى المفارقة للمواد التي هي الدوات العارفة بالموجود، وغابت ذاته في جملة تلك الدوات، وتلاشى الكل، واضمحض وصار هباء منثوراً ولم يبق. لا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود»^(١٠٠). وميزة هذه التقنية

(١٠٠) «حي بن يقظان»، ص ١٠٦.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

اليوغية السكونية الاستغراقية، التي أوصلت حياً إلى أعلى مقامات المشاهدة، أنها قابلة، بالدرجة والمراح، إلى أن تتأسس في ممارسة. وعلى هذا النحو صار في مقدور حي، كما «اشتد شوقه إلى الحياة القصوى»، أن يعود إلى طلب ذلك المقام لأعلى «بالنحو الذي طلبه أولاً»، وكرر ذلك «حتى وصل إليه بأيسر من السعي الذي وصل به أولاً، ودام فيه ثانياً مدة أطول من الأولى». و «ما زال الوصول إلى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهولة، والدوام يزيد فيه طولاً بعد مدة حتى صار بحيث يصل إليه متى شاء، ولا ينفصل عنه إلا متى شاء. فكان يلزم مقامه ذلك، ولا يثنى عنه إلا لضرورة بدنه التي قللها حتى كاد لا يوجد أقل منها، وهو في ذلك كله يتمنى أن يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذي يدعوه إلى مفارقة مقامه ذلك، فيتخلص إلى لذته تخلصاً دائماً وبيراً عما يجده من الألم عند الإعراض عن مقامه ذلك إلى ضرورة البدن. وبقي على حاله تلك حتى أناف على سبعة أسابيع من منشه»^(١٠١).

وإذا عدنا الآن إلى المقارنة بين الأنماط الثلاثة من التشبيه، فسنلاحظ أن النمط الأول منها سالب ومتضائل باستمرار وصولاً إلى ما دون الحد الأدنى، وأن النمط الثاني منها، على درجته العالية من الإيجابية، انتقالي، فاصل عما قبله وواصل إلى ما بعده. ينتمى النمط الثالث هو وحده الذي يمثل محطة الوصول النهائية. ومع بلوغه فقدت تقنية الاستدارة الفلكية جذواها وأخلت مكانها بصورة نهائية لتقنية المغارة اليوغية لتي استطاعت، هي وحدها، أن توصل حياً إلى ما أسماه الغزالي في «مشكاة الأنوار» حالة «فناء الفناء»، ففني عن نفسه وفني عن فناءه معاً^(١٠٢).

وثنية ابن سينا؟

على مستوى هذا الانتقال ما بين التقنيتين التشبهيتين، الحركية والسكونية، تعود إلى التدخل، بقدر غير قليل من الفجاجة، الأسطورة الجابرية عن فلسفة ابن سينا المشرقية. ذلك أن ناقد العقل العربي، في القراءة التي يقترحها لقصة «حي بن يقظان»،

(١٠١) المصدر نفسه، ص ١١٢ - ١١٣.

(١٠٢) لنلاحظ أن حياً، في نقاله هـاء، يبقى تلميذاً مجتهداً على مقاعد المدرسة الأرسطية. فعند المعلم الأول أن «المحرك الأول» يحرك ولا يتحرك، يمسك الأجرام السماوية التي تتحرك بالشوق إليه. ومن ثم فإن تشبهه بـ «الموجود الواجب الوجود» كان يقتضي الانتقال من تقنية الحركة إلى تقنية السكون.

يُخَذُّ لا قطعاً بين التفتيتين فحسب، بل حذفاً وإلغاءً. فهو يسكت سكوتاً مطبقاً عن تقنية المغارة الختمية ليتوقف عند تقنية الاستدارة الوسيطة، فيجردها من طابعها الانتقالي ويجعل منها محطة الوصول النهائية. وما ذلك من قبيل السهو، ولا حتى من قبيل الصدفة. بل يفعل ذلك عن عمد «ابستمولوجي» إن جاز التعبير. فعنده أن كل مفتاح قصة ابن طفيل - التي يصمّر على أن يقرأها على أنها محض ترجمة أمينة ومحايدة لفلسفة ابن سينا المشرقية - يكمن في النمط الثاني من تشبهات حي بن يقظان، قائلاً ومكرراً لقول: «لنؤكد مرة أخرى أن «لسر» الحقيقي الذي يكشف عنه ابن طفيل في قصته هذه، ليس مشاهدات حي بن يقظان في الفلك الأعلى، ولا في طريق نزوله عبر الأفلاك الدنيا، بل السر كل السر في «الواسطة» التي مكنته من اجتياز الهوة التي تفصل بين عالم ما تحت فلك القمر وعالم «الحضرة الإلهية». إن فكرة «المشاهدة» فكرة صوفية، فلا جديد فيها في حد ذاتها... أما اتخذا الأجرام السماوية - أي - الكواكب - واسطة إلى واجب الوجود عن طريق التشبه بها والقيام بطقوس معينة لها أو بوحي منها، فذلك هو الجديد حقاً، ذلك هو السر الذي كشف عنه ابن طفيل والذي يمكننا، وبسهولة، من التعرف إلى حقيقة «الفلسفة المشرقية» وإلى أصلها المشرقي الحقيقي». ويضيف ناقد العقل العربي حالاً: «إذا نحن أردنا أن نلمحور العنصر التي أبرزناها لحد الآن من «الفلسفة المشرقية» لسينوية، حول عنصر واحد وأساسي، فإن هذا العنصر لن يكون شيئاً آخر غير الأجرام السماوية»^(١٠٣).

ذلك أن ما يسعى ناقد العقل العربي إلى أن «يبرهن» عليه ويرسخه في اقتناع قارعه، أن «الاهتمام بالأجرام السماوية ونفوسها عنصر من عناصر فلسفة ابن سينا المشرقية»، بل هو عنصرها الرئيسي ومحورها الأوحد، لأن أول ما كان يهم ابن سينا هو «تأكيد اعتقاد معين، أي فلسفة دينية تقوم على الاعتقاد بروحانية الكواكب وألوهيتها»^(١٠٤). ولئن سماها «مشرقية»، فإنما لارتباطها «بإحدى عقائد أهل المشرق ذات الطابع الوثني»^(١٠٥). ومن هنا أصلاً تشبث ناقد العقل العربي بالتصريح المكرر بأن هذه «القراءة التي تقترحها لرسالة ابن طفيل... استوحيناها من فقرة لابن رشد ينسب فيها بصراحة فلسفة بن سينا المشرقية إلى عقيدة الحرائيين» التي تعتبر «الأجرام

(١٠٣) «نحن والفرات»، ص ١٧٣. والتسويد من الجابري.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ١٦٢. والتسويد من الجابري.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٦. والتسويد من هذه المرة.

السماوية آلهة» وتقول «بروحانية الكواكب وألوهيتها»^(١٠٦).

واضح للعيان إذًا، أن ليس المقصود بأقل من التلبس على ابن سينا - ومعه عموم «أهل المشرق» - بتهمة «لوثنية». وهي تهمة لو ثبتت لكانت أخطر بما لا يقاس من تهمة الابتداع والكفر التي سعى الغزالي إلى التلبس بها على فلاسفة الإسلام، وكزست مقدّمهم «الشيخ الرئيس» بصورة نهائية في دوره «لظلامي» كفيلسوف رجيم.

ابن رشد والفلسفة المشرقية

ما دام المستند الأول لناقد العقل «المشريقي» في هذا الاتهام الخطير، هو فقرة ابن رشد المشار إليها من كتابه «تهافت التهافت»، فلنستعدها إذًا بحرفها وفي سياقها. ففي معرض الرد على المسألة العاشرة من المسائل العشرين التي بدّع فيها الغزالي الفلاسفة في سبع عشرة منها وكفرهم في ثلاث، - وهي المسألة التي عجزهم فيها عن «إقامة الدليل على أن للعالم صانعاً وعلّة» - يعود ابن رشد إلى إيراد قسمة ابن سينا الجدلية المشهورة للموجود إلى «موجود واجب بذاته» و «موجود ممكن بذاته وواجب بغيره»، ويقول: «إن هذه الطريقة لم يسلكها القدماء»، وإنما أول من سلكها في ما وصلنا ابن سينا، وقد قال إنها أشرف من طريقة لقدماء». وبالفعل كان ابن سينا - وقد ربأ على ما يبدو عن أن يعتبر الله مجرد محرك ميكانيكي للعالم - قد استعاض بذلك الدليل الوجودي الجدلي عن دليل أرسطو الحركي. وربما كان ذلك تحديداً واحداً من أظهر مظاهر «مروقه» عن العقيدة المشائية السائدة في عصره^(١٠٧). فقد اعتبر ابن سينا، في الكتاب الأول من «الهيئات الشفاء»، أن الموجود الواجب الوجود لا علة له ولا يمكن أن يكون معلولاً لسواه، وإلاّ لكفّ عن أن يكون هو المبدأ الأول. وبالمقابل، فإنه علة لمعلوله في خروجه من جواز الوجود إلى وجوب الوجود. فليس للمعلول من وجود

(١٠٦). لمصدر نفسه، ص ٣٦٥.

(١٠٧) قد يكون مفيداً هنا أن نستحضر ما كتبه تلميذه - المجهول الاسم - في الرسالة التي قدم بها للمباحثة الرابعة من «مباحثات» ابن سينا، والتي سبق بها لنا الاستشهاد بها مطولاً فيما يتعلق بغزوف تأليف كتاب «الإتصاف» الضائع. يقول ذلك التلميذ: «ومع سمعناه يقول: إنه ليعظم عليّ الاعتقاد في ثبوت المبدأ الأول وفي ثبوت أنه واحد مسلوكاً إليه من طريق الحركة ووحدة العالم المتحرك، كان كتاب ما بعد الطبيعة لا يدر أخلافه في أمر الله تعالى إلا بهل. ليس إنما يستعظم هذا من المحدّثين، بل من جميع من أشبههم من مشايخهم. ويقول: لو فطوا لأسرار كتاب ما بعد الطبيعة استحيوا من هذا النمط» («المباحثات»، مصدر آف الذكر، ص ٨٤ - ٨٥).

أو عدم وجود بذاته، بل وجوده أو عدمه من علة تهيئ هذا الوجود أو تمنعه عنه. ومن هنا كان وجود العالم دليلاً على وجود موجد. والحال أن الغزالي شكك في هذا الدليل وألزم ابن سين «القول بالدهر»، أي القول بأن «العالم قديم ولا علة له ولا صانع». والحال أيضاً أن ابن رشد شكك بدوره في هذه الطريقة في إثبات وجود المبدأ الأول، ووصفها بأنها «ضعيفة» و«طريقة مختلة» و«ليست برهانية»، وابتدعية لا تلتزم «مذهب المشائين» ولا تسلك مسلك «القدماء»^(١٠٨). ذلك أن القول بجواز الوجود ووجوب الوجود في الموجود الواحد الممكن بذاته الضروري بغيره، يعدل القول بأن الجسم السماوي - وعليه مدار النقاش - «مركب كسائر الأجسام» من «مادة وصورة»: مادة يكون له بها جواز الوجود، وصورة تخرجه إلى وجوب الوجود. والحال، أن هذا القول، الذي يعيد تأسيس ثنائية القوة والفعل في لجسم السماوي، «هو شيء غلط فيه ابن سينا على المشائين» لأن «الجسم السماوي عندهم جسم بسيط»، ولأن العقل المفارق للرء من المادة الذي هو الجرم السماوي هو عندهم عقل بالفعل على الدوام. وإنما في سياق هذا التشكيك المزدوج في طريقة ابن سينا من قبل الغزالي وابن رشد معاً يورد هذا الأخير قولاً للإسكندر الأفروديسي من كتابه الملقب بـ «المبادئ» يصلح فعلاً للتوظيف في منحى معاكس لمنحى ابن سينا «الثنائي» بقدر ما يؤكد على أنه بحكم الصدور عن الواحد «صار العالم واحداً». وهكذا يقول ابن رشد: «ولذلك يقول الإسكندر: «إنه لا بد من أن تكون ههنا قوة روحانية سارية في جميع أجزاء العالم، كما يوجد في جميع أجزاء الحيوان الواحد قوة تربط أجزائه بعضها ببعض. والفرق بينهما أن الرباط الذي في العالم قديم... والرباط الذي في أجزاء الحيوان ههنا كائن فاسد بالشخص... لا بالتنوع»^(١٠٩). وههنا على وجه التحديد

(١٠٨) «في تلخيص السماء والعالم» يتراجع ابن رشد جزئياً عن هذا الاتهام ويؤكد تنحية ابن سين حتى في «شدوقة» هذا للإسكندر، بقوله: «قد صرح به الإسكندر في بعض مقالاته وتنعه عليه بـ س، فقال إن واجب الوجود قسماً: قسم واجب الوجود بذاته، وقسم ممكن الوجود بذاته واجب بغيره» (ص ١٧٨).

(١٠٩) «نهاية التهافت»، ص ٦٣٩. وانظر تمام نص الإسكندر في: «أرسطو عند العرب»، مقالة الإسكندر الأفروديسي في القول في مبادئ الكل، نقلها من السرياني إلى العربية إبراهيم بن عبد الله النصراني الكاتب، ومن يوناني إلى السرياني أبو زيد حنين بن إسحق، ص ٢٧٣ - ٢٧٤. والطريف أن ناقد العقل العربي يخطر فيحسب أن صاحب هذا القول ليس الإسكندر، بل ابن رشد نفسه، وهذا ما يستجزمه إلى أن يطرح السؤال الساذج التالي: «هل يقول ابن رشد =

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

يضيف ابن رشد القول: «وقد رأينا في هذا الوقت كثيراً من أصحاب ابن سينا، لموضع هذا الشك، قد تأولوا على ابن سينا هذا الرأي، وقالوا: إنه ليس يرى أن ههنا مفارقاً، وقالوا: إن ذلك يظهر من قوله في واجب الوجود في مواضع، وإنه المعنى الذي أودعه في فلسفته المشرقية. قالوا: وإنما سماه فلسفة مشرقية لأنها مذهب أهل المشرق، فإنهم يرون أن الألهة عندهم هي الأجرام السماوية على ما كان يذهب إليه. وهم مع ذلك يضعفون طريق أرسطو في إثبات المبدأ الأول من طريق الحركة»^(١١٠).

إن هذا النص، الذي يكرر ناقد العقل العربي الاستشهاد به، مثني وثلاثاً، تشجيعاً على «الفلسفة المشرقية» ووصماً لها بأنها محاولة من ابن سينا لإحياء «عقيدة صابئة حوران» و «وثنية الساميين القديمة»^(١١١)، بحاجة، كمعظم النصوص التي يستشهد بها ناقد العقل العربي، إلى تدقيق.

أولاً - فابن رشد يفتتح أولاً النص بالقول: «وقد رأينا في هذا الوقت كثيراً من أصحاب ابن... قد تأولوا على ابن سينا هذا الرأي». وتسترقفنا هنا للحال الإشارة إلى كثرة أصحاب ابن سينا في «هذا الوقت». فما أبعدنا إذًا، عن مقدمة المقدمات التي انطلق منها ناقد العقل العربي عندما اقتتح عرضه لما أسماه «قراءة أهل المغرب لفلسفة أهل المشرق» بالقول: «لم تكن سمعة ابن سينا في الأرساط الفلسفية بالمغرب والأندلس على ما يرام».

ثانياً - علاوة على «كثرة الأصحاب» فإن التحديد الزمني بـ «هذا الوقت». أي وقت تصنيف ابن رشد لكتاب «تهافت التهافت» في نحو العام ٥٧٦ - ٥٧٧ هـ (بحسب

= بوحدة الوجود؟) (لحن والتراث)، ص ٣٢٠، عافلاً عن أن هذا السؤال لا يمكن، لا من منظور إستمولوجي ولا من منظور أيديولوجي، أن يطرح بالنسبة إلى ابن رشد الذي يفترض فيه أنه ممثل خط دفع العقل البرهاني في مواجهة «اللاعقل عرفاني» للثاقلين بعبء وحدة لوجود من غلاة المتصوفة.

(١١٠) «تهافت التهافت»، ص ٦٣٩ - ٦٤٠.

(١١١) إن ناقد العقل العربي، إذ يؤكد ذلك مستعيناً بمص للمستشرق دي بور (لحن والتراث)، ص ٣٦٥، يخفل عن أنه كان هو نفسه، في مقالته عن «ابن سينا وفلسفته المشرقية»، قد أكد لا على طابعها «السامي» بل «الفارسي» بقوله إن ما أراده ابن سينا هو «إنشاء فلسفة مشرقية ذات خصوصية قرمية فارسية»، وبإضافته: «كانت الفلسفة المشرقية السبئية إذن إحدى تحليلات الوعي القومي الفارسي المهزوم، ولكن لحي دوماً، المنتطع إلى استعادة نعسه باستمرار وبكبرياء» (لحن والتراث)، ص ٢١٨.

الكرونولوجيا التي وضعها جمال الدين العلوي لمؤلفات ابن سينا^(١١٢) - يُحضر إلى الذهن حقيقة قد نكون بقيت غائبة عنه في بادئ الرأي، وهي كون أكثر من مئة وخمسين سنة قد مرت على وفاة ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، وأكثر من ذلك أيضاً على تاريخ ضياع كتابه في «الفلسفة المشرقية». ومن ثم فإن ما يقوله «أصحاب ابن سينا» بعد مرور كل تلك المدة أدخل في باب التهكن منه في باب التيقن، بالنظر أولاً إلى عدم وجود مستند من النص، وبالنظر ثانياً إلى البعد في المكان فضلاً عن البعد في الزمان، وبالنظر ثالثاً إلى هالة «الأسرار» التي كانت أحاطت به «الفلسفة المشرقية» كما يستدل على ذلك من قول ابن طفيل نفسه في مفتتح تقديمه لرسالة حي بن يقظان.

ثالثاً - إن النص نفسه يقول إن أصحاب ابن سينا المعاصرين لابن رشد «قد تأولوا على ابن سينا هذا الرأي»، ممتنعاً عن إسناده إلى ابن سينا أو إلى نص مباشر له. ويبدئي أن ما يتأول على لسان ابن سينا لا يلزم ابن سينا، ولا سيما أن ابن رشد يسوق رأي الإسكندر الأفروديسي توكيداً منه على مفارقتها - لا على مطابقتها - لرأي ابن سينا.

رابعاً - إن محور التأول والاجتهادي لأصحاب ابن سينا هو تقويلهم إياه إنه «ليس يرى أن ههنا مفارقة»، وهذا في موضع ردهم لشك من يشكك في خروج ابن سينا على «مذهب المشائين» الذي يقرر - بعكس الظاهر من منحى ابن سينا الثنائي - «أن ههنا جسماً بسيطاً غير مركب من مادة وصورة»^(١١٣).

خامساً - معنى «اللامفارقة» هذا - وهو عينه الذي يتخلص من قول الإسكندر بأنه «لا بد من أن تكون ههنا قوة روحانية سارية في جميع أجزاء العالم» - هو هو في نظر المتأولين من أصحاب ابن سينا «المعنى الذي أودعه في فلسفته المشرقية»، ومن ثم لا مبرر عندهم للائتمانة برأي الإسكندر للتشكيك في رأي أصحابهم: فهو في محصلة الحساب رأي واحد، وفي الحالين تاقب للمفارقة.

سادساً - وإنما لتوكيد هذه اللامفارقة سمى ابن سينا فلسفته، كما يتأول عليه «أصحابه»، «المشرقية». فهو ما سماها كذلك لأنه يعتقد اعتقاد «أهل المشرق» بأن «الآلهة هي الأجرام السماوية»، بل سماها كذلك لأن اعتقاد «أهل المشرق» هذا يلزم عنه وجوباً القول باللامفارقة: فالإله في هذا الاعتقاد ليس مفارقاً لجسم السماوي، بل

(١١٢) انظر: «المعنى الرشدي»، ص ١٠٠.

(١١٣) «تهافت التهافت»، ص ٦٣٨.

هو وإياه شيء واحد. ويديهي أنه لو صح أن ابن سينا كان يعتقد هو نفسه ذلك الاعتقاد الوثني بألوهية الأجرام السماوية - كما يفترض ناقد العقل العربي - لما كان وجد في الأندلس أو في المغرب «أصحاباً» له يدافعون عن معتقده، ولما كان ابن رشد نفسه دخل وإياهم في نقاش وأورد دفاعهم. فأصحاب ابن سينا المزعومون أولئك وابن رشد نفسه هم جميعاً أبناء فضاء عقلي ديني واحد، وم كان هذا الفضاء ليفسح أي مجال لاعتقاد وثني صرخ من قبيل القول بألوهية الأجرام السماوية. والواقع أن النص نفسه يصرح على نحو لا يقبل التباساً بأن مدار النقاش إنما هو حصراً حول «واجب الوجود» وهل هو مفارق أو غير مفارق. وواضح من النص أن ابن رشد ينتصر لرأي الإسكندر في أنه ليس مفارقاً، بل سار كالروح في جميع أجزاء العالم. وواضح أيضاً من النص، أن أصحاب ابن سينا يقولون هم أيضاً باتفاق أصحابهم في الرأي مع الإسكندر. ومن هنا كان إلزام ابن رشد لهم في الجملة الأخيرة من النص: فما داموا يقولون - ويقولون في الوقت نفسه ابن سينا - بأنه «ليس ههنا مفارق»، فلم يصفقوا إذاً، «طريق أرسطو في إثبات المبدأ الأول من طريق الحركة»، وهو الطريق الأصح والأمثل لإثبات «اللامفارقة»^(١١٤)؟

سابعاً - ثم عن أي «مشرق» يتحدث النص؟ أعن المشرق الأدنى أم المشرق الأقصى (= مشرق المشرق)؟ ومن المقصود بـ «أهل المشرق»؟ أهم المعاصرون أم القدماء؟ أما أن يكونوا من المعاصرين (القرن الخامس الهجري نسبة إلى ابن سينا، والقرن السادس الهجري نسبة إلى «أصحاب ابن سينا») وأن يكونوا في الوقت نفسه من الوثنيين من عبدة الكواكب، فهذا ما يتنافى والدستور الديني لدولة الخلافة العربية

(١١٤) هل كان أرسطو يقول فعلاً باللامفارقة كما يفترض لإسكندر وابن رشد تصريحاً وأصحاب ابن سينا ضمنياً؟ الواقع أن الباحثين المختصين بمكر المعلم الأول لا يتفقون بصدد هذه النقطة. وفي نظر مختص كبير بالدراسات الأرسطية مثل بيير أويانك، فإن أرسطو نفسه ليس متفقاً مع نفسه بصدد مفارقة «المحرك الأول» أو عديمها ففي «السماع الطبيعي»، الذي وضع فيه نظرية الحركة، يبدو مبدلاً، من منطلق البنية الميكانيكية لنظريته هذه، إلى اعتبار «المحرك الأول» غير مفارق. ولكنه في «ما بعد الطبيعة» ينتصر لرؤية ثيولوجية ميتافيزيقية للمحرك الأول، ويؤكد على تعالیه وتجوده، وعلى الطبيعة النفسية، لا الميكانيكية، لوظائفته كمحرك للأجرام السماوية: قوة العشق التي تجذب العاشق إلى معشوقه (نظر مساهمة بيير أويانك عن «أرسطو واللقبون» في: «تاريخ الفلسفة» (Histoire de la Philosophie)، بإشراف بريس باران، موسوعة لابلاد، منشورات غاليلار، باريس ١٩٦٩، ج ١، ص ٦٥٤).

الإسلامية التي ما أقرت بنصاب «المعاهدين» لآ لأهل الكتاب من يهود ونصارى (كما من صابئة ومجوس بمقتضى الآية السابعة عشرة من سورة الحج). وإنه لأمر له دلالة من هذا المنظور أن يكون وثنيو حران قد اضطروا - إذا صدقت رواية ابن النديم - إلى أن يتدينوا بدين الصابئة حتى يضمّنوا لأنفسهم نصاب أهل الدمة. وأما أن يكونوا من القدماء؛ فإن تأليه الكواكب لم يكن ديانة موقوفة على أهل المشرق من بابليين وكلدانيين وأنباط ممن قد يكون الحرائيون آخر ذرية من ذرائهم^(١١٥). فعبادة الكواكب كانت هي الديانة الرسمية لأكبر حضارتين «مغربيّتين» في العصور القديمة: ليونانية والرومانية. والأدهى من ذلك أنها لم تكن عبادة تجريدية كما في الديانات الكوكبية لدى قدماء الساميين، بل كانت عبادة تجسيمية. وحسبنا هنا أن نستعرض أسماء أشهر آلهة اليونان والرومان ووظائفها: المشتري = زفس = جوبيتر: إله الرعد، المريخ = أريس = مارس: إله الحرب، الزهرة = أفروديت = فينوس: إلهة الجمال، زحل = قرونوس = ساتورن: إله الرمان، عطارد = هرمس - مركور: إله السفر والتجارة.

ثامناً - يبقى سؤال أخير: إلى أي حد يصح وصف «أصحاب ابن سينا» الذين يحاورهم بن رشد بأنهم «سينيون»؟ فتأويلهم «للفلسفة المشرقية»، من منطلق تأكيد لامفارقة المبدأ الأول واتبائه في العالم وربطه لأجزائه بقوته الروحانية ينم عن قراءة «إشراقية» لتلك الفلسفة الضائعة؛ وهي القراءة التي انتصرت في المشرق مع أيلولة وراثتها - من جراء مفارقة التسمية - إلى شيخ حكمة الإشراق السهروردي وفلاسفة النور من ذريته؛ وهي القراءة عينها التي يبدو أنها انتصرت في المغرب أيضاً بقدر ما وجدت أبرز متابع لها، أو بالأحرى أبرز مبدع لها، في شخص ابن طفيل. وليس بعيد أن يكون على رأس «أصحاب ابن سينا» - الذين يشير إليهم ابن رشد ولا يسميهم - ابن طفيل نفسه. وعلى أساس هذا الفرض وحده نستطيع أن نفهم الطابع الشفهي لما يحكيه

(١١٥) خلافاً لموقف ناقد العقل العربي الذي لا دأب له سوى التشنيع على «عقيدة صابئة حران» و «رؤية الساميين قدامى» كان أرسطو - الذي يتماهى الجابري مع ابن رشد في اعتباره المرجع الذي لا مرجع قبله أو بعده للعقل والعقلانية - ينظر بعين التقدير الكبير إلى الكلدانيين وإلى ديانتهم الكوكبية. وقد أشار مراراً، كما في «ما بعد الطبيعة» و«في السماء»، إلى أن «الحكمة كانت قد كملت عندهم»، وهذا على وجه التحديد من حيث كانوا يعتقدون أن «الأجرام السماوية آلهة» (والمعبر هنا لابن رشد نفسه في «تفسير ما بعد الطبيعة»، ج ٣، ص ١٦٨٨، وكذلك تلخيص السماء والعالم، ص ٨٨).

ابن طفيل : مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

ابن رشد من تأولات أصحاب ابن سينا على صاحبهم . فهو يقول ويكرر القول «قالوا» ، ويحدد أن ذلك كان «في هذا الوقت» ، بدون أن يحيل قارئه إلى نص مكتوب . وهذه قرينة على أن المسألة كلها تتعلق بحوارات ومتحورين . وهل لنا أن نتصور حوارات من هذا القبيل لا يكون على رأس المشاركين فيها ابن طفيل - الشريك الأول والأقدم لابن رشد في «الصناعة» - وهذا على الأقل قبل أن «يقطع» معه لاحقاً ويجهر بعدائه لنمط «العقل والعقلاء» الذي يمثل؟ أياً يكن من أمر ، فإن ابن رشد ، الذي يحصي على ابن سينا أنفاسه ويحاسبه حساباً عسيراً على كل شذوذ له عن صراط «المعلم الأول» ، لا يعود ، لا في «تهافت التهافت» ، ولا في جميع كتاباته اللاحقة ، إلى الإتيان بذكر الفلسفة المشرقية . وهذا ما يؤكد أنه كان ، مثله مثل غيره ، صفر اليدين من بضاعتها . فليس في تاريخ الفكر الفلسفي في الحضارة العربية الإسلامية من رجع إلى النصوص ودقق في النصوص وبنى فعل التفلسف بالذات على إعادة قراءة ما سبقت قراءته من النصوص مثل ابن رشد . ولو وقع على نص لابن سينا يدل دلالة ما على «تهرمس» أو «تفونص» أو «تسمعل» أو «تمشرق» أو «تولئن» أو غير ذلك مما يرميه به ناقد العقل العربي من ذات اليمين ومن ذات الشمال ، وكان مسح به الأرض مسحاً كما يقال . ذلك أن تحدي ابن رشد الأكبر مع ابن سينا ، أن هذا انشق عن المنظومة الأرسطية من داخلها ، لا من خارجها . ومن ثم فإن ابن رشد غالباً ما يقتصر دوره كشارح وكمفلسف معاً على «تصحيح» ما «حرّفه» ابن سينا من أقاويل أرسطو . ولو أن ابن سينا خرج خروجا نهائياً على المنظومة الأرسطية وصار صاحب «فلسفة مشرقية» بكل المعاني اللاعقلانية و «اللابرهانية» التي يحملها ناقد العقل العربي لهذه الفلسفة ، لما كان ابن رشد في حاجة إلى أن يدخل في حوار النقدي معه ، ولكان أخرجه من أفق تفكيره وحول خصومته المستديرة له إلى قطيعة نهائية . فابن سينا ما احتل في المتن الرشدي تلك المكانة الواسعة التي احتلها ، وإن سلباً ، إلا بصفته «مبتدعاً» في مذهب معلم المشائين . أما لو ثبت عليه «الكفر» الصريح بأرسطو «الإلهي» فلكان أمره أكل إلى أسوأ من مصير الكتم المهميل ، وكان ابن رشد سكت عنه سكوتاً مطبقاً يعادل الحكم بالإعدام .

والواقع أنه إن تكن فقرة ابن رشد المخصوصة في «تهافت التهافت» عن «الفلسفة المشرقية» فقرة خرساء في ما يتعلق بمضمون هذه الفلسفة ، فإن المتن الرشدي العام ينطق به بالمقابل بصوت عالٍ . فعلى حين أن جميع من تحدثوا عن «الفلسفة المشرقية»

بعد ضياع نصها الأساسي، بدءاً بالسهروردي ونهاية بابن طفيل، قد اضطروا إلى أن يتخيلوا ويخترعوا من عندهم، وبالإحالة إلى مذهبهم الخاصة، نسخة بديلة لا تمت إلى النسخة الأصلية بصلة غير الاسم، وبدلالة مغايرة تماماً لدلالته عند ابن سينا، فإن ابن رشد هو وحده الذي استطاع، من حيث لا يلوي ولا يقصد، أن يتيح إمكانية إعادة بناء الجسم المادي للفلسفة المشرقية. فنو تأتى لباحث من الباحثين أن يعود إلى كتابات ابن رشد، ولا سيما في «تهافت التهافت» وشروح «السماع الطبيعي وما بعد الطبيعة»، ويجرد منها جميع أقاويل ابن رشد في تصحيح أقاويل ابن سينا وبيان مخالفتها للمذهب الأصلي للمعلم الأول، ويعيد نظمها في جسم نظري متماسك، لخرج بأشبه صورة وأصدقها عن لأصل الضائع. ذلك أن فلسفة ابن سينا المشرقية، كما أكدنا ونكرر التوكيد، ليس لها من مضمون آخر ومن غائية أخرى سوى الانفكاك من أسر المنظومة الأرسطية من دون الخروج عليها، وإعادتها إلى نصابها من المرونة - بعدما تكلست على أيدي التلاميذ والشرح - بحيث تسمح بالاجتهاد وصولاً إلى حد الابتداء، أو حتى «الهرطقة»، ولكن ليس إلى حد «الكفر». فابن سينا «المشرقي» هو، في محصلة الحساب، متمرد على الكنيسة المشائية، ولكنه ليس مؤسساً لديانة جديدة.

دليل ألوهية الكواكب؟

إن تكن فقرة ابن رشد الشديدة الإبهام في «تهافت التهافت» عن الفلسفة المشرقية قدمت لناقد العقل العربي المفتاح المنشود لقراءة «وثنية» لهذه الفلسفة، فقد بقي يعوزه، بعد المفتاح، الدليل. وهذا الدليل قد وجده ناقد العقل، كما يصرح، في تعديل أدخله ابن سينا على لمنظومة الفارابية ليجعل الأجرام السماوية تحس وتتخيل علاوة على أنها تعقل. فالفارابي كان أكد في السيامة المدنية أنه «ليس في الأجسام السماوية من الأنفس، لا الحساسة ولا المتخيلة، بل إنما لها النفس التي تعقل فقط». ولكن ابن سينا، إذ شاء أن يجعل «الأجرام السماوية من طبيعة إلهية»، جعلها أيضاً «ذات نفوس تحس وتتخيل». وهذه النقطة التي افترق بها ابن سينا عن الفارابي هي عينها التي «يختلف فيها المشرقيون عن المغربيين (= اليونانيون: أرسطو)». وقد تبدو هذه المسألة ثانوية إذا أخذنا بمعزل عن علاقتها بالعناصر الأخرى في المنظومة. أما إذا نظرنا إليها من خلال هذه العلاقة فإننا سنكتشف أنها قضية جد أساسية. ذلك أن الهدف من ذلك التعديل، الطفيف في ظاهره، ليس في واقعه أقل من «تأسيس الاعتقاد

في الطبيعة الإلهية للأجرام السماوية باعتبار أنها ذوات نفوس روحانية متجوهرة بنفسها، تحس وتتشكل وتعقل». وإذ يورد ناقد العقل العربي هنا مرة أخرى فقرة ابن رشد في «تهافت التهافت» عن الفلسفة المشرقية، يعود إلى التوكيد من جديد. «وأوضح أن ما يقوله ابن رشد هنا، على لسان معاصريه، ينسجم تماماً مع ما أبرزناه من كون ابن سين قد عمد إلى تعديل نظرية الفيض الفارابية... من أجل أن يؤسس رأيه لقائل بكون الأجرام السماوية تحس وتشكل بالإضافة إلى أنها تعقل، الشيء الذي لا يمكن التسليم به إلا إذا سلمنا بكونها ذات طبيعة إلهية». ولئن يكن ابن سين قد انتصر للمذهب المشائي في قدم لعالم، فليس ذلك إلا ليقول بأن «الكواكب قديمة أيضاً». فابن سين لم يقل بقديم العالم كما «قال به أرسطو والفارابي»^(١١٦) وبين رشد أيضاً، بل قال به على «مذهب أهل المشرق»، أي أنه قال بنوع خاص من قدم العالم يقتضي القول بروحانية الكواكب وألوهيتها. وذلك - وليس أي شيء آخر - هو ما كان يهمه: تأكيد اعتقاد معين، أي فلسفة دينية تقوم على الاعتقاد بروحانية الكواكب وألوهيتها^(١١٧).

ولا داعي هنا إلى أن نعود إلى المنظومة الفارابية. فنحن نسلم بأن الفارابي نفى عن أنفس لأجسام السماوية قوة الحس والتخيل، ولم يقر لها إلا بقوة التعقل^(١١٨). بل نحن نسلم أيضاً بأن ابن سين قد يكون أَوْ من انفرد من فلاسفة الإسلام بالقول بأن الأجسام السماوية تتخيل، مصادقين بذلك على ما قاله ابن رشد في رده على الغرالي في المسألة السادسة عشرة [= «في إبطال قولهم إن نفوس السموات مطعمة على جميع الجزئيات الحادثة في العالم»]: «هذا الذي حكاه [= الغزالي] لم يقه أحد من الفلاسفة في علمي إلا ابن سين: أعني أن الأجرام السموية تتخيل، فضلاً على أن تتخيل

(١١٦) على حد علمنا لم يقل الفارابي بقديم العالم، بل قال على العكس في كتاب «الجمع بين الحكيمين» أن «هذا ظن قبيح مستنكر بأرسطوطاليس الحكيم»، وأكد في التنبيه على السعادة توكيداً قاطعاً بأن «العالم محدث».

(١١٧) «نحن والثرث»، ص ١٥٢ - ١٦٦. والتسويد من الجابري.

(١١٨) هذا على الأثر في كتاب «السياسة المدنية». أما في «التعليقات» - إن صححت نسبتها إليه - فقد أكد على العكس في التعليق ٥٥ أن «الفلك يعقل الأشياء ثم يتخيلها» بخلاف صينينا - نحن البشر - إذ «نحن نتخيل الشيء أولاً ثم نعتقد»، وأضاف في التعليق ٧٨ أن «الكواكب تتخيل أشياء فيصير تخيلها سبباً لحدوث أشياء... وقد يكون تخيلها سبباً لإيقاع تخيلات في نفوسنا فتبعض على فعل أشياء» (انظر: التعليقات للفارابي، تحقيق د. جعفر آل ياسين، دار المناهل، بيروت ١٩٨٨، ص ٥٢ و ٥٧).

خيالات لا نهاية لها»^(١١٩). لكن السؤال الذي يطرح نفسه حالاً: أي الموقفين هو الأكثر تمشيئاً مع تأليه الأجرام السماوية؟ أم القائل بأن ليس لها سوى قوة التعقل، أم ذلك القائل بأن لها، فضلاً عن قوة التعقل، قوة التخيل؟

إن خطورة السؤال لا تكمن فيه بحد ذاته. فالمسألة كلها غدت مادة معرفية مينة منذ أطاح العلم الحديث بكل العمارة الفلكية الأرسطية وسحب من التداول العلمي فكرة «العقول المفارقة» و«النفوس الفلكية» سواء أكانت متعلقة أم متعلقة ومتخيلة معاً. ولكن السؤال يرتدي قدراً كبيراً من الأهمية بالإحالة إلى الإشكالية التي يؤسسها. فعند ناقد العقل العربي أن إضافة قوة التخيل إلى قوة التعقل في الأجرام السماوية تعدل القول بالوحيثها. والحال أنه يندر أن تقع في مباحث تاريخ الأفكار على إشكالية مبنية على أساس معرفي «ملغوم» قدر بناء هذه الإشكالية. فالتعقل المحض هو عند مؤسس المشائية وظيفة إلهية بامتياز [= الله العقل الذي يتعقل ذاته]. ويقدر ما أن الأجرام السماوية ذات طبيعة إلهية ومتحركة بغائية التشبه بالعقل الإلهي، فليس لها من وظيفة هي الأخرى سوى التعقل. ولكن موضوع تعقلها ليس ذاتها كما شأن العقل الإلهي الأول، بل ما تعقله هو هذا العقل ذاته؛ ومن هنا كان وصفها بأنها عقول ثوان. والقوة التي لهذه العقول على التعقل الدائم بالفعل تعود إلى براءتها من المادة. فلو كانت متقومة بالمادة لكانت انشغلت بها عن التعقل ولصارت تعقل تارة وتارة لا تعقل. ولكنها ليست بريئة أيضاً من المادة بإطلاق: فهذا امتياز محصور بالعقل الإلهي الأول. فهي ليست آلهة، بل أجسام إلهية. وكل جسم، فلا بد من أن تكون لها مادة ما. ولكن بحكم طبيعتها الإلهية، فإن مادتها أصبح أن يقال فيها إنها لامادية. وبالفعل، إن أرسطو يستعير من الفلاسفة الذين تقدموه مصطلح «الأثير» - كعنصر خامس مباين للعناصر الطبيعية الأربعة المعروفة: الهواء والنار والتراب والماء - ليمسّم به المادة اللامادية التي تتقوم بها الأجسام السماوية. لكن الإشكال الذي ترك المعلم الأول بابه مفتوحاً - ومنه سيدلف ابن سينا -، أن الأثير على كونه أشرف العناصر يبقى عنصراً، وبالتالي ضرباً من مادة. ومن ثم إذا كان فعل الحس والتخيل يرتبط بالمادة ارتباطاً فعل التعقل بالصورة اللامادية، فقد بات السؤال مشروعاً: أليس للأجسام السماوية، على رتبها من الشرف والتعالي، قدرة ما على الحس وعلى لتخيل؟

(١١٩) «تهاقت التهاقت»، ص ٧٤٦.

في الإجابة عن هذا السؤال ذي الطبيعة «الهرطوقية»، بدأ ابن سينا متردداً بعض التردد. ففي التعليقات على حواشي كتاب النفس قال: «ليس بمنكر أن يكون للأجرام السماوية ضرب من الحس لا يحتاج فيه إلى انفعال واستحالة، بل يكون كحال القمر في استضاءته بالشمس»^(١٢٠). وفي المبدأ والمعاد، الذي التزم فيه بأن يحذو حذو «المشائين المحصلين»، لكن ليس حذو العل بالعل، يقول بنوع من الازدواجية: «لكل قلت نفس محركة تعقل لخير، وله بسبب الجسم تخيل»^(١٢١). أما في «الشفاء» فيبدو أشد حسمًا. ففي المقالة التاسعة من «الإلهيات» يجزم بأن النفس التي تحرك الفلك السماوي لها تخيل وتصور للجزئيات، وأن هذه النفس المحركة جسمانية وغير عوية من المادة، وأن صلتها بالفلك السماوي قصة نفسنا الحيوانية بذاتها، مع فارق واحد وهو أن تعقلها تخالطه المادة. إذ إن تصوراتها وتخيلاتها وإدراكاتها تتم كلها بواسطة الجسم. ويختم بالقول بعبارة تطابق حرفياً ما قاله في «المبدأ والمعاد»: «فيكون إذًا، لكل فلك نفس محركة تعقل لخير، ولها بسبب الجسم تخيل، أي تصور للجزئيات وإرادة للجزئيات»^(١٢٢).

لا مراء إذًا، في أن ابن سينا عدل في المنظومة الفارابية. ولكن ليس في اتجاه تصعيدي، بل في اتجاه تسقيلي إن جاز التعبير. فالفارابي كان جعل النفس على ثلاث مراتب: نفس الجسم السماوي ونفس الحيوان الناطق ونفس الحيوان غير الناطق. كما وزع قوى النفس إلى أربع: القوة الناطقة والقوة لنزوعية (- الغريزية) والقوة المتخيلة والقوة الحساسة. وقد جعل هذه القوى الأربع جميعاً للحيوان الناطق. أما الحيوان غير الناطق فقد استبقى له ثلاثاً من دون الناطقة. و«أما أنفس الأجسام السماوية فهي مبيئة لهذه الأنفس بالنوع، مفردة عنها في جواهرها... وهي أشرف وأكمل وأفضل جوداً من أنفس أنواع الحيوان التي لدينا». وبصفتها كذلك، فإنها غنية عن القوى الثلاث، النزوعية والمتخيلة والحساسة، لأن مثل هذه القوى لا يحتاج إليها إلا من كان أسيراً من الحيوان للمادة التي هي «أنقص» مراتب الوجود و«أخسها». وبما أن «الأنفس التي هي للأجسام السماوية مثبثة من ألحاء النقص التي في المادة» - وحتى في الصورة

(١٢٠) «أرسطو عند العرب»، ص ١١٦.

(١٢١) «المبدأ والمعاد»، مصدر آف الذكر، ص ٦٧.

(١٢٢) ابن سينا: «الشفاء»، «الإلهيات»، تحقيق لأب قناتوي وسعيد زيد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٠١.

ما دامت الصورة لا تتقوم إلا بالمادة كما يقضي بذلك قانون الوجود في العالم السفلي قعر اقمر - فليس لها، ولا يجوز أن يكون لها سوى القوة التي «تعقل فقط»، أي القوة الناطقة. وحتى هذه القوة الناطقة لا تقال عن «أنفس الأجسام السماوية» إلا باشتراك الاسم. ذلك أن القوة الناطقة التي للإنسان تعقل معقولاتها في الغالب «من الأشياء التي هي في مواد»، بينما الأنفس السماوية، «الأرفع رتبة بجواهرها من أن تعقل المعقولات التي هي دونها» - أي المعقولات العائدة إلى العالم السفلي والتي تلبسها المادة - لا تعقل المعقولات إلا بجواهرها و «تلك هي الجواهر المفارقة للمادة»^(١٢٣). إذاً، ويدون أن بتطرف الفارابي إلى حد اعتبار الأجسام الفلكية من طبيعة إلهية وقد يكون ذلك مظهر آخر من مظاهر «علمانيته» النسبية - فإنه يجعل لها مرتبة من الشرف والكمال والتبرؤ من النقص أعلى من أن يحوجها إلى قوة التخيل التي هي قوة دونية ليس من شأنها أن تدرك سوى الجزئيات من دون الكليات، وكم بالأولى الكليات الجوهرية المفارقة للمادة.

والحال، أن تدخل ابن سينا على المنظومة الفارابية يأتي في الاتجاه المضاد. فهو يلبس على الأنفس الفلكية ما برأها منه الفارابي، ويعزو إليها - تماماً كموجودات عالم الكون والفساد السفلي - تخيلاً وإدراكاً وإرادة للجزئيات. وبدلاً من أن يجوهرها ويجوهر معقولاتها في «جواهر مفارقة للمادة»، وبدلاً من أن ينفي عنها حتمية الخضوع لقانون المادة والصورة، اللتين هما في نظر الفارابي «أنقص المبادئ وجوداً»، يرسسها في نفس الثنائية التي تحكم قانون الوجود في العالم دون فلك القمر: ثنائية النفس والجسم.

والحال أيضاً، أن هذا التطبيع لأنفس الأفلاك السماوية هو ما ينكره على ابن سينا ابن رشد الذي يعاود بناء الإشكالية في اتجاه تصعيدي، بله تأليهي. وما كان ابن رشد، في هذا القلب للاتجاه، مخيراً. فما دام قيّد نفسه بالعقيدة القويمة الأرسطية وحضر فعل التفلسف بتصحيحها وتحريرها مما «داخلها من التثنية»، فما كان أمامه مناص من أن يعاود تشريف ما خسسه ابن سينا. إذ بذلك كان يقضي مذهب المعلم الأول الذي صاغ إشكالية الأجسام الفلكية صياغة تأليهيّة. فـ «فيزياء أرسطو السماوية» - كما كان لاحظ محقق كتابه عن «السماء» - ما كان لها أن تدخل في مناقضة مباشرة للتصورات

(١٢٣) «السياسة المثالية»، ص ٣٢ - ٤١.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

الدينية للشعب اليوناني ولبرؤى الشيولوجية لموروثه عن أقدم التقاليد»^(١٢٤). وهذا ما جعله يصُرح في أكثر من موضع - كما لو أنه متكلم مسلم أو لاهوتي مسيحي - بأن «العقل يشهد للنقل، وهذا بدوره يشهد للعقل»^(١٢٥). ويضيف - بعبارة شارحه الأكبر هذه المرة -: «إن جميع الأوائل الذين أقروا بالله والملائكة قد اتفقوا على أن هذا الجرم هو موضع الرحانيين والملائكة الذين لا يلحقهم كون ولا فساد»^(١٢٦). وهذا ما يؤكد أنه أيضاً في «ما بعد الطبيعة»: «إن ماثوراً منقولاً عن أقدم القدماء، وأخذت به الأجيال التالية في شكل أسطورة، يفيدنا بأن الجواهر الأول آلهة، وأن ما هو إلهي يحيط بكل ما هو طبيعي. أما سائر هذا لماثور فقد أضيف لاحقاً، بهدف إقناع الجمهور وإفادة التواميس ولصالح العام: وهكذا تُخلع على الآلهة الهيئة البشرية، أو تُصوّر بصورة بعض لحيوانات، عد عن أشياء أخرى من هذا القبيل. أما إن جردنا من هذا الماثور أساسه الأولي واعتبرناه وحده، ونعني به الاعتقاد بأن جميع الجواهر الأول آلهة، فعندئذ جاز لنا الظن أن هذا قول إلهي حقاً»^(١٢٧). والواقع أنه ابتداء من أرسطو سيستقر في التقليد المشائي توصيف الأفلاك بأنها «أجسام إلهية»، وإن أفلح فلاسفة الإسلام في تحاشي المأزق الذي كان سيوقعهم فيه هذا التعبير بالاستعاضة عنه بتعبير «الأجسام السماوية»^(١٢٨).

ولنأمن من هذا الموقع شبه التأليهي ميرفض ابن رشد بقوة التعديل الذي أدخله ابن سينا على المنظومة الأرسطية، وسيتركز أكثر اعتراضه على كون ابن سينا عزا «قوة

(١٢٤) بوك مورو في. لمدخل إلى كتاب أرسطو «في السماء»: (*Du Ciel*)، طبعة يونانية - فرنسية، منشورات «الأدب الجميلة»، باريس ١٩٦٥، ص ١١٨.

(١٢٥) أرسطو: «في السماء» ٢٧٠ أ، المصدر نفسه، ص ٨: «والقل عبد أرسطو هو الماثور والمعتقد الشائع بدون أن يرتبط بنص مقدم».

(١٢٦) ابن رشد: «تلخيص السماء والعالم»، ص ٨٧.

(١٢٧) أرسطو: «ما بعد الطبيعة» ١٠٧٤ ب، مصدر آف الذكر، ص ٦٩٨ - ٦٩٩. وسيشرح ابن رشد هذا القول بقوله: «إن تأول الإنسان أنهم إنما رمزوا بالآلهة وهم كانوا يريدون الجواهر الأول التي هي مبادئ الأجرام السماوية والأجسام السماوية، فسيكون تأويلاً صحيحاً ورمزاً يوافق الحق، لأنه إن عُبِّرَ بالآلهة عن شيء من الأشياء، فهذه الجواهر هي أحق بهذه العبارة» (تفسير ما بعد الطبيعة)، ص ١٦٨٩.

(١٢٨) انظر على سبيل المثال: «مقالة الإسكندر الأفروديسي في القول في مبادئ الكل» حيث مرد تعبیر «الجسم الإلهي» في عشرات المواضع.

التخيل» للأجسام السماوية، فأزّلها من رتبها الشريفة كجواهر عقلية مفارقة، لا تليق بها سوى القوة النطقية، وخفضها إلى الرتبة الدنية للموجودات ذات المواد والصور، والحيوانات ذوات الحواس. وهكذا يقول في «تلخيص ما بعد الطبيعة»: «إذ قد تبين أن الوجود لهذه الحركات [- حركات الأنلاك] إنما هو من حيث هي عقول... وإنه ليس لها من أجزاء النفس إلا هذا الجزء [= النطقي]، فإنه ليس يمكن أن يوجد للأجرام السماوية حواس: فإن الحواس إنما جعلت في الحيوان لموضع سلامته. وهذه الأجرام أزلية. ولا لها أيضاً القوى المتخيلة على ما يزعم ابن سينا؛ فإن القوى المتخيلة ليس يمكن أن توجد من دون الحواس... وأيضاً لو كان الأمر في الأجرام السماوية على ما يقوله ابن سينا من أنها تتخيل الأوضح التي تتبدل عليها، لم تكن حركتها واحدة ومتصلة لتعاقب اختلاف الأمور المتخيلة واختلاف الأحوال فيها»^(١٢٩). وفي «شرح السماء والعالم» يعود إلى القول: «قد وهم ابن سينا فظن أن الأجرام السماوية توجد لها قوة التخيل. ولو وجد لها التخيل لوجد لها الحواس، ولو وجدت لها الحواس لكانت لها لموضع السلامة، ولو وجدت لها لموضع السلامة لكانت تلحقها الآفات»^(١٣٠). وفي «تهافت التهافت» سيكرر الاعتراض نفسه، ولكن بالاستناد هذه المرة إلى الإسكندر الأفروديسي الذي كان يعده إلى حين تصنيفه رده على الغزالي سلطة مرجعية ثانية بعد سلطة المعلم الأول: «هذا الذي حكاه [= الغزالي] لم يقله أحد من الفلاسفة في علمي إلا ابن سينا: أعني أن الأجرام السماوية تتخيل. فضلاً على أنها تتخيل خيالات لا نهاية لها. والإسكندر يصرح في مقالته المسماة «مبادئ الكل»: «إن هذه الأجرام ليست متخيلة، لأن الخيال إنما كان في الحيوان من أجل السلامة. وهذه الأجرام لا تخاف الفساد، فالخيالات في حقها باطل. وكذلك الحواس. ولو كان لها خيالات لكان لها حواس، لأن الحواس شرط في الخيالات؛ فكل متخيل حساس بالضرورة، وليس ينعكس... والذي يلزم عن أصول القوم أن الأجرام السماوية لا تتخيل أصلاً، لأن هذه الخيالات، كما قلنا، إنما هي لموضع السلامة، سواء كانت عامة أو خاصة. وهي أيضاً من ضرورة تصورنا بالعقل، ولذلك كان تصورنا كائناً فاسداً. وتصور الأجرام

(١٢٩) ابن رشد: «تلخيص ما بعد الطبيعة»، تحقيق عثمان أمين، منشورات الإطارة العامة للثقافة في وزارة التربية والتعليم، مطبعة البهي الحلبي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٣٦.
(١٣٠) أوردها جمال الدين لعلوي عن مخطوط الشرح في هامش «تلخيص السماء والعالم»، ص ٢٢٤.

ابن طفيل: مدح «مغربي» للفلسفة المشرقية

السمائية إذ كان غير كثر ولا فاسد، فيجب أن لا يقترب بخيال، وأن لا يستند إليه بوجه من الوجوه»^(١٣١).

ودوماً من موقع تأليهي، يرى في الأجرام السماوية كائنات أزلية لا يسري عليها، كالألوهة نفسها، قانون الكون والفساد^(١٣٢)، يرفض ابن رشد أن يجري عليها نظير ما فعل ابن سينا - القاعدة الأولى في العلم لطبيعي الأرسطي: جدلية المادة والصورة. وفي ذلك يقول: «لو كان الجسم السماوي... مؤلفاً أيضاً من صورة ومادة على ما يعتقد بـ س [= ابن سينا]، لكان الشك لازماً ولا بد، وكان يجب أن يعتقد أنه يوجد شيء أزلي فيه إمكان الفساد من غير أن يفسد. لكن لما كان قد تبرهن أنه ليس يوجد شيء أزلي فيه قوة على الفساد، فواجب أن يكون الجسم السماوي بسيطاً لا مركباً... والتوهم الذي صير القوم إلى هذا الظن هو أنهم ظنوا أن ما تبين في آخر الأولى من السماع من أن كل جسم فهو مركب من مادة وصورة هو بيان عدم. وليس الأمر على ما ظنوا، لأن البرهان هناك [- في «السماع الطبيعي»] إنما كان على الأجسام الكائنة لفساد من جهة ما هي كائنة فاسدة، ومن قبل الكون والفساد تبين وجود الهيولى لها. وأما الأجرام الأزلية فليست مركبة من مادة وصورة على هذه الجهة»^(١٣٣).

واضح إذاً، للعيان أن القول بتخيل الأجرام السماوية أو بعدمه هو نقطة خلاف أساسية بين ابن سينا وابن رشد في نظريتهما الكسمولوجية. ومن منظور المطابقة مع السنة الأرسطية، فإن الغلبة ههنا هي بلا جدال أيضاً لابن رشد على ابن سينا. ولكن إذا شئنا أن نتخذ من القول بتخيل الأجرام السماوية أو بعدمه معياراً للوثنية الفلكية - صنيع ناقد العقل العربي - لكان لنا أن نقطع بأن موقف ابن رشد، النافي لتخيل الكواكب، يظل هو الأقرب بلا جدال إلى لوثنية النجومية من موقف ابن سينا لمثبت لتخيلها. فابن سينا لم يثبت لتخيل للكواكب - لأن من حيث لها أجسام فضلاً عن النفوس، ولأن من حيث لها مواد فضلاً عن الصور. أما ابن رشد فقد افترضها جواهر

(١٣١) «تهافت التهافت»، ص ٧٤٦ - ٧٥٥.

(١٣٢) لا ننسى أن العلم الحديث قد أثبت أن الكون مسرح لتركب ملايين النجوم وموتها في كل لحظة وأن، وأن لها، كالبشر القانين، أعماراً وأحلاً للبقاء والقاء، وأن المنظومة الشمسية - التي إليها انتماء عدمتنا - قد انتصف عمرها: فقد مضى على تولدها أربعة مليارات سنة، والأجل المتبقي لها أربعة مليارات سنة أخرى.

(١٣٣) «تلخيص السماء والعالم»، ص ١٨١ - ١٨٢.

بسيطة، غير مركبة من مادة وصورة، ومستغنية عن الحواس لأنها أزلية غير فاسدة، ومن طبيعة نفسية عقلية خالصة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الله عند أرسطو عقل محض، فلنا أن نلاحظ أن النظرية الرشدية التي تقول بالجوهرية العقلية الخالصة للأفلاك السماوية تظل هي الأقرب إلى التأليه النجمي من النظرية السينوية التي يصح القول فيها بأنها أقرب إلى التطبيع النجمي بقدر ما تنسب إلى الأفلاك السماوية مادة وحساً وتخيلاً. ولقد وجدنا بن رشد يقول بالفعل في «تفسير ما بعد الطبيعة» إنه «إن عُبر بالآلهة عن شيء من الأشياء، فهذه الجواهر هي أحق بهذه العبارة». ولسنا نريد بذلك أن نرمي ابن رشد - كما يرمي ناقد العقل العربي ابن سينا - بالوثنية الكوكبية. فهذا تخرص يتنافى تنافياً جذوياً مع الإبستمي الدينية التي صدر عنها جميع فلاسفة الإسلام بلا استثناء، بمن فيهم اليهود ولنصارى منهم. ولكن ما دام كل تأويل ناقد العقل العربي للفلسفة المشرقية المزعومة يتغيا التليس على ابن سينا بالوثنية الكوكبية، فلنقل إن القول بقوة التخيل للكواكب ينهض ههنا دليل نفي لا دليل إثبات. فليس أكثر زيفاً من إشكالية تزعم أن القول بتخيل الكواكب يعدل القول بألوهيتها، مع أنه لو أثبتت للكواكب الألوهية، لتعين - أول ما تعين - نفي قوة التخيل عنها^(١٣٤). ولهذا نبجح لأنفسنا أن نقول إنه ما حدث قط في تاريخ الفلسفة أن كُذِبَ على فيلسوف كما كُذِبَ على ابن سينا. وما كُذِبَ قط على ابن سينا كما كُذِبَ عليه بالقول إن تأليه الأجرام السماوية يمثل «العنصر الأساسي» في فلسفته المشرقية، وإن «هذا العنصر هو الذي يفسر [ساتر] العناصر ويمنحها دورها»، وإنه هو وحده وليس أي عنصر سواه هو ما «يفرض نفسه داخل أي نموذج يراد بناؤه للفلسفة المشرقية تلك»، لأن القول بأن «الأجرام السماوية تحس وتخيّل علاوة على أنها تعقل»، يضعنا لا أمام فكرة عارضة، بل أمام

(١٣٤) قنا ونريد القول إن براعة ناقد العقل العربي في صياغة إشكاليات معرفية مخلقة - أي إشكاليات تشل القدرة النقدية للمتلقي بقدر ما تأسره ضمن الأجوبة الممكنة دونما تفكيك للأسئلة نفسها - تبدو لامتناهية. وحسبي هنا الشاهد الثاني. فقد قرأت بحثاً لأستاذ جامعي أردني عن أبي الحسن العامري - الذي وجدنا ناقد العقل العربي يحتده واحداً من تلامذة ابن سينا في فلسفته المشرقية. وقد أنكرو البحث المشاؤ إليه - وهو في ذلك محق تماماً - صحة هذه التلمذة مورداً من التصور للعامري ما يقطع بأنه لم يكن من القائلين بألوهية الكواكب، مما يثبت بالتالي أنه لم يكن من أنصار «الفلسفة المشرقية». وهذا مثال جيد على كيفية الاشتغال الناجح للإشكالية المخلقة: الانتسار التسليمي لمقدمتها وحصر الفاعلية النقدية بالعسوى إلى استخلاص نتيجة مختلفة.

بن طفيل - مدح «مغربي» للفلسفة المشرقية

عقيدة دينية ذات طقوس منظمة قائمة على تعظيم الكواكب، بل على عبادتها^(١٣٥).

إنكار النبوة؟

تعصيماً للدعوى لوثنية الكوكبية المقومة كالممماك لكل بنيان الفلسفة المشرقية السينوية المزهوة، يردفها ناقد العقل العربي بدعوى إنكار النبوة على سبيل النتيجة الزنومية وتحصيل الحاصل. فناقذ العقل العربي لا يتردد في الإعلان عن أن ابن سينا «أهم، أو كاد، نظرية الفارابي في النبوة» لأن «النبوة لم تكن عتصراً من عناصر فلسفته المشرقية». لماذا؟ لأن ميل ابن سينا «إلى نظرية الحرائين في طبيعة الأجرام السماوية» جعله «لا يخص النبوة بالاعتبار نفسه الذي خصها به الفارابي وغيره من مفكري الإسلام». ولا يتردد ناقد العقل العربي في أن يضيف جازماً: «إن موقف ابن سينا الحقيقي من النبوة أقرب إلى موقف الرازي الطيب»^(١٣٦).

ما دليل ناقد العقل العربي على أن ابن سينا كان رازياً، منكراً للنبوة، أكثر منه فارابياً مثبتاً لها؟ إنه دليل واحد يتيم، وهو أن ابن طفيل قال، في أحد الاحتمالين اللذين وضعهما لمنشأ بطله حي بن يقظان، بإمكانية التولد الذاتي. ذلك أن «الاستغناء عن آدم كأب بيولوجي للإنسان يجعل من المفروغ منه الاستغناء عنه كأب روحي، أي كني؛ ومن هنا تصبح النبوة غير ذات موضوع أو على الأقل غير ضرورية»^(١٣٧).

والواقع أننا لهذا أمام دليل عجيب وفريد في نوعه بين الأدلة. ففي مسألة خطيرة كهذه، ذات حسنة وثيقة ومباشرة بالابستمي المركزية للعقل العربي الإسلامي، لا يجد ناقد هذا العقل من دليل آخر على إنكار ابن سينا للنبوة - كتعبير رئيسي عن «وثنيته الكوكبية» - سوى كون ابن طفيل قد صرح في قصته عن حي بن يقظان بـ «إمكانية الاستغناء عن آدم في عملية النشأة تلك».

ولا يكتفي ناقد العقل العربي بأن يدين ابن سينا من قم غيره، وبالوكالة عنه لا بالأصالة عن نفسه، بل يبني أيضاً على هذه الإدانة من قم الغير [وهنا ابن طفيل الذي يقلص ناقد العقل دوره إلى محض ترجمان أمين ناطق كالحاكي بصوت

(١٣٥) «نحن والتراث»، ص ١٧١ - ١٧٣. والتويد من الجابري.

(١٣٦) المصدر نفسه، ص ١٦٩ - ١٧١ و ٢٣٥.

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

سيده^(١٣٨) المحاكمة «الابستمولوجية» التالية:

«ماذا تقدمه «الفلسفة المشرقية» كبدل عن النبوة؟ هنا نصل بالفعل إلى العنصر الأساسي الذي يكشف بالفعل أسرار هذه الفلسفة. إنه الأجرام السماوية التي تتولى الوساطة بين الإنسان وواجب الوجود... فكون الأجرام السماوية تحس وتتخيل علاوة على أنها تعقل - وهذا ما يلح عليه ابن سينا - معناه أنها تقوم بدور الوساطة بين الله وواجب الوجود وبين عالم ما تحت تلك القمر، عالم الأرض والإنسان. بقوة التخيل «تؤثر فينا»، أي تتصل بنا اتصالاً مباشراً، وبقوة التعقل تعشق واجب الوجود، وبالتالي تظل على اتصال مستمر به. أما العقل الفعّال في الحكمة المشرقية فهو جزء من الأجرام السماوية، عقل من عقولها، ولا علاقة له بمفهوم ملاك الوحي في الدين، كما توهم بذلك بعض نصوص ابن سينا التي نهيئ إلى أنه إنما كتبها لـ «العامة من المتفلسفة»، وبالتالي لا تعبّر عن آرائه الحقيقية التي أودعها فلسفته المشرقية هذه. إن مفهوم «ملاك الوحي» في معناه الديني هو «المبعوث» من الله إلى النبي يحضر إليه ويغيب عنه، وهو بعد لا يتصل بغير النبي من أبناء البشر. أما العقل الفعّال في تصوّر الحكمة المشرقية فهو دائم الحضور والاتصال، ليس بالنبي، بل بنفوس البشر جميعاً. يقول الشيخ الرئيس: «والذي عليه المشرقيون أن الاستكمال التام بالعلم إنما يكون بالاتصال بالفعل بالعقل لفعّال. ونحن إذ حصصنا الملكة [ملكة الاتصال به] ولم يكن عائق، كان لنا أن نتصل به متى شئنا. فإن العقل الفعّال ليس مما يغيب ويحضر، بل هو حاضر بنفسه؛ إنما نحن نغيب عنه بالإقبال على الأمور الأخرى، فمتى شئنا حضرناه». وهذا ما يؤكد ما أبرزناه من أن الفلسفة المشرقية هذه لا حاجة لها إلى النبوة أصلاً، لأن الاتصال كما رأينا ليس مقصوراً على شخص بعينه، هو النبي أو الرسول، بل إن بابه مفتوح أمام الجميع: العقل الفعّال حاضر دوماً ونحن «متى شئنا حضرناه»^(١٣٩).

أولاً - إن أول ما سنلاحظه هنا هو القلب المبالغ والعنيف للمعايير الابستمية. فقد كان كل ظننا حتى الآن، امتداداً إلى مصادرة ناقد العقل «المشرقي» الكبرى، أن الابستمي التي يصدر عنها هذا العقل «اللاهوتية الاتحاه» بالمضادة مع الابستمي «العلمية والعلمانية الاتحاه» للعقل «المغربي». ولكن ها هي ذي الفلسفة المشرقية السنيوية

(١٣٨) نذكر هنا «شفة» الجابري القائلة: «إن مقارنة دقيقة بين قصة حي بن يقظان لابن سينا ونفس القصة لابن طفيل تكشف عن أن هذه شرح تلك» («نحن والتراث»، ص ٢٣٥).

(١٣٩) المصنوع نفسه، ص ١٧٠ - ١٧٤.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة لمشرقة

المزعومة، المعدودة حتى الآن أتم تعبير عن الترجمة الديني للعقل «المشرقي»، تدان لإنكارها المزعوم للنسبة. فكان إثبات النبوة قرينة على «العلمانية» مثلما إنكارها قرينة على «اللاهوتية».

ثانياً - وعلاوة على هذا القلب الصارخ للمعايير، فإن المسلمة الضمنية التي يسند إليها ناقد العقل «المشرقي» محاكمته هي أن الممثل السينوي لهذا العقل ما استغنى عن النبوة في فلسفته المشرقية - التي هي نموذج تام لفلسفة دينية - إلا لأن الوثنية الفلكية قد أغنته عنها. فمع عبادة الكواكب تغدو النبوة «غير ذات موضوع أو على الأقل غير ضرورية». والحال، أن هذه المصادرة لا تجد ما يؤكدتها في تاريخ الأديان. فصحيح أن ديانات نجومية بعينها، مثل الديانة اليونانية أو الرومانية القديمة، لم تعرف ظاهرة النبوة (وإن تكن قد عرفت ظاهرة العرافات والوحي الكهاني)، ولكن هذا بالتحديد من حيث إنها - إذ أبحنا لأنفسنا هذا التعبير - ديانات «مغربية». أما لديانات النجومية السامية - الجائر وصفها هنا أيضاً بأنها «مشرقية» - فقد عرفت ظاهرة النبوة قبل الديانات السماوية وظلت تعرفها من بعدها أيضاً. وحسبنا هنا أن نسوق مثال الديانة النجومية الكسدينية التي وصل شيء من تراثها إلى الحضارة العربية الإسلامية من خلال كتاب «الفلاحة النبطية» الشهير الذي نقله إلى العربية ابن وحشية. فهذه الديانة النجومية كانت ديانة نبوية بملء معنى للكلمة. فالكسديون الذين عبدوا الكواكب السبعة وأقاموا لها الهياكل والأصنام بأسمائها كانوا يقولون بنبوة آدم ويعزون إليه «مصحفاً» ويسمونه «أبا البشر»، لا لأنه كان أول إنسان على الأرض، بل لأنه هو علم البشر اللغة - «التي سمى بها كل شيء على وجه الأرض» - والحساب والفلاحة والصنائع وعلم العقاقير والطلسمات والمهن كلها بوحى مباشر «من جميع الآلهة» [لا من القمر وحده] كما يضيف لنص]. كذلك فإن صابئة حوران، الذين يصرون ناقد العقل لعربي على أن يفتخروا لديانتهم الكوكبية صلة نسب مباشر بالفلسفة المشرقية السينوية المزعومة، كانوا يقولون بضرب من النبوة، ولكن «لا عن طريق الوحي» كما يذكر المسعودي، بل من خلال الاعتقاد بأن النبين «نفوس طاهرة صفت وتهذبت من أدناس هذا العالم، فاتحدت بهم مواد علوية، فأخبروا عن الكائنات قبل كونها وعن سرائر العالم وغير ذلك»^(١٤٠). بل

(١٤٠) انظر: «كتاب الفلاحة النبطية»، ترجمة أبي بكر بن وحشية، إصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، مطبوع بالتصوير عن مخطوطة أحمد الثالث، مكتبة طوب قابو سراي، استانبول ١٩٨٩، ج٧، ص ٤٨ - ٥١.

إن الشهرستاني، الذي يدير في ملله ونحله حواراً مطولاً بين الصابئة «أصحاب الروحانيات» والحنفاء «أصحاب النبوات»، لا يستبعد أن يكون الحرائيون - على كونهم لم يأخذوا ديانتهم من «مشكاة النبوة» - قد «أخذوا أصولها وقوانينها مؤيدة بالوحي»، و «هؤلاء هم الصابئة الأولى الذين قالوا بعاذيمون وهرمس، وهما شيت وإدريس، ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء»^(١٤١). ويقدم لنا ابن سينا نفسه من هذا المنظور قرينة ثمينة. ففي المرة اليتيمة التي يأتي بقلمه ذكر مباشر للحرائيين يدرجهم في عداد الأمم النبوية ويجعل مرتبتهم فيها معادلة للأمة النبوية الأولى، أي العبرانيين. ففي معرض كلامه عن «ماهية المعاد» في مطلع الفصل الأول من رسالته «الأضحوية»، يقول: «إن أكثر الأمم على أن الأوراج كانت موجودة قبل الأبدان، وأنها كانت في لعالم الذي هو ثانٍ بعد هذا العالم... وكثير من هؤلاء الأكثرين يرون أن أبا الإنسان وأمه وردا من ذلك العالم. ولهذا قيل: في كتب الأولين وصحف الأنبياء المتقدمين، الإسرائيليين والحرائيين، شواهد وحجج. بل لهذا في كتاب الله تعالى، المنزل على نبيه المصطفى محمد (ص) شاهد واضح، وهو قوله تعالى: «يا أيها النفس المطمئنة، إرجعي إلى ربك راضية مرضية». ولا يقال رجوع إلا إلى حيث منه الورود»^(١٤٢). وإذا رجعنا إلى مصادر أقدم من المصادر العربية الإسلامية وأقرب منها اتصالاً بصابئة حران وحقيقة معتقدتهم، وجدنا المصادر السريانية تتحدث عن «نبي حران» الذي عاش في مفصل التاريخ الميلادي عما قبل الميلاد، واشتهر باسم «بابا»، وترك كتابين في النبوة عُرفا بـ «كتاب بابا الأول» و «كتاب بابا الثاني». وتجمع هذه المصادر على «أن الحرائيين

(١٤١) انظر: «الملل والنحل» لشهرستاني، بهامش الفصل في «الملل والأهواء والنحل» لابن حزم، طبعة دار المعرفة المصورة، بيروت ١٩٧٥، ج ٢، ص ٩٤.

(١٤٢) «الأضحوية في المعاد»، مصدر آف الذكر، ص ٨٩ - ٩٠. والواقع أنه في هذا الكتاب تطالنا الحساسية اللينة لابن سينا كاملة غير مشوية ولا متقيدة بقيود العقل البرهاني، الشيء الذي يبيح له أن يستشهد بنحو من عشر سور من القرآن، وأن يخوض - أو يكاد - في موضوع المفاضلة بين الأديان ليقول: «إن الشريعة الجالية على لسان نبينا محمد (ص) جاءت بأفضل ما يمكن أن تجيء عليه الشرع وأكملته. ولهذا صلح أن يكون خاتم النبيين والشرائع، وآخر الملل. ولهذا المعنى قال عليه السلام: «بُعِثْتُ لأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ». ولولا أن الشأن في تعريف كمال هذه الشريعة وفقيلتها، وقصور الشرائع المتقدمة عن شأوها، أجل من أن يُجعل حشواً في فرض غيره لأخلت به» (نفسه، ص ١١٠). وإزاء نص كهذا، فإن السرد يحتمل خجلاً إذ يجد نفسه مضطراً إلى الخوض في نقاش علمي للفتح تهمة «الوثنية الفلكية» عن ابن سينا.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

بالغوا في عبادة آلهتهم، وفي الاهتمام بما كتبه كهنتهم وأنبياؤهم، وفي مقدمتهم بابا، فطاعوا كتبه وحفظوها متمسكين بها على أنها ملهمة^(١٤٣). والواقع أنه ينبغي أن نغادر الجناح السامي من الشرق الآسيوي^(١٤٤) إلى الجناح السنسكريتي الآري حتى نطالعنا حساسية دينية مغايرة تتمثل في أنظمة لاهوتية وفلسفية تجهل الواقعة النبوية وتنكر الحاجة إليها أصلاً^(١٤٥).

ثالثاً - هنا تحديداً يثور السؤال المتعلق بتحديد طبيعة تدخل ابن سينا على المنظومة الفارابية في م يخص نظرية النبوة. فهل صحيح، كما يؤكد ناقد العقل العربي بمنتهى الوثوقية، أن «ابن سينا أهمل نظرية لفارابي في النبوة»، أو على الأقل «تركها في الظل» لـ «أنها، أي النبوة، لم تكن عنصراً من عناصر فلسفته المشرقية»^(١٤٦)؟

هنا نجد أنفسنا أيضاً أمام عملية قلب لا للمعايير، بل للمواقف المعرفية ومنطوقات التصوص. فابن سينا لم يخرج عن المنظومة الفارابية، أو لم يمتنع بالأحرى عن التقيد تقيداً دقيقاً بحرفها إلا بقدر ما بدت له «علمانية» أكثر مما ينبغي، ولا تبوء النبوة المقام العالي الذي يفترض بها أن تتبوأه في الفضاء العقلي الديني للحضارة العربية الإسلامية. وبالفعل، كنا وجدنا الفارابي لا يجعل من نصاب آخر للنبي سوى القوة المتخيلة التي تبقى أدنى مرتبة من القوة الناطقة التي للفيلسوف، الشيء الذي يترتب عليه - كما لامة على ذلك ابن طميل - تقديم الفلسفة على النبوة، إن لم يكن تصريحاً فضمنياً على الأقل^(١٤٧). والحال أن ابن سينا، الذي كان أرهف حساسية دينية من الفارابي، وأشد

(١٤٣) فولوس غبريال وكعين أفرام البستاني: «الأدب السريانية»، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩، ج ١، ص ٤٢ - ٤٣.

(١٤٤) لا ننس أن الحواريين كانوا آراميين.

(١٤٥) إتعا بالاتصاف مع تراث الهندوسي نستطيع، على الأرجح، أن نفهم الموقف الذي تفرد به الرازي، دون سائر فلاسفة الإسلام، بإنكار النبوات - أو بتعبير أدق إنكار الحاجة إليها - وإنشاد إمكان روحانية غير نبوية.

(١٤٦) «نحن والتراث»، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(١٤٧) الواقع أن الفارابي يذو بعض التردد - لأسباب تتصل به «التقية» في أرجح الطن - في إشهار تلك المتناصلة «بضمية» وبدلاً من المفاضلة فإنه ينزع في «آراء أهل المدينة الفاضلة» إلى الجمع بين النبي والفيلسوف في شخص «الإمام»، «الرئيس الأول للمدينة الفاضلة». وذلك مو محصل قوله من أن الإنسان، إذا استكمل قوته المتخيلة والناطقة معاً، والنس كل مسافة فاصلة بينه وبين لعقل العقل، «كان هذا الإنسان هو الذي يوحى إليه، فيكون الله، عز وجل، يوحى =

تقييداً بالفضاء العقلي للمدينة الإسلامية (لا المدينة الفاضلة بإطلاق كما الشأن عند الفارابي)، ما كان له أن يقدم الفيلسوف على النبي، ولا حتى أن يساوي بينهما. وعلى هذا النحو، وبدون أن يخل بالتراتب الهرمي الذي أقامه المعلم الأول ما بين قوى الإنسان الحاسة والمتخيلة والمتعلقة، لا يتخرج من أن يضيف إلى هذه القوى الثلاث، كيما يفسر واقعة النبوة، قوة رابعة عليا يقترح تسميتها «القوة القدسية». ذلك أن من البشر من يكون لديه، بما أوتي من قوة فطرية على لحدس، استعداد قوي للاتصال المباشر بالعقل الفعال. و «هذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس حتى لا يحتاج في أن يتصل بالعقل الفعال إلى كثير شيء وإلى تخريج وتعليم... كأنه يعرف كل شيء من نفسه. وهذه الدرجة أعلى درجات هذا الاستعداد، ويجب أن تسمى هذه الحالة من العقل الهولائي عقلاً قديماً، وهي من جنس العقل بالملكة، إلا أنه رقيق جداً، ليس مما يشترك فيه الناس كهم... فيمكن إذاً أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس لشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية إلى أن يشتعل حدساً، أعني قبولاً لها من العقل الفعال في كل شيء... وهذا ضرب من النبوة، بل أعلى قوى النبوة. والأولى أن تسمى هذه القوة قوة قدسية، وهي أعلى مراتب القوى الإنسانية»^(١٤٨).

وهذا لا يعني أن ابن سينا قد تخطى تماماً، في تطويره الخاص لنظرية النبوة، عن مفهوم الفارابي عن القوة المتخيلة. فهذه القوة تظل ضرورية عنده لتفسير واحدة من الخواص الأساسية للقوة النبوية: «الإنذار بالكائنات، والدلالة على المغيبات». ذلك أن خيال الأنبياء ليس من طبيعة واحدة وخيال البشر العاديين. فهذا الأخير يبقى أسير المحسوسات وهو ينظر «إلى أسفل». أما خيال الأنبياء فينظر «إلى أعلى» منعقاً «بالكلية» من شاغل المحسوسات، ومنفتحاً بالكلية أيضاً على عالم المعقولات. وذلك هو السر في «الأمور العظيمة التي يراها ويسمعا الأنبياء وهي محجوبة عن إحساننا». ف «تخيّل النبي» يمثل أعلى درجات «سطوع العقل الفعال وإشراقه على نفسه

= إليه بتوسط العقل الفعال... فيكون بما يفرض منه إلى عقله المتمتع حكيماً فيلسوفاً ومتعللاً على التمام، وبما يفرض إلى قوته المتخيلة نبياً مثلواً بما سيكون... وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة. وتكون نفسه متحدة بالعقل الفعال على الرجة الذي قلنا... فهذا هو الرئيس الذي لا يرأسه إنسان آخر أصلاً» (آراء أهل المدينة لفاضلة، ص ١٢٥ - ١٢٧).

(١٤٨) كتاب «النفس» من طبعات «الشفاء»، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

بالمعقولات». ولئن تميّز الميسوف عن الناس العاديين بما يكون له من «كمال النفس الناطقة»، فإن النبي يتميّز عن الفيلسوف نفسه بما يكون له من «كمال لنفس الناطقة وكمال الخيال معاً»^(١٤٩).

لنفتح قوماً لنقول إننا لسنا هنا بصدد استعراض لشمم نظرية ابن سينا في النبوة، بل فقط بصدد بيان الحدود التي خرج بها ابن سينا عن المنظومة الفارابية؛ وهذا ليس في اتجاه إنكار النبوة كما يقوله ناقله اللدود، بل في اتجاه المزيد من التثبيت لها. ولكن ما دامت تهمة الخروج على المنظومة الفارابية تستهدف التشكيك في لعقيدة الدينية لابن سينا والتليس عليه - بعد شبهة التسمعل - بشبهة اوثنية الفلكية، فلنذكر أن ابن سينا لا يكتفي بمحض تفسير نفسي للنبوة، بل يردفه بضرب من تفسير اجتماعي. وفي سياق هذا التفسير الاجتماعي يتكشف لابن سينا وجه أقل ما يمكن أن يقال فيه إنه وجه إنسان قويم العقيدة وغير خارج على سنة الجماعة، كما يرميه خصمه القديم الغزالي، وخصمه الجديد الجابري. فلئن يكن ابن سينا قد أكد في «طبيعات الشفاء» على الوظيفة لروحية للنبي، فإنه في «الهيئات الشفاء» يؤكد على وظيفته الاجتماعية. فمادام الإنسان بالتعريف وبالضرورة حيواناً اجتماعياً، وما دام لاجتماع البشري لا ينعقد له عقد إلا بقانون ينتظمه وشرع يقرّ العدل بين أعضاء الجماعة، فإن وجود النبي، من حيث هو مشرّع هذه المروءة، يفدو ممكناً، بل ضرورياً. وليس النبي وحده، بل خليفة النبي أيضاً. - فالجماعة - المدينة الفاضلة عند الفارابي لا تموت بموت النبي الذي أسسها بتشريعه لها. ويقاؤها من بعده يحوجها إلى من يخلف النبي وإلى من يلزمها بطاعته حتى لا يتشتت شملها وينقرط عقدها؛ ولهذا تحديداً يختم ابن سينا المقالة العاشرة والأخيرة من «الهيئات الشفاء» بفصل عن «الخليفة والإمام». وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن المسلمين، كما يقول الأشعري، ما اختلفوا قط واقتتلوا كما اختلفوا على الخلافة واقتتلوا على الإمامة، فلنا أن نتخذ من موقف ابن سينا هنا من مسألة «الخلافة وإمامة» معياراً على انتسابه أو عدم انتسابه إلى فرقة بعينها من فرق المسلمين. ولحال، أن قرآن ثلاثاً في نص ابن سينا الختامي هذا تنهض شاهد، إن لم يكن على استقامة معتقده - وهو تعبير لا نستحبه كثيراً - فعلى الأقل على تعالیه الفلسفي فوق الفِرَق وانقساماتها. فهو أولاً يساوي - أو يكاد - في نصاب الخلافة بين النص

(١٤٩) «المبدأ والمعاد»، ص ١١٩.

والإجماع. ف «الاستخلاف بالنص [إن وجد النص] أصوب» دعماً للتنايد بين الأمة. ولكن إن لم يوجد النص، فبالإجماع الإمة. ولا يشترط ابن سينا في خليفة النبي لا النسب القرشي ولا النسب العلوي. ولا يعتبر أصلاً لا النص ولا الإجماع ضماناً نهائية تعتق الخليفة من المحاسبة. فالعدل في الحاليين شرط في الخليفة، فإن ظلم جاز الخروج عليه وتنصيب الخارج عليه بدلاً عنه إذا كان يتوافر فيه هو نفسه شرط العدل، وعلى الأخص شرط العقل والحس لسياسي [«حسن الإيالة» بحسب تعبير ابن سينا]. وهنا موضع القرينة الثانية على التعالي الفلسفي لابن سينا على لفرق ومنطق الفرق. فبدلاً من أن ينتصر انتصاراً انقسامياً لثالث الخلفاء الرشدين أو لرابعهم، فإنه يقول بأن خير خليفة ممكن هو من جمع بين عقل عمر وعلم علي. ثم إن الخليفة - وتلك هي ثلاثة القرائن - لا بد له من شركة الإمام والحال أنه، خلافاً لما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، فإن ابن سينا لا يقيم هنا بين الخلافة والإمامة المعارضة التي تقيمها كبريات فرق المسلمين. فعنده أن الخلافة أصل والإمامة فرع. ورئيس الأمة بلا منازعة هو الخليفة، وإنما الإمام يشركه في بعض المعاملات، «وهي المعاملات التي تؤدي إلى ابتناء أركان المدينة»، وحصراً منها «المناكحات والمشاركات الكلية» من قبيل عقود البيوع والقروض والهبات، بما يمنع الغبن ويحفظ النسل والمال والميراث. ولا يتعدى دور الإمام هذه الفرعيات. وهذا كافٍ وحده لنقول عن ابن سينا. قبل أن نغلق القوس، إنه إن لم يكن بالضرورة سنياً فإنه لم يكن إمامياً، لا سبيعياً ولا اثني عشرياً. وبدلاً من «الفرق بين الفرق» فإنه ما كان له كفيلاسوف، أي شغيلة من شغيلة العقل، إلا أن يكون مع «الجمع بين الفرق».

رابعاً على سعة المكانة التي يفسحها ابن سينا لنظرية النبوة في تأليفه الكبرى والصغرى على حد سواء (ونخص هنا بالذكر - بالإضافة إلى «الشفاء» - «النجاة» و«المبدأ والمعاد» و«الرسالة في أحوال النفس»)، فلا بد من أن نعترف، مع حسين مروة، بأنه «ليس لابن سينا نظرية مستقلة في مسألة النبوة والوحي النبوي. وإنما موقفه في هذه المسألة متصل بنظريته في المعرفة ومتفرع عنها»^(١٥٠). وهذا الحكم يصدق أيضاً على أبرز من تقدمه من فلاسفة الإسلام في صياغة إشكالية النبوة، أي الفارابي. والحال، أن رد نظرية النبوة إلى نظرية المعرفة الفارابية - السنيوية، معناه ردها، في

(١٥٠) حسين مروة: «التزعات المادية في الفلسفة الإسلامية»، مصدر أنف الذكر، ج ٢، ص ٦٠٧.

التحليل الأخير إلى المنظومة الأرسطية . فأرسطو ما صار معلماً أول إلا بقدر ما أسر تفكير جميع التلاميذ الذين جاؤوا من بعده لمفهومه الذي لا يخفى من غرابة ومعاظلة معاً عن العقل الفعّال . فهذا المفهوم الخامض الذي جاء عرضاً في مقطع صغير من كتاب أرسطو «في النفس» قد أطلق عقاريت التأويل من قمقمها، ولا سيما في العصر الوسيط، الإسلامي والمسيحي على حد سواء، الذي هيمنت عليه، على نحو غير مسبوق ولا ملحوظ في تاريخ الفكر الفلسفي، الإبستمي الدينية الأخروية . ولا شك في أن مفهوم العقل الفعّال، على حمولته الميتافيزيقية، قدم لفلاسفة لإسلام الركيزة المعرفية لقراءة وضعية منطقية تقنية لواقعة النبوة بدون أن يصادموا مع ذلك مصادمة عنيفة الرؤية الدينية الخالصة، التي لا تقبل بنصاب آخر للنبوة سوى النصاب الإلهي بوصفها وحياً أو تبليغاً يتلقاه النبي أو الرسول من الله مباشرة، وبمشيئة ربانية لا بشرية .

وبما أننا لسنا بصدد مناقشة نظرية النبوة بإطلاق، بل فقط من حيث علاقتها بالفلسفة المشرقية السنيوية النافية لها - زعماء - من موقع الوثنية النجومية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: هل «أذل» ابن سينا فعلاً ظاهرة النبوة وجرداً من كل طابع قدسي متعال عندما ربطها بتقنية الاتصال بالعقل الفعّال؟ وبعبارة أخرى: هل صحيح أن الفلسفة المشرقية السنيوية، التي «لا حاجة لها إلى النبوة أصلاً»، قد شرعت، من خلال نظريتها في الاتصال، باب النبوة «أمام الجميع» ولم تعد تقصره «على شخص بعينه»، هو النبي أو لرسول؟

إن خطورة مثل هذا الاتهام لا تعود فقط إلى غائيته المباطنة لطرد ابن سينا من المدينة الإسلامية ولإشهاره - والتشهير به - خارجاً على شريعتها، بل كذلك إلى طبيعته التفتيشية (Inquisition): فما دام المطلوب تجريم ابن سينا بأي ثمن، فلا مانع من تعذيب النصوص لإجبارها على أن تنطق بما لا تبطنه . وعلى هذا النحو فإن ابن سينا الذي ما كان يتقزز من أحد كتقززه من «ملاحدة الفلاسفة ومهمجهم»^(١٠١)، يتم «تلحيده» وتقديم فلسفته، من حيث هي مشرقية حصراً، أي وثنية المنزع، طعمة لنيران محرقة عصرية لا تقل ضراوة عن محارق القرون الوسطى، هي المحرقة الأيديولوجية . وإنما بهدف اقتياد الشيخ الرئيس إلى هذه المحرقة يُقال لنا إن «العش الفعّال في تصوّر الحكمة المشرقية دائم الحضور والاتصال ليس بالنبي، بل بنفوس البشر جميعاً» وليس

(١٥١) «الإشارات والتنبيهات»، ص ٩٠٤.

من الصعب أن ندرك أين موضع الفخ في هذا القول: إنه في «الواو» العاطفة لـ «الاتصال» على «الحضور». فكل نظرية ابن سينا في فاعلية العقل الفعّال تقوم على الفصل، لا الوصل، بين «الحضور» و «الاتصال». فالعقل الفعّال إن يكن دائم الحضور بنفسه، فتحنّ لسنا دائمي الاتصال به بأنفسنا. فحضور العقل الفعّال من طرفه يقابله في الغالب غياب من طرفنا. وذلك هو مؤدى قول ابن سينا: «إن العقل الفعّال ليس مما يغيّب ويحضر، بل هو حاضر بنفسه؛ إنما نغيّب نحن عنه بالإقبال على الأمور الأخرى».

والواقع أن هذا القول، الذي «يهرطقه» ناقد العقل العربي، ليس قول ابن سينا، بل هو أولاً قول أرسطو نفسه. ففي ذلك المقطع المشهور من كتابه «في النفس» يقول - بعبارة ناقله القديم إلى العربية -: «لست أقول إنه مرة يفعل، ومرة لا يفعل، بل هو بعد ما فارقه على حال ما كان»^(١٥٢)، أي على حاله من الفاعلية. ولهذا أصلاً سمي «لفعّال» بصيغة اسم الفاعل المضاعفة. وعليه، فإن تدخل ابن سينا لا يضيف جديداً على مستوى حضور العقل الفعّال وفعالته الدائمة. وإنما تتمثل إضافته إلى النص الأرسطي بإشارته إلى أننا «إنما نغيّب عنه بالإقبال على الأمور الأخرى». وحتى ندرك المدلول الحقيقي لهذه الإضافة، فلا بد لنا من أن نستعيد النص في تمام سياقه. فابن سينا يفرّق، في ما يتعلق بجذلية الحضور والغياب، بين المحسوس والمعقول. فعنده أن حضور المحسوس شرط للإحساس به. وليس كذلك حال المعقول الذي يبقى حاضراً حتى وإن لم نتعقله. وفي ذلك يقول وهو يعنى على قول أرسطو: «أي ولما تكن الأمور العقلية مما يغيّب ويحضر مثل الجزئيات الحسية، كان لنا أن نعلم بملكة العلم، متى شئنا، مطلقاً. وأما الإحساس فليس لنا أن نحس بملكة الحس مطلقاً، بل إذا حضر المحسوس وقابلناه بالحاسة أو قريباً من الحاسة. وأما المعقول فحاضر لا يغيّب. ويجب أن تعلم أن المعقول هو كيف حاضر. والذي عليه المشرقيون أن الاستكمال التام بالعلم إنما يكون بالاتصال بالفعل بالعقل الفعّال. ونحن إذا حصلنا الملكة ولم يكن عائق، كان لنا أن نتحص به متى شئنا. فإن العقل الفعّال ليس مما يغيّب ويحضر، بل هو حاضر بنفسه. إنما نغيّب عنه بالإقبال على الأمور الأخرى. فمتى شئنا حضرناه. ولا كذلك المحسوس»^(١٥٣).

(١٥٢) أرسطوطاليس: «في النفس» (نقل إسحق بن حنين)، مصدر آف الذكر، ص ٧٥.

(١٥٣) التعليقات على حواشي كتاب النفس. في: «أرسطو عند العرب»، ص ٩٥.

واضح للعيان إذاً أن هذا النص القصير، الذي هو المستند اليتيم لناقد العقل العربي في تلميسه على ابن سينا بإنكار النبوة، لا يمت بصلة من قريب أو بعيد إلى نظرية النبوة. فهو محض نص جزئي في شروط معرفة المحسوس والمعقول. فشرط العلم بالمحسوس حضوره إلى ملكة الحس، على حين أن شرط العلم بالمعقول حضور ملكة العلم إليه، ليس أكثر ولا أقل. فذلك هو كل مؤدى النص. ولا شك في أن ثمة ههنا «باباً مفتوحاً أمام الجميع»، ولكن إلى علم المعقول حصراً، وبانقذر الذي لا يغنيّا عنه «الإقبال على الأمور الأخرى». ومع ذلك، فإن ناقد العقل العربي يتحكم بالنص بحيث يوجي وكأن باب العلم الذي يفتحه ابن سينا أمام الجميع هو باب علم النبوة.

هنا تحديداً يحضرنا النقد المر الذي كان نقد العقل العربي وجهه إلى ابن سينا لأنه ضيق باب الحق إلى الحد الذي جعله يقول في «الإشارات والتنبيهات»: «جس جندب الحق من أن يكون شريعة لكل ورد أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد»^(١٥٤). فإذا كانت النبوة، بحكم الإيمان الشخصي لابن سينا كما بحكم الاستمي الدينية لجملة الثقافة العربية الإسلامية، هي أعلى أشكال الحق، فأعظم به من افتتات على ابن سينا أن يقال إنه جعل من النبوة «شريعة لكل وارد»!

صحيح أن ابن سينا قد ربط واقعة النبوة، مثله مثل الفارابي من قبله ومثل ابن رشد من بعده، بالاتصال بالفعل الفعّال. ولكنه ما ربطها بهذا الاتصال بإطلاقه، كما يقول عليه ناقله اللدود، بل بجنس شديد الخصوصية منه بحيث يكاد يعدل اصطفاً إليها. فقد وجدناه يشترط في النبي «كمال النفس الناطقة وكمال الخيال معاً»، وأن يكون له «أعلى درجات الاستعداد» و«أعلى مراتب القوى الإنسانية»، وأن يكون اتصاله بالعقل لفعّال لا من طريق العقل الهولاني «مما يشترك فيه الناس كلهم»، بل عن طريق «العقل القدسي» الذي هو أعلى أشكال هذا العقل وأكثرها تفرداً. ومع أن هذا الضرب لنبيوي من الاتصال بالعقل الفعّال قد يبقى مرفوضاً من قبل المتمسكين بالمفهوم الديني المحض للنبوة، وموضع اعتراض من قبلهم بوصفه «وضعياً» و«علمانياً» أكثر مما ينبغي، فإنه لا مجال للشك بالمقابل في أن ابن سينا قد خرج لا على المنظومة الفارابية وحدها، بل على المنظومة الأرسطية نفسها حينما جعل للنبي، لا لفيلسوف، امتياز الاتصال بالعقل الفعّال بقوة حدس قدسية و«بلا تعلم بشري»، وهذا إلى حدّ حمته

على أن يقول: «هذا الإنسان [= النبي] كأن قوته العقلية كبريت، والعقل الفعّال نار، فيشتعل فيها دفعة ويحيلها إلى جوهره، وكأنه النفس التي قيل لها: «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، نور على نور»^(١٥٥).

خامساً - هنا تحديدأ يعود ناقد العقل العربي إلى التدخل فيقول: «أما العقل الفعّال في الحكمة المشرقية فهو جزء من الأجرام السماوية، عقل من عقولها، ولا علاقة له بمفهوم ملاك الوحي في الدين، كما توهم بذلك بعض ثنوص ابن سينا». وهنا أيضاً نقول إن في هذا القول افتتاتاً مضاعفاً على ابن سينا. فصحيح من جهة أولى أن لعقل الفعّال هو العقل العاشر والأخير من عقول الأجرام السماوية، ولكن هذا ليس في «الحكمة المشرقية» وحدها، بل في جماع الفلسفة العربية الإسلامية بقدر ما كانت تصبغ إشكالياتها تحت مظلة المنظومة الأرسطية. وليس صحيحاً من جهة ثانية أن ابن سينا هو وحده من رادف بين لعقل الفعّال ومفهوم ملاك الوحي في الدين. فقد فعل ذلك من قبله الفارابي، وفعله من بعده ابن رشد. الفارابي حينما قال: «العقل الفعّال هو الذي ينبغي أن يقال إنه الروح الأمين وروح القلم، ويسمى بأشياء هذين من الأسماء، ورتبته تسمى الملكوت وأشياء ذلك من الأسماء»^(١٥٦). وابن رشد حينما قال: «والذي يقول به القدماء في أمر الوحي والرؤيا إنما هو عن الله تبارك وتعالى، بتوسط موجود روحاني ليس بجسم، وهو واهب العقل الإنساني عندهم، وهو الذي تسميه الحذاق منهم لعقل الفعّال، ويسمى في الشريعة ملكاً»^(١٥٧).

والواقع أن هذه الترجمة لمصطلحات الفلسفة إلى مصطلحات الدين ليست محصورة بفيلسوف بعينه من فلاسفة الإسلام. فنحن نجدها لدى الكندي كما لدى إخوان الصفا كما لدى مسكويه، هذا عن السهروردي. وقد يكون تعبير «فلاسفة الإسلام» هنا غير دقيق. فتأول العقل الفعّال على أنه ملاك الوحي في الدين نلقاه أيضاً لدى النصاري واليهود من فلاسفة الحضارة العربية الإسلامية، ونخص منهم بالذكر هنا يحيى بن عدي وموسى بن ميمون. فنحن ههنا أمام نموذج ناجز عن كيفية اشتغال الاستمعي الدينية في الفضاء العقدي الخاص بالحضارة العربية الإسلامية. وما كان لابن

(١٥٥) «المبدأ والمعاد»، ص ١١٧.

(١٥٦) «السياسة المدنية»، ص ٣٢.

(١٥٧) «تهافت التهافت»، ج ٢، ص ٧٧٦.

سينا - ولا من قبله الفارابي، ولا من بعده ابن رشد - أن يشذ عن هذه الابستمي، وكم بالأحرى أن يخرج عليها. والواقع أن هذه الابستمي قد لا تكون خاصة بالحضارة العربية الإسلامية، بل شاملة أيضاً لكل الفضاء العقلي للعصر الوسيط بجناحيه الكبيرين العربي الإسلامي واللاتيني المسيحي، فضلاً عن البقية الباقية من الجناح اليوناني «الوثني» الذي انتهى بدوره إلى التعدين مع الأفلاطونية المحدثة (مرفوريوس، يامبليكوس)، بله إلى التنصر (يحيى النحوي). وبالفعل، أليس يقال إن الإسكندر الأفروديسي كان هو أول من «غالى في مكانة العقل الفعّال حتى انتهى إلى القول بأنه هو هو الله» (١٥٨)؟

سادساً - يبقى الدليل الأخير على كون ابن سينا أنكر النبوة، أو على كونه قال بإمكانية الاستغناء عنها، ونعني دليل «التولد الذاتي» لبطل ابن طفيل: إذ إن «الاستغناء عن آدم كآب بيولوجي للإنسان يجعل من المفروغ منه الاستغناء عنه كآب روحي، أي كني. وس هنا تصيح النبوة غير ذات موضوع، أو على الأقل غير ضرورية».

لقد سبق أن وصفنا هذا الدليل بأنه «عجيب» و «فريد في نوعه بين الأدلة». فتخيل يتخيله ابن طفيل، بعد قرن ونصف قرن من وفاة ابن سينا، يغدو «برهاناً» على أن هذا الأخير أبطل النبوة وأعلن عن إلغاء الحاجة إليها. ولكن بدون أن نتوقف هنا عند هذه القفزة الاستنتاجية التي يعزّ مثيرها في الاستدلال «المنطقي»، فإننا نسأل: هل تولّد حي بن يقظان من غير أب بيولوجي يعني فعلاً الاستغناء عن آدم «كآب روحي»، وبالتالي كني؟

الواقع أن القصة التخيلية عن التولّد الذاتي لحي بن يقظان لا تمت بصلة من قريب أو بعيد إلى أسطورة الإنسان الأول. فحي بن يقظان لم يكن أول إنسان يتخلق. فعندما تخلق في جزيرته (أو انتهى سفطه إليها طبقاً للرواية الثانية) كانت البشرية مكتملة العمران، وكانت الأمم قد تكوّنت، والملل قد نزلت. ولئن تخيل ابن طفيل يطله يتولّد من غير أب ولا أم (وليس فقط من غير أب) بيولوجيين، فما ذلك للاستغناء عن أب روحي، بل على العكس للتأكيد الجازم على دور هذا الأب الروحي، وهذا يكن ما في هذه الكلمة من معنى. فما تخلق من تلقاء نفسه في تلك الجزيرة العزلاء ليس ذات حي بن يقظان، ولا شحصه بتمام إنسانيته، بل فقط طبيئته ومادته. والحال أن الإنسان،

(١٥٨) من تقديم عبد الرحمن يدوي لكتاب «أرسطوطاليس في النفس»، مصدر آف الذكر، ص ٥.

كما يفيد الدرس الأرسطي بثأويله المحكوم بالابستمي الدينية للعصر الوسيط، ليس إنساناً بمادته، بل بصورته. وطينة حي التي اختمرت ما تمخضت وتخلقت إنساناً إلا عندما تعلق بها وتشبث «ذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى». فغياب الأب البيولوجي يقابله هنا حضور طاع لأب الروحي. وليس من ابن طلب هذا الأب كما طلبه حي. فلو كان له أب بيولوجي لكان دان له بمادته. ولكن بما أنه ليس له سوى أب روحي، فقد دان له بما أحيا منه مادته، أي صورته الروحية. وحي يقبل الوصف من هذا المنظور بأنه «قديس». فقد نضا عنه جسده - طينته الأرضية - ليتماهى تماهياً تاماً مع روحه، عطيته السماوية. وبكلمة واحدة، غدا لأبيه بالروح ابناً بالروح. وذلك هو تولّد ذاتي آخر له. فمن موجود طبيعي محض آل بنفسه إلى كائن روحي محض. وإن تكن للقديسين معجزتهم، فمعجزته هي هذه الولادة الثانية.

قد يُقال هنا إن هذه المعجزة - التحول إلى محض إنسان روحي - قد تمت بدون معونة من النبوة. هذا صحيح. ولكن ذلك ما دام حي فرداً مفرداً متوحداً. فالنبوة - وهذا ناموسها - ما وجدت للأفراد، بل للجماعات. وما دام حي أسير جزيرته العزلاء، فقد كانت تكنيه «قداسته». ولكنه لن يعرف الاجتماع البشري في أبسط أشكاله حتى يكشف واقعة النبوة وحتى يتحقق من ضرورتها: فليس غير النبوة لدى الجماعات ما يسد مسدّ القداسة لدى الأفراد. فالمتوحد في غابة يستطيع أن يتحول من وحش إلى إنسان، ولكن الناس في غاب الاجتماع البشري ما كانوا، لولا النبوة، إلا ليرتدوا وحوشاً. وذلك هو مغزى الفصل الختامي من قصة حي بن يقظان، وهو الفصل الذي يبدأ بلحظة لقائه بأول كائن بشري تقع عينه عليه: أبسال.

العلم الصاعد والشريعة النازلة

في كتابه «الفوز الأصفر»، وبعد أن يتحدث مسكويه عن قابلية الإنسان اللامتناهية للترقي وصولاً إلى تلك المرتبة «التي إن تجاوزها لم يكن إنساناً بل صار ملكاً كريماً»، يعقد فصلاً في كيفية الروحي فيقول:

«من فهم جميع ما رتباه في ما تقدم وحصله، علم أن المقام الذي انتهينا إليه غاية شرف الإنسانية والأفق الأعلى منه، وإن بلغه الإنسان كان متعرضاً لإحدى منزلتين: إما أن يترقى فيه أبداً ترقياً طبيعياً، ومعنى ذلك أن يديم الفكرة مدة حياته في جميع الموجودات لينال حقائقها، بقدر طاقته البشرية، فيقوى هاجسه ويحتد نظره وتلوح له

الأمر الإلهية تلوحاً أوضح من الأمور الأوائل التي تسمى بدائه العقول ولا يحتاج فيها إلى قياس برهاني - إذ البرهان هو تدرج من أوائل^(١٥٩) - وهذا التلوح في العقل أعلى منه وأنور وأبهر؛ وما أن تأتبه تلك الأمور من غير أن يرتقي فيها هو، بل تنحط تلك إليه لاتصالها به. ومثال ذلك أن الإنسان إنما ارتقى من قوة الحس إلى قوة التخيل، وارتقى من قوة التخيل إلى قوة الفكر، ومن قوة الفكر إلى إدراك حقائق الأمور التي في العقل، وذلك أن هذه القوى متصلة اتصالاً روحياً كما بينت في ما مضى، فربما عرض لها - من قوة قبول بعضها من بعض الآثار - أن تنعكس في بعض الأمزجة منحطة كما تصاعدت على سبيل الفيض، فيؤثر حينئذ العقل في القوة الفكرية، وتؤثر القوة الفكرية في القوة المتخيلة، وتؤثر القوة المتخيلة في لحس، فيرى الإنسان أمثلة الأمور المعقولة، أعني حقائق الأشياء ومبادئها وأسبابها كأنها خارجة عنه، وكأنما يراها بصره ويسمعها بأذنه. وكما إن النائم يرى أمثلة الأشياء المحسوسة في القوة المتخيلة ويظن أنه يراها من خارج... كذلك حل هذا المستيقظ إذا استغرقته هذه القوة الغالبة أخذته عن المحسوسات حتى كأنه غائب عنها، فيشاهد في القوة المتخيلة ما انحدر إليها من عل، فيرى ويسمع ما لا شك فيه، ولأن تلك الأمور مستقبلها وماضيها واحد - لأنها حاضرة معاً - فالأمر لائحة له، فيشاهد مستقبلها كما يشاهد ماضيها، فإذا أخبر بها كانت صحيحة، وإذا قابس بها أهل الحقائق من العلوم كانت موافقة، لأن المبادئ والعقل واحدة، وكذلك الحواقب والمصائر. فإذا أخبر بها من وصل إليها من أسفل بالفلسف اتفق رأيهما وصدق أحدهما الآخر بالضرورة، ويدير الفيلسوف إلى قبول ما يأتي به أكثر من مبادرة كل أحد، لأنهما متفقان في تلك الحقائق. إلا أن الفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل والآخر من عل. وكما إن المسافة بين السطح والقرار واحدة، ولكنها بالإضافة إلى من في القرار تسمى صعوداً، وبالإضافة إلى من في السطح تسمى هبوطاً، كذلك لحال في تلك العلوم والمشاهدات عند من يرتقي إليها وعند من تنحط إليه^(١٦٠).

ونحن نزعم أن ابن طفيل ما فعل شيئاً سوى أنه طَبَّقَ هذا «السيناريو» بعد أن كساه لحماً وعظماً وحَوَّلَهُ من استدلال عقلي جاف إلى قصة تدب فيها الحياة. فقد وجدنا

(١٥٩) هذا تعريف ممتاز للبرهان، وستكون لنا إليه عودة.

(١٦٠) مسكويه: «الفوز الأصغر»، تحقيق د. صالح عضيمة، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٧، ص ١٢٦ - ١٢٨.

بطله «حيًا» كيف ترقى من قوة الحس إلى قوة التخيل فقرة الفكر إلى إدراك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فمثل بذلك نموذجاً حياً للتصعيد نحو حقائق الأشياء. وما قد جاء - مع انتقاله من طوره التوحيدي إلى طوره الاجتماعي - دور اكتشاف الحقائق بإياها، ولكن بالتزليل. وذلك هو مغزى لقاءه بأبسال.

ففي جزيرة مجاورة من الجزيرة التي تولد فيها حي كانت انتشرت «ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدمين [= «صلوات الله عليهم» إضافة من خارج السياق السردي]، وكانت ملة محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالأمثال المضروبة التي تعطي خيالات تلك الأشياء وتثبت رسومها في النفوس حسبما جرت به العادة في مخاطبة الجمهور. فما زالت تلك الملة تنتشر بتلك الجزيرة وتتقوى وتظهر حتى قام بها ملكها وحمل الناس على التزامها»^(١٦١). وكان ممن نشأ في تلك الجزيرة فتیان فاضلان أحدهما أبسال والثاني سلامان، فتلقيا تلك الملة بالقبول وتفقها بمعانيها والتزما بجميع شرئعها. ولكن أبسال «كان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عشوراً على المعاني الروحانية وأطمع في التأويل، وأما سلامان صاحبه فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر وأشدّ بعداً عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل». وما كان أبسال وسلامان يعكسان بذلك إلا وجهين متقابلين لتلك الشريعة عينها: إذ كان فيها «أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدلّ على أن الفوز ولنجاة فيهما، وأقوال أخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة»^(١٦٢).

وهنا ينبغي أن نتدخل بدورنا على النص لنلاحظ ما ينطق به من مديونية لابن سينا. فأبسال وسلامان، مثلهما مثل حي بن يقظان نفسه، هما من الرموز التي تداولها ابن سينا. ولسنا نشير هنا إلى القصة التي تحمل عنوان «أبسال وسلامان» المنسوبة إليه - نحلاً على ما نعتقد - ضمن العديد مما ينسب إليه من الرسائل القصص^(١٦٣)، بل يتجه بنا الفكر إلى تلك العبارة التي وردت في «الإشارات والتنبيهات»، والتي يقول فيها ابن سينا وهو يفتتح القول في النمط التاسع «في مقدمات العارفين»: «إذا قرع سمعك في ما يقرعه، وسرد عليك في ما تسمعه، قصة لسلامان وأبسال، فاعلم أن سلامان مثل

(١٦١) «حي بن يقظان»، ص ١١٣.

(١٦٢) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(١٦٣) معلوم أن حنين بن إسحق كان نقل إلى العربية قصة بهذا العنوان من اليونانية، ثم تكاثرت بعد ذلك ذرية أبسال وسلامان في إخراجات شتى.

ضرب لك، وأن أبسالاً مثل ضرب لدرجتك في لعرفان إن كنت من أهله»^(١٦٤). وقد ساق ابن سينا هذا العنث ليكني به عن ازدواجية العارفين بين «أمر خفية فيهم وأمر ظاهرة عنهم يستنكرها من يستنكرها، ويستكبرها من يعرفها». فللإنسان، وثبماً لدرجته من العرفان، أن يكون سلامان في ظاهره، وأبسالاً في باطنه. ولكن ما هو عند ابن سينا شخص واحد بوجهين يغدو عند ابن طفيل شخصين مستقلين يرمزان لا إلى ازدواجية أهل العرفان، بل إلى ازدواجية الشريعة نفسها بين ظاهر وباطن، وبين ترويض في الدنيا وتزهد عنها، وكذلك بين طمأنينة الجواب وقلق السؤال. وهذه الازدواجية هي التي أدت إلى افتراق طريق الصديقين: فقد «تعلق سلامان بملزمة الجماعة لما في طباعه من الجبن عن الفكرة والتصرف، فكانت ملازمته للجماعة مما يدرأ الوسواس ويزيل الظنون المعترضة ويعيد من همزات الشيطان». أما أبسال «فقد تعلق بطلب العزلة لما في طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص في المعاني».

وهذه الازدواجية التي حتمت افتراق أبسال عن سلامان هي التي تأدت أيضاً إلى تلاقي أبسال وحي. فإذا قرّر قرار أبسال على الانفراد وعلى اعتزال الناس «بقية عمره»، ارتحل إلى الجزيرة المجاورة التي كان يحسبها عزلاء. وهناك التقى حياً وانعقدت بينهما الصلة الحميمة التي لا مناص من أن تنعقد بين متوحدين وجد كل منهما في الآخر شقيق نفسه. ولئن ندخل هنا في تفاصيل هذا اللقاء: فأهم ما فيه بإطلاق أن أبسالاً علّم حياً اللغة، فامتد على هذا لنحو جسر بين ما كان أسمه مسكويه «السطح والقرار»، فالتقى علم حي الصاعد بشريعة أبسال النازلة. فقد جعل أبسال يسأل حياً عن شأنه ومن أين صار إلى تلك الجزيرة، فأعصمه حي أنه لا يدري لنفسه ابتداء ولا أباً ولا أمّاً، ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول. «فلما سمع منه أبسال ووصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس، العارفة بذات الحق... لم يشك أبسال في جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله وملائكته ورسله وليوم الآخر وجنته وناره، هي أمثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان، فانفتح بصر قلبه وانقدحت نار خاطره وتطابق هناء المعقول والمنقول». وكذلك جعل حي يستفحص أبسالاً عن أمره، فوصف له هذا «شأن جزيرته وكيف كانت سيرتهم قبل وصول الملة إليهم، وكيف هي الآن بعد وصولها إليهم، ووصف له جميع ما ورد في

(١٦٤) «الإشارات والتنبيهات»، ق ٣ و ٤، ص ٧٩٠ - ٧٩٢.

الشرعية من وصف العالم الإلهي والجنة والنار والبحث والنشور والحساب والميزان والصراط، ففهم حي ذلك كله ولم ير فيه شيئاً على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم. فعلم أن الذي وصف ذلك وجاء به محق في وصفه، صادق في قول رسول من عند ربه، فأمن به وصدقه وشهد برسالته^(١٦٥).

ولكن هذا التطابق بين منقول أبسال، النازل ومعقول حي الصاعد ليس له - وهنا المأزق - محل اجتماعي. فإجرائياته تبقى سارية المفعول ما دام محله الجغرافي جزيرة عزلاء وما دام طرفاه اثنين لا ثالث لهما: أبسال وحي. ولأن حياً لم يفهم ذلك من الوحدة الأولى فقد مني بخيبة عظيمة وفشل ذريع في المهمة التي أخذها على عاتقه عندما انبرى للقيام بدور المصلح الديني. ذلك أن حياً، برغم ما انتهى إليه من تصديق وإيمان بكل ما أفاده أبسال من مبادئ الشريعة وأقوال رسولها، «بقي في نفسه أمران يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما، أحدهما: لمَّ ضرب هذا الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس في أمر عظيم من التجسيم واعتقاد أشياء في ذات الحق هو منزعه عنها ويرى منها؟ وكذلك في أمر الثواب والعقاب»^(١٦٦). والأمر الآخر: لمَّ اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للأموال والتوسع في المأكَل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والاعتراض عن الحق؟^(١٦٧). ومن ثم فقد أخذ على عاتقه أن يقصد الجزيرة المجاورة التي قدم منها أبسال ليصلح أهلها وليصحح فهمهم للشرعية بما يردها إلى روحانياتها الخالصة.

ولا شك في أن النقد الذي يضعه ابن طفيل ههنا على لسان حي جذري وغير

(١٦٥) «حي بن يقظان»، ص ١١٧ - ١١٨. والتصويد منا لتلفت النظر مرة أخرى إلى مدى تعذيب النصوص في القراءة الجابرية بقصة ابن طفيل. فإذا ينتهي الأمر بأبسال إلى أن يتطابق عند المعقول والمنقول، ويحي إلى أن يتطابق عند المنقول والمعقول، يجد ناقد العقل العربي الجبراً في نفسه ليقول إنه على عكس صنيع «المدرسة الفلسفية في المشرق في محاولتها الرامية إلى دمج الدين في «فلسفة» فإن «البديل الذي يطرحه ابن طفيل، بل المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس بكامل أعضائها، هو الفصل بين الدين والفلسفة. تلك هي الفكرة الموجهة في القراءة التي نقرها لقصة حي بن يقظان» («تحن والتراث»، ص ١٦٧ - ١٦٨).

(١٦٦) الإشارة الصمنية هنا هي إلى «طبيعة المادية لثواب والمقاب في الآخرة من أتهار من خمر وعسل، ومن حور وولدان، ومن تعذيب بالنار وتذويب جلود.

(١٦٧) «حي بن يقظان»، ص ١١٨ - ١١٩.

محبوق إليه في جراته. ولكن يبقى لحي علوه في ما تفوّه به من مآخذ على الشريعة. إذ إن «الذي أوقعه في ذلك كله ظنه أن الناس كلهم ذرو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة، ولم يكن يدري ما هم عليه من البلاهة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم، وأنهم كالأنعام بل أضل سبيلاً»^(١٦٨). وهكذا يعود إلى التدخل المحلّ الاجتماعي للشريعة، الغائب كل الغياب عن وعي حي وعن تجربته المديدة كمتوحد لا معرفة له بقوانين الاجتماع البشري. ومن هنا أصلاً مصدر فشله في مشروعه الإصلاحية. ذلك أن الحفاوة الكبيرة التي استقبل بها في بادئ الأمر من قبل أهل الجزيرة المجاورة، وفي مقدمتهم «كثيرها سلامان»، ما لبثت أن انقلبت إعراضاً ونفوراً عندما اتضح لهم أنه ما قدم إليهم إلا ليحولهم عن ظاهر ما أخذوا به من الشريعة إلى حقيقتها الأعمق. وهكذا، وما إن شرع حي في «تعليم وبت أسرار الحكمة إليهم» و«ترقى عن الظاهر قليلاً» و«أخذ بوصف ما سبق إلى فهمهم خلفه» حتى «جعلوا ينقبضون عنه وتشمئز نفوسهم مما يأتي به ويستخطونه في قلوبهم، وإن أظهروا له الرضى في وجهه إكراماً لغريته فيهم ومراعاة لحق صاحبهم أبسال». و«ما زال حي يستلطفهم ليلاً ونهاراً ويبين لهم الحق سرّاً وجهراً، فلا يزيدهم ذلك إلا نبوّاً ونفاراً» حتى «يئس من إصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم».

ذلك أن ما لم يأخذه حي بعين الاعتبار الكافي - وما كان له أن يفعل بحكم غرارة خبرته بالبشر - هو أن الناس على مراتب، وأن الخطاب لهم على قدر مراتبهم، وأن ذلك ما فعّله شارع الشريعة عندهم خاطبهم باللغة التي لا يطبقون فهماً لسواها. وهكذا، و«لم فهم أحوال الناس وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق، علم أن الحكمة كلها والهداية والتوفيق في ما نطق به الرسل ووردت به الشريعة، لا يمكن غير ذلك ولا يحتمل المزيد عليه». ومن ثم فقد «انصرف إلى سلامان وأصحابه فاعتذر عما تكلم به معهم ونبراً إليهم منه، وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة، وقلة الخوض في ما لا يعنيهم، والإيمان بالمشابهات والتسليم لها، والإعراض عن البع والأهواء، والاعتناء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور»^(١٦٩).

(١٦٨) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(١٦٩) المصدر نفسه، ص ١٢١.

وهكذا انتهى حي إلى طبقية معرفية صارمة. ففي أسفل الحضيض الجمهور وعامة العامة. وهؤلاء «لا ميبيل لهم إلى الحكمة ولا حظ لهم منها، قد غمرتهم الجهالة وراى على قلوبهم ما كانوا يكسبون». «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم». وهؤلاء ما وجد لهم من لشرعة سوى أوامرها ونواهيها، وأحكامها في «الببوع والربا والحدود والعقوبات»، ووعداها بالجنة ووعيدها ببجهم، إذ لولا ذلك لارتدوا وحوشاً كاسرة.

ويعلو هؤلاء العامة في الرتبة خاصتهم. ولهؤلاء ظاهر الشريعة وعقائدها المسلم بها ووجوب ملازمة أحكامها، والأخذ بحرف التنزيل ومجانبة مطب التأويل. ذلك أن «هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاه لها إلا بهذا الطريق، وأنها إن دفعت إلى بقاء الاستبصار اختس ما هي عليه ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء».

وفي أعلى المراتب يأتي هؤلاء «السعداء». وهم خاصة الخاصة، بل هم أقل من القلة، ولا يصدق عليهم من وصف سوى أنهم متوحدون. فالتوحد هو نصابهم في الحياة والتفكير والتعبد. وليس من خيار لأي واحد منهم سوى أن يعيش في جزيرة ضميره. فذلك شرطه كيما يؤتى علم العرفان أو علم التأويل أو - وهذا أندر - كلاهما معاً. ولا غرو في أن يكون حي وأبسال قد اختارا في نهاية القصة أن يردعا سلامان وأصحابه ويؤوبا من الجزيرة الواقعية المأهولة إلى جزيرتهما الوهمية المقفرة حيث «عبدا الله حتى أتاهما اليقين». وهذا ليس محض خيار تخيلي. بل هو يرمز أيضاً إلى انسداد الأفق التاريخي والاجتماعي والفكري في الجزيرة الأندلسية المحاصرة من خارجها بالاسترداديين الإسبان ومن داخلها بسلطة الفقهاء المناصبين بالعداء لأهل التأويل ولأهل الفلسف على حد سواء. وأياً يكن من أمر فإن انتهاء القصة على النحو الذي انتهت به لا يدع مجالاً للالتباس بصدد المغزى الذي أرادته منها ابن طفيل: فكما تحتم أن يفترق أبسال عن سلامان، وهما في الأصل الصديقان شبه الشقيقين، كذلك تحتم أن يجتمع حي وأبسال ليشكلا توأماً واحداً مع أنهما متحذران في الأصل من جزيرتين تجهل كل منهما بوجود الأخرى. فجزيرة الملة لا تسع إلا لسلامان ومن هم أمثال سلامان، فكان لا مناص من أن يهاجر عنها أبسال. وجزيرة الفلسفة، التي لا تسع إلا للمتحدثين من دون سواهم، كان لا مناص من أن يهاجر إليها أبسال ليلتقي فيها شقيق روحه حياً. فمن جهة أولى انفصال، ومن الجهة الثانية اتصال. انفصال في داخل جزيرة الملة المأهولة ما بين عقيدة الغالبية وحقيقة الأقلية، وهذا بقدر ما تحيل

ابن طفيل: مبدع «مغربي» للفلسفة المشرقية

العقيدة إلى ظاهر الشريعة، والحقيقة إلى باطن معانيها، واتصال في جزيرة الفلسفة المقفلة ما بين الحكمة المنزلّة وحياً والحكمة المستنبطة عقلاً لتشكيل نوع من حكمة متوامة، يعمدها «المغربي» ابن طفيل باسم الحكمة المشرقية، تنتفي فيها ازدواجية النزول والصعود، ويتماهى فيها الحق مع الحق كما تماهى أسال مع حي.

«الحق لا يضاف الحق، بل يوافقه»: أتكون تلك إذا فحوى الوصية الأخيرة لابن طفيل؟ بلى، لولا أننا نعلم أن قائل هذا القول ليس ابن طفيل، بل ابن رشد، وتحديدًا في رسالته: «فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال». والواقع أن هذا كان يمكن أن يكون عنواناً أيضاً لقصة ابن طفيل. والواقع أيضاً أنه إذا سلمت بأن ابن طفيل كتب القصة في السنوات الأخيرة من حياته، فلنا أن نفترض أنه ضمنها نوعاً من الرد على رسالة ابن رشد التي يعود تاريخ كتابتها إلى عام ٥٧٤هـ أي قبل سبعة أعوام من وفاة ابن طفيل. فابن طفيل قد تصدى للمشروع نفسه الذي سبقه ابن رشد إلى التصدي له، ولكن لا يقول عين ما قاله ابن رشد، بل على العكس ليخالفه وليعمّز مشروعه عن مشروعه. فالمرضوع واحد: بيان ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال. ولكن معالجة ابن طفيل لا تختلف بقالبها القصصي فحسب، بل كذلك بمضمونها ومقصودها. فالعلماء الذين اختصهم الله بالتأويل، أي بتحقيق المطابقة بين الحكمة والشريعة، هم في نظر ابن رشد أهل البرهان الفلسفي. أما في نظر ابن طفيل فهم أهل العرفان، سواء منهم أهل العرفان الديني أم أهل العرفان الفلسفي. ولهذا أصر ابن طفيل على أن يجمع بين أسال وحي ويتوهم بينهما، بينما اكتفى ابن رشد بتقصص دور «نبي لبرهان»: أرسطو. ولقد وجدنا ابن طفيل يندد، في المدخل النظري لقصته، بقصور البرهان عن «الوصول» وتحقيق «الاتصال» بقدر ما يقتصر على «الإدراك النظري المستخرج بالمقاييس وتقدير المقدمات وإنتاج النتائج»، ولا يرقى إلى «ذلك النوع من المشاهدة» الذي «لا يمكن إثباته على حقيقة في أمره في كتاب» والذي «إذ كسي الحروف والأصوات» «استحالت حقيقته» و «لم يبقَ على ما كان عليه بوجه». ولم يكتفِ ابن طفيل بالثبوت على هذا النحو بقصور منهج أهل النظر، بل ألمع بالنقد إلى شخص ابن رشد بالذات، وإن تحاشى تسميته باسمه. فعل ذلك في خاتمة المدخل النظري حينما ألمح إلى «الآراء التي نبغت في زماننا هذا ولهج بها قوم من منتحلي الفلسفة». وقعل ذلك أيضاً في وسط القصة عندما قطع سياقها السردى ليثور ثورته البركانية على نمط «العقل والعقلاء» الذي يمثل ابن رشد، لأن «العقل الذي يعنيه هو

وأمثاله إنما هو القوة الناطقة التي تصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتتقصص منها المعنى الكلي. ولعقلاء الذين يعينهم هم ينظرون بهذا النظر. والتمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله. ويبقى أن نقول إنه يفعل ذلك أخيراً في التعليق لشخصي الذي يختم به القصة: «هذا أيدنا الله وإياك بروح منه ما كان من نبأ حي بن يقظان وأيسال وسلامان. وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يرجد في كتاب ولا يسمع في معتاد خطاب؛ وهو من العلم المكتون الذي لا يقبله إلا أهل المعرفة بالله ولا يجهله إلا أهل الغرّة»^(١٧٠) بالله. وقد خالفنا فيه طريق السلف الصالح في الضئالة به والشمع عليه؛ إلا أن الذي سهو علينا إفشاء هذا السر وهتك الحجاب ما ظهر في زماننا من آراء مفسدة نبغت بها متفلسفة العصر، وصرحت بها حتى انتشرت في البلدان وعم ضررها وخشينا على الضعفاء، الذين اطرحوا تقليد الأنبياء صلوات الله عليهم وأرادوا تقليد السفهاء والأغبياء، أن يظنوا أن تلك الآراء هي المضمون بها على غير أهلها، فيزيد بذلك جهلهم فيها وولوعهم بها. قرأنا أن نلتم إليهم بطرق من سر الأسرار لنجتذبهم إلى جانب التحقيق، ثم نصددهم عن ذلك الطريق»^(١٧١).

(١٧٠) هكذا نقرأ، وليس «العزة» كما في تحقيق أحمد أمين.

(١٧١) «حي بن يقظان»، ص ١٢٢. والتسويد متا. وحتى نفهم تمام مدلول الجملة المسودة الثانية ينبغي أن نستذكر أن ابن رشد يصرح في العديد من المواضع بأن كتبه البرهانية مضمون بها على غير أهل البرهان.

ابن مضاء القرطبي: انتفاضة لاهوتية على المنطق النحوي

«لا فاعل إلا الله عند أهل الحق»

[ابن مضاء . الرد على النحاة]

يحضر ابن مضاء (أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي) القرطبي (٥١٣ - ٥٩٢هـ) في أربعة نصوص لناقد العقل العربي حضوراً خاطفاً، ولكن - كالشهاب - لامعاً.

ففي أول هذه النصوص السريعة الأربعة يحضر ابن مضاء بوصفه رائداً من رواد الثورة الثقافية، التي يعزو ناقد العقل العربي استحداثها إلى «حركة ابن تومرت التجديدية». ويدون أن تدخل هنا في نقاش لمدى المشروعية النظرية لإطلاق صفة الثورة الثقافية على حركة ابن تومرت، فإننا سنلاحظ أن ناقد العقل العربي لا يقر لها عن طوعية بهذا النصاب إلا بقدر ما يحرض على أن يتأولها على أنها ثورة على المشرق فقهاً وكلاماً وفلسفة وعلماً ونحواً، ثورة أيديولوجية وإستمولوجية معاً تحركت «في اتجاه واحد، اتجاه رد بضاعة المشرق إلى المشرق في الفقه مع ابن حزم الظاهري، وفي النحو مع ابن مضاء القرطبي. وفي الشوحيذ (= الكلام) مع ابن تومرت، وفي الفلسفة مع ابن رشد»^(١).

وتوكيداً على جانب القطيعة النحوية في هذه الثورة المرعومة على المشرق، يستعين ناقد العقل العربي بتص يبدو حاسم الأهمية لباحث متميز في تاريخ الأدب

(١) «فنح و التراث»، ص ٦١ - ٦٢. والتسريد من الجابري.

والبلاغة والنحو في الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية، ألا وهو شوقي ضيف، الذي يعود إليه - والحق يقال - فضل اكتشاف مخطوطة كتاب «الرد على النحاة» وتحقيقها ونشرها. ولنترك الكلام لناقد العقل العربي: «كم ترددت أصداء نقد ابن تومرت لقياس لغائب على الشاهد في تفكير ابن رشد بقوة، فإنها ترددت، بنفس القوة كذلك، في تفكير علماء النحو في الأندلس. فهذا ابن مضاء القرطبي الذي كان معاصراً لابن رشد يؤلف كتاباً بعنوان «الرد على النحاة». إن آراء ابن مضاء في إبطال القياس معروفة لدى المختصين، وليس هنا مجال تفصيل القول فيها. فنلكتفب إذاً، بتأكيد هذه لحقيقة التي أبرزها الدكتور شوقي ضيف في تقديمه لهذا الكتاب. يقول شوقي ضيف: «إن العصر الذي أُلّف فيه كتاب «الرد على النحاة» كان عصر ثورة على المشرق وأوضاعه في الفقه وفروعه. وقد كانت دولة الموحدين - منذ أول الأمر - تدعو إلى هذه، حتى إذا كان يعقوب رأيناه يأمر بإحراق كتب المذاهب الأربعة، يريد بذلك أن يرد فقه المشرق إلى المشرق. وقد تبعه ابن مضاء القرطبي قاضي القضاة في دولته. فألف كتاب «الرد على النحاة» يريد أن يرد به نحو المشرق إلى المشرق»^(٢٢).

ويدون أن تغيب فكرة، أو بالأحرى دعوى هذه «الثورة على المشرق»، فإن ابن مضاء يحضر في النصين الثالث والرابع بوصفه ممثلاً عن قطاع النحو في المشروع الثقافي الأندلسي - المغربي الذي يؤكد نقد العقل لعربي - ويعيد التوكيد - أنه مثل «قطيعة إستمولوجية»، بملء معنى الكلمة، مع الفكر السائد في المشرق. ولنتبّت هنا النصين اللذين نعتذر للقارئ سلفاً عن اضطرارنا إلى الاستشهاد بهما أكثر من مرة:

- «إن مدرسة قرطبة إذا كانت تتميز عن غيرها من المدارس داخل الأندلس فإنها تتميز الأندلس ككل - ومعها المغرب - عن بقية العالم العربي والإسلامي بالمشروع الثقافي الجديد الذي أخذ يشلور فيها منذ تحولت من إمارة إلى خلافة ثالثة منافسة للخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، مشروع ثقافي جديد حقاً، ومتميز فعلاً، عبر عن نفسه بعنف المخاض وصيحة الميلاد مع ابن حزم، وبلغ تمام نضجه ورشده مع ابن رشد، وترددت له أصداء قوية في علوم اللغة والدين لدى شخصيت علمية بارزة مثل

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٠. وجدير بالإشارة أن ناقد العقل العربي «المشركي» يتهمز هنا الفرمزة التي يتيحها له شوقي ضيف ليضيف من عنده: «بقي علينا أن نضيف تمييزاً للصورة. وبالمثل ألفت ابن رشد كتابه «تهافت التهافت» يريد به أن يرد فلسفة المشرق إلى المشرق، وكتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» يريد به أن يرد «كلام المشرق إلى المشرق».

ابن مضاء القرطبي: تنافسة لاهوتية على المنطق النحوي

ابن مضاء لقرطبي (في النحو) وأبي إسحاق لشاطبي الغرناطي (في أصول الفقه)^(٣).

- «تبقى أخيراً تلك الإطلالة، الخاصة التي قمنا بها على الاتجاه التجديدي الذي عرفته الأندلس والمغرب منذ أوائل القرن الخامس الهجري، الاتجاه الذي يكشف لنا عن مشروع ثقافي عام يرمي إلى إعادة تأسيس البيان على البرهان. لقد أبرزنا في هذا الاتجاه طابعه العقلاني النقدي وكشفنا الغطاء عن وحدة التفكير التي تجمع أقطابه: ابن حزم وابن باجة وابن رشد والشاطبي وابن خلدون. ويمكن أن نضيف آخرين مثل ابن مضاء القرطبي في ميدان النحو، وابن بصال في ميدان الفلاحة لتجريبية، والبطروجي في ميدان الفلك، إلى آخرين غيرهم. وهي، أي وحدة التفكير بين هؤلاء، تتجلى أقوى ما تتجلى في توظيف جملة من لمبادئ والمفاهيم والإجراءات المعرفية التي كانت تؤسس التفكير العلمي البرهاني في ذلك العصر ولا زالت تؤسسه إلى اليوم»^(٤).

وقبل أن ندخل في أي نقاش حول الموقع الذي يحتله ابن مضاء في هذه «الثورة الثقافية التجديدية» لمرعومة، لا بد من أن نبدد الالتباساً يحيط بالشاهد الذي يقبسه الجابري عن شوقي ضيف. فالشاهد - على غير ما نؤلف العادة مع ناقد العقل العربي - منقول بأمانة تامة (خلا تسويده من قبل الجابري). ولكن الالتباس، الذي نتحدث عنه يتعلق لا بالاستشهاد، بل بالشاهد نفسه. فالعالم الجليل الذي كانه شوقي صيف قد وقع في ما نكاد نجزم بأنه غلط في التأويل. فقد ذكر بالفعل في مقدمته المطولة لكتاب «الرد على النحاة» أن الخليفة الموحد يعقوب بن يوسف أمر «بحرق كتب المذاهب الأربعة»، رغبة منه في «أن يرد فقه المشرق على المشرق» في سياق العصر الموحي الذي كان «عصر ثورة على المشرق وأوضاعه في الفقه وفروعه». وتدلّياً منه على هذه الدعوى يسوق شاهداً مطولاً - ومشهوراً في الواقع - عن عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» جاء فيه: «في أيامه [يعقوب بن يوسف] الذي تلقب بالمنصور انتقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذاهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله (ص) والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونواذر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها. ولقد

(٣) «التراث والحدائق»، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٤) «بنية العقل العربي»، ص ٥٥٨.

شاهدت وأنا يومئذ بمدينة فاس يُؤتى منها بالأحمال، فتوضع وتطلق فيها النار... وكان قصده بالجملة محو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة، وحمل الدس على لظاهر من القرآن والحديث. وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، إلا أنهما لم يظهره، وأظهره يعقوب هذا»^(٥).

والحال أن هذا الشاهد ينطوي، كما سبق لنا البيان، على تصحييف خطير. فعبد الواحد المراكشي، في حديثه عن الأمر الذي أصدره يعقوب المنصور، يستخدم صيغة المفرد، ويقول إنه أمر بإحراق كتب المذهب، لا المذاهب التي تأولها شوقي ضيف للحال على أنها «المذاهب الأربعة». ولو أن عالمنا الجليل دقق في الشاهد لانتبه إلى أن جميع الكتب التي أحرقت («مدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب») هي من كتب المذهب المالكي حصراً، وفي الفروع. والمراكشي واضح في ذلك، على أي حال، كل الوضوح. فهو من يعلق على الأمر الصادر عن الخليفة الموحي الثالث بأنه «كان قصده بالجملة محو مذهب مالك من المغرب». والواقع أنه ما كان للمنصور حتى أن يقصد إلى محو «المذاهب الأربعة» وإحراق كتبها، لأن هذه المذاهب وكتبها لم يكن لها من وجود في الأندلس والمغرب. فالأندلس - ومعها المغرب - كانت مالكية خالصة. ومنذ وفود سحنون (ت ٢٤٠هـ)، صاحب كتاب «المدونة»، إلى شمالي أفريقيا في عام ١٩٠هـ، توطد مذهب مالك في المغرب والأندلس بصورة نهائية على حساب تلاشي المذهب الأخرى، وفي مقدمتها مذهب أبي حنيفة. وقد كان آخر ممثل لهذا المذهب الأخير في شمالي أفريقيا هو أسد بن الفرات (ت ٢١٣هـ)، ولكنه كان هو نفسه أكثر ميلاً إلى المذهب المالكي منه إلى المذهب الحنفي، إذ كان لسان حاله يقول: «إن أردت الله ورسوله والدار الآخرة فعليك بقول مالك، وإذا أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق»^(٦). بيد أن «مدونة» سحنون، التي «طار ذكرها في الأفاق وتناقشها الناس وحملت إلى الأندلس»، هي التي رجعت كفة مذهب مالك بصورة

(٥) كتاب «إرد على النجاة» لابن مضاء القرطبي، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٢. والتسويد منا. هذا ويذكر شوقي ضيف أنه ينقل الشاهد من كتاب «المعجب» عن طبعة دوزي

(٦) «رياض النفوس» للمالكي، ص ١٨١. نقلاً عن محمد إبراهيم الفيومي: «تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس»، ص ١٩٩.

ابن مضاء القرطبي: انتفاضة لاهوتية على المنطق النحوي

نهائية واستأصلت مذهب أبي حنيفة، حتى قيل «ومحا الله عز وجل كتب أبي حنيفة من أفريقيا، محوها مسحون». وقد غدت المالكية المذهب الرسمي للدولة في الأندلس منذ جهر الأمير الأموي الحَكَم المستنصر (ت ٢٠٥هـ) - وكان عالماً في الفقه - بإيثاره لمذهب مالك: «نظروا طويلاً في أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صُنف في أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نَر في مذهب من المذاهب أسلم منه. كان فيهم الجهمية والرفضة والخوارج والشيعة، إلا مذهب مالك، رحمه الله، فإن ما سمعنا أحداً ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فلاستمسك به نجاة إن شاء الله»^(٧).

وقد تضامنت قبضة السلطة السياسية ونضالية الفقهاء المالكيين، ولا سيما في مواجهة دولة الفاطميين العبيدية بأفريقيا، لتفرض الزعامة في الأندلس (والمغرب) للمالكية بلا منازع منذ مطلع القرن الثالث حتى نهاية الوجود الإسلامي في إسبانيا، ولتعمم العصية للمذهب الواحد على حساب المذاهب الإسلامية الأخرى «حتى أصبح الخروج على مذهب الإمام مالك تهمة دينية» تعادل الزندقة أو حتى التكفير. وهذا ما يشير إليه شاهد عيان هو الأندلسي ابن طلموس (ت ٦٢٠هـ)، لتلميذ المبشر لابن رشد الحكيم، الذي كتب في مقدمة كتابه «المدخل إلى صناعة المنطق» أن «أهل هذه الجزيرة - أعني جزيرة الأندلس - عندما... انتقلوا إلى مذهب مالك بن أنس غدوا بمحبة هذا العالم والشغف به، ونشوا على تعظيم أهله واعتقاد صدقهم وبغض مخالفيه، وذلك أنهم - لما كانوا يعتقدون فيه أنه الحق وأنه من عند الله - اعتقدوا في مخالفيه الكفر والزندقة»^(٨).

وقد يكون ابن طلموس هذا أول من تنبه إلى وجود «قطيعة معرفية» مشرقية - مغربية، ولكن باتجاه معاكس تماماً لذلك الذي يقول به ناقد العقل العربي. فهو يضيف: «لما امتدت الأيام وسافر أهل الأندلس إلى المشرق، ورأوا هناك العلماء وأخذوا عنهم المذاهب - أعني مذاهب الأئمة المشهورين - وكتب الحديث وانقلبوا إلى الأندلس بما أخذوه عن شيوخهم وما جلبوه من المسائل، رأى علماء الأندلس أن ما أتى به هؤلاء الدخليون هو مخالف لمذهبهم أو بعضه. وكان المخالف عندهم كافراً، لمخالفته الحق الذي جاء به الرسول عن الله تعالى. فاعتقدوا لذلك في هؤلاء الواصلين

(٧) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» للفاضل عياض. نقلاً عن المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٨) نقلاً عن أنخل جنتال بالثب: «تاريخ الفكر لأندلسي»، مصدر آف الذكر، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

من المشرق بعلم المذاهب المنسوبة إلى الأئمة ويعلم الحديث أنهم كفار وزنادقة، وقرروا ذلك عند العوام وعند آل السلطان، وقاموا في طلب دمائهم وهتكهم، نصرته لدين الله تعالى على زعمهم»^(٩).

وفي الوقت الذي لاحظ ابن خلدون هو أيضاً هذه «المقاطعة» المالكية المغربية لسائر المذاهب المشرقية، سعى إلى تحليلها بعاملين، أولهما ظرفي يتصل بحضارة الحج والرحلة في طلب العلم، وثانيهما بنيوي يرجع إلى الجدلية الأثرية لدى صاحب «المقدمة»: جدلية الحضارة والبداءة.

ففي معرض المقارنة مع بغداد الحنبلية والعراق الحنفية ومصر الشافعية، يقول: «وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ در العلم ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصر على الأخذ عن علماء المدينة وشيوخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه من دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته. وأيضاً فالبداءة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداءة»^(١٠).

وإذا عدنا الآن إلى النقطة التي انطلقنا منها، وهي التصحيف في نص عبد الواحد المراكشي الذي أوهم شوقي ضيف بأن الخليفة الموحي الثالث إنما أمر «بحرق كتب المذاهب الأربعة» بغية رد «فقه المشرق على المشرق»، فإن لدينا شاهداً أخيراً على أن مثل هذا الوهم أقرب ما يكون إلى وهم إعدام المعلوم. فالإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، الذي عاش في زمن اندثار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، لاحظ أنه إلى عهده كانت لا تزال «كتب الحنفية كالمعدومة الوجود في بلاد المغرب، وكذلك كتب الشافعية وغيرهم من أهل المذاهب»^(١١). بيد أن هذا الوهم إن يكن مرده عند محقق

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.

(١٠) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(١١) أبو إسحاق الشاطبي: «لموافقات في أصول الأحكام»، تعليق محمد الخضر حسين التونسي، دار إحياء الكتب العربية، طبعة مصورة عن طبعة البايع الحلبي، بلا تاريخ، ج ٢، ص ٢٧٣.

كتاب «الرد على النحاة» إلى تصحيح مثير للالتباس، فليس له من مرة عند ناقد العقل العربي سوى الرغبة المسبقة في اصطلاح قطيعة معرفية بين الشطرين المشرقي والمغربي لهذا العقل. ونحن نملك ههنا أيضاً دليلاً على أن الجابري، بعكس شوقي ضيف، ما كان له أن يقع ضحية التصحيح في نص المراكشي. فالجابري يعرف هذا النص «ويستشهد به بغير تصحيح في كتابه «تكوين العقل العربي». بل إنه، ودوماً في معرض الإشارة بقطيعة ابن مضاء مع نحو المشرق، يضيف من عنده تحديداً بين قوسين للمذهب المطلوب محو كتيبه بأنه «المالكي». وهكذا يرد الشاهد بقلمه: «في أيامه» «نقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب (المالكي) بعد أن يجرد ما فيها من أحاديث رسول الله والقرآن»^(١٢).

والواقع أننا نستطيع أن نمضي في تفنيد دعوى ناقد العقل العربي عن قطيعة مغربية في عصر «الثورة الثقافية» المرحدية مع «فقه المشرق» و «كلام المشرق» و «فلسفة المشرق» إلى حد قلبها إلى عكسها. فالثورة الموحدية إن تكن تطلعت إلى أن تقطع معرفياً مع أحد، فإنما مع المالكية المغربية التي كانت قد غدت الأيديولوجيا الدينية المعلنة للمرابطين، الخصوم السياسيين المباشرين للموحدين. ولئن تكن المالكية المغربية المرابطية قابلة للحذف فعلاً بأنها قطيعة من طبيعة نفعية وأحادية مع التعدد الملهمي المشرقي، فإن القطيعة الموحدية مع الأيديولوجيا المرابطية ما كان لها إلا أن تأخذ شكل مقاطعة لمقاطعة هذه الأخيرة للتعدد المذهبي المشرقي، وبالتالي شكك إحياء فكري لما أماته المرابطون.

فضدّاً على المالكية المرابطية الأحادية سعى الموحدون إلى إحياء الظاهرية. والحال أن الظاهرية ليست مذهباً مغرباً خالصاً، وإن يكن ابن حزم الأندلسي أبرز ممثلها وأهمهم. فالظاهرية مدرسة فقهية وكلامية أسسها في بغداد أبو سليمان دود بن علي الأصيهاني (ت ٢٧٠هـ). وهو من يكثر ابن حزم نفسه من الاستشهاد بأقواله تحت اسم «أبي سليمان» بتجليل لا يحتظى به منه سائر أئمة المذهب^(١٣). وكان أول من نشر

(١٢) «تكوين العقل العربي»، ص ٣١٧. والجابري يرجع هنا قارله إلى طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٤٩.

(١٣) من هذا القبيل قوله في «الإحكام في أصول الأحكام» (٥٤٦/٨): «قال أبو سليمان وجميع أصحابه رضي الله عنهم: لا يفصل الله شيئاً من الأحكام وغيرها لعله أصلاً بوجه من الوجوه».

المذهب الظاهري في الأندلس «المشرقي» عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال (ت ٢٧٢هـ) الذي تتلمذ مباشرة على مُنشئ المذهب، داود لأصبهاني، و نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس.

وفي طور لاحق سعى الموحدون إلى إحياء الشافعية. وهذا ما يفسر، جزئياً على الأقل، قرار يعقوب لمنصور في آخر عهده بإقالة الظاهري ابن مضاء لقرطبي من منصبه كقاضٍ للجماعة، ويتعين شافعي مكانه في إطار «حركة تنقلات» شملت العديد من مناصب القضاء والإفتاء في مدن المغرب والأندلس.

الغزالي بين المرابطين والموحدين

والأبلغ دلالة من هذا، وذلك أن الموحدين، وفي مقدمتهم مُنشئ الحركة ابن تومرت، عملوا - ودوماً في إطار تقليص نفوذ المالكية المرابطية - على رد الاعتبار إلى الأشعرية وإلى الناطق الأول بلسانها أبي حامد الغزالي، وعلى إحياء كتابه «الإحياء». وقد روج الجهاز الدعائي للموحدين أسطورة - لم يتحقق المؤرخون من صحتها - مفادها أن ابن تومرت نفسه درس في نظامية بغداد الأشعرية وأخذ العلم عن الغزالي ونال «بركته». وإنما في هذا السياق «الإحيائي» لفكر الغزالي «المشرقي» - لا في سياق القطيعة معه على النحو الذي لا يفتأ يؤكدُه ناقد العقل «المشرقي» - نستطيع أن نفهم أن يكون أول عمل أقدم عليه ابن رشد، في مطلع حياته الفكرية، هو تلخيص «مستصفى» الغزالي وشرح «عقيدة ابن تومرت» في آن معاً.

والواقع أن الخلاف في الموقف من الغزالي وفكره يكاد يختصر كل الفارق بين المرابطين والموحدين في الاستراتيجية الأيديولوجية. ولو ارتضينا أن ندخل في لعبة ناقد العقل العربي ونستعير المفردات نفسها التي يصوغ بها الإشكالية الأيديولوجية والاستمولوجية معاً لعصر الموحدين، لتحدثنا، لا عن قطع، بل عن إعادة وصل مع «العقل المشرقي». فالمرابطون، وليس الموحدون، هم من سعوا في رد فقه لشرق وكلام المشرق على المشرق، وهم بالتالي من أمروا باستئصال فكر الغزالي من الأندلس والمغرب وإحراق كتبه. ومشهور في كتب المؤرخين الأندلسيين - وفي مقدمتهم شاهد العيان ابن القطان - مشهد المحرقة التي أقيمت في مطلع عام ٥٠٣ للهجرة في رحبة المسجد الجامع بقرطبة حيث جُمعت نسخ كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي وأُضرمت فيها ل نار بعد أن أُشبعَت جلودها بالزيت. وأشهر من هذا المشهد المرسوم الذي أصدره

ابن مصعب القرطبي: انتفاضة لاهوتية على المنطق النحوي

أمير المرابطيين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٨هـ، والذي قضى بمطاردة كتب الغزالي وحرقتها ومعاقبة المتكتمين عليها.

وفي الوقت الذي استمرت مطاردة كتب الغزالي طوال العهد المرابطي، تلاحقت الطعون في نقض كتابه «إحياء علوم الدين». ومن فقهاء المالكية الذين كتبوا ردوداً بكاملها محمد بن خلف البيري (ت ٥٣٦هـ)، ولقاضي عياض وأبو عبد الله محمد بن حمد بن قاضي قرصبة، وبنه أبو القاسم بن حمد بن الذي قال بتكفير كل من قرأ كتاب «الإحياء». وليس من قبيل الصدفة أن يكون هذا الكتاب، بين سائر كتب الغزالي، هو الذي «سأثر بسخط فقهاء الأندلس، وبخاصة منهم فقهاء قرطبة. ففي «الإحياء» تحديداً وجه الغزالي نقداً هو الأكثر حذرية في تاريخ الفكر العربي الإسلامي إلى تضخم الظاهرة الفقهية في إسلام العصر. فقد رفض الغزالي احتزال الشريعة إلى وجهها الفقهي، واعتبر الفقه من «علوم الدنيا» لا من «علوم الآخرة»، و«عدم معاملة» لا «علم مكاشفة»، واعتبر الفقهاء من «علماء الظاهر» لا من «علماء الباطن»، ومن «أرباب الأوقاف» لا من «أرباب القلوب»، وشاغلهم «زينة الأرض والملوك» لا «زينة أسماء والملوك»، وحزبهم «حزب السلطان» لا «حزب الله». وقد أنكر الغزالي بوجه خاص النصاب الأوليغارشي لطبقة لفقهاء، واتخاذهم من علم الفقه وسيلة للتكسب وللترفي الاجتماعي، وانصرفهم عن روح الدين إلى حرفه، وعن قبحه إلى أحكامه، وعن أصوله إلى فروعه، منتهياً إلى وصمهم بـ «علماء سوء» وتحميلهم تبعة اندراس لدين وواد روحانية الإسلام، قائلاً بالحرف الواحد: «لو سُئِلَ فقيه عن معنى هذه المعاني [الروحانية]... لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سأله عن اللعان والظهار والسبق والرمي لمرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها... فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً، وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين. وإذا رجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية. ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفيلن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات. فكأن من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الدمة... ثم لا نرى أحداً يشتغل به... هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة... هيئات هيئات، قد أندرس علم الدين بتلبس العلماء سوء، فالله تعالى المستعان وإليه

الملاذ في أن يعيننا من هذا الغرور الذي يُسخط الرحمن ويُضحك الشيطان»^(١٤).

ولا عجب في أن يكون الموحدون، في مشروعاتهم السياسي للإطاحة بدولة المرابطين، قد أخذوا على عاتقهم إحياء فكر الغزالي الذي سعى خصومهم إلى إماتته. ونحن نملك، من هذا المنظور، وثيقة ثمينة هي مقدمة ابن طملوس لكتابه في «صناعة المنطق» التي سبق لنا الاستشهاد بها. فابن طملوس، الذي كان موحدى الهوى والذي خلف ابن رشد في تطبيق أبي يوسف يعقوب المنصور، يقدم خلاصة مركزة عن الصراع بين المرابطين والموحدين في الموقف من الغزالي. يقول: «ولما امتدت الأيام وصلت إلى هذه الجزيرة كتب أبي حامد الغزالي متفنتاً، فقرعت أسماعهم [- أهل الفروع] بأشياء لم يألّفوها ولا عرفوها، وكلام خرج به عن معتادهم... فبعدت عن قبوله أذهانهم ونفرت عنه نفوسهم، وقالوا إن كان في الدنيا كفر وزندقة فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة، وأجمعوا على ذلك، واجتمعوا للأمير إذ ذاك وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة إلى الضلال بزعمهم، وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم إلى ما سألوه عنه، فأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما فيها، وخطب الأمير إذ ذاك جميع أهل مملكته يأمرهم بحرقها، ويعلمهم أنه هو الذي أدى إليه نظر العلماء، وقرئت مخاطبته على المنابر وشُئّع لأمر بذلك تشجيعاً عظيماً، وامتنحن من كان عنده منها كتاب، وخاف كل إنسان على نفسه أن يُرمى بأنه قرأ منها كتاباً أو اقتناه، وكان في ذلك من الوعيد ما لا مزيد عليه... ثم لم تكن تمتد الأيام إلا قليلاً حتى جاء الله بالإمام المهدي [= ابن تومرت] رضي الله عنه، فبان للناس ما كانوا قد تحيروا فيه، ونذب الناس إلى قراءة كتب الغزالي رحمه الله، وعرف من مذهبه أنه يوافقه، فأخذ الناس في قراءتها وأعجبوا بها، وربما رأوا فيها من جودة لنظام والترتيب الذي لم يروا مثله قط في تأليف. ولم يبق في هذه الجهات من لم يغضب عليه حب كتب الغزالي، إلا من غلب عليه إفراط الجمود من غلاة المقلدين، فصارت قراءتها شرعاً ودينياً بعد أن كانت كفرًا وزندقة»^(١٥).

وإزاء نص حاسم الأهمية كهذا، أفلا يكون مباحاً لنا، لو أجزنا لأنفسنا أن نستخدم بعض المفاهيم بمثل السهولة أو حتى اللامسؤولية العلمية التي يستخدمها بها ناقد العقل

(١٤) أبو حامد الغزالي، «إحياء علوم الدين»، طبعة دار المعرفة المصورة عن طبعة القاهرة، ١٣٠١، ص ٢١.

(١٥) نقلاً عن الباشا: «تاريخ الفكر الأندلسي»، مصدر آف الذكر، ص ٣١٥ - ٣١٦. والتسويد مث

ابن مضاء لقرطبي: انتفاضة لاهوتية على لمنطق النحوي

العربي، أن نصف عصر الموحدين لا بأنه عصر ثورة على المشرق، بل عصر ثورة على الثورة على المشرق؟ ولكن بما أن كلمة ثورة تبدو لنا في الحالين مبالغاً فيها وغير مطابقة لأي واقع تاريخي أو إبستمولوجي، فإنت نُؤثر أن نتحدث عن مشروع أيديولوجي، في خضم الجهاد السياسي الذي أعلنه الموحدون على المرابطين، لاستعادة الغزالي اسماً وفكراً. وقد نبجح لأنفسنا أن نضيف هنا أن ناقد العقل العربي، الذي اتخذ من العداء النظري للغزالي «المشرقي» فرضية عمل بدئية له، إنما يدلل بذلك - رغم كل إشداده بـ «الثورة الثقافية» الموحدية - عن أنه «مرابطي الهوى» أكثر منه «موحدي الهوى».

النحو كعلم خادم للدين

ما موقع ابن مضاء في المشروع الموحدي؟

إن ناقد العقل العربي يجزم بأنه رادّ الثورة النحوية على المشرق مثلما رادّ يعقوب المنصور الثورة الفقهية ومثلما رادّ ابن رشد الثورة الكلامية والفلسفية.

والواقع، أن ابن مضاء، بدل أن يبرز بصفته ثائراً، يبرز أولاً بصفته موظفاً في الجهاز الإداري والأيدولوجي الموحدي.

فالرجل على علو كعبه في الفقه والنحو وعلى صلابة اقتناعه بالظاهرة بصيغتها الحزمية التي لا تعرف المهادنة في قضايا العقيدة الدينية، لا يتردد في أن يفتح كتبه في «الرد على النحاة» بسؤال الله «الرضى عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، وعن خليفته: سيدنا أمير المؤمنين، الوارثين مقامه العظيم. وأصل الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، مبلغ مقاصدهم العلية إلى غاية التكميل والتسيم»^(١٦).

وليس موضوع الشاهد هنا الدعاء «لأمراء المؤمنين» الثلاثة - فهذا تقليد راسخ في الثقافة العربية الإسلامية ما شذ عليه إلا قلة نادرة - بل طلب الرضى الإلهي عن «الإمام المعصوم، المهدي المعلوم». فهنا تمارق الدعاء السياسية إلى أصول العقيدة الدينية التي سنرى أن ابن مضاء ينصب نفسه، مع ذلك، محامياً عن قواميتها.

(١٦) «الرد على النحاة»، ص ٧١. وأمراء المؤمنين المشار إليهم هم خليفة ابن تومرت الأول عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ - ٥٥٨هـ) ثم ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠هـ) ثم حفيده يعقوب (٥٨٠ - ٥٩٥هـ).

فنقطة انطلاق ابن مضاء هي الحديث المسند إلى الرسول، والذي يمكن أن يقوم بذاته مقام برنامج عمل للظاهرة الراضة بضروة لأي تدخل على النص: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب، فقد أخطأ»^(١٧).

ويرغم أن «الرد على النحاة»، كما هو واضح من عنوانه، كتاب في النحو، فإنه لمّا يسترعي الانتباه أن ابن مضاء يتعامل مع علم النحو بتخرج أو بالأحرى بتشدد ديني، فيرفض له نصاب العلم القائم بذاته ولا يعترف له بأي سؤدد: فهو عنده محض علم خادم «للعلوم الدينية، السمعية منها والنظرية». والحال أن من ينشغل عن هذه العلوم الدينية «التي هي الجُنة والهادية إلى الجُنة» يقتصر «على المعارف التي لا تدعو إلى جنة ولا تزجر عن نار، كاللغات والأشعار ودقائق علل النحو ومسليات الأخبار» فقد «أساء الاختيار واستحب العمى على الإبصار»^(١٨).

وهكذا يحدد ابن مضاء بنفسه برنامج عمله بغائته الدينية التي لا تبيح التححر في دقائق العلم، حتى ولو كان من «العلوم الخادمة»: «قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنه إلى ما أجمعوا على الخطأ فيه»^(١٩).

هذه الغاية الدينية، التي تقارنها عند ابن مضاء منهجية نصية مطلقة لا تلتزم بغير ظاهر الألفاظ، هي التي أملت أن يكون «الرد على النحاة» كتاباً يستهدف ليس فقط تجريد علم النحو من «زوائده»، بل تهيئ عمارة المنطق النحوي بالذات بقدر ما قامت، في تاريخ النحو العربي، على أساس المسمى إلى تجارز المعطى اللفظي الخام للوصول إلى البنية التحتية للغة وشبكة علاقاتها الوظيفية.

نظرية العامل

إن كبير مؤرخي النحو العربي، شوقي ضيف، هو من يفيدنا بأن عمارة هذا النحو قامت على «نظرية العامل»، وعليها «أسس النحاة أصول النحو ورسنته»، وفي مقدمتهم سيبويه صاحب «الكتاب» الذي «تتداخل نظرية العوامل في كل أبوابه وفصوله النحوية، بل لا تغلو إذا قلنا إنها دائماً الأساس الذي يبنى عليه حديثه في سباحث النحو»^(٢٠).

(١٧) المصدر نفسه، ص ٨١.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٧٣ - ٧٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٢٠) شوقي ضيف: «المدارس النحوية»، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٦، ص ٦٤.

ابن مفسد القرطبي: انتعاضة لاهوتية على المنطق النحوي

وتكمن الأهمية القصوى لنظرية العوامل في كون اللغة العربية لغة معربة. إذ العامل هو الذي يحدث الإعراب وعلاماته من الرفع والنصب والجر والسكون^(٢١). وقد تكون نظرية العوامل أدت دورها التاريخي ويات بالإمكان الاستغناء عنها - على نحو ما دعا إليه شوقي ضيف نفسه - بعدما تمت العقلنة النحوية للغة العربية على أيدي الخليل وسيبويه وزملائهما وصولاً إلى كبير أصوليي النحو ابن جني. ولكن دعوة ابن مضاء إلى إبطال نظرية العوامل - وعليها مدار رده على النحاة - لا تكتسب من جراء ذلك أي مشروعية نظرية. وذلك بكل بساطة لأنها دعوة من خارج اللغة ومن خارج علمها المطابق الذي هو علم النحو. فنظرية العوامل، وإن بدت اليوم من الزوائد الفاتية تاريخياً والقبالة للاستغناء عنها، لم تفرض - كما كان لاحظ روجيه أرنالديز - قواعد عقلية وضوابط منطقية على اللغة العربية من خارجها، بل تقيدت بذات منطقها المبطن^(٢٢). والحال أن ما يفعله ابن مضاء - بالإرث عن ابن حزم - هو العكس تماماً: فهو لا يطالب بإبطال نظرية العوامل إلا لأنه لا يقرّ بالسودد الذاتي لعلم النحو، وإلا لأنه يروم إخضاع المنطق النحوي - هذا إن لم يُلغَ - للمنطق اللاهوتي كما يصدر عنه هو نفسه، أي منطق المذهب لظاهري الذي لا يعترف بأي معقولة للمبنى كما للمعنى، لا بالتبعية المطلقة لظاهر ألقاظ النص.

حول مقولة الفاعل

ولنأخذ على سبيل المثال موقفه من مقولة الفاعل النحوية. فمعلوم أن الفاعل عند القائلين من النحاة بنظرية لعوامل - وليسوا جميعهم من القائلين بها - مرفوع بعامله الفعل وناصب لمعموله المفعول به - والحال أن ابن مضاء يرفض مقولة الفاعل بالذات من منطلق ديني وكلامي. فعنده أن الفعل بإطلاق هو لله وحده، وأن لا فاعل في الوجود يمكن أن يسمى بهذا الاسم سوى الله. يقول: «فمن ذلك ادعائهم أن النصب والخفض والحزم لا تكون إلا بعامل لفظي، وأن الرفع معها يكون بعامل معنوي. وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا (ضرب زيد عمراً) أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب... وأما في مذهب أهل الحق فإن هذه

(٢١) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٢٢) روجيه أرنالديز: «النحو واللاهوت عند ابن حزم القرطبي» (Grammaire et Théologie Chez Ibn Haan de Cordoue)، منشورات مكتبة فران، باريس (١٩٨١)، ص ٩٧.

الأصوات هي من فعل الله تعالى، وإنما تنسب إلى الإنسان كما ينسب إليه سائر أفعاله الاختيارية^(٢٣). وأما القول بأن الألفاظ يحدث بعضها بعضاً فباطل عقلاً وشرعاً، لا يقول به أحد من العقلاء لمعاني يطول ذكرها: منها أن شرط الفاعل أن يكون موجوداً حينما يفعل فعله، ولا يحدث الإعراب في ما يحدث فيه إلا بعد عدم العامل، فلا يُنْصَب «زيد» بعد «إن» في قولنا (إن زيدا) إلا بعد عدم «إن»^(٢٤). فإن قيل بَمَ يُرَدُّ على من يعتقد أن معاني هذه الألفاظ هي العاملة؟ قيل: لفاعل عند القائلين به إما أن يفعل بإرادة كالحَيوان، وإما أن يفعل بالطبع كما تحرق النار ويبرد الماء، ولا فاعل إلا الله عند أهل الحق، وفعل الإنسان وسائر الحيوان فعل الله تعالى. كذلك الماء والنار وسائر ما يفعل. وقد تبين هذا في موضعه. وأما العوامل النحوية فلم يقل بعملها عاقل، لا ألفاظها ولا معانيها، لأنها لا تفعل بإرادة وطبع^(٢٥).

ولا يعسر علينا هنا أن ندرك أن التخطيط الذي يقع فيه ابن مضاء ناجم عن إزاحته مقولة الفاعل عن نصابها النحوي إلى نصاب منطقي أو كلامي. ففاعل الفعل عند النحاة ليس هو فاعله عند أرسطو، ولا عند الأشاعرة. فليس إلزامياً في النحو أن يكون فاعل

(٢٣) يسوق ابن مضاء هذا الكلام رداً منه على بن جني الذي كان وقف بعض التزييف نظرية العوامل بتوكيده في خصائصه أن العمل في إعراب الكلمات من رفع ونصب وجزم هو «في حقيقة ومحصول الحديث للمتكلم نفسه». ولكن ابن مضاء، مع ترحيبه بمخالفة ابن جني لغيره من النحاة ويتحفظه على نظرية العوامل، يرفض مسأيرته في قوله بأن عامل الإعراب هو المتكلم نفسه، فامعاً إياه بأنه «قول المعتزلة» فهو لا يناقش إذن ابن جني مناقشة النحوي للنحوي، بل يناقش الظاهري للمعتزلي. وهذا دليل إضافي على أنه لا يرد على النحاة من موقع النحو، وعلى أنه لا يعترف لهذا العلم بسود ذاتي.

(٢٤) يمارس ابن مضاء هنا الأشعرية بدون أن يدري. فهو يتعامل مع مفردات العبارة وكأنها أعراض، والأعراض كما كان يقول الأشاعرة لا تبقى وقتئذ. ومن هنا توهمه بأن «إن» تتعذر قبل انطق بـ «زيد»، ولمعذور لا عمن له بالموجود. وما يفتيب عن ابن مضاء هنا أن اللغة ليست محض أصوات، وأن العبارة لا تستمد معناها من مفردات أصواتها، بل من تراكب هذه المفردات وتألفها في نسق دال، أي في جملة مفيدة كما يقول أهل النحو. ولكن حتى لا نظم ابن مضاء فلنذكر أن من وطره في فكرة انعدام الألفاظ - ومعها عملها - بعد النطق بها هو ابن جني نفسه الذي قال، في معرض تضييفه نظرية العوامل وتوكيده بأن حركات الإعراب هي للمتكلم نفسه، إن «ضرب انتهت بمجرد النطق بها، فلا يمكن أن تكون عاملاً في زيد أو عمرو، فليس لفعل عاملاً في الفاعل ولا المفعول، وليست إن تنصب المبتدأ وترفع الخبر... فهذا كلام لا معنى له».

(٢٥) «الرد على النحاة»، ص ٧٦ - ٧٨.

ابن مضاء القرطبي: انتحاضة لاهوتية على المطلق النحوي

لفعل هو فاعله بالمعنى. فعندما نقول بصيغة الفعل اللازم «مات الرجل» أو بصيغة الفعل المتعدي «قتل الرجل»، فإن فعل الموت أو القتل يكون قد وقع لا به، بل عليه، كما لو أنه مفعوله. وقد نبه ابن جنى إلى هذه الواقعة النحوية منذ أكثر من ألف عام عندما قال: «اعلم أن هذا الموضع هو الذي يتعسف بأكثر من ترى. وذلك أنه لا يعرف أغراض القوم... وهذا كقولهم: يقول النحويون إن الفاعل رفع، والمفعول به نصب، وقد ترى الأمر بضد ذلك، ألا تراءنا نقول: ضرب زيد فترفعه وإن كان مفعولاً به، ونقول: إن زيدا قام فننصبه وإن كان فاعلاً، ونقول: عجبت من قيام زيد فنجره وإن كان فاعلاً... ومثل هذا يتعب مع هذه الطائفة، لا سيما إذا كان السائل عنه مَنْ يلزم الصبر عليه ولو بدأ الأمر بإحكام الأصل لسقط عنه هذا الهوس وهذا اللغو. ألا ترى أنه لو عرف أن الفاعل عند أهل العربية ليس كل من كان فاعلاً، وأن الفاعل عندهم إنما هو كل اسم ذكرته بعد الفعل، وأمندت ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم... لسقط صداع هذا المضعوف السؤال»^(٢٦).

حول العوامل المقدرة

هذه النزعة الكلامية المخارجة للنحو كعلم قائم بذاته تطالعنا أيضاً في موقف ابن مضاء الرافض لما يسميه النحاة «العوامل المحذوفة» أو «العوامل المقدرة». فعندهم أن المنصوب مثلاً، يُنصب بنائب، معنوي أو لفظي. فإن لم يتلفظ بالنائب كان لا بد من تقديره. فعندما تقول العرب مثلاً: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، فلا بد من تقدير أن مصدرية محذوفة نصبت الفعل المضارع «تسمع». ولا شك في أن النحاة غلوا أحياناً في تقدير لعوامل المحذوفة إلى حد التحمل وأوقعوا أنفسهم في لزوم ما لا يلزم. وقد انتهزها فرصة ليشع على غلوهم. وهو في ذلك بلا أدنى ريب محق. ولكنه يغلو هو نفسه في الاعتراض على تقدير العوامل المحذوفة إلى حد السقوط في الحرفية والتمسك بظاهر الألفاظ والإضراب عن كل تأويل أو عقلنة نحوية. وبهذا الصدد تحديداً تعاود نزعة الظاهرية ظهورها لتكشف عن أن هاجسه الحقيقي ليس تيسير النحو وتخفيفه مما «يستغني النحوي عنه» كما جاء في مستهل «الرد على النحاة»، بل منع

(٢٦) أبو الفتح عثمان بن جني: «الخصائص»، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٦، ج ١، ص ١٨٥ - ١٨٦.

التأويل والتقدير في النص القرآني - حتى ولو كانا من طبيعة نحوية خالصة - باعتبار ذلك حراماً موجباً للعقاب. يقول: «إن قيل إن معاني لألفاظ المحذوفة موجودة في نفس القائل، وإن الكلام بها يتم، وإنها جزء من الكلام القائم في النفس، المدلول عليه بالألفاظ... لزم أن يكون لكلام ناقصاً، وأن لا يتم إلا بها، لأنها جزء منه، وزدنا في كلام القائلين ما لم يفظوا به، ولا دلنا عليه دليل إلا ادعاء أن كل منصوب لا بد له من ناصب لفظي. وقد فرغ من إبطال هذا الظن باليقين. وادعاء الزيادة في كلام المتكلمين من غير دليل يدل عليها خصاً بئ، لكنه لا يتعمق بذلك عقاب. وأما طرد ذلك في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وادعاء زيادة معاني فيه من غير حجة ولا دليل إلا القول بأن كل ما ينصب إنما يُنصب بناصب... قالقول بذلك حرام... وقد قال رسول الله ﷺ: من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. ومقتضى هذا الخبر النهي، وما نُهي عنه فهو حرام... وقال صلى الله عليه وسلم: من قال في القرآن بغير علم فقد تبوأ مقعده من النار. وهذا وعيد شديد... ومن بني الزيادة في القرآن بلفظ أو معنى على ظن باطل، فقد قال في القرآن بغير علم، وتوجه الوعيد إليه»^(٢٧).

إقالة المنطق النحوي

هكذا تنتهي النزعة البيانية المطلقة - وهذا هو المؤدى الحقيقي للظاهرية - بدين مضاع القرطبي إلى مفارقة فريدة من نوعها في تاريخ العقل العربي الإسلامي. فاندحار من أي تدخل عقلي - حتى ولو كان من طبيعة نحوية خالصة - على النص القرآني يحدو به إلى حفر خندق واصطناع قنافر ما بين هذا النص والمنطق النحوي، مع أن النحو لم يرَ النور كعلم ولم يتطور ذلك التطور المتقطع النظير في الثقافة العربية الإسلامية بالمقارنة مع الثقافات الأخرى إلا بقدر ما وظف نفسه من لحظة تخلقه الأولى في خدمة المقروئية القرآنية. فالحاجة قد صاروا في نظر صاحب الرد عليهم خصوصاً، بل معتدين على حرمة النص القرآني، مع أن لسان حالهم كان ولا يزال يقول من البداية إلى النهاية بأن علمهم «علم مستنبط بالقياس والاستقراء من كتاب الله تعالى وكلام فصحاء العرب»^(٢٨)، وأن الغرض الذي لا محيد له عنه هو «الوصول إلى التكلم بكلام العرب

(٢٧) «الرد على النحاة»، ص ٨١ - ٨٢.

(٢٨) الحسين بن موسى الدينوري: «تعاريف الصناعة في النحو»، نقلًا عن السيوطي: «الاعتراح في علم =

ابن مضاء القرطبي: انتفاضة لاهوتية على المنطق النحوي

على الحقيقة صواباً غير مبدل ولا مغتير وتقويم كتاب الله الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد»^(٢٩).

ولئن يكن ناقد العقل العربي قد حدّ المشروع الثقافي لابن مضاء القرطبي - بالمشاركة مع ابن حزم وابن رشد والشاطبي وابن خلدون - بأنه «إعادة تأسيس البين على البرهان»، فلنا أن نقلب الإشكالية إلى حد القول بأن انتفاضته على أهل النحو تجد غايتها في إعلان السؤدد المطلق للبين واكتفائه بذاته باعتباره برهان ذاته دونما حاجة إلى تدخل مخارج له ولو في شكل المنطق النحوي.

ولئن يكن ناقد العقل العربي قد حدّ استمولوجياً المشروع إسه بأنه «توظيف جملة من المبادئ والمفاهيم والاجراءات المعرفية التي كانت تؤسس التفكير العلمي البرهاني في ذلك العصر ولا زالت تؤسسه إلى اليوم»، فإن انتفاضة ابن مضاء على النحو والنحاة لم تستهدف - على العكس من ذلك تماماً - سوى الإعلان عن لامشروعية الاجراءات المعرفية في المقروئية القرآنية بصورة خاصة، وفي المقروئية اللغوية بصفة عامة، حتى ولو التزمت بمنطق النحويين لا بمنطق المنطقيين. فـ «الرد على النحاة» هو في واقعه العميق بمثابة إعلان عن ضرورة استقالة المنطق النحوي وإعادة تأسيس لعلم السؤال. فنعم للنحو، ولكن لا لمنطق النحو. نعم للرفع والنصب والجر والجزم، ولكن لا لعلل الرفع والنصب والجر والجزم. فالنحو علم وصفي، لا سببي. واللغة تؤخذ على ظاهرها، والمقولات النحوية تسلم تسليماً، ولا يُقبل فيها سؤال كيف ولّم. ومع الإقرار بأن العربية لغة معربة، فإن الحركات الإعرابية المتغيرة هي من المسلمات والوقائع اللغوية الخام التي لا تحتاج إلى تفسير، وليست تعبيراً عن الدينامية الوظيفية للغة. وهكذا يقول ابن مضاء: «وكما أنا لا نسأل عن عين عظيم وجيم جعفر وباء برثن»^(٣٠)، لم تُفتح هذه، وضمت هذه، وكسرت هذه، فكذلك أيضاً لا نسأل عن رفع (زيد). فإن قيل: زيد متغير الآخر، قيل: كذلك عظيم، يقال في تصغيره بالضم، وفي جمعه على فعلل بالفتح. فإن قيل: للاسّم أحوال يرفع فيها، وأحوال ينصب

= أصول النحو، تحقيق أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس يرس، طرابلس ١٩٨٨، ص ٣٨.

(٢٩) أبو القاسم الزجاجي: «الإيضاح في علل النحو»، تحقيق مازن المبارك، دار الثقافة، الطبعة الثانية، تم ١٣٦٣هـ، ص ٩٥.

(٣٠) العظم نبت، والبرثن مخلب السبع والظير الكاسر، وجعفر اسم علم ومعناه بالأصل النهر.

فيها، وأحوال يخفض فيها، قيل: إذا كانت تلك الأحوال معلولة بالعلل الأول، الرفع يكونه فاعلاً، والنصب يكونه مفعولاً، والخفض يكونه مضافاً إليه... صار الآخر كالحرف الأول الذي يكسر في حال الأفراد، ويفتح في حال الجمع، ويضم في حال التصغير»^(٣١).

الأدوات «المشرقية» لانتفاضة ابن مضاء

ويدون أن ننكر في محصلة الحساب أن انتفاضة ابن مضاء على منطق النحو العربي يمكن أن تقدم عناصر لا تخلو من خصوصية لأي مشروع لتجديد عمارة النحو العربي، فلننا طرح سؤالاً أخيراً: هل كانت هذه الانتفاضة «ثورة» على نحو المشرق، وهل استهدفته، لا من حيث هو نحو، بل من حيث هو مشرق، طبقاً لفرضية ناقد العقل العربي؟.

الواقع أنه إن لم يكن هناك مناص من مثل هذا الحصر الإقليمي، فلننقل إن ابن مضاء ثار بالفعل على نحاة المشرق، ولكنه وظف في ثورته هذه مشاركة النحاة.

ففي دعوته إلى إبطان نظرية العوامل استند كما رأيت إلى ابن جني في «الخصائص» وأخذ عنه مقولته الحاسمة الأهمية في أن الفعل اللغوي «إنما هو للمتكلم نفسه، لا لشيء غيره»، وإن يكن - هو - رد هذا الفعل اللغوي إلى الله لأنه لا «فاعل إلاه عند أهل الحق»^(٣٢).

وفي دعوته إلى «إلغاء العلل الثنائي والثالث» ينهل أيضاً من معين ابن جني الذي كان سبق إلى نقد بعض النحاة على قولهم بـ «علة العلة، وعلة علة العلة»^(٣٣).

(٣١) «الرد على النحاة»، ص ١٣٨. ويعلق شوقي ضيف على هذا النص بقوله: «أرأيت كيف ينتهي ابن مضاء بالنحو العربي؟ إنه يريد أن يحذف منه كل ما يستغني الإنسان عنه في معرفة نطق العرب بلغتهم. وإنه لينتصر أواخر الكلم كأحوال أوائله، فهي أحوال لغوية بسيطة، لا تحتاج معرفتها إلى عسر في الفهم، ولا إلى بعد في التأويل».

(٣٢) الواقع، وخلافاً لما يفترض ابن مضاء، ومعه من بعده بعض مؤرخي لنحو المحدثين، فإن ابن جني لم يكن هو أول من قال بأن الفعل اللغوي إنما هو للمتكلم. فقد سبقه إلى ذلك، على ما يبدو، جيل من النحاة، ومنهم على سبيل المثال الزجاجي (ت ٢٣٣٧هـ) الذي قال إن «هذه الأشياء، أسماء وأفعالاً وحروفاً... كلها أفعال للمتكلم لأنها كلام ونطق، والكلام يفعلها المتكلم ويوجد بعد أن لم يكن، فهو فعل من أفعاله» (الإيضاح في حلل النحو، ص ٤٣).

(٣٣) ابن جني: «الخصائص»، مصدر آلف الذكر، ج ١، ص ١٧٤.

ابن مضاء القرطبي: انتفاضة لاهوتية على منطق المحوي

أما مطالبته بإلغاء تقدير «أن» مصدرية بعد فاء السببية وواو المعية فهو يدين بها دينونة مباشرة لأبي عمر بن إسحق الجرمي (ت ٢٢٥ هـ) الذي أنكر على سيبويه دعواه بأن «الفعل المضارع يُنصب بعدهما بأن مضمرة» مؤكداً «أنهما تنصبان المضارع بأنفسهما من دون حاجة إلى تقدير»^(٣٤).

ولئن اعترض ابن مضاء على تقدير متعلقات للمحجرات وأنكر الحاجة إلى تقدير عوامل محدوفة تعلق بها المحجرات من قبيل «مستقر» أو «كائن» في قولنا «زيد في الدار» و«رجل من قریش»، فقد سبقه إلى هذا الاعتراض ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) الذي «كان لا يرى ما يراه الجمهور من أن الظرف والجار والمجرور إذا وقعا خبراً أو حالاً أو نعتاً فيتعلقان بمحدوف تقديره مستقر أو استقر»^(٣٥).

ولئن ذهب ابن مضاء إلى أنه لا داعي إلى تقدير ضمائر مستترة في الأفعال كما في قول من يقول «زيد قام» فيقدر أن في «قام» ضميراً فاعلاً، واعتبر أن في مثل هذا الإضمار «زيادة لا فائدة فيها»، فقد سبقه إلى هذا القول - باعترافه - الكسائي (ت ١٨٣ هـ) «الذي أجاز حذف الفاعل دونما حاجة إلى إضماره»^(٣٦).

وفي الوقت الذي ينتصر ابن مضاء لآراء نحاة بعينهم من المشاركة ضد آراء نحاة غيرهم من المشاركة أيضاً، فإنه في المرة اليتيمة التي يأتي فيها بذكر نحاة من الأندلس فإنما يفعل ذلك ينتقدهم. فهو عندما يورد في مختتم كتابه قولاً للمبرد ليبين من خلاله فساد التحليل بالعلل الثواني، يضيف: «وكان لأعلم - رحمه الله - على بصره بالتحو مولعاً بهذه لعلل الثواني، ويرى أنه إذا استنبط منها شيئاً فقد ظفر بباطل. وكذلك كان صاحبنا الفقيه أبو القاسم السهيلي على شاكلته - رحمه الله - يولع بها، ويخترعها، ويعتقد ذلك كملاً في الصنعة وبصراً بها»^(٣٧).

«الرد على النحاة» أبعد ما يكون إذا قابلية لتفسير بصراع موهوم بين نحو مشرقي

(٣٤) شوقي ضيف: «المدارس النحوية»، ص ١١٤.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٣٦) «الرد على النحاة»، ص ٩١ - ٩٣.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٣٧. والأعلم هو أبو الحجاج الشنمري، المشهور بعلم العربية وبلغته، المتوفى ببشبيبية سنة ٤٧٦ هـ. والسهيلي هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الأندلسي المالكي لنحوي المحافظ، صاحب «الروض الأثف»، وُلد بمالقة سنة ٥٠٨ وتوفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ.

ونحو مغربي. فابن مضاء ينتمي انتماءً رأسياً، وبالكلية، إلى النظام لمعرفي للعقل العربي الإسلامي بمنحاه البياني الأكثر إطلاقية. ولئن تمحور كل مدار كتيبه على إلغاء نظرية العواصم وإبطال تقدير المحذوفات والمضمورات والمستترات ومنع التأويل بالإضافات المقدرة والتعليق بالعلل الثواني والثالث، فبسائق الحوف - كما يؤكد ويكرر التوكيد - من «ادعاء زائد في كتاب الله بظن»، والزيادة بالظن هي مما «يستغنى عنه» وليست مما «يحتاج إليه»، و «هذا في كلام اناس، فأما في كلام الله فحرام»^(٣٨).

ونحن لسنا ممن ينكر أن الملايمات التاريخية والشروط الجغرافية والعواصم الديموغرافية أو حتى الإثنية، يمكن أن تتأدى هنا وهناك إلى حدوث تلونات وبروز تمايزات ما بين مشرق ومغرب، أو حتى ما بين مشرق ومشرق أقصى أو مغرب ومغرب أقصى. وقد رأينا مثلاً على ذلك في التطور الخارق للمالوف للملكية الفروعية - كما للظاهرية الأصولية جزئياً - في الجناح المغربي/الأندلسي من الحضارة العربية الإسلامية. ولكن هذا شيء، ورفع تلك التلونات والتميزات إلى درجة القطيعة المعرفية شيء آخر. ففي مثل هذه الحال يكفّ مفهوم العقل العربي الإسلامي نفسه، كمقولة إبستمولوجية، عن الاشتغال.

(٣٨) «الرد على النحاة»، ص ٨٩ و ١٢٢.

الشاطبي: شافعي عصر الاندثار

«البرهان قائم على البيان».

[الشاطبي: «المواقفات»]

يحضر الشاطبي أبو إسحق، فقيه غرناطة المتوفى سنة ٧٩٠هـ، في مشروع المجابري لنقد العقل العربي بوصفه واحداً من أقطاب تلك المدرسة البرهانية المثمنة عالي التثمين من قبله، ولموصوفة تارة بأنها أندلسية وطوراً بأنها مغربية، وهذا بالتعارض - بطبيعة الحال - مع المدرسة المشرقية المخفوضة إلى العربة البيانية، وحتى إلى ما دونها: المربة العرفانية.

ومع أن الشاطبي عاش ومات في القرن الثامن الهجري، فإن أول ما يلعت النظر في تعاطي ناقد العقل العربي معه إصرره على قراءته بالإحالة إلى القرن الخامس. آية ذلك أن هذا القرن هو، في الاستمولوجيا الجابرية، قرن الشرخ الجيولوجي في العقل العربي الإسلامي. ففي المشرق «استفحلت مع بداية القرن الخامس الهجري أزمة لبان الداخلية»، ولم تجد محاولات أقطاب المعتزلة (القاضي عبد الجبار) والأشاعرة (الإمام الجويني) فتيلاً، إذ اكتفت «بجمع آراء الأصحاب والأساتيد والمفاضلة بينها وتأييد ما يبدو منها أكثر قدرة على مواجهة الأزمة»، في حين «أن الأمر كان يتطلب طرح مشكلة الأمس، وبالتالي العمل على إعادة التأسيس، إعادة تأسيس البيان». هذا بالنسبة إلى البيان. أما بالنسبة إلى العرفان والبرهان «فقد كان القرن الخامس الهجري هو العصر الذي توجت فيه عملية المصالحة بين البيان والعرفان (على يد القشيري)، وبين العرفان والبرهان (على يد ابن سينا)». . . مما فسح المجال لذلك التداخل التلقيني (على يد

الخزائي) الذي طبع - ويطبع - الثقافة العربية الإسلامية منذ القرن الخامس الهجري^(١) ولكن في الوقت الذي طغى على المشرق «ذلك التيار الجارف، تيار لتداخل التلغيفي المكثف للتقليد في عالم البيان وللظلامية في عالم العرفان وللشكلية في عالم البرهان»، كان المغرب يشهد، في ذلك القرن إياه، إطلاقة «الاتجاه التجديدي» الذي دشنته ابن حزم «منذ أوائل القرن الخامس الهجري نفسه»، والذي «تكشف عن مشروع ثقافي عام يرمي إلى إعادة تأسيس البيان على البرهان» من خلال «توظيف جملة من المبادئ والمفاهيم والاجراءات المعرفية التي كانت تؤسس التفكير العلمي البرهاني في ذلك العصر ولا زالت تؤسسه إلى اليوم»^(٢).

التضخيم الاستمولوجي للشاطبي

إنما في سياق هذا المشروع الثقافي العام، الذي يعمده ناقد العقل العربي باسم «المشروع الثقافي الأندلسي المغربي»، يحتل الشاطبي موقعه البارز كقطب من أقطاب الرباعي (ابن حزم، ابن رشد، الشاطبي، ابن خلدون) أو الخماسي (بزيادة ابن باجة أو ابن مضاء القرطبي) الذي قاد «المدرسة العقلانية النقدية الأندلسية المغربية» التي رمت بكل ثقلها من أجل «إعادة تأسيس البيان على البرهان» - كما لا يمل الجابري من التكرار - «وذلك بتوظيف سلطات معرفية بديلة ترجع كلها إلى سلطة العقل وحده، أو تشكل بمجموعها كيانه وفاعليته»^(٣).

ومع أن ناقد العقل العربي يحرص على أن يكيل الثناء بالتساوي لجميع ممثلي «المشروع الثقافي الأندلسي المغربي» - مع توسيعه ليشمل عند الحاجة ابن طفيل وحتى ابن تومرت - فإنه يخصص الشاطبي بموقع متميز من خلال مساواته، في المرتبة البرهانية، بابن رشد وابن خلدون. وهكذا يقرر باندفاع تقييمي لا يضبطه الحذر النقدي: «هناك شخصية علمية أندلسية عاشت بعد ابن رشد بنحو قرنين وعاصرت ابن خلدون لم تحظ بما تستحق من الاهتمام، على الرغم من أنها ترقى إلى مستوى هذين الرجلين. والحق أنه إذ كان ابن رشد يمثل قمة ما وصل إليه العقل العربي في ميدان الفلسفة، وإذا كان ابن خلدون يمثل أوج الفكر التاريخي والاجتماعي في الثقافة العربية

(١) «بنية العقل العربي»، ص ٥٥٧ - ٥٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٧.

الإسلامية، فإن الشاطبي يمثل قمة ما وصل إليه العقل العربي في ميدان الأصول. ولا يجمع بين هذه الشخصيات الثلاث كون كل منها قد بلغ بمادة «اختصاصه» أوجها في الفكر العربي الإسلامي وحسب، الشيء الذي يجعل المقارنة بينهم مقارنة نسبية لا غير، بل إن ما يجمع بينهم في نظر الباحث الاستمولوجي هو أنهم يقعون على مستوى واحد من النضج العقلائي، على درجة واحدة في مجال التجديد والإبداع العقلين»^(٣).

وبما أن النمط الأعلى - والأرقى - للمعقولة، في نظر ناقد العقل العربي، هو النمط الأرسطي، وعلى الأقل بالنسبة إلى العصور الوسطى، فإنه لا يتردد في أن يقطع بـ «أرسطية» شاطبي. وبالفعل، وفي النص الذي يحمل بالتحديد عنوان «النزعة البرهانية في المغرب والأندلس»، يقول: «إن نموذج المعقولة في الطريقة البرهانية خلال القرون الوسطى كان النموذج الأرسطي، ولذلك فليس غريباً أن نجد ملامح هذا النموذج في كل محاولة لإضفاء المعقولة على البناءات الفكرية، سواء منها ما له طابع فكري محض كالعقليات (ابن رشد)، أو ما يوطرعه العقل كأصول (الشاطبي)، والتفسير التاريخي (ابن خلدون)»^(٤).

بل إن الجابري لا يكتفي بأن يجعل من الشاطبي نداً أرسطياً لابن رشد ولا بن خلدون (أو لابن حزم في نص آخر) «في نزعتهما العقلانية النقدية الرامية إلى تأسيس البيان على البرهان»، بل يغلو ويتطرف إلى حد الخروج على الرصانة العلمية - في الوقت نفسه الذي يدعو فيه قارئه إلى التمسك بحبلها - ليؤكد أن الشاطبي لم يكن أرسطو عصره في علم أصول الفقه فحسب، بل كان رائداً «لفلاسفة لعلم المعاصرين» في فتوحاتهم في مجال الاستمولوجيا، أي «عدم أصول المعرفة العلمية». وهكذا يقول بالحرف الواحد وهو يقدم للفقرة التي يخصصها للشاطبي في الفصل الأخير من «بنية العقل العربي» كرائد «للعلم البرهاني» في الأصوليات: «وإننا نتوقع من القارئ غير المختص (وهو مخاطبنا الرئيس في هذا الكتاب) أن يخرج من هذا الملخص الوجيز الذي سنخصصه للشاطبي مقتنعاً بأننا فعلاً أمام شخصية علمية في مستوى ابن رشد

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٣٨.

(٤) «التراث والمحدث»، ص ٢١١. والواقع أن الجابري لا يعمم في هذا النص - الذي قرأه كمدخل في إطار ندوة معقودة بالأندلس عام ١٩٩٠ - حكم «الأرسعية» على الثلاثي الرشدي - شاطبي - الخلدوني وحده، بل كذلك على جماع «المدرسة لبرهانية التي طبعت بطابعها التفكير العلمي والفلسفي في الأندلس» (ص ٢٠٢).

وابن خلدون. أما إذا كان القدر ممن له إمام بما برّج في الاستمولوجيا المعاصرة (- علم أصول المعرفة العلمية) وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتعرف فيها إلى الشاطبي، فإننا لا نشك في أنه سيهتز دهشة وتعجباً، لأنه سيقراً في خطاب الشاطبي المعاني نفسها التي يقرأها في خطاب فلاسفة العلم المعاصرين. وفي هذه الحالة فإننا نطلب منه أن يستعين برصانة فكر الشاطبي واتزانه فلا يسلك مسلك أمثال أولئك الذين انفعلوا، من الباحثين العرب المعاصرين، عند قراءة الغزالي، انفعلاً قادهم إلى القول بأنه سبق ديكارت إلى الشك وسبق هيوم إلى فكرة العادة! (٥).

ومع أن ناقد العقل العربي يدلل هنا على انفعال يجاوز انفعال الباحثين العرب المشار إليهم، فإننا لن نتوقف عند ما يصوره فتحاً استمولوجياً شاطبياً، لأننا نعتقد أن المقارنة مع الاستمولوجيا المعاصرة عقيمة، وفي غير محلها أصلاً، نظراً إلى أنها تضرب صفحاً كلياً عن الانقلاب الجذري في شروط الممارسة المعرفية ما بين القرن الثامن الهجري والقرن العشرين الميلادي. وبالمقابل، إننا لا نستطيع سكوتاً عندما نجد ناقد العقل العربي مندفعاً إلى التوكيد بسائق من الانفعال ذاته، أن الشاطبي «قد دشن قطعة استمولوجية حقيقة مع طريقة الشافعي وكل لأصوليين، الذين جاؤوا بعده (= بعد الشافعي)» (٦). فإن يكن ناقد لعقل العربي قد غلا في النص السابق بحماسة الاستمولوجية إلى حد التحليق بالشاطبي فوق عصره لإسقاطه في القضاء العقلي للقرن العشرين، فإنه في هذا النص يقطعه عن جذوره العقلية ذاتها ليعزله، باسم الاستمولوجيا دوماً، في «قطعة» مع الاستمرارية التراثية التي بدونها يفقد مشروعه لإعادة تأصيل لأصول معناه ومشروعيته معاً.

والواقع أنه ليست هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها ناقد العقل العربي - بنوع من الاستسهال اللفظي - عن «قطعة استمولوجية». فقد وجدناه يلجأ إلى هذا المفهوم عينه «ليقطع» ما بين «عقل» لمغرب و«عقل» المشرق، وعلى الأخص ما بين ابن رشد وابن سينا. ولكن مع فارق أساسي هذه المرة. فابن رشد الأرسطي الهوى ما كان إلا ليهتز في قبره طرياً لو سمع من يقول له بعد ثمانية قرون من وفاته إنه أنجز «قطعة استمولوجية» مع خصمه «المحرف» للأرسطية ابن سينا. أما الشاطبي فما كان إلا ليهتز

(٥) «بنية العقل العربي»، ص ٥٣٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٤٠.

الشاطبي: شافعي عصر الاندلس

غضباً - لا طرباً - لو قيل له إنه أنجز مثل تلك القطيعة مع أستاذه وملهمه الشافعي. فالشاطبي، الذي كان يقول إن الرجال مفتيح العلم، ليس له - ولمشروعه في إعادة تأصيل الأصول - سوى مفتاح واحد: فليس كمثله من صَبَا إلى أن يكون للأزمة المتأخرة ما كانه الشافعي للأزمة المتقدمة. والواقع أنه لو كان لنا أن ندرس الشاطبي على ضوء ما أمناه بنفسه «فساد الزمان» بالإحالة إلى عصره، لكان أجدد بنا أن نسميه «شافعي عصر الانحطاط». ولكن نظراً إلى الحمولة القيمة السالبة لهذا التعبير، فإننا نؤثر أن نتكلم على «شافعي عصر الاندلس»، وهو تعبير أكثر مطابقة من الناحية التاريخية لواقع مصائر الأندلس الإسلامية قبل زوالها من خارطة التاريخ. وأياً يكن من أمر، فتلك هي نقطة خلافت الأولى مع نقد العقل العربي. فهو لا يبيح لنفسه أن يجمع ابن حزم وابن رشد والشاطبي في «الحظّة» واحدة، ولا أن يتحدث عن «النقطة الاستمولوجية الهائلة» التي دشنها الشاطبي في الفكر الأصولي بالتواصل مع المشروع الحزمي الرشدي^(٧)، ولا أن يوضع «الحظّة ابن حزم وابن رشد والشاطبي وابن خلدون» التي مثلت «الحظّة الجديدة تماماً في تاريخ الفكر العربي»^(٨) - زمائياً في القرن الخامس الهجري ومكانياً في قرطبة، نقول: إنه لا يبيح لنفسه هذا كله إلا بقدر ما يغيب عن نفسه وعن قارئه معاً واقعة تأخر زمان الشاطبي إلى «ليل الانحطاط» في ختام القرن الثامن الهجري، وواقعة انحصار مكان الشاطبي في غرناطة، آخر ملاجئ الحضارة لعربية الإسلامية في الأندلس قبل سقوطها، بدورها، بعد مئة عام بالضبط من وفاة الشاطبي^(٩).

والواقع أن الاستمرارية التي يخترعها الجابري للزعة البرهانية المغفيرة، من خلال

(٧) المصدر نفسه، ص ٥٤٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٥١.

(٩) بدوي أن تجاهل «لاستمولوجيا الحابرية للتأخر الزماني للشاطبي لا يرادف جهلاً بهذا التأخر من قبل ناقد العقل العربي. فالجابري يؤسس الاستمرارية للاستمولوجية المزعومة للمشروع الحزمي - الرشدي - الشاطبي رغم - وربما بسبب - عدمه بالتأخر الزماني للشاطبي عن ابن رشد يقرون وعن ابن حزم بثلاثة قرون ونيف. فهو من يقول في موضع آخر من الشاطبي أنه «آخر كبار فقهاء الأندلس» («بنية العقل العربي»، ص ١٦٣). ولكنه هنا أيضاً لا يصيب سديداً من القول، إذ إن الأندلس - أو البقية الباقية منها بالأحرى - عرفت بعد لشاطبي فقهاء كباراً، وفي مقدمتهم تلميذه أبو بكر بن عاصم، المتوفى سنة ٨٢٩هـ، صاحب لمنظومة الفقهية الشهيرة «تحفة الحكام».

حصرياً بمدرسة قرطبة، ليست أقل مدعاة للغرابة من القطيعة التي يعزوها إليها مع الفكر المشرقي «البياني» و «العرفاني». هكذا نجد يقول في نص يحمل بالتحديد عنوان «قرطبة ومدرستها الفكرية»: «إن الأطروحة التي سنعرضها في هذه المجالة تتلخص بالقول بوجود مدرسة فكرية قرطبية متميزة في الأندلس طبعت بطابعها الفكر العربي الإسلامي في الأندلس والمغرب وجعلته يتميز بدوره، ومن عدة نواح، عن الفكر العربي الإسلامي في المشرق، الشيء الذي يعني تبلور مشروع ثقافي عربي إسلامي في الأندلس والمغرب يختلف، أو على الأصح ينافس وينازع ما عرفه المشرق العربي من مشاريع ثقافية منذ عصر التدوين، عصر لبناء الثقافي العام في الحضارة العربية الإسلامية... ذلك أن مدرسة قرطبة إذا كانت تتميز عن غيرها من المدارس داخل الأندلس، فإنها تميز الأندلس ككل - ومعها المغرب - عن بقية العالم العربي والإسلامي بالمشروع الثقافي الجديد الذي أخذ يتبلور فيها منذ تحولت من إمارة إلى خلافة ثالثة منافسة للخلافة العباسية والخلافة الفاطمية^(١٠). مشروع ثقافي جديد حقاً، ومتميز فعلاً، عبّر عن نفسه بعنف المخاض وصبيحة الميلاد مع ابن حزم، وبلغ تمام نضجه ورشده مع ابن رشد، وترددت له أصداً قوية في علوم اللغة والدين لدى شخصيات علمية بارزة مثل ابن مضاء القرطبي (في النحو) وأبي إسحق الشاطبي (في أصول الفقه)، كما كانت له امتدادات في مجال الفلسفة في الفكر اليهودي والفلسفة الأوروبية اللاتينية^(١١).

والسؤال الذي كنا طرحناه سابقاً والذي يعاود هنا طرح نفسه بالحاح: هل تستند هذه الاستمولوجيا الجابرية، القائمة على المزوجة التقابلية بين الاستمرارية الذاتية والقطيعة الغيرية، إلى مبدأ واقع آخر غير الواقع النفسي؟ وهل لهذا الواقع النفسي من نصاب آخر من الواقع سوى لتوهم والإيهام معاً؟ التوهم من قبل المؤلف والإيهام برسم القارئ؟

وما دام الفصل الذي نحن بصدد معقوده للشاطبي حصراً، فإن السؤال يأخذ

(١٠) هنا أيضاً لا يبدو أن الجابري يصيب سداً كرونولوجياً. فلو صح أن المشروع الثقافي الأندلسي شرع يتبلور منذ تحول قرطبة من إمارة إلى خلافة، فهذا معناه أن بداية تبلوره تعود إلى بداية القرن الرابع، لا إلى بداية القرن الخامس كما يؤكد الجابري، نغزاً إلى أن ذلك التحول قد تم في عهد الناصر (٣٠٠ هـ. ٨٥٠ هـ) الذي كان أول من تسمى من الأمراء الأندلسيين باسم الخليفة.

(١١) «التراث والحداثة»، ص ١٧٥ - ١٧٦ و ١٨٠ - ١٨١.

الشاطبي: شافعي عصر الأندلس

الصيغة التالية: هل يمكن فهم حرف واحد مما خطّه مؤلف «الموافقات» و «الاعتصام» بالاستمرارية مع المشروع الحزمي - الرشدي وب القطيعة، في الآن نفسه، مع «الشافعي وكل الأصوليين الذين جاؤوا بعده»^٩.

بساطة واختصار معاً، نقول إن العكس هو الصحيح. فلم يقطع الشاطبي مع أحد كما قطع مع ابن حزم وابن رشد. ولم يصل الشاطبي مع أحد كما وصل مع الشافعي وكبار الأصوليين الذين جاؤوا من بعده كالجويني والغزالي، وهذا بتصرّحه. ولنترك له الكلام.

نقد ابن حزم والمذهب الظاهري

يأتي ذكر ابن حزم في كتابات لشاطبي التي وصلت إلينا في نحو من عشرة مواضع، وعلى الدوام في معرض النقد، بله الذم.

ففي «الاعتصام»، وهو آخر مؤلفات الشاطبي، لا يأتي ذكر الظاهرية إلا مقروناً بالوصف بأنها بدعة. وبما أن المراد بالاعتصام عند الشاطبي هو الاعتصام من البدعة، فإن تبذير الظاهرية يأخذ، من هذا المنظور، دلالة خاصة. فمن البداية يحدّ الشاطبي الظاهرية بأنها «عند العلماء بدعة ظهرت بعد المئتين من الهجرة»^(١٢). وبرغم ما يبيده الشاطبي من حذر نقدي بقوله هنا «عند العلماء» أو في موضع آخر «على رأي من عدها من البدع»، فإنه لا يمسك عن أن يجري على الظاهرية حكم «قوله عليه الصلاة والسلام في رواية أبي داود: إنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجاري لكذب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله». وصحيح أن الشاطبي يبدي حرصاً - في معرض تفسير هذا الحديث - على التفريق بين أهل البدع لجزئية الذين رقد يجلدون طريقهم إلى التوبة وبين أهل البدع الكلية الذين يشرب قلوبهم حبّ البدعة، فتأخذ عليهم مجامع نفوسهم «حتى لا يمكن في العادة انفصالهم عنها وتوتئهم منها، على حد ما يداخل داء الكذب جسم صاحبه، فلا يبقى من ذلك الجسم جزء من أجزائه ولا مفصل ولا غيرهما إلا دخله ذلك الداء، وهو جريان لا يقبل العلاج ولا ينفع فيه الدواء». ولكنه يستغل هذا التفريق ليحكم بالتبذير الجزئي على مؤسس

(١٢) الإمام أبو إسحق لشاطبي: «الاعتصام»، تحقيق محمد رشيد رضا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض دون تاريخ، ج ١، ص ١٧١.

المذهب داود بن علي الأصبهاني (ت ٢٧٠هـ) لأنه من المتقدمين - وللمتقدمين عنده حرمتهم - وبالتبديع الكلبي على الأنصار المتأخرين للمذهب الذين قد يصل حظهم من الإشراب بحب البدعة ما وصل إليه الخوارج. وفي ذلك يقول: «إن بعض لبدع من شأنها أن تشرب قلب صاحبها جداً، ومنها ما لا يكون كذلك. فالبدعة الفلانية مثلاً من شأنها أن تتجارى بصاحبها كما يتجارى الكلب بصاحبه، والبدعة الفلانية ليست كذلك. فبدعة الخوارج مثلاً في طرف الاشباع كبدعة المنكرين للقياس في الفروع الملتزمين الظاهر في الطرف الآخر... فبدعة الظاهرية تجارت بقوم حتى قالوا عند ذكر قوله تعالى: ﴿على العرش استوى﴾: قاعداً قاعداً وأعلنوا بذلك وتقاتلوا عليه. ولم يبلغ بقوم آخرين ذلك المقدار، كداود بن علي في الفروع»^(١٣).

وفي المرة اليتيمة التي يسمي فيها الشاطبي ابن حزم بالاسم في «الموافقات»، فإنما ليضرب به مثلاً على «عالم» لا تتوافر فيه واحدة من أهم ثلاث علامات للعالم وهي «أن يكون ممن رتاه الشيوخ في ذلك العلم، لأخذه عنهم وملازمته لهم»^(١٤). فابن حزم، بما عرف عنه من سلاطة لسان على العلماء الذين أبى أن يقتدي بقدرتهم ويتصف بما اتصفوا به ويلازمهم وينقاد لهم ويصبر عليهم «في مواطن الإشكال»، هو نموذج لعالم غير متحقق، أي لعالم فارق أوصاف العلم بالذات، وكان أقرب إلى أن يكون من الزائفين منه إلى الراسخين في العلم: «هكذا كان شأن السلف الصالح... وصار مثل ذلك أصلاً لمن بعدهم... وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك. وقلمما وجدت فرقة زائفة، ولا أحد مخالف للسنة، إلا وهو مفارق لهذا الوصف. وبهذا الوجه وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلزم الأخذ عن الشيوخ، ولا تأدب بأدائهم. وبضد ذلك كان العلماء الراسخون كالأئمة الأربعة وأشباههم»^(١٥).

(١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٥.

(١٤) وإعلامتان أو الإمراتان الأخريان «للعالم المتحقق» في نظر الشاطبي: «العمل بما عدم حتى يكون قوله مطابقاً لفعله» و «الاعتناء بمن أخذ عنه والتأدب بأدبه».

(١٥) أبو إسحاق الشاطبي: «الموافقات في أصول الأحكام»، دار إحياء الكتب العربية، طبعة مصورة عن طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة بلا تاريخ، ج ١، ص ٥٩. وسعتمد أيضاً، على سبيل التدقيق، على طبعة دار المعرفة المصورة عن طبعة قاهرة أخرى للكتاب حققها عبد الله دراز ونشرت بعنوان: «الموافقات في أصول الشريعة». بيروت ١٩٧٥.

ولئن اكتفى الشاطبي في أكثر من شاهد - كما يفعل هنا - بإيراد تشنيع العلماء على بدعة الظاهرية بدون أن يدخل طرفاً مباشراً فيه، فإنه يغلو أكثر من غلوهم في التشنيع عندما يتعلق الأمر بممثل آخر للنزعة الظاهرية هو - في تقديره - ابن تومرت الذي وجدنا الجابري يرفعه إلى مصاف رائد «ثورة ثقافية» بالمعنى الحديث للكلمة. فالشاطبي على رصانته العلمية التي ليست محل معاراة، لا يعود يلتزم أي تحفظ في ألفاظه في إدانته لمن يصر على تسميته تكراراً «المهدي لمغربي». فابن تومرت عنده صاحب «بدعة فاحشة... فإنه عدّ نفسه الإمام المنتظر وأنه إمام معصوم». والحال أن «من يدعي لنفسه لعصمة، فهو شبه من يدعي النبوة، ومن يزعم أنه به قامت السموات والأرض، فقد جاوز دعوى النبوة، وهو المغربي المتسمى المهدي»^(١٦). ولا يتردد الشاطبي في أن يلقب ابن تومرت - نقلاً عن ابن العربي في «المواصم من القواصم» - بأنه «قاطمي» المغرب الأقصى الذي صور لأتباعه أنه المهدي المبشر به من النبي «يملا الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، يبعث الله إذ نسخ الحق بالباطل، وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى، ورماته آخر الأزمان، واسمه اسم النبي عليه لصلاة والسلام، ونسبه نسب النبي ﷺ، وقد ظهر جور الأمراء، وامتلأت لأرض بالفساد، وهذا آخر الزمان، والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل. يشير إلى ما جاء في أحاديث القاطمي... وكان مذهب البدعة الظاهرية»^(١٧).

وهذا التوكيد على تمذهب المهدي وأتباعه بالبدعة الظاهرية يطالعنا في نص آخر يدين فيه فعال «المهديين» عندما صارت ولاية الأندلس لهم، «فمزقوا كتب المالكية وسموها كتب الرأي، ونكلوا بجمعة من الفضلاء بسبب آخضهم في الشريعة بمذهب مالك. وكانوا، هم، مرتكبين للظاهرة المحضة التي هي عند العلماء بدعة ظهرت بعد المئتين من الهجرة. ويا ليتهم وافقوا مذهب داود وأصحابه لكنهم تعدوا ذلك إلى أن قالو برأيهم، ووضعوا للناس مذاهب لا عهد لهم بها في الشريعة، وحملوهم عليها طوعاً أو كرهاً، حتى عم داؤها في الناس، وثبتت زماناً طويلاً، ثم ذهب منها جمعة وبقيت أخرى إلى اليوم»^(١٨).

(١٦) «الاعتصام»، ج ١، ص ٣٥٥؛ ج ٢، ص ٩٧.

(١٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٦. والتسويد مثا.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٧١. ويشير الشاطبي، في نوع من تعليق شخصي على النص الذي يقبسه عن أبي بكر بن العربي، أنه تأتي له أن يرصد يقبسه في غرناطة في زمانه المتأخر بقايا من الدع =

قد يعترض ناقد العقل العربي هنا بأن هذه «القطيعة» التي نؤسسها بين الشاطبي والمشروع الحزمي هي من طبيعة أيديولوجية، على حين أن الاتصالية التي يقول بها في هذا الخصوص هي من طبيعة إبستمولوجية. وهنا ينبغي أن يكون احتكامنا إلى الموافقات بالدرجة الأولى. فهو بالفعل كتاب ناجز في أصول المعرفة الشرعية - والابستمولوجيا هي بالتحريف معرفة المعرفة - وليس كـ «الاعتصام» كتاباً في البدع التي هي بالضرورة ذات حمولة أيديولوجية. والحال أن الشاطبي يوضع «قطعه» مع الظاهرية في الموافقات على مستوى منهجي، ونكاد نقول إبستمولوجي محض. فمأخذ الأول على الظاهرية أنها إذ تأخذ بحكم ظاهر النصوص مطلقاً تطل العلم الذي يتصدى الشاطبي لتجديده، أو لإحيائه بالأحرى، من أساسه. فالشاطبي هو شيخ نظرية المقاصد «التي أنقذ عمره في رسم هيكلها، وبراز معالمها، والدفاع عن أهميتها وضرورة العمل بمقتضاها»^(١٩). ويعبارة الجابري نفسه، هو باني معقولية الدين «على قصد الشارع»^(٢٠). وبحسب دارس آخر لـ «نشأة علم لأصول ومقاصد الشريعة» في الإسلام، فإنه مع الشاطبي فحسب أمكن لمقاصد الشريعة أن تكتمل كنظرية وأن تبلور «مفاهيمها الاجرائية حتى نصير علماً نظرياً قائماً بذاته»^(٢١). وما يعيننا من هذه الشواهد هنا ليس مديونية الشاطبي - أو عديمها - لمن تقدمه من الأصوليين، بل إجماع دارسيه على أنه لا يتبقى منه شيء - من وجهة النظر الابستمولوجية تحديداً - إذا أنكر عليه منكر المشروعية النظرية والاجرائية لمفهوم مقاصد الشريعة. ومن هنا هجاؤه الذي لا

= التي أحلثها المهدي الذي وإن كان مذهبه البدعة الظاهرية، ومع ذلك فابتدع أشياء، كرحوه من التشويب، إذ كانوا ينادون عند الصلاة «بتأصيل الإسلام» و «بقيام فاضليت» و «سوردين» و «باردي» و «أصبح ولله الحمد» وغيره، فجرى العمل بها بجميعها في زمان الموحدين، وبقي أكثرها بعد ما انقرضت دولتهم حتى أنني أدركت بنفسي في جامع غرناطة الأعظم الرضا من الإمام المعصوم. المهدي المعلوم، إلى أن أزيلت، وبقيت أشياء كثيرة عُفِل عنها أو أعفِلت (المصبر نفسه، ص ٢٥٦).

(١٩) أحمد الريسوني: «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي»، «معهد العالمي للفكر الإسلامي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٤.

(٢٠) «التراث والحداثة»، ص ٢٠٩.

(٢١) عبد المحيد الصنير: «الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام». قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشيعة، دار الممتحن العربي، بيروت ١٩٩٤، ص ٤٤٥، (علماً بأن هذا الباحث يحاذر أن يتطرق تطرف الجابري في الادعاء أن الشاطبي «أنشأ علمه حول مقاصد الشريعة إنشاء جديداً وكأنه يبدعه من عدم»).

يخلو من عنف لفظي للبدعة الظاهرية، ومن هه نقده الذي لا يقل تساماً بالصرامة المنهجية للمذهب الظاهري. آية ذلك أن خلافه مع الظاهرية ليس في الفروع، بل في الأصول، بله في «أصل الأصول» الذي هو نظريته حجب الزاوية: مقصد الشارع. فالظاهرية تنفي هذا الأصل بتاتاً. وهي تقول «إن مقصد الشارع غائب عنا حتى يأتيها ما يعرفنا به». وليس من سبيل إلى ذلك إلا «بالتصريح الكلامي»، أي بدلالة ألفاظ النص محمولة على ظاهرها «مطلقاً». وبمعنى آخر، إن الظاهرية ترفض «استقراء المعاني»، ولا تمارس من الاستقراء - عندما تمارسه - سوى «الاستقراء للفظي». والحال، أن لفظ الشريعة لا يشير إلى أنها أنزلت من أجل «مصالح العباد». ومن ثم لا يمكن تأويل مقصد الشارع على أنه «جلب المصلحة ودرء المفسدة». والأصل «عدم معقولة لمعنى»، في المعاملات كما في العبادات. أفما وجدنا ابن حزم يكذب من يقول «إنه تعالى يفعل الأشياء لمصالح عباده» ويؤكد «أنه تعالى يفعل ما يشاء لصالح ما شاء، ولفساد ما شاء، ولنفع من شاء، ولضر من شاء»^(٢٢)؟ وهذا الرفض من قبل الظاهرية لمد جسور غائي بين مقصود الشارع ومصالح العبد يعبر عن نفسه إجرائياً برفض إجراء القياس. وهذا الغلو في «منع القول بالقياس» و«الحمل على الظاهر مطلقاً» هو ما يجعل الشاطبي يعقد مقارنة تبخيسية بين «الظاهرية الذين يحضرون مظان العلم بمقاصد الشارع في الظواهر والنصوص» والباطنية الذين يدعون أن «مقصد الشارع ليس في هذه الظواهر ولا ما يفهم منها، وإنما المقصود أمر آخر وراءه. وبطرد هذا في جميع الشريعة، حتى لا يبقى في ظاهرها متمسك يمكن أن يلتمس منه معرفة مقاصد الشارع. وهذا رأي كل قاصد لإبطال الشريعة، وهم الباطنية فإنهم لما قالوا بالإمام المعصوم لم يمكنهم ذلك إلا بالقدح في انصوص والظواهر الشرعية لكي يفتقر إليه على زعمهم. وماك هذا الرأي إلى الكفر والعيذ بالله»^(٢٣).

ويديهي أن ثمة مسافة أيديولوجية لا يستهان بها بين تبذير الظاهرية وتكفير الباطنية. ولكن المسافة الاستمولوجية تبدو أكثر ضيقاً بالمقابل. وهي تنعدم تماماً - ومعها المسافة الأيديولوجية - عندما يقيم الشاطبي في نص لاحق من الموافقات، ودوماً بهدف تبخيسي، موازنة صنية بين أهل الظاهر وبين فرقة «متطرفة» أخرى في رأيه

(٢٢) ابن حزم: «الإحكام في الأحكام»، مصدر آف الذكر، ج ٨، ص ٥٨٤.

(٢٣) «الموافقات في أصول الشريعة»، ج ٢، ص ٢٧٤.

من فرق الإسلام: أهل الرأي. فبرغم أن كلا من الفريقين يحتل موقعه في قطب مقابل للآخر، فإن غلو كل منهما، ذلك في إنكار القياس وهذا في إثباته، يجعل كفتيهما في الميزان السائب متعادلتين، ويمنعهما كليهما من «التنزل إلى ما تقتضيه رتبة المجتهد» ويخرجهما من «مرتبة أهل الاجتهاد». هكذا يقول الشاطبي: «من أمثلة هذه المرتبة مله من نفى القياس جملة وأخذ بالنصوص على الإطلاق، ومذهب من أعمل القياس على الإطلاق ولم يعتبر ما خالفه من الأخبار جملة؛ فإن كل واحد من الفريقين غاص به الفكر في منحى شرعي مطلق عام طرد له في جملة الشريعة اطراداً لا يتوهم معه في الشريعة نقص ولا تقصير، بل على مقتضى قوله: «اليوم أكملت لكم دينكم». فصاحب الرأي يقول: الشريعة كلها ترجع إلى حفظ مصالح العباد ودرء مفاسدهم، وعلى ذلك دلت أدلتها عموماً وخصوصاً. دلّ على ذلك الاستقراء. فكل فرد جاء مخالفاً فليس بمعتبر شرعاً... فهذا الخاص المخالف يجب رده وإعمال مقتضى الكلّي العام، لأن دليله قطعي، ودليل الخاص ظني، فلا يتعارضان. والظاهر يقول: الشريعة إنما جاءت لابتلاء المكلفين أيهم أحسن عملاً، ومصالحهم تجري على حسب ما أوجرها الشارع، لا على حسب أنظارهم. فنحن من أتباع مقتضى النصوص على يقين في الإصابة، من حيث إن الشارع إنما تبعدنا بذلك. وأتباع المعاني رأي. فكل ما خالف النصوص منه غير معتبر، لأنه أمر خاص مخالف لعام الشريعة، والخاص الظني لا يعارض العام القطعي. فأصحاب الرأي جردوا المعاني، فنظروا في الشريعة بها وأطرحوا خصوصيات الألفاظ. ولظاهرية جردوا مقتضيات الألفاظ فنظروا في الشريعة بها، وأطرحوا خصوصيات المعاني القياسية، ولم تنتز واحدة من الفرقتين إلى النظر في ما نظرت فيه الأخرى بناء على كلا ما عتمدته في فهم الشريعة»^(٢٤).

إن هذا النص، الحاسم الأهمية من وجهة نظر الاستمولوجيا الشاطبية، هو آخر ما بين أيدينا من نصوص الشاطبي في نقد الظاهرية و«القطع» معها. ومع ذلك، كان من الممكن له ألا يكون نصاً حتامياً. فالشاطبي يفتتح «كتاب المقاصد» من «الموافقات» بـ «مقدمة كلامية مسلّمة في هذا الموضع، وهي أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً، وهذه دعوى لا بدّ من إقامة البرهان عليها صحة أو فسداً... وقد وقع الخلاف فيها في علم الكلام، وزعم الرازي أن أحكام الله ليست

(٢٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣١. واتصوّد منها.

معللة بعلّة البتة ، كما إن أفعاله كذلك . وإن المعترلة اتفقت على أن أحكامه تعالى معللة برعاية مصالح العباد . وإنه اختيار أكثر الفقهاء المتأخرين . . . والمعتمد إنما هو أننا استقرّنا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيها الرازي ولا غيره^(٢٥) . ولحل أن الشاطبي ، كما يلاحظ دارس نظريته في المقاصد ، يخطئ هنا خصمه . فليس الإمام فخر الدين الرازي هو من ينكر التعليل ، وهو الذي أورد في موسوعته الأصولية «المحصول في أصول الفقه» ست مقدمات «نصية» و «كلامية» ثبت فيها «أنه تعالى إنما شرع الأحكام لمصالح العباد ، وأنه تعالى حكيم بإجماع المسلمين ، والحكيم لا يفعل إلا لمصلحة ، فإن من يفعل لا لمصلحة يكون عابثاً ، والعبث على الله تعالى محال ، للنص والإجماع والمعقول . . . ثبت أنه تعالى ما شرع الأحكام إلا لمصلحة العباد»^(٢٦) . ويعد أن يسوق دارس «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي» هذا الشاهد الحاسم - وشواهد أخرى غيره - يتساءل : «ويعد . . . فمن بالذات ينكر كون الشريعة إنما جاءت لرعاية مصالح العباد؟ الحقيقة أنه لم يبق أمامي - بعد طول بحث ونظر - إلا الظاهرية . فالظاهرية هم المنكرون للتعليل نظرياً وتطبيقاً وهم لمنكرون للتعليل جملة وتفصيلاً . وهم أقوى وأوضح من أنكر واستنكر التعليل . . . وعندم اذكر الظاهرية ، فالمقصود - بصفة خاصة - أبو محمد بن حزم الأندلسي ، فهو الوريث الكامل للنزعة الظاهرية . وهو الذي بقي لنا من مؤلفاته وآرائه ما يجسد تجسداً كاملاً مذهب الظاهرية أصولاً وفروعاً»^(٢٧) . وبالفعل ، إن ابن حزم هو من يعتقد في كتبه «الإحكام في الأحكام» أربعة فصول بنمائها لـ «إبطال القول بالعلل في جميع أحكام الدين» ، وهو من يعتقد فصلاً خامساً يجعل له هذا العنوان الاستفزازي «الحكيم لا لعلّة» ، وهو من يتجاسر - وربما وحده بين سائر معكري الإسلام - على الغلو في إنكار التعليل وفي إثبات «عدم محقولية المعنى» إلى حد القول المرعب بأن «ذبح الأطفال» كان سيكون «عدلاً ورحمة» لو أباحه الله : «وأي فرق بين ذبح صغار الحيوان لمتفعسا ، وبين ذبح صغارنا لمتفعسا فيلذبح ولد عمرو لمصلحة زيداً إلا أن الله تعالى شاء ذلك فأباه ، ولم

(٢٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢ - ٣ .

(٢٦) الفخر الرازي : «المحصول في أصول الفقه» ، تحقيق جابر فياض العلواني ، مؤسسة الرسالة ، طبعة الثنية ، بيروت ١٩٩٢ ، ج ٥ ، ص ١٧٣ - ١٧٥ .

(٢٧) أحمد الريسوني : «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي» ، مصدر آف الذكر ، ص ١٩٤ .

يشأ هنا فحومه، ولو أحلّ هذا وحرم ذلك لكان عدلاً وحكمة... وقد أباح تعالى سبي نساء المشركين وأطفالهم واسترقاقهم قهراً، وتملكنا رقابهم وأخذنا أموالهم غصباً لذنوب وقعت من آياتهم... فما الذي جعل الأبناء مؤاخذين بذنوب غيرهم؟... ولو فعل ذلك فاعل بيننا بغير نص من الله تعالى، أما كان يكون أظلم الظالمين؟^(٢٨). وغني عن البيان، إزاء نص كهذا، أنه كان على الشاطبي وهو يؤسس نظرية المقاصد - و«أساس نظرية المقاصد هو التعليل» - أن يخوض خصومته الكبرى، لا مع الرازي، بل مع ابن حزم. ولئن لم يفعل، فما ذلك عن «تروق» بالظاهرية، ولا عن العكس «إمناً في إهمالهم وإماتة مقولاتهم»، بل بكل بساطة - على ما نرجح - لأن كتب ابن حزم ما كانت متوافرة في غرناطة المالكية الهوى - مثل سائر الأندلس - في القرن ما قبل الأخير من سقوطها. فالشغب الذي أثاره ابن حزم على فقهاء المالكية استتبع منهم قمعاً لمذهبه وتراثه. وقد بلغ هذا القمع أقصاه بعد سقوط دولة الموحدين الذين كانوا مذهبياً - على حد تعبير الشاطبي - على «البدعة الظاهرية». وأياً يكن من أمر، ومهما يكن من أسباب سكوت مؤلف «المواقفات»، فإِنَّ التعليلي والغائي الذي كانه الشاطبي ما كان له إلا أن يكون خصماً جهور الصوت لكبير نفاة الغائية والعلية في النظرية الإسلامية عن لحدل الإلهي. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الاستمولوجيا تكاد تكون بالتعريف علم المسكوت عنه أكثر منها علم المنطوق به، فإن تقصير الشاطبي عن التصدي لخصمه في باب التعليل لا يغيّر شيئاً في واقع التضاد الجذري بين الاستمولوجيا الحزمية والاستمولوجيا الشاطبية. فتلك نصابها هدم المعقولة المؤسسة على النص الإلهي، وهذه نصابها إعادة تأسيسها.

نقد ابن رشد

إذا صدقنا ناقد العقل العربي، فإن ابن رشد هو، بلا مراء، واسطة العقد بين ابن حزم والشاطبي. فانتظماً من نص لابن رشد في «الكشف عن مناهج الأدلة» يرد فيه تعبير «الفاظ الشرع» وتعبير «مقصد الشرع»، يبادر حالاً إلى رفع التعبيرين إلى نصاب مفهومي، وإلى الجزم بأن «ظاهر الفاظ الشرع ومقصد الشرع مفهومان مركزيان في المشروع الثقافي الأندلسي ككل. المفهوم الأول يحيلنا إلى ما قبل ابن رشد وبالمضبط إلى ابن حزم «الظاهري». أما المفهوم الثاني فيحيلنا بصورة خاصة إلى ما بعد بن

(٢٨) «الإحكام في الأحكام»، ج ٨، ص ٥٨٦.

رشد، إلى الشاطبي صاحب كتاب «مقاصد الشريعة»^(٢٩). وتوكيداً على «وحدة التفكير» بين الأقطاب الثلاثة لهذا المشروع انشغافي الأندلسي لا يتردد ناقد العقل العربي في أن يصوغ مفهوماً معرفياً هجيناً هو «الحزمية - الرشدية»^(٣٠) ليجعل من الشاطبي، في تجديده الأصولي، مجرد منفذ وصبة ومطبق للمشروع الحزمي الرشدي، محصور دوره في أن يحقق «في ميدان علم الشريعة» «لنقلة الاستمولوجية» التي بشر بها ابن حزم «في ميدان العقيدة» والتي طبّقها ابن رشد «في ميدان الحكمة». وهكذا يكون الشاطبي قد أتى «ليستلهم التطبيق الرشدي للخطوة المبهجة الحزمية» وليضع نفسه، من خلال تدشينه «مقالاً جديداً تماماً في المنهج الأصولي»، على «درجة واحدة من التجديد والإبداع العقليين» مع الثنائي الحزمي الرشدي الذي يعود إليه قصب السبق في تدشين تلك النقلة الاستمولوجية. ولكن على الرغم من هذا الميراث المشترك، فإن الشاطبي يبقى في نهاية المطاف رشدياً أكثر منه حزمياً. ذلك أن ابن رشد قد «ارتفع بالاتجاه العقلاني النقدي الذي تحرك فيه ابن حزم إلى مستوى أعلى كثيراً مما كان عليه عند ابن حزم: مستوى الفكر الفلسفي الناضج المتمكن من نفسه، لواعي لنضجه. ومن هنا سيصبح التأثير الحزمي في من جاء بعد ابن رشد يحمل معه بصمات رشدية واضحة. نقول ذلك ونحن نفكر... في الشاطبي ومعاصره ابن خلدون اللذين يرتبطان مباشرة بالحزمية الرشدية»^(٣١).

رشدية الشاطبي؟.. إن الحديث عن حزمية الشاطبي، على إدخاله في اللامعقولية - كما أثبتنا في الفقرة السابقة - يبقى أكثر مشاكل للواقع من الحديث عن رشدية الشاطبي. فلا ابن حزم، كما رأينا، حضوره عند الشاطبي. والرجلان تجمعهما على كل أية حال علاقة ماء، ولو كانت ضدية. وكما يلاحظ دارس الشاطبي فإنه «لم يحظ أحد في أعمال الشاطبي بالنقد اللاذع والرفض لأطروحاته قسراً ما حظي بذلك ابن حزم وابن تومرت الموحدي، مما يجعل كل محاولة للتقريب بينهما وبين الشاطبي أمراً بانغ الصعوبة»^(٣٢). والواقع أن الشاطبي لا يُخفي ابن حزم في نصه إلا على سبيل التبعيد،

(٢٩) «بنية العقل العربي»، ص ٥٣٠.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٥٣٦.

(٣١) «موضع نفسه».

(٣٢) عبد المجيد الصغير: «الفكر الأصولي وشكلية السلطة العلمية في الإسلام»، مصدر آتف

الذكر، ص ٣٤.

لا التقريب. ولئن صح قول القائل إنه بضدها تميّز الأشياء، فإن إحضار الشاطبي لابن حزم هو إحضار للضد الذي يتيح له أن يميّز نفسه بالضدية معه. فمن خلال الضد الذي هو ابن حزم «المتطرف» يستطيع مؤلف الموافقات أن يدلّل على وسطيته. فبواسطة ابن حزم يستطيع الشاطبي أن يضع نفسه في نقطة الانتصاف بين أهل الظاهر وأهل الباطن، كم بين أهل النص المطلق وأهل الرأي (أو لقياس) المطلق. وبالمقابل، فإن ما بين الشاطبي وابن رشد محض لاهلاقة. فالرجلان ينتميان - في وعي الشاطبي على الأقل - إلى عالمين مختلفين يدوران في مدارين مستقلّين بدون أن تربط بينهما أية نقطة مركزية مشتركة. ولئن يكن ابن حزم يحتل في المنظومة الفكرية الشاطبية موقع المنقود، فإن ابن رشد لا يحتل إلا موقع المرفوض؛ المرفوض ثلثياً: شخصاً ومذهباً ومنهجاً.

فشخصياً، لا يحضر ابن رشد في النصوص التي وصفتنا من الشاطبي إلا لمرة واحدة يتيمة، وذلك في سياق انتقاده لمن يقحمون على القرآن علومَ مضافة يرعمون أنها ضرورية لفهم كلام الله: «وزعم ابن رشد الحكيم، في كتابه الذي سمّاه «فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، أن علوم الفلسفة مطلوبة، إذ لا يفهم المقصود من الشريعة على الحقيقة إلا بها. ولو قال قائل بالضد لما بُعِد في المعارضة. وشاهد ما بين الخصمين شأن السلف الصالح في تلك العلوم: هل كانوا آخذين فيها أم كانوا تاركين لها غافلين عنها؟ مع القطع بتحقيقهم في فهم القرآن، يشهد لهم بذلك النبي (ص) والجم الغفير. فليُنظر امرؤ أين يضع قدمه». ويختتم بإحاطته قارؤه إلى ابنزلي الذي ينبغي أن يحود. له - وحده - «فصل المقال» في الموضوع: «ولا ينبئك مثل خبير. فأبو حامد ممن قتل هذه الأمور خبرة، وصرّح فيها بالبيان الشافي في مواضع من كتبه»^(٣٣).

ومذهبياً، لا يحضر ابن رشد إلا بالرفض القاطع المطلق. فمذهب الحكيم الفلسفة، والفلسفة عند الشاطبي مرفوضة سُنّة. وهو يصرّح بهذا الرفض في ثلاثة مواضع على الأقل. ففي «الموافقات» يدعّ الفلاسفة، بإطلاق، بأنهم من «المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية»، ويصفّتهم هذه «تدخل عليهم الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم، ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤديان إلى التقاطع والتناحر

(٣٣) «الموافقات»، ج ٢، ص ٢٢٢.

الشاطبي: شافعي عصر الاندلس

ولتعصب، حتى تفرقوا شيئاً^(٣٤). وإذا فعلوا ذلك خرجوا عن السنة، وتعين بالتالي أن «يتبرأ المسلمون منهم»^(٣٥). وفي «الاعتصام» يدرج الحديث عن الفلاسفة في باب «ذم البدع وسوء منقلب أصحابها»، لأنهم يدعون «إدراك الأحوال الأخروية بمجرد العقل قبل النظر في الشرع»، فيبنون الروحي على أصل العقل، بدلاً من أن يبنوا العقل على أصل الوحي؛ فهم بذلك مثال للمبتدعين الذين يريدون أن يخرجوا الأصول «على مقتضى عقولهم»^(٣٦). وفي نص لاحق يحكم بتبديع «النظر الفلسفي» بما هو كذلك، وينكر أن «يكون الكلام فيه مباحاً فضلاً عن أن يكون مندوباً إليه»، ولا يجد من توصيف آخر لـ «أهل لفلسفة» سوى دمعهم بأنهم «الخارجون عن السنة، المعلومون في الفرق الضالة»^(٣٧).

وأخيراً منهجياً أو أداتياً، فالشاطبي، خلافاً لمرفوضه ابن رشد ولمنقوده ابن حزم، وخلافاً حتى للغزالي الذي كان شيخه الأول كما سنرى، يتأبى عن تبني المنطق الأرسطي ولو كمجرد أداة. والحق أنه لا بدّ من وقفة. بل نظراً إلى خطورة الموضوع، فحري بنا أن نورد له فقرة خاصة.

الشاطبي ومنطق المقدمتين

إن المنطق هو العضادة الأم للنظام البرهاني كما يفهمه الجابري، وعلى هذه العضادة يبني الجسر الاستمولوجي لموهوم الذي يصل في رأيه بين المشروع الحزمي - الرشدي وتجديد الشاطبي في علم الأصول. وفي ذلك يقول: «إذا نحن أردنا أن نجعل في كلمات جانب التجديد والإبداع في منهج الشاطبي، لوجب القول إنه يتمثل في تطوير ثلاث خطوات منهجية تعرفنا إليها سابقاً: الخطوتان الأوليان سبق أن مارسهما قبله كل من ابن حزم وابن رشد وهما: الاستنتاج (أو القياس الجامع) والاستقراء. أما الخطوة الثالثة فقد برزت عند ابن رشد خاصة وتمثّل في التركيز على ضرورة اعتبار مقاصد الشرع. لقد رأينا كيف أن ابن حزم أبطل القياس وأحل محله ما عبّر عنه

(٣٤) لنلاحظ إن الاختلاف في الرأي هو بعد داته عند الشاطبي، كما في كل الاستمولوجيا الإسلامية عموماً، شر ومصدر «فتنة».

(٣٥) «المواقفات»، ج ١، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣٦) «الاعتصام»، ج ١، ص ٤٧.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

بـ «الدليل»، وقد شرحنا كيف أن هذا الأخير يعني عنده تركيب قياس «برهاني» من مقدمتين لا بد من أن تكون إحداهما نصاً والثانية إما بديهية عقل وإما إجماع. وقد رأينا كيف أن هذه الخطوة المنهجية، التي دعا ابن حزم إلى اعتمادها في ميدان الشريعة بدلاً عن قياس الفقهاء، قد طبقها ابن رشد، بمهارة، في ميدان العقيدة، بدلاً عن منهج المتكلمين: الاستدلال بالشاهد على الغائب. ويأتي الشاطبي ليستلهم التطبيق الرشدي للخطوة المنهجية الحزمية، ويدشن مقالاً جديداً تماماً في المنهج الأصولي قوامه «أن كل دليل شرعي مبني على مقدمتين»، إحداهما نظرية تثبت بضرورة الحس أو بضرورة العقل أو بالنظر والاستدلال، أما الثانية فنقلية تثبت بالنقل عن لشارع نقلاً صحيحاً» (٣٨).

إن هذا النص يثير إشكالات منطقية عديدة، منها أن الاستقراء هل هو استقراء ألفاظ الشرع كما قال ابن حزم أم استقراء معاني الشرع كما يرى الشاطبي؟ ومنها: هل القياس المركب من مقدمتين، أولاهما نص وثانيتها بديهية عقل أو إجماع، هو قياس برهاني؟ أم هو على لعكس نموذج ناجز للقياس البياني؟ ومنها دعوى إبطال «قياس الفقهاء». فهل كان الشاطبي حزمياً من هذا المنظور، أم كان على العكس ضد ابن حزم بقدر ما أثبت ضده قياس الفقهاء وشدد عليه النكير - كما رأينا في الفقرة السابقة - بالضبط لإنكاره القياس بطلاق؟

ولكن ما سنتوقف عنده هنا هو، حصراً، تزيف ناقد لعقل العربي على الاستمرارية التاريخية للعقل العربي الإسلامي، عندما يصور انتصار الشاطبي لبناء الدليل الشرعي «على مقدمتين» على أنه تجديد للمنهج الأصولي، بله على أنه «قطيعة معرفية» - من طبيعة حزمية «مغربية» - مع المأثور الفقهي والأصولي «المشرقي».

وأول ما سنلاحظه ههنا أن الشاطبي، إذ يقرر «أن كل دليل شرعي مبني على مقدمتين»، لا يلشن مقالاً جديداً تماماً في المنهج الأصولي، بل يفصح عن مديونية تاريخية. ومرجع هذه المديونية ليس إلى «المغربي» ابن حزم الذي وجدنا الشاطبي يكرر إنكاره للقياس، بل إلى «المشرقي» أبي حامد الغزالي الذي وجدنا الجابري يحمله مسؤولية «أزمة العقل» في الفكر العربي الإسلامي. ويدون أن ندعي أي ريادة مطلقة

(٣٨) «بنية العقل العربي»، ص ٥٣٩.

للغزالي - فليس في تاريخ الفكر «خلق من عدم» - فإننا نستطيع أن نقرر في شبه يقين أنه كان، بين الأصوليين القياسيين، أول من صاغ بإحكام معادلة انبناء الأدلة الشرعية «على مقدمتين» وقد فعل ذلك في أكثر من كتاب له مثل «معيان العلم» و «محك النظر». ثم عاد يلخص النتائج التي انتهى إليها في مجال توظيف المنطق في الفقهيات في كتابه الأصولي الكبير «المستصفى». ويدون أن نزعم تطابقاً في لموقف بين الشاطبي والغزالي في مجال التوظيف الفقهي للمنطق، فإننا سنلاحظ أنه إن يكن من زيادة في مجال «إعادة بناء هذا العلم» - علم أصول الشريعة - بالصورة التي تجعل منه علماً برهانياً^(٣٩)، فهي تعود لا إلى الشاطبي الغرناطي كما في فرضية الجابري، بل إلى الغزالي الطوسي. فأبو حامد هو من يقول في «المستصفى»، المصنف قبل ثلاثة قرون من «الموافقات»: «إعلم أن البرهان عبارة عن أقاويل مخصوصة ألفت تأليفاً مخصوصاً بشرط مخصوص يلزم منه رأي هو المطلوب الناظر بالنظر»^(٤٠). وهو من يضيف القول: «البرهان عبارة عن مقدمتين معلومتين تؤلفان تأليفاً مخصوصاً بشرط مخصوص فيتولد بينهما نتيجة... فإن كانت المقدمات قطعية سمينها برهاناً، وإن كانت مسلمة سمينها قياساً جدلياً، وإن كانت مظنونة سمينها قياساً فقهيّاً»^(٤١). وهو من يفضل القول: «أقن ما ينتظم منه برهان مقدمتان، أعني علمين يتطرق إليهما التصديق والتكذيب، وأقل ما تحصل منه مقدمة معرفتان توضع إحداهما مخبراً عنها والأخرى خبراً ووصفاً، فقد انقسم البرهان إلى مقدمتين وانقسمت كل مقدمة إلى معرفتين تنسب إحداهما إلى الأخرى. وكل مفرد هو معنى ويُدلّ عليه لا محالة بنقطة، فيجب ضرورة أن ننظر في المعاني المفردة وأقسامها ثم في الألفاظ المفردة ووجوه دلالتها. ثم إذا فهمنا اللفظ مفرداً والمعنى مفرداً ألفنا معيين وجعلناهما مقدمة. وننظر في حكم المقدمة وشروطها، ثم نجتمع مقدمتين ونصوغ منهما برهاناً، وننظر في كيفية الصياغة الصحيحة. وكل من أراد أن يعرف البرهان بغير هذا الطريق فقد طمع في المحال»^(٤٢).

وإذا كانت هذه النصوص الغزالية «تقطع» ببطلان مفهوم «لقطعية» كمفهوم مؤسس

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٥٤٠.

(٤٠) الغزالي: «المستصفى من علم الأصول»، ويليه «كتاب فوائده للرحموت بشرح مسلم الشوت»، طبعة دار الفكر المصورة عن طبعة بولاق، ج ١، ص ٢٩.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٧ - ٣٨. وستكون لنا عودة إلى مسألة اليقين والظن.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٩ - ٣٠.

للعلاقة بين الشاطبي المُثَمِّى قسراً عنه إلى «لمدرسة الحزمية . الرشدية» وبين من تقدّمه من لأصوليين «المشركين» بدءاً بالشافعي وانتهاء بالغزالي، فإن تدقيق النظر في نصوص أخرى من كتاب «الأدلة الشرعية» من «الموافقات» ينفي كل قابلية لتوصيف هذه القطيعة المزعومة بأنها «ابستمولوجية». فالشاطبي غير معني من قريب أو بعيد، في أطروحته عن اتبناء الأدلة الشرعية على مقدمتين، بنظرية المعرفة. فعلى العكس من الغزالي، الذي يرث عنه هذه الأطروحة إراثاً مباشراً، فإنه لا يستهدف من البناء على المقدمتين الوصول إلى إنتاج أي معرفة جديدة. فما يضعه نصب عينيه ليس توليد «نتيجة مجهولة» هي «مطلوب الناظر بالنظر»، بل الخلوص إلى موقف عملي بالمعنى التكليفي للكلمة، أي بلغته التقنية كأصولي «تحقيق مناهج الحكم» بغية الإقدام على فعل أو الامتناع عنه من متطور التحليل والتحريم. فالبناء على مقدمتين محصور الهدف عند الشاطبي بالأفعال، ولا يتعدى أبداً العمليات إلى العقلية كما عند الغزالي. وذلك هو أصلاً مفهوم الدليل الشرعي عنده. فكل ما «لا يتعلق به تكليف» ولا يدل «على شيء من الأعمال»، «خرج عن كونه دليلاً» [شرعياً]^(٤٣). وصحيح أن الشاطبي يضع في صيغة «مسألة» كون «الأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول»^(٤٤)، ولكن العقول التي يضعها نصب ناظره هي «عقول المكلفين». ولهذا يضيف حالاً: «وبيان ذلك أن الأدلة إنما نصبت في الشريعة لتتلقاها عقول المكلفين حتى يعملوا بمقتضاها من الدخول تحت أحكام التكليف»^(٤٥). وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن «المقصود من وضع الأدلة تنزيل أفعال المكلفين على حسبها»^(٤٦)، فإن «النقطة الابستمولوجية الهائلة» التي دشنها الشاطبي (في الفكر الأصولي البياني العربي) على حد زعم ناقد العقل العربي تبدو غاية في السداجة. صحيح أن ناقد العقل العربي يسعى إلى التهويل على القاري بعضاً «المقدمتين» المفترعتين إلى واحدة عقلية «تشت بالنقل عن الشارع نقلاً صحيحاً»، وثانية

(٤٣) «الموافقات»، ج ٣، ص ١٥.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٣. وقد يكون من المفيد أن نذكر أن «الشيخ محمد حسين مخلوف من أكابر علماء الأزهر»، الذي تولى التعليق على الطبعة المصورة الصادرة من دار إحياء الكتب العربية، قد رأى من واجبه أن يقيد مسألة الشاطبي من كون الأدلة الشرعية «جارية على قضايا العقول» بالتعويض في الهامش. «أي أحكام العقول المليمة الواجحة، دون السقيمة المدخولة فإنه لا عرة بها».

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٧.

نظرية «ثبتت بضرورة لحسن أو بضرورة العقل أو بالنظر والاستدلال». ولكن تفكيك هذا «القياس البرهاني لجامع» - على حد توصيف ناقد العقل العربي - بدالة المقصود المعلن للشاطبي، أي المقصود التكليفي، يتكشف لا عن «خطوة منهجية» فاصلة نقلت علم أصول الشريعة التقليدي إلى مستوى «علم أصول المعرفة العلمية» [= الاستمولوجيا المعاصرة]، بل عن «تحصيل حاصل» يكاد يكون هو عين البداهة، من حيث عدم الحاجة إلى أي إعمال للذهن من قبل المتلقي الذي هو المكلف أيًا يكن حظه من المداخلة أو حتى من الأمية^(٤٧). فالمقدمة الثقلية لا تعدو أن تكون أي حكم من الأحكام الشرعية أمراً أو نهياً، ندباً أو كرهاً. وصحيح أن الشاطبي لا ينكر وجود «أدلة شرعية» مبنية «على طريقة البرهان العقلي»، ولكن الأدلة التي يتوقف عندها تكاد تكون حصراً «الأدلة الدالة على الأحكام التكوينية». والحال «أن هذه النصوص وأمثالها لم توضع وضع البراهين، ولا أُتي بها في محل استدلال، بل جاء بها قضايا يعمل بمقتضاها مسلمة متلقاة بالقبول. وإنما برهانها في الحقيقة المعجزة الدالة على صدق الرسول... والدليل [بهذا] المعنى نتيجة أنتجتها المعجزة فصارت قولاً مقبولاً فقط»^(٤٨). وإنما هذا «القول المقبول» هو الذي يتنزل منزلة «المقدمة الثقلية». و«خاصية المقدمة الثقلية أن تكون مسلمة» و«إذا تحقق أنها ثقلية فلا تفتقر إلى نظر وتأمل إلا من جهة تصحيحها نقلاً»^(٤٩). وبهذا المعنى فإن «المقدمة الثقلية» هي محض مرادف للحكم الشرعي، بل هي «نفس الحكم الشرعي»، مما جاء بيانه في الكتاب أو في السنة التي هي بيان لبيان الكتاب. أما «المقدمة النظرية» فترجع، لا إلى الحكم، بل إلى «تحقيق مناط الحكم». ويرغم فدخامة التسمية، فليست هي الحاكمة، بل هي المحكوم عليها. ودورها ثانٍ وليس أول. وقياساً على القياس الأرسطي، هي مقدمة صغرى لا كبرى. فليس لها من دور غير أن تدرج ما هو خصوص تحت ما هو عموم. فإن يكن الحكم [= المقدمة الثقلية الكبرى] قد قضى بتحريم لحم لخنزير مثلاً، فليس للمقدمة النظرية الصغرى غير أن تقرر هل هذا اللحم لحم خنزير أو لا. وصحيح أن هذا التقرير قد يقتضي أحياناً إعمال «الفكر والتدبر»، ولكنه قد يكتفي غالباً بضرورة الحس والتجربة. والمثال التقليدي الذي يضره الشاطبي في هذا السياق هو مثال حرمة

(٤٧) ستكون لنا عودة إلى تصور الشاطبي لما يسميه بـ «أمية اشريعة» و «أمية الأمة» المخاطبة بها.

(٤٨) «الموافقات»، ج ٣، ص ٢٩.

(٤٩) المصير نفسه، ص ٣٥.

السُّكر: «إذا قلت إن كن مسكر حرام فلا يتم القضاء عليه حتى يكون بحيث يشار إلى المقصود منه ليستعمل أو لا يستعمل، لأن الشرائع إنما جاءت لتحكم على الفاعلين من جهة ما هم فاعلون. فإذا شَرع المكلف في تناول خمر مثلاً قيل له: أهذا خمر أم لا. فلا بد من النظر في كونه خمراً أو غير خمر، وهو معنى تحقيق المناط. فإذا وجد فيه أمانة الخمر أو حقيقتها بنظر معتبر قال: نعم هذا خمر، فيقال له: كل خمر حرام الاستعمال فيجتنبه»^(٥٠). ولئن تكن قد شددنا على تقليدية هذا المثال - فضلاً عن بساطته - فلأنه عينه المثال الذي يسوقه ناقد العقل العربي نقلاً عن الشاطبي يستدل به على أن مؤلف «الموافقات» قد «دشن مقالاً جديداً تماماً في المنهج الأصولي». والحال أن هذا المثال عينه كان ساقه الغزالي - ولم يكن في ذلك رائداً - في «المستصفى». وقد ساقه بالتحديد تمثيلاً على إثبات الدليل الشرعي بمقدمتين. يقول: «البرهان عبارة عن مقدمتين معلومتين تؤلف تاليفاً مخصوصاً بشرط مخصوص فيتولد بينهما نتيجة... مثال [ذلك] من الفقه قولنا: كل نبيذ مسكر وكل مسكر حرام، فلزم أن كل نبيذ حرام. فهاتان مقدمتان إذا سلمتا على هذا الوجه»^(٥١) لزم بالضرورة تحريم النبيذ... وإذا ذكرنا أصل القياس فإن كن مقدمة أصل، فإذا ازدوج أصلان حصلت النتيجة. وعادة الفقهاء في مثل هذا النظم أنهم يقولون: النبيذ مسكر فكان حراماً قياساً على الخمر... فإن رُذ إلى هذا النظم ولم يكن مسلماً، فلا تلزم النتيجة إلا بإقامة الدليل حتى يثبت كونه مسكراً - إن نوزع فيه - بالحسن والتجربة، وكون المسكر حراماً بالخبر، وهو قوله (ص): كل مسكر حرام... وإذا فهمت صورة هذا النظم فاعلم أن في هذا البرهان مقدمتين، إحداهما قولك: كل نبيذ مسكر، والأخرى قولنا كل مسكر حرام. وكل مقدمة تشتمل على جزئين: مبتدأ وخبر. المبتدأ معكوم عليه والخبر حكم»^(٥٢).

بإمكاننا إذاً، بسهولة أن نفترض أن شجرة نسب الشاطبي غزالية لا حزمية. ولكن حتى في هذه الحال فلا مناص من التزام قدر من الحذر. فالشاطبي يرث من الغزالي لغته المنطقية، ولكن ليس موقفه المتعاطف مع المنطق. ولئن يكن استعار بوساطته بعض اصطلاحات أهل المنطق، فقد أبدى نفوراً شديداً، بن رفضاً صريحاً لـ «منطق

(٥٠) المصنف نفسه، ص ٢٣ - ٢٤.

(٥١) رهبا على كل حال غير مسلمتين، رقله في فقه بعض الأحناف ممن يمارون في أن يكون النبيذ خمراً.

(٥٢) الغزالي: «المستصفى»، ج ١، ص ٣٧ - ٣٨.

لمنطق». وحتى ما استعاره، بوساطة الغزالي، من اصطلاحات المنطقيين، ومنها على سبيل المثال مصطلح «المقدمتين»، فقد أبى تنزيلها على لغتهم. وكما لاحظ دارسه، فلئن اتفق له، هنا وهناك، أن أعطى «الدليل الشرعي صياغة صورية منطقية، فذلك لا يعدو أن يكون كما قال تشابهاً عرضياً»^(٥٣). وبالفعل، فقد تصدى الشاطبي بنفسه لتشريح منهجي لمسألة المقدمتين في لباب العاشر من كتابه الاعتصام. قال: «قد اعترف الجميع بأن العلوم المكتسبة لا بد في تحصيلها من توسط مقدمتين معترف بهما. إن كانتا ضروريتين فذاك، وإن كانتا مكتسبتين فلا بد من اكتساب كل واحدة منهما مقدمتين، وينظر فيهما كما تقدم. وكذلك إن كانت واحدة ضرورية وأخرى مكتسبة، فلا بد للمكتسبة من مقدمتين، فإن انتهينا إلى ضروريتين فهو المطلوب، وإلا لزم التسلسل أو الدور، وكلاهما محال. فإذا، لا يمكن أن نعرف غير الضروري إلا بالضروري»^(٥٤). بيد أن هذه الإحالة إلى آلية المعرفة لدى الطبيعيين والمنطقيين ليس غرضها إطلاقاً تثبيت مشروعيتها في إنتاج المعرفة الشرعية، ولا على الأخص تقديم النصاب الاستمولوجي للروية البرهانية على النصاب الاستمولوجي للروية البيانية. بل على العكس تماماً. فقد أورد الشاطبي ذلك الكلام في معرض الطعن في دعوى القائلين بـ «تحسين الظن بالعقل»، باعتبار ذلك واحدة من جهات الابتداع و «الإحداث في الشريعة». وهو يوظف آلية المقدمتين ضداً على مدعى أهلها في استقلال العقل. فعنده أن العقل غير مستقل بالتفريع، فكم بالأولى أن يكون مستقلاً في التفاصيل! فالتسلسل أو الدور الذي ينتهي إليه لا محالة توالي المقدمات مثني مثني يثبت، ضداً على أصحاب الفلسفة، أن «العقل فاصر الإدراك في علمه»، وأن أعلى سقف يمكن أن يرتفع إليه في تنبع الضروري الذي لا يعلم غير الضروري إلا بتوسطه، هو السقف الذي تعينه له القدرة الإلهية بوصفه هو نفسه عقلاً مخلوقاً. وفي ذلك يقول الشاطبي: «إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى إدراك في كل مطلوب»^(٥٥). ولا ينجو العقل من التسلسل أو الدور، وهو يجهل في أثر المطلوب، إلا إذا توقف «علم العبد» عند علم الرب وأسلم «التشريع لعقلي» إمرته للتشريع الوضعي. فإلله هو واضع المقدمات الأولى بإطلاق.

(٥٣) عبد المجيد الصغير: «الفكر الأصولي»، ص ٥٠٣.

(٥٤) «الاعتصام»، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٣١٨.

سبويه ضد أرسطو

على أن الشاطبي لا يكتفي بمحاكمة لاهوتية لمنطق المقدمتين، بل يُخضعه أيضاً لمناقشة تقنية، وهذا في آخر الجزء الأخير من «الموافقات»، وفي فصل اختار له محققه كعنوان أنه «لا يلزم أن تكون المقدمات على الوضع المنطقي». فما يُمنّ توخاه الشاطبي من هذه العودة الحتمية إلى حديث المقدمتين هو الطعن في حصر أهل المنطق للصلاحة الإجرائية بالقياس البرهاني (لقياس الجامع)، والاعلان عن استغناء علم أصول الفقه لا عن ألفاظ المنطق الأرسطي فحسب، بل حتى عن أكيته. فالشاطبي يبدو، في محصلة الحساب، أميل إلى الأخذ بمبدأ الاستنتاج من مقدمة واحدة، لا من مقدمتين، تنأياً منه عن «أهل المنطق» وتدائياً من «أهل الشرع». وبهذا المعنى يمكن القول عنه إنه نصير لما سيسميه بعض المتأخرين «المنطق الأصولي» أو حتى «المنطق الإسلامي»^(٥٦). وأياً يكن من أمر، فإن الشاطبي لم يكتب تلك الفقرة الختامية من «الموافقات» إلا للتنبيه إلى أنه حتى عندما يقول بعض من يقول من الأصوليين بوجوب المقدمتين «اعلم أن المراد بالمقدمتين ههنا ليس ما رسمه أهل المنطق على وفق الأشكال المعروفة... لأن المراد تقريب الطريق الموصل إلى المطلوب على أقرب ما يكون، وعلى وفق ما جاء في الشريعة. وأقرب الأشكال إلى هذا التقرير ما كان بديهياً في الإنتاج وما أشبهه من اقتراحي أو استثنائي. إلا أن المتحرى فيه إجراؤه على عادة العرب في مخاطبتها ومعهود كلامها، إذ هو أقرب إلى حصول المطلوب، ولأن التزام المصطلحات المنطقية والطرائق المستعملة فيها مئيد عن الوصول إلى المطلوب في الأكثر، لأن الشريعة لم توضع إلا على شرط الأمية. ومراعاة علم المنطق في القضايا الشرعية منافي لذلك. فإطلاق لفظ المقدمتين لا يستلزم ذلك الاصطلاح»^(٥٧).

وناقذ العقل العربي يعرف هذا النص ويعرف دلالته جيداً. والدليل أنه يشهد به،

(٥٦) انظر على سبيل المثال: عبي سامي النشار في «منهج البحث عند مفكري الإسلام»، وأحمد موسى سالم «العقل العربي ومنهج التفكير الإسلامي». وانظر على الأخص الفصل الممتاز الذي عقده د. طه عبد الرحمن حول «آليات تقريب المنطق اليوناني» والذي أوضح فيه إسقاط بن تيمية للقيد العددي في مقدمات القياس المنطقي وإثباته إمكانية الاستدلال من مقسمة واحدة أو اثنتين أو حتى من ثلاث أو أربع على حد سواء («تجديد المنهج في تقويم التراث»، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء ١٩٩٤، ص ٣٥٣).

(٥٧) «الموافقات»، ج ٤، ص ٢٠٠ - ٢٠١. وتوسيد مث.

الشاطبي: شافعي عصر الاندلس

ولكن بعد إخضاعه لعملية «تقليم أظافر» حقيقية. فهو يخرج تداً عن دلالة بابتدائه منه مفتتحة ومختمة، أي تحديداً العبارتين المسوّدتين اللتين تمان عن تحسس الشاطبي ونفترته من كل محاولة لـ «رد أصول الفقه إلى أصول علم المنطق» كما يقول في ختام الشاهد الذي ينقله - كما سنرى في المقطع التالي - عن النخس لكبير لفلسفة والمنطق الذي كانه الفقيه الصقلي أبو عبد الله محمد المازري

ولكن قبل أن تأتي إلى هنا الشاهد، فلنر أيضاً كيف يعمد ناقد العقل العربي، بعد تقطيع أوصال نص الشاطبي، إلى تحريف دلالة عمداً بالتلبس على القارئ. فهو إذ يورد قول الشاطبي: «وأقرب الأشكال إلى هذا تقرير ما كان بديهيّاً في الإنتاج وما أشبهه من اقتراني أو استثنائي»، يقحم من عندياته، بعد عبارة «وما أشبهه عبارة (قياس جامع) موضوعة بين قوسين، فيغدو النص المعاد إنتاجه برسم القارئ كما يسي: «وأقرب الأشكال إلى هذا التقرير ما كان بديهيّاً في الإنتاج وما أشبهه من (قياس جامع) اقتراني أو استثنائي»^(٥٨).

وموضع التلبس هنا أن ما هو «بديهي في الإنتاج» عند الأصريين والفقهاء لا يرادف ولا يشابه، بل على العكس يضاد «القياس الجامع». فالقياس الجامع ليس منتجاً إلا بقدر ما يقتضي استخراج ما يسميه المنطقة الحد الأوسط، على حين أن البداة في الاستنتاج تعني تحديداً الاستغناء عن وساطة الحد الأوسط. ولئن يكن الشاطبي قد حدّ ما أشبه «لبديهي في الإنتاج» بأنه ما هو «اقتراني أو استثنائي»، متحاشياً استخدام كلمة «قياس»، وكم بالأولى «قياس جامع»، فلائه يحاذر أولاً استخدام مصطلحات المنطقة، ولأن «الاقتراني والاستثنائي» عنده أدخل في باب «ما كان بديهيّاً في الإنتاج» منه في باب «القياس الجامع» الذي هو أقرب إلى أن يكون له تقيضاً، منه شبيهاً. وشاهدنا على ذلك أنه يستخدم - بتصريحه - كلمتي «الاقتراني والاستثنائي» بمعناهما اللغوي النحوي، لا بمعناهما المنطقي الفلسفي. فهو يمثل عليهما بالحديث والآية المشهورين اللذين طالما وظفهما أنصار المنطق من المتكلمين الإسلاميين كالغزالي وابن حزم في الانتصار لم انتصروا له. أما الحديث فهو الذي أسنده مسلم والدارقطني إلى الرسول: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام». وأما الآية فهي الآية الثانية والعشرون من سورة الأنبياء: «لو كان فيهما [السماء والأرض] آلهة إلا الله لفسدتا». فالشاطبي يلاحظ أولاً

(٥٨) «بنية الفعل العربي»، ص ٥٣٩.

أنه إن يكن الحديث النبوي جاء على رسم القياس الاقتراضي، فهذا من قبيل الصدفة لا الاطراد: «فذلك مما يدل على أنه من كلامه عليه الصلاة والسلام أمر اتفاقي، لا أنه قَصْدُ قَصْدِ المنطقيين». ثم إن «قوله عليه الصلاة والسلام: «وكل خمر حرم» مسلم لأنه نص النبي (ص)»، وليس على سبيل النتيجة المنطقية، مما يعني ضمناً أن لواو هنا هي واو الاقتران بالمعنى اللغوي، لا واو الاستنتاج بالمعنى المنطقي. وهذا لتأويل اللغوي النحوي، بالتضاد مع التأويل المنطقي الفلسفي، هو ما يصرح به الشاطبي لفظاً، وليس فقط ضمناً، عندما يقول في تفسير الآية المكية: «وهكذا يُقال في القياس الشرطي في نحو قوله تعالى: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» لأن «لو» لما سيقع لوقوع غيره، فلا استثناء لها في كلام العرب قصداً، وهو معنى تفسير سيبويه. ونظيرها «إن» لأنها تفيد ارتباط الثاني بالأول في التسبب، والاستثناء لا تعلق له بها في صريح كلام العرب. فلا احتياج إلى ضوابط المنطق في تحصيل المراد في المطالب الشرعية»^(٥٩).

سبويه وصريح كلام العرب: تلك هي إذً، مرجعية الشاطبي، وليس أرسطو والمنطق الأرسطي، ولا داعية تقريب حد المنطق الذي هو ابن حزم ولا شريكه في «المشروع البرهاني» ابن رشد الذي رفعه إلى «مستوى أعلى كثيراً مما كان عليه عند ابن حزم». والواقع أنه إن يكن ثمة مجال للحديث عن خط من الاستمرارية الوراثية في موقف الشاطبي من المنطق، فهو الخط الذي يربطه، لا بابن حزم وابن رشد، بن بفقهاء المالكية المتشددون في عدائهم للمنطق، وللفلسفة عموماً. والشاطبي نفسه هو من يحسم النقاش في مسألة «المقدمتين» باستشهاده بالباجي - خصيم ابن حزم - في كتابه «أحكام الفصول»، حيث «رد على الفلاسفة في زعمهم أن لا نتيجة إلا من مقدمتين، ورأى أن المقدمة الواحدة قد تنتج»^(٦٠).

والشاطبي هو أيضاً من يورد نصاً مطولاً للمازري - خصيم الغزالي «المتفلسف»^(٦١) - يرد فيه على من «أراد من بعض أهل الأصول أن يمزج هذا بشيء من علم أصحاب المنطق، فجاءهم في قولهم إنه «لا يكون القياس ولا تصح النتيجة

(٥٩) «المواصفات»، ج ٤، ص ٢٠٢.

(٦٠) الموضع نفسه.

(٦١) المازري هو من شاع على الغزالي بتهمة أنه «قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في علم الأصول، فأكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعاني وتسهيلاً للهجوم على الحقائق»

إلا بمقدمتين»، مع أنه إن ورد في الشريعة شيء على رسم أصول المناطق كـ «قوله عليه الصلاة والسلام: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»... فهذا إن اتفق في موضع أو موضعين في الشريعة، فإنه لا يستمر في سائر أقيستها. ومعظم طرق الأقيسة الفقهية لا يسلك فيها هذا المسلك، ولا يعرف من هذه الجهة». ويختم الشاطبي بالقول: «هذا ما قاله المازري. وهو صحيح في الجملة. وفيه من التنبيه ما ذكرناه من عدم التزام طريقة أهل المنطق في تقرير القضايا الشرعية»^(٦٢).

الاستقراء بين ابن حزم والشاطبي

إن هذا الشاهد الختامي من «الموافقات» لا يدع مجالاً للشك في أن الشاطبي كان أبعد الأصوليين عن أن «يدشن مقالاً جديداً تماماً في المنهج الأصولي قوامه ن كل دليل شرعي مبني على مقدمتين». ولكن ليس هذا الشق هو وحده ما ينهار من دعوى ناقد العقل العربي عن استلزام الشاطبي لأولى الخطوات المنهجية الحزمية المتمثلة في ممارسة الاستنتاج [= القياس الجامع]. بل ينهار أيضاً، بالقوة نفسها، الشق الثاني، المتصل باستلزام الشاطبي لثانية الخطوات المنهجية الحزمية المتمثلة في ممارسة الاستقراء. ولنترك الكلام للجابري: «هذا عن الخطوة لمنهجية الأولى. أما الخطوة الثانية فهي الاستقراء [الذي كان] ابن حزم قد دعا إلى اعتماده منهجاً في التعامل مع النص القرآني... ويأتي الشاطبي ليوظف الاستقراء الحزمي توظيفاً جديداً قوامه استخلاص «كليات الشريعة» التي هي «كليات استقرائية»... كليات مأخوذة من استقراء الأحكام الشرعية... بالطريقة التركيبية التي قوامها الانتقال من الجزئيات إلى الكلي الذي ينتظمها، وذلك بواسطة الاستقراء... وإنها لعمرى الطريقة العلمية حقاً. إنها الخطوة التي يتجاوز بها الفكر العلمي مرحلة المماثلة بمختلف أنواعها، بما فيها قياس الفقهاء. ورنه لما يثير التقدير والإعجاب معاً أن الشاطبي قد انتبه إلى نقطة الضعف في هذه الطريقة، الطريقة الاستقرائية التركيبية، فآلح على ضرورة مراعاة العلاقة الجدلية بين الكلي وجزئياته، وذلك باعتبار الكلي عند الحكم على الجزئيات التي يتكون منها، واعتبار لجزئيات عند الأخذ بالكلي الذي ينتظمها»^(٦٣).

(٦٢) «الموافقات»، ج ٤، ص ٢٠١. والتسويد منا.

(٦٣) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٠ - ٥٤٧.

إن أول ما يستوقفنا في هذا النص، الذي يريد أن يقرأ تجديد الشاطبي المنهجي بدلالة «لاستقراء الحزمي»، هو حماسة خاتمته التي يعوزها الحد الأدنى من الضبط الذاتي. فالجابري يلغي، بأقل من جرة قلم، كل المسافة الفاصلة بين آلية التفكير الاستقرائية - الاستنتاجية للقرون الوسطى وبين «الطريقة العلمية» للفكر الحديث. وكما في كل موقف انفعالي، فإنه لا يسر علينا أن نتحرى عن أسباب نفسية، لا عن أسباب معرفية، لحماسة ناقد العقل العربي. فما دام العقل المنقود هو حصراً العقل العربي المشرقي، فلا عجب في أن يسعى ناقله إلى أن يرفع، بأي ثمن كان، من درجة عقلانية «المشروع الأندلسي - المغربي» ليجعلها مقاربة لدرجة عقلانية الفكر العلمي الحديث. ومع أننا نسلم نحن أيضاً بألمعية الشاطبي ولا نتردد في أن نجعل منه «شافعي عصره»، فإننا لا نستطيع إلا أن نلاحظ أن مغالاة الجابري في تقييم «مشروعه التجديدي» - بالاستمرارية مع «النزعة البرهانية الحزمية» - تركز على قراءة مغلوطة لتصوص الشاطبي وابن حزم معاً إلى حد التزييف.

هذا التزييف يأخذ شكلاً سافراً، أولاً، من خلال حديث ناقد العقل العربي عن وراثته الشاطبي لما أسماه «الاستقراء الحزمي». فابن حزم لم يمارس، ولم يدع إلى ممارسة أي استقراء. وكرامته المعلقة للاستقراء ما كان يعدلها سوى كرامته للقياس، وعنده أن الاستقراء ضرب من القياس، هذا إن لم يكونا شيئاً واحداً. ومن ثم فإن حكمه عنده، كحكم القياس، أنه فاسد وباطل ومذموم، و«لا يدخل في عداد البرهان». وحسبنا الشاهد التالي من كتبه «التقريب لحد المنطق»، وهو من كتبه المتأخرة. ففي «باب ذكر أشياء عدها قوم براهين وهي فاسدة وبيان خطأ من عدّها برهاناً»، يقول: «فمن ذلك شيء سماه الأوائل «الاستقراء» وسماه أهل ملتا «القياس»، فنقول وبالله تعالى التوفيق: إن معنى هذا اللفظ هو أن تتبع بفكرك أشياء موجودات يجمعها نوع واحد أو جنس واحد، أو يحكم فيها بحكم واحد، فتجد في كل شخص من أشخاص ذلك النوع أو في كل نوع من أنواع ذلك الجنس صفة قد لازمت كل شخص مما تحت النوع أو كل نوع تحت الجنس أو كل واحد من المحكوم فيهم... فيقطع قوم من أجل ما ذكرنا على أن كل أشخاص ذلك النوع، وإن غابت عنهم، ففيها تلك الصفة، وإن كل ما فيه تلك الصفة من الأشياء فمحكوم فيه بذلك الحكم. ولعمري لو قدرنا على تقصي جميع الأشخاص أولها عن آخرها حتى نحيط علماً بأنه لم يشذ لها واحد، فوجدنا هذه الصفة عامة لجميعها، لوجب أن نقضي بعمومها لها.

وكذلك لو وجدنا الأحكام منصوبة على كل شيء فيه تلك الصفة لقطعنا أنها لازمة لكل ما فيه تلك الصفة. فأما ونحن لا نقدر على استيعاب ذلك ولا نجده أيضاً في الحكم منصوباً على كل ما فيه تلك الصفة، فهذا نكته من المتحكم به وتخبرص وتسهل في الكلب وقضاء بغير علم وغرور للناس ولنفسه... فينبغي لكل طالب حقيقة أن يقر بما أوجبه العقل، ويقر بما شاهد وأحس وبما قام عليه برهان... وأن لا يسكن إلى الاستقراء أصلاً إلا أن يحيط علماً بجميع الجزئيات التي تحت الكل الذي حكم فيه. فإن لم يقدر فلا يقطع بالحكم على ما لم يشاهد، ولا يحكم إلا على ما أدرك من دون ما لم يدرك. وهذا إذا تدبرته في الأحكام الشرعية فحكك جداً ومنعك من القياس الذي غرّ كثيراً من الناس ومن الأئمة الفضلاء الذين غلط بنلطهم ألوف ألوف من الناس. وأنت إذا فعلت ذلك كنت على يقين من الصواب لأنك لم تقطع بتحليل ولا بتحريم ولا بإيجاب إلا على كل ما أتاك عن الله تعالى الحكم عليه. وأما ما لم تجد فيه نصاً فأمسك عنه ولا تقطع عليه بأنه داخل في حكم ما وجدت فيه نصاً بتكهنك... واعلم وتنبه بما أنا موره عليك، إن شاء الله عز وجل: إن هذا الشيء الذي سموه استدلالاً الشاهد على الغائب وإجراء للعلة في المعلول، إنما يصح به إبطال التساوي في الحكم لا إثباته، لأنك متى وجدت أشياء مستوية في صفات ما، وهي مختلفة الأحكام، فلا تشك في اختلافها، بل معرفتنا باختلافها علم ضروري. وكذلك نكون حينئذ غير قاطعين على أن حكم ما غاب عن حواسنا من مسائل تلك الأشياء الغائبة التي تساوي هذه الحاضرة في الصنعة التي استوت هذه الحاضرة كلها فيها لا على أنه موافق لحكم هذه الحاضرة ولا على أنه مخالف... واعلم أن المتقدمين سمووا المقدمات «قياساً»، فتحيل إخواننا القيسيون حيلة ضعيفة سرفسطانية بأن أوقعوا اسم القياس على التحكم والسفسطة، فسموا تحكمهم بالاستقراء المذموم قياساً، وسموا حكمهم في ما لم يرد فيه نص بحكم شيء آخر مما ورد فيه نص لاشتباههما في بعض أوصافهما قياساً واستدلالاً وإجراء للعلة في المعلول فأردوا تصحيح الباطل بأن سموه اسماً أوقعه غيرهم على الحق الواضح... وقد قلت إنه ليس في العالم شيان إلا وبينهما شبهة ما وافتراق ما ضرورة لا بد من ذلك. فإن كان الشبه يوجب استواء الحكم، يحكموا بكل ما في العالم بحكم واحد في كل حال من أجل اشتباهه في صفة ما. ولما كان الاجتماع في شبهة يوجب استواء الحكم ولم يكن الافتراق في الشبه يوجب اختلاف الحكم؟ فينبغي على هذا أن لا نحكم لشيئين أصلاً

بحكم واحد لأجل اختلافهما في صفة ما. وكل هذا خطأ وحيرة، ومؤد إلى لثناقص والضلال، ونعوذ بالله من كل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٦٤).

الغزالي و «شرعة» الاستقراء

لقد كان تثبيت هذا النص الحزمي الطويل، المتضمن - والحق يقال - محاكمة عالية المستوى الاستمولوجي لمنهج «القياس الباطل» ومبدأ «الاستقراء المذموم»، ضرورياً لإثبات واقعة التزييف السافر: فناقذ العقل العربي، في مسعاه إلى مد جسر «برهاني» موهوم من ابن حزم إلى الشاطبي، لا يجد من حرج «علمي» في أن يرد «الاستقراء الشاطبي» إلى أصل معدوم الوجود: «الاستقراء الحزمي»^(٦٥). ولكن هذا كله، على خطورته الفائقة من منطور الأمانة العلمية، لا يعفيانا من التوقف عند التزييف المبطن.

(٦٤) «رسائل ابن حزم الأندلسي»، تحقيق إسماعيل عباس، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت (١٩٨١، ج ٤، ص ٢٩٦ - ٣٠٩).

(٦٥) الواقع أن الليل الوحيد الذي يسوقه ناقذ العقل العربي على الممارسة الحزمية للاستقراء هو ذلك الذي يورده عند حديثه عن رفض ابن حزم تلزع المتكلمين بأية «فاعتبروا يا أولي الأبصار» لاتخاذها «حجة لإثبات العمل بالقياس» فعند ابن حزم - وهو بذلك يخالف لا المتكلمين وحدهم بل كذلك ابن رشد الذي سيحتج بالآية نفسها لإثبات العمل بالنظر الفلسفي - أن «معنى «اعبروا» كما يدل عليه السياق هو تعجبوا وليس قيسوا. وإنما في هذا السياق يضيف الجابري قوة: «هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن استقراء الآيات التي وردت فيها كلمة «عبرة» يعطينا أن المعنى هو التعجب لا غير» (بليّة العقل العربي، ص ٥٢٤). هذا هو الدليل اليتيم الذي يسوقه الجابري على ما لم يتردد في أن يسميه «الاستقراء الحزمي». والحال أن هذا الدليل وإو وزائف معاً. وإو لأن استقصاء معنى كلمة «عبرة» في الآيات التي وردت فيها - وهي ست - لا يعدل استقراء. ولو صح ذلك لاستحق جميع اللغويين والمفسرين القرآنيين الوصف بأنهم «استقراءيون». وزائف لأن ابن حزم لم يقم بأي قراءة «استقرايية» للآيات الست التي وردت فيها كلمة «عبرة». بل كل ما فعله أنه توقف عند آيتين. «ولقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبصار» «وإن لكم في الأنعام لعبرة»، فلاحظ أن معنى «عبرة» في الآية الأولى هو «الاعتبر»، وفي الثانية «التعجب»، وأنهما في الحالين لا تعنيان «القياس» كما يزعم من يرد عليهم من المتكلمين الغتيايين. ولا غرو أن يكون الجابري قد أخضعاً عندما أحال قارئة، كمرجع لشاهدته عن «الاستقراء الحزمي»، إس «الجزء الثامن، ص ٧٤ وما بعده» من كتاب الإحكام في أصول الأحكام. فليس في هذا الجزء أي ذكر للآيات التي وردت فيها كلمة «عبرة». وإنما ذلك في الجزء السابع حصراً. ولكن ليس على سبيل «الاستقراء»، بل فقط على سبيل فضح تمويه المتكلمين» و «جابري عاذتهم في تسمية الباطل باسم الحق» و «تحريف الكلم عن مواضعه».

فإنما «الفرع» الشاطبي في الاستقراء إلى «أصل» حزمي موهوم قد اقتضى من ناقد العقل العربي أن يبحث «الجذر». ذلك أنه إن يكن من شجرة نسب فعلية ينتمي إليها الشاطبي فهي، في النهج الاستقرائي كم في قاعدة البناء على مقدمتين، الشجرة الغرلية. فالغزالي هو «الشيخ» الفعلي للشاطبي، وإن بالمطالعة لا بالمناولة. وعلى التقيض التام من ابن حزم الذي أنكر الإجراء الاستقرائي في الشرعيات، فإن الغزالي هو أول من أضفى المشروعية الاستمولجية في الفكر العربي الإسلامي على نقل ما سماه الأوائل «الاستقراء» من مجال الطبيعيات إلى مجال الفقهيات. وهذا قبل قرون ثلاثة من الشاطبي، وهذه نقطة ستكون لنا إليها عودة عندما نتطرق إلى «نظرية المقاصد»، لأن ناقد العقل العربي يطيب له أن يؤكد مراراً وتكراراً أن «العناصر التي تؤسس تفكير الشاطبي ومنهجيته» - ومنها بطبيعة الحال النهج الاستقرائي، التركيبي - «لم يكن لها حضور تاميس، بل ولا أي نوع من الحضور، في الحقل المعرفي البياني»^(٦٦).
والحال، إن ما يصير ناقد العقل العربي على أن يسميه - لأميابة تتصل بالمفضلة بين الشقن المشرقي والمغربي لهذا العقل - «قطعة استمولجية»، يتكشف مرة أخرى على أنه «اتصالية». فإعمال المنهج الاستقرائي في الفقهيات تعود أبوته إلى الغزالي، كما يشهد على ذلك النص التالي الذي نقتطعه من «معياري العلم»^(٦٧): «الاستقراء هو أن تتصفح جزئيات كثيرة داخلية تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكماً في تلك الجزئيات حكمت على ذلك الكلي به... والحكم المنقول ثلاثة: إما حكم من كلي على جزئي، وهو القياس الصحيح... وإما حكم من جزئي واحد على جزئي واحد كاعتبار الغائب بالشاهد، وهو التمثيل، وإما حكم من جزئيات كثيرة على جزئي واحد، وهو الاستقراء، وهو أقوى من التمثيل. ومثال الاستقراء في لفقه قولنا: الوتر لو كان فرضاً لما أدي على الراحلة، ويستدل به... باستقراء جزئيات الفرض من الرواتب وغيرها كصلاة الجنابة والمنذورة والقضاء وغيرها... وإذا كثرت الأصول قوي الظن.

(٦٦) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٧. والتسويد منا.

(٦٧) الحديث هنا عن «أبوة» الغزالي يجب أن يؤخذ بالمعنى المقيد، لا بالمعنى المطلق. فإن يكون الغزالي «أباً» للاستقراء الفقهي، فليس هذا معناه أنه أول بإطلاق. فليس في الفكر بدء مطلق، ولا خلق من عدم. والغزالي هو، على أي حال، مثال ناجز لاشتغال قانون تحول الكم من جراء التراكم إلى كيف. فليس كمثلته من أخذ عن المتقدمين عليه، وليس كمثلته من أخرج ما قبسه في صياغة جديدة. فإبداع الغزالي أحق بالوصف، بحسب التعبير للخلدوني، بأنه «إنشاء مستأنفة».

ومهما ازدادت الأصول الشاهدة، أعني الجزئيات، اختلافاً كان الظن أقوى فيه. حتى إذا قلنا: مسح الرأس وظيفة أصلية في الوضوء فيستحب فيه التكرار، فقليل: لم؟ قلنا: استقرينا ذلك من غسل الوجه واليدين وغسل الرجلين، ولم يكن معنا إلا هذا الاستقراء... فإن قيل: فدم لا يقال للفقيه: استقرؤك غير كامل، فإنك لم تتصفح محل الخلاف؟ فالجواب أن قصور الاستقراء عن الكمال أوجب قصور الاعتقاد الحاصل في اليقين، ولم يوجب بقاء الاحتمال على التعادل، كما كان، بل رجح بانظن أحد الاحتمالين. والظن في الفقه كاف، واثبات الواحد على وفق الجزئيات الكثيرة أغلب من كونه مستثنى على التدور... وإمكان الخلاف لا يمنع الظن، ولا سبيل إلى جحد لإمكان مهما لم يكن الاستقراء تاماً. ولا يكفي في تمام الاستقراء أن تتصفح ما وجدته شاهداً على لحكم إذا أمكن أن ينتقل عنه شيء، كما لو حكم إنسان بأن كل حيوان يحرك عند المضغ فكه الأسفل لأنه استقرى أصناف الحيوانات الكثيرة. ولكنه لما لم يشاهد جميع الحيوانات لم يأمن أن يكون في البحر حيوان هو التمساح يحرك عند المضغ فكه الأعلى، على ما قيل^(٦٨). . . فإذا، حصل من هذا أن الاستقراء التام يفيد العلم، والناقص يفيد الظن. فإذا، لا يُتَنَفَّع بالاستقراء مهما وقع خلاف في بعض الجزئيات، فلا يفيد الاستقراء علماً كلياً بثبوت الحكم للمعنى الجامع للجزئيات حتى يجعل ذلك مقدمة في قياس آخر، لا في ثبات الحكم لبعض الجزئيات... فإن لم تتصفح الكل، بل تتصفح البعض... فهذا لا يورث يقيناً، إنما يحرك ظناً^(٦٩).

إزاء هذا النص ائتمت للاستقراء والنص السابق النافي له ينهض للحال سؤال: لماذا يصير ناقد العقل العربي على نسبة الموروث الاستقرائي للشاطبي إلى ابن حزم، خصيم الاستقراء، وليس إلى الغزالي، محاميه؟ بكل بساطة لأن الاستقراء في نظر ناقد العقل العربي آلية معرفية برهانية «مغربية»، وليس لها ولا يمكن أن يكون لها «أي نوع من الحضور» في الحقل المعرفي البياني «المشرقي». وبصفته كذلك فإن الاستقراء، كمنهج، لا بد من أن يكون دليل وجود بالنسبة إلى ابن حزم «البرهاني» حتى ولو غسل يديه منه على رؤوس الأشهاد، مثلما لا بد في الوقت نفسه من أن يكون دليل غياب

(٦٨) هذا هو المثال التقليدي الذي طالما تداوله «الأوائل» على الاستقراء الناقص، أو على استحالة الاستقراء التام كما يلعب إلى ذلك ابن حزم.

(٦٩) لغزالي: «معيان العلم»، دار الأندلس، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٣، ص ١١٥ - ١١٩.

بالنسبة إلى الغزالي «البياني» حتى ولو أخذ على عاتقه مهمة التأسيس النظري له في أهم معقل للنظام المعرفي البياني: الفقه وأصول الفقه.

الاستقراء البرهاني والاستقراء البياني

لقد رأينا كم تجشم ناقد العقل العربي من جهد «لامعرفي» لتغيب «الاستقراء الغزالي» الموجود وإحضار «الاستقراء الحزمي» المعلوم. وما كان لنا أن نضيف مزيداً لولا مفاجأة إضافية يدها لنا الشاطبي نفسه في هذا الصدد: فبقلمه يتحول الاستقراء نفسه من منهج برهاني إلى منهج بياني

ما المسافة الفاصلة بين الاستقراء البرهاني والاستقراء البياني؟ هي بالضبط المسافة عينها التي تفصل بين الاستقراء التام والاستقراء الناقص. وقد وجدنا ابن حزم يعلن - على كرهته لمبدأ الاستقراء بحد ذاته - عن استعداده ليقول الاستقراء التام لولا أنه مستحيل عمدياً ولولا أنه غير منتج على غلاء كلفته من المجهود. فما دامت جزئيات الكل الواحد لا يحكم عليها بحكم واحد إلا بعد الحكم على كل واحد منها جزءاً جزءاً، فما الحاجة إلى تكلف جهد إضافي لتجريد الكل للحكم عليه بحكمها وللحكم عليها من ثم بالحكم المنقول منها إليه؟ وإذا كان الهدف من الاستقراء هو توفير الجهد للحكم على الغائب بالشاهد، فإن الاستقراء التام يلغي مبدأ الاستقراء بالذات لأنه لا يتعامل إلا مع الشواهد ولا يعترف بوجود غوائب، إذ لو وجدت لكف عن أن يكون تاماً. أما الغزالي فقد ميز تمييزاً قاطعاً بين الاستقراء التام اليقيني والاستقراء الناقص الظني. فـ «الاستقراء التام يفيد العلم»^(٧٠) والناقص يفيد الظن». و «قصور الاستقراء عن الكمال يوجب قصور الاعتقاد الحاصل عن ليقين»، أو بعبارة أخرى، إن الاستقراء غير الكامل «لا يورث يقيناً، إنما يحرك ظناً». والحال أنه مهما تراكمت الظنون وتراكبت فإنها قد تقوى الظن، ولكنها لا تحيله يقيناً. والظن الغالب هو نصاب الاستقراء الفقهي. وهو نصاب مقبول وكاف، لأن غائية الفقه عملية وليست علمية. ويقدّر ما أن اعتبار الظنون في العقلية باطل، فإنه في الشرعيات جائز ومطلوب. فـ «الأكثر في عادة الشرع» «اتباع الأغلب على الظن». و «الرأي عندنا - كما يفصل الغزالي - أن مما يتصور أن يفيد رجحان ظن على ظن، هو موكول إلى لمجتهد. ولم يَئِنْ لنا في إلحاق

(٧٠) ولا علم عند الغزالي وكثيرين من الأصوليين غيره إلا أن يكون ضرورياً ويقينياً

غير المنصوص بالمنصوص إلا اعتبار أغلب الظنون. ولا ضوابط بعد ذلك في تفصيل مدارك الظنون. . . والظنون تختلف باختلاف أحوال المجتهدين، حتى إن شيئاً واحداً يحرك ظن مجتهد، وهو بعينه لا يحرك ظن الآخر. . . والاستقصاء (= الاستقراء الثام) الذي ذكرناه في العقلية، ينبغي أن يترك في الفقهيات رأساً. . . وينبغي أن تعلم أن اليقين في النظريات أعز الأشياء وجوداً، وأما الظن فأسهلها منالاً وأيسرها حصولاً. فالظنون المعتبرة في الفقهيات هو المرجح الذي يئسر به عند التردد بين أمرين: إقدام أو إحجام. . . وذلك القدر كافٍ في الفقهيات، والمضايقة والاستقصاء فيه يشوشان مقصوده، بل يُبطّله. . . فالاستقصاء لطلب اليقين. . . في الفقهيات. . . هوس محض وخرق، كما إن ترك الاستقصاء في العقلية جهل محض فليؤخذ كل شيء من مأخذه، فليس الخرق في الاستقصاء في موضع تركه بأقل من الحمق في تركه بموضع وجوبه»^(٧١).

وإنما هنا تكمن المفاجأة التي يعدها الشاطبي لقارئه. فصدأ على ابن حزم ينتصر للاستقراء انتصاراً جامحاً ليجعله الآلية الأولى في فهم كليات الشريعة. ولكنه ضدأ على الغزالي ينتصر بجموح مماثل للاستقراء الناقص على الاستقراء التام. وهو في انتصاره هذا يخلّ بمبدأ أساسي من مبادئ الطريقة البرهانية في الاستقراء: فعنده أن الاستقراء الناقص، على نقصانه، أي عدم شموله سائر الجزئيات، مورث لليقين. وذلك هو أصلاً جوهر مشروع الشاطبي: تأسيس أصول الشريعة على القطعيات، حتى وإن يكن الطريق إلى هذه القطعيات اقتناصها من الظنيات.

وبالفعل، إن الشاطبي يعلن من فاتحة المقدمة الأولى من المقدمات الثلاث عشرة التي يستهل بها «المواقفات»: «أن أصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية، والدليل على ذلك. . . ظاهر بالاستقراء المفيد للقطع»^(٧٢). ولكنه لا يلبث في ثلاثة المقدمات أن يحدد بأن «الأدلة المعتبرة هنا المستقراء من جملة أدلة ظنية تضافرت على معنى واحد حتى أفادت فيه القطع، فإن دلائل اجتماع من القوة ما ليس للافتراق»^(٧٣). وبطبيعة الحال، ما كان ليغيب عن وعي الشاطبي أنه بركوبه هذا المركب الوعر: القطع باليقين بدالة

(٧١) «معيار العلم»، ص ١٢٧ - ١٣٠.

(٧٢) «المواقفات»، ج ١، ص ١٠.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ١٤.

تراكم الظنون، إنما يخالف قاعدة منهجية مجتمعاً عليها من معظم من تقدمه من الأصوليين. ولهذا نراه يختتم هو نفسه «الموافقات» بالقول: إن «بيان كيفية اقتناص القطع من الظنيات هو خاصة هذا الكتاب»^(٧٤).

والعجيب أن ناقد لعقل العربي يهمل لهذه المجازفة التي ينفرد الشاذلي بأخذها على عاتقه، ويرى فيها دليلاً على «برهانيته»، قائلاً بالحرف الواحد: «يريد الشاذلي أن يجعل من علم الشريعة علماً برهانياً، علماً مبنياً على «القطع»... والقطع هو الجزم، وهو ضد الظن. وهو في النقليات يوازن اليقين في العقليات»^(٧٥).

وبديهي أن هذه المعادلة الجابرية: «الجزم = القطع = اليقين» هي أشد إرباعاً للعقل حتى من صيغة الشاذلي «اقتناص القطع من الظنيات». فأبسط ما يتجاهله ناقد العقل العربي هنا أن اليقين الذي يرادف القطع أو الجزم هو واحد من اثنين لا ثالث لهما. إم يقين هصايي وإما يقين دوغمائي. وأبسط ما يتجاهله أيضاً أن يقين العقليات لا يرادف قطع النقليات، بل قد يقتضي - أول ما يقتضي - وضعه بين قوسين أو رسم علامة استفهام حوله أو تعليق فاعليته. وأبسط ما يتجاهله أخيراً أن ترك باب الظن في النقليات - لا إغلاقه - هو ضمان إضافية لاستقلال العقل، ولبقائه حاكماً لا محكوماً عليه، ولحريته في الوصول إلى اليقين بطريقته الخاصة التي هي الطريقة البرهانية^(٧٦).

والحال، أن هذه الطريقة البرهانية هي التي يخل بها الشاذلي إخلالاً خطيراً عندما يستغني بالاستقراء الناقص عن الاستقراء التام، وعلى الأخص عندما يجعل لظنيات الأول نصاب قطعيات الثاني، لاغياً كل المسافة الايديولوجية والاستمولوجية بين النهجين. فالاستقراء الذي يأخذ به الشاذلي هو فعلاً «الاستقراء المذموم» من قبل «الأوائل»، أي لاستقراء الغالب أو الأكثري الذي لا يتردد في أن يسند إلى نفسه صفة «القطع» حتى لو تخلفت بعض الجزئيات عن حكم كليي المستقراً منها. وبالفعل، يعلن الشاذلي أن «الأمر الكلي إذا ثبت كلياً، فتخلف بعض الجزئيات عن مقتضى الكلي لا يخرج منه عن كونه كلياً. وأيضاً فإن الغالب الأكثري معتبر في الشريعة اعتبار

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٤، ص ١٩٤.

(٧٥) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٠.

(٧٦) وقديماً قيل: اختلاف الأئمة رحمة بينهم. فالاختلاف - ومداره الظنون - ضمان ضد «الغلقة الدوغمائية» (Fermature Dogmatique) التي يصورها الجابري مرادفة «للعلم البرهاني».

العام القطعي، لأن المتخلفات الجزئية لا يتنظم منها كلي يعارض هذا الكلي الثابت. هذا شأن الكليات الاستقرائية... فالكلية في الاستقرائيات صحيحة وإن تخلف عن مقتضاها بعض الجزئيات... فعلى كل تقدير لا اعتبار بمعارضة الجزئيات في صحة وضع الكليات للمصالح»^(٧٧).

ومن هنا مصدر عجب القارئ حينما يطالعه ناقد العقل العربي بتصريحه الانهاري - الإبهاري الذي تقدم بيانه: «إنه لما يثير التقدير والاعجاب معاً أن الشاطبي قد انتبه إلى نقطة الضعف في الطريقة الاستقرائية التركيبية، فألح على ضرورة مراعاة العلاقة الجدلية بين الكلي وجزئياته». ويظهر أن فكرة هذه العلاقة الجدلية، المسقطة من الفضاء الفلسفي للعقل الحديث على الفضاء اللاهوتي للعقل القروسطي، قد تبتدت لناقد العقل سديدة منتهى السداد حتى عاد يهول بها على القارئ لانتزاع اقتناعه سلفاً بصحة قراءته التفضيمية للشاطبي ولـ «نقلته الاستمولوجية الهائلة». وهكذا يكرر التوكيد، بعبارة مسودة هذه المرة، أن الشاطبي قد دلل على فهم عميق للعلاقة الجدلية بين الكلي والجزئي، بقوله: «إن تلقي العلم بالكلي إنما هو من عرض الجزئيات واستقرائاتها، فالكلي من حيث هو كلي غير معلوم لنا قبل العلم بالجزئيات... فالجزئي لم يوضع جزئياً إلا لكون الكلي فيه على التمام وبه قوامه»^(٧٨). والحال، أنه لو تابع الجابري قراءة «المسألة الأولى» من «كتاب الأدلة الشرعية» إلى آخرها - وهي المسألة التي يقبس من مقدمتها شاهد الشاطبي الأنف - بوجدتها تتضمن في خاتمها ميلاً إلى نفي «العلاقة الجدلية» بين الكلي والجزئي، لا إلى إثباتها. فليس الشاطبي هو إلى «الكلي»، وهو على حساب «الجزئي» عند الاقتضاء. ومن هنا يقرر في نهاية «المسألة الأولى» أن «الكلي لا ينخرم بجزئي ما، والجزئي محكوم عليه بالكلي»^(٧٩). ويضيف في «المسألة الثالثة»: «النادر لا حكم له ولا تنخرم به الكلية المستدل عليها»^(٨٠). وما دنا هنا بصدد الاستقراء، فلنقل إنه لو قرأ ناقد العقل العربي «الموافقات» قراءة استقرائية فعلاً، لأحصى ما لا يقل عن عشرة شواهد «تقطع» كلها بنزعة الشاطبي إلى تسييد الكلي على الجزئي من خلال علاقة تحكيمية يصعب وصفها بأنها «جدلية». وفي ما يلي بعض هذه

(٧٧) «الموافقات»، ج ٢، ص ٣٥.

(٧٨) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٢.

(٧٩) «الموافقات»، ج ٣، ص ٦.

(٨٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥.

- الشواهد نسوقها بلا تعليق، وطبقاً لتسلسل ورودها في «الموافقات».
- «الأمور الجزئية لا تخرم الأصول الكلية، وإنما تستثنى»^(٨١).
- «الكليات... لا يرفعها تخلف آحاد الجزئيات... والكلية في الاستقرايات صحيحة وإن تخلف عن مقتضاها بعض الجزئيات»^(٨٢).
- «إذا ثبتت قاعدة كلية في الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات، فلا ترفعها آحاد الجزئيات... فالقاعدة أن الكليات لا يقدح فيها تخلف آحاد الجزئيات»^(٨٣).
- «الكلية مقدم على الجزئي طبعاً وعقلاً، وهو أيضاً مقدم شرعاً»^(٨٤).
- «إذا ثبتت قاعدة عامة أو مطلقة فلا تؤثر فيها معارضة قضيا الأعيان ولا حكايات الأحوال»^(٨٥).
- «إن قضاي الأعيان جزئية، والقواعد المطردة كليات، ولا تنهض الجزئيات أن تنقض الكليات. ولذلك تبقى أحكام الكليات جارية في الجزئيات وإن لم يظهر فيها معنى الكليات»^(٨٦).
- «إن الأمر العام والقانون الشائع هو ما لا تنقضه لأفراد الجزئية الأقلية، لأن الكمية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت كلية، واعتمدت في الحكم بها وعليها... ولا شك في أن ما اعترض في الحكم بها وعليها... ولا شك في أن ما اعترض به من ذلك قليل يدل عليه الاستقراء فليس بقادح في ما تأصل»^(٨٧).
- وليس يعسر علينا أن نضع إصبعنا على سر هذا الإخلال بمبدأ «العلاقة الجدلية». فهو يرجع أولاً إلى اعتماد الشاطبي في استقراء الكليات الشرعية على الاستقراء الناقص، الذي هو بطبيعته غير برهاني وغير مانع لتخلف لجزئيات. وهذا ما يعيد

(٨١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٧.

(٨٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤ - ٣٥.

(٨٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠ - ٤١.

(٨٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠١.

(٨٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٩.

(٨٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٩.

(٨٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٤.

التشديد عليه بقوله: «لما كان قصد الشارع ضبط المخلوق إلى القواعد العامة وكانت العوائد قد جرت بها منة الله أكثرية لا عامة، وكانت الشريعة موضوعة على مقتضى ذلك الوضع، كان من الأمر الملتفت إليه إجراء القواعد على العموم العادي، لا العموم الكلي التام الذي لا يتخلف عنه حزني ما»^(٨٨). وذلك يرجع ثانياً إلى تصميم الشاطبي على «اقتناص» القطعيات الشرعية من الظنيات، مما يجعله ينتصر بالضرورة للكلي على الجزئي، لأن الجزئيات ظنية بقدر ما الكليات قطعية. وعند الشاطبي، كما في كل منظومة لاهوتية قائمة على الإغلاق العقيدي، فإن الكلي هو وحده «المحكم»، فهو للمتمسك به ضمانة اليقين والسلامة. أما الجزئي «المتشابه» فهو، لا محالة، مصدر الشك والخطر والزيغ. وبلغ الشاطبي: «هذا الموضع كثير الفائدة عظيم النفع بالنسبة إلى المتمسك بالكليات إذا عارضتها الجزئيات وقضايا الأعيان، فإنه إذا تمسك بالكلي كان له لخيرة في الجزئي في حمله على وجوه كثيرة. فإن تمسك بالجزئي لم يمكنه الخيرة في الكلي، فثبت في حقه المعارضة ورمت به أيدي الإشكالات في مهام بعيدة، وهنا هو أصل الزيغ والضلال في الدين لأنه اتباع للمتشابهات وتشكك في القواطع المحكمات»^(٨٩). وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الغائية الأخيرة للشاطبي، «كمنبت مجتهد» كما يصف نفسه، تكليفية عملية وليست معرفية نظرية، فإننا نفهم أن يكون دليل العمل الذي يضعه برسم المستفتي في حال تعارض الكلي والجزئي هو «إعمال الكلي من دون الجزئي»^(٩٠). ولكن ألا ينهض هذا الدليل العملي دليلاً علمياً على زور «البضاعة الجدلية» التي يسعى ناقد العقل العربي إلى ترويجها في سوق المضاربة على هذا العقل، بالناقص على الشق «المشرقي» منه، وبالزائد على الشق «المغربي»؟

عدم استقلال العقل

ليس تبني الاستقراء الناقص، بعد رفض لقياس الجامع، هو المؤشر الوحيد على الانتماء البياني المحض للشاطبي. فإن يكن الموقف من العقل، استقلالاً أو تبعية، هو أول ما يحدد الانتماء البرهاني أو البياني، فليس كاشطابي من يصرح بقصور «مدارك العقول» وعدم اكتفائها الذاتي في مرجعياتها. وفي «الموافقات» كما في «الاعتصام»

(٨٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٢.

(٨٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥١.

(٩٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٠.

الشاطبي: شافعي عصر الأندلس

يكرر نعمة واحدة: إن العقل ليس مستقلاً بنفسه، وعلى الأخص ليس بشريع. ولندع له الكلام في شوهد يأخذ بعضها برقاب بعض لتؤلف طوقاً تغلّ به عنق العقل لإرغامه على إسلاس قياده للشريع:

- «العقل ليس بشارع... والعقل إنما ينظر من وراء الشريع... وإذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية، فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعاً، ويتأخر العقل فيكون تابعاً، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يسرّجه النقل»^(٩١).

- «العقل غير مستقل البتة، ولا ينبغي على غير أصل، وإنما ينبغي على أصل متقدم مسلم على الإطلاق... من طريق الوحي»^(٩٢).

- «العقل إذا لم يكن متبوعاً للشريع فلم يبق له إلا الهوى والشهوة... وإذا ثبت هذا وأن الأمر دائر بين الشريع والهوى، تزلزلت قاعدة حكم العقل المجرد، فكانه ليس للعقل في هذا الميدان مجال إلا من تحت نظر الهوى»^(٩٣).

- «الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم [أصول الفقه] فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو معينة في طريقها، أو محققة لمناطها، أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة، لأن انظر فيها نظر في أمر شرعي، والعقل ليس بشارع»^(٩٤).

- «العقل لا يحسن ولا يقيح... ولو كان كذلك لجاز إبطال الشريعة بالعقل، وهذا محال باطل. ويبان ذلك أن معنى الشريعة أنها تحدّ للمكلفين حدوداً في أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، وهو جملة ما تضمنته. فإن جاز للعقل تعدي حد واحد جاز له تعدي جميع الحدود»^(٩٥).

- «ليس القيس من تصرفات العقل محضاً، وإنما تصرفت العقول فيه من تحت نظر الأدلة، وعلى حسب ما أعطته من إطلاق أو تقييد... فأين استقلال العقل بذلك؟ بن هو مهتد فيه بالأدلة الشرعية، يجري بمقدار ما أجرته، ويقف حيث وقفته»^(٩٦).

(٩١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣ و ٥٣.

(٩٢) «الاعتصام»، ج ١، ص ٤٧.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٥١ - ٥٣.

(٩٤) «المواقفات»، ج ١، ص ١٣.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٥٥.

- «سمي أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً إليها من وراء ذلك، وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح [- المعتزلة] ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم... [فإنهم] ردوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة بقولهم؛ وأسأوا الظن بما صح عن النبي ﷺ، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة، حتى ردوا كثيراً من أمور الآخرة وأحوالها من الصراط والميزان وحشر الأجساد والنعيم والعذاب الجسمي، وأنكروا رؤية الباري، وأشبهوا ذلك، بل صيروا العقل شارعاً جاء الشرع أو لا، بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل، إلى غير ذلك من الشناعات»^(٩٧).

- «إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما يكون وما لا يكون»^(٩٨).

- «قد زعم أهل العقول... أعني القائلين بالتشريع العقلي، أن منه نظرياً، ومنه ما لا يعلم إلا من جهة الإخبار، فلا بد فيه من الإخبار لأن العقل غير مستقل فيه، وهذا إذا راعينا قولهم وساعدناهم عليه، فينأ إن لم تلتزم ذلك على مذاهب أهل السنة فعندنا أن لا نحكم العقل أصلاً، فضلاً عن أن يكون له قسم لا حكم له»^(٩٩).

- «لا بد للعقل من تنبيه من خارج. وهي فائدة بعث الرسل... هذا وجه، ووجه آخر وهو أن العقل لما ثبت أنه قاصر الإدراك في علمه، فما ادعى علمه لم يخرج عن تلك الأحكام الشرعية التي زعم أنه أدركها»^(١٠٠).

- «إن محصول مذهبهم [أهل التحسين والتقبيح العقليين] تحكيم عقول الرجال دون الشرع، وهو أصل من الأصول التي بنى عليها أهل الابتداع في الدين... فالحاصل مما تقدم أن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي

(٩٧) «الاعتصام»، ج ٢، ص ١٧٦.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٣١٨.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٣١٨ و ٣٢٠.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

المطلوب شرعاً ضلال، وأن الحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع لا غير»^(١٠١).

- «الحاصل من هذه القضية أنه لا ينبغي للعقل أن يتقدم بين يدي الشرع... بل يكون مليئاً من وراء وراء»^(١٠٢).

إن هذه الشواهد لا تدع مجالاً للشك في أن الشاطبي، في موقفه من جدلية العقل والنقل، لم يكن حزماً كما لم يكن رشحياً. فهو إن غالى في تبعية العقل للنقل، فإنه لا يغلو غلو ابن حزم في ما ينسبه إليه من القول بعدم معقولية المعنى بإطلاق. ولكنه بالمقابل، وخلافاً لابن رشد، يقيم بين النقل والعقل علاقة تراتب لا علاقة ترادف. فعنده أن النقل مقدم والعقل مؤخر، وأن الأول حاكم ولثاني محكوم. وهذه التراتبية التي تعني في الواقع نفياً للنقدية كما قال بها ابن رشد، تجد تعبيرها «البلغي» في كون الشاطبي يتخذ شعاراً له قول القائل: «اجعل الشرع في يمينك، والعقل في يسارك... تنبيهاً إلى تقدم الشرع على العقل»^(١٠٣). ويديهي أن أسبقية «اليمين» لا تلغي كل دور «اليسار»، بل هي في لوقت الذي تستلزمه تحذه. فليس الشاطبي من مبطل نصيب العقل. وإنما النصاب الاستمولوجي للعقل عنده نصاب ادراكي محض. فدوره على الدوام ثانٍ وليس أول، تالي وليس مقدماً، اجتهادي وليس تأسيسياً. وإن يكون العقل محض قوة إدراكية، فهذا معناه أنه محظور عليه أن يتعدى راجبه في الاجتهاد إلى تسوّر الحق في الاختراع: فالخروج إلى الابداع خروج إلى الابتاع. وحكم العقل الإدراكي - بطبيعته - أنه غير مبصر بذاته، بل هو يحتاج إلى إضاءة من خارجه. فقمر العقل لا ينير إلا بقدر ما تنيره شمس النقل. والشاطبي، من هذا المنظور، لا يقبل حتى بالمعادلة «النورية» التي قال بها الغزالي: «العقل مع الشرع نور على نور»^(١٠٤). وبدلاً من عدم المعادلة التي يقيمها مؤلف «الاقتصاد في الاعتقاد» بين «الشرع المنقول والحق المعقول»، فإنه لا يقيم سوى علم مساواة. فالنقل مشرّع، والعقل مشرّع له. والنقل مؤصل، والعقل مفرّع. وإن يكن للعقل قدر من الاستقلال الذاتي - وكلمة «الاستقلال» نفسها مسترابة عند الشاطبي كما رأينا - فإنما بقدر ما للبنية الفوقية في انحكامها بالبنية

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٣٥٥.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

(١٠٤) «الاقتصاد في الاعتقاد»، الاستهلال.

التحتية. وما دمننا بصدد هذه الاستعارة من اللغة الفلسفية الحديثة، فلنقل إن الشاطبي الذي كان بكل تأكيد من آخر كبار معماريي عصر «اندثار الزمان» قد حصر كل دوره كمهندس للمعرفة الأصولية في إعادة البناء أو إعادة التأسيس. وهنا نلتقي بالفعل مع ناقد العقل العربي الذي لم يفرد فقرة خاصة للكلام على مشروع الشاطبي لإعادة تأسيس علم أصول الشريعة إلا في سياق فصل أعم جعل عنوانه «مشروع إعادة التأسيس» الذي مثلته «للحظة الأندلسية - المغربية» في الفكر العربي الإسلامي. ولكن خلافتنا الأكبر مع ناقد العقل العربي هو على الطبيعة الاستمولوجية لهذا المشروع: فهو يعترف مراراً وتكراراً بأنه مشروع فلسفي - أصولي - تاريخي مشترك لإعادة تأسيس البيان على البرهان. والحال أنه في ما يتعلق باللمحة الشاطبية حصراً «فالحاصل مما تقدم» ينهض شاهداً على أن الإشكالية كما يصوغها ناقد العقل العربي موقوفة على رأسها: فليس كالشاطبي من أصل وبنى على تبعية العقل للنقل، وليس كالشاطبي من سعى إلى إعادة تأسيس البرهان على البيان، وتوظيف برهان العقل في خدمة بيان النقل.

المشروع الاعتصامي للشاطبي

إن شاطبي المئة الثامنة، مثله مثل شافعي المئة الثانية، صاحب مشروع. وهذا المشروع لا يقبل انفصلاً عن تاريخيته، ولا عن جغرافيته. ولئن حاول ناقد العقل العربي قراءة هذا المشروع من منظور استمرارية مدرسة قرطبة، وبالاتصالية مع «المشروع الحزمي - الرشدي» المخلوعة عليه أبعاد «نقلة استمولوجية...» في مجال التجديد والإبداع العقلين^(١٠٥)، فإننا لا نملك أن نمنع عن أنفسنا شعوراً بأنه أخطأ العصر كما الشخص. فنناقد العقل العربي يضطر أولاً إلى أن يفتخر لمدرسة قرطبة - ووجودها غير مسلم أصلاً^(١٠٦) - مطاطية صجائية زماناً ومكاناً. فمدرسة قرطبة بقيت في فرضية ناقد العقل العربي فاعلة في الزمان إلى ما بعد أكثر من قرن ونصف قرن من سقوطها (عام ٦٣٣هـ) في أيدي انصارى، وفاعلة في المكان امتدأ إلى إمارة غرناطة التي كانت انفصلت عنها منذ انفراد الزيديين بحكمها. والواقع أنه على العكس مما

(١٠٥) «بنية العقل العربي»، ص ٥٣٨.

(١٠٦) لا ننسى أن ابن حزم كتب كل ما كتبه في صم الفقه والأصول وهو في حالة تهجير نسري عن قرطبة. كما إن ابن رشد لم يكتب ما كتبه في الفلسفة في قرطبة إلا في حالة تخفٍ وتكتم. ورغم ذلك فقد انتهى به الأمر إلى إحراق كتبه في ساحاتها العامة.

تذهب إليه فرضية ناقد العقل العربي عن كلية فاعية مدرسة قرطبة التي «طبعت بطابعها الفكر العربي الإسلامي في الأندلس والمغرب وجعلته يتميز بدوره عن الفكر العربي الإسلامي في المشرق»، فإن المشروع الشاطبي لا يقبل القراءة في معقولته الذاتية إلا بالقطع - وليس بالوصل - مع تخيل «الازدهار الأندلسي»، الذي يمحوره ناقد العقل لعربي حول «المدينة/ الأم». فالشاطبي الحقيقي هو بن زمانه ومكانه: زمان اندثار الزمان ومكان اندثار المكان. فغرناطة بني الأحمر هي البقية «الباقية»، المحاصرة والمتقلصة، كقطعة الجلد المتكرمش، من إسبانيا المسلمة. وبرغم أننا لا نستطيع في حالة الشاطبي أن نتحدث عن وهي تاريخي - فظهور مثل هذا الوعي كان يقتضي التحول من حضارة مركزية إلى حضارة طردية^(١٠٧) - فإن وعيه الديني ما كان له أن يحلق في سماء لمجرد منفصلاً عن كل أرضية تاريخية. وليس من قبيل الصدفة أن يكون الشاطبي سمي كتبه «الاعتصام»، وأن يكون استهله بتذكير مخاطبه بـ «مقدمة ينبغي تقديمها قبل الشروع في المقصود، وهي معنى قول رسول الله ﷺ: بدأ الإسلام غرباً وسيعود غرباً كما بدأ، فطوبى للغرباء». قيل: ومن لغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون عند فساد الناس»^(١٠٨). ف «تجربة الغربية»، بمعنى فساد الناس وانحلال الزمان، هي «التجربة المشتركة» - كما يقول دارس الشاطبي - بين «العديد من فقهاء القرن الثامن» والصورة التي استقر عليها وعيهم «في عصر لم تعد مظاهره الفكرية والمجتمعية توحى بالقدرة على الاعتناق والإنقاذ»^(١٠٩). لنقل إذاً، إن تجربة الغربية،

(١٠٧) وتعبير أشنفلر: من حضارة الدائرة إلى حضارة السهم.

(١٠٨) «الاعتصام»، ج ١، ص ١٨.

(١٠٩) عبد المجيد الصغير: «الفكر الأصولي...»، ص ٤٤٩. والفعل، فإن ابن خلدون، الذي كان مجابلاً للشاطبي، رزح هو الآخر تحت وطأة لإحساس بأغلال الزمان. ولكن بدلاً من أن تتشكل به رؤية نهاية العالم» بحرب لاسترداد لإسبانية، كما في حالة الشاطبي، فقد تمتثل له بـ «الطاعون الجارف» الذي «نزل بالمعراش شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة» و «تجفف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومعها وجاء للدول على حين هرمها وبلغ الغاية من مدها، فقلص من ظلالها، وقل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداخت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتفض عمران الأرض بانفض لبشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وختل الديار والمنازل، وضعفت الدول وانقائت، وتبدل السكان. وكأنني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبه ومقدار عمرانه. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانتفاض، فبادر بالإجدة، والله وارث الأرض ومن عليها» (المقدمة، ص ٣٦).

التي جعلها الشاطبي مدخله إلى «الاعتصام» من مفسد الزمان وبدعه، هي تعبير ذاتي عن الانسداد الموضوعي للأفق التاريخي. ولكنه تعبير مبطن دوماً بالوعي الديني اللاشخصي. فالتصور التراجعي للزمن هو التصور الذي فرض نفسه في الوعي الإسلامي العام طرداً مع اشتداد الحاجة إلى أمثلة (idéalisation) العصر النبوي والصحابي ليكون مرجعاً للمقارنة ولتقد فساد العصر في كل عصر. وقد حشد الشاطبي في «الاعتصام» كما في «المواقفات» طائفة من الأحاديث والآثار التي تشهد على تكاثر الشر طرداً مع تقدم الزمن وبتعمد الدوائر عن نقطة مركزها المؤمثلة. ويدهي أن الحديث الأشهر الذي يفرض نفسه من هذا المنظور هو حديث «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الذي روي بصيغ شتى عن ابن مسعود، وعن عائشة بلفظ: «خير الناس قرني الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث». وفي إلماع مباشر إلى هذا الحديث يقول الشاطبي: «لا يمكن أن يبلغ لمتأخرون أبداً مبالغ المتقدمين. فخير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم. وهكذا يكون الأمر أبداً إلى قيام الساعة. فأقوى ما كان أهل الإسلام في دينهم وأعمالهم وبقينهم وأحوالهم في أول الإسلام، ثم لا زال ينقص شيئاً فشيئاً إلى آخر الدنيا»^(١١٠). ويعضد الشاطبي هذا التصور التناقضي للزمان بما روي على لسان أنس بن مالك: «لو أن رجلاً أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً». وكذلك بما روي على لسان أبي الدرداء: «قال: لو خرج رسول الله ﷺ عليكم ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه... قال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟ قال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟»^(١١١). وفي «المواقفات» يعود إلى الاستشهاد بحديث غربة الإسلام، ثم بحديث آخر يرويه بلا إسناد: «أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك وجبرية، ثم ملك عضوض». ويعلق بقوله: «ولا يكون هذا إلا مع قلة الخير وتكاثر الشر شيئاً بعد شيء». وينسج ما نحن فيه على الإطلاق. وبعد الاستشهاد بقول لابن مسعود من أنه «ليس عام إلا الذي بعده شر منه» ينهي بما روي من أنه «لما نزل قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بكى عمر، فقال عليه السلام: «ما يبكيك؟» قال: يا رسول الله! إنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فلم يكمل شيء قط إلا

(١١٠) «الاعتصام»، ج ١، ص ٢٥٨.

(١١١) المصدر نفسه، ص ٢٦.

نقص. فقال عليه السلام: «صدقت». ويعلق بقوله: «والأخبار هنا كثيرة. وهي تدل على نقص الدين والدنيا»^(١١٢).

هذا الشعور بتدهور الزمان، المستند إلى رؤية دينية مقننة وإلى تجربة شخصية معاً، استحدث لدى الشاطبي ما لن نتردد في أن نسميه عقلية المركب الغريق، واستتبع بالتالي في مجال إعادة تأصيل أصول الشريعة استراتيجية إنقاذ ما يمكن إنقاذه. والمقارنة هنا مع الشافعي تفرض نفسها. ففي الربع الرابع من المئة الثانية، وفي سياق من الانفتاح الكبير في الأفق التاريخي، فقد بدأ الشافعي، وهو يشرع للعقل العربي الإسلامي، كمن يجهز سفينة ضخمة لتمخر في عباب البحر. أما في الربع الرابع من المئة الثامنة، وفي سياق من الانسداد الشديد في الأفق التاريخي، فقد بدأ الشاطبي وكأنه واحد من القلة من «الغريباء» الذين قبض لهم أن يفروا من لسفينة الكبيرة الغارقة إلى قارب نجاة صغير. وكان عليه بالتالي أن يتخفف قدر الإمكان من كل حمولة زائدة، وأن يتمسك بما هو أساسي في الشريعة تمسكه بطوق نجاة. وصورة الغريق الناجي «المستمسك بالعروة الوثقى» ليست بعيدة على كل حال عن ذهن الشاطبي، وهو الذي يورد حديث غربة الإسلام برواية مختلفة لابن وهب: «قال عليه الصلاة والسلام. طوبى للغريباء الذين يسكنون بكتاب لله حين يتروك ويعملون بأشنة حين تُطفى»^(١١٣).

شريعة أمية لأمة أمية؟

إن ضرورة التخفيف من الحمولة المعرفية، التي أملاها «نقص الدين والدنيا»، قد اقتضت من الشاطبي التحول عن استراتيجية العقل المكون في توسيع الدوائر إلى استراتيجية العقل المكون في تضيق الدوائر. ومن هنا رفضنا توصيف ناقد العقل العربي للمشروع الشاطبي بأنه «إبداعي» و«تجديدي»، وإصرارنا على توصيفه - على العكس - بأنه «اعتصامي» مسكون ومسقوف معاً يهجرس اندثار الزمان والمكان. وإذا جاز لنا الكلام هنا على «إحيائية» الشاطبي، فعلى شرط الإضافة أن هذه الإحيائية اتخذت من البداية منحى اختزالياً - إفقارياً، وحضرت نفسها عن وعي وعهد ببرنامج الحد الأدنى، لا الأقصى. وهذا المنحى الاختزالي - الإفقاري لم يبق محصور الفاعلية بالدوائر

(١١٢) «المواقفات»، ج ١، ص ٦٩ - ٦٢. والتسويد منا.

(١١٣) «الاعتصام»، ص ١٩.

المحيطة وحدها، بل طال نقطة المركز - أو «أصل الأصول» على حد تعبير الشاطبي - في الصميم. وذلك هو سر تلك النظرية العجيبة التي عمدها مؤلف «الموافقات» باسم أمة الشريعة المباركة. ففي «كتاب المقاصد». وهو الكتاب الثاني من «الموافقات»، يسعى إلى أن يقيم الدليل على أن «هذه الشريعة أمة» وما نزلت إلا «لأمة أمة». والسييل الذي يتوسله إلى ذلك هو الاستمسك بتأويل بعينه لفظ «الأمي» و «الأميين» الذي يتردد ست مرات في أربع سور من القرآن. وفي ذلك يقول: «هذه الشريعة المباركة أمة، لأن أهلها كذلك... ويدل على ذلك أمور، أحدها النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾، وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾. وفي الحديث: «بُعِثَتْ إِلَى أمة أمة» لأنهم لم يكن لهم علم يعلم الأقدمين. والامي منسوب إلى الأم، وهو الباقي على أصل ولادة الأم لم يتعلم كتاباً ولا غيره، فهو على أصل خلقته التي ولد عليها. وفي الحديث «نحن أمة أمة لا نحسب ولا نكتب». ونحوه قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ وما أشبه هذا من الأدلة الماثلة في الكتاب والسنة، الدالة على أن الشريعة موضوعة على وصف الأمية لأن أهلها كذلك»^(١١٤).

ولا شك في أن حديث «نحن أمة أمة لا نحسب ولا نكتب» متواتر، وقد رواه في من رواه - بلفظ «إنا» - مسلم والنسائي. ولكن السؤال هو: ما مدى نصيبه من القوة والضعف؟ وإذا تخينا مسألة الإسناد جانباً وأخضعناه لمبدأ النقد الداخلي - وهو المنهج الوحيد الذي يقبل به العلم الحديث - فكيف لنا أن نتصور أن قريشاً، التي لها ولسانها كان أول نزول القرآن، هي بجماعها «أمة أمة» لا تكتب ولا تحسب، مع أنها أمة سداة وتجارة، وفي الحالين لا غناء لها عن الكتابة والحساب؟ ولو كانت، بجماعها، أمة أمة، فلمن كانت تعلق المعلقات على أسداف الكعبة، مكتوبة بماء الذهب على ما يقال؟ ولو كانت، بجماعها، أمة أمة، فمن أين جاء النبي بكتابة الوحي وكتابة المراسلات وحتى التراجمة؟ ولو كانت، بجماعها، أمة أمة، فلم نزل القرآن، وهي أول المخاطبين به، باسم القرآن؟ ثم لم كانت كلمة الكتاب واحدة من أكثر الكلمات تواتراً في القرآن (نحو من ٢٣١ مرة)؟ وأخيراً، كيف ننسى أن مخاطباً رئيسياً آخر بالقرآن كانوا الكتابيين أنفسهم من يهود العرب ونصاراهم؟.

(١١٤) «الموافقات»، ج ٢، ص ٤٦ - ٤٧.

إن هذه الأسئلة - وغيرها كثير - تحيلنا لا محالة إلى لفظ «الأمي» وتأويله في القرآن. فالتأويل الذي يأخذ به الشاطبي، بتوكيده أن «الأمي» منسوب إلى الأم، وهو الباقي على أصل ولادة الأم لم يتعلم كتاباً ولا غيره، هو، على ما يترادى لنا، تأويل إسقاطي يأخذ بالمعنى الذي بات لكلمة «الأمي» في الأزمنة المتأخرة ليحل محله المعنى الذي كان لها في الأزمنة المتقدمة. وقد أنكر دارسون محدثون كثر - وفي مقدمتهم المستشرق ماسينيون - أن تكون مشتقة أصلاً من «الأم». فعندهم أنها مشتقة من «الامة»، والنبي «الأمي» هو في هذه الحال النبي الذي من أمة أخرى غير أمة الكتابيين من اليهود والنصارى الذين نزلت جميع الآيات الست التي ورد فيها لفظ «الأمي» و «الأميين» في معرض النقاش معهم. والجدير بالذكر هنا أنه وجد بين القدمى - وليس فقط بين المحدثين - ولا سيما لدى بعض المعتزلة وبعض مفكري الشيعة، من أنكر تأويل لفظ «الأمي» القرآني على أنه الجاهل بالقراءة والكتابة. ومن هؤلاء الشيخ لمفيد (ت ٤١٣هـ)، الذي عقد فصلاً من كتابه «أوائل المقالات» «للقول في أن النبي ﷺ بعد أن خصه الله بشوته كان كاملاً يحسن الكتابة»^(١١٥). وقد ذهب بعض علماء الشيعة، ومنهم محمد بن لحسن الطوسي في كتاب «الميسوط» ومحمد بن إدريس الحلبي في كتاب «السرائر» إلى أن «الأمي» معناه النسبة إلى أم القرى، أي مكة^(١١٦). وقد لا يكون أمام الباحث المعاصر هنا من خيار آخر غير أن يعلق بالحكم بانتظار النتائج التي يمكن أن يتمخض عنها التنقيب التاريخي الذي لم تُطلق له بعد الحرية تامة في هذا المجال^(١١٧). ولكن حتى تطوي بأسرع ما يمكن صفحة هذا الاستطراد الذي اضطررنا

(١١٥) عبد الله بن محمد النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ اعفد: «أوائل المقالات في الملهب والمختارات»، ويليهِ «شرح عقائد الصدوق»، قسم له وعلّق عليه الشيخ فضل الله الشهير بشيخ الإسلام الزنجاني، منشورات مكتبة الداوري، الطبعة الثانية، ثُم ١٣٧٠هـ، ص ١٥٢.

(١١٦) المصدر نفسه، ص ١٥٢، الهامش.

(١١٧) العجيب أن الشاطبي يقل بنفسه رواية عن الصحيحين بدون أن يتوقف عند حطرة مدلولها من وجهة النظر التي تعنينا هنا. ففي فصل من «الاختصاص» عن «الاختلاف في أصل النحلة» من حديث ابن عباس أنه قال: لما حضر النبي (ص) [أي حضرته الوفاة] قال - وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم -: «هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده»، فقال عمر: إن النبي (ص) غسه الوجع، واعتذركم القرآن فحسبنا كتاب الله. واختلف أهل البيت واختصموا. فممن من يقول: قُبروا يكتب لكم رسول (ص) كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من =

إليه فرضية لشاطبي الغربية، نكتفي بالقول إنه ليست مسلمة له لا المقدمة التي بنى عليها فرضيته، وهي كون «الأمة أمية»، ولا النتيجة التي استخلصها منها، وهي كون «الشرعة المباركة أمية». ثم إننا لو سلمنا له المقدمة، فإننا لا تسلم له النتيجة. فكون الأمة أمية لا يوجب أن تأتي الشريعة أمية. فأمية المشرع له لا تستلزم أمية المشرع، وإلا نشأت إشكالات لا هوتية خطيرة يعجز المنطق المباطن لفرضية الشاطبي أن يجد حلاً لها. فكيف تنسب الأمة نفسها إلى شريعة أمية وتنسب هذه الشريعة عينها إلى تنزيل إلهي؟ وإذا كانت الشريعة أمية لأنها «موضوعة على وصف أهلها الأميين»، فكيف تصلح للأمم غير الأمية؟ وكيف يكون القرآن هو القرآن ثم يوسم بأنه «أمي»؟ ولئن يكن القرآن سمي نفسه قرآنًا، أفليس ذلك دعوة إلى الأمة، التي هي مخاطبته، كيما تتجاوز شرط أميتها، وأقراً كانت أو زعماً؟ وإذا كان القرآن كلام الله، والحد اللاهوتي لله أنه كلي لعلم، فكيف يكون كلامه «أمياً»؟ وأخيراً، إذا كانت الشريعة القرآنية شريعة أمية، فماذا يتبقى من دليل إعجاز القرآن، وهو دليل من طبيعة بلاغية، ونصاب البلاغة كتابي، وفي أدنى الأحوال بياني^(١١٨)؟

بيد أن هذه الإشكالات اللاهوتية - على خطورتها - ليست هي ما يستوقفنا في نظرية الشاطبي عن «أمية الشريعة المباركة»، وإن توقفنا عندها على سبيل الاستطراد الذي لم يكن منه مناص. فأخطر ما في نظرية الشاطبي من وجهة النظر التي تعطينا هنا - بيان الكيفية التي يشتغل بها العقل بعد أن ينكفئ من عقل مكوّن إلى عقل مكوّن - هو تأويلها الإفقاري لما يمكن أن نسميه الاستمولوجيا المركزية والاستمولوجيا المحيطة للعقل العربي الإسلامي.

بديهي أننا لا نماري في أن وضع الأمة والشريعة على مستوى واحد من الأمية متعين لدى الشاطبي، كما لدى سائر الأصوليين الإسلاميين ابتداءً من الشافعي، بهمّ الضبط اللغوي للنص القرآني. وبالفعل، إن الشاطبي يفرّد مكاناً واسعاً في كتاباته ليستعيد - بالحذافير - المشروع البياني اللغوي الذي صاغه الشافعي في «الرسالة»: «إن

يقول كذا قال عمر. فلما كثر اللغظ والاختلاف عند النبي (ص) قال «قرموا هني». فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم» (الأخصاص، ج ٢، ص ١٧٢).

(١١٨) نقول: البلاغة، وليس الفصاحة. فقد يكون الأمي فصيحاً، ولكن يعسر تصوره بليعاً. فالنصحة للسان، أما البلاغة فلبيان.

اللّه عز وجل انزل القرآن عربياً لا عجمة فيه، بمعنى أنه جارٍ في ألفاظه وأصاليه على لسان العرب... فإذا ثبت هذا فعلى الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولاً وفروعاً. مران، أحدهما أن لا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربياً أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب... والأمر الثاني أنه إذا أشكل عليه في الكتاب أو في السنة لفظ أو معنى فلا يقدم على القول فيه من دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية... وإلا زل فقال في الشريعة برأيه لا بلسانها^(١١٩). وفي «الموافقات» يرفع مسألة الضبط اللغوي إلى مستوى المسألة المنهجية كواحدة من «المقدمات العلمية المحتاج إليها» الناظر قبل النظر: «إن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي وإنه لا عجمة فيه، فبمعنى أنه انزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأصاليب معانيها... فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه وتقول على الله ورسوله فيه... فلا يد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين - وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم. فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح لعدول عنه في فهم الشريعة. وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه. وهذا جارٍ في المعاني والألفاظ والأصاليب»^(١٢٠). وباختصار، إن مشروع لشاطبي للضبط اللغوي من خلال التقيد بـ «معهود العرب» لا يخرج عن المشروع البياني العام الذي فرض نفسه، منذ الشافعي على الأقل، كإطار مرجعي ثبت لفهم النص المركزي القرآني. ولكن «الجديد» الذي يضيفه الشاطبي إلى هذا المشروع هو عدم الاكتفاء بتأسيس «لسان معهود العرب» كلفة قبلية للقرآن^(١٢١). فمن خلال نقلة غير مشروعة ابستمولوجياً، وربما غير مسبوق إليها، يعمم الشاطبي الحكم بوجوب التزام «معهود العرب» ليرفعه من مستوى لسان العرب إلى مستوى علوم العرب. فما دمت «هذه الشريعة أمية لأمة أمية»، «فلا يليق بها من البيان إلا الأمي». والبيان هنا ليس مقصوراً على ألفاظ العرب، ولا حتى على معانيهم، بل شامل أيضاً لمعرفهم. ف «ما لا تعرفه العرب» و «ما لا

(١١٩) «الاختصاص»، ج ٢، ص ٢٩٣ - ٣٠١.

(١٢٠) «الموافقات»، ج ٢، ص ٤٣ و ٥٣.

(١٢١) قد يكون عمر بن الخطاب، بحسب الرواية المروية عنه - والتي يستعدها الشاطبي لحساب فرضيته - هو أول من أسس نظرياً لتلك اللغة القبلية بقوة: «يا أيها الناس تسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم».

عهد للعرب» به من العلوم والمعارف هو زائد عن الشريعة، بله مخرج عن الصراط المستقيم ومُذْخِل إلى الفتنة. والحال أن علوم العرب معروفة ومحصورة. فمنها ما أبطلته الشريعة «كعلم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمن والضرب بالحصى والطيرة». والوجه في إبطالها أن «أكثر هذه الأمور تخوُّص على علم الغيب من غير دليل، فجاء النبي ﷺ بجهة من تعوُّف علم الغيب مما هو حق محض، وهو الوحي والالهام... والرؤيا الصادقة»^(١٢٢). ومنها ما «صححت الشريعة ما هو صحيح منها»، ومن هذا القبيل بعض علم النجوم وبعض علم الأنواء وبعض علم التاريخ، وبعض علم الطب الذي «كان في العرب شيء منه لا على ما عند الأوائل، بل مأخوذ من تجارب الأميين، غير مبني على علوم الطبيعة التي يقررها الأقدمون. وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة»^(١٢٣). وعلى هذا النحو يتوسع الشاطبي في مفهوم الأمية ليخرجه عن معنى الجهل بالقراءة والكتابة إلى معنى كل ما «لا يليق بالأميين» من العلوم والمعارف، وليفرضه بهذا المعنى المتوسع فيه قيداً يستمولجياً على الشريعة التي ليس لها، وهي «الموضوعة على وصف الأمية»، أن «تخرج عما ألفه الأميون». وفي ذلك يقول: «إن الشريعة التي بُعث بها النبي الأمي ﷺ إلى العرب خصوصاً وإلى من سواهم عموماً، إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية أو لا. فإن كان كذلك، فهو معنى كونها أمية، أي منسوبة إلى الأميين. وإن لم تكن كذلك لزم أن تكون على غير ما عهدوا، فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها. فلا بد من أن تكون على ما يعهدون، والعرب لم تعهد إلا ما وصفها به الله من الأمية... فالشريعة إذاً أمية»^(١٢٤).

هل ينبغي أن نتحدث هنا عن «ضييق في الأفق الفكري» للشاطبي نظير ما يفعل

(١٢٢) «المواقفات»، ج ٢، ص ٤٩. والعجيب أن الشاطبي يدخل في دائرة العلوم والمعارف التي أبطلتها الشريعة لشعر وغم أنه «معهود العرب» الأول الذي بدونه ينفرد هذا المفهوم من كل منطوق له. وفي ذلك يقول: «ومنهم... لشعر، فإن لله نفاه ويرأ الشريعة منه. قال تعالى في حكايته عن الكفار: ﴿أَلَيْسَ لَنَا بِكُفْرٍ أَهْتًا لِّشَاعِرٍ مُّجْتَوٍ، بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي لم يأت بشعر، فإنه ليس بحق. ولذلك قال: ﴿وَمَا عَلَّمَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ الآية. ويترن معنى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. فظهر أن الشعر ليس مبنياً على أصل، ولكنه هيمان على غير تحصيل، وقول لا يصدق فعل، وهذا مضاد لما جاءت به الشريعة» (نفسه، ص ٥٠).

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٤٧.

الشاطبي: شافعي عصر الانسار

دارسه^(١٢٥)؟ أم ينبغي على العكس أن نتحدث عن استراتيجية ثقافية عامة تعكس، لا الهوى الشخصي للشاطبي وحده، بل هوى عصر العقل المكوّن وجنوحه الفهري في زمان اندثار الزمان إلى الشترق على ذاته في أضيّق دائرة ممكنة حول نقطة مركزه؟ وقد ينبغي أن نضيف أن الطابع الإفقاري، أو حتى «الانحطاطي»، لهذه الامتراجيا يبرز بمزيد من الوضوح والتفارق متى أخذنا بعين الاعتبار أن أوروبا - التي كان الشاطبي على تماس مباشر معها جغرافياً، وليس ثقافياً - كانت تنهياً في العصر نفسه لمفارقة الفضاء العقلي للقرون الوسطى وتجه نحو أكبر توسيع ممكن لدوائر المعرفة، ولو تأذى بها ذلك إلى القطع مع نقطة المركز نفسها.

إحياء... وإماتة

أياً يكن من أمر، فإن مشروع الشاطبي الإحيائي، بنصبه أمية الشريعة وأمية الأمة معاً، سقفاً أعلى له، قد حكم على نفسه بأن يكون من طبيعة إماتية أيضاً. فهو لا يسعى إلى أن يحيي أصول العلم إلا بقدر ما يصير على أن يعيت ما يعتدّه فروعاً فائضة عن الحاجة، ومن طبيعة طحلبية، مما يعني أن الخير في استئصالها بقدر ما أن الضرر في بقائها.

تمهيداً لعملية البضع الجراحية هذه يضع مؤلف «الموافقات» مقدمة - هي الخامسة في سلسلة المقدمات المحتاج إليها الناظر قبل النظر - مفادها أن «كل مسألة لا ينبغي عليها عمل فالخوض فيها خوض في ما لم يدل على استحسانه دليل شرعي»^(١٢٦). وتديلاً على صحة هذه المقدمة القائلة «إن كل علم لا يفيد عملاً فليس في لشرع ما يفيد استحسانه»، يسوق شواهد من الشريعة، قرأناً ومنه، فيؤولها على نحو يتيح له أن يقول: إن «استقراء الشريعة» يرد أن «الشارع يعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به»^(١٢٧).

(١٢٥) عبد المجيد الصغير: «الفكر الأصولي...»، ص ٥٦٣.

(١٢٦) «الموافقات»، ج ١، ص ٢٠.

(١٢٧) ليس هنا مجال النقاش حول ما إذا كانت الشريعة عملاً كلها، ولا توسع أيضاً مجالاً للنظر لما كان ابن رشد يسميه بضرورة «الاعتبار». والواقع أن الشيخ عبد لله دواز، المحقق الآخر لكتاب «الموافقات»، قد لاحظ بنفسه في هامش تعليقه على مقدمة الشاطبي الخامسة ما يمارسه هذا الأخير من تعميم على الجانب النظري أو «اللاعملي» من «نص القرآني الذي نتج على سعة «باب النظر في مصنوعات الله، المؤدي إلى قوة الإيمان وزيادة البصيرة بكلمات الخاف» (طبعة دار المعرفة، هامش الصفحة ٥٤).

وتحت شعار «كراهة الكلام في ما ليس تحته عمل» - وهو شعار منسوب إلى مالك بن أنس - يشتم الشاطبي غاية التشنيع على «عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية»، وفي مقدمتهم «الفلاسفة الذين يتبرأ المسلمون منهم، ولم يكونوا كذلك إلا بتعلقهم بما يخالف السنة»^(١٢٨). وهو يغلو في هذا الاتجاه إلى حد نفي المعرفة ولذة المعرفة معاً. ولا يتردد في أن يقرن لذة المعرفة «المثالية» بلذة الزنى أو شرب الخمر «المادية». فمن شغل نفسه بـ «تتبع النظر في كل شيء» وترك «الاقتصار من العلم على ما يعني وخروج إلى ما لا يعني»، فذلك هو المكروه شرعاً، «إذ لا ينبغي على ذلك فائدة لا في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الآخرة فإنه يُسأل عما أمر به أو نُهي عنه. وأما في الدنيا فإن علمه بما علم من ذلك لا يزيده في تدبير رزقه ولا ينقصه. وأما اللذة الحاصلة عنه في الحال فلا نفي مشقة اكتسابها وتعب طلبها بلذة حصولها. وإن فرض أن فيه فائدة في الدنيا فمن شرط كونها فائدة شهادة الشرع لها بذلك. وكم من لذة وفائدة يعدها الإنسان كذلك وليست أحكام الشرع إلا على الضد، كالزنى وشرب الخمر وسائر وجوه الفسق والمعاصي»^(١٢٩).

ويديهي أن الشاطبي لا يجهل أن العلم مصلب شرعي، ولكنه يماري أن يكون «قد جاء الطلب فيه على صيغ العموم والإطلاق»، ولا يسلم قول القائل إن «العلم محبوب على الجملة، ومطلوب على الإطلاق». فعنده أن «العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً - أعني لذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق - هو العلم الباعث على العمل الذي لا يخالف صاحبه جارية مع هواه كيفما كان، بل هو المقيّد لصاحبه بمقتضاه، الحامس له على قوانينه طوعاً أو كرهاً»^(١٣٠).

ولئن بدا الشاطبي على هذا النحو وكأنه نصير للعلم العملي، فلا ينبغي أن يغرب عن الذهن أن العمل عنده هو حصراً العمل التكليفي بالمعنى الفقهي للكلمة. أما العلم العملي بمفهومه الحديث، أي التطبيقي، فإنه يغسل منه يديه بجرة قلم واحدة. ففي إشارة إلى حكاية حكاهما الفخر الرازي عن يهودي كان يعلم فقيهاً مسلماً «علم هيئة العالم» عملاً بمقتضى الآية: «ألم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها

(١٢٨) «المواقفات»، ج ١، ص ٢٣.

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣ و ٣٦.

من فروج»، يقطع بأن «تفسير الآية يعلم الهيئة الذي ليس تحته عمل غير سائغ، ولأن ذلك من قبيل ما لا تعرفه العرب، والقرآن إنما نزل بلسانها ومعهودها... وكذلك القول في كل علم يعزى إلى الشريعة لا يؤدي فائدة عمل، ولا هو مما تعرفه العرب. فقد تكيف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ بعلومهم بآيات من القرآن وأحاديث عن النبي ﷺ، كما استدل أهل العدد بقوله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُ الْعَادِّينَ﴾، وأهل الهندسة بقوله تعالى... وأهل التعديل النجومى بقوله... وأهل المنطق بقوله... إلى غير ذلك مما هو مسطور في الكتب... وبه تعلم أن قوله: ﴿أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار علوم الفلسفة التي لا عهد للعرب بها، ولا يليق بالأميين الذين بعث فيهم النبي الأمي بجملة سهلة سمحة^(١٣١). والفلسفة - على فرض أنها جائزة الطلب - صعبة المأخذ، وعرة المسلك، بعيدة الملتصق، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية. فكيف وهي مذمومة على السنة أهل الشريعة، منبه على ذمها بما تقدم في أول المسألة. فإذا ثبت هذا فالصواب أن ما لا ينبغي عليه عمل غير مطلوب في الشرع^(١٣٢).

ويعود الشاطبي في «كتاب المقاصد» من «الموافقات» - ودوماً في معرض استبعاد العلم الذي ليس تحته عمل من مقاصد الشريعة - إلى التوكيد أن «ما تقر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها - وهم العرب - ينبغي عليها قواعد، منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم الطبيعيات والتعاليم (= الرياضيات) والمنطق وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه النظرون من هذه الفنون وأشباهاها. وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح. وإلى هنا، فإن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم -

(١٣١) هنا يتدخل المحقق الآخر «للموافقات»، الشيخ عبد الله دراز ليلاحظ مرة أخرى في الهامش أن «القرآن للناس كافة وأنه ليس مختصاً به خصوص طائفة من العرب في العهد الأول... وإذا نظرنا بهذا النظر لا يمكننا أن نقف بالقرآن وعلومه وأسراره وإشاراته عند ما يريد المؤلف... فكل ما لا تنبئ عنه العقدة ويدخل في مقاصد الشريعة بوجه، فلا يوجد مانع من إضافته إلى الكتاب العزيز، ومنه ما يتعلق بالنظر في مصوغات الله للتدبير والاعتبار وتقوية الإيمان وزيادة الفهم والبصيرة».

(١٣٢) «الموافقات»، ج ١، ص ٢٦ - ٢٧. والتسويد منا.

كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة... فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما إنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه. ويجب الاقتصار - في الاستعانة على فهمه - على كل ما يضاف إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية. فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضلّ عن فهمه وتقول على الله ورسوله فيه» (١٣٣).

وهكذا فإن الشاطبي - الذي يقال لنا إنه مجدد أصول الشريعة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي - يضع نفسه سلفاً في موقع الصدام الجهي مع الأطروحة المركزية لدعاة التحديث اللاهوتي للتفسير القرآني. فبدلاً من أن يرى في القرآن نصاً مفتوحاً وعابراً للتاريخ، فإنه يخلقه ويضرب حوله حصاراً نكوصياً من «أمية العرب» ومحدودية نصابهم المعرفي. والعجيب أن ناقد العقل العربي، الذي يعرف نص الشاطبي هذ ويستشهد به، يعتمد على «معهود» عاداته أن يُخرجه عن دلالته بقوله: «ما يريد الشاطبي أن يخرج به من تأكيد أمية العرب وأمية الشريعة هو أنه... لا يجوز ولا يعقل أن نبحث في القرآن عن علوم ومعارف أعلى من مستوى الأمية التي كان عليها العرب... وما يثقله الشاطبي هنا ينسحب على ما يفعله بعض الكتاب المعاصرين الذين يكتشفون في القرآن جميع الكشوف العلمية الحديثة» (١٣٤).

والواقع أنه ليس صعباً علينا أن ندرك أن الإشكالية التي يصدر عنها الشاطبي لا تمت بصلة إلى الإشكالية التي يصدر عنها «بعض الكتاب المعاصرين» المشار إليهم. فهؤلاء يعيشون في عصر قدّم النصاب المعرفي للعلم على كل نصاب سواه، فأرادوا من خلال «اكتشافهم» كشوف القرآن العلمية أن يثبتوا «علمية» القرآن، خافدين تحت ضغط العقدة التي أورثها إياها عصرهم عن أن القرآن كتاب دين وليس كتاب علم بالمعنى الحديث للكلمة. أما الشاطبي الذي عاش في عصر ديني وحسب نفسه - على نحو يعز مثيله - في قضاء عقلي ديني انكماش، فقد كان همه الأول تثبيت «دينية» النص القرآني بالتعارض مع «التكلف العلمي» لأصحاب العلوم الطبيعية والتعاليمية والفلكية والمنطقية والفلسفية. والشاطبي لا يكتفي بنفي وجود أشباه هذه العلوم في القرآن، بل ينكر

(١٣٣) «الموافقات»، ج ٢، ص ٥٢ - ٥٣.

(١٣٤) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٥ - ٥٤٦.

مشروعيتها أصلاً. فهي عنده «فتنة على المتعلم والعالم» و «تعطيل للزمان في غير تحصيل» و «متلفة للعقل ومحارة له قبل بلوغ المقصود»^(١٣٥).

هذا الفضاء العقلي الديني المحكم بالإخلاق على نفسه، هو الذي أملى على الشاطبي تصنيفه الأحادي الراس للعلوم. فـ «علوم الشريعة أفضل العلوم وأعظمها أجراً عند الله يوم القيامة»، و «العلم الشرعي حاكم بإطلاق»، والعلوم الأخرى - «أعني العلوم التي نه الشارع على مزيتها وفضيلتها» - محكومة له محكومة الرسائل للمقاصد، و «الذي يجري مجرى المقاصد أعلى مما ليس كذلك، كعلم العربية بالنسبة إلى علم الفقه، فإنه كالوسيلة، فعلم الفقه أعلى»^(١٣٦).

وانتماء الشاطبي إلى «ابستمي» دينية متشرقة على نفسها يترجم عن نفسه تردداً وتحسناً إزاء علم ديني أساسي هو علم الكلام. فمع أن نصاب العلم أن يكون «خادماً للشريعة»، ومع أنه لا يمارى في أن علم الكلام أي علم أصول الدين - هو من «سائر العلوم الخادمة للشريعة»^(١٣٧)، فإن نفوره من النزعة العقلية المستقلة بنفسها ومن كل العلوم النظرية التي «لا تتعلق بها ثمرة تكليفية» يجد نوعاً من ترجمة فورية له في النفور من علم الكلام إلى حد تبديعه وتبديع المشتغلين به. فلئن تبدى علم الكلام، من وجهة نظر العقل، وكأنه النموذج الأكثر عقلانية لاشتغال العقل الديني، فإن هذا بالتحديد ما يجعله مشبوهاً أكثر منه مشروعاً في نظر الشاطبي. فالعقل الديني الذي يصدر عنه علم الكلام يعطي لنفسه، في إجراءاته على الأقل، نصاب العقل قبل نصاب الدين. وهذا بالضبط ما يرفضه الشاطبي الذي لا ينكر شيئاً، من وجهة النظر هذه، كإنكاره «تحكيم العقل على الله تعالى» و «يثار نظر العقل على آثار النبي ﷺ»^(١٣٨). ومن هنا ميل الشاطبي إلى أن يضع نفسه في خط أهل السلف ممن ذموا الكلام وبدعوه، وإلى أن يتخذهم ناطقين بلسانه في نقض دعوى العقل: «كان مالك بن أنس يقول: لكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه... ولا أحب الكلام إلا في ما تحته عمل. فأما الكلام في الدين وفي الله عز وجل فإلست أكرهه أحب إلي... وقال

(١٣٥) «المواقفات»، ج ١، ص ٢٣ و ٣٠.

(١٣٦) «الاحتصام»، ج ٢، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(١٣٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧.

(١٣٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣١ و ٣٣٤.

يونس بن عبد الله الأعلى: سمعت الشافعي يوم نظره حفص الفرد^(١٣٩) قال لي: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام... وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظراً في الكلام إلا وفي قلبه دغل^(١٤٠). ومن هنا أيضاً، تلك النظرية التي لا تخلو من غرابة، والتي يصوغها الشاطبي بالتضامن مع نظريته عن «أمية الشريعة»: النهي عن التعمق في الاعتقادات. فمن الفصول التي يعقدها الشاطبي في «الموافقات» فصل في وجوب «أن تكون التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها ليسعه الدخول تحت حكمها... ولذلك نجد الشريعة لم تعرف من الأمور الإلهية إلا بما يسع فهمه... ومما يدل على ذلك أيضاً أن الصحابة، رضي الله عنهم، لم يبلغنا عنهم من الخوض في هذه الأمور ما يكون أصلاً للباحثين والمتكلفين. كما لم يأت ذلك عن صاحب الشريعة... بل الذي جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، النهي عن الخوض في الأمور الإلهية وغيرها، حتى قال: «لئن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟». وثبت النهي عن كثرة السؤال، وعن تكلف ما لا يعني، عاماً في الاعتقادات والعملية... وعلى هذا فالتعمق في البحث فيها وتطلب ما لا يشترك الجمهور في فهمه، خروج عن مقتضى وضع الشريعة الأمية^(١٤١).

وإذا كان هذا حكم العقلية الدينية، فكم بالأولى حكم العقلية العقلية! فالشاطبي يشدد التأكيد على هذه الأخيرة حتى ليتصدى لإبطالها عقلاً بعد أن كان استفرغ كل جهده حتى الآن في إبطالها نقلاً. وبالفعل، وفي المرة اليتيمة التي يتخلو فيها عن لغته الفقهية الأصولية ليتكلم لغة فلسفية، فإنما ليعلم من منظور العقل، فضلاً عن الشرع، قصور العقل وعجزه عن الوصول إلى ما يدعيه من معرفة بماهيات الأشياء. وفي ذلك يقول: «المطلوب مطلوب إما شرعاً وإما عقلاً... وما يتوقف عليه معرفة المطلوب قد يكون له طريق تقريبي يليق بالجمهور، وقد يكون له طريق لا يليق بالجمهور... فأم الأول فهو... كما إذا طلب معنى المَلَك فقل: إنه خلق من خلق الله في أمره، أو معنى الإنسان فقل: إنه هذا الذي أتت من جنسه... أو معنى

(١٣٩) من متكلمي المعتزلة

(١٤٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(١٤١) «الموافقات»، ج ٢، ص ٥٨ - ٥٩.

الكوكب فقيل: هذا الذي نشاهده بالليل، ونحو ذلك. فيحصل فهم الخطب مع هذا الفهم التقريبي حتى يمكن الامثال. وعلى هذا وقع البيان في الشريعة... [إذ] تفسر ألفاظ القرآن والحديث بمرادها لغة من حيث كانت أظهر في الفهم منها... وهي عادة العرب، والشريعة عربية، ولأن الأمة أمية، فلا يليق بها من لبيان إلا الأمي... فإدأ، التصورات المستعملة في الشرع إنما هي تقريبات بالألفاظ المترادفة وما قام مقامها من البيانات القريبة. وأما الثاني وهو ما لا يليق بالجمهور... كما إذا طلب معنى المَلَك فأحيل على معنى أغمض منه، وهو: «ماهية مجردة عن المادة أصلاً»، أو يقال: «جوهر بسيط ذو نهاية ونطق عقلي»، أو طلب معنى الإنسان فقيل: «هو الحيوان الناطق المائل»، أو يقال ما الكوكب؟ فيجاب بأنه «جسم بسيط، كُرِّي، مكانه الطبيعي نفس الفلك، من شأنه أن ينير، متحرك على الوسط، غير مشتمل عليه»، أو سئل عن المكان فيقال: «هو السطح الباطن من الجُزم الحاوي، المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوري»، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا تعرفها العرب، ولا يوصل إليها إلا بعد قطع أزمنة في طلب تلك المعاني. ومعلوم أن لشارع لم يقصد إلى هذا ولا كلف به. وأيضاً فإن هذا تسوُّر على طلب معرفة ماهيات الأشياء... وماهيات الأشياء لا يعرفها على الحقيقة إلا باريها، فتسوُّر الإنسان على معرفتها رمي في عمية»^(١٤٢).

إن هذا النص لا يدع مجالاً للشك في أن الشاطبي، إذا عدنا إلى تحديد موقعه من منظور التقسيم الثلاثي لأنظمة المعرفة، بياني محض، وأن مشروعه ليس إعادة تأسيس البيان على البرهان كما يتقول عليه ناقد العقل العربي، بل القطع لجذري ما بين البيان ولبرهان في ما إذا عُنَّ لهذا الأخير أن يستقل بنفسه ويخرج عن دوره، الذي شاء له الشرع، في خدمة لبيان. فانتصار الشاطبي لبيان بوصفه «العلم الحاكم» لا حدود له. وعداؤه للبرهان، كما «ينتحله أهل السفسة والمتحكمون» إذ يقلبون دوره من محكوم إلى حاكم، لا حدود له هو الآخر. والنصاب الشرعي عنده للبرهان غير المثني على أصل البيان بأنه بدعة؛ وأهله، بإجماع الأمة، خارجون عن الأمة.

ولهذا كله لا نبالغ إذا قلنا إن الشعور الذي خاثرنا - ولا بد من أن يخامر لقارئ - ونحن نقرأ حكاية ناقد العقل العربي عن التجلية «الابستمولوجية الهائلة» للشاطبي عندما أراد أن يجعل من الشريعة علماً بتأسيسها على البرهان»، وعن طريق «توظيف

(١٤٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧ - ٢٨.

الطريقة البرهانية التي كانت معروفة ناضجة (=المنطق)^(١٤٣)، بأننا لسنا فقط أمام حكاية مختصرة جملة وتفصيلاً، بل أمام بطاقة هوية مزورة وُضِعَ فيها اسم محل اسم أو صورة محل صورة. وهذا الشعور يتعزز عندما يضيف ناقد العقل العربي قوله في ختام الفصل عن «مشروع إعادة التأسيس»: «وبعد، فلعل القارئ يتصور الآن بوضوح ما نعنيه بعبارة «تأسيس البيان على البرهان» التي جعلناها عنواناً لذلك الاتجاه الفكري التجديدي، العقلاني التقدي، الذي عرفته الثقافة العربية في الأندلس والمغرب... إن الأمر يتعلق فعلاً بلحظة جديدة تماماً في تاريخ الفكر العربي، لحظة تميزت بنقد الأساس الاستمولوجي الذي قُمَ عليه الحقل المعرفي البياني منذ عصر التدوين واقتراح أساس جديد. توظف فيه المفاهيم الاستمولوجية المؤسسة لعصرهم لابن حزم، ابن رشد، الشاطبي»، مفاهيم البرهان كمنطق وطبيعيات بصورة خاصة، توظيفاً يرتفع بالممارسة النظرية في الحقل البياني إلى مستوى لممارسة العلمية البرهانية»^(١٤٤).

التوفيق بين البيان والعرهان

إزاء هذا الغلو، فإننا لا نملك إلا أن نغلو بدورنا في استغلال منطق المشابهة لتسامح: ليس الهدف من تزيف الاسم أو الصورة في بطاقة الهوية تلك، هو استصدار جواز سفر مزور للتمكين للشاطبي - مع سائر ممثلي «المدرسة الأندلسية - المغربية» - من الزواج من مملكة البيان القروسطية للإقامة اللامشروعة «استمولوجية» في جمهورية البرهان المعاصرة، بعد أن غدت هذه الأخيرة - بحكم الانقلاب في الزمان المعرفي - هي المدينة الفاضلة للحدالة؟

والحقيقة أنه لو كان لنا أن نزيح الشاطبي عن موقعه المشروع والثابت في عالم البيان، فأحرى بنا أن نزيحه لا نحو عالم البرهان، بل نحو ذلك النقيض المطلق للبرهان الذي هو، في نظر ناقد لحقل العربي، العرفان. ففي فصل واحد من «الاختصاص» يجمع الشاطبي بين المتصوفة والمتفلسفة على سبيل المقارنة الضدية ليحكم بتدريج هؤلاء وتبرئة أولئك من تهمة الابتداع التي يحاول إلصاقها بهم بعض خصومهم من الفقهاء. وفي ذلك يقول: «وأما الكلام في دقائق التصوف فليس بدعة بإطلاق،

(١٤٣) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٨.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٥٥١ - ٥٥٢.

ولا هو مما صح بالدليل بإطلاق، بل الأمر ينقسم... وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان: أحدهما التخلُّق بكل خلق سنِّي والتجرد عن كل خلق دني. والآخر أنه الفناء عن نفسه والبقاء لربه... الأول اتصاف الظاهر، والثاني اتصاف الباطن، ومجموعهما هو التصوف. وإذا ثبت هذا، فالتصوف بسمعي الأول لا بدعة في الكلام فيه... وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة... وأما بالمعنى لثاني فهو على ضرب: أحدها يرجع إلى العوارض الطارئة على السالكين، إذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني، فيتكلم فيها بحسب الوقت والحال، وما يحتاج إليه في النازلة الخاصة رجوعاً إلى الشيخ المري... فمثل هذا لا بدعة فيه لرجوعه إلى أصل شرعي... والثاني يرجع إلى النظر في الكرامات وخوارق العادات... فهذا النظر ليس ببدعة، كما إنه ليس ببدعة النظر في المعجزات وشروطها، والفرق بين النبي والمنتبي، وهو من علم الأصول، فحكمة حكمه. والضرب الثالث م يرجع إلى النظر في مدركات النفوس من العالم الغائب، وأحكام التجريد النفسي، والعلوم المتعلقة بالأرواح، وذوات الملائكة ولشياطين والنفوس الإنسانية والحيوانية، وما أشبه ذلك، وهو بلا شك بدعة مذمومة إن وقع النظر فيه. والكلام عليه بقصد جعله علماً ينظر فيه، وفناً يشتغل بتحصيله بتعلم أو رياضة، فإنه لم يعهد مثله في السلف الصالح، وهو في الحقيقة نظر فلسفي إنما يشتغل باستجلابه والرياضة لاستفادته أهل الفلسفة الخارجون عن السنة، المعدودون في الفرق الضالة، فلا يكون الكلام فيه مباحاً، فضلاً عن أن يكون متديباً إليه^(١٤٥).

وليس هذا النص وحده ما يقطع بالعيول العرفانية للشاطبي البياني. فهو لا يذكر المتصوفة في «الموافقات» إلا واصفاً إياهم وحسراً المتقدمين منهم - بأنهم «المحققون»، «المكملون»، الذين «هم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة»^(١٤٦). أما في «الاختصاص» فيصرح في أكثر من موضع بأنه «إن فسخ الله في المدة» فسيضع كتاباً في «مذهب أهل التصوف» ليلخص «في طريقة القوم أنموذجاً يستدل به على صحتها وجريانها على لطريقة المثلى»، وليبين أنه ما «داخلتها المفاسد وتطورت إليها البدع» إلا «من قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح»^(١٤٧). أما من

(١٤٥) «الاختصاص»، ج ١، ص ٢٠٧ - ٢١٠.

(١٤٩) «الموافقات»، ج ٢، ص ٢٠٧ و ٢٨٥؛ ج ٤، ص ١٣٦.

(١٤٧) «الاختصاص»، ج ١، ص ٩٠ و ٢١٩.

المقصود هنا بـ «السلف الصالح» فهو يفرد فصلاً مطولاً في أكثر من عشر صفحات يضمه لائحة بأسماء نيف وأربعين ممن اشتهر من «أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأمرار التوحيدية» ليثبت أن «الصفوية الذين نسبت إليهم الطريقة، مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متبعة السنة، وأبعد الناس عن البدع وأهلها»، وذلك على العكس من الفلاسفة الذين ابتدعوا وضلوا بقدر ما ادعوا أن «العقول مستقلة بإدراك مصالحيها» وأخذوا «بمجرد العقل قبل النظر في الشرع» و «أرادوا أن يخرجوه على مقتضى عقولهم، وجعلوا ذلك عقلياً لا شرعياً، وليس الأمر كم زعموا»^(١٤٨).

وإذا استذكرنا الآن ما كان قله الجابري عن الغزالي عندما حمّله مسؤولية «الأزمة التاريخية للعقل العربي» لمجرد إقحامه العرفان على دائرة البيان، فإننا لتساءل لم يغفر ناقد العقل العربي للشاطبي «المغربي» ما لم يغفره قط لشيخه «المشرقي»؟ فالشاطبي، مثله كم سري مثل ابن خلدون، عديله في المشروع البرهاني الأندلسي. المغربي المزعوم، عمل - ولو فسح الله له في المدة لعمل أكثر - على لتقريب بين دائرتي البيان والعرفان إلى حد المطابقة في القصد وإن مع الاختلاف في النهج. وهو بذلك يبرهن على انتماحه لا إلى الخط الحزمي - الرشدي، بل إلى الخط القشيري الغزالي. ولسوف نراه يجهر تكراراً بتلميذه على مدرسة أبي حامد. ولكن كما إن ناقد العقل العربي أعمى قارته تماماً عن ميول الشاطبي العرفانية، فمننا سنجده يمارس قدراً أكبر من التعمية ومن إنكار البهامة لينفي شيخة الغزالي للشاطبي. وهذا ما سيكون عليه بعض مدار الفقرة التالية.

جينالوجيا نظرية المقاصد

رأينا الجابري يعلن عن «ثلاثة عناصر تؤسس تفكير الشاطبي ومنهجيته، وهي عناصر لم يكن لها حضور تأسيسي، بل ولا أي نوع من الحضور، في الحقل المعرفي البياني. هذه العناصر هي: مفهوم المقاصد، ومفهوم الكلي، والطريقة التركيبية»^(١٤٩).

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ٤٧ و ٩٨. ولنلاحظ أن استنبات الشاطبي لـ «سلف صالح» لأهل التصوف يندرج في مساق نزعة سلفية متشددة تجعله يردد في غير موضع أنه «لا يمكن أن يبلغ المتأخرون أبداً مبلغ المتقدمين» وأنه «لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها» («الاعتصام»، ج ١، ص ٢٥٨ و ٢٥٩).

(١٤٩) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٧.

وقد أوفينا، على ما نعتقد، جدلية «الكلي والجزئي» و«الطريقة الاستقرائية - التركيبية» حقيقتها في ما تقدم. فلنعمل وكدنا الآن «مفهوم المقاصد». ولنترك الكلام مرة ثانية للجابري: «تبقى الخطوة المنهجية الثالثة [بعد القياس الجامع والاستقراء الناقص] المتمثلة في ضرورة اعتبار مقاصد الشرع. وقد أخذ الشاطبي هذه الفكرة عن ابن رشد - الذي وظفها في مجال العقيدة - ونقلها إلى مجال الأصول فدعا إلى ضرورة بنائها، أعني الأصول، على مقاصد الشرع بدل بنائها على استثمار ألفاظ النصوص، كما دأب على العمل بذلك علماء الأصول انطلاقاً من الشافعي، وبذلك يكون الشاطبي قد دشّن قطيعة ابستمولوجية حقيقية مع طريقة الشافعي وكل الأصوليين الذين جاؤوا بعده»^(١٥٠).

وبالجمع بين النصين يسهل علينا أن نثبت أن الجابري يتبع، في التأسيس النظري «للقطيعة الشاطبية»، استراتيجية مزدوجة: فهو يصورها أولاً قطيعة مطلقة - أشبه ما تكون بخلق من عدم - مع الفكر الأصولي المشرقي بدءاً بالشافعي و«كل الأصوليين الذين جاؤوا بعده»، ثم يصورها ثانياً ضرباً من «نشأة مستأنفة» بالاتصال - لا بالقطع - مع عميد المدرسة البرهانية الأندلسية المغربية ابن رشد الذي كان أول من دعا - كما يقول الجابري دوماً - إلى «التركيز على ضرورة اعتبار مقاصد الشرع»^(١٥١).

ولكن قبل أن ندخل في نقاش هذه الاستراتيجية الجابرية المزدوجة، فستلاحظ أن إعلانه هذا لا يمثل ضرباً من «قطيعة داخل القطيعة» كما قد يتبادر إلى ذهن القارئ للوهلة الأولى. فالحديث عن شراكة رشدية - شاطبية في تأسيس العلم المقاصدي «المجديد» ليس إبداعاً جابرياً من العدم، بل يمثل هو نفسه نوعاً من «نشأة مستأنفة». فالسابق إلى هذا الحديث هو الباحث التونسي المتخصص في دراسات أصول الفقه د. عبد المجيد التركي. ففي لندوة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس في الرباط في نيسان/أبريل ١٩٧٨ بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاة ابن رشد، ألقى ع.م. التركي مداخلة تحت عنوان «مكانة ابن رشد الفقيه من تاريخ المالكية بالأندلس» تحدث فيها عن دور ابن رشد «الفيلسوف الفقيه» في إثراء الفكر الفقهي «إثراء قد مهد السبيل في اعتقادنا لتطورات لاحقة، بل لميلاد علم جديد ظهر بعد قرنين من وفاة ابن رشد على يد منشئه الشاطبي الأندلسي» الذي اختار له من

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٥٤١.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٥٣٩.

الأسماء علم مقاصد الشريعة». وقد أنهى مداخلته بمثل ما بدأها به من إشادة بدور ابن رشد في «اكتشاف علم جديد هو علم مقاصد الشريعة... على يدي لشاطبي الأندلسي»^(١٥٢).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه حالاً: هل تعود فعلاً براءة اختراع «علم» مقاصد الشريعة الجديد إلى الشراكة الرشدية - الشاطبية^(١٥٣)؟

تترك الجواب هنا للدارسين المتخصصين في الدراسات الشاطبية، اللذين سبق لنا الاستشهاد بهما، واللذين شاءت الصدفة أن يكونا كلاهما «مغربيين»، مما يقطع الطريق سلفاً على أي محاولة للصيد في المياه العكرة للعصية الإقليمية.

يقول صاحب أطروحة «الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام» بقدر غير قليل من الحياء، وفي هامش استلحاقي^(١٥٤)، وفي إحالة مباشرة إلى نص الجابري: «لعل الإنصاف يقتضي مراجعة ذلك الحكم القطعي المؤكد أن العناصر التي تؤسس فكر الشاطبي ومنهجيته لم يكن لها حضور تأسيسي، بل ولا أي نوع من الحضور [قبله]؛ هذه العناصر هي: مفهوم المقاصد، ومفهوم الكلّي، والطريقة التركيبية» الاستقرائية... وقد برهنا مراراً، وبما فيه الكفاية، أن تلك العناصر المنهجية بعينها حاضرة عند الجويني وبشهادة الشاطبي»^(١٥٥).

ويقول صاحب أطروحة «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي» بنبرة أشد حدة

(١٥٢) انظر: «أعمال نفوة ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي»، مصدر آف الذكر، ص ١٨٢ - ١٩١. ويلوح، بالمناسبة، أن فكرة هذه «الشراكة الرشدية - الشاطبية» في اكتشاف العلم المقاصدي «الجديد» ليست هي الفكرة الوحيدة التي قبسها الجابري عن التركي. فقد أخذ عنه أيضاً - في أرجح الظن - فكرة «العلاقة الجدلية» بين الكلّي وجزئي لدى مؤلف «الموافقات». ففي الندوة عنها - وقد كان الجابري من المشاركين فيها - وفي المداخلة حينها، نوه التركي بأن «الشاطبي يقيم علاقة جدلية متينة بين الجزئيات الظنية والكلّيات القطعية» (المصدر نفسه، ص ١٨٩).

(١٥٣) نضع هنا كلمة «علم» مقاصد الشريعة بين مزدوجين لأن الشاطبي نفسه لم يستخدم قط هذا التعبير الذي نرجح أن يكون أول من أطلقه هو الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة كتابه «مقاصد الشريعة الإسلامية» الصادر عام ١٣٦٦هـ.

(١٥٤) لعل مرد ذلك إلى شروط تقليد أطروحة لنين شهادة الدكتوراه.

(١٥٥) عبد المجيد الصنغير، «الفكر الأصولي...»، مصدر آف الذكر، ص ٤٩٦.

يكثير، في معرض الإشارة إلى فرضية الجابري عن الوراثة الشاطبية المباشرة لمفهوم مقاصد الشرع: «إن الذي لا ينتهي حجبى منه هو: كيف يستعمل بعض الباحثين أن يقيموا أحكاماً ونظريات، ويفسروا ظواهر وتطورات، فقط بواسطة ألفاظ يلتقطونها، ثم يكرونها، ويغلطون كتابتها، ويسطرون تحتها، ثم يفرضون على الجمهور أن يؤمن بما بنوه عليها، مما لا تحمله ولا تقيده حتى عشرات من أمثالها! ولو ساغ في ميزان العلم أن نؤسس زيادة ابن رشد وتأثيره على الشاطبي في مجال المقاصد، على مجرد استعماله لفظ «مصلحة»، لكان أولى أن نؤسس ذلك على استعماله لفظ: مقصد (لشرع، ومقصود الشارع، مما لم يبق فقيه ولا أصولي إلا استعماله... وعلى مثل هذه النصوص أو - بالضبط - على مثل هذه الألفاظ، اعتمد الدكتور الجابري ليقول: «... وقد أخذ الشاطبي هذه الفكرة عن ابن رشد، الذي وظفها في مجال العقيدة ونقلها إلى مجال الأصول...» هكذا بكل راحة يستعمل باحث كبير ومعمّر شهير الجزم بأن فكرة المقاصد أخذها لشاطبي عن ابن رشد! ولا استدراك ولا احتمال! ولا إثبات ولا استدلال! ولو أن الدكتور الجابري ألزم نفسه بما شرطه على قارئ الشاطبي، من أنه «لن يستطيع فهم أغراضه وإدراك جوانب التجديد في فكره وتفكيره، إلا إذا توفر فيه شرطان اثنان: أولهما سعة الاطلاع، ليس على ميدان الفقه وأصوله فحسب، بل على مختلف فروع الثقافة العربية، من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام ومنطق وفلسفة وتصوف...»، لو أنه التزم بهذا، وبصفة خاصة سعة الاطلاع على الفقه وأصوله، وهما المرتع الطبيعي، والمنبت الطبيعي، للشاطبي ونظريته، لما بقي أميراً لبعض ألفاظ استعمالها ابن رشد في مجال العقيدة، حتى جعل منها الأستاذ الكريم مفتاحاً لتفسير ما جاء به الشاطبي عن مقاصد الشريعة، وحتى وصلت به الحماسة إلى حد اعتبار أن خطاب الشاطبي حول مقاصد الشريعة كان جديداً كل الجدة»^(١٥٦).

إن هذين النصين الاختصاصيين، على تباين لهجهما، يؤكدان حقيقة واحدة: وهي أن نظرية المقاصد الشاطبية لا تقبل القراءة - قراءة تلتزم حداً من المطابقة مع المقروء - إلا بالاستمرارية، لا بالقطعية، مع الفكر الأصولي «البياني». ولكن قبل أن نتصدى للتحرّي عن «الأصول» الأصولية للنظرية المقاصدية الشاطبية، فلنكن لنا وقفة مع مفهوم

(١٥٦) «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي»، ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

«القطيعة» كما يطبقه ناقد العقل العربي على «اللحظة الشاطبية». فهذه القطيعة - ضمن الاستمرارية الحزمية/ الرشدية طبعاً - هي في آن معاً قطيعة «الطريقة البرهانية مع إشكاليات المتكلمين، والأشاعرة منهم بكيفية خاصة» وقطيعة مع «علماء الأصول انطلاقاً من الشافعي» ومع منهجيتهم القائمة «على استثمار ألفاظ النصوص الدينية»^(١٥٧). ومحور هذه القطيعة مفهومان: «ظاهر ألفاظ الشرع ومقصد الشرع». وهذان المفهومان، الموروث أولهما عن ابن حزم وثانيهما عن ابن رشد، «مفهومان مركزيان في المشروع الثقافي الأندلسي، مشروع إعادة تأسيس البيمان [على البرهان]»^(١٥٨).

وأول ما سنلاحظه هنا هو التناقض المنطقي الجذري في الصيغة الجابرية. فلو صح أن الشاطبي أخذ فكرة «مقاصد الشرع» عن ابن رشد «فدعا إلى ضرورة بناء الأصول على مقاصد الشرع بدل بنائها على استثمار الألفاظ لدينية»، لكان هذا معناه أن الشاطبي «قطع» مع المفهوم الحزمي المزعوم عن «ظاهر ألفاظ الشرع» ليأخذ بالمفهوم الرشدي المزعوم عن «مقصد الشرع» مطلقاً بدون أي شراكة.

فابن حزم، الذي رفض بوثوقية منقطعة النظير مفاهيم «العلة» و «المصلحة» و «المقصد» و «مناط الحكم» في استنباط الأدلة الشرعية، هو من تطرف أيضاً إلى أقصى مدى في نفي المشروعية عن أي منهجية أخرى غير «استثمار الألفاظ الدينية» انطلاقاً من مبدئه الظاهري المشهور من أنه «لا بيان إلا بالألفاظ المعبرة عن المعاني التي أوقعت عليها في اللغة» و «لا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسط اللفظ»^(١٥٩).

وقد رأينا الشاطبي يعلن في غير موضع من «الموافقات» و «الاعتصام» عن شجبه أحادية المفهوم الحزمي عن «ظاهر ألفاظ الشرع». وها هوذا يكرر في النص التالي شجبه لما يكاد يوافق على تسميته «البدعة الظاهرية» «لأنهم واقفون مع ظواهر النصوص من غير زيادة ولا نقصان و... عدم اعتبار المعقول جملة»^(١٦٠).

(١٥٧) «بنية العقل العربي»، ص ٥٣١ و ٥٤٠.

(١٥٨) المصدر نفسه، ص ٥٣٠.

(١٥٩) «رسائل ابن حزم الأندلسي»، ج ٤، ص ٢٨٢ - ٢٨٤.

(١٦٠) «الموافقات»، ج ١، ص ٥٤.

وقد يكون مفيداً أن ننقل هنا رواية يرويها الشاطبي نقلاً عن الجويني: «حكى إمام الحرمين عن ابن سريج أنه ناظر أبا بكر بن داود الأصبهاني في القول بالظاهر. فقال له ابن سريج: أنت تلزم الظواهر، وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، فما تقول في من يعمل مثقال ذرتين؟ فقال مجيباً: اللوتان ذرة وذرة. فقال ابن سريج: فلو عمل مثقال ذرة ونصف؟ فتلبذ وانقطع. وقد نقل عياض عن بعض العلماء أن مذهب داود بدعة ظهرت بعد المتيين. وهذا وإن كانت تغالياً في رد لعمل بالظاهر، فالعمل بالظواهر أيضاً على تتبع وتعالٍ بعيد عن مقصود الشرع، كما إن إهمالها إصراف أيضاً»^(١٦١).

إن هذا النص متعدد الدلالات في ما نحن بصده. فهو أولاً يتخذ من إمام الحرمين مرجعاً. وهذه نقطة ستكون لنا عودة إليها. وهو ثانياً يذكرنا بأن الظاهرية «مذهب» أو «بدعة» استحدثها بعد المتيين داود، ويعني به داود بن عبي بن خلف الأصبهاني والد أبي بكر بن داود المشار إليه في النص. والحال أن داود الأصبهاني هذا هو أصولي مشرقي. ومن ثم فإن ابن حزم الأندلسي تلميذ له وليس مخترع المذهب. وهذه النقطة التفصيلية، على بدايتها الساذجة، تنسف ركيزة أساسية في الاستمولوحي الجابرية القائمة على القطعية ما بين العقلين لمشرقي والمغربي. فلو صح أن «ظاهر ألفاظ الشرع» مفهوم مركزي «في المشروع الثقافي الأندلسي»، لصح فيه القول إنه مفهوم «مستورد». ولو وجدت قطعية «أندلسية» مغربية حقاً لكان ينبغي أن تأخذ شكل مقاطعة لهذه «البضاعة المشرقية» المستوردة^(١٦٢). والنص يدحض ثالثاً وأخيراً مدعى ناقد العقل العربي عن «النقلة الاستمولوجية» لشاطبية التي تَحَثُّ إلى «بناء الأصول على مقاصد الشرع بدل بنائها على استثمار ألفاظ النصوص الدينية». فمنهجية الشاطبي، مثلما هو واضح من النص الذي يرفض «التغالي» في العمل بالظاهر كما في رده، ليست منهجية بدلية، بل عطفية، وليس نصابها «إماماً... وإماماً، بل «و... و...». واستقراء مقاصد الشرع لا يغني عنه عن «استثمار ألفاظ النصوص الدينية». فما بين

(١٦١) «الموافقات»، ج ٣، ص ٩١.

(١٦٢) الواقع أن «ظاهر ألفاظ الشرع» لم يمثل قط «مفهوماً مركزياً» لا في المشرق ولا في المغرب ولا على الأخص في «المشروع الثقافي الأندلسي ككل». فقد بقيت الظاهرية في المغرب كما في المشرق تمثل نصاباً أقلوياً، وأقرب إلى أن تكون «بدعة» منها مذهباً «جمهورياً».

المسلكين وصل لا قطع، تعاضد لا تمناع. والاجتهاد عنده ضربان مثلاًزمان: «استنباط من النصوص» واستقراء «المعاني من المصالح والمفاسد»^(١٦٣). وبعبارة أخرى: «فهم ألفاظ الشريعة» و«فهم مقاصد الشريعة»^(١٦٤). ويذهب أن الشاطبي ليس ظاهرياً ليغلب المسلك الأول، ولكنه ليس قياسياً أو «رأياً» محضاً ليرجح المسلك الثاني^(١٦٥). فليس من سبيل إلى استقراء مقاصد الشريعة (= الاستقراء المعنوي) عن غير طريق الاستنباط من النصوص (= الاستقراء اللفظي). ومن هنا القسمة الثنائية والتراتبية معاً للأدلة الشرعية عند الشاطبي. «الأدلة الشرعية ضربان. أحدهما ما يرجع إلى النقل المحض، والثاني ما يرجع إلى الرأي المحض. وهذه القسمة هي بالنسبة إلى أصول الأدلة. وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقولات لا بد فيه من النظر. كما إن الرأي لا يعتبر شريعاً إلا إذا استند إلى النقل. فأما الضرب الأول فالكتاب والسنة، وأما الثاني فالقياس الاستدلال... ثم نقول إن الأدلة الشرعية في أصلها محصورة في الضرب الأول لأننا لم نثبت الضرب الثاني بالعقل، وإنما اثبتناه بالأول منه... وإذا كان كذلك فالأول هو لعمدة»^(١٦٦).

وإذا جئنا الآن إلى «المفهوم المركزي» الثاني في «المشروع الثقافي الأندلسي»: مقصد الشرع، طالعنا التلاهب الجيئالوجي عينه. ففي الوقت الذي يصير ناقد العقل العربي على مصادره التي تقول إن «الشاطبي أخذ هذه الفكرة عن ابن رشد»، فإنه لا يقل تصميمياً على نفي أي وراثة غزالية في التكوين الفكري والمفهمومي للشاطبي. وهكذا يأخذ على عاتقه - في معرض إيضاحه أن مؤلف «الموافقات» لا يدين لأحد غير نفسه في «اكتشافه»، أن «قصد الشارع من وضع الشريعة هو حفظ مصالح العباد في الدنيا والآخرة» - أن يضيف هامشاً يقول فيه بالحرف الواحد: «لا بد من الإشارة هنا إلى أن الغزالي سبق أن قال بالمصلحة... وذلك عند حديثه عن الاستصلاح. ولكن الفرق كبير جداً بين الموقع الذي تحتله فكرة المصلحة وقصد الشارع في تفكير

(١٦٣) «الموافقات»، ج ٤، ص ٩٠.

(١٦٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩١.

(١٦٥) الواقع أن آلية القياس باللات (= إلحاق غير المنصوص بالمنصوص) تفترض مركزية النص وأولريته. والنقاش حول مشروعية القياس أو عدمها هو نقاش من داخل النظام المعنوي للعقل العربي الإسلامي، وليس خروجاً عليه.

(١٦٦) «الموافقات»، ج ٣، ص ٢١ - ٢٢.

الغزالي، وهو موقع هامشي جداً بالنسبة للموقع الذي تحتله في تفكير الشاطبي^(١٦٧).

وهكذا تتكرر، بهدف إبراز الاستقلالية الشامة «للمشروع الشافعي الأندلسي»، عملية الإحضار والتغيب: إحصار ابن رشد الحكيم بوصفه الأب الروحي للنظرية المقاصدية الشاطبية، مع أن مؤلف «الموافقات» لا يأتي يذكره إلا لمرة واحدة ويتيمة، وفي معرض النقد كما رأينا، وتغيب الغزالي الذي يذكره الشاطبي في «الموافقات» أكثر من أربعين مرة ويستشهد بما لا يقل عن عشرة من كتبه، ومنها «المستصفى» و «شفاء الغليل» و «الإحياء» و «جواهر القرآن» و «المستظهر» و «معيان العلم» و «إلجام العوام» و «مشكاة الأنوار»، إلخ.

أما الحضور الشاطبي الثاني في «الموافقات» فهو لإمام الحرمين الجويني، الذي يعترف الشاطبي بمديونيته له في أكثر من عشرة مواضع، وعلى الأخص في ما يتعلق بمفهوم «مقصد الشرع» و «قطعية أصول الشريعة». وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الجويني كان الأستاذ المباشر للغزالي، فلا عجب، أن يقول دارس الشاطبي إن النموذج الأكثر حضوراً في مشروع الشاطبي التجديدي هو نموذج الغزالي، وأن يضيف أن «حضور الغزالي، ومن خلاله حضور الجويني، في تغذية فكر الشاطبي وتنميته، مسألة واضحة للعيان ومعترف بها من طرف الشاطبي نفسه»^(١٦٨).

(١٦٧) شبيه هذه الملاحظة كان أبدأها عبد المجيد التركي حين طرح عليه في نهاية مدخله المشار إليها أحد المناقشين السؤال التالي: «ألا يمكن أن نخرج من حديثكم بالقول بأن علماء المغرب والأندلس تمكّنوا من صياغة نظرية عامة للشريعة الإسلامية تصلح لأن تكون قالباً للشرع الإسلامي ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؟»، فكان جوابه: «أنا على رأي الأستاذ، فمسألة هذا العلم المجيد الذي يسمى مقصد لشريعة ظهر في المشرق على شكل مفهوم غامض نوعاً ما، وهو مفهوم الاستصلاح... ولكن ما أطول الطريق بين الاستصلاح وبين مقاصد الشريعة» (أعمال ندوة ابن رشد، مصدر آف الذكر، ص ٤٥).

(١٦٨) عبد المجيد الصغير: «الفكر الأصولي...»، ص ٤٥٤. ومنا عن القطعية المزعومة مع النموذج الأشعري. أما عن القطعية المزعومة الأخرى مع الأب المؤسس لأصول الفقه، الإمام الشافعي، فنترك أيضاً الرد للبحث نفسه: «الواقع أن الشاطبي، وهو بصدد التأسيس لعلمه الجديد، لم يملك إلا أن يتكهن «مشروع البيان» عند الشافعي... ولم يز بأساً أن يمنح «رسالة» الشافعي في «الموافقات» أو «الاعتصام» حضوراً قوياً يجعل من أطروحاتها أساساً مهماً وضرورياً لـ «بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام» وإدراك المقاصد الكلية الضرورية» (المصدر نفسه، ص ٤٧٢).

«مقصد الشرع» كمفهوم تراكمي

إذا نخينا الآن مسألة لوراءة اشيخية وجننا إلى التكوين التاريخي للمفهوم، فستلاحظ أن «مقصد الشرع» هو نموذج لمفهوم تراكمي، وهذا بالضدية المباشرة مع دعوى ناقد العقل العربي في تخلقه من عدم، وولادته راشداً في رحم «موافقات» الشاطبي. فالمفهوم قد مر بأطوار ثلاثة: فقد كان أول تداول له، على سبيل اللفظ لا المفهوم، في تلك الحلقات المبكرة التي ضمت، على ما يؤكد دارس «نظرية المقاصد» عند الإمام الشاطبي، أسماء الترمذي الحكيم والماتريدي والشاشي القفال والأبهري والياقلائي. ثم كان تبلوره كمفهوم في حلقات وسيطة كانت القيادة فيها، بلا مراء، للثلاثي الأشعري لجويني/الغزالي/الرازي. وكان تحوله أخيراً إلى مفهوم مركزي، بله إلى مفهوم/مفتاح في «موافقات» الشاطبي.

وبما أننا لست هنا بصدد إعادة بناء تاريخية للمفهوم، بن فقط بصدد بيان الاستمرارية الاستمولوجية التي يصير نقد العقل العربي، لأسباب تتصل بالمفاضلة الإقليمية، على تعميدها باسم «قطيعة»، فستتوقف عند لحظة عابئة تماماً عن حقن الوعي الجابري هي لحظة الجويني في كتابه: «البرهان».

فالجويني (٤١٩ - ٤٧٨هـ)، في كتابه هذا في أصول الفقه، يتداول مفهوم «مقصد الشرع» ويقلبه على شتى وجوهه الممكنة عشرات المرات. فهو يتحدث عن «مقصد الشرع» و«مقصود الشارع» و«مقاصد الشرع» و«قصد الشارع» و«مقاصد الشريعة» في مواضع لا تقع تحت حصر^(١٦٩). كما قد يتحدث عن «مقصود الأمر» و«مقصود النهي» و«قصد الأمر والنهي» و«مقصود الأمر» و«المقاصد في الأوامر والنواهي» و«مقصود الخطاب» و«قصد رسول الله» و«مقصود المعمل» و«قصد المتكلم»^(١٧٠).

ولكن ليس تداول مفهوم «مقصد الشرع» على هذا النحو المتواتر هو ما ينهض وحده شاهد على الريادة الجوينية، بل - وهذا هو الأهم بإطلاق - الصياغة المضمونية لنظرية المقاصد.

(١٦٩) أبو المعالي عبد الملك الجويني: «البرهان»، تحقيق د. عبد العظيم الديب، كلية الشريعة - جامعة قطر ١٣٩٩هـ، ج ١، ص ١٦٩ - ٢٥٩ - ٤٦٤ - ٥٣٣، وج ٢، ص ٩٦١.
(١٧٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩ - ٢٩١ - ٢٩٥ - ٥٢٨ - ٥٣٤، وج ٢، ص ١٠٣٣ - ١١٩٧.

فمعلوم أن ناقد العقل العربي يجعل هذه الريادة مطلقة، بدءاً من نقطة الصفر، للشاطبي بقوله: «يرى الشاطبي أنه بامتقراء الشريعة يتبين أن قصد الشرع من وضع الشريعة ابتداء... حفظ مصالح العباد في الدنيا والآخرة. وهذه المصالح لا تعدو ثلاثة أقسام: ضروريات وحاجيات وتحسينيات. أما الضروريات «فمعتها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا افتقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والتعيم والخسران المبين». و «مجموع الضروريات خمسة. وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل. وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملة»^(١٧١). وأما الحاجيات «فمعتها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة»... وأما التحسينيات «فمعتها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المذنبات التي تأنها العقول الراجحات. ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق»... كيف ثبت أن هذه الأمور الثلاثة (الضروريات والحاجيات والتحسينيات) هي مقاصد الشريعة وكمالاتها؟... دليل ذلك استقراء الشريعة والنظر في أدلتها الكلية والجزئية... يتعلق الأمر ذا بكليات مأخوذة من الاستقراء: استقراء الأحكام الشرعية هو الذي دل على أن مقاصدها الراجعة إلى حفظ مصالح العباد لا تعدو أن تكون ضرورية أو حاجية أو تحسينية»^(١٧٢).

والواقع أن ما قام به الشاطبي - باعترافه - ليس فقط استقراء الشريعة، بل أيضاً قراءة الجويني وتلميذه الغزالي. فالتقسيم الثلاثي لكليات الشريعة إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات هو تقسيم جويني، مثلما أن تقسيم المقاصد الضرورية إلى خمسة - هي «حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل» - هو تقسيم غزالي. فإمام الحرمين هو من يقول - وفي قوله ذاته ما ينم عن وعيه بأنه غير مسبوق في ما يقوله - في فاتحة باب «تقسيم العلل والأصول» من «كتاب القياس» من «البرهان»: «هذا الذي ذكره هؤلاء يعني من سبقه من العلماء ممن تباينت آراؤهم في ما يعمل ولا يعمل من أحكام الشرع» أصول الشريعة. ونحن نقسمها خمسة أقسام... فأما الضرب الأول فهو ما يستند إلى الضرورة... ويبان ذلك بالمثال: القصاص [ف «قضاء الشرع برجوب

(١٧١) لو تنبه لجابري إلى مدلول هذه الجملة التي سردها لتنبه إلى أن الفعل «قالوا» كاذب وحده لدحض فرضيته في خلق نظرية لمقاصد من علم.

(١٧٢) «بنية العقل العربي»، ص ٥٤٢ - ٥٤٤.

القصاص في أوامه معلل بتحقيق العصمة في الدماء المحقونة والزجر عن التهجم عليها]... وأما الضرب الثاني فهو ما يبنى على الحاجة للإجارة... وأما الضرب الثالث فهو ما لا ينتسب إلى ضرورة ولا إلى حاجة، وغايته الاستحثاث على مكارم الأخلاق^(١٧٣). ولئن يكن الجويني حدّ التعليقات المقاصدية بأنها خمسة، لا ثلاثة، فلأنه قد رُفِعَ الضرب الثالث - التحسينيات أو «المكرّمات» على حدّ تعبيره - إلى «مندیات» لم يرد الأمر صريحاً بإيجابها، بل ورد الأمر بالنّدى إليها، وإلى «نادرات» لا تدخل لا في باب الضرورات، ولا في باب الحاجات، ولا في باب المكرّمات، وهي من النادر الذي لا تعليل واضحاً له والذي لا تتعلق به «أغراض دفعية ولا نفعية». ولم يكن الجويني سابقاً إلى هذا التقسيم الثلاثي، لضروري والحاجي والتحسيني، لأصول الشريعة فحسب، بل كذلك إلى إعلان هذه الأصول قطعية لا ظنية، بدالة استقراء الأدلة الشرعية. والحال أن الشاذلي هو من سيعلم، من مفتتح «الموافقات» بالذات، مديونته بهذا الخصوص للجويني بقوله، في عين المقدمة الأولى التي أعلن فيها أن «أصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية، إنه لا ماص من «إطراح الظنيات من الأصول بإطلاق»، لأن «الأصول عنده [=أبي المعالي] هي الأدلة، والأدلة عنده ما يفضي إلى القطع... والأصل على كل تقدير لا بد من أن يكون مقطوعاً به. لأنه إن كان مظنوناً تطرق إليه احتمال الاختلاف. ومثل هذا لا يجعل أصلاً في الدين عملاً بالاستقراء... إذ يلزم أن يكون كل أصل قطعيّاً. هذا على مذهب أبي المعالي»^(١٧٤).

وقد عاد الغزالي إلى تبني التقسيم الثلاثي لكلليات الشريعة مع إحكام صياغته وتعصيده بالتصنيف الخماسي لمقاصد الشريعة، في «شفاء الغليل» أولاً، ثم في «المستصفى» ثانياً، ولكن بشكل أكثر إحكاماً وتنقيحاً. ففي «شفاء الغليل» كان سابقاً إلى الإعلان أنه «قد علّم على القطع أن حفظ النفس والعقل والبضع والمال مقصود في الشرع»^(١٧٥). ولئن جعل المقاصد هنا أربعة ولم يبرز فيها الدين، فلأنه قسم في هذا

(١٧٣) «البرهان»، ج ٢، ص ٩٢٣ - ٩٢٧.

(١٧٤) «الموافقات»، ج ١، ص ١٠ - ١٢. والتشديد منا.

(١٧٥) ابنزالي: «شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل»، تحقيق حمد لكيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧١، ص ١٥٧، نقلاً عن أحمد الريسوني: «نظرية المقاصد...»، ص ١٥٧.

الكتب «مقصود الشرع» إلى ديني وديني. ثم عاد في «المستصفى» يلغي هذا التفرع الثاني ويضم الدين إلى النفس والعقل والمال والنسل - عدولاً عن لفظ البضع الذي لا يخلو من غموض - في تصنيف خماسي سيفرض نفسه، بلا تعديل يذكر، على جميع الأصوليين اللاحقين وصولاً إلى الشاطبي نفسه. ولشئت الشاهد بتمامه - وقد جاء في سياق مناقشة مبدأ الاستصلاح (-لعمل بالمصالح المرسله) كما قال به الإمام مالك وغلا المالكيون في تطبيقه -: «إن المصلحة باعتبار قوتها في ذاتها تنقسم إلى ما هي في رتبة الضرورات، وإلى ما هي في رتبة الحاجات، وإلى ما يتعلق بالتحسينات والتزينات وتتعاقد أيضاً عن رتبة الحاجات. ويتعلق بأذيول كل قسم من الأقسام ما يحري منها مجرى التكملة والتتمة لها. ولنفهم أولاً معنى المصلحة ثم أمثلة مراتبها. أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة. ولست نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصالح الخلق في تحصيل مقاصدهم. لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع. ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عبيهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم - فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة هو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول هو مفسدة، ودفعها مصلحة. . . وهذه الأصول الخمسة، حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى لمراتب في المصالح، ومثاله قضاء الشرع بقتل الكافر المضل. . . وقضاؤه بإيجاب القصاص أده حفظ النفوس، وإيجاب حد الشرب إذ به حفظ العقول التي هي ملاك التكليف. . . والرتبة الثانية ما يقع في رتبة الحاجات من المصالح والمناسبات كتسليط الولي على تزويج الصغيرة والصغير، فذلك لا ضرورة إليه لكنه محتاج إليه في اقتناء المصالح. . . والرتبة الثالثة ما لا يرجع إلى ضرورة ولا إلى حاجة، ولكن يقع موقع التحسين والتزيين والتيسير للمزايا والمزائد ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات»^(١٧٦). ولو أن ناقد العقل العربي ربط نص الشاطبي بنص الغزالي هذا لما غاب عنه مدلول العبارة التي يقول فيها الشاطبي بعد عرضه لمجموع الضروريات الخمس: «وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملة». فالغزالي هو من يؤكد في النص نفسه، بعبارة حاسمة لا تقبل التباساً، أن حفظ الأصول الخمسة «يستحيل أن لا تشمل عبيه ملة من الملل وشرعية من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق. ولذلك لم تختلف

(١٧٦) أو بعبارة الشاطبي: «العقول مناط التكليف». - «المستصفى»، ج ١، ص ٢٨٦ - ٢٩٠.

الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنا والسرقة وشرب المسكر»^(١٧٧).

والواقع أننا لو عدنا إلى نص الشاطبي لما عسر علينا أن ندرك مدى ما بينه وبين نص الغزالي من تطابق شبه حرفي. فالفاظ النصين تكاد تكون واحدة، ومقتضيات نص الشاطبي هي نفس مقتضيات نص الغزالي:

- «قصد الشارع من وضع الشريعة حفظ مصالح العباد في الدنيا والآخرة».

- «هذه المصالح لا تعدو ثلاثة أقسام: ضروريات وحاجيات وتحسينيات».

- «مجموع الضروريات خمس...».

- «وهي مراعاة في كل ملة».

وإذا أضفنا إلى ذلك التطابق بين الشاطبي مع الجويني في مقدمته الكبرى عن «قطعية أصول الشريعة» جاز لنا لا أن نطعن في المعادلة الجابرية فحسب، بل أن نعكسها تماماً لنؤكد أن «العناصر التي تؤسس تفكير الشاطبي» لها كلها حضور، بل حضور تأسيسي، في الفكر الأصولي المتقدم، ولا سيما في الصيغة الأشعرية المطورة من علم الأصول لشافعي.

هل معنى هذا أننا ننكر على الشاطبي كل تجديد؟

بديهي أنه لا. فالشاطبي مجتهد المعني ومجدد. ولكن تجديده - كما اجتهداه - غير قابس للفهم خارج إطار التراكم المعرفي لعصره المتأخر، عدا عن أنه محدود - لا محالة - بالسقف الذي تعينه سلفاً لكل تجديد البنية الاستمرارية للعصر نفسه بوصفه - بألف ولام التعريف - عصر العقل المكوّن في طور انغلاقه الدوغمائي.

ونحن لسنا هنا بصدد رصد جميع جوانب التجديد في المشروع الشاطبي. فنحن لسنا معنيين، على سبيل المثال، بالإضافات الشاطبية التقنية إلى نظرية المقصد. ومثالها تصنيفه الرباعي لـ «قصد الشارع» إلى: أولاً - قصد الشارع في وضع الشريعة

(١٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٨٧. ولئن قال الشاطبي «وقد قالوا...» بواو الجمع وليس بامفرد، فلأن عدداً من الأصوليين قد تابعوا الغزالي من بعده في مقولته هذه، ومنهم سيف الدين الأملدي (ت ٦٣١) الذي قال في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام»: «المقاصد الخمسة التي لم تخل من رعايتها ملة من الملل ولا شريعة من الشرائع هي: الدين وانفس والعقل والنسل والمال» («الإحكام»، ج ٣، ص ٣٩٤).

ابتداءً ، ثانياً - قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام، ثالثاً - قصد الشارع في وضع الشريعة للتكليف بمقتضاها، رابعاً - قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة .

كما لستنا معنيين ببيان تقسيمه الثنائي لمقاصد الشريعة إلى مقاصد أصلية ومقاصد تبعية، ولا بحصره قواعد معرفة قصد لشارع بأربع: أولاً - فهم قصد الشارع وفق مقتضيات اللسان العربي، ثانياً - فهم قصد الشارع باعتبار صريح أوامره ونواهيه، ثالثاً - فهم قصد الشارع باعتبار علل أوامره ونواهيه، رابعاً - فهم قصد اشارة عن طريق الاستقراءات الكلية .

ولستنا معنيين أخيراً بتتبع التوسع الكمي الكبير للشاطبي في نظرية المقاصد وإفراده إياها بكتاب مستقل من «الموافقات» بدلاً من أن يخصها بفصل أو بفصل من فصل صنيع الجويني أو الغزالي أو الرازي^(١٧٨) : فمع الشاطبي كفت مسألة المقاصد عن أن تكون فرعية لتندو مركزية . وما كان مجرد بذرة أو نبتة غدا شجرة باسقة . ولكن هذا الإغناء بالحجم لا يخرج عن قانون التراكم المعرفي في الفضاء العقلي العربي الإسلامي . فعصر العقل المكوّن ليس بالضرورة عصر انحطاط ولا عصر اجترار، بل هو - في أرقى مستوياته على الأقل - عصر تراكم موسوعي في المعرفة، ولكن بلون إعادة نظر ولا قسرة على إعادة النظر في أسسها التكوينية والبيئية معاً . وحينما هنا مثال واحد: فحينما حدّ الشافعي - وهو من كبار رجالات عصر العقل المكوّن في الفضاء العربي الإسلامي - الابتداء بأنه «الإحداث على غير مثال سبق»، فقد كان يمارس فعلاً عقلياً تشريعياً حقيقياً يقيد تفكير كل من سيأتي بعده . وبمعنى من المعاني، كان هو

(١٧٨) يُشكّل الرازي حلقة وصل أكيدة بين الجويني والغزالي من جهة وبين الشاطبي من جهة أخرى . وفي كتابه الموسوعي في علم أصول الفقه: «المحصل» أورد فصلاً بتمامه لشرح التقسيم الثلاثي للمقاصد والتصنيف الخماسي للمصالح؛ وما قاله فيه: «إن رعاية المصلحة إما أن تكون في محل الضرورة، أو في محل الحاجة، أو لا في محل الضرورة ولا في محل الحاجة . أما التي في محل الضرورة فهي التي تتضمن حفظ مقصود من المقاصد الخمسة، وهي حفظ النفس والمال والنسب والدين والعقل . . . فهذه الخمسة هي المصالح الضرورية . وأما التي في محل الحاجة فتتمكن الولي من تزويج الصغيرة، فإن مصالح الشكاح غير ضرورية لها في الحال، إلا أن الحاجة إليه بوجه ما حاصلة . . . وأما التي لا تكون في محل الضرورة ولا الحاجة فهي التي تجري مجرى التحسينات، وفي تقرير الناس على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم» («المحصل»، ج٥، ص ١٥٩ - ١٦١) .

نفسه «مبتدعاً» في تحديده معنى «الابتداع». ولكنه بتحديد هذا لم يترك من نصاب لمن سيأتي بعده غير الاتباع. وذلك هو بالضبط نصاب الشاطبي كممثل المعنى لعصر العقل المكوّن. فعندما نجده يحدّد بدوره «البدعة» - بعد الشافعي بنحو ستة قرون - بأنها «اختراع على غير مثال سابق»^(١٧٩)، فإنه بذلك لا يشرّع لأحد من بعده، بل يتقيد فقط بتشريع من قبله. فالعقل المكوّن الذي صدر عنه الشافعي أتاح له أن يحكم - ضمن القضاء العقلي الذي ينتمي إليه - بأن العقل مشرّع له وليس بمشرّع. أما العقل المكوّن الذي يصدر عنه الشاطبي فلم يترك له غير أن يصادق على أنه ليس للعقل «مجال في التشريع»^(١٨٠). وهذه المسافة الفاصلة بين الحكم المتقدم والمصادقة المتأخرة هي هي المسافة الفاصلة بين العقل المكوّن والعقل المكوّن. وإذا كانت هذه المصطلحات اللاندية تبدو كأنها تحاكم العقل لعربي الإسلامي من خارج مرجعيته الذاتية، فإن شهاب الدين القرافي - وهو من الأصوليين المتأخرين الذين يكثر الشاطبي من الاستشهاد بهم - يصوغ إشكالية العقل المكوّن والعقل المكوّن من داخل الإطار المعجمي للعقل العربي الإسلامي بقوله: «الخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع»^(١٨١).

نظرية المقاصد ومشروع التحديث الفقهي

بديهى أن من يطلب التوسع في معرفة الجوانب «الفنية» و «الكمية» من إضافات الشاطبي على نظرية المقاصد، يسعه الرجوع إلى الدراسات الشاطبية الاختصاصية التي تكاثرت على كل حال تكاثراً ملحوظاً في الآونة الأخيرة. أما من جهتنا فلن نتوقف إلا عند ما يبدو من تجديدات الشاطبي الاجتهادية ذا تعلق بإمكانية توظيف حدائش لنظرية المقاصد، على حد ما توحى به لحماصة «الابستمولوجية» لناقد العقل العربي الذي وجدناه يتوقع أن يهتز قارته «دهشة وتعجباً لأنه سيقراً في خطاب الشاطبي المعاني نفسها التي يقرأها في خطاب فلاسفة العلم المعاصرين».

(١٧٩) «الاحتصام»، ج ١، ص ٣٦.

(١٨٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٥.

(١٨١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٦. والجدير بالإشارة أن القرافي، حتى في هذه العبارة التي يحكيها عنه الشاطبي مجبّداً، هو محض محاكٍ أو «متبع» - بحسب تعبيره - لعمر بن عبد العزيز في قوله المشهورة في خطبة بيعته: «ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع».

الشاطبي: شافعي عصر الاندلس

ما جوهر نظرية المقاصد؟ القول بأن «وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً»، وهذا بدالة «الاستقراء المنيد للقطع»: «والمعتمد إنما هو أننا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيه الرازي ولا غيره»^(١٨٢). هذا ما يقوله الشاطبي من مفتتح «كتاب المقاصد» مؤكداً بذلك انتماءه إلى سلالة الفقهاء والأصوليين الذين جعلوا وكدهم أن يضمنوا لإشكالية التكليف في الشريعة أعلى نصاب ممكن من العقلانية بدالة لنظر أو إعادة النظر في الأحكام الشرعية على ضوء قاعدة عامة ومطلقة هي «جلب المصالح ودرء المفاسد».

ولا شك في أن مطلب «العقلنة» هو واحد من أكثر المطالب مشروعية لارتباطه بطبيعة العقل البشري بالذات: فهذا العقل طالب أبدي للمعقولة، ولولا توفقه هذا لكف عن أن يكون عقلاً.

ولا شك أيضاً في أن تحليل الأحكام الشرعية على قاعدة «جلب المنفعة ودرء المضرة»، هو إعمال لمبدأ كبير من مبادئ المعقولة: السببية. وقاعدة الجلب والدرء للمصالح والمفاسد تبدو، من منظور السببية تحديداً، وكأنها نوع من ملهـب «مادي» قبل ظهور مادية الأزمنة الحديثة. وهذه نقطة تُسجل لمعماري عدم أصول الشريعة في لثراث العربي الإسلامي. ولكن المعقولة السببية في علم الأصول محدودة سلفاً بالحدود المرسومة للعقل في لثراث العربي الإسلامي. فالشرع، كما رأينا، هو سقف غير قابل للتجاوز لهذا العقل. فهو ليس عقلاً مطلقاً ولا مستقلاً بنفسه في الاجتهاد، وكم بالأولى في التشريع. ولئن اختلف ممثلو المذاهب الفقهية الكبيرة الأربعة^(١٨٣) في مدى حقبة العقل في الاجتهاد، فإنهم مجمعون بالمقابل - ومعهم الشاطبي - على أنه لا «تشريع من جهة العقل»^(١٨٤).

وحسبنا هنا مثال واحد على المحدودية في اشتغال، أو بالأحرى، في تشغيل مبدأ المعقولة المقاصدية. فقد أورد الشاطبي في «الاعتصام»، نقلاً عن لغزالي في «شفاء الغليل» - الذي نقل بدوره عن الجريني في «غياث الأمم» - قصة فتوى الفقيه لأندلسي

(١٨٢) «المواقفات»، ج٢، ص ٣. وقد رأينا سابقاً كيف أخطأ الشاطبي في فهم الرازي.

(١٨٣) أو الخمسة بإضافة الظاهرية التي هي على كل حال - وعلى حد توصيف الشاطبي نفسه - أشدها تطرفاً في إثبات «عدم معقولة المعنى»، وهذا حتى بدون تفرقة بين العبادات والعادات.

(١٨٤) «الاعتصام»، ج٢، ص ١٥٠.

يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ). «لأمير المؤمنين عبد الرحمن بن الحكم» (ت ٢٣٨هـ). وقد ساق القصة في باب أفردته «للمصالح المرسلة» تدليلاً منه على أن «الاستدلال المرسل» ليس مرسلًا بإطلاق، بل لا بد له - حتى وإن افتقر إلى أصل شرعي مباشر - من الاعتبار بمعنى مناسب «يشهد له الشرع»، الذي يعود إليه وحده تحديد ما «المراد بالمصلحة» حتى ولو كانت مرسلة، وهذا «على وجه لا يستقل العقل بدركه على حال». ذلك أنه «إذا لم يشهد الشرع باعتبار ذلك المعنى، كان مردوداً باتفاق المسلمين». ومثال ذلك «ما حكى الغزالي عن بعض أكابر العلماء أنه دخل على بعض السلاطين فسأله عن الوقاع في نهار رمضان. فقال: عليك صيام شهرين متتابعين. فلما خرج راجعه بعض الفقهاء وقالوا له: القادر على إعتاق الرقبة كيف يعدل به إلى الصوم، والصوم وظيفة المعسرين، وهذا الملك يملك عبيداً غير محصورين؟ فقال لهم: لو قلت له عليك إعتاق رقبة لاستحقر ذلك وأعتق عبيداً مراراً، فلا يزجره إعتاق الرقبة، ويزجره صوم شهرين متتابعين» (١٨٥).

ماذا كان تعليق الشاطبي «المقاصدي» على هذه الفتوى؟ لقد بدأ بأن لاحظ أن «هذا لمعنى (لذي ذهب إليه يحيى الليثي) مناسب، لأن الكفارة، مقصود الشرع منها الزجر، والملك لا يزجره الإعتاق ويزجره الصيام». لكنه لم يتردد في أن يضرب صفحاً عن «مقصود الشرع» ذاك ليحكم بأن «هذه الفتيا باطلة لأن العلماء بين قائلين: قائل بالتخيير، وقائل بالترتيب، فيقدم العتق على الصيام. فتقديم الصيام بالنسبة إلى الغني لا قائل به» (١٨٦).

وهكذا تكون سلفية الشاطبي قد غلبت على مقاصديته. فلائه لا قائل من الفقهاء

(١٨٥) «الاعتصام»، ج ٢، ص ١١٣. والحدير بالإشارة أن الشاطبي يعود في الصفحة التالية إلى رواية القصة نفسها، ولكن موضوعة هذه المرة لا على لسان لغزالي - ومن قبله الجويني - بل على لسان ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) في كتاب الصلة، يدور أن يتنه إلى أن الحكاية واحدة والفتوى واحدة وأن كل ما هنالك أن الغزالي رواها مغفلة من الأسماء بينما أورد ابن بشكوال اسم الأمير والعفتي نقلاً في أرجح الظن عن القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) في كتابه: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك».

(١٨٦) الموضع نفسه، والتخيير والترتيب اللذان يشير إليهما هما كما وردا في الآيتين ٤ و ٥ من سورة المجادلة التي نصّت على أن كفارة العائد عن ظهار امرأته «تحرير رقبة... فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين... فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً».

الشاطبي: شافعي عصر الاندثار

قبله بتقديم اصميم على الإعتاق بالنسبة إلى العني، فقد أبي - وهو الأب المكرس
لنظرية المقاصد - تطبيق مبدأ المعقولية المقاصدية، وحكم بطلان الفتيا التي حدا بها
الحرص على التزام «مقصود الشرع من الزجر»، لا الخروج على أحكام النص، بل
فقط إلى الحد من التخيير وإلى التغير في الترتيب^(١٨٧) ..

وقد كرر الشاطبي موقفه الرافض لتطبيق مبدأ المعقولية المقاصدية - وإن باسم
مخالفة الإجماع هذه المرة - في تعليقه على فتوى يحيى بن يحيى إياها برواية ابن
بشكوال. فعندما استغرب سائر الفقهاء فتواه للأمير بصيام شهرين متتابعين وسأله: ما
لك لم تفت بمذهب عن مالك من أنه مخير بين العتق والطعم والصيام، رد ابن الليثي
بقوله: «لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته
على أصعب الأمور لئلا يعود». بيد أن الشاطبي علق على المنزع المقاصدي لصاحب
الفتيا بقوله: «إن صح هذا، عن يحيى بن يحيى رحمه الله، وكان كلامه على ظاهره،
كان مخالفاً للإجماع»^(١٨٨).

والواقع أننا لا نغالي إذا قلنا إن مبدأ المعقولية المقاصدية - على ما له من أهمية
نظرية لا جدال فيها - يبدو مكفوفاً عن العمل عند الشاطبي في عدة من المواقف العملية
التي تبدر عنه في كتابه «الاعتصام». فبرغم أن «حفظ النفس» هو ثانية «الضروريات
الخمس» المستقرة - «استقراء لا يتنازع فيه منازع» - من مقاصد الشريعة، فإن الشاطبي
لا يجد من حرج في إباحة قتل النفس أو الاعتداء عليها أو حتى الحض عليهما في
الحالات الثلاث التالية: أولاً: العقوبة الجماعية، ثانياً: التعذيب، ثالثاً: محاربة
البدعة.

فقد أكد أولاً أنه «يجوز قتل الجماعة بالواحد». و «المستند فيه المصلحة المرسنة،
إذ لا نص عسى حين المسألة، ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو
مذهب مالك والشافعي». . فإن قيل: هذا أمر بدعي في الشرع، وهو قتل غير القاتل،
قلنا: ليس كذلك، بل لم يقتل إلا القاتل، وهم الجماعة من حيث الاجتماع عند مالك

(١٨٧) هذا الترتيب - الإعتاق أو الصيام أو الإطعام - هو على أي حال غير ملزم. والدليل أن الآية
٨٩ من سورة المائدة التي جعلت كفارة الحائض بيمينه «إطعام عشرة مساكين... أو تحرير
رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام».

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ١١٤.

والشافعي، فهو مضاف إليهم تحقيقاً لإضافته إلى الشخص الواحد، وإنما التعيين في تنزيل الأشخاص منزلة الشخص الواحد، وقد دعت إليه المصلحة، فلم يكن مبتدعاً مع ما فيه من حفظ مقاصد الشرع في حقن الدماء. وعليه، يجري عند مالك قطع الأيدي باليد الواحدة، وقطع الأيدي في النصاب الواجب» (١٨٩).

وأحز ثانياً التعذيب، بما فيه تعذيب البريء لأنه «لو لم يكن الضرب والسجن بالثعم لتعذر استخلاص الأموال من أيدي السراق والغصاب، إذ قد يتعذر إقامة البيعة، فكانت المصلحة في التعذيب وسيلة إلى التحصيل بالتعيين والإقرار. فإن قيل: هذا فتح باب لتعذيب البريء، قيل: ففي الإعراض عنه إبطال استرجاع الأموال. بل الإضراب عن التعذيب أشد ضرراً، إذ لا يعذب أحد لمجرد الدعوى، بل مع اقتران قرينة تحيك في النفس وتؤثر في القلب نوعاً من الظن. فالتعذيب في الغالب لا يصادف البريء، وإن أمكن مصادفته فتغتفر» (١٩٠).

وقد أباح ثالثاً القتل في البدعة، بل حضّ عليه. فعن أبي فلابية يروي: «ما ابتدع رجل بدعة إلا استحل السيف». ومن عنده يضيف: «إن فرقة الشجاعة، وهم أهل السنة، مأمورون بعداوة أهل البدع والتشريد بهم والتنكيل بمن انحاش إلى جبهتهم بالقتل فعا دونه». وفي برنامج من خمسة عشر بنداً لردع أهل البدع، أوجب لهم في البند السابع

(١٨٩) «الاعتصام»، ج ٢، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(١٩٠) المصدر نفسه، ص ١٢٠. والجليب بالإشارة أن الشاطبي، في الوقت الذي يبيح فيه التعذيب، حتى ولو صادف البريء، فإنه لا يجد حرجاً في أن يدعو إلى «العفو عن عثرات ذوي الهيئات» أي أفراد الطبقة الأرستقراطية بلغتنا المعاصرة - مؤسماً بذلك لازدواجية طبقية في الشرع ولتعيين في المعاملة من موقع اجتماعي (علماً بأن مثل هذا التمييز مقصور في الفقه الكلاسيكي على فوارق الجنس بين الرجل والمرأة، والذين بين المسلم والذمي، والشرط القانوني بين الحر والعبد). يقول: «وأبين من هذا العفو عن عثرات ذوي الهيئات، فإنه ثبت في الشرع إقالتهم في الزلات ولا يعاملوا بسببها معاملة غيرهم. جاء في الحديث: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم». ودوي العسر بذلك عن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حرم، فإنه قضى به في رجل من آل حمر بن الخطاب شج رجلاً وضربه فأوسله (= أطلقه) وقال: أنت من ذوي الهيئات. وفي خبر آخر عن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه قال: «استأدى عليّ مولى لي جرحته يقال له سلام البربري إلى ابن حرم، فأتاني فقال جرحته قلت نعم. قال سمعت خالتي عمرة تقول قالت عائشة قال رسول الله (ص): «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم» فخلّى سبيله ولم يعاقبه» («المواقف»، ج ١، ص ١١٥).

«القتل إن لم يرجعوا مع الاستتابة»، أو حتى «القتل بلا استتابة» لمن «أمر بدعته وكانت كفرًا، أو ما يرجع إليه»^(١٩١).

والواقع أن إجازة الشاطبي القتل في البدعة، بله الحضر عليه، لا يقبلان التعليل من منظور المعقولية المقاصدية ما لم يؤخذ بعين الاعتبار كون هذه المعقولية قديمة على أساس من التراتبية الصارمة. فصحيح أن الشاطبي يعلن من المقدمات الأولى لكتابه في «الموافقات» أنه «قد اتفقت الأمة، بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل». وصحيح أنه يرفع نصاب هذه الضروريات (ومعها الحاجيات والتحسينيات) إلى مستوى كليات الشريعة ليقطع بقطعيتهما وببطلان ظنيتهما، لأن «الظن إما يتعلق بالجزئيات» حصراً ولا يمكن أن يرجع إلى «كلي شرعي». وصحيح أنه يؤسس على هذه الكليات الشرعية أصول الفقه ليعلم أنها بدورها «قطعية لا ظنية، والدليل على ذلك أنها راجعة إلى كليات الشريعة، وما كان كذلك فهو قطعي». وصحيح أخيراً أنه يتطرق في نزعته القطعية هذه إلى حد «إطراح انظنيات من الأصول بإطلاق» لأن «الاستقراء الكلي من أدلة الشريعة قطعي أيضاً» باعتبار أن «المؤلف من القطعييات قطعي»، وأنه حتى «مما ليس بقطعي فمبني على القطعي تفرعاً»^(١٩٢). ولكن ذلك كله لا يمنعه من أن يقيم بين هذه الكليات الشرعية - التي ينزلها منزلة القوانين الكلية - تراتبية تأسيسية تصادم صداماً عنيفاً الطابع القطعي الممزو إليها بقدر ما توطن فيها وبينها مبدأ «التبعية والمتبوعة» على حد تعبير الشاطبي نفسه^(١٩٣). فالضروريات الخمس لا تتمتع جميعها بأنصبة متكافئة من السيادة الذاتية، وليس حظها واحداً من الماهية كضرورات. بل هي مترتبة هرمياً، ومتضافرة إلى بعضها بعضاً في تسلسل عادم لسؤدها الذاتي، ومتنازل آخرها لأولها عن

(١٩١) «الاعتصام»، ج ١، ص ٨٣ و ١٢٠ و ١٧٦.

(١٩٢) «الموافقات»، ج ١، ص ١٠ - ١٧. وقد نستطيع أن نعود هنا إلى تعليل هذا الشغل في النزعة القطعية بكون الشاطبي من فقهاء «النداء الزمان» كما تقدم القول. وبصفته كذلك فإنه ما كان له أن يقبل الظن الذي تميّزت به النظرية الفقهية الكلاسيكية. ومن هذا المنظور فن الشاطبي يبدو جوهرياً أكثر منه هزلياً لأن الجوهري الذي تراه له أنه يعيش في زمن «انتهايات الظلم» و«حاجة إلى «غياث الأمم» كان هو السياق إلى القول بقطعية لمقاصد والأصول كمقدمة كبرى.

(١٩٣) «الموافقات»، ج ٣، ص ١١٨.

موقعها في سلم انقيم وفق الترتيب التالي: الدين أولاً، ثم النفس (لفظاً لا واقعاً كما سنرى)، ثم النسل، فالعمال، فالعقل. ولئن يكن الشاطبي ورث عن تقدمه من الأصوليين هذا التعدد الخماسي، فقد انفرد عنهم بتأخير العقل إلى المرتبة الخامسة^(١٩٤)، كما انفرد بالجهر بالمراتب والمفاضلة مع تعليهما^(١٩٥). يقول: «إن الضروريات إذا تؤولت وجدت على مرتب في التأكيد وعدمه. فليست مرتبة نفس كمرتبة الدين، وليست تستصغر حرمة النفس في جنب حرمة الدين، فيبيح الكفر الدم، والمحافظة على الدين مبيح لتعريض النفس للقتل والإتلاف، في الأمر بمجاهدة الكفار والمارقين عن الدين. ومرتبة العقل والمال ليست كمرتبة النفس. ألا ترى أن قتل النفس مبيح للقصاص؟ فالقتل بخلاف العقل والمال، وكذلك سائر ما بقي. وإذا نظرت في مرتبة النفس تباينت المراتب: فليس قطع العضو كالذبح، ولا الخدش كقطع العضو، وهذا كله محل بيان الأصول»^(١٩٦).

وليس يعسر علينا، من خلال نص الشاطبي هذا، أن ندرك أن النفس، برغم تقديمها على سائر الضروريات خلا الدين، هي أقل المقولات المقصدية الخمس سؤداً. فخلافاً لما يوحي به نص الشاطبي، فليس الكفر وحده ما يبيح الدم. فقد يبيحه أيضاً الزنا في بعض مذاهب الفقه التي تقول بعقوبة الرجم. كما إن المعصية في المال عقوبتها القطع، والمعصية في العقل (=السكر) عقوبتها الجلد. وفي القطع والجلد، كعقوبتين بدنييتين، مساو بالنفس، هذا إن لم يتأديا في بعض الحالات إلى الموت. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الشاطبي يجيز القتل الجماعي والتعذيب، بما فيه تعذيب البريء، وأنه يبيح، بل يوجب القتل في البدعة والبدعة ليست بالضرورة معصية في الدين^(١٩٧). فلنا أن نستنتج أن حرمة النفس عند الشاطبي ليست من أمنع الحرمات.

(١٩٤) في ترتيب النزالي، الذي أخذ به من بعده أكثر الأصوليين، يأتي العقل في المرتبة لثقة، وإن يكن الأمدني قد أثر أن يجعله في المرتبة الرابعة مقلداً عليه النس.

(١٩٥) امتنع الغزالي والرازي - على الاختلاف بينهما في ترتيب الضروريات الخمس - عن تعليه. والأمدني هو وحده بين الأصوليين الكبار من «أدخل المقاصد في باب الترجيحات» في معرض التعليق بتقديمه النسل على العقل وإعطائه الأولوية الترجيحية «معلقة للدين».

(١٩٦) «الاعتصام»، ج ٢، ص ٣٨.

(١٩٧) ليست البدعة، كما استقرت صورتها في الأدبيات الدينية المتأخرة، مروقاً عن الدين ولا خروجاً عليه. فهي خلاف في الدين ومن داخله، لا ضله ومن خارجه. ونصاب البدعة الاستمولوحي أنها تعبير من تعابير العقل الديني وليست بقصاً له. وله، فضلاً عن ذلك، نصاب =

والى ذلك كله ينبغي أن نضيف أن المذهب الفقهي الذي ينتمي إليه الشاطبي - وهو المذهب المالكي - لا يتقيد تقيداً تاماً بالمساواة في حرمة النفس كما قررتها الآية ٤٥ من سورة المائدة: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ﴾. فعند الإمام مالك أن المسلم لا يُقتل بالذمي، كما لا يقتل الرجل بالمرأة ولا الحر بالعبد. وهذا القلق الذي يحيط بحرمة النفس في تأويل الشاطبي للضروريات الخمس (أو استصغارها على حد تعبيره) هو ما يجعل نظريته في المقاصد غير مرنة بما فيه الكفاية لتوظيفها كما هي في التجديد والتحديث الفقهيين، على نحو ما رام محمد عبده وعلى نحو ما حاول الطاهر بن عاشور في «مقاصد الشريعة الإسلامية» وعلال الفاسي في «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها». وبرغم الأهمية الحاسمة التي يمكن أن يرتديها مفهوم لمقاصد في أي مشروع للتحديث الفقهي، فإن الفاعلية الحدائية لنظرية المقاصد الشاطبية تظل رهية بانقلاب كوبرنيكي مثلث الأبعاد.

أولاً - إعادة النظر في تراتبية الضرورات الخمس بحيث لا تطفئ ضرورة على أخرى ولا تستصغر حرمة لصالح أخرى، وبحيث تقوم، بدل الاستتباع الهرمي أو التعارض النفسي، علاقة تضامن جدلي بين حرمة الدين والنفس والعقل والمال والنسل (أو الجنس بتعبير أكثر حداثة).

ثانياً - إعادة تأويل مقاصد الشارع على ضوء مقاصد المكلف وحاجاته المستجدة تاريخياً.

ثالثاً - إعادة تفعيل ما أسماه الشاطبي نفسه «حقوق الآدميين»^(١٩٨) بدل لاستمرار في التخوف من أن يكون حضارها مرادفاً لتغيب «حقوق الله».

المعقولية المقاصدية ومقولة السببية

لقد قلنا إن لاس الذي تقوم عليه نظرية المقاصد الشاطبية هو السعي إلى تعليل الأحكام الشرعية على قاعدة «جلب المنفعة ودفع المضرة»، ورأينا في هذا التعليل

= سوسيولوجي: فهي بالتعريف معتقد إيماني مغاير لاعتقاد الغالبية. ومتى كفت عن أن تكون معتقد لأقلية كفت عن أن تكون بدعة ومالت بدورها إلى أن تكون سنة غالبية. وهذا ما حدث، على سبيل المثال، في المسيحية للبروتستانتية.

(١٩٨) «الموافقات»، ج١، ص ١٠٣، وكذلك ص ١٩٦ حيث يتحدث عن «غلبة حمول الله على حقوق الآدميين» في النكاح

المصلحي مجهوداً قميناً بالتمتين لعقلنة الشريعة وأحكامها. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه للحال: هل يعدل التعليل المصلحي إعمالاً لمبدأ السببية بالمعنى الحديث لهذا المفهوم؟ وإذا سلمنا بأن المعقولية المقاصدية هي ضرب من السببية في المحصلة الختامية، فهل يترادف مفهوم الشاطبي عن المقاصد مع مبدأ السببية العلمية على نحو ما يذهب إليه ناقد العقل العربي، عندما يؤكد، بمنتهى الجزم، أن الشاطبي وزملاءه في «المشروع الثقافي الأندلسي» المغربي» طرحوا «بديلاً عقلانياً» عن العقل المشرقي البياني - العرفاني الذي «لا يعرف اللزوم المنطقي ولا يصدر عن مبدأ السببية»، وصاغوا «مفاهيم علمية بديلة تحرر العقل... وتشكل مع مبدأ السببية بنية عقلية أخرى هي ذات البنية التي قام عليها الفكر الحديث في أوروبا ولا زالت تؤسس التفكير العلمي إلى اليوم»^(١٩٩).

الحق أن ما لا تأخذه المعقولية المقاصدية بعين الاعتبار الكافي، هو أن التحليل والتحرير - وعليهما مدار الإشكالية التكليفية - آلية دينية بامتياز، وأن الفعل التحليلي/التحريمي، كما يدل على ذلك علم النفس وعلم الاجتماع الدينيان الحديثان، فعل مؤسس للجماعة الدينية ولاحم لها وفارق لها في آن معاً عن الجماعات الدينية الأخرى. وبعبارة أخرى، إن سببية الفعل التحليلي/التحريمي كامنة فيه، لا في «مقاصد» مفارقة له. أما التعليل المصلحي فهو تعليل لاحق، وينم لا عن حقيقة الشريعة في ذاتها، بل عن مستوى الوعي التاريخي للجماعة المعنية، ولا سيما مع الانتقال في تاريخ البشرية من طور الثقافات والديانات الشفاهية اللاشعورية إلى طور الثقافات والديانات اكتبية التي تتيح الإمكانية المادية - من خلال الأبجدية المقروءة والمكتوبة - للاوعي الجمعي لكي يرتد على ذاته ويؤسس نفسه في وعي قابل لأن يتراكم جمعياً ولأن يتفرد من خلال تراكمه.

ونظرية المقاصد، على علو كعبها من المعقولية، إنما يكمن عيبها في أن القراءة التي تقدمها لإشكالية التكليف قراءة مفارقة أكثر منها مباطنة. وقد وُجد في التراث العربي الإسلامي أصولي واحد على الأقل - وبالتالي من خارج الصف - يطعن في مبدأ القراءة المفارقة، ألا هو ابن حزم الذي وجدناه - وهذا ما يباعد الشقة جذرياً وبينه وبين الشاطبي شريكه المزعوم في «المشروع الثقافي الأندلسي» - ينفي نظرية المقاصد نفيًا باتاً

قاطعاً عندما أبطل قول القائلين بأن «الله تعالى لا يفعل شيئاً إلا لصالح عياده»، وعندما أكد، على العكس، أنه قد «صح بالضرورة أنه يفعل ما يشاء لصالح ما شاء، وبفساد ما شاء، ولنفع من شاء، ولضر من شاء. ليس لهذا شيء يوجب إصلاح من صلح، ولا إفساد من أفسد، ولا هدي من هدى، ولا إضلال من أضل، ولا الإحسان إلى من أحسن إليه، ولا الإساءة إلى من أساء إليه. لكن فعل ما شاء: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)»^(٢٠٠).

ويدون أن نتطرق تطرف ابن حزم في نفي مقاصد الشارع، فلنتفح ملياً عند آية التحريم الشهيرة في سورة البقرة والمكررة في سورتي النحل والمائدة: «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله». فالأحكام التحريمية، القائمة على الأمر بالترك لا بالفعل، تدخل كلها في باب «الأسباب الممنوعة»، وما كان هذا حكمه فمقصده على المقطع، كما يقول الشاطبي، «دفع المفاسد». والحال أن الأصوليين، ومنهم الشاطبي، لا يتوقفون عند هذه الآية عند تمثيلهم على «المفاسد المستدقة»، بل يوردون مثال الخمر الذي عللوا تحريمه بدفع مضرته التي هي السكر المذهب للعقل، وهو واحد من الأصول الضرورية لخمسة. وليس عسيراً علينا أن ندرك أن ما يمتنع عنه الأصوليون، وعلى رأسهم الشاطبي نفسه، هو القراءة الاستقرائية لآية التحريم المكررة في ثلاث سور. فليس بيناً في الآية، ولا في تحقيق مناط الحكم ولا تنقيحه ولا استخراجيه (بحسب التقسيم الثلاثي للغزالي)، ما المضرة التي يراها تحريم الدم أو لحم الخنزير. وقل مثل ذلك في ما حرمه الشارع على بني إسرائيل: «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما...» (الأنعام، ١٤٦). وبالرجوع إلى آية التحريم فإننا نلاحظ أن الحلال نفسه يغدو حراماً إذا أهل به لغير الله. فكيف تنقلب «المصلحة المستجلبة» إلى «مفسدة مستدقة» وتخرج من باب «الأسباب المشروعة» لتدخل في باب «الأسباب الممنوعة» بدون طرؤ أي تغيير في طبيعتها الفيزيقية؟ أفليس في ذلك أقوى دليل على أن الفعل

(٢٠٠) «الإحكام في أصول الأحكام»، ج ٨، ص ٥٨٤. وقد وجد بين المتأخرين (الطهر بن عاشور) من ينكر على ابن حزم هذا التأويل للآية ٢٣ من سورة الأنبياء بملاحظته أن «قوله تعالى: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)» معناه أن الله سبحانه لا يحاسب أحد على أفعاله ولا يعترض على فعله... أي لا يسأل سؤال محاسبية أو اعتراض. فهذا معنى السؤال في الآية» (تفريفة المقاصد...، ص ٢٠٢).

التكريسي (الإهلال لله أو لغير الله) هو في ذاته العلة الموجبة للتحليل والتحرير، وأنه لنفسه غاية نفسه بدون أي مقاصدية مفارقة؟.

وإذا عدنا إلى مثال الخمر الذي يعلل به الشاطبي وسائر «المقاصديين» - وفي مقدمتهم الغزالي - تحريمه بكونه مُسكرًا ومُذهِبًا للعقل، فإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحال هو: ولماذا لم يحرم الخل، وهو ذو قوة على الإسكار^(٢٠١)؟ ولماذا لم يحرم الأفيون وهو أشد قوة على الإسكار وإذهاب العقل^(٢٠٢)؟.

والواقع أن الظاهرية الحزمية، على غلوها في إنكار المعقولية، تبدو أكثر قدرة من المقاصدية الشاطبية (والغزالية) على فهم معقولية التحليل والتحرير. فابن حزم ينكر أن تكون الخمر حُرمت لأنها مسكرة أو مذهب للعقل. والدليل عنده أن الحد يقام على شارب الخمر، سواء سكر أو لم يسكر. وأيضاً فليس كل من يشرب الخمر يسكر، وشارب الجرعة لا يسكر، والحد عليه. ولا كل من يسكر يهذي. ففي الناس كثير يغلب عليهم السكوت حيثئذ وذكر الله تعالى والآخرة واليكاء والدعاء والتأدب الزائد. ومن ثم فإن «النوكى» وحدهم هم من يغفلون في «الجرأة على القول على الله تعالى بغير علم» بقولهم «إن الله تعالى حرمها لأجل الإثم الذي فيها أو لأجل الشدة والإسكار». فإثم الخمر لاحق لا سابق، وما «حدث إلا بعد حدوث التحريم»^(٢٠٣). وعبارة أخرى، إن الخمر آثمة لأنها محرمة، وليست محرمة لأنها آثمة. وحكمها في ذلك حكم سائر المحرمات - أو أكثرها بتعبير أدق - مثل «المنخقة والموقوذة والمتردة والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت» وما ذبح على الثُعب (المائدة، ٣) التي تأثمت بتحريمها ولم تحرم لإثمها.

إذاً، فالقراءة المقاصدية، التي تربط التروك والتحريمات بدور لمضرة، ليست

(٢٠١) تتراوح كحولية الخمر بين ١٠ و ١٣ درجة مئوية، وكحولية الخل بين ٥ و ٨ درجات مئوية.
(٢ٰ٢) يقدر الأصوليون على الرد هنا بالقاعدة التي تقول: إن الأحكام متناهية ضرورة بينما النوازل لا متناهية. وهذا صحيح. ولكن في هذه الحال تهتز اهتزازاً قوياً دهمى الشاطبي في الإخلاق الدوعمائي للشريعة حينما يقول رداً على «المبتدعين» من المعتزلة وسائر القائلين بالتحسين والتضييق للعقلين: «إن الشريعة جاءت كاملة لا تحتل الزيادة ولا النقصان...» والنبي (ص) لم يمت حتى أتى بيان جميع ما يُحتاج إليه في أمر الدين والدنيا «(الاقتصاص)، ج ١، ص ٤٨ - (٤٩).

(٢٠٣) «الإحكام في أصول الأحكام»، ج ٨، ص ٤٥٤ - نفسه، ص ٤٨٢.

استقرائية، لا على سبيل الاستقراء لثام، ولا حتى على سبيل الاستقراء الأكثري، بل هي قراءة تختيارية تعمم - من خلال مثال الخمر الظاهرة مضمرته للعيان - حكم الجزء على الكل.

ومع ذلك، فإن جعبة ردود المقاصديين لا تنفذ. فهم يستطيعون الرد، بلسان الغزالي، بأن المنافع والمضار التي يعنونها ليست «مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع». فكل ما يطابق مقصود الشرع هو المصلحة، وكل ما يضاده هو المفسدة. وبعبارة الشاطبي، ليست المعقور هي التي تقرر مصالحها ومفاسدها، وإنما مصالح العباد ومفاسدهم «بحسب أمر الشارع، وعلى الحد الذي حله»^(٢٠٤). ف«كون الشيء خيراً أو شراً لا يثبت إلا بالشرع»^(٢٠٥)، والقصد إنما هو «القصد المطابق لقصد الشارع، وهو الصحيح»^(٢٠٦).

هذا التمييز بين قصد الشارع وقصد الخلق يجعل الشاطبي حذراً، أشد الحذر، في تعاطيه مع مفهوم السببية. فالسببية قانون يسري - إن سري - على عالم البشر، ولكنه ليس عملة متداولة في مملكة الله. ويديهي أن الشاطبي لا يتكرر مبدأ السببية صنيع بعض المتكلمين، ولكنه لا يتبناه أيضاً تبني الفلاسفة الطبيعيين. فالسببية عنده ترجيحية أكثر منها حتمية. أصل أكثر، ولكنه غير مانع لما هو استثنائي ونادر. فالأصل في الأشياء أنها وضعت أسباباً لمسيباتها. ولكن ما بين الأسباب والمسيبات من تلازم، فهو على سبيل العادة، لا على سبيل القانون. ومن ثم فإن «مشروعية الأسباب لا تستلزم مشروعية المسيبات وإن صح التلازم بينهما عادة»^(٢٠٧). ومن منظور إشكالية التكليف - وهو المنظور الوحيد الذي يهم الشاطبي - إن «الأسباب إذا تعلق بها حكم شرعي من إباحة أو نذب أو منع أو غيرها من أحكام التكليف، فلا يلزم أن تتعدى تلك الأحكام بمسيباتها. فإذا أمر بالسبب فلم يستلزم الأمر بالمسيب، وإذا نهي عنه فلم يستلزم النهي عن المسيب، وإذا خيّر فيه فلم يلزم أن يختار في مسيبيه»^(٢٠٨) والدليل على ذلك ما ثبت

(٢٠٤) «المواقفات»، ج ٢، ص ١١٧.

(٢٠٥) «الاقتضاء»، ج ٢، ص ٣.

(٢٠٦) «المواقفات»، ج ١، ص ١٧٢.

(٢٠٧) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

في الكلام من أن الذي للمكلف تعاطي الأسباب، وإنما المسببات من فعل الله تعالى وحكمه لا كسب للمكلف فيه». ومن ثم فإنه «لا يلزم في تعاطي الأسباب من جهة المكلف الالتفات إلى لمسببات ولا القصد إليها، بل المقصود منه الجريان تحت الأحكام الموضوعة لا غير، أسباباً كانت أو غير أسباب»^(٢٠٨).

وبرغم أن الشاطبي حدّ مشروعه نفسه كما رأينا بأنه التعريف بأسرار التكليف، فإنه يجد نفسه منساقاً، بحكم طبيعة المفهوم بالذات، إلى الانزياح من المستوى الفقهي إلى المستوى الكلامي، وبالتالي إلى الدخول في نقاش حول مفهوم السببية من منظور معرفي وليس فقط من منظور تكليفي. ولكنه إذ ينساق إلى فعل ذلك، فإنه لا يزيد على أن يعيد انتاج النظرية الأشعرية دونما تعديل يذكر، أي النظرية التي تتأول السببية لا على أنها فعلية، بل على أنها عتدية ليس إلا. هكذا نراه يعلن أن «السبب غير فاعل بنفسه، بل إنما وقع المسبب عنده لا به». والقول بأن «السبب فاعل للمسبب أو مولد له، فهذا شرك أو مضاه له والعياذ بالله». إذ كما إن الله «خالق المسببات»، كذلك هو وحده «خالق السبب»، أما العبد فـ «مكتسب له». وتديلاً على عدم فاعلية السبب بنفسه يسوق الشاطبي من القرآن آيات أربع: «والله خلقكم وما تعملون» (الصفات، ٩٦)، «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل» (الزمر، ٦٢)، «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله» (الإنسان، ٣٠)، «ونفس وما سواها فالهيمها فجورها وتقواها» (الشمس، ٨). ومن السنة حديث العدوي في «قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن أهدى الأول؟»^(٢٠٩). ومن آثار الصحابة حديث الطاعون في قول عمر بن الخطاب: «نفر من قدر الله إلى قدر الله» ردّاً على سؤال عمرو بن العاص: «أفراراً من قدر الله؟»^(٢١٠). ثم يستخلص من هذه الشواهد كلها أنها «تنتهي إلى القطع» بأن «الالتفات إلى المسبب في فعل السبب لا يزيد على ترك الالتفات إليه. فإن المسبب قد يكون وقد لا يكون. هذا وإن كانت مجاري العادات تقتضي أنه يكون، فكونه داخلياً

(٢٠٨) المصدر نفسه، ص ١٣٠ - ١٣٣.

(٢٠٩) حديث العدوي رواه الشيخون، ولفظه كما في صحيح البخاري: «لا عدوي ولا صفر ولا همة». فقال إعرابي: «يا رسول الله فما نال إيلي تكون في الرمل كأنها الظبية، فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها؟» قال: نعم أهدى الأول؟.

(٢١٠) في صحيح البخاري أن القائل لعمر بن الخطاب: «أفراراً من قدر الله؟» إنما هو أبو عبيدة بن الجراح.

تحت قدرة الله يقتضي أنه قد يكون وقد لا يكون^(٢١١). ومن هنا «كان واجباً على كل مؤمن - وتلك هي وصية الشاطبي الختمية - أن يعتقد أن الأسباب غير فاعلة بأنفسها، وإنما الفاعل فيها مسببها سبحانه. لكن عاداته في خنقه جارية بمقتضى العوائد المعطردة. وقد يخرقها إذا شاء لمن شاء. فمن حيث كانت عادة اقتضت الدخول في الأسباب، ومن حيث كانت الأسباب فيها بيد خالق المسببات، اقتضت أن للفاعل أن يفعل بها ويلونها»^(٢١٢).

ولا يحسر علينا أن ملوك أن الشاطبي يذهب أحياناً في لفصل بين الأسباب والمسببات إلى أبعد مما يذهب إليه الغزالي نفسه في بعض نصوصه اللاحقة على «تهافت الفلاسفة». ومع ذلك فإن الغزالي يُجرّم بوصفه «مؤسس أزمة العقل في الإسلام»، على حين تعطي للشاطبي الشهادة بأنه مدشن «القطيعة الاستمولوجية» بـ «الطريقة البرهانية» مع النظام المعرفي البياني «المشرقي». وقد يكون مفيداً أن نلاحظ هنا أنه في الوقت الذي يتعمد الشاطبي، لغلوه، في التشكيك في مبدأ السببية، بعض الابتعاد عن الغزالي، فإنه يقترب، في موقفه هذا، غاية الاقتراب من شريكه الأول في المشروع الأندلسي «البرهاني» ابن حزم، الذي لم يجد حرجاً في أن يتخفف من البقية الباقية من الحذر النقدي في المنسوبة الأشعرية كيما يتحمل دفعة واحدة من التشكيك في مبدأ السببية إلى الإنكار الصريح بإعلانه - بمنتهى «الجزم» و «القطع» اللذين هما في نظر ناقد العقل العربي علامة الطريقة البرهانية - أنه «قد بطلت لأسباب جملة وسقطت العلل البتة... فاعلم أن العلل كلها منفية عن أفعال الله تعالى وعن جميع أحكامه البتة، لأنه لا تكون العلة إلا في مضطر. واعلم أن الأسباب كلها منفية عن أفعال الله تعالى كلها وعن أحكامه، حاشا ما نص تعالى فيه أو رسوله ﷺ»^(٢١٣).

(٢١١) «الموافقات»، ج ١، ص ١٣٦.

(٢١٢) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(٢١٣) ابن حزم: «الإحكام في أصول الأحكام»، ج ٨، ص ٥٦٥ - ٥٦٦. وواقع أنه تقيداً ما بمبدأ اسحق النقدي فلا بد أن تلاحظ هنا أن ابن حزم معني بنفي السببية في الدين لا في الطبيعة. فهو قني وأصولي ومتكلم، وغير معني بعلم الطبيعة بما هو كذلك، وليس بكتابات كنها من مدار آخر غير الشريعة. ونفيه للسببية الدينية في كتابه المتأخر «الإحكام في أصول الأحكام» لا يسترجع بالضرورة إنكار الطبايع الطبيعية. بل نراه في كتاب متقدم له، وهو «لفصل»، يخصص فقرة من بضعة أمصر ليذكر على الأشعرية «موسم» في «إنكار الطبايع» وليؤكد على عكسهم أن «لطبايع واعدات مخلوقة خلقها الله عزّ وجلّ فرتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً» («الفصل في =

إزاء هذا لنفي الحزمي الشرس لمبدأ السببية والعلية على حد سواء، وإزاء ذلك التشكيك الشاطبي في المبدأ نفسه - وابن حزم والشاطبي هما في الاستمولوجيا الجابرية ضلع المثلث «البرهاني» الذي قاعدته ابن رشد - فإننا نتساءل: أأنكون مغالين حقاً عندما نقول ونكرر القول أن الغائية التشطيرية لهذه الاستمولوجيا لا «تعلقن» نفسها في نظر نفسها وفي نظر القارئ إلا بقدر ما تتوسل، كممارسة منهجية، بتزييف صفيق لوقائع النصوص ودلالاتها؟ وإلا فكيف نستطيع أن نفسر أن يؤكد الجابري ويعود إلى التوكيد في ختام كتابه «بنية العقل العربي» أن مقولة السببية هي واحدة من المقولات الأساسية التي يحدد الموقف منها - إنكاراً أو إثباتاً - ببنية النظام المعرفي أو برهانيته، وبالتالي، وإلى حد كبير، مشرقيته أو مغربيته. ولنترك له الكلام (ولو جازفنا بتكرار جزئي للمشاهد):

«وبعد، فلعل القارئ يتصور الآن بوضوح ما تعنيه بعبارة «تأسيس البيان على البرهان» التي جعلناها عنواناً لذلك الاتجاه الفكري التجديدي، العقلاني النقدي، الذي عرفته الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس والمغرب ابتداء من ابن حزم وانتهاء بابن خلدون. إن الأمر يتعلق فعلاً بلحظة جديدة تماماً في تاريخ الفكر العربي، لحظة تميزت بنقد الأساس الاستمولوجي الذي قام عليه الحقل المعرفي البياني منذ عصر التدوين، واقتراح أساس جديد توظف فيه المفاهيم الاستمولوجية المؤسسة لعلم عصرهم، مفاهيم البرهان كمنطق وطبائع بصورة خاصة، توظيفاً يرتفع بالممارسة النظرية في الحقل البياني إلى مستوى الممارسة العلمية البرهانية.

«وهكذا، وبدلاً من القول بالجواز وإنكار السببية ونفي الطبائع وإهمال المقاصد،

الملك والأهواء والتحلل»، ج ٥، ص ١٦). وعنده أن أفسد ما في هذا «المذهب الفاسد» للأشعري كونه يتأدى إلى إبطال المعجزات. فلر كان من عادة الله أن يخرق العادات «لما كان إحصاز أصلاً». فإثبات الطبائع ضرورة دينية قبل أن يكون ضرورة طبيعية. وقول ابن حزم بالطبائع «المخلوقة» لا يجعل منه نصيراً لسببية: فهذه المقولة لا مكان لها، لا بمعناها «البرهاني» القديم ولا بمعناها العلمي الحديث، في النظام «معرفي» الذي ينتمي إليه وهو النظام البياني الذي يتلبس بقلعه أكثر أشكاله إطلاقية. وصحيح أن شعاره «الذي لا يفتأ يردده أنه لا يجب «قبول شيء» إلا ببرهان»، ولكن «البرهان في الديانة إنما هو نص القرآن، أو نص كلام صحيح النقل مسند إلى النبي، أو نتائج من مقدمات صحاح من هذين الوجهين» («الإحكام»، ج ٦، ص ٢٢٧).

بدلاً من هذه المنطلقات التي كانت تؤسس البيان منهجاً وروية والتي تتنافى بطبيعتها مع التفكير المنطقي واليقين العلمي، يقوم تيار التجديد في الأندلس والمغرب على منطلقات منهجية وتصورية أخرى مستمدة من الحقل المعرفي العلمي لذلك العصر، بل ولكل عصر، أعني الاستنتاج (أو القياس الجامع) والاستقراء ومفهوم لكلي والكلديات الاستقرائية، والعموم والإطراد والسببية والمقاصد^(٢١٤).

إننا سنضرب صفحاً هنا عما في هذا النص من مصادرات مرعبة متورة بين قطبين: التهويل في التقييم والتهوين في استعمال المصطلحات بلا أية مسؤولية نقدية (من قبيل إطلاق وصف «العقلاني النقدي» على الاتجاه الحزمي - الشاطبي، والقول بالتمخض الانقطاعي «لحظة جديدة تماماً» يمثلها المشروع الثقافي الأندلسي - المغربي بالتضاد مع «الأساس الاستمولوجي» للحقل المعرفي البياني، والمرادفة بين الممارسة البرهانية الاستنتاجية - الاستقرائية للعصر لوسيط، والممارسة العلمية للعصر الحديث، وأخيراً نفي طابع «التفكير المنطقي» عن جملة الحقل المعرفي البياني المشرقي).

كما سنضرب صفحاً عن المصائر الفعلية للمفاهيم المنهجية والتصورية من قبيل القياس الجامع والمقاصد والكلديات الاستقرائية، التي رأينا مدى المدويونية «المشرقية» للشاطبي فيها ومدى تحويله بعضها (مثل الاستقراء) من آلية برهانية إلى آلية بيانية.

ولن نتوقف إلا عند مفهوم السببية كمفهوم معياري في الانتماء، أو عدمه، إلى نظام معرفي بعينه. فإذا سلمنا بهذه المعيارية - ونحن لا نسلم بها لأنها ترادف عندنا إسقاطاً من الفضاء العقلي العلمي للحدثات على الفضاء العقلي الديني للعصر الوسيط - فإننا نتساءل: هل ابن حزم الذي أعلن إبطال الأسباب جملة وإسقاط العلل كافة، بياني أم برهاني؟ وهل الشاطبي، الذي أعلن عدم فاعلية الأسباب بنفسها وفك الارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات، ولم يقر بالتلازم بين هذه وتلك إلا على مجرى العادة لا على مقتضى القانون، بياني أم برهاني؟

حول «القطيعة الاستمولوجية» الشاطبية

ما سر إصرار ناقد العقل العربي إذًا على إخراج الشاطبي - ومعه ابن حزم - من خانة البيان لإدخاله في خانة البرهان؟

(٢١٤) «بنية العقل العربي»، ص ٥٥٢.

الحق أنه من طبيعة واحدة، بل من خاتية واحدة، والإصرار الذي كان أبداء على إزاحة ابن سينا من دائرة البرهان للزج به في دائرة العرفان.

ذلك أن النموذج الاستمولوجي الجابري تحكمه برمته - كما لاحظ أحد منتقديه - خاتية تفاضلية: «فهو لا يفاضل بين أجزاء التراث فحسب، بل يفاضل بين أقطار التراث، فيجعل القطر المغربي أعلاها مرتبة»^(٢١٥).

وهذه الغائية التفاضلية، فضلاً عن توجهها القطري، ذات منزع استمولوجي تراتبي: فهي تصور البرهان أعلى مرتبة من البيان، مثلما تصور العرفان أدنى مرتبة من البيان.

وما يغيب عن وعي الاستمولوجيا الجابرية هنا أمران، أولهما أن طريقة الحفر الاستمولوجية ما وجدت أصلاً، لا لكي تلغي التراتبيات - التي هي بالضرورة ذات طابع أيديولوجي - في مضمار نظرية المعرفة؛ وثانيهما أن البيان والبرهان والعرفان ليست أنظمة معرفية قائمة بنفسها، بل هي، بالنسبة إلى العقل العربي الإسلامي على الأقل، آناء من نظام استمي واحد، آناء متعاضدة في الغالب أكثر منها متعاضدة.

فنأقد العقل العربي يتوهم أولاً أن الانتقال من خاتية بيانية إلى خاتية برهانية أو من دائرة برهانية إلى دائرة عرفانية، هو انتقال من نظام معرفي إلى نظام معرفي آخر.

وبالنظر إلى تصوره التراتبي لهذا الثلاثي من الأنظمة المعرفية المزعومة، فهو يتوهم، ثانياً، أن الانتقال من البيان إلى العرفان هو هبوط استمولوجي، بينما الانتقال من البيان إلى البرهان ارتقاء استمولوجي. وإنما تكرساً لهذا الطراز الثاني الارتقائي من التنقل بين مقصورات الفكر العربي الإسلامي، وعلى سبيل التثمين الانبساطي والإبهاري معاً، يعتمد إلى مداورة مفهوم القطيعة المعرفية، مع حصر مجاله التطبيقي بـ «المشروع الثقافي الأندلسي - المغربي».

ولنبادر حالاً إلى القول بأن ترويض هذا المفهوم لا يتم - هذا أقل ما نقوله - عن قدر كافٍ من الحذر النقدي.

فالقطيعة المعرفية تعني فعلاً - في ما قد تعنيه - التحول من نظام معرفي إلى نظام معرفي آخر. ولكن هل التنقل بين خانات أو دوائر البيان والبرهان والعرفان يعدل

(٢١٥) طه عبد الرحمن: «تجديد المنهج في تقويم التراث»، ص ٧٨.

تحولاً من نظام معرفي إلى آخر؟ إن الرؤية البنيوية التي يجهر فاقد العقل العربي بصدوره عنها كان يجب أن تنبيه إلى أن التنقل بين الخانات لا يشكل، ولا يمكن أن يشكل، خروجاً عن رقعة شطرنج العقل العربي الإسلامي. تماماً كما إن التحول من دائرة إلى أخرى لا يعني اعتناقاً من جاذبية نقطة المركز المشتركة لجميع الدوائر.

وأن نقول إن دوائر العقل العربي الإسلامي متحدة المركز، سواء أكانت بيانية أم برهانية أم عرفانية، فهذا معناه أن النظام الأبستمي لهذا العقل واحد. وبالتالي ما كان لهذا العقل أن يشهد أي قطيعة ابستمولوجية مهما تمايزت عبقریات الأشخاص وعبقریات الأماكن. وإذا أخذنا بصورة سمعية بدلاً من الصورة البصرية، فلنقل إن سنقونية العقل العربي الإسلامي واحدة مهما تنوعت الآلات وتقنن العازفون وتمايز الأداء. وعلى أي حال، فإن القانون المعرفي الذي حكم المسيرة التاريخية لهذا العقل هو قانون التراكم الكمي، الذي ما كان له قط أن يتأدى إلى تحول كيفي، أي إلى قطيعة ابستمولوجية كما بتنا نقول اليوم. فدوائر العقل العربي الإسلامي مهما اتسعت ما كان لها أن تستقل عن نقطة مركزها. والارتباط، وليس فك الارتباط، هو المبدأ الناظم لكل إحداثيات العقل العربي الإسلامي القابلة للارتسام بدءاً من نقطة مركزه. وبحكم هذه المركزية، فإن العقل العربي الإسلامي ما كان له أن يقطع مع نفسه. ففي حالته لا يمكن للقطيعة ابستمولوجية أن تعني شيئاً آخر سوى الخروج عن مركزته، إما بإبدال نقطة المركز نفسها، وإما بالاستغناء عن كل نقطة مركز والتحول من منطق الدائرة إلى منطق السهم على غرار ما حدث للعقل الغربي الحديث بدءاً من قطيعة عصر النهضة الأوروبي^(٢١٦).

(٢١٦) الواقع أن العقل العربي الإسلامي صرف هو الآخر، في تحقيه الحديث، عصر نهضة. ولكن النهضة العربية كانت منذ مولدها في القرن التاسع عشر مأزومة ومنسوجة بالتناقض: فقد أنجزت نصف مهمتها التاريخية بقدر ما اصططعت لنفسها نقطة مركز جديدة، ولكنها أخفقت في إنجاز النصف الآخر. أولاً لأن نقطة المركز الجديدة انضافت إلى القديمة اقتصافاً وأخلت موقعها بمحاذاتها وليس بدلاً عنها، وهذا ما حكم على العقل العربي الحديث بازواجية ابستمولوجية مزمنة. وثانياً لأن هذا العقل وقع أسير دائرية جليدة بقدر ما أن دخوله في مدار الحلقة قد تم بالمشاققة، وليس نتيجة نمو عضوي ذاتي. لمع أن الحضارة الغربية الحديثة هي نموذج لحضارة بلا مركز، فإن تفوقها جعل منها بالضرورة التاريخية مركزاً للثقافات الأخرى - ومنها العربية - التي اكتشفت نفسها متأخرة في مرآة التقدم الغربي. فالحضارة الغربية ليست طردية إلا بالنسبة إلى ذاتها، أما بالنسبة إلى الثقافات الأخرى فإن طرديتها بالذات تغدو مركزية.

وإذا جئنا الآن إلى أبطال «المشروع الثقافي الأندلسي - المغربي» فلن يشق علينا أن ندرك أن إسهاماتهم واجتهاداتهم أو حتى تجديدهاتهم غير قابلة لأن تُتعقل بمفردات «القطيعة الاستمولوجية»: لا ابن حزم بنزعتُه النصية الجذرية، ولا الشاطبي بنزعتُه الاجتهادية المسكونة - أو فلنقل: المسقوفة - بهاجس الاعتصام (=من كل ابتداع على غير مثال سابق)، ولا حتى ابن خلدون صاحب المقولة التفسيرية المبتكرة في «النشأة المستأنفة». وحتى لو سلمنا بأن الشاطبي أنشأ علماً جديداً هو علم المقاصد، على غرار ما تقول بأن ابن خلدون أنشأ علماً جديداً هو علم العمران، فإن هذا التجديد لا يقبل التعميد باسم «القطيعة الاستمولوجية». فالقطيعة لا تقوم على إضافة جديد - مهما يكن جذرياً في جده - بل على إحداث انقلاب من طبيعة كوبرنيكية في الأنساق المعرفية والأطر المرجعية للعقل العارف، بله في آلية انتاج المعرفة بالذات. وبهذا المعنى ما كان للشاطبي، على أزمعته في الاجتهاد المقاصدي، أن يلعب دور كوبرنيكوس في الفضاء العقلي العربي الإسلامي. فهو قد أضاف إلى عمارة هذا العقل طابقياً، ولكنه لم يجازف - وما كان له أن يجازف - بأي حضريات على مستوى الأسس. فهو كعممار أسير لهندسة العقل العربي الإسلامي. ولو مضينا بمنطق المشابهة هذا إلى أقصاء لقلنا إن الهندسة الشاطبية تبقى إقليدية، وما كان لها أن تنقلب إلى هندسة فراغية. فهذا كان يقتضي انقلاباً في إحدائيات العقل العربي الإسلامي. وهذا ما كان يستحيل لا تنفيذه فحسب، بل حتى التفكير به. فالفضاء العقلي العربي الإسلامي ما كان له أن يشهد قطيعة تأخذ شكل انتفاضة للعقل المكوّن على العقل المكوّن. فالعقل العربي الإسلامي، منذ أن أُنجز مرحلة تكوينه في القرون ما بين الأول والرابع مع امتدادات - كما في حالة الغزالي - إلى القرن الخامس، غدا مسلماً بمسلماته، قابلاً إلى النهاية بإحدائياته، وأياً بلغ من ديناميته - كما في النموذج الرشدي مثلاً - فما كان له أن يخرج عن سكوته. وفي القرن الثامن الهجري كان هذا العقل قد تكرر بصفة نهائية في شكل عقل مكوّن مسكون بخوف البدعة الشالّ للقدرة على التجدد الذاتي. وفي الحالات النادرة التي تابع فيها اشتغاله في ذلك القرن المتأخر - كما في مثال الشاطبي أو ابن خلدون من بعده - فإنما كان يشتغل بصفته عقلاً تراكمياً، أي عقلاً يجهتد ضمن معطياته بدون أن يضع هذه المعطيات نفسها موضع نقد أو نقض. والأدهى من ذلك أن سلالة المجتهدين هؤلاء بقيت بلا عقيب ولا وريث. فابن رشد أحرقت كتبه، والشاطبي بُدّع، وابن خلدون وُتد. ولقد كان لا بد من انتظار تطور حركة الاستشراق

في القرن التاسع عشر لتعاود اكتشاف ابن رشد مع إرنست رينان، وابن خلدون مع البارون دي سلان. أما الشاطبي فقد كان عليه أن ينتظر محمد عبده، أحد صانعي النهضة العربية، ليبعثه من مرقد النسيان. ولو أن هذا الثلاثي الأندلسي - المغربي راد فعلاً «قطيعة إبستمولوجية» لكانت هذه أغرب قطيعة من نوعها في تاريخ الفكر البشري. فهي لم تكن قطيعة للدخول في التاريخ، بل قطيعة للخروج منه. قطيعة بلا وراثة وبلا مستقبل وبلا مردود بالنسبة إلى المنظومة الفكرية التي يقال لنا إنها قطعت معها^(٢١٧). فالقطيعة لا تكون معرفية فعلاً ما لم يعقبها نوع من «نشأة مستأنفة» وفق قانون النفي ونفي النفي والتجاوز الجدلي. والواقع أنه ليس من قبيل الصدفة أن يكون الاجتهاد الشاطبي والإبداع الخلدوني - يمثل هذه المفردات يمكن أن تتعلّق إسهامهما تعقلاً مطابقاً، وليس بمفردات «القطيعة الإبستمولوجية» المستعارة من معجم الفضاء العقلي للحدائث الغربية - قد بقيا بلا غد. ففي القرن التاسع الهجري شهد العقل العربي الإسلامي قطيعة حقيقية، بالمعنى الانعدامي، لا بمعنى التجدد الجدلي، مع نفسه. ففي المغرب، ومع سقوط غرناطة (عام ١٤٩٢م) في أيدي ملوك إسبانيا الكاثوليكين، كفّ عن أن يكون إسلامياً. وفي المشرق، ومع سقوط القسطنطينية (عام ١٤٥٣م) في أيدي العثمانيين وسقوط إيران (عام ١٥٠٢م) في أيدي الصفويين، كفّ عن أن يكون عربياً. وإنما في ذلك القرن نفسه - أي الصدفة؟ - كان العقل اللاتيني المسيحي يدشن، مع البدء باكتشاف العالم الجديد، قطيعته الإبستمولوجية مع نفسه. فاكتشاف القارة الأميركية، في العام نفسه الذي سقطت فيه غرناطة - وبالتالي من مع اختراع المطبعة - أعطى إشارة البدء لتمخض عصر النهضة الأوروبية تمهيداً لمولد الحدائث الغربية. ولئن قيل - بحق - عن ابن خلدون إنه فيلسوف التاريخ الأفل، فالشاطبي حقيق بأن يقال عنه - كما رأينا - إنه فقيه المركب الغارق. ومنطق اجتهاده كله يقوم على التمسك بخشبة

(٢١٧) قد يرد الجابري هنا - وهو يفعل ذلك في أكثر من موضع (انظر على سبيل المثال: «تكوين العقل العربي»، ص ٣٤٩ و ٣٥١) - بأن ابن رشد، على الأقل، كانت له وراثة، ولكن في الفكر الغربي وليس في الفكر العربي. وهو يميل إلى الإيحاء بأن الفكر الأوروبي حقق قطيعته المعرفية التي نقلته إلى عصر النهضة والحدائث بفضل الموروث الرشدي «الذي انتقل إلى أوروبا وعمل على تأسيس نهضتها». ونحن لا ننكر طبعاً دور الرشدية المرموق في تغذية الفكر الأوروبي اللاتيني، ولكن يتحتم علينا أن نضيف أيضاً بأن القطيعة المعرفية التي أنجزتها الحدائث الأوروبية بدءاً من عصر النهضة كانت قطيعة مع كل الموروث اللاتيني، بما فيه الرشدية اللاتينية كما السينوية اللاتينية على حد سواء.

خلاص السلف الأول، إذ «لا يمكن أن يبلغ المتأخرون أبداً مبالغ المتقدمين. فخير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، وهكذا يكون الأمر أبداً إلى قيام الساعة. فأقوى ما كان أهل الإسلام في دينهم وأعمالهم ويقينهم وأحوالهم في أول الإسلام، ثم لا يزال ينقص شيئاً فشيئاً إلى آخر الدنيا»^(٢١٨). ومن هنا، فإن الحديث في حالة الشاطبي عن قطيعة ابستمولوجية هو حديث خرافة، أو هو ضرب من أدب الخيال العلمي، ولكن بالمعكوس: فبدلاً من التنبؤ بالمستقبل الغائب بدالة الحاضر الشاهد، فإن الذي كان يعاد هنا بناؤه بدالة الذي سيكون. وليس هذا هو الوجه الوحيد للمفارقة: فمما يزيد بها تفارقاً أن إعادة البناء الجابرية - بواسطة مفهوم القطيعة الابستمولوجية - لماضي العقل العربي الإسلامي بدالة مستقبل العقل الغربي الحديث، أشبه ما تكون بصنيع ذلك المهندس الفرنسي الذي أعاد بناء نموذج مصغرٍ لهمرم سقارة في ساحة متحف اللوفر، ولكن ليس بلبينات من صعيد مصر القديمة، بل بهيكل من الألمنيوم وبألواح من البلور غير القابل للكسر من نتاج التكنولوجيا الأكثر تطوراً في مجال مواد البناء. ولكن ما قد يجوز في السياحة لا يجوز في الابستمولوجيا: فالفضاءات العقلية، مثلها مثل الفضاءات الفلكية، لا تقبل التداخل في ما بينها، وإلا لانفجر مفهوم النظام المعرفي بالذات ولارتد من نظامية الكسموس إلى فوضى الخاص.

ولئن يكن ناقد العقل العربي بنى كل دعواه في «القطيعة الابستمولوجية» على أساس المشاركة المزعومة للشاطبي في «المشروع الأندلسي - المغربي» الرامي إلى «تأسيس البيان على البرهان»، فلنختم هنا باستعادة قولة الشاطبي التي صَدَرنا بها هذا الفصل، والتي تقطع بأن الإشكالية، في الصياغة الجابرية، مقلوبة على رأسها. والشاطبي هو من يفكك بنفسه تلبيس ناقد العقل العربي عليه بسبقه إلى التوكيد أن «البرهان قائم على البيان»^(٢١٩)، وهو من يحدد بنفسه طبيعة النظام المعرفي الذي يمكن أن يُنمى إليه بإضافته القول: «إنه تعالى أنزل القرآن برهانا في نفسه على صحة ما فيه»^(٢٢٠).

(٢١٨) «الاعتصام»، ج ١، ص ٢٥٨.

(٢١٩) «الموافقات»، ج ٣، ص ٥٤.

(٢٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.